روضة العقلاء

ونزهة الفضلاء

تأليف

الإمام الحافظ أبي حاتم محمد بن حبان البستي
المتوفى سنة ٣٥٤ هـ

تحقيق

عادل عبد الموجود   على معوض

الناشر
مكتبة نزار مصطفى الباز

الطبعة الثانية

١٤٢٧هـ - ٢٠٠٦م

جميع الحقوق محفوظة للناشر

مكتبة نزار مصطفى الباز

المملكة العربية السعودية

مكة المكرمة: الشامية - المكتبة ت: ٥٧٤٩٠٢٢، ٥٧٤٥٠٤٤، ٥٧٤٥٠

المستودع: ٥٢١٨٠٢١ ص.ب: ٢٠١٩

الرياض: شارع السويدي العام المتقاطع مع شارع كعب بن زهير - خلف أسواق الراجحي ص.ب: ٦٦٩٣٠

المكتبة: ٤٢٤٠٣٥٢ المستودع: ٢٤٢١٩١١ الرمز البريدي ١١٥٨٦

القاهرة: ٠١٢٢١٠٧٢٥٣

كَلِمَةُ النَّاشِر

« رَجَاءٌ »

غَفَرَ الإِلَهُ ذُنُوبَ هَذَا النَّاشِر
وَذُنُوبَ وَالِدَيْهِ مَعًا فِي النَّاظِر

غَفَرَ اللهُ ذُنُوبَهُ وَسَتَرَ عُيُوبَهُ وَوَالِدَيْهِ وَالمُسْلِمِينَ
أَجْمَعِينَ وَمَنْ دَعَا لَهُ بِخَيْر

راجي عفو ربه

نزار مصطفى الباز

روضة العقلاء

ونزهة الفضلاء

سَنَدُ الكتاب إلى مؤلفه

أخبرنا الشيخُ الإمام الحافظ ، أبو محمد عبد القادر عبد الله الرُّهاوىّ ، أدام الله تأييده، وأجزل من كل خير مَزِيدَه ، فى شهور سنة اثنتين وستّ مِئة .

قال : حدثنا الأمير القاضى الإمام ، عُمدة الدين ، مُعين الإسلام ، ناصر السنة ، أبو عبد الله محمد بن نصر بن الحسين بن محمد بن سعيد بن محمد بن سعيد بن محمد البُوسَنْجىُّ ، من لفظه ببُوسَنْج ، فى شهور سنة اثنتين وستين وخَمسِ مِئة .

قال : أخبرنا الشيخ الإمام العالم الزاهد ، عفيف الدين ، أبو جعفر حَنْبلُ ابن علىّ ابن الحسين البخارىّ الصوفى السِّنْىّ ، رحمه الله .

قال : أخبرنا الشيخ أبو محمد أحمد بن محمد بن أحمد التَّونِىّ ، سنة تسع وسبعين وأربعِ مِئة .

قال : أخبرنا أبو عبد الله أحمد بن محمد بن عبد الله الشرُوطىّ .

قال : أخبرنا أبو حاتم محمد بن حِبّان البُسْتِىُّ ، رضى الله عنه ، قال :

خطبة المؤلف

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمدُ لله المتفرِّد بوحدانية الأُلوهيَة ، المتعزِّز بعظمة الرُّبوبية ، القائم على نفوس العالَم بآجالها ، والعالم بتقلبها وأحوالها ، المانِّ عليهم بتواتر آلائه ، المتفضلِ عليهم بسوابغ نَعْمَائه ، الذى أنشأ الخلق حين أراد ، بلا مُعين ولا مُشير، وخلق البَشَر كما أراد، بلا شبيه ولا نظر ؛ فمضت فيهم بقدرته مشيئتُه ، ونفذت فيهم بعزته إرادتُه ، فألهمهمْ حُسنَ الإِطلاق ، وركَّب فيهم تشعّبَ الأخلاق ، فهم على طبقات أقدارهم يمْشونَ ، وعلَى تشعب أخلاقهم يدُورون ، وفيما قضَى وقدَّر عليهم يَهيمون ، و﴿ كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴾ .

وأشهد أن لا إلهَ إلا اللهُ فاطرُ السموات العُلا ، ومنشىءُ الأَرَضين والثَّرَى ، لا مُعقِّبَ لحكمه ، ولا راد لقضائه ، ﴿ لا يُسْأَلُ عَمَّا يفعلُ وهُمْ يُسألُون ﴾ .

وأشهد أنْ محمداً عبده المُجتَبَى ، ورسوله المرتضى ، بعثه بالنور المُضِىّ ، والأمر المَرْضِىّ ، على حينِ فَتْرة من الرسُل ، ودُروس من السُّبُل ، فدمغ به الطغيان ، وأكمل به الإيمان ، وأظهره على كل الأديان ، وقمَع به أهل الأوثان ؛ فصلَّى الله عليه وسلم ما دار فى السماء فَلَك ، وما سبّح فى الملكوت مَلَك ، وعلى آله أجمعين .

أما بعد ، فإن الزمان قد تبيَّن للعاقل تغيُّرُه ، ولاح للبيب تبدُّله ، حيث يبِسَ ضَرعُهُ بعد الغَزَارة ، وذبَلَ فرعُهُ بعد النَّضَارة ، ونَحل عُوده بعد الرطوبة ، وبَشِعَ مَذَاقُه بعد العذوبة ، فنبغ فيه أقوام يَدَّعُون التمكن من العقل ، باستعمال ضدِّ ما يوجب العقل من شهوات صدورهم ، وترك ما يوجبُه نفْسُ العقل ، بهجَسَات قلوبهم ، جعلوا أساس العقل الذى يَعْقدون عليه (١) عند المُعْضِلات ، النفاقَ والمداهنة ، وفروعَه عند ورود النائبات، حُسنَ اللباس والفصاحة (٢) . وزعموا أن مَن أحكم هذه الأشياء الأربع ، فهو

---

(١) يعتمدون عليه .

(٢) يشير إلى الصفات التى اشتهر بها الزنادقة ، وسموها قواعد الظرف ، ومن أشهرها : جمال الزى ، وفصحة اللسان ، والنزوع إلى حكم العقل وحده فى كل شىء ، واستشعار المداهنة والنفاق ، ليخلصوا من أذى الناس .

العاقل ، الذي يجب الاقتداء به ، ومن تخلّف عن إحكامها فهو الأنوك [(١)] ، الذى يجب الأورارُ عنه [(٢)] .

فلما رأيت الرَّعاع [(٣)] من العالم يغترُّون بأفعالهم ، والهَمجَ [(٤)] من الناس يقتدون بأمثالهم ، دعانى ذلك إلى تصنيف كتاب خفيف ، يشتمل مُتَضَمَّنه على معنًى لطيف ، مما يحتاج إليه العقلاء فى أيامهم ، من معرفة الأحوال فى أوقاتهم ، ليكون كالتذكرة لذوى الحِجَا [(٥)] عند حضرتهم ، وكالمعين لأولى النُّهَى [(٦)] عند غيبتهم ، يفوق العالمُ به أقرانَه ، والحافظ له أترابه ، يكون النديمَ الصادق للعاقل فى الخلوات ، والمؤنسَ الحافظَ له فى الفلَوَات [(٧)] ، إن خَصَّ به من يحب من إخوانه ، لم يفتقده من ديوانه ، وإن استبدَّ به دون أوليائه ، فاق به على نظرائه .

أُبيِّن فيه ما يحسنُ للعاقل استعمالُه ، من الخصال المحمودة ، ويقبُح به إتيانُه ، من الخلال المذمومة ، مع القصد فى لزوم الاختصار ، وترك الإمعان فى الإكثار، ليخفَّ على حامله ، وتَعيَه أذنُ مُستَمِعه ؛ لأن فنون الأخبار ، وأنواع الأشعار ، إذا استقصَى المجتهد فى إطالتها ، فليس يرجو النهاية إلى غايتها ، ومن لم يَرْجُ التمكن من الكمال فى الإكثار ، كان حقيقاً أن يَقنع بالاختصار .

والله الموفق للسَّداد ، والهادى إلى الرشاد ، وإياهُ أسأل إصلاح الأسرار ، وترك المعاقبة عَلَى الأوزار ، إنه جوَاد كريم ، رءوف رَحِيم .

---

(١) الأنوك : صفة من النوك بالضم ، وهو الحمق ، وجمعه النَّوْكَى ويجوز فى الشعر قوم نُوكٌ . اللسان (٦/ ٤٥٨٢) .

(٢) الإزورار عن الشيء : الانحراف عنه أو العدول عنه ، وقرىء قوله تعالي : ﴿ تَزْوَرُّ عن كهفهم﴾ ، وهو مدغم تتزاور . اللسان (٣/ ١٨٨٧) .

(٣) الرَعاع من الناس بفتح الراء : سقاطهم وسفلتهم وأخلاطهم والواحد : رَعَاعَة . اللسان : (٣/ ١٦٧٢) .

(٤) الهمج : الرعاع من الناس ، شبهوا بالهمج ، وهو البعوض ، والجمع : هَمَجَة وهو ذباب صغير كالبعوض يسقط على وجوه الغنم والحُمُر وأعينها ، وقيل : صغار الدواب (٦/ ٤٦٩٦) .

(٥) الحجا : العقل والفطنة والجمع : حجاء ، وهو مقصور . اللسان ٢/٢٠ ٧٩٢) .

(٦) النُّهى : جمع نهية بضم النون ، وهى العقل أيضاً ، وفى التنزيل العزيز : ﴿إن فى ذلك لآيات لأولى النهى ﴾ . اللسان : (٦/ ٤٥٦٥) .

(٧) الفلوات : جمع فلاة ، وهو الصحراء المقفرة من الناس ، والعمارة ، والشجر ، والماء فهى فليت عن كل خير أى فطمت وعُزلت ، وتجمع أيضاً على فَلاً وفُلِيٌّ وفِلِيٌّ على فُعُولٍ كعَصًا وعُصِى . اللسان : (٥/ ٣٤٧٠) .

ذِكْرُ الحثِّ على لزومِ العقلِ، وصِفةِ العاقلِ اللبيبِ

حدَّثنا محمد بن يوسفَ بن مَطَرَ، حدثنا عبد الله بن أحمد بن شَبُّويَهْ، حدثنا أحمد ابن يُونُس، حدثنا فُضَيْل بن عِياض، عن محمد بن ثَوْر، عن مَعْمَر، عن أبي حازم، عن سهل بن سعد، قال: قال النبيُّ ﷺ: « إنَّ الله يُحِبُّ مكَارِمَ الأَخْلاقِ، ويَكْرَهُ سَفْسَافَها »(1).

---

(1) أخرجه الطبراني في الكبير (٥٩٢٨)، وأبو نعيم في « الحلية » (٣/٢٥٥، ٨/١٣٣)، والحاكم في « المستدرك » (١/٤٨)، والخرائطي في « مكارم الأخلاق » ص ٣، وابن عساكر كما في « تهذيب تاريخ دمشق » ٧/ ٩٠، والبيهقي في « السنن »: ١٠/١٩١، وفي « شعب الإيمان »: ٦/ ٢٤٠ - ٢٤١ برقم (٨٠١١)، وفي « الأسماء» ص ٥٣ من طرق عن أحمد بن يونس بهذا الإسناد بلفظ: « إن الله عزَّ وجلَّ يحب الكرم، ويحب معالي الأخلاق، ويكره سفسافها ».

وقال أبو نعيم: غريب من حديث أبي حازم وسهل تفرد به عن أبي حازم معمر، وعن فضيل أحمد بن يونس.

وقال أيضاً: غريب من حديث معمر وأبي حازم، ولا أعلم رواه عن الفضيل إلا أحمد بن يونس.

قلت: أخرجه الحاكم: ١/٤٨، عن حجاج بن سليمان بن القمري، عن أبي غسان المدني، عن أبي حازم به.

وأخرجه البيهقي في « الشعب » (٨٠١٢)، عن إبراهيم بن مهدي بن محمد بن عبيد بن محمد بن ثور، عن معمر به.

وقال الحافظ العراقي في « تخريجه على الإحياء »: ٣/٢٣٩ بعد ما عزاه للطبراني والحاكم والبيهقي في « السنن »: إسناده صحيح، وقال الهيثمي: رجال الطبراني ثقات.

وعبارة الهيثمي في « مجمع الزوائد »: ٨/ ١٩١: رواه الطبراني في « الكبير » و« الأوسط » بنحوه .. ورجال الكبير ثقات. والحديث صححه الحاكم والسيوطي في « الجامع الصغير ».

وأخرجه البخاري في « التاريخ »: ٤/٣٤٧، والحاكم: ١/٤٨ عن سفيان، وأخرجه عبد الرزاق (٢٠٥٠)، وعنه أخرجه البيهقي: ١/١٩١، والبغوي في « شرح السنة بتحقيقنا: ٦/٤٧٨ برقم (٣٣٩٧)، عن معمر كلاهما عن أبي حازم، عن طلحة بن عبد الله بن كريز الخزاعي، عن النبي ﷺ بنحوه.

وقال الحاكم: هذا لا يوهن من حديث سهل بن سعد على ما قدمت ذكره من قبول الزيادات من الثقات، والله أعلم.

وقال البيهقي والبغوي: وهذا مرسل.

=

قال أبو حاتم : لست أحفظ عن النبيّ ﷺ خبراً صحيحاً في العقل ، لأن أبانَ بن عيَّاش ، وسلَمة بن ورْدَانَ ، وعُمير بن عمران ، وعليّ بن زيد ، والحسن بن دينار ، وعبَّاد بن كثير ، وميسرة بن عبد ربه ، وداود بن المحبَّر ، ومنصور بن صقر وذويهم ، ليسوا ممن أحتج بأخبارهم ، فأخرجَ ما عندهم من الأحاديث في العقل (١) .

= وأخرجه الخرائطي عن الحجاج بن أرطاة ، عن سليمان بن سحيم ، عن طلحة بن كريز مرسلاً .

ويشهد لحديث سهل حديث الحسين بن على أخرجه الطبراني في « الكبير » : ٣/ ١٤٢ برقم (٢٨٩٤) ، وابن عدى في « الكامل » : ٣/ ٨٧٩ ، والقضاعي في « مسند الشهاب » (١٠٧٦) ، عن خالد بن إلياس ، عن محمد بن عبد الله بن عمرو بن عثمان ، عن فاطمة بنت الحسين عن حسين بن علي ، قال : قال رسول الله ﷺ : إن الله يحب معالي الأمور وأشرافها ، ويكره سفاسفها .

وقال الهيثمي في « المجمع » : ٨/ ١٩١ : رواه الطبراني ، وفيه خالد بن إلياس ضعفه أحمد ، وابن معين ، والبخاري ، والنسائي ، وبقية رجاله ثقات . ورمز له السيوطي بعلامة التحسين ، كما يشهد له حديث ابن عباس رواه أبو نعيم في « الحلية » : ٥/ ٢٩ ، عن نوح بن ميمون المضروب ، ثنا أبو عصمة نوح بن أبي مريم ، عن الحجاج بن أرطاة ، عن طلحة بن مصرف ، عن كريب ، عن ابن عباس رفعه : « إن الله عز وجل جواد يحب الجود ، ويحب معالي الأخلاق ، ويبغض سفاسفها » .

قال أبو نعيم : غريب من حديث طلحة وكريب ، تفرد به نوح ، عن أبي عصمة .

ويشهد أيضاً حديث جابر رواه الطبراني في « الأوسط » ، كما في « المجمع » ، وقال الهيثمي : فيه من لم أعرفه .

ويشهد له أيضاً حديث سعد بن أبي وقاص رواه ابن عساكر وابن النجار والضياء كما في « الجامع الكبير » (٤٩٤٥) .

وقال المناوي في « فيض القدير » : ٢/ ٢٥١ : قال في « الصحاح » : السفساف : الرديء من الشيء كله والأمر الحقير . وقال الزمخشري : تقول العرب : شعر سفساف ، وكل عمل لم يحكمه عامله فقد سفسفه ، وكل رجل مسفسف : لئيم العطية .

ومن المجاز قولهم : تحفظ من العمل السفساف ، ولا تسف له بعض الإسفاف .

وسام حسيمات الأمور ، ولا تكن مسفاً إلى ما رق منهم دانياً أ . هـ

وأصل السَّفْساف : التراب الحصابي . والمراد هنا الحقير من الأمور ، وقد روى صاحب اللسان الحديث بلفظ آخر : « إن الله - تبارك وتعالى يحب معالي الأمور ، ويبغض سفسافها » أراد مداق الأمور وملائمها (من اللؤم) ، شبهت بما دق من سفساف التراب .

قال وفي حديث آخر : « إن الله رضى لكم مكارم الأخلاق وكره لكم سفسافها » السفساف : الزمر الحقير ، والرديء من كل شيء ، وهو ضد المعالي والمكارم ، وأصله : ما يطير من غبار الدقيق إذا نخل والتراب إذا أُثير وكل عمل دون الإحكام سَفْسَافٌ . اللسان » (٣/ ٢٠٣٠) .

(١) المذكورون في هذه الفقرة جماعة من الرواة الضعفاء ، ترك أئمة الحديث أحاديثهم ومصنف هذا الكتاب من كبار الحفاظ وأئمة النقاد للرجال ، فهو أعلم برجال فنه ، واسمع ما يقوله بعض النقاد في داود بن المحبر من هؤلاء الرواة ، يتبين لك صدق نظر المؤلف فيهم ، قال الخزرجي في الخلاصة : =

وإن محبة المرء المكارمَ من الأخلاق ، وكراهته سَفسَافَها ، هو نفس العقل .

فالعقل به يكون الحظُّ ، ويُؤْنس الغُربة ، وينْفِى الفاقة ، ولا مال أفضلُ منه ، ولا يتمُّ دينٌ أحد حتى يتمَّ عقله .

والعقل : اسم يقع على المعرفة بسلوك الصواب ، والعلم باجتناب الخطأ ، فإذا كان المرء فى أول درجته يسمَّى أديباً ثم أريباً ، ثم لبيباً ، ثم عاقلاً . كما أن الرجل إذا دخل فى أول حَدّ الدهاء قيل له : شيطان ، فإذا عَتَا فى الطغيان قيل: ماردٌ ، فإذا زاد عَلَى ذلك ، قيل : عَبْقَرِىّ ، فإذا جمع إلى خُبثه شدَّةَ شرّ قيل : عِفريت . وكذلك الجاهل ، يقال له فى أول درجته : المائق ، ثم الرَّقيع ، ثم الأنْوك ، ثم الأحمق .

وأفضلُ مواهب الله لعباده العقلُ ؛ ولقد أحسن الذى يقول : [الطويل]

وَأَفْضَلُ قَسْمِ اللهِ لِلمَرْءِ عَقْــلُهُ ... فَلَيْسَ مِنَ الخَـيْرَاتِ شَىءٌ يُقَارِبُهْ (١)

إِذَا أَكْمَلَ الرَّحْمَنُ لِلمَرْءِ عَقْـلَهُ ... فَقَــدْ كَمُـلَتْ أَخْلاَقُــهُ وَمَآرِبُــهْ (٢)

يَعِيشُ الفَتَى فِى النَّاسِ بِالعَقْلِ ، إِنَّهُ ... عَلَى العَقْلِ يَجْرِى عِلْمُهُ وَتَجَارِبُهْ (٣)

يَزِيدُ الفَتَى فِى النَّاسِ جَوْدَةُ عَقْلِهِ ... وَإِنْ كَانَ مَحْظُوراً عَلَيْهِ مَكَاسِبُهْ (٤) (٥)

= « داود بن المحبر ، بمهملة ثم موحدة ، كمعظم ، ابن قحذم بن سليمان .. الطائى ، أبو سلمان البصرى ، مصنف كتاب العقل .. قال الدارقطنى : متروك . قال الذهبى : حديثه فى فضل قزوين موضوع . قال البخارى : مات سنة ست ومائتين » ينظر « تهذيب التهذيب » : ١٩٩/٣ ، « تاريخ البخارى » : ٢٤٤/٣ ، و« الصغير » : ٢٩١/٢ ، « الميزان » : ٢٠/٢ ، « اللسان » : ٢١٣/٧ ، «الكاشف » : ٢٩١/١ .

(١) فى البيت إلماع إلى أفضل النعم ، وأوفى المنن ، والتى لا يزنها من الخيرات شىء ، وهى نعمة العقل .

(٢) والمعنى : أن المرء إذا ما أكمل الرحمن له عقله بهدايته .. فقد تم له آنئذ خير الدنيا بقضاء حاجاته ، وخير الآخرة ، بكمال أخلاقه ، وعبادَاته . إذ العقلُ نبعُ الخَيْرَين .

(٣) والمعنى : أنَّ معقدَ سَعادَة المرء فى معيشته بَين النَّاس هو العقل .. فبه يُعَاشرُهُم ، ويعاملهم، وبه كذلك يتعلَّمُ ، وينتفع منَ التَّجَارِبِ والعبر ، وفى البيت إيمَاء إلى أنّ بالعقل تكُونُ الحياة ، وبعدمه يُعَدُّ الحىُّ من الأموات .

(٤) والمراد بجودة العقلِ هنا : كماله وتمامه ، وتجويده يكُونُ بالعلم الصَّحِيح ، والاعتبار والمراسِ، وذلك يكونُ فى العَقلِ المَسْمُوعِ .

و« المعنى » : أنّ كَمَالَ العقل ، وتمامه يُغليَانِ قَدْرَ المَرْءِ بَيْنَ النَّاسِ ، وَإِنْ كَانَ وَضِيعَ الحال ، خَلقَ السِّرْبَال ، غَير ذى مَال .

فليست جَوْدَةُ العَقلِ جَالِبَةً لِرزْقٍ كَمَا يَقُولُ أَبُو الطَّيِّب : =

أخبرنا محمد بن سليمان بن فارس ، حدثنا أحمد بن سيار ، حدثنا حبيب الجلاب ، قال : قيل لابن المبارك : « ما خير ما أُعْطِىَ الرجل ؟ قال : غريزة عقل ، قيل : فإن لم يكن ؟ قال : أدب حَسَن ، قيل : فإن لم يكن ؟ قال : أخ صالح يستشيرهُ (١) ، قيل: فإن لم يكن ؟ قال : صَمْت طويل ، قيل : فإن لم يكن ؟ قال : موت عاجل » .

أخبرنا محمد بن داود الرّازىّ ، حدثنا محمد بن حُمَيْد ، حدثنا ابن المبارك ، قال : «سئل عَقيل : ما أفضل ما أُعطى العبد ؟ قال : غريزة عقل ، قال : فإن لم يكن ؟ قال: فأدب حسن ، قال : فإن لم يكن ؟ قال : فأخ شفيق يستشيرهُ ، قال : فإن لم يكن ؟ قال : فطولُ صمت ، قال : فإن لم يكن ؟ قال : فموت عاجل » .

قال أبو حاتم : العقل نوعان : مطبوعٌ ومسموع (٢) ، فالمطبوع منهما كالأرض ، والمسموع كالبذْر والماء ، ولا سبيل للعقل المسموع أن يخلُص له عمل محصول ، دون أن يَرِدَ عليه العقل المسموع ، فينبهَه من رَقْدَته ، ويطلقَه من مكامنه ، كما يَستخرج البَذْرُ والماء ما فى قعور الأرض من كثرة الرَّيْع .

فالعقل الطبيعىّ من باطن الإنسان بموضع عروق الشجرة من الأرض ، والعقل المسموع من ظاهره ، كتدلِّى ثمرة الشجرة من فروعها .

أنشدنى محمد بن إسحاق بن حبيب الواسطىّ : [الهزج]

رأَيْتُ العَقْلَ نَوْعَيْنِ فَمَطْبُوعٌ وَمَسْـــمُوعُ
وَلا يَنْـفَعُ مَسْـمُوعٌ إِذَا لَمْ يَكُ مَطْبُوعُ (٣)

= وَمَا الجَمْعُ بَيْنَ المَاء والنَّار في يَدى بِأَصْعَبَ مِنْ أَنْ أَجْمَعَ الجدّ والْفَهْمَا

بل ويشار هنا إلى من أصَابَتْهُم حِرْفَةُ الأَدَبِ جَميعاً كَأَبِى حَيَّان التَّوحيدِ وأَبِى هلالِ العسكرى ، وغيرهم مِمَّن كانو أَفْرَاداً فى الذّكَاءِ ، وليسوا ذوى خطر من الجَدِّ .

ومثله : قول ابن المبارك - رحمه الله تعالى - :

لو كان باللُّبِّ يزدادُ اللبيب غنًى لَكَانَ كُلُّ لَبِيبِ مثْل قَارُونِ

(٥) نسب أبو الحسن الماوردى فى أدب الدنيا والدين هذه الأبياتَ إلَي إبراهيم بن حسان ، وأوردها باختلاف عن ترتيب المؤلف هنا .. وقد أعاد المؤلف البيت الأخير ، ونسبه لعبد الله بن عكراش ، وسيأتى قريباً .

(١) فى أدب الدنيا والدين لأبى الحسن الماوردى ص ٩ .

قال : فإخوان يسترون عيبه ، وهو من حديث جرى بين كسرى أنو شروان ، ووزيره بزرجمهر .

(٢) تقسيم العقل إلى مسموع ومطبوع : من كلام سابور بن أردشير (أدب الدنيا والدين ص ٩) .

(٣) هذه الأبيات نظمٌ لحقيقة علمية : وهى كَوْنُ العقل عقلان مطبوعٌ وبه خلق المرء ، وهو الخلايا =

كَمَا لا تَنْفَعُ الشَّمْسُ   وَضَوْءُ العَيْنِ مَمْنُوعُ (١)

أخبرنا القطَّان بالرَّقة ، حدثنا موسى بن مَرْوان ، حدثنا بَقِيَّة ، عن عبد الله بن حسان ، حدثنى ابن عامر ، قال : قلت لعطاء بن أبى رَبَاح : « يا أبا محمد ، ما أفضلُ ما أُعطِى العبد ؟ قال : العقل عن الله » .

أنشدنى أحمد بن محمد بن عبد الله الصَّنْعَانىّ ، لعبد الله بن عِكْرَاش : [الطويل]

يَزِينُ الفَتَى فِى النَّاسِ صِحَّةُ عَقْلِهِ   وَإِنْ كَانَ مَحْظُـوراً عَلَيْهِ مَكَاسِبُهُ (٢)

يَشِـينُ الفَتَى فِى النَّاسِ خِفَّةُ عَقْلِهِ   وَإِنْ كَرُمَـتْ أَعْرَاقُـهُ وَمَنَاسِـبُهُ (٣)

قال أبو حاتم : فالواجب على العاقل أن يكون بما أحيا عقله من الحِكمة ، أكلف (٤) منه بما أحيا جسده من القوت ، لأن قوت الأجساد المطاعم ، وقوت العقل الحِكَمَ ، فكما أن الأجساد تموت عند فقد الطعام والشراب ، كذلك العقول : إذا فقدت قُوتَها من الحكمة ماتت .

= العقلية ، والجينات الوراثية الموروثة عن الأبوين ، وهذا يفطرُ عليه كلُّ النَّاسِ بتفاوتٍ في النِّسبة كُلٌّ بحسبه .

وعقل مسموع : وهو التَّجَارِبُ والعِبَرُ والإرْشَادَاتُ الَّتى يتمرَّسُ بها المرء وينتفعُ بها فى حَيَاتِهِ ، وَمَا يلاقيه من شُكَلٍ وخُطُوبٍ ، إِذْ يقيسُ عليها ويستنُّ بها ، وهذا ما يطلق عليه علماء النَّفس الذَّكَاءَ الصِّنَاعِىّ أما العقلُ المطبوعُ فهو الذَّكَاءُ الوراثىّ .

وقد اختلفوا هل الذكاء وراثى أم مكتسب ؟ !

فذهب علماءُ النَّفس إلى كونه مكتسباً ، وذهب علماءُ الطبّ إلى أنه وراثى ، والحقائق العلمية تفيد أنه رهنٌ بينهما ، وإن كَانَ الأَصْلُ الوراثةُ .

(١) ضَوْءُ العَيْنِ مَمْنُوعُ : أى محجوب ، ومنع الشَّىء أى : حَجْبُهُ وستره ولهذا المعنى يَشْهَدُ السِّيَاق .

والبيت الثالث : برهان ودليل على أَنَّهُ لا خير فى الفَرْعِ ، وهو العقلُ المسموعُ إن اهتزَّ وضعف الأصْلُ ، وهو العقل المطبوعُ (الذى فطرنا الله عليه) إِذ على الأَسَاسِ قَوَاعِدُ البنيان ، وآية ذلك أنه لا تغنى الشّمس وهى في ضحاها عن أعْمَى البصر شيئاً .

(٢) قد سَبَقَ نفس البيتُ بخلاف لفظه « الصّحة » ، فثمَّ الجودةُ وراجع رقم (٤)

يَزِينُ الفَتَى فِى النَّاسِ جودةُ عقله   وإِنْ كَانَ مَحْظُوراً عليه مكَاسِبُهُ

والمعنى : أن تمام العقل يَزِين صاحبه ، ويستر ثوب الفقر وسربال المسكنة .

(٣) يَشِينُ : ضدُّ يزين . الأَعْرَاقُ : جمع العِرْق ، وهو أَصْلُ كُلِّ شَىْءٍ .

هذا البيت مقابل للبيت الأول ومناصر لمعناه ، فلا يرفع شين خفة العقل كرم أحساب ولا شرف أنساب .

(٤) اشد شغفاً وحباً .

والتقلُّب فى الأمصار ، والاعتبار بخلق الله ، مما يزيد المرء عقلا ، وإن عدم المالَ فى تقلبه .

أنشدنى عبد الرحمن بن محمد المقاتلىّ : [الرمل]

إنَّ ذَا العَقْلِ يَرَى غَمًا لَـهُ عَدَمَ المَالِ ، إِذَا مَا العَقْلُ صَحّ (١)
مَا عَلَى المَرْءِ بِعُدْمٍ سُبَّةٌ إِنْ وَفَى العَقْلُ، وإِنْ دِينٌ صَلَحْ (٢)

أخبرنا محمد بن المسيّب ، حدثنا أحمد بن إسماعيل المدنىّ ، قال : سمعت حاتم بن إسماعيل يقول : « ما استودَعَ الله عقلاً عَبْداً ، إلا استنقذه به يوماً ما».

قال أبو حاتم : العقلُ دواء القلوب ، ومَطية المجتهدين ، وبَذْر حِراثة الآخرة، وتاج المؤمن فى الدنيا ، وعُدّته فى وقوع النوائب . ومَن عَدِمَ العقل لم يزده السُّلْطان عزاً ، ولا المال يرفعه قَدراً ، ولا عَقْلَ لمن أغفله عن أُخراه ، ما يجد من لذة دنياه ، فكما أن أشدّ الزَّمانة الجهل ، ذلك أشد الفاقة عَدَم العقل .

والعقل والهوى متعاديان ؛ فالواجب على المرء أن يكون لرأيه مُسْعِفا (٣) ، ولهواه مسوِّفا (٤) ، فإذا اشتبه عليه أمران اجتنب أقربهما من هواه ؛ لأن فى مجانبته الهوى إصلاحَ السرائر ، وبالعقل تصلح الضمائر .

أخبرنا عمرو بن محمد الأنصارىّ ، ثنا . . . . . . ثنا (٥) محمد بن عبيد الله الجُشَمِىّ، حدثنا المدائنىّ ، قال : قال معاوية بن أبى سفيان لرجل من الرب عُمِّر دهرًا :

---

(١) الغُنْمُ : « بالضَّمِّ » : الفىء غَنِمَ بالكسر ، غنْماً بالضَّمِّ ، والفوزُ بالشَّىء بلا مَشَقَّة .
تحريم المعنى : أنَّ العاقلَ المتبصّر لا يرى فَضْلاً يَزِنُ فضيلة العَقْلِ ، وإن كان مُعْدَماً من المالِ ، وغيره فَحَسْبُهُ صحّةُ عقله ، والغنى به .

(٢) العُدْمُ : بالضَّم : بضمتين وَبالتَّحريك : الفقدانُ ، غَلَبَ على فقدان المَالِ عُدْماً بالضَّمّ ، وبالتحريك .
وهذا البيت مناصرٌ للبيت الأوّلِ وعضدٌ له ، إذ ما على المَرْءِ من مذمَّةٍ ومهانة لعدم المال إذ إِنَّهُ دول بين النَّاسِ .
بينما العاقل اللَّبيب يَهِمُّ وَيَأْسَفُ إن عدم العقل والدين أمَّا إذا أصابهما فقد بلغ الغَايَةَ وجاز كَمَالَ النِّهَايَةِ .

(٣) مسعفاً : معينا مسرعاً فى إنقاذه ما يشيرُ به .

(٤) مسوفاً : مؤخراً ، يتريث فى إنقاذ ما يهوى ، وهذا الكلام مستمد من كلام ابن المقفع فى الأدبين الصغير والكبير .

(٥) فى ط : سقط من الطبعة الأولى اسم الراوى .

« أخبرنى بأحسن شىء رأيته ، قال : عقل طُلِب به مروءة ، مع تقوى الله ، وطلب الآخرة » .

وأنشدنى عبد العزيز بن سليمان الأبرش : [الطويل]

إِذَا تَمَّ عَقْلُ المَرْءِ تَمَّتْ أُمُورُهُ وتَمَّتْ أَيَــادِيهِ ، وتَــمَّ بِنَاؤُهُ (١)

فَإِنْ لَمْ يَكُنْ عَقْلٌ تَبَيَّنَ نَقْصُهُ وَلَوْ كَانَ ذَا مَالٍ كَثِيرًا عَطَاؤُهُ (٢)

أخبرنا الحسن بن سُفيان : حدثنا أبو كامل الجَحْدَرِىّ ، حدثنا عمران بن خالد الخُزَاعِىّ ، قال : سمعت الحسن يقول : « ما تم دينُ عبد قط حتى يتمَّ عقله » .

قال أبو حاتم : أفضل ذوى العقول منزلة ، أدومهم لنفسه محاسبة ، وأقلهم عنها فَتْرة .

فبالعقل تَعْمُر القلوب ، كما أن بالعلم تستخرج الأحلام ، وعمود السعادة العقل ، ورأس العقل الاختيار ، ولو صُوِّر العقل صورة ، لأظلمت معه الشمس لنوره ، فقرب العاقل مَرْجُو خيرُه على كل حال ، كما أن قُرب الجاهل مَخُوفٌ شَرُّهُ عَلَى كل حال .

ولا يجب للعاقل أن يغتمّ ؛ لأن الغمّ لا ينفع ، وكثرته تُزْرِى (٣) بالعقل ، ولا أن يَحْزَن ؛ لأن الحزن لا يردُّ المَرْزِئَةَ (٤) ، ودوامه ينقُص العقل .

والعاقل يحسِم الداء قبل أن يُبْتَلَى به ، ويَدْفع الأمر قبل أن يقع فيه ، فإذا وقع فيه رضِى وصبَر . والعاقل لا يُخيف أحدًا أبدًا ما استطاع ، ولا يقيم عَلَى خوف وهو يجد منه مَذْهَبًا ، وإذا خاف عَلَى نفسه الهَوان ، طابت نفسه عما يملك من الطارف والتالد ،(٥) مع لزوم العَفَاف ، إذ هو قُطب شُعَب العقل .

---

(١) الأيَادى : جمع يَدٍ ، وهى هنا بمعنى النِّعمَةِ ، والفضل ولَيْسَتِ الجَارِحَةَ المتبادرة إلى الذِّهْنِ ، والسِّيَاق يَشْهَدُ بهذا .

وتحرير المعنى : أن تمام الأمور بتمام العقل ، وتمام العقل يثمر حسن الحال فى المال والعيال وكثرة الإنعام وعموم الخير .

(٢) وتحرير المعنى هنا : أن نقصان العقل يقعد بصاحبه ، فلا يرفعه مال ، ولا يجبر نقصه كثرة عطاء .

(٣) تزرى به : تعيبه أزرى به بالألف إزراءً ! قَصَّرَ به وحقره وهونه والإزراء التهاون بالشىء . اللسان (٣/ ١٨٣٠) .

(٤) المرزئة : الذى يفوت من يدك بالحوادث ، من نفس أو مال وهى المصيبة والجمع أرزاء ورزايا رزأته رزيئة أى أصابته مصيبة . اللسان (٣/ ١٦٣٤) .

(٥) الطارف : المستحدث من مال ، أو جاه ونحوه ، والتالد الموروث من ذلك وهو أيضاً الطريف والاسم الطُّرفة وهو الطَّرْفُ أيضاً . =

أنشدنى المنتصر بن بلال بن المنتصر الأنصارىّ : [الكامل]

أوَ لَسْتَ تأْمُرُ بالعفَافِ وبالتُّقَى   وإليْكَ آلَ الأمْرُ حِينَ يئُولُ ؟
فإنِ استَطَعْتَ فخُذْ بِعقْلكَ فَضْلَهُ   إنَّ العُقُولَ يُرى لَهَا تَفْضِيلُ (١)

أخبرنا الحسين بن إسحاق الأصْبهانىّ بالكَرَج ، حدثنا محمد بن علَى الطاحىّ ، حدثنا عمرو بن عثمان الخزاز الحَرَّانى ، حدثنا مُفضَّل بن صالح ، قال : قال علىّ : «لما أهبط الله آدم من الجنة ، أتاه جبريل ، فقال : إنى أُمِرت أن أُخيِّرك فى ثلاث ، فاختر واحدة ، ودع اثنتين ، فقال آدم : وما الثلاث ؟ قال : الحياء ، والدين ، والعقل . فقال آدم : فإنى قد اخترت العقل . قال : فقال جبريل للحياء والدين : انصرفا ودَعَاه ، فقالا: إنا أمرنا أن نكون مع العقل حيث كان . ثم عَرَج جبريل وقال : شأنكم » .

قال أبو حاتم : من حَسُنَ عقله وقَبُح وجهُه ، فقد أفقد فضائلَ نفسه قبائحُ وجهه ؛ ومن حَسُنَ وجهه وقلَّ عقله ، فقد أذهب محاسنَ وجهه نقائصُ نفسه ، فلا يجب للعاقل أن يغتمَّ إذا كان مُعْدما (٢) ، لأن العاقل قد يُرْجَى له الغنى ، [ولا] يُوثَق للجاهل المكثر ببقاء ماله ، ومال العاقل عقله ، وما قدَّم من صالح عمله ..

وآفة العقل الصَّلَف (٣) ، والبلاء المرْدِى (٤) ، والرخاء المُفْرِط (٥) ، لأن البلايا إذا

= ويجوز جمعه على طِرَاف كظراف جمع ظريف أو صِحَاب جمع صاحب . اللسان (٤/٢٥٦٧) .

(١) المعنى : هو هنا يخاطب العاقلَ فيقول له أنت آمرٌ بالعفَاف والورع وبتقوى الله ، وإلى هذا السَّعى يرغب العقلُ ويقربُ إذاَ العفَافُ والورع علامة العاقل وامتياز عن غيره بل العقلُ هو العفَافُ والتقى . كما قال الشّاعر (الإليرى) أبو إسحاق .

إذا ما لم يُفِدْكَ العلمُ خيراً   فخيرٌ منه أن لو قد جهلتا
وإنْ ألقاكَ فهمك فى مهاوٍ   فليتك ثُمَّ ليتك ما فَهِمْتَا
فتقوى الله رأسُ الأمر حقاً   وليس بأنْ يُقَالَ لقدر رَئِسْتا

راجع ديوانه ، تحقيق د . رضوان الداية - طبعة

(٢) مُعْدماً : لا مال له وجمعه معدمُون ، ونظيره أخْضَرَ الرجل إخْضَاراً وخُضْراً ، وأيسر إيساراً ويسراً .. ومنه العديم : الفقير الذى لا مال له وجمعه عدماء . اللسان (٤/٨٤٢) .

(٣) الصَّلَفُ : الكبر ، وهو مجاوزة القدر فى الظرف والبراعة والادعاء فوق ذلك تكبراً . اللسان (٤/٢٤٨٣) .

(٤) المردى : المهلك من ردِىَ بالكسر يَرْدَى ردًى : هلك والمرْدِى الهالك . وأراده الله : أى أهلكه اللسان (٣/ ١٦٣٠) .

(٥) المُفرِطُ : المجاوز للحد من الإفراط وهو الإعجال والإسراف وقيل المندم ومنه يفرُط فى قوله تعالى ﴿ إنا نخاف أن يفرط علينا ﴾ . اللسان (٥/ ٣٣٩١) .

تواترت [١] عليه أهلكت عقله ، والرخاء إذا تواتر عليه أبطرَه [٢] ، والعدو العاقل خير للمرء من الصديق الجاهل . أنشدنى عليُّ بن محمد البَسّامىّ [٣] : [المتقارب]

عَـــدُوُّكَ ذُو العَقْلِ ابى عَلَيْكَ مِـنَ الجَاهِلِ الوَامِقِ [٤] الأَحْمَقِ [٥]

وَذُو العَقْلِ يَأْتِى جَمِيلَ الأمُورِ وَيَقْصِـــدُ للأَرْشَدِ الأرْفَـــقِ [٦]

أخبرنا محمد بن الحسين بن قُتيبة بعَسْقلان ، حدثنا ابن أبى السرِىّ ، حدثنا داود بن الجَرَّاح ، وضَمْرة بن ربيعة ، عن خُلَيد بن دَعْلَج ، قال : سمعت معاوية بن قُرَّة يقول : « إن القوم لَيَحُجُّونَ ويَعتمرون ، ويجاهدون ويُصَلُّون ويصومون ، وما يُعْطَوْنَ يوم القيامة إلا على قدر عقولهم » .

سمعت محمد بن محمد عدىّ النَّسائىّ يقول : سمعت على بن خَشْرم يقول : سمعت حفْص بن حُمَيد الأكَّاف يقول : « العاقل لا يُغْبَن ، والورَع لا يَغْبِن » [٧] .

قال أبو حاتم : هذه لفظة جامعة ، تشتمل عَلَى معان شَتَّى ، فكما لا ينفع الاجتهاد بغير توفيق ، ولا الجمالُ بغَير حلاوة ، ولا السُّرورُ بغير أمن ، كذلك لا ينفع العقل

---

(١) تواترت : تتابع بعضها فى إثر بعض من التَّواتُر بتتابع الأشياء وبينها فجوات وفترات فإذا تتابعت فليست متواترة بل مُتداركة ومتتابعة . اللسان (٦/٤٧٥٨) .

(٢) أبطره : أفسد خلقه فاغتر .

(٣) شاعر بغدادى كان فى زمن المقتدر العباسى ، روى عنه محمد بن يحيي الصولى مات سنة ٣٠٢ .

(٤) الوامق : المحب من وَمَقَ يَمقُ مِقَةً ووَمْقاً وفرق بين الوامق والعاشق فالوماق محبة لغير ريبة ، والعشق محبة لريبة . اللسان (٦/٤٩٢٧) .

(٥) هنا يهيبُ الشّاعرُ بالعاقل ألا يصاحب إلا العاقل الفطن إجلالاً لعقله ، وفطنة ويهيب به أنْ يعازل الأَحْمَقَ الغُفْلَ ، وإن كان صاحبه وتربه .

فصحبة الغر العقل أضر عليك من عداوة العاقل الأديب إذ الأول يرديك ويحطك معه إلى غفلته ، بينما العدو الذكى ينبهك على مواضع ذلك فتتقيها . . وتبذل جهدك ألا يكيد لك فتبقى حذراً فطناً .

وكما قال الشاعر :

لا تَصْحَبَنَّ الأحمق والمائق الشمقمق

(٦) وهنا يذكر فضل العاقل بأنه ما يملبه عليه عقله من جميل الأمور ، ويجنح إلى الرشد والرفق، والصَّواب فِى كُلِّ حال .

(٧) الغبن : نقص الحق غشاً وخيانة ، يريد أن العاقل أبعد من أن يغبن لجودة عقله . والورع أتقى من أن يغبن الناس ، لصحة دينه . وقيل الغَبْنُ بالتسكين فى البيع والغَبَنُ بالتحريك فى الرأى وقيل : الغَبْن : النسيان والإضاعة . اللسان (٣٢١١) ، وقيل : هو ضعف الرأى .

بغير ورَع ، ولا الحفظ بغير عمل . وكما أن السرور تبع للأمن ، والقرابة تبع للمودة ، كذلك المروءات كلها تبع للعقل .

وعقول كل قوم على قدر زمانهم ، فالعاقل يختار من العمر أحسنه وإن قلّ ، فإنه خير من الحياة النَّكِدَة (١) ، وإن طالت ؛ والعقلُ المُوعَى (٢) غير المنتفع به ، كالأرض الطيبة الخراب .

والعاقل لا يبتدئ الكلام إلا أن يُسأل ، ولا يُكثر التمارىَ (٣) إلا عند القَبول ، ولا يسرع الجواب إلا عند التثبت .

والعاقل لا يستحقر أحداً ، لأن من استحقر السلطان أفسد دنياه ، ومن استحقر الأتقياء أهلك دينه ، ومن استحقر الإخوان أفنى مروءته ، ومن استحقر العامّ (٤) أذهب صِيانته .

والعاقل لا يخفى عليه عيب نفسه ، لأن من خَفِىَ عليه عيبُ نفسه ، خَفِيَتْ عليه محاسن غيره ، وإن من أشد العقوبة للمرء ، أن يخفى عليه عيبه ، لأنه ليس بمُقلِع عن عيبه مَنْ لم يعرفه ، وليس بنائلٍ محاسنَ الناس من لم يعرفها ، وما أنفعَ التجاربَ للمبتدئ !

أنشدنى المنتصر بن بلال بن المنتصر الأنصارىّ : [الطويل]

أَلَمْ تَرَ أَنَّ العَقْـــلَ زَيْنٌ لأَهْـــلِهِ وَأَنَّ كَمَالَ العَقْلِ طُولُ التَّجَارِبِ (٥)

---

(١) الحياة النكدة : المكدرة المشوبة بالهموم والأحزان وقيل : النَّكَدُ : الشُّؤْمُ واللوم نَكِدَ نكداً فهو نَكِدٌ ونكَدٌ وأَنْكَدُ وكل شىء جر على صاحبه شراً . اللسان (٤٥٣٨/٦) .

(٢) الموعى : الموعى فى الإنسان من أوعى الشىء فى الوعاء يوعيه إيعاءً بالألف فهو مُوعًى ويقال: أوعيت ، المراد : إذ جعلته فى الوِعاءِ . اللسان (٤٨٧٧/٦) .

(٣) التمارى : التخاصم والجدال فى الأمور من ماريت الرجل أماريه مراءً إذا جادلته ، والامتراء فى الشىء : الشك فيه ، وكذلك التمارى ، والمراء والمماراة ، والجدل والمراء ويقول تعالى : ﴿ فلا تمار فيهم إلا مراءً ظاهراً ﴾ .

(٤) يريد العامة ، وهم خلاف الخاصة من الناس .

(٥) « أَلَمْ تَرَ » : أسلوبٌ استفهامى قصده التقرير لا حَقِيقَةَ معناه ، وفى طياته إثبات ، وتأكيد للحقيقة المَسُوقَة هنا .

فيقول : اعلم أنّ كمال المرء وزينته هو عقله ، وكمال وزينة العقل هو الاعْتبار ، والاسترشاد من حوادث الدّهر وتجارب الغير .

وَقَدْ وَعَظَ الْمَاضِى مِنَ الدَّهْرِ ذَا النُّهَى   وَيَزْدَادُ فِى أَيَّامِهِ بِالتَّجَـــارِبِ (١)

أخبرنا الحسن بن سفيان ، حدثنا عثمان بن أبى شَيْبة ، حدثنا جرير ، عن الحكمَ بن عبد الله ، قال : « كانت العرب تقول : العقل : التجارب ، والحزم سوء الظنّ » .

قال أبو حاتم : لا يكون المرء بالمصيب فى الأشياء ، حتى تكون له خبرة بالتجارب . والعاقل يكون حَسَنَ المأخذ فى صغره ، صحيح الاعتبار فى صباه ، حسن العفَّة عند إدراكه ، رضىّ الشمائل فى شبابه ، ذا الرأى والحزم فى كُهولته (٢) ، يضع نفسه دون غايته برَتْوة (٣) ، ثم يجعل لنفسه غاية يقف عندها ، لأن من جاوز الغاية فى كل شىء صار إلى النقص .

ولا ينفع العقلُ إلا بالاستعمال ، كما لا تنفع الأعوان إلا عند الفرصة ، ولا ينفع الرأى إلا بالانتحال (٤) ، كما لا تتم الفرصة إلا بحضور الأعوان .

ومن لم يكن عقله أغلب خصال الخير عليه ، أخاف أن يكون حَتْفُه (٥) فى أقرب الأشياء إليه .

ورأس العقل : المعرفة بما يمكن كونُه قبل أن يكون (٦) .

والواجب على العاقل أن يجتنب أشياء ثلاثة ، فإنها أسرع فى إفساد العقل من النار فى يَبِيس العَوْسَج (٧) : الاستغراقَ فى الضحك ، وكثرةَ التمنِّى ، وسوءَ التثبُّت ؛ لأن

---

(١) ويذكر في هذا البَيْت « سنن الله التى ركبها فى الخلق » ، وهى أنَّ الفطن الرَّشيد يتعظ ، ويعتبر بالماضى من الأيَّام ، ويَسترشد بهذا فى قابل أيامه ، وكذلك يَزْدَادُ نوراً على نورٍ بما يمارسه هو من تجاربه وعلائقه مع الخَلْقِ ، وهذه هى غَايَةُ كمال العقل المسموع .

(٢) الكهولة : مرحلة من السن ، بين اكتمال الشباب وبدء من الكهل وهو الرجل الذى جاوز الثلاثين ووخطه الشيب وقيل : من زاد على ثلاثين سنة إلى أربعين ، وقيل : من ثلاث وثلاثين إلى تمام الخمسين . اللسان (٥/٣٩٤٧) .

الشيخوخة : بين الثلاثين والستين تقريباً .

(٣) الرَّتوَة ، بالتاء المثناه : الخُطْوة . رتوت ارتو رتواً : خطوت . اللسان (٣/١٥٧٩)

وقيل : هى الدرجة ، وقيل : رمية سهم ، وقيل : مدى البصر ، وقيل : الدعوة ، وقيل : الزيادة فى الشرف .

(٤) الانتخال : تقليب الأمور على وجوهها المختلفة ، والموازنة بينهما ، واختيار أحسنها .

(٥) حتْفه : هلاكه من الحتف : الموت وجمعه حتوف ولا يبنى منه فعل ويقال مات فلان حتف أنفه أى بلا ضرب ولا قتل . اللسان (٢/ ٧٧٠) .

(٦) إنما يكون ذلك بجودة النظر فى الأمور ، وقياس الغائب على الشاهد .

(٧) العوسج : شجر شائك ، تسْرى فيه النار ، وله ثمر أحمر مدور وواحدته عوسجة وقيل هو على ضُروب . اللسان (٤/٢٩٣٧) .

العاقل لا يتكلف ما لا يطيق ، ولا يسعى إلا لما يدرك ، ولا يَعِدُ إلا بما يقدر عليه ، ولا ينفق إلا بقدر ما يستفيد ، ولا يطلب من الجزاء إلا بقدر ما عنده من الغَنَاء [1] ولا يفرح بما نال ، إلا بما أجدى [2] عليه نفعه منه .

والعاقل يبذل لصديقه نفسه وماله ، ولمعرفته رِفْدَه [3] ومحضَره ، ولعدوه عَدْله وبرَّه[4]، وللعامة بِشْرَه وتحيته [5] ، ولا يستعين إلا بمن يحب أن يُظْفِرهُ بحاجته ، ولا يحدِّث إلا من يرى حديثه مَغنما ، إلا أن يغلبه الاضطرار عليه ، ولا يدَّعى ما يحسن من العلم ، لأن فضائل الرجال ليست ما ادَّعَوْها ، ولكن ما نسبها الناسُ إليهم ، ولا يبالى ما فاته من حُطام الدنيا ، مع ما رُزِق من الحظ فى العقل [6] .

أنشدنى عبد الرحمن بن محمد المقاتلىّ : [الطويل]

فَمَنْ كَانَ ذَا عَقْلٍ وَلَمْ يَكُ ذَا غِنًى ... يكُونُ كَذِى رِجْلٍ ، ولَيْسَتْ لَهُ نَعْلُ [7]
وَمَنْ كَانَ ذَا مَالٍ وَلَمْ يَكُ ذَا حِجًا ... يكُونُ كَذِى نَعْلٍ ، ولَيْسَتْ لَهُ رِجْلُ [8]

---

(1) الغَنَاء : الكفاية وحسن الاستعداد ، وهو النفع من الغِنَى مصور اليسار . اللسان (٥/٣٣٠٩).

(2) أجدى : أنفع من الجَدَا يكتب بالياء والألف وهو من أجدى عليه يجدى إذا أعطاه . اللسان (١/٥٧٢) .

(3) الرِّفْدُ : العطاء ، والصلة ، وبالفتح : الصدر ، وهى الإعانة ، وقيل القدح العظيم الضخم . اللسان (٣/١٦٨٧) .

(4) بره : فضله ، والبِرُّ : الصدق والطاعة ، وفي التنزيل : ﴿ ليس البر أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب ، ولكن البر من آمن بالله ﴾ . اللسان (١/٢٥٢) .

(5) فى « الأدب الكبير » (ص٦٢) : التحنن فى موضع التحية .

(6) هذه الفقرة من أول : « والعاقل يبذل » : مقتبسة من كلام ابن المقفع فى « الأدب الكبير ش (ص١٨ ، ٦٢) .

(7) هذا البيتُ وتاليه من اللَّطافة فى التشبيه ، وحسن التقسيم ، والمقارقة والجناس بمكان . . . !!

ففى هذا البيت : ينبه على أهميَّةِ العقل ، وكونه أساساً معتمداً لا غُنْيَةَ عنه ، وما سواه ، وإن كان فاضلاً ، فهو فضلةٌ عِنْدَهُ حتماً .

فقارن العقل ، والغنى ، وهما يتكاملان غير أنَّ العقلَ هو الأصلُ فإنْ وُجِدَ وعدم الآخر . فحال صاحبه أنَّهُ يماثل رَجُلاً سَوِياً يقُومُ على قَدَمٍ وساق غير أنَّهُ افتقد النعْل وهذه فضلَةٌ وتبعٌ .

والبيتان آيتان فى تزيين العقل ، وتقبيح المال ، فالعقل كالرجل والمال كالنعل ، فعاقل فقير كرجل بلا نعل ، وأحمق غنى كنعل بلا رجل ، ومراده أن العقل قد يستغنى عن المال لكن المال أبداً لا يستغنى عن العقل .

(8) وهذا يُفَارِقُ البيتَ الأوَّلَ تثبيتاً للمعنى ، وتأكيداً ، وإشهاراً له فيقول : « ومن يَكُ من أرباب =

قال أبو حاتم : كفَى بالعاقل فضلاً وإن عدمَ المال : أن تُصرِّفَ مساوئُ أعماله إلى المحاسن ، فتُجعلَ البلادةُ منه حلمًا ، والمكرُ عقلاً ، والهَذَرُ (١) بلاغة ، والحِدَّةُ ذكاء ، والعِيُّ صمتًا ، والعقوبة تأديبًا ، والجرأة عزمًا ، والجبن تأنِّيًا ، والإسراف جودًا ، والإمساك تقديرًا . فلا تكاد ترى عاقلاً إلا موقِّرًا للرؤساء ، ناصحًا للأقران ، مُواتيًا (٢) للإخوان ، متحرزًا من الأعداء ، غير حاسد للأصحاب ، ولا مخادع للأحباب . ولا يتحرَّش (٣) بالأشرار ، ولا يبخل في الغنَى ، ولا يَشْرَهُ في الفاقة ، ولا ينقاد لهوى ، ولا يجمحُ في الغضب ، ولا يمرحُ في الولاية ، ولا يتمنى ما لا يجد ، ولا يكتنز إذا وجد ، ولا يدخل في دَعوى ، ولا يشارك في مِراء ، ولا يُدلي بحُجَّة حتى يرى قاضيًا ، ولا يشكو الوَجَعَ إلا عند من يرجو عنده البرء ، ولا يمدح أحداً إلا بما فيه ، لأن من مدح رجلاً بما ليس فيه ، فقد بالغ في هجائه ، ومن قبل المدح بما لم يفعله ، فقد استَهدف للسُّخرية (٤) .

والعاقل يُكرَمُ على غير مال ، كالأسد يُهاب وإن كان رابضًا (٥) .

وكلام العاقل يعتدل كاعتدال (٦) جسد الصحيح ، وكلام الجاهل يتناقض كاختلاط جسد المريض .

وكلام العاقل وإن كان نَزْرًا (٧)

= المال ، والجاه ، ثم هو عَادمٌ العَقْلَ سَلَبه كانت حالته كمن أصاب النَّعل المستجنة غير أنَّهُ افتقد ما جاءت لها النَّعْلُ وهي الرجل ثم هي أصل ومعتمدٌ غير لاحقة ، فأيُّ الفريقين خير ؟! .

ولا يخفى الجواب على ذى نُهية !!

(١) الهذر : الكلام الكثير لا خير فيه ، وهَذَرَ كلامه هذراً : كثر في الخطأ والباطل وقيل : هو سقط الكلام والهذر بالتحريك : الهذيان . اللسان (٦/ ٤٦٤٤) .

(٢) مواتيا : موافقاً من وتى واتيته على الأمر مواتاة ووِتاءً ، طاوعته ، وفي « التهذيب » : الوتى الحيَّات . اللسان (٤٧٦٢) .

(٣) التحرش بالأشرار : أن يهيجهم للإيقاع بهم ، والتحريش : الإغراء بين القوم وكذلك بين الكلاب . اللسان (٢/ ٨٣٤) .

(٤) استهدف الشيء : صار هدفاً له ، أي غرضاً ، والسخرية : الاتهزاء ، وهي من سَخِرَ منه وبه . اللسان (٣/ ١٩٦٣) .

(٥) من حكم كليلة ودمنة .　　　(٦) في الأصل : اعتدال .

(٧) نزراً : يسيراً قليلاً ، والنزر القليل التافه من كل شيء نَذُر ينزر نزراً ونزارة ونزورة ونُزرة ، ونزَّر عطاءه : قلله . اللسان (٦/ ٤٣٩٣) .

حُظوة عظيمة (١) ، كما أن مقارفة المأثَم (٢) وإن كان نزْرًا - مصيبة جليلة .

ومن العقل التثبت فى كل عمل قبل الدخول فيه .

وآفة العقل العُجب (٣) ؛ بل على العاقل أن يوطِّن نفسه على الصبر على جار السَّوء ، [وعشير السَّوء] (٤) ، وجليسِ السَّوء ؛ فإن ذلك مما لا يُخْطِئُه على ممر الأيام (٥) .

ولا يجب للعاقل أن يحب أن يسمَّى به ، لأن من عُرِف بالدهاء (٦) حُذِر ؛ ومِنْ عقل العاقل دَفْن عقله ما استطاع ، لأن البَذْر وإن خَفِى فى الأرض أيامًا ، فإنه لا بد ظاهر فى أوانه ، وكذلك العاقل لا يَخفَى عقله ، وإن أخفَى ذلك جُهْدَه .

وأول تمكّن المرء من مكارم الأخلاق هو لزوم العقل .

أنشدنى على بن محمد البَسَّامىّ : [البسيط]

إنَّ المَكَارِمَ أبوابٌ مُصَنَّفَةٌ ... فالعَقْلُ أوَّلُهَا ، وَالصَّمْتُ ثَانِيهَا
وَالعِلْمُ ثَالِثُهَا ، وَالحِلْمُ رَابِعُهَا ... وَالجُودُ خَامِسُهَا ، وَالصِّدْقُ سَادِيهَا
وَالصَّبْرُ سَابِعُهَا ، وَالشُّكْرُ ثَامِنُهَا ... وَاللِّينُ تَاسِعُهَا ، وَالصِّدْقُ عَاشِيهَا (٧) (٨)

---

(١) فى الأصل : خطره عظيم .

(٢) مقارفة المأثم : ارتكاب الذنب من الاقتراف : الاكتساب واقترف ذنباً أى آتاه وفعله . اللسان (٣٦٠٠/٥) .

(٣) العُجْبُ : الافتتان بالرأى ، وعدم المبالاة بما فيه من وجوه الضرر . اللسان (٢٨١٢/٤) ، وهو الزهو ، ورجل معجب مزهو بما يكون منه حسناً أو قبيحاً وقيل فَضْلَة من الحق .

(٤) سقط فى الأصل .

(٥) يريد أن الإنسان لا يخلو من أن يبتلى فى حياته بجار سوء أو جليس سوء .

(٦) الدهاء : المكر والخداع ، يكون مدحاً : إن لم يفرط من دها والدهو والدهاء : العقل ورجل داهٍ وداهية . الهاء للمبالغة : عاقل ورجل داهية ماكر بصير بالأمور . اللسان (١٤٤٨/٢) .

(٧) ساديها : أي سادسها ، وعاشيها : أي عاشرها ، وهذه الأبيات تنسب لسيدنا على (أدب الدنيا والدين للماوردى) ، وفى الأصل : عاشرها .

(٨) هذه الأبيات نظمٌ لِعَشْرَةِ المَكَارِمِ والفضائل كما يَرَاهَا ناظمها . واتفق معه أن هذه العشرة هى المَكَارِمُ ، ولا أَتَّفِقُ معه فى ترتيبها ، ولا فى أنَّها أصولُ ومعاقد المَكَارِمِ ، فإنْ قصد في ترتيبها بهذا التدريج الأهمية فثمَّ مهمٌ قد تقدَّم على أهَمَّ . فانظر - رحمك الله - إلى ثَانِى هذه المَكَارِمِ ، وهو الصَّمْتُ ! كيف يقدَّمُ الصَّمْتُ على العلم ؟ إنَّ هذا الشيءُ عُجَاب !

لقد أصبح الصمت ذريعة وتكأة إلى ترك المَكَارِمِ ، والأمر بالخيرات والنهى عن المنكرات بحجة السَّلامَةِ . . . !

=

أخبرنا عمر بن عبد الله بن عمرَ الهَجَرِيّ [أبو حفص العابد] (١) بالأيْلَةِ (٢) ، حدثنا عبد الله بن خُبَيْق [الأنطاكى] (٣) ، حدثنا موسى بن طَرِيف ، قال شعيب بن حَرْب : [قال لى شُعْبَة] (٤) : « عقولنا قليلة ، فإذا جلسنا مع من هو أقل عقلاً منا ،

= فإذا سكت العالم فلم يتكلم ، أو تكلم تملقاً للتقية ، أو صمتَ دفعاً للرزية ، فمن يُشْهِر الحقّ ، ويهدي إلى الرَّشَاد ، وإن احتجّ محتج بفضل فى الصمت فإنى أحتج عليه بما يزيف حجته ، ورأس حجتى قول النبى ﷺ : « ... وَمَنْ كَانَ يُؤْمِنُ باللهِ واليومِ الآخر ؛ فَلْيَقُلْ خيْراً أو ليصمُتْ » .

إذن الكلام فى الخير ، وإن كثر فليس بثرثرة ، وأفضل هو من الصمات والسُّكات إلى متى الصَّمت عن الحق وعن المَنَاكِرِ ؟!!!

أفيقوا يا عباد الله ، واصدَعُوا بالحقّ ، ولا تخشوا فى الله لومة لائم ، فقد ضج منّا الصمت واحتج!!!

وانظر تكرار الصّدق بعده سادساً وعاشراً .

ودونك المفارقة بَيْنَ الصبر والحلم فلم يتتابعان !!!

وإن قيل قد اختل الترتيب لضرورة النظم فكيف ضاقت الأبحر الأخرى غير البسيط عن كلامه ، وتلك تعلَّة الكَسْلَةِ الوَكَلَةِ ، ثم إن الكلام لم يكسر وزنه بتقديم أو تأخير ، ثُمَّ ليست هذه أصول المكارم ألبتة . وإن كانت جميعاً من المكارم .

ولا يخفى هذا على اللبيب الفطن ، وانظر إلى العلامة ابن حزم أبى محمد رحمه الله إذ قال وأحسن بما قال : [مجزوء الرمل]

إنّما العقــــلُ أســــاسٌ فـــــوق الأخـلاق سورُ
فتحــــلى العقل بالعلم وإلا فهـــــــــو بورُ
جاهـــــل الأشياء أعمَى لا يرى كَيْــــفَ يـدورُ
وتمــــام العلم بالعدلِ وإلا فهـــــــــو زورُ
وزمامُ العدل بالجـــــود وإلا فنجـــــــــــورُ
وملاكُ الجود بالنَّجْـدَةِ والجـــــبن غــــرورُ
عفّ إن كـــــنت غيوراً ما زنى قـــــط غيـورُ
وكَـــــما الكلّ بالتقوى وقول الحــــــق نـورُ
ذى أصول الفضل عنها حــــــدثت عنها البذورُ

وقال أيضاً : [المتقارب]

زمام أصول جميع الفضائل عـــدلٌ وفهمٌ وجـــودٌ وباسُ
فمن هذه ركّبت غـــــيرها فمن حازَهَا فهو فى النَّاس راسُ
كذا الرأس فيه الأمور التى بإحساسها يُكْشَفُ الالــتباسُ

(١) سقط فى ط . (٢) فى ط : بالإبلة . (٣) سقط فى ط . (٤) سقط فى الأصل .

ذهب ذلك القليل ، وإنى لأرى الرجل يجلس مع من هو أقل عقلاً منه ، فأمقتُه»[1] .

قال أبو حاتم : أول خصال الخير للمرء فى الدنيا العقل ، وهو [من][2] أفضل ما وَهَبَ الله لعباده ، فلا يجب أن يُدنِّسَ نعمة الله بمجالسة من هو بضدِّها قائم .

والواجب على العاقل : أن يكون حَسَنَ السَّمْت[3] [4] طويلَ الصَّمت ، فإن ذلك من أخلاق الأنبياء ، كما أن سوء السَّمت وترك الصمت من شيمِ الأشقياء .

والعاقل لا يطول أملُه ، لأن من قوى أمله ضعف عمله ، ومن أتاه أجلُه ، لم ينفعه أملُه .

والعاقل لا يقاتل من غير عُدّة ، ولا يخاصم بغير حُجَّة ، ولا يصارع بغير قُوَّة ؛ لأن بالعقل تحيا النفوس ، وتُنَوَّرُ القلوب ، وتُمْضَى الأمور ، وتَعمُر الدنيا .

والعاقل يقيس ما لم ير من الدنيا بما قد رأى ، ويضيف ما لم يسمع منها إلى ما قد سمع ، وما لم يصِب منها ، إلى[5] ما قد أصاب ، وما بقى من عمره ، بما فَنِى ، وما لم ينل منها ، بما قد أُوتى ، ولا يتكل على المال ، وإن كان فى تمام الحال ، [لأن المال يَحِلُّ ويرتحل ، والعقل يقيم ولا يبرح][6] ؛ ولو أن العقلِ[7] شجرة ، لكانت من أحسن الشجر ، كما أن الصبر لو كان ثمرة ، لكان من أكرم الثمر .

والذى يزداد به العاقل من نَماء عقله ، هو التقرُّب من أشكاله ، والتباعد من أضداده .

ولقد أخبرنا محمد بن المهاجر المعدّل ، حدثنا أبو جعفر ابن ابنة أبى سعيد الثعلبىّ ،

---

(١) أمقته : أكرهه ، قال ابن سيده : المقت أشد الإبغاض وما أمقته عندى وأمقتنى له ، ومقته مقتاً أبغضه . اللسان (٦/ ٤٢٤٢) .

(٢) سقط فى الأصل .   (٣) فى الأصل : « الهدى » .

(٤) السمت : السكينة والوقار والسمت حسن النحو فى مذهب الدين من سَمَتَ يسمُت سمتاً فالسمت القصد والمذهب فى الدين والدنيا ، وقيل : السمت اتباع الحق والهدى وحسن الجوار . اللسان (٣/ ٢٠٨٧) .

(٥) فى الأصل : « بما » .   (٦) فى الأصل ، بدل ما بين المعكوفتين : « فإن المال يفنى والعلم يبقى » .

(٧) من قوله : « ولو أن العقل إلى آخر الفصل سقط بالأصل .

وأثبت مكانه صفحتين كاملتين ، ومكان هاتين الصفحتين فى باب الحث على طلب العلم » كما يقتضيه السياق .

حدثنا محمد بن أبى مالك الغَزّىّ ، قال : سمعت أبى يقول : « جالسوا الألِبّاء (1) : أصدقاءَ كانوا أو أعداء ، فإن العقول تُلَقّح (2) العقُول » .

قال أبو حاتم : مجالسة العقلاء لا تخلو من أحد معنيين : إما تَذَكُّر الحالة التى يحتاج العاقل إلى الانتباه لها ، أو الإفادة بالشىء الخطير الذى يحتاج الجاهل إلى [معرفته](3).

فقُرب العاقل غُنم لأشكاله ، وعبرة لأضداده ، على الأحوال كلها .

ولا يجب لمن تسمّى به أن يتدلّل إلا على من يحتمل دَلاله ، ويُقبِلَ إلا على من يحب إقباله ، ولو كان للعقل أبوان ، لكان أحدهما الصبر ، والآخر التثبت .

جعلنا الله ممن رُكِّبَ فيه حسن وجود العقل ، فسلك بتمام النعم مسلك الخِصال التى تقربه إلى باريه ، فى دارَى الأمَد والأبَد ، إنه الفعال لما يريد .

* * *

(1) الألباء : جمع لبيب ، وهو الذكى ، والعاقل والأنثى لبيبة ، والمعنى : العقلاء الأذكياء . اللسان (٣٩/٧٩/٥) .

(2) تلقح العقول : تقوّمها وتنشطها وتصلحها بما تضيف إليها من عناصر جديدة قوية .

(3) فى ط : معرفتها .

ذِكْرُ إِصْلاحِ السَّرَائِرِ ، بلزُومِ تَقْوى اللهِ

أخبرنا أحمد بن محمد بن يحيى بن زُهَير بتُسْتَر [١] ، حدثنا عُمر بن شَبَّة ، حدثنا مُؤمّل بن إسماعيل ، حدثنا شُعْبة ، عن زياد بن عَلاقة ، عن أسامة بن شريك ، قال : قال رسول الله ﷺ : « مَا كرِه اللهُ منكَ شيئًا ، فلا تفعلْه إذا خلوتَ » [٢] .

قال أبو حاتم : الواجب على العاقل الحازم أن يعلم أن للعقل شُعَبًا من المأمورات والمزجورات ، لا بد له من معرفتها ، واستعمالها فى أوقاتها ، لمباينة العوامِّ [٣] وأوباش الناس [٤] بها .

وإنى ذاكر فى هذا الكتاب ، إنِ اللهُ قضى ذلك وشاءه ، خمسين شُعبة من شُعب العقل ، من المأمورات والمزجورات ، ليكون الكتاب مشتملاً على خمسين بابًا ، بناءُ كل باب منها على سُنَّة رسول الله ﷺ ، ثم نتكلم فى عَقيب كل سُنَّة منها بحسب ما يَمُنُّ الله به من التوفيق لذلك ، إن شاء الله .

فأولُ شُعَب العقل : هو لزوم تقوى الله ، وإصلاح السريرة ، لأن من صَلَح جَوَّانيُّه، أصلح الله بَرَّانِيَّه ، ومن فسد جَوَّانيُّه ، أفسد الله بَرَّانِيَّه [٥] .

---

(١) تستربوزن جندب : بلد وكورة من كور الأهواز بخوزستان (المتاج) .

(٢) أخرجه بهذا الإسناد فى صحيحه (٢٤٩٨ - موارد) ، وأخرجه الضياء فى المختارة : ٤٤٩/١ عن مؤمل به .

وذكره السيوطى فى الجامع الكبير (١٨٩٧١) وعزاه لهما وللباوردى .

وذكره فى « الجامع الصغير » ورمز له بالتصحيح وعزاه لابن حبان والترمذى عزوه للترمذى خطأ ، فهو لم يخرجه ، وهو تحريف ، ولعل الصواب هو الباوردى كما عزاه فى « الجامع الكبير » .

وقال المناوى فى « فيض القدير » : ٥/ ٤٦٤ : أسامة بن شريك تفرد بالرواية عنه زياد بن علاقة على الصحيح .

وذكره الهندى فى « الكنز » (٥٢٧٠) ، وعزاه لابن حبان .

والحديث صححه الألبانى فى « السلسلة الصحيحة » (١٠٥٥) .

(٣) فى ط : العام .

(٤) أوباش الناس : أخلاطهم وضروبهم المتفرقة ، مثل الأوشاب ، وأوباش الناس الضروب المتفرقون واحدهم وبْش ووَبَش . اللسان (٦/ ٤٧٥٣) .

(٥) فى لسان العرب : جو ، وفى حديث سليمان : « إن لكل امرىء جوانياً وبرانياً ، فمن أصلح =

ولقد أحسن الذى يقول : [الطويل]

إِذَا مَا خَلَوْتَ الدَّهْرَ يَوْمًا فَلا تَقُـلْ   خَلَوْتُ ، وَلَكِنْ قُلْ عَلَىَّ رَقِيبُ (١)
وَلا تَحْسَـــــبَنَّ اللهَ يَغْفُلُ سَـاعَةً   وَلا أَنَّ مَا يَخْــفَى عَلَيْهِ يَغِيبُ (٢)
أَلَمْ تَــــرَ أَنَّ الْيَوْمَ أَسْـــرَعُ ذَاهِبٍ   وَأَنَّ غَدًا لِلنَّاظِـــرِينَ قَرِيبُ (٣)

أخبرنا عبد الله بن « محمود » (٤) بن سليمان السَّعْدىّ ، حدثنا شُعْبَةُ بن هُبيرة ، حدثنا جعفر بن سليمان ، عن مالك بن دينار ، قال : « اتخذْ طاعةَ الله تجارةً ، تأتك الأرباحُ من غير بضاعة » .

قال أبو حاتم : قُطْبُ (٥) الطاعات للمرء فى الدنيا : هو إصلاح السرائر ، وتَرْكُ إفساد الضمائر .

والواجب على العاقل الاهتمام بإصلاح سريرته ، والقيامُ بحراسة قلبه ، عند إقباله وإدباره ، وحركتِه وسكونه ، لأن تكدُّرَ الأوقات ، وتنغُّص اللذات ، لا يكون إلا عند فساده

= جوانيه أصلح الله برانيه » . قال ابن الأثير : أى باطناً وظاهراً ، وسرا وعلانية ، وعنى بجوانيه : سره وبيرانيه : علانيته ، وهو منسوب إلى جو البيت ، وهو داخله ، وزيادة الألف والنون للتأكيد .

(١) هنا يعظ الشّاعر العبد أن يقد هواجس نفسه الخفية حين خلوته فإن اختلى عن النَّاسِ فما اختلى عن رَبّ العبَاد فللّه عليه رقيب شهيدٌ . ﴿ يَعْلَمُ السِّرَّ وأَخْفَى ﴾ ، ﴿ يَعْلَمُ سِرَّكُم وَجَهْرَكُمْ ﴾ ، ﴿ لا تَخْفَى مِنكُمْ خَافِيَةٌ ﴾ .

(٢) كذلك من حُسْنِ اعتقاد العبد بربه أَنْ يوقن حقّ اليقين أن الله حى قيوم لا يفنى ولا يبيد ، ولا يكون إلا ما يريد وليس بخافٍ عليه شىء من العبيد . وذلك من أصول التوحيد .

وفى نفس معنى البيتين يقول القرطانى . صاحب النونية [الكامل] .

وإذا خَـــلَوْتَ بريبةٍ فى ظلمة   والنَّفسُ داعية إلى العصـــيان
فاستحِ من نظر الإله وقل لها   إنَّ الذى خـــلق الظَّلامَ يرانى

(٣) ثم هو هنا يخبر عن قرب الحساب أما الله تعالى مخبراً عن سرعة الأَيَّام فى الذَّهَابِ وعن تَسَارُعِ طىِّ الأحقاب ، فكل ما هو آت قريب : ﴿ وَمَا أَمْرُ السَّاعَةِ إِلا كَلَمْحِ البَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ ﴾

لذا من الحماقة والتَهوّك أَنْ يستطيل المرءُ قيامَتَهُ ويلغو عنها ، ويلهو ، وما يدرى لعلَّ حَيْنَهُ فِى حِينِهِ .

(٤) فى الأصل : محمد .

(٥) أصل القطب فى الرحى : وهو العود المثبت فى الحجر الأسفل ، يدور حوله الحجر الأعلى ، والجمع : أقطاب ، وقطوب . اللسان (٥/٣٦٦٨) .

ولو لم يكن لإصلاح السرائر سبب يؤدِّى العاقلَ إلى استعماله ، إلا إظهارَ الله عليه كيفيةَ سريرته ، خيرًا كان أو شرًا ، لكان الواجبُ عليه قلةَ الإغضاء عن تعاهدها [1] .

أنشدنى عبد العزيز بن سليمان الأبرش : [الخفيف]

يُلْبِسُ اللهُ فِى العَلَانِيَةِ العَبْـــ ـدَ الَّذِى كَانَ يَخْتَفِى [2] فِى السَّرِيرَهْ
حَسَنًا كَانَ ، أَوْ قَبِيحًا سَيُبْدَى كُلُّ مَا كَانَ ثَمَّ مِنْ كُلِّ سِـــيَرَهْ [3]
فَاسْتَـــــحِ اللهَ أَنْ تُرَائِىَ لِلنَّا سِ فَإِنَّ الرِّيَاءَ بِئْسَ الذَّخِـــيرَهْ [4]

أخبرنا أبو يعلَى ، حدثنا شُرَيْح بن يُونُس ، حدثنا عُبَيدَةُ بن حُمَيْد ، عن منصور عن عطاء بن أبى رِبَاح ، عن أبيه ، قال : قال كعب : « والذى فلقَ البحر لبنى إسرائيل ، إنى لأجد فى التوراة مكتوبًا : يابن آدم ، اتَّقِ ربَّك ، وصِلْ رَحِمك ، وبَرَّ والديك ، يَمُدَّ لك فى عُمرِك ، وييسِّر لك [يُسرك] [5] ، ويَصْرِفْ عنك عُسرَك » .

حدثنا محمد بن سليمان بن فارس ، حدثنا محمد بن علىّ الشقيقىّ ، حدثنا أبى ، حدثنا جعفر بن سليمان الضُّبَعىّ ، عن مالك بن دينار ، قال : « إن القلب إذا لم يكن فيه حُزْن خَرِب ، كما يَخرب البيت إذا لم يكن فيه ساكن ، وإن قلوب الأبرار تغلِى بأعمال البرِّ ، وإن قلوب الفجَّار تغلِى بأعمال الفجور . واللهُ يرى هُمومكم ، فانظروا ما همومكم ؟ رحمكم الله » .

أنشدنى محمد بن عبد الله بن زَنجِىّ البغدادىّ : [الرمل]

وَإِذَا أَعْلَنْتَ أَمْرًا حَسَنًا فَلْيَكُنْ أَحْسَنَ مِنْهُ مَا تُسِرّ [6]

---

(١) الإغضاء : غض البصر عن الشيء ، وهو كناية عن إهماله واطراحه ، كأنه لا يراه ، وتعهد الشيء ، وتعاهده : نظر فيه ، وأصلحه وقتًا بعد وقت .

(٢) فى الأصل : يخفى .

(٣) وهنا ينبه العبد على تحسين سريرته جهده فما يباشر العبد حالاً فى سريرته إلا وكساه اللهُ منه وهجاً فى علانيته إن خيراً فخير ، وإن شراً فشر ، إذ خفية كل امرىء ميسمٌ له فى علانيته .

(٤) ونتيجة لما فى البيتين ينبغى على العقولِ الخَشُوع أن يتَّقِ الله وألا يرَائى بعمله ، فبئس مدّخراً الرِّياءِ ، وساء ثوباً وثواباً لصاحبه كما قيل :

ثَوْبُ الرِّيَاءِ يشفّ عما تَحْتَه فإذَا التَحفت بِهِ فإنَّكَ عَــارِى

(٥) سقط فى الأصل .

(٦) إنَّكَ ينبغى أن تُحسِّن سريرتك ، فلا تكن علانيتك خيراً منها ، وخاصة إذا ما جهرت وأظهرت الأمور الحسنة المستحبة .

فَمُسِرُّ الخَيْرِ مَوْسُومٌ بِهِ وَمُسِرُّ الشَّرِّ مَوْسُومٌ بِشَرّ(١)

أخبرنا أبو يعلَى ، حدثنا شُريح بن يونس ، حدثنا أبو معاوية ، عن الأعمش ، عن إبراهيم ، قال : « إن الرجل ليتكلمُ بالكلام ينوي فيه الخير ، فيُلْقِي الله فى قلوب العباد، حتى يقولوا : ما أراد بكلامه هذا إلا الخير ، وإن الرجل ليتكلم بكلام الخير (٢)، لا ينوى فيه الخير ، فيلقى الله فى قلوب الناس حتى يقولوا : ما أراد بكلامه هذا الخير»(٣) .

حدثنا محمد بن عُمر الهَمْذَانىّ (٤) ، حدثنا العَطَوَانىّ (٥) (٦) ، حدثنا [ابن] (٧) سيَّار، حدثنا حماد بن زيد، عن أيوب ، قال : سمعت الحسن يقول : « إنكم وقوفٌ هاهنا تنتظرون آجالكم ، وعند الموت تَلْقَوْنَ الخَبَر ، فخذوا مما عندكم لما بعدَكُم » .

قال أبو حاتم : الواجب على العاقل أن يأخذ مما عنده لما بعدَه ، من التقوى والعمل الصالح : بإِصلاح السريرة ، ونَفْيِ الفساد عن خَلَل الطاعات ، عند إجابة القلب وإبائه. فإذا كان صحة السبيل فى إِقباله موجودًا أنفذه بأعضائه (٨) . وإن كان عدم وجوده موجودًا كَبَحَه (٩) عنها ؛ لأن بصفاء القلب تصفو الأعضاء .

---

(١) وذلك لأنَّ السريرة لا بد وأن تظهر فى ظهيرة أمرك ؛ لأن كلّ إناء ينضح بما فيه ، كما قال القائل :

ملكنا فكَان العفو منّا سجية فلمّا ملكتم سَالَ بالدَّمِ أبطـحُ
وحللتمُ قَتْلَ الأسَارَى وطالما غَدَوْنَا على الأسْـرَى ونصفح
وحسبكم هذا التَّفاوت بَيْنَنَا وكلُّ إناءٍ بالَّذِى فيه ينضـح

ومن ذلك أيضاً ما قاله أبو العتاهية :

وما من مُخْلِصٍ لله إلا على أعماله أثر القَبُولِ

وحاصل ذلك أنَّ كل مبطون فى النفس لا بد وهج ، وميسم له فى ظاهرها حتَّى الإخلاص الذى هو خفىّ خفىّ على أعمال صاحبه أثر القبول .

وحسبك قول الله تعالى : ﴿ سِيمَاهُم فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ ﴾ (سورة الفتح) .

وعليه : فينبغى للمرء ألا يُسِرَّ إلا خيْراً ، وألا يظهر إلا خيراً .

(٢) فى ط : بالكلام الشر . (٣) فى ط : الشر . (٤) فى ط : الهمدانى .

(٥) قَطَوان ، بالتحريك : موضع بالكوفة ، منه الأكسية القطوانية (قاموس) ، وينظر « مراصد الاطلاع » : ٢/١١٠٨ .

(٦) فى ط : القَطَوانى . (٧) سقط فى ط .

(٨) فى الأصل : أنقذه باغضائه . (٩) فى الأصل : كبحها .

وأنشدنى المنتصر بن بلال بن [المنتصر] [1] الأنصاريّ : [الطويل]

وَإِنَّ امْــــرأً لَمْ يَصْـــفُ لله قَلْبُهُ لَفِى وَحْشَةٍ مِنْ كُلِّ نَظْرَةِ نَاظِرِ [2]

وَإِنَّ امْــــرأً لَمْ يَرْتَحِـــلْ بِبِضَاعَةٍ إِلَى دَارِهِ الأُخْرَى فَلَيْسَ بِتَاجِرِ [3]

وَإِنَّ امْــــرأً ابْتَاعَ دُنْيَا بِدِينِــــهِ لَمُنْقَلِبٌ مِنْهَا بِصَفْقَةِ خَاسِـــرِ [4]

أخبرنا أحمد بن الحسن [5] بن عبد الجبار الصوفيّ ببغداد ، حدثنا أبو نصر التمار .

حدثنا أبو الأشهب ، عن خالد الرَّبَعِيّ [6] ، قال : « كان لُقمانُ عبدًا حبشيًا نجارًا ، فأمره سيده أن يذبح شاة ، فذبح شاة ، فقال [له] [7] : ائتنى بأطيب مُضْغَتَين فى الشاة ، فأتاه باللسان والقلب ، ثم مكث أيامًا ، فقال : اذبح شاة ، فذبح ، فقال [له] [8] أَلْقِ أخبث [9] مُضْغَتين فى الشاة ، فألقَى [10] إليه اللسان

---

(١) سقط فى الأصل .

(٢) هذا البيت والبيتان بعده ترغيب وترهيب يقول : « إنّ من لابس قلبه وحشته من ربّه ، وخلاء من طاعته لفى ريبة وشكّ وفزع من نظرة كل ناظر ، لأنَّ الأمن من الله بذكر الله والطّمأنينة بالله ، ولذلك قال الله تعالى عن المنافقين ذوى القلوب اللاهية اللاغية عن ذكر الله .

﴿ يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِم . . . ﴾ .

(٣) وكذلك هذا البيت يرغب فى التجارة مع الله ورأس مالها هو طاعات الدُّنيا فمن أكثرَ منها ربح فى الآخرة خير الرِّبح ، وكان نعم التّاجر ، وثمَّ يكون ثمن البضاعة هو الجنَّةُ ، والبيت استعارة بديعة .

وهذا البيت ثمن البضاعة فيه تضمين لمعنى قوله تعالى : ﴿ يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُم عَلَى تِجَارَةٍ تُنْجِيكُم مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ تُؤْمِنُونَ بِاللهِ ورسولهِ ﴾ (الصف) .

(٤) وهذا البيت ترهيب محضٌ بذكر حَالٍ من نقض البيعة مع الله ، ولم يتاجر مع الله - سبحانه وتعالى - والبيت استعارة رائعة ، جسدت المعنى وأبرزته .

وذلك حَاقَ بمن زهد فى التِّجارة مع الله - سُبْحَانَهُ - واستبدل الدُّرَّ بالْحَصَى ، والجَنَّةَ بالنَّارِ ، والقرار بالبَوَارِ ، وذلك هو المغبون الخاسر فى الدُّنيا والآخرة .

كقوله تعالى : ﴿ فَما رَبِحت تجارتهم ، ومَا كَانُوا مُهْتَدِين ﴾

وهما كما قال الشاعر . [الطويل]

نرقع دنيانا بتمزيق دِينِنَا فَلا دِينُنَا يَبْقَى وَلا مَا نُرَقِّعُ

فَطُوبَى لعبد آثر الله رَبَّه وَجَــــادَ بِدُنْيَاهُ لما يَتَوقَّعُ

(٥) فى ط : الحسين . (٦) فى الأصل : الزَّنجى . (٧) سقط فى ط .

(٨) سقط فى ط . (٩) فى ط : ائتن بأخبث . (١٠) فى ط : فالقى إليه .

والقلب، فقال له سيده : قلت لك حين ذبحت [الشاة] (١) : ائتنى بأطيب مُضغتين فى الشاة ، فأتيتنى باللسان والقلب ، ثم قلت لك الآن حين ذبحت الشاة : ألْقِ أخبثَ (٢) مُضغتين فى الشاة ، فألقيتَ اللسانَ والقلب ؟ فقال : إنه لا أطيبَ منهما إذا طابا ، ولا أخبث منهما إذا خبُثا » .

وأنشدنى منصور بن محمد الكَرِيْزى : [الطويل]

وَمَا المَـــرْءُ إلا قَـلْبُهُ ولِسَـانُهُ ... إِذَا حُـصِّلَتْ أَخْبَارُهُ وَمَدَاخِلُهْ (٣)
إِذَا مَا رِداءُ المَرْءِ لَمْ يَكُ طَاهِـرًا ... فَهَيْهَاتَ أَنْ يُنْقِيه (٤) بِالمَاءِ غَاسِلُهْ (٥)
وَمَا كُلُّ مَنْ تَخْشَى يَنَالُكَ شَـرُّهُ ... وَمَا كُـلُّ مَا أَمَّلْتَهُ أَنْتَ نَائِلُهْ (٦)

---

(١) سقط فى ط . (٢) فى ط : ائتنى بأخبث .

(٣) هذا البيتُ يحض على نظافة الظّاهر والباطن ، وأنْ يصدق أحدهما الآخر فيطابق فى محاسنه، وقد أداه بأقوى وسائل القصر كما ترى !

فما المرء عند حقيقته وتقويمه (تَصْديقاً لحادثة لقمان مع سيِّده) إلا مخبرٌ حيثُ (قلبه) ، ومظهر يعبر عنه لسانه ، فإذَا صفت مداخله الباطنة وأخباره الظاهرة كانَ هو الفتى .

مثلما قال زُهَيْرٌ . [الطويل] :

لِسَانُ الفَتَى نصفٌ وَنِصفٌ فؤاده ... فَهَلْ يبقى إلا صورة اللَّحْمِ والدَّمِ

(٤) سكن الياء لضرورة الشعر .

(٥) ثم ذكر فى هذا البيت أنّ معقد الصَّلاح والطَّهارة فى البَاطن حيث القلب ، وأن المظهر تبعٌ للمخبر ، فمن صفَت سريرته صحت علانيته ، وقد كنى عن الباطن (بالثّياب : الرّداءِ) على لُغَةِ من جعله بمعنى القلب كقوله تعالى : ﴿ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ﴾.

وقول عنترة [الكامل] :

فَشَكَكْتُ بِالرُّمْحِ الأَصَمِّ ثيابه ... لَيسَ الكَرِيمُ عَلَى القَنَا بِمُحَرَّمِ

فيقول : إذا لم يَكُ باطن المرء عفيفاً فبعداً ، وهيهات أن يصلح ظاهره . إذ قد هوَى ودلس أَسَاسُهُ.

وهذا من فن الدَّعوة إلى الله ، وإصلاح المجتمعات .

إذ ينبغى على العَاقِل أن يطهر نفوس النَّاس ، ويعلمهم العقيدة المطهرة لبواطنهم أولاً . .

ومنه قوله - تعالى - : ﴿ إن الله لا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِم ﴾ ، لأنَّ ما بالنَّفس هو معقدُ الصَّلاحِ والفَلاحِ .

(٦) وهذا البيت هو كقضية للبيتين السَّابقين فهو حكمة جليلة ، وهى : « أنَّ المرء لا يعلم المقدور فما كلّ ما يتمنى المرء يدركه ، وما كل ما يخشى يصيبه » ، وذلك مضمون قوله - تعالى :

﴿ وعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئاً وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُو شَرٌّ لَكُمْ والله يعلم وأنتم لا تعلمون ﴾

أخبرنا أحمد بن عيسى بن السُكن (١) - بغير المثناة تحت - بواسط (٢) ، حدثنا عبد الحميد بن محمد بن مُسْتام ، حدثنا مخلد بن يزيد ، حدثنا صالح بن حسان المؤذّن ، قال: «دخلت على عُمَر بن عبد العزيز ، فسمعته يقول : لا يتقى الله عبدٌ حتى يجدَ طعم الذلّ» .

قال [أبو حاتم] (٣) : العاقل يُفَتِّش قلبه فى ورود الأوقات ، ويكبح (٤) نفسه عن جميع المزجورات ، ويأخذها بالقيام فى أنواع المأمورات ، ولزوم الانتباه عند ورود الفَتْرة فى الحالات ، ولا يكون المرء يشاهد ما قلنا قائمًا ، حتى يُوجَد منه صحة التثبت فى الأفعال .

أنشدنى علىّ بن محمد البسّامىّ : [الكامل]

وَإِذَا بَحَثْتَ عَنِ(٥) التَّقِيِّ وَجَدْتَهُ ... رَجُـلاً يُصَدِّقُ قَوْلَهُ بِفَعَـالِ (٦)

وَإِذَا اتَّقَى اللهَ امْـرُؤٌ وَأَطَـاعَهُ ... فَيَدَاهُ بَيْنَ مَكَـارِمٍ وَمَعَالِى (٧)

وَعَلَى التَّقِيِّ إِذَا تَرَاسَخَ فِـى التُّقَى ... تَاجَانِ : تَاجُ سَكِينَةٍ ، وَجَمَالِ (٨)

وَإِذَا تَنَاسَبَتِ الرِّجَالُ ، فَمَا أَرَى ... نَسَبًا يَكُونُ كَصَالِحِ الأَعْمَـالِ (٩)

---

(١) فى ط : السكين .

(٢) واسط : بلد بناه الحجاج فى العراق متوسطة بين البصرة والكوفة « مراصد الاطلاع » : ١٤١٩/٣ .

(٣) سقط فى الأصل .   (٤) فى الأصل : ويكدح .   (٥) فى الأصل : علي .

(٦) هذا البيت يُشير إلى أنَّ العمل هو علامة صدق القول ، وأنّ الإيمان والتقوى (اعتقادٌ وقول وعمل) ، وهذا هو الإيمان عند أهل السنة والجماعة ، قال القحطانى فى نونيته :

« إِيمَانُنَا بِاللهِ بَيْنَ ثلاثةٍ : قولٍ ، وفعلٍ ، واعتقادٍ وجنانِ » ، لذا فالمؤمن من الرّجال هو المصدّق لدعواه بالفعل إذْ لا يكفى الاعتقاد فحسب .

(٧) وهنا يذكر حقيقة واقعة وهى أنَّ الإيمان والتقوى لا بُدّ لها من ثمارٍ تجتنى ، فإذا ما أتى الله العبدُ ، وظهر ذلك فى عمله فتراه رهن طاعته يحرص على المكارم فيأتيها ، ويركب كلَّ عليَّةٍ وَضِيَّةٍ ، ويهجر كُلَّ رزيلة رديئة .

(٨) وإذا ما دام الإنسان على التّقوى والصّلاح كساه الله ثياب الجلال والوقار ، فكانت كأنها تيجان تُحليه ، وتُجلِّيه وهى من الاستعارات النادرة .

(٩) ويذكر الشَّاعرُ هنا حقيقة تغيب عن الأذهَانِ ، وتطوى فى أدراج النسيان وذلك أنّ نسب الرجال ، وفخرهم إنَّما هو بأعمالهم لا بِأُصُولهم إذ كلنا لآدم ، وآدم من تراب ، والعاقل من وعى قوله تعالى : ﴿ فَإِذَا نُفِخَ فِى الصُّورِ فلا أنساب بينهم يومئذ ولا يتساءلون ﴾ .

أخبرنا القَطَّان بالرَّقَّة ، حدثنا عبد الله بن رُومىّ البزَّاز [١] ، عن أبيه ، قال : قَلَّما دخلتُ على إسحاق بن أبى ربْعِىّ الرَّافقىّ ، إلا وهو يتمثل بهذا البيت : [البسيط] :

خَيْرٌ مِنَ المَالِ وَالأَيَّامُ مُقْبِلَةٌ   جَيْبٌ نَقِىٌّ مِنَ الآثَامِ وَالدَّنَسِ [٢]

أخبرنا محمد بن عبد الله بن الجنيد ، حدثنا عبد الوارث بن عبد الله ، عن عبد الله ، أخبرنا الربيع ، عن الحسن ، قال : « أفضلُ العملِ : الورَعُ والتفكر » .

قال أبو حاتم : العاقل يدبِّر أحواله بصحة الورع ، ويمضى أسبابه [٣] بلزوم التقوى ، لأن ذلك أول شُعَب العقل ، وليس إليه سبيل إلا بصلاح القلب .

ومثَل قلب العاقل إذا لزم رعايةَ العقلِ ، على ما نذكرها فى كتابنا هذا ، إن اللهُ قضى ذلك وشاءه ، كأن قلبه شُرِّح بسكاكين التَّقِيَّة [٤] ، ثم مُلِّح بِمِلْحِ الخَشْيَة ، ثم جُفِّف برياح العظمة ، ثم أُحْيِىَ بماء القُرْبَة ، فلا يوجد فيه إلا ما يرضِى المولَى جلّ وعلا ، ولا يبالى المرءُ إذا كان بهذا النعت أنْ يَتَّضع عند الناس ، ومحالٌ أن يكون ذلك أبدًا .

سمعت أحمد بن موسى [المكى] [٥] بواسط يقول : وُجِدَ على خُفّ عَطاء السُّلَمِىّ مكتوباً ، وكان حائكًا : [الطويل]

أَلا إِنَّمَا التَّقْوَى هُوَ العِزُّ وَالْكَرَمْ   وَفَخْرُكَ بِالدُّنْيَا هُوَ الذُّلُّ وَالْعَـدَمْ [٦]

---

(١) فى ط : البزار .

(٢) وباستبصار البيت يلوحُ للعاقل عِلَّة كثرة ترداد إسحاق بن أبى ربعى الرافقى لهذا البيت ، وهى أنَّه منهج حياة للعاقل المتبصر إِذْ ما من امرىء يتخفف من الآثار إلا ويرزقه الله من حيث لا يحتسب ، ويبارك له فى قليله فيكثر وفى كثيره فيزدادُ ، وينمو ، وذلك خير من المال .

وصدق من قال . [الوافر] :

ولست أَرَى السعادة جَمع مال   ولكنّ التقى هو السـعيدُ

وكذلك من كان تقىّ القلب طاهر النية ، فإِنَّهُ ظافرٌ براحة البَال ، والخلو من الهموم ، وهذه نعمة عظيمة أجمع العقلاء على تَطْلابِهَا ، والظفر بها أما المال فهو مجلبةٌ للهمّ والأرق والحزنِ .

راجع « مداواة النفوس » لابن حزم ص ٨٧ ، دار المعارف تحقيق د . الطاهر مكى .

(٣) فى ط : لسانه .

(٤) التقية هنا الحذر والخوف من الله ، كالتقاة ، والتقوى والاتقاء من اتقى الله تُقَيًا خافه والتاء مبدلة من واوٍ . اللسان (١/٤٣٨) .

(٥) سقط فى ط .

(٦) فى البيت تأكيد بالقَصْرِ والحصر ، والاستفتاح بالتنبيه بـ « ألا » على أنَّ العزة بين الناس وحقيقة الفخر بالدنيا ، والكرامة إنما هى في التقوى لله سبحانه . =

وَلَيسَ عَلَى عَبْدٍ تَقِيٍّ نَقِيصَــــةٌ إِذَا صَحَّحَ التَّقْوَى ، وإِنْ حَاكَ أَوْ حَجَمْ (١)

أخبرنا محمد بن زَنْجُويه القُشَيْرِىّ ، حدثنا عمرو بن علىّ ، حدثنا طَرِيف بن سعيد، حدثنا القاسم بن عبد الله الأنصارىّ ، عن محمد بن علىّ بن حسين ، قال : « إذا بلغ الرجل أربعين سنة ، ناداه مُنادٍ من السماء : دنا الرحيل ، فأعِدَّ زاداً .

وأنشدنى عبد العزيز بن سليمان الأبرش : [المتقارب]

إِذَا انْتَسَبَ النَّاسُ كَانَ التَّقِىُّ بِتَقْوَاهُ أَفْضَلَ مَنْ (٢) يَنْتَسِبْ (٣)

وَمَــــنْ يَتَّقِ اللهَ يَكْسِبْ بِهِ مِنَ الحَظِّ أَفْضَلَ مَا يَكْتَسِبْ (٤)

وَمَنْ يَتَّخِذْ سَبَبًا لِلنَّجَــاةِ فَإِنَّ تُقَى اللهِ خَيْرُ السَّــبَبْ (٥)

[وأنشدنى أحمد بن محمد بن عبد الله الصَّنعانىّ لابن عِكْراش : [الطويل]

وَمَهْمَا يُسِـــرَّ المَرْءُ يَبْدُ لِــرَبِّهِ وَمَا يَنْسَهُ الإِنْسَانُ لا يَنْـــسَ كَاتِبُهْ (٦)

= وما التقوى بكلمة تقالُ ! وإنما هى شريعةٌ منشودة إذْ إنَّها جامعة وقد عرّفها العلماء تعريفات كثيرة فلتراجع فى مظانها . . . !!

(١) ولما كان البيت السَّابع أصلاً يركن إليه ، باح الشاعر فى غير مَهَابة بهذه الحقيقة السَّاطعة ، والمقالة اللامعة .

أنه لا نَقِيصَة ، ولا ذَامَّة يلامُ وينحرج منها من كَانَ حائكاً ، أو حاجماً ما دام قد أصاب الأَصلَ الأَصِيلَ وهو تقوى ربِّه الجليل .

(٢) فى الأصل : ما .

(٣) هذا البيت والبيتان بعده فى امتداح التقوى والتنويه بفضلها ومكانتها ، إذ هى خير نسب لمن افتقد علوَّ النسب ، كما قال اللهُ تعالى : ﴿ إن أكرمكم عند الله أتقاكم ﴾ .

فلا عليه بَعْدُ ، ويرحم الله سَلمانَ الفَارسىّ ، وصهيبَ الرُّومىَّ ، وبلال الحبشى ، فقد كانت أصولهم أعجمية ، وما حطهم ذلك عن شرف الصحبة ، ولا عن الخلد فى صفحات النّور المَنْشُورَة لأصحابِ محمد ﷺ إلى يوم القيامة .

(٤) وكذلك من رام أن يحظى ويرقى ويكتسب من الخيرات ، ولا يبلى ، فعليه مناهج التقوى ، فلا يميد عنها ، ولا يحيد ، فهى الكنز الوافر والشرفُ الفاخر حتّى بعد ميتة العبد ، فهى خير ميراث يترك وصدق الله : ﴿ وَلْيَخْشَ الذين لو تركوا من خلفهم ذرية ضعافاً خافوا عليهم فليتقوا الله ﴾ .

(٥) وكذلك من رام النجاة من كل سوءٍ ، والعافية من كل فتنة فليعتصم بحبال التقوى ، فإنها خير أسباب النجاة ، وخير دافع للسوء ، كما قال الشاعر :

فاشدد يدك بحبل الله معتصماً فإنّه الرُّكن إنْ خانتك أركــان

وصدق الله إذ يقول : ﴿ ومن يتق الله يجعل له مخرجاً ﴾ .

(٦) هذا البيت ينبه المرء على إصلاح سريرته ، وإحسان طويته ، إذ ما من هاجس ولا خاطر =

وَمَنْ كَانَ غَلاَبًا بِجهْدٍ وَنَجْدَةٍ   فَذُو الحَظِّ فِى أَمْرِ المَعِيشَةِ غَالِبُهُ (١)] (٢)

وأنشدنى أبو بدر أحمد بن خالد بن عُبيد الله بن عبد الملك بحرَّان :[البسيط]

يَا نَفْسُ مَا هُوَ إِلا صَبْرُ أَيَّامِ   كَأَنَّ لَذَّاتِهَا أَضْغَاثُ أَحْلامِ (٣)

= يجول إلا وهو مقيد عند الله مكشوف لديه فهو : ﴿ يعلم السر وأخفى ﴾ . و﴿ يعلم ما تسرون وما تعلنون ﴾ . ﴿ وأسروا قولكم أو اجهروا به إنه عليم بذات الصدور ﴾ .

وكذلك ما يكون من فعل المرء ، وإن تقادم عهده وعفا عليه الدهر وأذهبته رياح النسيان فإنَّهُ ملحوظٌ . محفوظٌ عند من وكَّله الله بكل امرئ من الكتبة : ﴿ ما يلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد ﴾ ، « وكل إنسان ألزمناه طائره فى عنقه » .

وكذلك قوله تعالى : ﴿ لا يضلُّ ربى ولا ينسى ﴾ ، ﴿ وكل شىء أحصيناه كتاباً ﴾ .

وكذلك قول الشاعر (القمطانى) :

وإذا خلوت بريبة فى ظـلمة   والنفـس داعية إلى الطغيان

فاستح من نظر الإله وقل لها   إن الذي خلق الظـلام يرانى

من ذلك ما أنشده ثعلب للإمام أحمد ، راجع « تاريخ بغداد » .

إذا ما خلوت الدهر يوماً فلا تقل   خـلوت ولكن قل علىَّ رقـيب

ولا تحسـبن الله يغفل ساعة   ولا أن ما تخـفيه عنه يغـيبُ

(١) وهنا يذكر الشاعر فضل المال والجاه وأنهما عضدٌ للمرء فى حياته وأن بهما تكون الغلبة والنُّصرة وبهما يُحتَالُ ، ويَنَالُ من ذى الشجاعة والنجدة ما لا يدفعه غلبته ونجدته .

كما قال الشاعر فى الثناء على الدينار ، منبهاً إلى أهميته ومكانته .

وَحَبَّذَا مَغْنَاتُهُ وَنُضْـرَتُهُ   كَـمْ آمرٍ بِهِ استتبت إمرتهُ

ومترفٍ لولاه دامت حسرته   وجـيش هم هذمته كَـرَّته

راجع مقامات الحريرى ص ٢٢ - طبعة الخلد .

(٢) سقط فى الأصل .

(٣) هذ البيت وتاليه حديث للنفس ومواساةٌ لها على الصَّبْرِ والتحملِ والتسلى عن ملذّات الدنيا فما هى إلا أحلام وظلام إذ تذهب الحسرة واللَّذةُ ولا يبقى إلا العُقْبَى لِكُلٍّ . ويرحم الله ابن الجوزى لما قال نَاصحاً ابنه : « والحبسُ فى القبور طويل ، والعذاب على موافقة الهوى وبيل ، فأين لذة أمس؟ رحلتْ وَأبْقَتْ ندماً ؟ وأين شهوةُ النَّفس ؟ كم نكست رأساً وأزلت قدماً . . .

فاعتبر بمن مضى من الملوك والزهاد ، أين لذة هؤلاء ، وأين تعب أولئك ، بقى الثَّواب الجزيل والذكر الجميل للصَّالحين والقالة القبيحة والعقاب الوبيل للعاصين وكأنه ما جاع من جاع ولا شبع من شبع . . . راجع « لفتة الكبد فى نصيحة الولد » من مجموعة « دفائن الكنوز » ص ٩٧ تحقيق : حامد الفقى - مكتبة السنة المحمدية .

ويرحم الله الإمام أحمد فقد كان يتعلل بمعنى هذا البيت ويقول : « عيشٌ دون عيش . ومنامٌ دون منامٌ . . . » حتى نلقى الله تعالى .

=

يَا نَفْسُ ، جُوزِى عَــــنِ الدُّنْيَا مُبَادِرَةً وَخَلِّ (١) عَنْهَا ، فَإِنَّ الْعَيْشَ قُدَّامِى (٢) (٣)

أخبرنا الحسين بن إدريس الأنصاريّ ، أخبرنا سُويد بن نصر ، أخبرنا عبد الله ، أخبرنا سُفيان عن مَعْن ، قال : قال عبد الله : « إن لهذه القلوب شهوة وإقبالاً ، وإن لها فَترةً وإدباراً ، فخذوها عند شهوتها وإقبالها ، ودَعُوها عند فَترتها وإدبارها » .

قال [أبو حاتم] (٤) : الواجب على العاقل ألا ينسَى تعاهُدَ قلبه ، فترك ورود السبب الذى يُورث القساوة له عليه ، لأن بصلاح المَلِك تصلح الجنودُ ، وبفساده تفسد الجنود ، فإذا اهتم بإحدى الخَصلتَين ، تجنَّب أقربَهما من هواه ، وتَوَخَّى (٥) أبعدهما من الرَّدَى .

ولقد أحسن الذى يقول : [الكامل]

وَإِذَا تَشَــــــاجَرَ فِى فُــؤَادِكَ مَرَّةً أَمْرَانِ ، فَاعْمِدْ لِلأَعَفِّ الأَجْمَلِ (٦)

وَإِذَا هَـــمَمْتَ بِأَمْرِ سُــــوءٍ فَاتَّئِدْ وَإِذَا هَمَمْتَ بِأَمْــرِ خَيْرٍ فَافْعَلِ (٧)

= وهكذا ينبغى على العاقل أن يواسِىَ نفسه ويسليها فهى كالناقة يُحَدا لها حتى تقطع ما قدر لها من الطريق .

(١) أصله وخلى ، بالياء ، ثم حذفها للشعر ، لدلالة الكسرة قبلها .

(٢) فى الأصل : قدام .

(٣) وهنا كذلك يسلى نفسه ويرغبها فى المبادرة على الحياة الدنيا متصبرة راضية بما أصابت منها إذ العيش والهناءة والراحة والمتعة هناك فى الدار الأخرى ففيها : ﴿ ما تشتهى الأنفس وتلذ الأعين ﴾ . وقد كنى عنها بأنَّها قدام ، حيثُ الدار الآخرة ، بَعْدَ دار الدُّنيا .

(٤) سقط فى الأصل . (٥) فى الأصل : تاخا .

(٦) هنا يحضُ الشاعر المرء على ركوب الخير فى كل حال بطريق الاستعارة التمثيلية التى جعلت الخير والشر متشاجرين أبداً فى الفؤاد ثم يدل على الخير فينصح العاقل أن ينفذ خاطر الخير ويفعله ، ويدحض خاطر الشر ويصرفه إذ القلب والعقل عراك للخواطر والهمم ، ثم النية ، فالعزيمة ، فالعقل. فإن طاف الخاطر بالذهن فلا يعمد العاقل إلا لخاطر الخير المورث كل عفة وجمال :

لا تمض رأيك فى هوىً إلا ورأيك فيه قصد

مــن كــان متبعاً هواه فإنه لهــواه عــبد

[ديوان أبى العتاهية] .

وكما فى الحديث : « من همّ بسيِّئة ولم يعملها كتبها الله له حسنة . . . » .

(٧) وهذا تعضيد للبيت الأول ، فكما ينبغى اعتماد خواطر الخير فحسب ينبغى ألا يهم المرء بفعل السّوء بل يهمّ بكلّ جميل يزينُ ، وينبذُ كُلَّ قبيح يشين .

وقال أبو العتاهية :

خــالف هـــواك إذا دعاك لريبة فــلربّ خير فى مخالفة الهــوى =

أخبرنا بكر بن أحمد بن سعيد الطاحيّ بالبصرة ، حدثنا إبراهيم بن عَزْرة الشاميّ ، [ثنا أبو مُعاويَةَ] [1] عن مِسْعر بن كِدَام ، عن عَوْنِ بن عبد الله ، قال : قال عمر بن الخطاب : « جالسوا التَّوابين ؛ فإنهم أرقُّ أفئدة » .

أخبرنا أبو يعلَى ، حدثنا محمد بن عمرو بن جَبَلَة ، حدثنا محمد بن مروان ، حدثنا عطاءٌ الأزرق ، قال : قال رجلٌ للحسن [2] : « يا أبا سعيد ، كيف أنت ؟ وكيف حالك؟ قال : كيف حالُ مَنْ أمسَى وأصبح ينتظر الموت ، ولا يدرى ما يُصنَع به » ؟

وأنشدنى منصورُ بن محمَّد الكُرَيْزِىّ : [الطويل]

تَخَيَّرْ قَرِينًا مِنْ فِعَالِكَ ؛ إنَّـــمَا ... يَزِينُ الفَتَى فِى القَبْرِ مَا كَانَ يَفْعَلُ [3]
فَإِنْ كُنْتَ مَشْغُولاً بِشَىْءٍ ، فَلا تَكُنْ ... بِغَيْرِ الَّذِى يَرْضَى بِهِ اللهُ تُشْـغَلُ [4]
فَلا بُدَّ بَعْـــدَ القَبْرِ مِنْ أَنْ تُعِدَّهُ ... لِيَوْمِ يُنَادَى المَــرْءُ فِيهِ فَيُسْـأَلُ [5]
فَلَنْ يَصْحَبَ الإِنْسَـانَ مِنْ قَبْلِ مَوْتِهِ ... وَلا بَعْدِهِ إِلا الَّذِى كَـانَ يَعْمَلُ [6]

= عــلم المحــبة بين لــريده ... وأدى القلوب عن المحجة فى عمى

[ديوان أبى العتاهية]

(1) سقط فى ط .

(2) الحسن بن أبي الحسن البصرى ، سيد التابعين فقهاً ، وعلماً وورعاً وزهداً توفى ١١٠ هـ ، وقد قارب الـ ٩٠ سنة . « تهذيب التهذيب » : ٢/٢٦٣ ، « حلية الأولياء » : ٢/١٣١ .

(3) فى هذا البيت يحضُّ الشاعرُ العاقلَ أن يصطفى حسن الفعال إذ إنها قرينة المرء فى قبره حين وحدته وهى أنيسه ، وزنينه .

كما قال الشاعر :

والقبرُ فاحذره وما وراءه ... فمــنه ما لا حــد براءة
وإن للمــوئل الذى به ... ينكشف الحال فلا يشتبه
والقبر إما روضة جنان ... أو حفرة من حفر النيران

[راجع مجموع حافظ الحكمى] .

(4) وكذلك ينبغى على العاقل ألا يُشْغَلَ إلا بمّا يورثه جنة ربه ومرضاته ، وبما يورثه المحاق والمناقب ، فإن تشاغل بشىء آخر فينبغى عليه ألا يشغل إلا بما يرضي الله ، ويرفع سخطه ، وإلا فقد قال الله : ﴿ ومن يحلل عليه غَضَبِى فقد هوى ﴾ [طه] .

(5) وهنا يذكر الشاعر أنّ ما أعددته مما يرضي الله سبحانه فإنما هو زاد لك ، وحجة تهديك يوم تسأل عمَّا اقترفت واجترحت ، ولا محالة العبد مَسْئُول .

وصدق الله إذ يقول : ﴿ وقفوهم إنهم مسئولون ﴾ [الصافات] . وقوله : ﴿ فلنسألن الذين أرسل إليهم ولنسألن المرسلين ﴾ .

(6) ويشير هنا إلى حكمة حزمٍ وأمرٍ حتم وهو مضمون قوله تعالى : ﴿ كل نفس بما كسبت رهينة﴾ [المدثر] . =

أَلا إِنَّمَا الإِنْسَانُ ضَيْفٌ لأَهْـــلِهِ   يُقِـيمُ قَلِيلاً ، بَيْنَهُمْ ثُمَّ يَرْحَـلُ [1]

أخبرنا على بن سعيد العسكرىّ ، حدثنا إبراهيم بن الجُنيد ، حدثنا محمد بن الحسين، حدثنا إسماعيل بن زياد ، قال : « قدم علينا عبد العزيز بن سليمان عَبَّادَانَ [2] فى بعض قَدَماته ، فأتيناه نُسَلِّم عليه ، فقال لنا : صَفُّوا للمنعم قلوبكم ، يكفكُم المُؤَنَ عند همكُم » . ثم قال : « لو خدمتَ [3] مخلوقًا فأطَلْتَ خدمتَه ، ألم يكن يرعَى لخدمتك حُرْمَة ؟ فكيف بمن يُنعِم عليك وأنت مُسِىء إلى نفسك ، تتقلَّب فى نعمه ، وتتعرَّض لنقمه [4] ؟ هيهاتَ هيهات [هذه] [5] همَّةُ البطَّالين ، ليس لهذا خُلقتم ، ولا بهذا [6] أُمرتم ، الكَيْسَ الكَيْسَ ، رحمكم الله » . وكان يفطر على ماء البحر .

قال أبو حاتم : لن تصفوَ القلوب من وجود الدَّرَن فيها ، حتى تكون الهمم فى الله هَما واحدًا ، فإذا كان كذلك ، كُفِىَ الهمَّ [7] فى الهموم ، إلا الهمَّ الذي يئول مُتَعَقَّبه[8]،[9] إلى إرضاء [10] البارى جلَّ وعزَّ ، بلزوم تقوى الله فى الخلوة والملأ [11] ، إذ هو أفضل زادِ العقلاءِ فى دارَيْهِم ، وأجلُّ مَطِيَّةِ الحكماء فى حالَيْهِم .

= وقوله : ﴿ وأن ليس للإنسان إلا ما سعى وأن سعيه سوف يرى ﴾ (النجم) . وقوله : ﴿ وكل إنسان ألزمناه طائره فى عنقه ﴾ (الإسراء) .

لذا فالمرء ينسب إلى عمله وهو مؤاخذٌ بفعله .

(١) وهنا يذكر الشاعر حقيقة حياة المرء إنما هى ثمَّ فى الدار الآخرة أما الدنيا فهى ممرٌّ لا مستقر : وقد صاغ هذا المعنى فى ثوب الاستعارة . ﴿ وإن الدار الآخرة لهى الحيوان . . ﴾ (العنكبوت) .

وصدق الشاعر إذ يقول :

لا دارَ للمرء بعد الموت يسكنها   إلا التى كان قبل الموت بانيها
فمن بناها بخير طاب مسكنها   ومن بناها بشـــر خاب بانيها

(٢) عبادان : بلد على شط العرب قرب مصبه فى الخليج الفارسى بينها وبين البصرة اثنا عشر فرسخاً .

(٣) فى الأصل : وجدت .

(٤) فى ط : لغضبه .

(٥) سقط فى ط .

(٦) فى ط : بذا .

(٧) فى الأصل : الهمة .

(٨) فى الأصل : تؤول منفعته .

(٩) متعقبه : عقباه وأضرته من العقاب والمعاقبة أن تجزى بما فعل سواء ، والاسم العقوبة وتعقبت الرجل إذا أخذته بذنب كان منه . اللسان (٤/٣٠٢٧) .

(١٠) فى ط : رضا .

(١١) الملأ : الجماعة من الناس والملأ الرؤساء لأنه ملاءٌ بما يحتاج إليه ، وهو مهموز مقصود الجماعة وقيل : أشراف القوم الذين يرجع لقولهم وفى الحديث : « هل تدرى فيما يختصم الملأ الأعلى» ، يقصد الملائكة المقربين . اللسان (٦/ ٤٢٥٢) .

وأنشدني محمد بن إسحاقَ بن حبيب الواسطيّ : [الطويل]

عَلَيْكَ بِتَقْوَى اللهِ فِي كُلِّ أَمْــــرِهِ　　تَجِدْ غِبَّهُ [1] يَوْمَ الحِسَابِ المُطَوَّلِ [2]

أَلا إِنَّ تَقْــــوَى اللهِ خَــيْرٌ مَغَبَّةً　　وَأَفْضَلُ زَادِ الظَّاعِــنِ المُتَرَحِّلِ [3]

قال [أبو حاتم] [4] : قد ذكرت هذا الباب بماله بالعلل والحكايات فى كتاب « محجة المبتدئين » [5] ، بما أرجو [6] الغُنْيَةَ للناظر إذا ما تأملها ، فأغنى ذلك عن تكرارها [7] فى هذا الكتاب [وحسبنا الله ونعم الوكيل] [8] .

* * *

---

(١) الغِب ، بالكسر : ما يعقب الشيء ، من خير أو شر . وجئته غِبَّ الأمر أي بعده . اللسان (٣٢٠٣/٥) .

(٢) يوصى الشاعر هنا بالتقوى مرغباً فى ذلك بعاقبتها الحسنى فى الحياة الدنيا ، كذلك فى الحياة الأخرى حيث هول الحساب وروعة العقاب كما قال الله : ﴿ يوماً يجعل الولدان شيباً ﴾ (المزمل)

وكما قال الشاعر :

يوم القيامة لو علمت بهوله　　لفررت من أهل ومن أوطان

يوم تشققت السماء لهـوله　　وتشيبت فيه ذوائب الولدان

يومٌ عــبوسٌ قمطريرٌ ذكره　　وفى الخلق منتشرٌ عظيم الشان

والجنة العليا ونار جـــهنم　　داران للخصــمين دائمـــتان

يوم يجئ المجرمون إلى لظـى　　يتلحــظون تلحظ العطـشان

ويجـــئ فيه المتقون لربهـم　　وفد أعلى نُجُبٍ من الـعقيان

(٣) ثم يزيد الترغيب بذكره فضل التقوى وعظمها يوم الحساب وأنه أفضل زاد يتزوَّد به المرء الرَّاحل إلى ربه كما قال الله : ﴿ وتزودوا فإن خير الزاد التقوى ﴾ (البقرة) .

(٤) سقط فى الأصل .　(٥) فى ط : المبتدئين .　(٦) فى الأصل : أرجو أن .

(٧) فى ط : تكراره .　(٨) سقط فى ط .

ذِكْرُ الحَثِّ عَلَى طَلَبِ (١) العِلْمِ، وَالْمُدَاوَمَةِ عَلَى طَلَبِهِ

أخبرنا محمد بن إسحاق بن خُزيمة، حدثنا محمد بن يحيى ومحمد بن رافع، قالا: حدثنا عبد الرزاق، أخبرنا معمر، عن عاصم بن أبى النَّجود، عن زرٍّ بن حُبَيش، قال: أتيت صفوانَ بن عَسَّال المراديَّ، فقال: ما جاء [بك] (٢)؟ قلتُ: جئت أُنبط العلم (٣)، قال: فإنى سمعت رسول الله ﷺ يقول: « **مَا مِنْ خَارِجٍ يَخْرُجُ مِنْ بَيْتِهِ يَطْلُبُ العِلْمَ إِلا وَضَعَتْ لَهُ المَلائِكَةُ أَجْنِحَتَهَا، رِضًا بِمَا يَصْنَعُ** » (٤).

---

(١) فى ط: لزوم. (٢) سقط فى ط.

(٣) أنبط العلم: استخرجه واستفاده كما ينبط الماء من البئر وغيرها.

(٤) أخرجه ابن حبان (٧٩) موارد بهذا الإسناد وصححه ابن خزيمة: ١/ ٩٧ برقم (١٩٣).

وأخرجه عبد الرزاق: ١/ ٢٠٥ برقم (٧٩٥)، ومن طريق عبد الرزاق أخرجه أحمد: ٤/ ٢٣٩ - ٢٤٠، وابن ماجه: ١/ ٨٢ فى المقدمة، باب: فضل العلماء والحث على طلب العلم (٢٢٦)، والدارقطنى: ١/ ١٩٧.

وأخرجه الشافعى فى « الأم »: ١/ ٣٤ - ٣٥، باب: وقت المسح على الخفين، والحميدى: ٢/ ٢٣٨ - ٢٣٩، برقم (٨٨١)، وابن أبي شيبة: ١/ ١٧٧ فى « الطهارة »، باب: المسح على الخفين، وأحمد: ٤/ ٢٤٠، والبيهقى: ١/ ٢٧٦، من طريق سفيان قال: حدثنا عاصم بن بهدلة به. وأخرجه أحمد: ٤/ ٢٣٩، ٢٤٠، عن عفان، ويونس، وأخرجه البغدادى فى « الرحلة فى طلب الحديث » برقم (٧) من طريق أبى جعفر الرازى جميعهم عن حماد بن سلمة، عن عاصم به.

وأخرجه أحمد: ٤/ ٢٤٠، والطحاوى فى « شرح معانى الآثار »: ١/ ٨٢، من طريق عفان كلاهما، حدثنا عبد الواحد حدثنا أبو روق عن عطية بن الحارث عن عبد الله بن خليفة، عن صفوان.. وأخرجه البيهقى: ١/ ٢٧٦ - ٢٨٢، من طريق أبى أسامة، عن أبي روق به، وأخرجه الحاكم: ١/ ١٠٠ - ١٠١ عن عبد الوهاب بن بخت، وعن المنهال بن عمرو وطلحة بن مصرف، كلهم عن زربه.

وأخرجه الطيالسى: ١/ ٣٤ برقم (٧٣) من طريق حماد بن سلمة وحماد بن زيد وهمام وشعبة جميعهم عن عاصم بن بهدلة به موقوفاً. وأخرجه أحمد: ٤/ ٢٤١، من طريق حماد بن زيد، وأخرجه النسائى: ١/ ٩٨ فى « الطهارة »، باب: الوضوء من الغائط والبول من طريق محمد بن عبد الأعلى حدثنا شعبة كلاهما حدثنا عاصم بن بهدلة به موقوفاً. وأخرجه ابن خزيمة: ١/ ١٣ برقم (١٧) عن حماد بن زيد وسفيان، كلاهما عن عاصم به موقوفاً.

وقال الحاكم: فقد أسنده جماعة، وأوقفه جماعة، والذى أسنده أحفظ والزيادة منهم مقبولة =

قال [أبو حاتم] (١) : الواجب على العاقل إذا فرغ من إصلاح سريرته : أن يُثَنِّى بطلب العلم ، والمداومة عليه ، إذ لا وصول للمرء إلى صفاء شيء من أسباب الدنيا إلا بصفاء العلم فيه ، وحكمُ العاقل ألا يُقَصِّر فى سلوك حالةٍ توجب له بَسْطَ الملائكة أجنحتها ، رضًا بصنيعه ذلك .

ولا يجب أن يكون متأملاً فى سعيه الدنوَّ من السلاطين ، أو نَوَالَ الدنيا به ، فما أقبح بالعالِم التذللَ لأهل الدنيا !

حدثنا محمد بن إبراهيم الخالدىّ ، حدثنا داود بن أحمد الدمياطىّ ، حدثنا عبد الرحمن بن عفَّان ، قال : سمعت الفُضَيل بن عِياض يقول : « ما أقبح بالعالِم يُؤتَى إلى بابه (٢) ، فيقال : أين العالم ؟ فيقال : عند الأمير ، أين العالم ؟ فيقال : عند القاضى ، ما للعالِم وما للقاضى ؟ ما للعالِم وما للأمير ؟ ينبغى للعالم أن يكون فى مسجده يقرأ فى مُصْحَفه !

حدثنا أبو يَعْلَى ، حدَّثنا غَسَّان بن الربيع ، حدثنا سليم مولى الشعبىّ ، عن الشعبىّ، قال : « يا طلابَ العلم ، لا تطلبوا العلم بسفاهةٍ وطَيْشٍ ، اطلبوه (٣) بسكِينة ووَقارٍ وتُؤدَة » .

وأنشدنى محمد بن عبد الله بن زَنجىّ البَغدادىّ : [الطويل]

وَفِى العِلْمِ وَالإسْلامِ لِلْمَرْءِ وَازِعٌ ... وَفِى تَرْكِ طَاعَاتِ الفُؤَادِ المُتَيَّمِ (٤)

= وقال الحافظ فى « الفتح » : ١/٣٠٩ : وحديث صفوان ، وإن كان صحيحاً ، لكنه ليس على شرط البخارى .

ويشهد له حديث أبي الدرداء ، أخرجه أبو داود : ١/٣٤١ فى « العلم » ، باب : الحث على طلب العلم (٣٦٤١ ، ٣٦٤٢) ، وابن ماجه : ١/٨١ فى « المقدمة » ، باب : فضل العلماء والحث على طلب العلم (٢٢٣) ، والبخارى فى « التاريخ الكبير » : ٨/٣٣٧ ، والترمذى : ٥/٤٧ ، فى العلم ، باب : ما جاء فى فضل الفقه على العبادة (٢٦٨٢) ، وأحمد : ٥/١٩٦ ، والدارمى : ١/٩٨ فى « المقدمة » ، باب : فضل العلم والعالم ، وابن حبان (٨٠ موارد) ، والخطيب فى « الرحلة فى طلب الحديث » برقم (٥٠٤) ، والخطيب فى « تلخيص المتشابه » : ٢/٧٣٤ ، والبغوى : ١/٢٢٣ برقم (١٢٩) ، وذلك فى شرح السنة بتحقيقنا .

(١) سقط فى الأصل . (٢) فى ط منزله . (٣) فى الأصل : واطلبوه .

(٤) يذكر الشاعر هنا فضل الديانة والعلم وأنها تكفكف المرء عما يشين ويزرى به .

وكما يقول الشَّاعِر فى فضل العلم : =

بَصَـائِرُ رُشْـدٍ لِلفَتَى مُسْتَبِينَةٌ   وَأَخْلاقُ(١) صِدْقٍ عِلْمُهَا بِالتَّعَلُّمِ(٢)

أخبرنا إبراهيم بن نصر (٣) . . . حدثنا عبد بن حُميد ، حدثنا سعيد بن عامر ، عن حميد بن الأسود ، عن (٤) أبى عيسى الخيّاط ، قال : قال الشعبىّ : « إنما كان يطلب هذا العلمَ من اجتمعت فيه خَصلتان : العقل والنسك ، فإن كان عاقلاً ولم يك ناسكاً قال (٥) : هذا أمر لا يناله إلا النُّسّاك ، فلم يطلبه ؛ وإن كان ناسكًا ولم يكن عاقلاً قيل: هذا أمرٌ لا يناله إلا العقلاء ، فلم يطلبه » . قال الشعبىّ : فلقد رَهِبتُ أن يكون يطلبه اليومَ من ليس فيه واحدة منهما ، لا عقلٌ ولا نُسُك » .

قال [أبو حاتم] (٦) : العاقل لا يبيع حظًّ آخرته بما قصد فى العلم ، لما يناله (٧) من حُطام هذه الدنيا ؛ لأن العلم (٨) ليس القصد فيه نفسَه دون غيره ، لأن المبْتَغَى من الأشياء كلها ، نفعُها [لا نفسها] (٩) ، والعلم ونفع (١٠) العلم شيئان ، فمن أغضَى عن نفعه ، لم ينتفع بنفسه ، وكان كالذى يأكل ولا يشبع ، والعلم له أول وآخر .

كما حدثنا أحمد بن على بن المثنى ، حدثنا عمروٌ الناقد ، حدثنا يحيى بن اليمَان ، قال : سمعت سفيان يقول : « أول العلم الإنصات ، ثم الاستماع ، ثم الحفظ ، ثم العمل به ، ثم النَّشْر » ، وأنشدنى الأبرش : [الطويل]

تَعَـلَّمْ فَلَيْسَ المَرْءُ يُولَدُ عَالِمًـا   وَلَيْسَ أخُو عِلْمٍ كَمَنْ هُوَ جَاهِلُ(١١)

= ويجلو ما بعينكَ من غشاها   ويهـديك السبيل إذا ضللنا

[تائية أبى إسحاق الإلبيرى] راجع ديوانه .

(١) فى الأصل : وإخلاص .

(٢) كذلك قيد الشطر الثانى من البيت الأول بمعنى البيت الثانى إذ الواو استئنافية ، فيقول : وترك إتباع الهوى والغى يورث المرءَ الرَّشَادَ ، والبصيرة ، وكذلك الصِّدْق ، والإخلاص .

(٣) فى الأصل : نصر العنبرى . (٤) فى الأصل : عن عيسى . (٥) فى ط : قيل .

(٦) سقط فى الأصل . (٧) فى الأصل : بما ينال . (٨) فى الأصل : العالم .

(٩) سقط فى الأصل . (١٠) فى ط : ونفس .

(١١) هذا البيت دعوة إلى العلم ، والحث على تعلمه ؛ إذ الأصل فى المرء الجهل ، وعدم المعرفة ! كما يقول الله تعالى : ﴿ والله أخرجكم من بطون أمهاتكم لا تعلمون شيئاً ، وجعل لكم . . ﴾ (النحل) . وبها استشهد العلماء على أنَّ الأصل فى المَرْءِ الجهل . وكذلك يقارن الشاعر بين من هو عالم رفيع ، ومن هو جاهل وضيع . مصداقاً لقوله تعالي : ﴿ هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون ؟!!! » .

وإنَّ كَبيرَ القَومِ لا عِلْمَ عِنْدَهُ صَغيرٌ (١) إذَا الْتَفَّتْ عَلَيْهِ المَحَافِلُ(٢)

أخبرنا أبو يَعْلَى ، حدثنا إسحاق بن إسماعيل الطالَقانيُّ ، حدثنا جرير ، عن بُرْدِ بن سِنان ، عن سليمان بن موسى ، قال : قال أبو الدرداء : « لا تكونُ عالـمًا حتى تكونَ متعلمًا ، ولا تكون بالعلم عالـمًا ، حتى تكون به عاملاً .

قال [أبو حاتم] (٣) : العاقل لا يشتغل فى طلب العلم إلا وقصدُه العملُ به ، لأن(٤) من سعى فيه لغير ما (٥) وصفنا ، ازداد فخراً وتَجَبُّرًا ، وللعمل تركًا وتضييعًا ، فيكون فسادُه فى المتأسين به [فيه] (٦) ، أكثرَ من فساده فى نفسه ، ويكونُ [مثله] كما قال (٧) الله تعالى : ﴿ وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ أَلا سَاءَ مَا يَزِرُونَ ﴾ .

أخبرنا محمد بن إبراهيم الخالدىّ ، حدثنا داود بن أحمد ، حدثنا عبد الرحمن بن عفان ، قال : سمعت الفُضَيل بن عِياض يقول : « فى جَهَنَّم أَرْحِيَةٌ (٨) تَطْحَن العلماء طَحنًا ، فقيل : مَنْ هؤلاء ؟ قال : قوم عَلِموا فلم يَعملوا » .

أخبرنا عبد الله بن محمد (٩) السعدىّ ، حدثنا محمد بن النَّضْر بن مُساور ، حدثنا جعفر بن سليمان ، عن مالك بن دينار ، قال : « إذا طلب [الرجلُ] (١٠) العلم ليعمل به ، سرَّه علمه ، وإذا طلب العلم لغير أن يعمل به ، زاده علمه فخراً » .

أخبرنا محمد بن عمرو بن سليمان ، حدثنا محمد بن رافع ، حدثنا محمد بن بشر ، حدثنى سَلَمة (١١) بن الخطاب ، عن عبد الحميد بن أبى جعفر الفَرّاء ، قال : قال الحسن: «مَنْ أَحبَّ الدنيا وسَرَّتْهُ ، ذهب خوفُ الآخرة من قلبه ، ومن أزداد (١٢) علمًا ، ثم ازداد على الدنيا حرصًا ، لم يزدد من الله إلا بُعْدًا ، ولم يزدد من الله إلا بُغْضًا » .

---

(١) فى الأصل : حقت .

(٢) وهنا يَصْدَعُ بهذه الحقيقة اللامعةَ السَّاطعةَ وهى : أن قدر الإنسان ، وعظمته ، وجلالته إنَّما هى بالعلم لا بغيره . فبه الصغيرُ يعظمُ ويكبر ، وبدونه العظيمُ ينحطُّ ويصغر .

(٣) سقط فى الأصل . (٤) فى الأصل : لأنه . (٥) فى الأصل : بما .

(٦) سقط فى الأصل . (٧) فى ط : ويكون مثله كما قال .

(٨) أرجية : جمع رحى والرحى الحجر العظيم التى يطعن بها والجمع أرحاء ورُحِىٌّ ورِحِيٌّ وأرحية. اللسان (٣/ ١٦١٤) .

(٩) فى الأصل : محمود . (١٠) سقط فى الأصل .

(١١) فى الأصل : مسلمة . (١٢) فى ط : أراد

أخبرنا محمد بن المُنذر بن سعيد ، حدثنى أحمد بن إبراهيم الحَذَثّى (١) ، حدثنى إسماعيل بن الحارث ، حدثنى محمد بن الحسن المدينىّ ، حدثنا أبو العوّام ؛ أن إبراهيم سمع صوت هاتف ، وهو يقول : [المنسرح]

يَا طَالِبَ العِلْمِ بَاشِــــرِ الوَرَعَا ... وبَايِنِ النَّوْمَ ، وَاهْجُرِ الشِّبَعَا (٢)

مَا ضَــــرَّ عَبْدًا صَــحَّتْ إرادَتُهُ ... أجَاعَ فِى اللهِ يَوْمًا أوْ (٣) شَبِعَا (٤)

مَا ضَرَّ عَبْدًا صَحَّتْ عَـزِيمَتُهُ (٥) ... أيْنَ مِنَ الأرْضِ ، أيْنَما صَقَعَا (٦) (٧)

---

(١) الحدثى لعله نسبة إلى بلدة على الفرات فوق هيت والأنبار . الأنساب : ٢/١٨٨ ص ٢٣ ، ١/٣٤٩ ، ولب الألباب : ١/٢٣٩ .

(٢) وهذا البيت وخمسة الأبيات بعده فى نصح طالب العِلْم وتحفيزه ومدحه وفى التعريض بالناس، ودنو قدرهم عن مكانة طالب العلم .

فهنا يعظ الشَّاعِرُ طالب العلم بأن يجد ، لا يكثر النوم ، لأنه ما خلق لينام ، وأن يعزل الشبع إذ ما تمتلئ المعدة رلا وتخمدُ الفطنة كما قال الحكماء : « البِطْنَة تُذهب الفطنة » ، وكذلك ينبغى عليه أن يتورّع فيعفّ عن الدنيا ؛ لأنه طالب للعلم ؛ فليربأ بنفسه عن هذه الدَّنَايَا . كما جاء ذلك فى أشعار أخرى ففى الطَّعام .

قال الفحطانى :

لا تحشى بطنك بالطعام تسمنًا ... مجسوم أهل العلم غير سمان

وأملك هواك بضنك بطنك إن ... شر الرجال العاجز البطـــان

وقال غيره فى الحث على مباينة النوم والجد فى الطلب للعلم .

إذا كان يؤذيك حرُّ المصيف ... ويبــس الخريف وبردُ الشتّا

ويلهيك حسنُ زمان الرَّبيع ... فأخـذك للعـلم قل لى متى

(٣) فى ط : أجاع يوماً فى الله أو .

(٤) وهنا يواسى العبد الطالب لمرضاة الله تعالى أن يوطن نفسه على ما ابتلى به في دنياه ، فإن أصاب نعماء ، وشبعاً شكر ، وإن أصابته بأساء ومخمضة صبر فهو يتقلب بين الصبر ، والشكر ما دام فى رضا الله ومرضاته وليذكر قول النبى إن صح الحديث : « إن لم يكن بك غضب علىُّ فلا أبالى » .

اصبر على خلو الَّمَانِ وَمُرِّهُ ... واعلم بأنَّ اللهَ بالغ أمـــره

(٥) فى ط : عزائمه .

(٦) صقع : توجه فى أصقاع الأرض ، يقال : ما أدرى أين صقع وبقع ؟ أى ما أدرى أين ذهب . اللسان (٤/٢٤٧) ، يريد : ما يضر المرء العاقل إذا صادفه ما لا يحب فى بلده ، أن يتجه إلى أصقاع الأرض الواسعة .

(٧) كذلك هنا يقول : لا مضرة ولا أذى على العبد أن يترجل وينزل ما شاء من البلاد ما دام هو بالله ولله وفى سبيل الله معقد ذلك صحة العزم والنية إذ : « الأعمالُ بالنيات » . =

مَا طَمِعَتْ نَفْـــسُ عَابِدٍ فَتَـــوَى سُــــؤَالَ قَوْمٍ إِلا لَهُمْ خَضَـعَا (١)

يَأَيُّهَـــا النَّاسُ ، مَا لِعَالِمِكُـــمْ فِي مَاءِ بَحْرِ الْمُلُوكِ (٢) قَدْ كَرَعَا (٣)(٤)

= ويرحم الله شيخ الإسلام ابن تيمية إذا كان يَقُول كثيراً فى حين كيد الأعداء له : « وإن قتلونى فقتلى شهادة أدخل بها جنة ربى وإن نفونى فنفى سياحة .. وهكذا ..

(١) وتحرير المعنى هنا : أنه ينبغى على العاقل أن يتقنع فى الدنيا بما آتاه الله تعالى فعز من قنع ، وألا يطمع لئلا يذل أو يخضع فقد ذلك من طمع ، وما يرى المرء كنزاً يدخره كالقناعة فنعم كنز لا يفنى ، وكما يقول أبو العتاهية :

مَنْ سأَلَ النَّاسَ يهن عليهمُ بُؤْســاً لمن حاجته إليهـم

مَنْ ســــأل يخيبـــوه ويعرضوا عنه ويحـــرموه

وقال أيضاً :

ما أكثَرَ القوتَ لمن يَمُوتُ

القُوتُ من حلّ كثيرٌ طيبُ والحـــظ بِكرٌ تارةً وثيِّبُ

ويرحم اللهُ الإمَامَ الأحوذىّ الألمى ذا الذّهن المتوقد ذكاء ، وعلماً ، أعنى أبا محمد على بن حزم عندما قال : « الطمعُ أصلٌ لكلّ همٍّ وذُلّ ... وعلى قدر الطَّمَع يحدثُ الهمُّ وإذا حدث الطَّمع .. تبعه الهمُّ والأسف والغيظ والفكرة ، وتلف النفس والدُّنيا والآخرة [راجع « مداواة النفوس » لابن حزم الأندلسى ص ١٧١ ، ١٧٢ - طبعة دار المعارف ، تحقيق د . الطاهر أحمد مكى ، وهو كتاب غاية فى بابه وجدير اقتناؤه ..] .

(٢) فى ط : ماء بحر الملوك .

(٣) كرع فى الماء يكرع كروعاً وكرعاً : تناوله بفيه من موضعه لا بكفه ولا بإناء وقيل : هو أن يدخل النهر ثم يشرب كما تفعل البهائم ؛ إذا تدخل أكراعها . اللسان (٥/٣٨٥٨) .

(٤) ثم يزرى هنا بالعالم المتهتك الذى تبع الملوك والسلاطين وأرباب الإمارة وأساغ ماءهم وطلب العلّ بعد الذهل وابتغى بعلمه عرض الدنيا وحطامها .

ويرحم الله ابن الجوزى لما حذر من هذا كل التحذير وقد عض بناب هذا الباب لولا رحمة تداركته من الغفور الوهاب (راجع « صيد الخاطر » .

ومن أروع ما قيل فى هذا الباب من تنزه العالم وترفعه عن هذه الدنيا وفى الاعتزاز بالعلم ما قاله القاضى الجرجانى - رحمه الله .

يقـــولونَ لى فيك انـقباضٌ وإنما رأوا رَجُلاً عن موقف الذُلِّ أحْجَمَا

أرى النَّاسَ من دَنَاهمُ هَانَ عـندهم ومن أكرمته عزَّةُ النفس أُكْـــرِمَا

وما زلتُ منحـــازاً بعرصتى جانباً من الذَّمِّ أعتدُّ الصـــيانَةَ مغنـــما

إذَا قـيل هذا مشرب قلت قد أدرى ولكنّ نفس الحر تتحـــمَل الظَّما

وما كـلُّ برق لاح لى يســتفزُّنى ولا كل أهل الأرض أرضـاه مغنما

ولم أقض حقّ العلم إن كان كُلَّمَا بلا مطمـــع صـــيرته لى سُلَّمـا =

يَأَيُّهَا النَّاسُ ، أَنْتُــــــــــمْ زرَعٌ   يَحْصُــدُهُ المَــوْتُ كُلَّمَا طَلَعَا (١)

أخبرنا ابن سالم (٢) ، حدثنا الحسين (٣) بن عبد الرحمن الاحتياطىّ ، حدثنا يحيى

= ولم أبتذل فى خدمة العلم مهجتى   لأخــدمَ من لَقِيتُ لكن لأُخْــدَمَا
أأشـــقى به غرســاً وأجنيه ذلة   إذن فاتباع الجهل قد كان أحــزما
ولو أن أهل العلم صانوه صانهم   ولو عظــموه فى النفــوس لَعُظِّمَا
ولكن أهَـــانوه فهـــانوا ودنَّسوا   مُحَــيَّاهُ بالأطْمَاع حتّى تَجَهَّـــمَا

(١) ثم هنا يلتفت إلى الناس متهكماً معرضاً بهم بالنسبة إلى حياة أهل العلم فهم حصيد الموت قرين الفناء والذهاب ، خلافاً لأهل العلم فإنهم أحياء وإن ماتوا .

قال الشاعر : وفى الجهل قبل الموت موت لأهله وأجسامهم دون القبور قبورُ ، وقال غيره :

ما الفخر إلا لأهل العلم إنَّهُمُ   على الهدى لمن استــهدى أدلاءُ
وقدر كل امرئ ما كان يحسنه   والجاهـــلونَ لأهل العلم أعْدَاءُ
ففز بعلم تعـــش حياً به أبداً   النَّاسُ موتى وأهل العلم أحياء

وكذلك يقول الألبيرى موصياً ابنه :

ينالك نفعه ما دمت حياً   ويبقى ذكره لك إن ذهبتا

وهناك أبيات فى فضل العلم والحث عليه للعلامة حافظ بن أحمد الحكمى رحمه الله قال :

العِلْمُ أعْلَــى وأحْلَى مَالَهُ اسْتَمَعَتْ   أُذنٌ وأعــرب عَنْه ناطقٌ بِفَــــــمِ
العِلْمُ غايته القُصْوَى ورُتْبَتُهُ السعلياء   فَاســــعوا إليه يا أُولى الهــــمِ
العلم أشــــــرفُ مطلوب وطالبه   لله أكــــرم من يمشى على قـــدمِ
العـــلم نورٌ مبينٌ يســـتضئ به   أهلُ السَّــعادة والجهال فى الظــلمِ
العـــلم أعلى حـــياة للعباد كما   أهل الجـــهالة أمـــوات بجهلهمِ

وقال أيضاً :

العـــلم يا صاحِ يستغفر لصاحبه   أهْــلُ السموات والأرض من لمِ
كــذاك تستغفرُ الحيتانُ فى لججٍ   مِنَ البِحَارِ لَهُ فى الضَّوْءِ والظُّلَمِ
وإن أجـــنحة الأمْلاك تَبْسُطُهَا   لطالبيه رِضًى مِنْهُم بصـــنعهم
والسالكون طريق العلم يسلكهم   إلى الجـنان طريقاً بارئ النسمِ

وقال :

كفاك فى فضل العلم إن رفعوا   مــن أجله درجات فوق غيرهمِ
وكان فضل أبينا فى القديم على   الأملاك بالعلم من تعليم ربهمِ

وقال أيضاً :

وبالمهم المهم ابدأ لتدركه   وقدم النص والآراء فانتهم

[راجع مجموع حافظ بن أحمد الحكمى ص ٣ ، ٤ ، ٥ من منظومته الميمية فى « الوصايا والآداب العلمية » من المجموع له - نشر مكتبة ابن تيمية ١٤١٠ هـ - ١٤٩٠ م .

(٢) فى الأصل : سلم .   (٣) فى الأصل : الحسن .

ابن اليمان العجليّ ، عن سفيان الثوريّ ، قال : « العالم طبيب الدين ، والدّرهم داء الدين ، فإذا اجترّ [الطبيب] (1) الداء إلى نفسه ، فمتى يداوى غيره » ؟

أنشدنى أحمد بن محمد الصَّنْعَانىُّ ، أنشدنى محمد بن عبد الله العراقىّ : [الطويل]

عَـــنُوا يطْلُبُونَ العِلْمَ فِى كُلِّ بَلْدَةٍ	شَبَابًا ، فَلَمَّا حَصَّلُــوهُ وَحَشَّــرُوا
وَصَــحَّ لَهُمْ إِسْــنَادُهُ وَأُصُــولُهُ	وَصَارُوا شُــيُوخًا ضَيَّعُوهُ وَأَدْبَـرُوا
وَمَـالُوا عَلَى الدُّنْيَا ، فَهُمْ يَحْلُبُونَهَا	بِأَخْلافِهَا مَفْتُوحُهَا لا يُصَرَّرُ (2) (3)
فَيَا عُلَمَاءَ السُّوءِ ، أَيْنَ عُقُولُكُــمْ ؟	وَأَيْنَ الحَدِيثُ المُسْنَدُ المُتَخَيَّرُ ؟! (4)

---

(1) سقط فى الأصل .

(2) أخلاف الناقة : حلمات ضرعها المقادمان والآخران ، واحدها خِلف بالكسر . اللسان (2/ 1240) ، ولا يصرر : أى لا يشدد بالصرار ، وهو خيط يشد فوق الخلف ، لئلا يرضعها ولدها. اللسان (4/ 2430) .

(3) فى الأصل : تقدر .

(4) هنا يتكلم الشَّاعرُ عن علماء السُّوء وكيف أَنَّهم ضلُّوا السبيل بعد ما ظفروا بالعلم ، وحازوا أصوله ، ومعاقدة . فهم كمن قال الله فيهم ﴿ كالتى نقضت غزلها من بَعْد قوة أنكاثاً ﴾] النحل) ، وكمن قال فيه : « الذى آتيْنَاهُ آياتنا فانسلخ منها فأتبعه الشيطان فكان من الْغَاوِينَ ﴾ (الأعراف) .
وأولئك قال فيهم القاضى الجرجانى – رحمه الله – ، ونعم ما قال :

ولو أن أهل العلم صانوه صانهم	ولو عظموه فى النفوس لعظما
ولكــن أهــانوه فهانوا ودنســـوا	مُحَــيَّاهُ بالأطماع حتى تجهما

ويرحم الله من قال فيهم :

يا عـــلماء الدّين خافوا الله	دنيا الهوى قد خاب من زكاها
يا علماء الدين يا ملح البلد	من يصلح الملح إذا الملح فســد

فأولئك من شرار الخلق عند الله تعالى ، وقد رهَّب الله فى آيات كثيرة من عقبى من يشترى بآيات الله ثمناً قليلاً ، وأوعدهم بنار جهنم ، وبئس مثوى الفاسقين ، وقد ذُكرَ أَحَاديثُ كثيرة فى ذلك ، وهى صحيحةٌ صريحةٌ فى إيعادهم ، وترهيبهم ، ويرحم الله علماء المسلمين لما كانوا يوصون صلابهم بالحذر من مغبة الإفساد بالعلم .

ويرحم الله العلامة حافظ بن أحمد الحكمى عندما قال :

يا طالبَ العلم لا تبغى به بدلاً	فقــد ظفرت ورب اللــوح والقلم
وقدس العلم واعرف قدر حرمته	فى القول والفعل والآداب فالتزم
واجــهد بعزم قوى لا أنثناء له	لو يعلم المرء قــدر العلم لم ينم
والنية اجعل لوجه الله خالصة	إنَّ البناء بدون الأصــل لم يقم
ومن يكــن لقول الناس يطلبه	أخســر بصفقته فى موقف النــدم

=

أخبرنا جعفر بن محمد الهَمْدَانى (١) بصُور ، حدثنا محمد بن عبد الله البَعْلَبَكى ، قال: سمعت عمى محمد بن زيد قال (٢) : كنت مع ابن المبارك ببغداد ، فرأى إسماعيلَ ابن عُلَيَّةَ راكبًا بغلة [له] (٣) على باب السلطان ، فأنشأ يقول : [السريع]

يَا جَاعِــلَ الــدِّينِ لَهُ بَازِيًا ... يَصْطَادُ أَمْوَالَ السَّلَاطِينْ (٤) (٥)

لاتَبِــعِ الدِّينَ بِدُنْيَا كَــمَا ... يَفْعَلُ ضُــلَالُ الرَّهَــابِينْ

إِحْــتَلْتَ لِلدُّنْيَا وَلَذَّاتِهَــا ... بِحِــيلَةٍ تَذْهَــبُ بِالدِّينْ (٦)

= ومن به يبتغى الدُّنْيَا فليس لـه ... يوم القيامة من حــظٍّ ولا قسم

وقد أحسن الشَّاعرُ تصوير حال علماء السُّوءِ فى هذه الأبيات .

إذكر حال طلبهم ، وهم شباب قد ركبوا السفر ، والتحفوا الجد والاجتهاد واحتذوا نعال الصبر ، حتى ظفروا بالأُصُولِ ، ورزقوا أمام حقائق العلم المثول ، فلما تَمَّ لهم البِنَاءُ ، وبلغت رتبتهم عنان السماء ، وأُشِيرَ إليهم بالبناء ، خانوا العهد ، ونقضوا الوَعْدَ وراحوا يستبدلون الدُّرَّ بالحصى فبئس ما صنعوا ، وبئس ما اشتروا ، وبئس ما افتروا . . . !

وحينئذ حُقَّ للشاعر أن يقلب دفَّةَ الحديثِ عليهم ، باستفهامه الإنكارى أين عقولكم ؟ يا ذوى العقل ! وأين مصابيحكم يا حملة الهدى . . . ؟!!!

وصدق من قال :

عجبــاً لمبتاع الضَّلالة بالهدى ... وللمشترى دنياه بالدين أعجبُ

وَأعجبُ من هذين من باع دينه ... بدنيا سواه فهو من ذين أَخيَبُ

[راجع « التعالم » للـ د . بكر بن عبد الله - مكتبة التربية الإسلامية ص ٩٧] .

ويرحم الله الألبيدى لما قال فى قصيدته الفريدة :

لا يعذر الجاهل فى جهله ... فضلاً عن العــالم بالله

[راجع ديوان الإلبيرى]

ـوهذه الأبيات من روائع ابن المبارك رحمه الله تعالى ، وهى فى نفس معان الأبيات السابقة تماماً (٧٢ ، ٧٣ ، ٧٤ ، ٧٥) .

(١) فى الأصل : الهمذانى . (٢) فى الأصل : يزيد يقول .

(٣) سقط فى ط . (٤) فى الأصل : المساكين .

(٥) فيقول : يا من سفهت الطريق أو زكمت عن الترَّحيق ! كيف تجعل الدين عُرضاً وسلماً للدنيا وشصاً لكل شيصَة ؟!!! ولسان حاله حينئذ كمن قال عن نفسه :

لَبِسْــتُ الخَمِيةَ أَبغِى الخَبِيصَةَ ... وأنشبت شِصتّى فى كُلّ شيصَهْ

وصــيرت وعظى أُحبُولَةً ... أُرِيغُ القَــنِيصَ بِهَا والقَنِيصَهْ

[مقامات الحريرث ص ١٣] - طبعة الحلية .

(٦) ثم يذكره هنا بالخير والبر عله يرعوى ويفيق من سفه فذكره بالحذر من بيع الدّين بالدنيا فتلوح هنا آيات الله ووعيده لمن صنع ذلك !! =

وَصِـرْتَ مَجْنُونًا بِهَا بَعْـــدَمَا كُـــنْتَ دَوَاءً لِلْمَجَـــانِينْ
تُفَكِّرُ (١) النَّاسَ جَـــمِيعًا بِأَنْ زَلَّ حِـــمَارُ العِلْمِ فِي الطِّينْ (٢)

أخبرنا عبد العزيز بن الحسن البرذَعِىّ ، حدثنا زكريا بن يحيى ، حدثنا أحمد بن عبد الله التسْتَرِىّ ، قال : « لما أنْ وَلِىَ (٣) ابنُ عُلَيَّةَ (٤) صدقات الإبل والغنم بالبصرة ، كتب إليه ابن المبارك كتاباً ، وكتب فى أسفله : [السريع]

= ثم قارن حالته هذه بحالة الرهبان أولى الضلال ، وفيه إلماعة أيضاً إلى قوله تعالى : ﴿ إنَّ كثيراً من الأحبار والرُّهبان ليأكلون أموال النَّاسِ بالباطل ﴾ ولابن المبارك أيضاً بديع أبيات فى ذلك فيقول منفراً من حال علماء السوء :

رأيتُ الذنوب تميتُ القلوبَ وقد يورثُ الذُّلَّ إدْمَـــانُهَا

إلى قوله :

وهل ضَيَّع الدين إلا الملوك وأحــــبارُ سوءٍ ورُهْبَانُهَا

[راجع ديوان ابن المبارك]

(١) فى ط : ففكر .

(٢) وهنا يرهبه من مغبة فعلته الشنعاء : أنْ باع الدِّين بالدنيا ، فهذا هو عين الجنونِ ، والسفه بعد أن كان عَلَماً فى دفع السَّفاهِ والجنون .... طبيب يداوى الناس وهو مريض .

وقال أبو الأسود الدؤلى - رحمه الله تعالى - :

يا أيها الرجــــل المعلم غـــيرة هلا لنفســـك كان ذا التعـــليم
تصـــفُ الدَّواءَ لذى السقام وذى الضنى كيما يصحّ به وأنت سقيم
ابدأ بنفســـك فانهها عن غيهـا فإذا انتهـت عنه فأنت حكـــيم

وحسبك قول الله تعالى : ﴿ أتأمرون الناس بالبر وتنسون أنفسكم ﴾ ... [البقرة] .

ثم يذكر الشاعر أخيراً :

أنَّ العالم البارع والأصل الفارع لما انحطّ وَزَلّ صار حِمَاراً للعلم وفي هذا إلماحة إلى قوله تعالى مُوَبِّخاً من لم ينتفع بعلم :

﴿ كمثل الحمار يحمل أسفاراً ﴾ !! [الجمعة] .

وهذا يذكر بأبيات لمروان ابن أبى حفص عند ما ذمَّ أهل الجهل والسفه ممن لا ينتفع بعلم ولا يبصر معناه :

زوامل للأشعار لا علم عندهـا بجـــيدها إلا كعلم الأباعـر
لعمرك ما يدرى البعيرُ إذَا غدا بأوساقـــه أوراح ما فى الغرائر

[المزهر للسيوطى] : ٣١١/٢

(٣) فى ط : وَلّى .

(٤) إسماعيل بن إبراهيم بن علية (كسمية) أبو بشر أحد الأئمة الأعلام (١١٠ - ١٩٣) هـ ينظر «تهذيب التهذيب » : ٢٧٥/١ « التقريب » : ٦٥/١ ، « سير الأعلام » : ١٠٧/٩ ، « تاريخ بغداد» ٢٢٩/٦ - ٢٤٠) .

يَا جَاعِــــلَ الدِّينِ لَهُ بَازِيًا يَصْــطَادُ أَمْوَالَ المَسَاكِــينْ
إِحتَلْتَ لِلدُّنْيَا وَلَذَّاتِهَـــــا بِحِــيلَةٍ تَذْهَبُ بِالدِّينْ (١)
يَا فَاضِحَ العِلْمِ وَمَنْ كَانَ ذَا لُبٍّ وَمَنْ عَابَ السَّلَاطِينْ (٢)
أَيْنَ رِوَايَاتُكَ فِي سَــرْدِهَا عَنِ ابْنِ عَوْنٍ وَابْنِ سِيرِينْ (٣)

[وزاد غير أحمد بن عبد الله] (٤) : [السريع]

إِنْ قُلْتَ : أُكْرِهْتُ فَمَا ذَا كَذَا زَلَّ حِمَارُ العِلْمِ فِي الطِّينْ (٥)

فلما قرأ ابن عُلَيَّةَ الكتاب بكى ، ثم كتب جوابه ، وكتب فى أسفله : [المنسرح]

أُفٍّ لِدُنْيَـــا أَبَتْ تُـــوَاتِينِي إِلا بِنَقْـــصِي لَهَا عُرَا دِينِي (٦)
عَـــيْنِي لِحَـــيْنِي تُدِيرُ مُقْلَتَهَا تَطْلُبُ مَا سَرَّهَا لِتُرْدِينِي (٧) (٨)

---

(١) هذان البيتان قد مضيا فثم حلبٌ درهماً !

(٢) أى عاب السلاطين ، واللام فيه زائدة ، وقد تزاد فى مثله كثيراً .

(٣) لاحظ فى البيت (٨٣) إقواء حيث الروى نون مفتوحة .. وهذان البيتان توبيخاً أيضاً لمن رغب عن العلم واشترى به عاجل الدُّنيا وبريقها .

فهذا الخاطب للعلم قدماً ، لما رام بالعلم عدماً ، أصبح له فاضحاً مدنّساً ، وَاذكر أبيات الجرجانى .

ولو أنّ أهل العلم صانوه صانهم ولو عظموه فى النّفوس لَعُظِّـــــمَا

وانظر هذه : ثم يزيد النكاية فيه :

فيذكره برواياته وجلالته فى سردها عن الأكابِرِ الثّقات كابن سيرين وابن عون : عَلَّهُ يتَّعظُ ويرعوى، ويثوب إلى رشده ويثوب لصوابه . . . !!

وتختم هذه الأبيات وسابقتها بعمل يقول الناظم :

فاعمل بعشر العلم كالزكاة تنجو بنور العلم من ظلـــمات
فعالم بعلمه لم يعملـــــن معذب من قبل عباد الـــوثن

(٤) سقط فى الأصل . (٥) سبق معناه وغالب لفظه .

(٦) هذا البيت وتاليه هما زفرة أسى ، وندم ، وتحسُّر على ما بَدَرَ من صاحبها من الخطأ فى جنب الله ، فهنا يتضجر متأففاً من صنيعته ، ومن الدنيا الدَّنِيَّة التى لا تُجلَبُ الحظوظ فيها إلا بِأَنْ يفصم المرءُ حِبَالَ ديانته ، فيتنقضها ، ويغدو خَلِيعَ الرَّسَنِ عن الحق ، ذا غبن وَوَسَن .

(٧) الحَيْن ، بالفتح الهلاك ، يقال حان حينه ، أى دنا هلاكه . وتردينى : تهلكنى وسكن الياء الأولى للضرورة .

(٨) ثم ذكر هنا - متندماً - أنّ ما قاده إلَى حتفه ، وَهَلْكَتِهِ إلا الطموح ومُدّ عينه إلى هذه المطامع الجَائِيَةِ من السَّلاطين وغيرهم ، فقد مُدَّت عينه ، وَحَمْلَقَتْ لِطِلَابِ ما يسرّها ويقرها ، ولكن ذلك فيه الرَّدى والهلاك له .
=

أخبرنا محمد بن على الصَّيرَفِىّ بالبصرة ، حدثنا العباس بن الوليد النَّرسىّ (١) ، حدثنا وُهَيب ، عن أيوبَ ، عن أبى قلابة ، عن ابن مسعود [أنه] (٢) قال : «عليكم(٣) بالعلم قبل أن يُقْبَض ، وقَبضُه أن يذهب أصحابُه ، وإنكم ستجدون أقوامًا يزعمون أنهم يدعونكم إلى كتاب الله وقد نبذوه وراء ظهورهم ؛ وعليكم بالعلم ، فإنّ أحدكم لا يدرى متى يفتَقد (٤) ، أو يُفْتَقَر إلى ما (٥) عنده ؟ وعليكم بالعلم ، وإياكم والبدَع (٦) ، وعليكم بالعَتيق » .

حدثنا محمد بن زَنْجُويه القُشَيرىّ ، حدثنا عمر (٧) بن علىّ ، حدثنا أبو قُتيبة ، حدثنا قرة بن خالد ، عن عبد الله (٨) ، قال : قال ابن مسعود : « ليس العلم بكثرة الرواية ، إنما العلم الخشية » .

[حدثنى إسحاق بن إبراهيم القاضى ، حدثنا الحارث بن مِسكين ، حدثنا ابن القاسم.

قال : سمعت مالكًا يقول : « ليس العلم بكثرة الرواية، إنما العلم الخَشية »] (٩).

قال أبو حاتم : الواجب على العاقل : مجانبة ما يُدنِّس علمه من أسباب هذه الدنيا ، مع القصد فى لزوم العمل بما قَدَر عليه ، ولو استعمال خمسة أحاديث من كل مائتى

كما قال غيره :

إلى حتفى سعى قدمى ... أرى قــدمى أراق دمى
فما أنفك من فــلام ... فهــان دمى فها ندمى

وقال غيره :

يسرُّ مقلَتَهُ ما ضر مُهْجَتَهُ ... لا مرحباً بسرور عاد بالضرر

وحسبك قول الله تعالى : ﴿ لا تمدن عينيك إلى ما متعنا به أزواجاً منهم زهرة الحياة الدنيا لنفتنهم فيه ورزق ربك خَيْرٌ وأبقى ﴾ (طه) .

ولذلك ذكر الشاعر العين خاصة عن القدم التى بها السّعى ليشاكل الآية فى بلاغتها ولفظها . . .

إذ العين هى الحظ حاسة لما حولها ، وهى بداية التشوُّفِ ومهجة الحواس الأخري ومُنَبِّهَتَهَا على مطمعها ، فكان من الأولى ذكرها .

(١) النرس : فتح النون : منسوب إلى نرس ، بلدة بالعراق ، منها الثياب النرسية ينظر مراصد الأطلاع : ٣/١٣٦٨ .

(٢) سقط فى ط . (٣) فى الأصل : وعليكم . (٤) فى ط : يفتقر .

(٥) فى ط : إليه . (٦) فى الأصل : والتبع . (٧) فى الأصل : عمرو .

(٨) فى الأصل : عن عون بن عبد الله . (٩) سقط فى الأصل .

حديث ، فيكون كأنه قد أدّى زكاة العلم ، فمن عجز عن العمل بما جمع ، فلا يجب أن يَعْجِزَ عن حفظه .

ولقد أنبأنا ابن قَحْطَبَة ، حدثنا حسين بن محمد الكُوفِيّ ، قال : سمعت محمد بن بُشَير المراغى [(١)] ، يقول : [المتقارب]

أَمَا لَــوْ أَعِى كُــلَّ مَا أَسمَــعُ وأَحْفَظُ مِنْ ذَاكَ مَا أَجْمَــعُ [(٢)]

ولَمْ أَستَفِــدْ غَيْرَ مَا قَدْ جَمَعْتُ لَقِيلَ هُــوَ العَالِمُ المَقْنَعُ [(٣) (٤)]

ولَكِــــنَّ نَفْسِى إِلَى كُلِّ شَىْءٍ مِنَ الْعِلْمِ تَسْمَعُهُ تَنْزِعُ [(٥) (٦)]

وأَحْضُــرُ بِالجَهْــلِ فِى مَجْلِسِى وَعِلْمِىَ فِى الْكُتْبِ مُسْتَــوْدَعُ [(٧)]

وَمَنْ يَكُ فِى عِلْمِهِ هكَـــــذَا وَلا أَنَا مِنْ جَمْعِــــهِ أَشْبَعُ [(٨)]

---

(١) فى ط : الخزاعى .

(٢) هذه الأبيات الستَّة فى الحث علي تنظيم طلب العلم ، وحفظه وترشيد طالب العلم إلي عدم تشتيت نفسه ، وجمع الهمّ على وعى ما يسمع وحسن الفهم والحفظ لما يجمع . لا أنْ يترك نفسه هملاً فيسمع العلم من هنا ، وينزع مشتاقاً إلي السَّمَاعِ من هنا ، ويجمع من هنا دون ضبطٍ وقيد لهذا جميعاً ، فهذا عبثٌ ، وهباء ولا خير فيه .

وقد علق النَّظَّامُ على هذه الأبيات كما فى (الحيوان : ٥٨/١ ، ٥٩) . فقال : « كلُفَ ابنُ بشير الكتب ما لا تكلف ، إن الكتب لا تحى الموت ولا تحول الأحمق عاقلاً ، ولا البليد ذكياً ، ولكن الطبيعة إذا كان فيها أدنى قبول فالكتب تشحذ ، وتفتق وترهف ، ومن أراد أن يعلم كل شيء ، فينبغى لأهله أن يداووه ، فإن ذلك إنما تُصُوِّرَ لشيء اعتراه . . . » .

(٣) العالم المقنع ، بفتح الميم ، الذى يعول علي علمه ويقنع به .

(٤) وإذا حافظت على ما سبق فلم أضف غيره إليه لئلا ينسى الأول الآخر ، لأفلحت كُلَّ الفلاح ، وَغَدَوْتَ عالماً مبرزاً .

(٥) تنزع : تتوق . ينزع إلى وطنه أى ينجذب ويميل . اللسان (٦/ ٤٣٩٥) .

(٦) ولكن لسوء صنيعى فإن نفسى تنزز وتحنُّ إلى كُلِّ نوع من العلم تسمعه فأنتفض إليه ، ثم اسمع بغيره فانصرف إليه وهكذا وإليك . . .

(٧) وجنى هذا على أنى لا أحفظ الذى جمعت ثَمَّ ، ولا أنتفع بما كتبت هنا ، ولا أَتَقَنَّعُ بما أنا فيه عن عدوه لغيره .

(٨) كذلك إذَا ما حضرت الدرس لا أَكَادُ أنتفع بما سبق عندى من العلم وبما أودعته دَفَاتِرِى ، فأغدو مبهوتاً مُوجَماً ، وهذا لفرط حيرتى ولتَكَاثُرِ المَسَائِلِ علىّ .

فَلا أَنَا أَحْفَـــظُ مَا قَدْ جَمَعْتُ يَكُنْ دَهْرَهُ القَهْقَرى[1] يَرْجِعُ[2] (٣)

إِذَا لَمْ تَكُـنْ حَافِظًـا وَاعِـيًا فَجَمْعُكَ لِلْكُتْبِ لا يَنْفَعُ[4] (٥)

وأنشدنى محمد بن عبد الله المؤدّب [6] : [الرمل]

جَامِعُ العِلْـــمِ تَرَاهُ أَبَـــدًا غَيْرَ ذِى حِفْظٍ ، وَلَكِنْ ذَا غَلَطْ [7]

وَتَرَاهُ حَسَنَ الخَـــطِّ إِذَا كَتَبَ الخَـــطَّ بَصِيرًا بِالنُّقَطْ [8]

---

(١) القهقرى : أن تسير بظهرك إلي الخلف ووجهك إلى الأمام . اللسان ٥٠/ ٣٧٦٥) .

(٢) فى الأصل : يرتح .

(٣) وهذه الحالة قد أورثتنى التَّضَعْضُعَ ، والتَّحدر فى طِلابِ العلم فحالتى فى صَعَبٍ ، وليست فى صُعُد ، وذلك ما جَنَاهُ سُوءُ فكرى وعدم الضبط لعلمى .

(٤) فى الأصل : تنفع .

(٥) وخلاصة ما أفدته من هذا أنَّه ينبغى أن أحفظ ، وأضبط ما سمعتُ من العلم إِذْ إن العلمَ فى الصُّدُور لا فى السُّطُور ، وفى الرَّاس لا فى الكرَّاس .

وقال الشخ الجسر رحمه الله :

ثم اجتهد فى فهم كُلّ مسألة حفظتها فذاك وصف الكلمة

فالحفظ للعلم بدون الفهـم ككتب فوق الحمير البهم

[منظومة الآداب - طبع المكتب الإسلامى] .

(٦) فى الأصل : الصورى الأديب .

(٧) هذه الأبيات كسابقتها فمهمتها فى الحض على حفظ العلم ، وعدم الاكتفاء بجمعه فحسب .

فالحال كما يقول القائل :

عليك بالحفظ دون الجمع للكتب فإن للكتب افات تفرقـــــها

الماء يغرقهـا والنار تحرقهـــا والفار تخرقها واللص يسرقهـا

وقال غيره وأحسن ما قال :

وليس علماً ما وعى القمطر ما العلم إلا ما وعاه الصدر

والقمطر : ما تصان فيه الكتب .

وقد سمع يونس بن حبيب رجلاً ينشد :

استودع العلم قرطاساً فضيعه فبئس مستودع العلم القراطيس

فقال : قاتله الله ما أشدَّ صبابته بالعلم ، وصيانته للحفظ إن علمك من روحك ، ومالك من بدنك ، فصنهما على قدر هذين منك .

[راجع الحث على طلب العلم ، لأبى هلال العسكرى ص ٧٣] .

ولكن الحال لا يرضى عنها عَاقِلٌ أبداً فيقول : من كان سفيهاً متحلاً لصفات طلاب العلم ، وليس بذى علم ؛ تراه غير حافظ ، ولا ضابط في العلم ، بل هو فى لغط وغلط . . . !

(٨) وتراه كذلك حسن الخط متبصراً بنقطه ، وحروفه مقيماً لها خير قيام . .

فَإِذَا فَتَّـــشْتَهُ عَنْ عِلْمِـــــهِ ... قَالَ : عِلْمِي يَا خَلِيلِي فِي السَّفَطْ (١) (٢)
فِي كَـــرَارِيسَ جِـــيَادٍ أُحْكِمَتْ ... وَبِخَطٍّ أَيِّ خَـــطٍّ أَيِّ خَـــطْ (٣)
فَإِذَا قُـــلْتَ لَهُ هَـــاتِ إِذَنْ (٤) ... حَـــكَّ لَحْيَيْهِ جَـــمِيعًا وَامْتَخَطْ (٥)

---

(١) السفط : وعاء توضع فيه الأشياء كأدوات النساء والفاكهة والخبز ولعله يتخذ من القش ونحوه، وقيل شبه الجوالق ونحوه .

(٢) فإذا نافثته ، وناقشته ؛ رأيته خلواً من الحفظ للعلم محتجاً بإيداعه القمطر .. !!

(٣) وقد استبدل - بحماقته - صدره بكراريس حسان ، وبخطوط جياد ، ولكن هذا هباء ، وعبث وهراء فأبعد به عن طلاب العلم وذويه . . . !!

(٤) فى ط : لنا .

(٥) وعليه فإن سألته إيراد مسألة ، أو فكرة رأيته متلجلجاً مضطرباً غير حافظ لما جمع من العلم .

وصدق محمد بن بشير لما قال فيه :

و من يك فى علمه هكذا ... يكن دهره القهقرى يرجع
إذا لم تكن حافظاً واعياً ... فجمعك للكتب لا ينفـع

[راجع الأبيات ٩٣ ، ٩٤ السابقة] .

وكان الخليل بن أحمد يقول :

« الاحتفاظ بما فى صدرك أولى من درس ما فى كتابك » .

وقال أيضاً : « اجعل ما فى كتابك رأس المال وما فى صدرك للنفقة » [راجع « الحيوان » للجاحظ: ١/٥٨ ، و« أدب الدنيا والدين » للماوردى ٦٧ ، و« الحث » لأبى هلال ٧٣] .

والكلام فى طرائق حفظ العلم كثير وهنا أوصى بكتاب « صيد الخاطر » وخاصة فصوله المتكلمة عن العلم ، والعلماء وطلبة العلم وكذلك راجع « رسالة الحث على طلب العلم » لأبى هلال العسكرى ، فإنها على صغرها غاية فى الجودة ، وغير ذلك من الكتب الكثير ، وراجع حلية طالب العلم للعلامة بكر بن عبد الله - مكتبة التربية الإسلامية ، وكذلك راجع رسالة « التعاليم » له ، فهذان الكتابان عَلَمَانِ فى بابهما .

ومن رسالة الحث ، لأبى هلال نختار هذه الفرائد فى حفظ العلم . قال أبو هلال : والحفظ لا يكون إلا مع شدة العناية ، وكثرة الدرس ، وطول المذاكرة ، والمذاكرة حياة العلم ، وإذا لم يكن درس لم يكن حفظ ، وإذا لم تكن مذاكرة قلت منفعة الدرس ، ومن حول على الكتاب وأخل بالدرس والمذاكرة ضاعت ثمرة سعيه ، واجتهاده فى طلب العلم [ص ٧٠ من رسالة الحث] .

ثم أنشد :

إذا ما غدت طالبة العلم لم تفد ... من العلم إلا ما تخلد فى الكـــتب
غدوت بتشمير وجـــدّ عليهم ... فمحـــبرتى أذنى ومضختها قلبى =

أخبرنا محمد بن يعقوبَ الخطيب [بالأهواز] (١) ، حدثنا حَفْص بن عمرو الرّبالىّ ، حدثنا الحجاج بن نُصَيْر ، حدثنا عبد القُدُّوس ، قال : سمعت وهب بن منبه يقول : «من تعلم علمًا فى حق وسُنَّة ، لم يذهب الله بعقله أبدًا » .

حدثنا عبد الله بن قَحْطَبَة ، حدثنا محمد بن عبد الأعلَى ، حدثنا المعتمر بن سليمان ، قال : كتب إلىّ أبى وأنا بالكوفة : اشتَرِ الصُّحُف ، واكتب العلم ؛ [فإن المالَ يفنَى ، والعلم يبقَى »] (٢) .

حدثنا الحسن بن سفيان ، حدثنا حبّان بن موسى ، أنبأنا عبد الله بن المبارك ، قال : « كتب حكيم من الحكماء ثلاثين صحيفة (٣) حِكَم ، فأوحى الله إليه : إنك (٤) قد ملأت الأرض نفاقًا ، وإن الله لن يقبل (٥) شيئًا من نفاقك » .

قال أبو حاتم : إفناء المرء عمره بكثرة الأسفار ، ومباينة الأهل والأوطان ، فى طلب العلم دون العمل به ، و (٦) الحفظ له ، ليس من شيم العقلاء ، ولا من زِىّ الألباء ، وإن [من] (٧) أجود ما يستعين المرء به على الحفظ : الطبعَ الجيِّدَ ، مع الهِمَّة واجتناب المعاصى ، وأنشدنى الأبرش (٨) : [الخفيف]

نِعْـمَ عَوْنُ الفتَى الطَّلُوبِ لِعِلْمٍ ... أَوْ لِبَعْضِ العُلُومِ (٩) صِحَّـةُ طَبْعِ
فَإِذَا الطَّبْعُ فَاتَهُ بَطَـلَ العِلْـ ... ـمُ (١٠) وَصَارَ الْغَنَاءُ فِى غَيْرِ نَفْعِ (١١)

= ثم نقل عن الزهرى قوله : « إنّ الرجل ليطلب وقلبه شعب من الشعاب ثم لا يلبث أنْ يصير وَادياً لا توضع فيه شيئاً إلا التهمه » . [٧٠ ، وما بعدها] .

(١) سقط فى الأصل . (٢) سقط فى الأصل . (٣) فى الأصل : مصحفاً .

(٤) فى الأصل : إنه . (٥) فى ط : أو . (٦) فى ط : أو

(٧) سقط فى الأصل . (٨) فى الأصل : عبد العزيز الأبرشى .

(٩) فى ط : العقول . (١٠) فى ط : العلم .

(١١) هنا يذكر الشاعرُ مقومات لطالب العلم ، حتى يتحصَّلَ على الغَايَةِ فى طَلَبِه ، وهو يلحُّ هنا على ركيزة لِطَلَبِ العلم لا يُستَغْنَى عنها ألبتةَ ، ألا وهى الطبع . ويَقْصِدُ به هنا : الملكة الرَّبَّانية التى يمنحها اللهُ لِعَبْدِه فضلاً منه ورحمة . وهى المَوْهِبةُ ومثلها التحبُّبُ فى العُلُوم ، فيغدو مولعاً بها ، وكذلك الحفظُ السَّرِيعُ والقريحة الجيِّدة ، وهى الذَّكَاءُ ، وتوفير المؤنة لهذا . . وكلُّ هذه من مواهب اللهَ تعالى .

وركائزُ طالب العلم أصولها ستَّة ، كما قال الشَّافِعِىُّ رحمه الله تعالى : [الطويل] . =

= أخي لَنْ تَنَالَ العِلْمَ إلا بِستَّةٍ سَأُنبِيكَ عَنْ تَفصِيلِهَا بِبَيَانِ
ذَكَاءٌ وَحِرصٌ وَاجْتِهَادٌ وَغُربَةٌ وَصُحبَةُ أُستَاذٍ وَطُولُ زَمَانِ

(راجع ديوانه) .

وقال أبوا هلال العسكرىُّ نَقْلاً عن بعض الأوائل :

« لا يتم العلمُ إلا بستة أشياء ، وهى : ذهنٌ ثَاقِبٌ ، وزمانٌ طويل ، وكفاية وعمل كثيرٌ ، ومعلمٌ حاذقٌ ، وشهوة ، وكلما نقص من هذه الستَّة شىء نقص بمقداره مِنَ العِلْمِ » .

ثم ذكر نبذًا مختصرة عن كلٍّ واحدة من هذه الستة فقال ما حاصله :

« والطبيعة : تعينُ العقل وتفسحُ له ، وأَمَّا الشهوةُ وهى الرغبة فى التعلم فذكرت : لأنها تحرِّكُ الطالب وتلهب حماسه للطلب وبها يؤثر كدة النَّظَرِ على الرَّاحَةِ .

وَذَكَرَ الكفاية ؛ لأَنَّ التَكَسُّبَ وتعذُّر المعاش مَقْطَعَةٌ عن العلمِ ، والحاجةُ تميتُ النَّفسَ وتُفْسدُ الحسَّ .

وذكر المعلمَ الحاذق : لأنَّه لو لم يكن حاذقاً بصيراً بِطُرُقِ التَّعلِيم لم يظفر منه المُتَعَلِّمُ بطائلٍ ، وعلى قدر الأساس يَكُونُ البنيانُ .

وذكر ثقوبَ الذِّهْنِ ، لأنه علَّة القَبُولِ ، وسبب التهيُّم ، والبليدُ لا ينفعه طولُ التَّعْلِيمِ ، كالصَّخْرِ لا يُنْبَتُ فيه بِدَوَامِ المَطَرِ .

وذكر كَثْرَةَ العَمَلِ ، لكثرة العِلْمِ ، وكثرة العَوَائِقِ ، والموانع وقصر العمر فمن لا يدأب فى الطلب، ويكثر من الالتماس فى وقت الفراغ وقوة الشَّبَاب قطعته القواطع . . . » .

فيبقى صغراً ، عارياً عطلاً [راجع رسالة الحث له ص ٥٤ – ٥٧ بتحقيق يوسف محمد فتحى – دار الصحابة بطنطا] .

ويرحم الله أبا هلال فوالله لقد أغنى وأقنى ، وجمع اللباب وأحوى ، وبلغ الغاية فى المعنى ، وفى حلاوة لفظه المنتهى !!

وهذا البابُ طويل الذَّيل ، صعوب النيل ، وكأنى بكلام ابن الجوزى يسابقنى أن يكتب هنا وفيه يقول : « والله لا ينفعُ تأديبُ الولد « كذا تعليمه » إذا لم يسبق اختيارُ الخالق لذلك الولد ، فإنه سبحانه إذا أراد شخصاً :

رباه فى طفولته ، وَدَلَّهُ على الرَّشَاد ، وحبب إليه ما يَصْلُحُ ، وصحبه من يَصْلُحُ ، وبَغَّضَ إليه ضدَّ ذَلِكَ ، وقبح عنده سفاسف الأمور ، وعصمه من القبائح ، وأخذ بيده كلما عثَرَ .

وإذا أبغض شخصاً تركه : دائم التعثير ، متخبطاً فى كل حال ، ولم يخلق له همَّة لطلب المعالى، وشغله بالرَّذَائل عن الفضائل وإن قال لِمَ خُصِصْتُ بهذا ؟ قال الخطابُ الذي لا يُجَاب بما كسبت أيديكم [راجع صيد الخاطر] .

فاستفتِ باللهِ يا عـــبَد الله واحـــــذر المعاصى وإلا :
واشدد يديك بحبل الله معتصماً فإنَّه الركن إن خانتك أركــانُ

والكلام فى هذا الباب كثيرٌ ومفيدٌ جداً وقد اكتفينا بهذا الفيض عن الغيض ، وربَّ إشارة أبلغ من عبارة .

سمعت إبراهيم بن نصر العَنبريَّ (١) يقول : سمعت عليّ بن خَشْرم يقول : سمعت وكيعًا يقول : « استعينوا على الحفظ بترك المعصية » .

قال أبو حاتم : الواجب (٢) على العاقل ألا يطلب من العلم إلا أفضلَه ، لأن الازدياد من العلم آثَرُ عند العاقل من الذكر بالعلم ، والعلم زَين فى الرخاء ، ومَنجاة فى الشدة ، ومن تعلم ازداد ، كما أن من حَلُم ساد ، وفَضْل العلم (٣) فى غير خير مَهْلكة ، كما أن كثرةَ الأدب فى غير رضوان الله مُوبقة (٤) . والعاقل لا يسعى فى فنونه إلا بما [هو] (٥) أجدى عليه نفعًا (٦) فى الدارين معًا ، وإذا رُزق منه الحظَّ لا يبخل بالإفادة ، لأن أولَ بركة العلم الإفادة ، وما رأيت أحدًا قط بخِل بالعلم ، إلا لم ينتفع بعلمه ، وكما لا يُنتفع بالماء الساكن تحت الأرض ما لم يَنْبُع ، ولا بالذهب الأحمر ما لم يُستخرج من معدنه ، ولا باللؤلؤ النفيس ما لم يَخرج من بَحره ، كذلك لا ينتفع بالعلم ما دام مكنونًا، لا يُنْشر ولا يُفاد .

أنبانا أحمد بن مُضَر الرَّباطيّ (٧) ، حدثنا محمد بن سُهيل (٨) بن عسكر ، حدثنا أبو صالح الفرّاء ، قال : سمعت ابن المبارك يقول : « من بخل بالحديث يُبْتَلَ (٩) بإحدى ثلاث : إما أن يموت فيذهبَ علمه ، أو يُنْسى ، أو يبتلَى بالسلطان » .

حدثنا أبو يَعلَى [الموصلى] (١٠) ، حدثنا إسحاق بن إسماعيل ، حدثنا جرير ، عن بُرْد ، عن سليمان بن موسى ، قال : قال أبو الدرداء : « الناس عالم ومتعلم ، ولا خير فيما بين ذلك » .

وأنشدنى الكُرَيزيّ : [الرمل]

أَفِدِ العِلْمَ ، ولا تَبْخَلْ بِهِ وَإِلَى عِلْمِكَ عِلْمًا فَاسْتَفِدْ (١١)

---

(١) في الأصل : العدوى (٢) فى ط : يجب .
(٣) فضل العلم : زيادته . وهو ضد النقص . اللسان (٥/٣٤٢٨) .
(٤) موبقة : مهلكة من وبَقَ يَوبَقُ وَبقًا وأوبقه : أهلكه وقال تعالى : ﴿ وجعلنا بينهم موبقاً ﴾ أى: مهلكاً . اللسان (٦/٤٧٥٥) .
(٥) سقط فى ط . (٦) فى الأصل : النفع .
(٧) فى الأصل : مصر الرياطى . (٨) فى الأصل : سهل .
(٩) يبتلي : يمتحن ويصاب بلون الرجل بلواً وبلاءً وابتليته : اختبرته وابتلاه الله : امتحنه . اللسان (١/٣٥٥) .
(١٠) سقط فى ط .
(١١) فى هذه الأبيات الأربعة يوصى الشّاعرُ ذا العلم بوصايا جمّة الفائدة هى من حقّ العلم فيقول: يا ذا العلم إنّ من حقّ العلم عليك أن تفيده كما أفادك ، وإفادتك العلم تكون ببذلك إيَّاه غير =

إِسْتَفِدْ مَا اسْطَعْتَ مِنْ عِلْمٍ وَكُنْ عَامِلاً (١) بِالعِلْمِ وَالنَّاسَ أَفِدْ (٢)
مَنْ يُفِــــدْهُمْ يَجْــــزِهِ اللهُ بِهِ وَسَيُغْنِى اللهُ عَمَّـــنْ لَمْ يُفِدْ (٣)
لَيْسَ مَنْ نَافَسَ فِيهِ عَاجِــــزاً إِنَّمَا العَاجِزُ مَنْ لا يَجْتَهِــدْ (٤)

حدثنا محمد بن إسحاق بن خُزيمة ، حدثنا عُمر بن حفص الشَّيبانىّ ، حدثنا حماد ابن واقد ، عن هشام بن حسان ، عن الحسن ، قال : « لأن يتعلمَ الرجل بابًا من العلم، فيعبدَ به ربه ، فهو خير له من أن لو كانت الدنيا من أولها إلى آخرها له ، فوضعها فى الآخرة » .

قال [أبو حاتم] (٥) : قد ذكرتُ أسبابَ المتعلِّمين ، وأخلاق العلماء بعللها ، فى كتاب « العالِم (٦) والمتعلّم » ، بما أرجو أن يكون فيه (٧) غُنية لمن أراد الوقوف على معرفتها ، فأغنى ذلك عن التكرار ؛ [فى هذا الكتاب ؛ إذ] (٨) شرطنا فى هذا الكتاب الاختصار، كراهية سلوك التطويل ، والإشارة إلى قصد نفس التحصيل .

* * *

= باخلٍ به ، وبكثرةِ طَلَبِكَ له ، فلا تصدف عن التعلم والازدياد منه ، وكما قال الإلبيرى:

يزيدُ بكثرةِ الإنفَاقِ منه ويَنْقُصُ أنْ بِهِ كفاً شَدَوْتَا

(١) فى الأصل : عالماً .

(٢) واجتهد قدر الطاقة في الانتفاع من كلّ علمٍ ، ثمَّ من علامة انتفاعك أن تغدو عَامِلاً به مُفِيداً للناس ، وإلا لما كان منه نفعٌ .

(٣) ومن يفيد الناس يجازه الله كُلّ خيرٍ وينمى علمه إذ ما من نعمة يشكرها العبدُ إلا وأزادها الله له، وشكر نعمة العلم هو تعليمك الناس إيَّاه فثم يكُونُ قوله : ﴿ لئن شكرتم لأزيدنكم ﴾ بُشْرَى لمعلم النَّاسِ الخير .

ومن بخل عن تَعْلِيم النَّاسِ وشحَّ بعلمه ، مثل هذا ، فسيغنى الله عنه عباده ، إذ هذه سنة الله تعالى؛ وحسبنا قوله : ﴿ وَإِنْ تَتَوَلَّوا يستبدل قوماً غيركم ، ثم لا يكونوا أمثالكم ﴾ (محمد) .

(٤) والعلم مِمَّا يستحب التَّنَافُسُ فيه ، والتَّسَابق إليه ، وكذب من يزعمُ أنّ هذا عَجْزٌ إنّما العجز أن يتقاعد المرءُ عن طِلابِ العلم ، ويتخذه لهواً ، وهملاً ، فهذا هو العَاجِزُ الخاسر .

واذكر قوله تعالى : ﴿ وَفِى ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ ﴾ (المطففين) .

فصل : في الحث على لزوم الصمت وحفظ اللسان .

(٥) سقط فى الأصل . (٦) فى الأصل : العلم .

(٧) فى الأصل : فيها . (٨) فى ط : لأنا .

ذِكْرُ الحَثِّ عَلَى لُزُومِ الصَّمْتِ، وَحِفْظِ اللِّسَانِ

أخبرنا حامد بن محمد بن شُعَيب البَلْخِيّ ببغداد، حدثنا منصور بن أبى مُزاحم، حدثنا أبو الأحْوص (١)، عن أبى صالح، عن أبى هريرة، قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللهِ وَالْيَومِ الآخِرِ، فَلْيَقُلْ خَيْراً أَوْ لِيَصْمُتْ» (٢) (٣).

---

(١) فى الأصل: الأحوص عن أبى حصين. (٢) فى ط: ليسكت.

(٣) أخرجه البخاري: ١٠/ ٤٦٠ فى الأدب، باب من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يؤذ جاره (٦٠١٨)، ومسلم فى «الإيمان»، باب: الحث على إكرام الجار (٧٥ - ٤٧)، وأحمد: ٢/ ٤٦٣ عن أبي الأحوص، عن أبى حصين بهذا الإسناد بلفظ: «من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يؤذ جاره، ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم ضيفه، ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيراً أو ليصمت، وكذا أخرجه ابن ماجة: ٢/ ١٣١٣ فى «الفتن»، باب: كف اللسان فى الفتنة.

وأخرجه البخارى فى «الأدب» (٦١٣٦) من طريق ابن مهدى حدثنا سفيان عن أبي الحصين به.

وأخرجه مسلم (٧٦) عن الأعمش عن أبى صالح به، وأخرجه البخارى فى «الأدب» (٦١٣٨)، ١١/ ٣١٤ في الرقاق، باب: حفظ اللسان (٦٤٧٥)، ومسلم (٧٤ - ٤٧)، وأبو داود: ٢/ ٧٦ فى الأدب، باب: فى حق الجوار (٥١٥٤)، والترمذى: ٤/ ٥٦٩ فى «صفة القيامة» (٥٠٠)، وأحمد: ٢/ ٢٦٧ من طريق ابن شهاب الزهرى عن أبى سلمة عن أبى هريرة، ويشهد له حديث أبى شريح العدوى أخرجه البخارى: ٦/ ٤٦٠ فى «الأدب»، باب: من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يؤذ جاره (٦٠١٩)، وباب: إكرام الضيف وخدمته إياه بنفسه (٦١٣٦)، ١١/ ٣١٤ فى «الرقاق»، باب: حفظ اللسان (٦٤٧٦)، ومسلم: ٣/ ١٣٥٢ - ١٣٥٣ فى «اللقطة»، باب: الضيافة ونحوها (١٤ - ١٦/ ٤٨)، وابن ماجه: ٢/ ١٢١٢ فى «الأدب»، باب: حق الضيف (٣٦٧٥)، ومالك: ٢/ ٩٢٩ فى صفة النبى ﷺ، باب: جامع ما جاء في الطعام والشراب (٢٢)، وأحمد: ٤/ ٣١، ٦/ ٣٨٥، والبغوى فى «شرح السنة» بتحقيقنا: ٦/ ١٠٤ برقم (٢٨٦٦) من طريق سعيد المقبرى عن أبى شريح رفعه، وكذا أخرجه الترمذى: ٤/ ٣٠٤ فى البر، باب: ما جاء فى الضيافة كم هو؟ (١٩٦٧).

وأخرجه مسلم: ١/ ٦٩ فى «الإيمان»، باب: الحث على إكرام الجار (٤٨/٧٧)، وابن ماجه (٣٦٧٢)، وأحمد: ٤/ ٣١، ٦/ ٣٨٤ - ٣٨٥، عن عمرو بن دينار سمع نافع بن جبير، عن أبى شريح.

وينظر شواهده الأخرى فى «مجمع الزوائد»: ٨/ ١٦٩ - ١٧٠، باب: إكرام الجار، ٨/ ١٧٩ - ١٨٠، فى باب: ما جاء فى الضيافة.

قال أبو حاتم : الواجب على العاقل إذا رَكِب (١) المَطِيّتين (٢) اللتين ذكرتهما قبل إصلاح السريرة ، ولزوم العلم : أن يبلغ مجهودَه حينئذ فى حفظ اللسان ، حتى يستقيم له ، إذ اللسان هو المورِدُ للمرء مواردَ العَطَب . والصمتُ يكْسِب المحبةَ والوقار ، ومن حفظ لسانه أراح نفسه ، والرجوعُ عن الصمت أحْسَنُ من الرجوع عن الكلام ، والصمت مَنام العقل ، والمنطقُ يَقَظَتُه .

حدثنا محمد بن زَنْجُويه ، حدثنا عبد الأعلى بن حماد ، ثنا حماد بن سلمة ، عن ثابت ، عن أنس ؛ أن لقمان قال : « إن من الحِكَم الصمتَ ، وقليلٌ فاعلُه » .

وأنشدنى الكُرَيْزِىُّ : [الكامل]

أَقْلِلْ كَلامَكَ وَاسْتَعِـــذْ مِنْ شَرِّهِ ... إِنَّ البَلاءَ بِبَعْضِــــهِ مَقْــــرُونُ
وَاحْفَظْ لِسَانَكَ ، وَاحْتَفِظْ مِنْ عِيِّهِ ... حَتَّى يَكُـــونَ كَأَنَّهُ مَسْجُــــونُ
وَكِّلْ فُــــؤَادَكَ بِاللِّسَانِ ، وَقُلْ لَهُ ... إِنَّ الكَـــلامَ عَلَيْكُمَا مَـــوْزُونُ
فَزِنَاهُ ، وَلْيَكُ مُحْكَـــمًا ذَا قِلَّةٍ ... إِنَّ البَلاغَةَ فِى القَلِيلِ تَكُونُ (٣) (٤)

أخبرنا ابن قتيبة ، حدثنا جعفر بن نوح (٥) ، حدثنا محمد بن عيسى بن الطَّبّاع ، قال: سمعت مالك بن أنس يقول : كل شىء ينتفع بفضله إلا الكلام ، فإن فَضْلَه يَضُرُّ .

---

(١) فى ط : ذكر .

(٢) يريد بالمطيتين : الفكرتين اللتين قدمهما فى أول الكتاب ، وجعل عنوانهما : « ذكر الحث على لزوم العقل ، وصفة العاقل اللبيب » .

(٣) يشير إلى قولهم : « البلاغة والإيجاز » . وفى الأصل : يكون .

(٤) هذه الأبياتُ فى الحثّ على ضبط اللِّسان ، وقيده إلا عنى الخَيْرَات وقد كثر ترداد هذه المعانى عند الشُّعَرَاءِ ، والأدباءِ ، وذوى الفضل إذْ إن اللِّسَان هو وحى البلاء وكما قيل : « إِنَّ البَلاءَ موكَّلٌ بالمنطق فكم من زلّة لسان قطعت بها رقاب » .

ويرحم الله أبو يوسف يعقوب ابن السكيت (ت ٢٤٤ هـ) .

وهو مؤدّب المعتز بالله ولدا الخليفة المتوكل . لما أنشد قائلاً :

يُصَـــابُ الفتى من عثرة بلسانه ... وليس يصابُ المرء من عثرة الرجل
فعثرته بالقـــول تُذْهِبُ رأســه ... وعثــرته بالرّجل تبرا على مهل

[راجع « تهذيب الألفاظ » ، لابن السكيت ص ٨] .

(٥) فى الأصل : نوح الأذنى .

أخبرنا القَطّان ، حدثنا أحمد بن أبى الحَوارِىّ [(١)] [(٢)] ، حدثنا مروان بن محمد ، عن سعيد بن عبد العزيز ، قال : قال أبو الدرداء : « لا خير في الحياة إلا لأحد رجلين : مُنْصِتٍ واعٍ ، أو متكلم عالم » .

قال [أبو حاتم] [(٣)] : الواجب على العاقل ألا يغالب الناس على كلامهم ، ولا يعترضَ عليهم فيه ؛ لأن الكلام وإن كان فى وقته حُظوةً جليلة ، فإن [(٤)] الصمت فى وقته مرتبةٌ عالية ، ومن جُهِّلَ بالصمت ، عَىَّ بالمنطق [(٥)] . والإنسان إنما هو صورة ممثّلةٌ، أو ضالّةٌ مهملة ، لولا اللسان ، واللهُ عزَّ وجلَّ [(٦)] رفع درجة [(٧)] اللسان على سائر الجوارح، فليس منها شىء أعظمَ أجرًا منه إذا أطاع ، ولا أعظمَ ذنبًا منه إذا جنى .

وأنشدنى محمد بن عبد الله بن زَنْجىّ البغدادىّ : [الطويل]

لَئِنْ كَانَ يَجْنِى اللَّوْمَ مَا أَنْتَ قَائِلٌ ... وَلَمْ يَكُ مِنْهُ النَّفْعُ ، فَالصَّمْتُ أَيْسَرُ

فَلا تُبْدِ قَوْلاً مِنْ لِسَانِكَ لَمْ يَرُضْ ... مَــوَاقِعَهُ مِنْ قَبْلِ ذَاكَ التَّفَكّــرُ [(٨)]

أخبرنا ابن قُتيبة ، حدثنا هارون بن محمد بن بكّار [(٩)] ، قال : سمعت أبا مُسْهِر ينشد هذا البيت : [الخفيف]

---

(١) أحمد بن عبد الله بن أبى الحوارى الكوفي التغلبى الدمشقى ، أبو تلحسن بوزن سكارى وقيل على لفظ واحد الحواريين وهو الأصح . يروى عن وكيع ابن الجراح الكتب وصحب أبا سليمان الدارانى وحفظ عنه الرقائق ، وروى عنه أبو زرعة ، وأبو حاتم الرازيان ، وذكره يحيي بن معين ، وقال : أهل الشام يمطرون به . توفى سنة ٢٤٦ (عن تاج العروس ، وينظر تهذيب التهذيب ٢٦/١ ، ٤٩ ، و« التقريب » : ١٤/١ ، ١٨ ، و« الميزان » : ١١١/١ ، « شذرات الذهب » : ١١٠/٢

(٢) فى الأصل : الجوارى . (٣) سقط فى الأصل . (٤) فى الأصل : وإن .

(٥) يريد أن من نسب إلى الجهل بسبب الصمت ، فقد يرمى بالعى إذا أسرف فى الكلام .

(٦) فى ط : جل وعز . (٧) فى الأصل : جارحة .

(٨) وفى البيتين يوصى الشّاعرُ المتكلم ألا يسعى إلى صفة بِظِلْفِهِ ، وأن يتقى الزّلل والخطل بإتقاء لسانه فيقول : صمتك خير لك أيه المتكلم إن لم تنتفع أو تنفع بمقالك .

فَاَجدرْ بك ألا تتكلم بنبت شَفَه . وينبغى عليها أيُّهَا المتكلم العاقلُ ألا تبدى قَوْلاً لم تجد عاقِبَته وقيمته ، فإذا أبصرتها خيراً فقُه وإلا فَاكفِ فاك شقة القول ، وذلك كما يقول القَائِلُ :

قَدِّرْ لِرِجْلِكَ قبل الخطو موضعها ... فمـــن علا زلقاً عن عزةٍ زَلَجا

(٩) فى الأصل : بكار بن لال .

قَدْ أَرَى كَثْرَةَ الكَلامِ قَبِيحًا   كُلُّ قَوْلٍ يَشِينُهُ الإِكْثَارُ (١)

أخبرنا محمد بن سعيد القزّاز ، حدثنى محمد بن داود بن سليمان الرملىّ ، حدثنا المسيّب بن واضح ، قال : سمعت ابن المبارك يقول : [المتقارب]

تَعَاهَدْ لِسَانَكَ إِنَّ اللِّسَانَ   سَرِيعٌ إِلَى المَرْءِ فِى قَتْلِـهِ
وَهَذَا اللِّسَانُ بَرِيدُ الفُؤَادِ   يَدُلُّ الرِّجَالَ عَلَى عَقْلِـــهِ

أخبرنا محمد بن سليمان بن فارس ، حدثنا محمد بن على الشقيقىّ ، أنبأنا إبراهيم ابن الأشعث ، قال : سمعت الفُضَيل بن عِياض يقول : « شيئان يُقَسِّيان القلب : كثرة الكلام ، وكثرة الأكل » .

أخبرنا أبو يَعلَى ، حدثنا عمرو بن محمد الناقد ، قال : سمعت يحيى بن اليمانِ يقول :

قال سفيان الثورىّ : « أول العبادة الصمتُ ، ثم طلب العلم ، ثم العمل به ، ثم حفظه ، ثم نشره » .

---

(١) وهنا يقول : « صواب كلامك خيرٌ لا عليك أن تَضْرَعَ به ولكن بلا إكثار إذْ كثرة الكَلامِ ينسى بَعْضُهُ بَعْضَه ، حتى ولو كان نَافعاً مفيداً فالكثرة شين ، والقلة مع الفائدة هى عين الزين :

وفى ذلك يقول أبو إسحاق الإلبيرى – ونعم ما قال – يقول الشاعر :

تقلل من الكلام جَهْدَكَ ففى ذلك نَجاةٌ وعون لك عن الإبتلاء به ، إذْ البَلايا والرَّزَايَا منوطةٌ ، بكلام اللِّسانِ أو ببعض كلامه ، فاستغن من الكلام بقلَّته على دفع سُوء مَغَبَّتَه .

ثم قال : واخزن لسانك هذا فإنَّه صَارِمٌ بنار لَك ، وفى فعليك أنْ تحبسه رهيناً بغمده ، ففى ذلك دفع لشره ووغيه واعتمد ضبط لِسَانِكَ بفُؤَادِكَ ، وقد عنى به هنا العقل . فاجعل فؤادك حارساً على لسانك إذْ الكلام رهن بينها وزنة كلامك بحسب ميله لأيِّهمَا .

كن ضابطاً لكلامك جهدك كَأَنَّكَ تخاطب جَارحتيك . اللسان والفُؤَاد .

أن يرعويا عن غيهما ، وأن يتسربلا بالجدِّ والعدل وليخرجا الكلام موزوناً دقيقاً لا تزيد فيه ولا لغو، وتلك هى البلاغة عينُ البلاغة .

ولو أننى أدعو الكلام أجابنى   كإجابة المأسور دعوة آســـــر
لكن رأيتُ نبينا قـــد عابه   من كل ثرثار وأشدق شاعـر
فصمت إلا عن تقى ولربمـا   قذفت بحار قريحتى بجواهـر
ما استحسنوا طُولَ الكَـــلامِ   أو تقصيرها مهما ارتعَعَو بمنابـر
ولما رأوا سرد الكلام بسائحٍ   إلا لِعبد قارئ أو ذاكــــــــر

[راجع ديوانه]

حدثنا عمرو بن محمد الأنصاريّ ، حدثنا الغلابيّ ، حدثنا العُتْبيّ ، عن عليّ بن جرير ، عن أبيه ، قال : قال الأحنف بن قيس : « الصمتُ أمانٌ من تحريف اللفظ ، وعصمةٌ من زَيْغ المنطق ، وسلامةٌ من فضول القول ، وهيبةٌ لصاحبه » .

قال أبو حاتم : الواجب على العاقل أن يَلْزم الصمت ، إلى أن يلزَمُه التكلم ، فما أكثر مَنْ نَدم إذا نطق ، وأقلَّ من يندم إذا سكت ، وأطول الناس شقاءً ، وأعظمهم بلاء ، من ابتُلِى بلسان مُطْلَق ، وفؤاد مُطْبَق (١) .

واللسان فيه عشر خصال يجب على العاقل أن يعرفها ، ويضع كل خصلة منها فى موضعها : هو أداة يظهر بها البيان ، وشاهد يُخْبر عن الضمير ، وناطق يُردّ به الجواب ، وحاكمُ يُفْصَل به الخطاب ، وشافع تُدْرك (٢) به الحاجات ، وواصف تعرف (٣) به الأشياء ، وخاصّةٌ (٤) (٥) يذهب الضغينة ، ونازع يَجذِب المودّة ، ومُسلٍّ يُذكّى (٦) القلوب ، ومُعَز تَرِدُ به الإخوان (٧) .

ولقد أحسن الذى يقول (٨) : [الكامل]

إنْ كَانَ يُعْجِبُكَ السُّكُوتُ ، فَإِنَّهُ ... قَدْ كَانَ يُعْجِبُ قَبْلَكَ الأَخْيَارَا
وَلَئِنْ نَدِمْتُ عَلَى سُـــكُوتٍ مَرَّةً ... فَلَقَدْ نَدِمْتُ عَلَى الْكَلامِ مِرَارَا
إِنَّ السُّكُـــوتَ سَلامَةٌ ، وَلَرُبَّمَا ... زَرَعَ الكَـــلامُ عَدَاوَةً وَضِـــرَارَا

---

(١) اللسان المطلق : الثرثار الذى لا يكفه شيء ، والفؤاد المطبق : المغلق ، من طَبَّق وأطبق ، وانطبق وتطبق : غطاه وجعله مطبقاً . اللسان (٤/ ٢٦٣٦) .

(٢) فى الأصل : يدان . (٣) فى الأصل : يعرف .

(٤) الخاصة : الموسى يخص بها الشعر أى يزال ، شبه اللسان بها فى استئصال الضغينة واستلالها من القلب ، بالاعتذار الجميل ، والكلام الحسن ، والحصُّ حلق الشعر وهو أيضاً ذهاب الشعر محجاً . اللسان (٢/ ٨٩٨) .

(٥) فى ط : وخاصة .

(٦) يذكى : يشعل وينبه من ذكت النار ذُكُوا وذكاً وذكاءً : اشتد لهبها واشتعلت وذكى فلان ذكاءً: سرع فهمه ونبه . الوسيط (١/ ٣١٤) .

(٧) فى ط : تُرَدُّ به الأحزان .

(٨) فى الأصل : سمعت عمران بن موسى بن المهرجان بمكة يقول : سمعت أحمد بن الحسن الكوفى بمصر يقول : سمعت أبا العتاهية ينشد .

وَإِذَا تَقَرَّبَ خَاسِرٌ مِنْ خَاسِـــرٍ زَادَا بِذَاكَ خَسَارَةً وَتَبَارَا (١) (٢)

أخبرنا محمد بن المنذر بن سعيد ، حدثنا كثير بن عبد الله التيمىّ ، حدثنا العَلاء بن سعيد الكِنْدِىّ ، حدثنى أبو حَيَّة ، قال : « كنت أماشى إسماعيل بن سَهْل (٣) ، وكان أحد الحكماء ، فقال لى : ألا أخبرك ببيت شعر ، خيرٍ لك من عشرة آلاف درهم ؟ [قال : فقلت : بيت شعرٍ خيرٌ من عشرة ألف (آلاف) درهم ؟!] (٤) » . قال : نعم. [ثم] (٥) قال : أيّما أحب إليك ؟ نفسك أو عشرة آلاف درهم ؟ قال : قلت : نفسى، فأنشأ يقول : [الخفيف]

إِخْفِضِ الصَّوْتَ إِنْ نَطَقْتَ بِلَيْلٍ وَالْتَفِتْ بِالنَّهَـــارِ قَبْلَ الْمَقَالِ (٦)

قال أبو حاتم : الواجب على العاقل أن يكون ناطقًا كَعَىّ ، وعالمًا كجاهل ، وساكتًا

---

(١) التبار : الخسار والهلاك .

(٢) فى هذه الأبيات امتداح للسكوت وفضله على الكلام غير ذى الجدوى فيقول : من شيمة الأخيار أنّهم يعجبون بالسكوت وعدم تساويه بالكلام بل إنه يفضل الكلام .

ولئن ندمت على سكوت وكان المنطقُ خيراً منه ، فلا عليك ، فهذا خيرٌ من النّدامة مراراً وتكراراً على الكلام . فالسكوت على كل حالٍ سلامةٌ ونجاة ، بينما الكلام مزلّةٌ ومهلكة فكم زرع الضغائن وأحصد صاحبه العَدَوات .. !! وإذا اتصاف السُّكُوتُ عن المهمات إلى الكلامِ فى الآفات ، فما صَمت لتسلم ، ولا تكلّمتَ لتِفهم فقد زِدتَ خسارة إلى خسارة .

(٣) فى الأصل : سهل . (٤) سقط فى ط . (٥) سقط فى ط .

(٦) هذا البيتُ يوصى بالتّحَرُّزِ ، ووجوب أخذ الحذر إذ الناس ذئاب لا يكاد يسلم مُنهم أحد ، وما استسر الكلام أحدٌ إلا سلم فيقول : « إن نطقت فى اللّيلِ البهم فخفض الصَّوْتَ لئلا تصل كلمةٌ إلى عدوٌ أو واشٍ فيوصلها إلى عدو لك كاشحٍ فتهلك .

وكذلك تَحرَّزَ بالنَّهارِ ، وتلفّت آخذاً الحذر ، قبلَ الصَّدْعِ بأىِّ مَقَالٍ .. ففى ذلك وفورُ السَّلامَةِ ، ودفع النَّدامَة : وفي معنى هذا البيت رائعة أبيات فى أخذ الحذر ليحيى البرمكى يَقُولُ :

انصب نهاراً فى طلاب العلا واصــــبر على فقد الحبيبْ
حـتى إذَا الليل بدا مقــبلاً وغاب فيه عنك وجه الرقيبْ
فبـادر اللّيل بما تشــتهى فإنَّمَا اللّيلُ نهـــارُ الأديبْ
كم من فتى تحســبه نَاسِكاً يستـقبلُ اللّيْلَ بأمرٍ عجيبْ
ألقى عليه اللّيْلُ أستـــاره فباتا فى لهو وعيش خصيبْ
ولذة الأحــمق مكشــوفة يســعى بها كل عدوّ قريبْ

[راجع كتاب « أبو نواس » قصة حياته وشعره لعبد الرحمن صدقى نشر عين الحلية] .
وهذان البيتان فى التحذيرِ من فتك اللّسان بصاحبه ، وإهلاكه له .

كناطق ؛ لأن الكلام لا بد له من الجواب ، والجواب لو جعل له جواب ، لم يكن للقول نهاية ، وخرج المرء إلى ما ليس غاية ؛ والمتكلم لا يسلم من أن يُنسب إليه الصَّلَف (١) والتكلُّف ، والصامت لا يليق (٢) به إلا الوقار وحسن السَّمْت .

ولقد أحسن الذى يقول : [الرجز]

حَـــتفُ امْرِئٍ لِسَانُهُ فِى جِـدِّهِ أَوْ لَعِبِهْ (٣)
بَينَ اللَّهَـا (٤) مَقْتَلُهْ رُكِّبَ فِى مُرَكَّبِـهْ (٥)

أخبرنا عمرو بن محمد الأنصاريّ ، حدثنا الغلابيّ ، حدثنا ابن عائشة ، حدثنا دريد ابن مجاشع ، عن غالب القطَّان ، عن مالك بن دينار ، عن الأحنف بن قيس ، قال : قال عمر بن الخطاب : « يا أحنف ، مَنْ كثر كلامه ، كثر سَقطه ، ومن كثر سَقَطُه ، قَلَّ حَياؤه ، ومن قَلَّ حَياؤه قَلَّ ورعُه ، ومن قَلَّ ورعه ، مات قلبُه » .

وأنشدنى الأبرش : [الكامل]

مَا زَلَّ ذُو صَمْتٍ ، وَمَا مِنْ مُكْثِرٍ إلا يَزِلُّ ، وَمَا يُعَابُ صَمُوتُ (٦)
إِنْ كَانَ مَنْطِقُ نَاطِقٍ مِنْ فِضَّـةٍ فَالصَّمْتُ دُر زَانَهُ اليَاقُـوتُ (٧)

---

(١) فى اللسان : الصلف : مجاوزة القدر فى الظرف والبرعة ، والادعاء فوق ذلك تكبراً . صلف صلفاً فهو صلف ، من قوم صلافى . اللسان (٤/٢٤٨٣) .

(٢) فى الأصل : يلزق .

(٣) إنَّما يهلك المرءَ لِسَانُهُ بتظليطه وتخبيطه جادا كان أو مازحاً كما يقول أبو العتاهية . وقوله :

يا ربَّ جدٍّ جرَّهُ المزاحُ

ولرب مزحة صادق برزت في لقطـة وكأنها أفعى

(٤) اللها : جمع لهاة : وهى لحمة حمراء مشرفة على الحلق ، والمرد أن مقتل المرء فى لسانه . اللسان (٥/٤٠٩١) .

(٥) وهذا البيت كله استعارة بليغة تشدد فى التحذير من اللسان وهو يحذِّرُ كسابقه من إيراده صَاحِبَهُ إلى الجحيم والمهالك .

وهذان البيتان يمتدحان الصُّمات ويُرَجِّحَانِه على الكلام وهما يُفَسِّدَانِ ما شاع من مَثَلٍ أنه: « إِذَا كان الكلامُ من فضَّة فالصَّمْتُ من ذهب » .

(٦) إنما الصَّامتُ سالمٌ مأمون مِنَ العيب ، والزلل بينا المكثرُ عرضة للغلط فكما قالوا : « من كَثُرَ لغطه كَثُرَ غَلَطُهُ » .

(٧) وإن كان المنطق يزين الفتى ، ويحلِّيه تيجان فضة ، فإن الصَّمت أزين ، وأحلي ، وأبهى وهو مزين صاحبه بتيجَانِ فخارٍ ، وسلامة صيت من درّ وياقوت !! كما يقول القائل : [الوافر المجزوء] =

أنبأنا ابن قُتيبة ، حدثنا المسيب بن واضح ، قال : سمعت عليَّ بن بكَّار يقول : «جعل الله لكل شيء بابين ، وجعل للسان أربعة : الشَّفتين مِصْرَاعَيْنِ ، والأسنانَ مِصْرَاعَيْنِ» .

أنبأنا بكر بن أحمد بن سعيد الطاحيّ بالبصرة ، حدثنا نصر بن على الجَهْضَميّ ، أنبأنا محمد بن يزيد بن خُنَيس ، عن وهيب بن الورد : «أن شابا كان يحضر مجلس عمر بن الخطاب ويُحسن الاستماع ، ثم ينصرف من قبل أن يتكلَّم ، ففطَنَ له عمر ، فقال له : إنك تحضُر مجلسنا ، وتحسن (١) الاستماع ، ثم تنصرف من قبل أن تتكلم ، فقال له الشاب : إنى أحضُرُ فأتَوقَّى وأتنقى ، وأصمُت فأسْلَم» .

قال أبو حاتم رضى الله عنه : الواجب على العاقل أن يُنْصِف أذنيه من فيه ، ويعلم أنه إنما جعلت له أذنان وفم واحد ، ليسمع أكثر مما يقول ؛ لأنه إذا قال ربما ندم ، وإن لم يقل لم يندم ، وهو عَلَى رَدّ ما لم يقل ، أقدرُ منه على رد ما قال ، والكلمةُ إذا تكلم بها ملكَتْه ، وإن لم يتكلم بها ملكَهَا ، والعجب ممن يتكلم بالكلمة إن هى رُفِعَتْ ربَّما ضَرَّته ، وإن لم تُرفع لم تُضرّ ، كيف لا يصمت ؟ ورُبَّ كلمة سَلَبَتْ نعمة .

أخبرنا أحمد بن قريش بن عبد العزيز ، حدثنا إبراهيم بن على الذُّهْلِيّ ، قال : أنشدنى رجل من ربيعة : [الطويل]

لَعَمْرُكَ مَا شَيْءٌ عَلِمْتُ مَكَانَهُ ... أَحَقُّ بِسَجْنٍ مِنْ لِسَانٍ مُذَلَّلِ (٢)
عَلَى فِيكَ مِمَّا لَيْسَ يَعْنِيكَ شَأْنُهُ ... بِقُفْلٍ وَثِيقٍ مَا اسْتَطَعْتَ فَأَقْفِلِ (٣)
فَرُبَّ كَلامٍ قَدْ جَرَى مِنْ مُمَازِحٍ ... فَسَاقَ إِلَيْهِ سَهْمَ حَتْفٍ (٤) مُعَجَّلِ (٥)

= خَلِّ جنبيك لِرَامٍ ... وَامْضِ عَنْهُ بِسَلامِ
مت بداء الصمت خير ... لك من داء الكَلامِ
إنَّما القَائزُ من الـ ... ـجَمَ فاه بِلِجَامِ

(١) فى الأصل : فتحسن .
(٢) هذه الأبيات فى معاني سابقَتِهَا ، وجميعها يمتدحُ الصموت والسكوت ويزرى بمن يهذى بما لا يَدْرى ، ومن يهرفُ بما لا يَعرِفُ : فيقول : ما شيءٌ أحقُّ بالسجن ، وطول الحبس من اللِّسَانِ ، وذلك يعرفه من تحرق بناره ، ومن غشى بشراره ، وأنا على هذا من المقسمين .
(٣) وينفى على العاقل أن يُغْلِقَ فاه بأقفال ، وقفول عليما لا يعنيه فمن دخل فيما لا يعنيه لقى ما لا يرضيه : وحسبك قول النبى ﷺ «مِنْ حُسْنِ إِسْلامِ المَرْءِ تَرْكُهُ مَا لا يَعْنِيه» .
(٤) فى الأصل : حتف سهم .
(٥) ورب حتف للمرء قد استلبس له لباس المزاح ، فأتى عليه وأورده المنايا كما يقول أبو العتاهية . =

وَلَلصَّمْتُ خَيْرٌ مِنْ كَـــــلامٍ بِمَأْثَـمِ   فَكُنْ صَامِتًا تَسْلَمْ ، وَإِنْ قُلْتَ فَاعْدِلِ[1] [2]

أخبرنا أبو يَعْلَى ، حدثنا إسحاق بن إسماعيل ، حدثنا جرير ، عن بُرْد ، عن سليمان بن موسى ، قال : قال أبو الدَّرْدَاء : « كفى بك ظالمًا ألا تزال مخاصمًا ، وكفى بك آثمًا ألا تزال مماريًا [3] ، وكفى بك كاذبًا ألا تزال محدثًا إلا حديثًا فى ذات الله تبارك وتعالى » .

أخبرنا محمد بن سعيد القزاز ، حدثنا معروف بن الحسن الكنانىّ [4] ، حدثنا كثير ابن هشام عن عيسى بن إبراهيم ، عن سعيد بن أبى سعيد ، عن كعب ، قال : «العافية عشرة أجزاء ، تسعة منها فى السكوت » .

أخبرنا الحسن بن سفيان ، حدثنا أحمد بن إبراهيم الدَّوْرَقىّ ، حدثنا يحيى القطَّان ، عن شُعْبة ، قال : « من الناس من عَقْلُه بفنائه ، ومنهم من عقله معه ، ومنهم من لا عقل له ، فأما الذى عقله معه ، فالذى يُبْصر ما يخرج منه قبل أن يتكلم ، وأما الذى بفنائه ، فالذى يبصر ما يخرج منه بعد أن يتكلم ، ومنهم من لا عقل له [قال :] [5] فحدَّثت به عبد الرحمن بن مهدىّ ، بعد ما رجعنا من عند يحيى ، فقال : هذه صفتنا ، يعنى الذى عقله بفنائه ، واستحسن الكلام ، وقال : لا ينبغى أن يكون هذا من كلام شُعْبة ، لعله سمعه من غيره » .

= ولربَّ مزحة صادق بَرَزَت   فى لفظـــــة وكأنها أفعى
والحقُّ أبلج لا خَفَـــاءَ به   ـمذ كان يُبْصِرُ نوره الأعْمَى

(١) فى الأصل : فافعل .

(٢) وهذا البيت يذكر مضمون قول النبى ﷺ : « ومن كان يؤمنُ باللهِ واليوم الآخر ، فَلْيَقُلْ خيراً أوْ لِيَصْمُتْ » . فيقول : الصمت خيرٌ لَكَ من كلام تأثم به ، فإذا أردت السلامة فاصمت ، وإلا فتكلم ، ولكن عادلاً صادقاً فى المقال .

وتختم هذه الأبيات بروائع لأبى إسحاق الإلبيرى حيثُ يَقُولُ :

ولقد عجبت لِمُسْلِم فى شِدْقِهِ   جَرَساً كنا قوس ببيعة كافـــــر
لِسْناً يهنيمُ دائمـــاً ولما يرَى   أنّ اللســـان كمثل لَيث هاصـر

وكما قال الزين . . ونعم ما قاله :

سلامة العقـــول   فى قـلة الفضول
قل حسناً لتسلما   أو استمع لتغنما

(٣) مخاصماً : مجادلاً باللسان ، ممارياً بالقول ، مدافعاً بالحجج ، من خاصمه خصاماً ومخاصمة، وهى الغلبة بالحُجة والخصومة . اللسان (١١٧٦/٢) .

(٤) فى الأصل : الكتانى .   (٥) فى الأصل : الكتانى .

وأنشدني البغدادي محمد بن عبد الله بن زَنْجيّ : [المنسرح]

أَنْتَ مِنَ الصَّمْتِ آمِنُ الزَّلَلِ وَمِنْ كَثِيرِ الْكَلامِ فِي وَجَلِ[1] [2]
لا تَقُلِ القَوْلَ ثُمَّ تُتْبِعُهُ يَا لَيْتَ مَا كُنْتُ قُلْتُ لَمْ أَقُلِ ! [3]

سمعت محمد بن المسيب يقول : سمعت العباس بن الوليد بن زيد [4] يقول : سمعت أبي يقول : سمعت الأوزاعيّ يقول : « ما بُلِيَ أحدٌ في دينه ببلاء أضرَّ عليه من طلاقة لسانه » [5] .

سمعت محمد بن محمود النَّسائيّ يقول : سمعت أبا أحمد بن أبي قدَيد [6] يقول : سمعت العباس [7] بن عبد العظيم يقول : سمعت عارِمًا يقول : سمعت خالد بن الحارث يقول : « السكوتُ زَيْن للعاقل ، وسَتر [8] للجاهل » .

قال أبو حاتم رضي الله عنه : لو لم يكن للصمت [9] خَصلة تُحمد ، إلا تَزيُّنُ العاقل، وستر [10] الجاهل به ، لكان الواجب على المرء ألا يفارقه الصمتُ ما وجَدَ إليه سبيلاً ، ومَنْ أحبَّ السلامة من الآثام ، فليقَلِّ ما يُقبَل منه ، [ولْيُقِلَّ مما يُقبل ؛] [11] لأنه لا يجترئ على الكلام الكثير إلا فائق أو وامِق [12] [13] .

وقد ترك جماعة من أهل العلم حديث أقوام أكثروا الكلام فيما لا يليق بهم .

من ذلك ما حدثنا به محمد بن الحسن بن مُكْرَم بالبصرة ، حدثنا عمرو بن عليّ ، حدثنا أمية بن خالد ، عن سعيد [14] ، قال : قلتُ للحكم بن مَالَكَ ألا تكتب [15] عن زادان ؟ قال : كان كثير الكلام [16] .

---

(١) الوجل : شدة الخوف والفزع . اللسان (٦/ ٤٧٧٣) .

(٢) ، (٣) هذه الأبيات تدعو إلي الصَّمت كذلك . وترغب فيه وتحبذه ، وتدعو العاقل الأديبَ أن يتخذ منه لأمَةً يلبسها ما لم ينفع القول والبوح به .

(٤) في الأصل : مروان . (٥) لأن مع كثرة الكلام كثرة الزلل .

(٦) في الأصل : قديك . (٧) في الأصل : عباس . (٨) في ط : وشين .

(٩) في ط : في الصمت . (١٠) في ط : وتشين . (١١) سقط في الأصل .

(١٢) الفائق : الذى بذ غيره بالقدرة على الكلام المقبول ، الذي ترضاه العقول ، والمائق : الأحمق الثرثار لا يدرى معنى ما يقول .

(١٣) في ط : مائق . (١٤) في الأصل : شعبة .

(١٥) في ط : قلت للحكم مالك لا تكتب .

(١٦) يريد أنه ترك أخذ الحديث النبوى عنه ، لأنه كان كثير الكلام فيما لا يجدى ، فخشى أن يتزيد في رواية الحديث .

قال أبو حاتم رضى الله عنه : لسان العاقل يكون وراء قلبه ، فإذا أراد القولَ رجع إلى القلب ، فإن كان له قال ، وإلا فلا . والجاهل قلبه فى طرف لسانه ، ما أتى على لسانه تكلَّم به ، وما عقَل دِينه من لم يحفظ لسانه .

واللسان إذا صَلَح تبين ذلك على الأعضاء ، وإذا فسد فكذلك (١) .

أخبرنا محمد بن عُبَيد (٢) الله بن الجنيد ، حدثنا عبد الوارث بن عُبيد الله ، عن عبد الله ، أنبأنا سفيان عن رجل قال : إنى لأكذب الكَذْبة فأعرفها فى عَمَلَى .

أنبأنا أبو عَوَانَة يعقوب بن إبراهيم [بن إسحاق] (٣) ، حدثنا الفضل بن عبد الجبار ، حدثنا أبو إسحاق الطالقَانىّ ، عن الوليد بن مسلم ، قال : قال الأوزاعىّ ، عن يحيى ابن أبى كثير : أنه قال : ما صَلَح منطقُ رجل ، إلا عُرف ذلك فى سائر عمله [ولا فَسَدَ منطقُ رجلٍ إلا عُرِفَ ذلك فى سائرِ عمله] (٤) .

قال [أبو حاتم رضى الله عنه : و] (٥) العاقل لا يبتدئ الكلامَ إلا أن يُسأَل ، ولا يقول إلا لمن يَقْبل ، ولا يجيب إذا شوتِم ، ولا يُجازِى إذا أُسْمِعَ ، لأن الابتداء بالصمت وإن كان حسنًا ، فإن السكوت عند القبيح أحسن [منه] (٦) .

وأنشدنى المنتصر بن بلال بن المنتصر الأنصارىّ : [المنسرح]

الصَّمْتُ عِنْدَ القَبِيـحِ يَسْمَـعُهُ ... صَاحِبُ صِدْقٍ لِكُلِّ مُصْطَحِبِ (٧)
فَآثِـرِ الصَّمْتَ مَا استَطَعْتَ ، فَقَدْ ... يُؤْثَرُ قَوْلُ الْحكِيمِ فِى الْكُتُبِ (٨) (٩)
لَـوْ كَانَ بَعْضُ الْكَـلامِ مِنْ وَرِقٍ ... لَكَانَ جُلُّ السُّكُوتِ مِنْ ذَهَـبِ (١٠)

---

(١) فى الأصل : كذلك . (٢) فى الأصل : عبد . (٣) سقط فى الأصل .
(٤) سقط فى ط . (٥) سقط فى الأصل . (٦) سقط فى الأصل .
(٧) هذه الأبيات تدعو إلى الصَّمت كذلك . وترغب فيه وتحبذه ، وتدعو العاقل الأدِيبَ أن يتخذ منه لأمَةً يلبسها ما لم ينفع القول والبوح به .
(٨) فى الأصل : كتب .
(٩) وهنا يدعو إلى الصَّمت حتى وإن كان كلامك حكماً ، إِذ القول الحكيم قد ينتفع به دون سماعه من صاحبه ، بل من كتبه وما خطَّه بيده . فكذلك قد يكون سُكُوتُكَ ، وعدم ثرثرتك مفيداً كذلك .
(١٠) وهذا البيت ينظم المعنى المشهور جداً قد سبق نظمه [راجع البيت رقم ٢٢] وهو أنَّ عظم الكلام لو استحب وكانت قيمته تزيد الفضة لكان قليل السكوت من ذهب . =

أخبرنا بكر بن محمد بن عبد الوهاب القزَّاز ، حدثنا إسماعيل بن إبراهيمَ أبو بشر ، حدثنا أبى ، حدثنا المبارك بن فَضالة عن المغيرة بن مسلم الهُجَيمىِّ ، عن أسير بن جابر، قال : ما رَضَعْتُ عَنزًا قطُّ ، ولو قلت لا أرضَعها ، خِفت أن يصير بى البلاء إلى أن أرضَعها ، إن البلاءَ مُوكَّل بالقولِ .

وأنشدنى الكُرَيْزىّ : [الخفيف]

أَسْتُرِ الْعَىَّ (١) مَا اسْتَطَعْتَ بِصَمْتٍ ... إِنَّ فِـي الصَّمْتِ رَاحَةً لِلصَّمُوتِ (٢)

وَاجْعَــلِ الصَّمْتَ إِنْ عَيِيتَ جَوَابًا ... رُبَّ قَوْلٍ جَــوَابُهُ فِى السُّكُوتِ (٣)

أنبأنا محمد بن المنذر ، حدثنا عبد الرحمن بن محمد بن منصور ، حدثنا عبد الرحمن ابن مهدىّ ، حدثنا سفيان ؛ عن يزيد بن حَيان ، عن عيسى بن عُقْبة ، قال : سمعت ابن مسعود يقول : والله الذى لا إله غيره ، ما شىءٌ أحقَّ بطول سَجْن (٤) من لسان .

قال أبو حاتم رضى الله عنه : العاقل يحفظ أحواله من ورود الخَلَل عليها فى الأوقات، وإنَّ من أعظم الخَلَل المفسِد لصحة السرائر ، والمُذْهِب لصلاح الضمائر : الإكثارَ من الكلام ، وإن أبيح له كثرة المنطق (٥) ، ولا سبيل [للمرء] (٦) إلى رعاية الصمت ، إلا بترك ما أُبيح له من النطق .

= وهذان البيتان يدعوان للصمت كذلك ، وقد جَلَّ لفظهما وحَسُنَ . فحبذا النظم .

(١) فى الأصل : لعى .

(٢) إن شَبِيت عن الكلام ، ولم تجد مخرجاً ، فدونك الصمتَ ففيه راحتك وسترك وكل من صمت فهو مستريح آمن من الزلل والخطل .

(٣) وكذلك اجعل جوابك الصمت إن حزبك الأمرُ وأعجمت عن الجواب ، فربّ صمت أبلغ من جواب .

وفى تفضيل الصّمت يقول أبو عبد الله السابورى :

الصمت للمرء حليف السلم ... وشــــاهد له بفضل الحكم

وحــارس من ذلك اللسان ... فى القول إن عى عن البيان

فعذبه معتصماً عن الخطـا ... أو سقط يفـــرط فيما فرطا

إن السكوت يعقب السلامة ... فرب قـــول يورث الندامة

استبدل الخيفة من أمانــه ... من لم يكن يحذر من لسانه

يظل مكروباً طـــــويلاً ... من لا يزم قوله ويخطـــمه

(٤) السجن : بفتح السين : مصدر سجنه من باب قتل . وبالكسر : اسم منه لمكان الحبس .

(٥) فى ط : النطق . (٦) سقط فى الأصل .

كما أنبأنا الحسن بن سفيان ، حدثنا حِبّان بن موسى ، حدثنا عبد الله ، عن سفيان، عن نُسَيْر [1] بن ذُعْلوق [2] ، عن إبراهيم التيمىّ ، أخبرنى من صحب الربيع بن خُثَيْم [3] عشرين عامًا ، فلم [4] يسمع منه كلمة تُعاب .

أنبأنا الجُنَيْدى [5] ، حدثنا عبد الوارث بن عُبيد الله ، عن عبد الله ، أنبأنا سفيان ، عن أبى طُعْمة ، عن رجل من الحىّ ، قال : أتيت الربيع بن خُثَيْم [6] بنعْى الحسين . وقالوا : اليوم يتكلم فقال : قتلوه [7] ومَدَّ بها صوته ، ثم قال : الله فاطرَ السموات والأرض ، عالمَ الغيبِ والشهادة ، أنت تحكم بين عبادكَ [بالحقّ] [8] فيما كانوا فيه يختلفون .

أنبأنا عمرو بن محمد الأنصارىّ ، حدثنا الغلابىّ ، حدثنا إبراهيم بن عمرو بن حبيب ، حدثنا الأصمعىّ ، قال : بينا أنا أطوف بالبادية ، إذا أنا بأعرابية تمشى وحدَها، على بعير لها ، فقلت : يا أمَةَ الجَبَّار ، من تطلبين ؟ فقالت : مَنْ يهد اللهُ فلا مُضِلّ له ، ومَنْ يُضْلِلْ فلا هادىَ له ، قال : فعلمتُ أنها قد أضلَّت [9] أصحابَها ، فقلت لها : كأنك قد أضلَلْتِ أصحابك ؟ قالت : ففهمناها سُلَيمان ، وكُلا آتينا حكماً وعلماً . فقلت لها : يا هذه ، من أين أنت ؟ قالت : سبحان الذى أسْرَى بعبده ليلاً من المسجدِ الحرام إلى المسجد الأقصَى الذى باركنا حوله ، فعلمت أنها مَقْدَسية ، فقلت لها : كيفَ لا تتكلمين ؟ فقالت : ما يلفظُ من قول إلا لديه رَقيبٌ عَتيد ؛ فقال [10] بعض أصحابى : ينبغى أن تكون هذه من الخوارج . فقالت : ولا تَقْفُ ما ليسَ لك به علم ، إن السمعَ والبصر والفؤاد كلُّ أولئك كان عنه مسئولاً . فبينا [11] نحن نُماشيها إذ رُفِعت لنا قِبابٌ وخِيمَ ، فقالت : وعلامات وبالنجم هم يَهْتَدُون . قال : فلم أفْطن لقولها ، فقلت : ما تقولين ؟ فقالت : وجاءتْ سيارةٌ فأرسلوا واردَهم فأدلَى دَلْوه ، قال: يا بشرى هذا غلام ، فقُلْت [12] : بمَن أُصَوِّتُ وبمَن أدعو ؟ فقالت : يا يحيى خذ

---

(1) فى الأصل : بشير .

(2) نسير ، مصغر بسين مهملة ، ابن ذعلوق ، بضم المعجمة ، وإسكان المهملة ، واللام آخره قاف، الثورى مولاهم ، أبو طعمة الكوفى ، عن ابن عمر ، وعنه الثورى ، وثقه ابن حبان «الخلاصة»

(3) فى الأصل : ختيم . (4) فى الأصل : لم .

(5) فى الأصل : الجنيدى أحمد بن محمد بن حبيب .

(6) فى الأصل : ختيم . (7) فى ط : مقالة ، فتأوه . (8) سقط فى الأصل .

(9) فى الأصل : تريد . (10) فى الأصل : قال . (11) فى الأصل : فبينما .

(12) فى ط : قلت .

الكتاب بقوة ، يا زكريا إنا نُبشِّرُكَ [بغلام] (١) ، يا داود إنا جعلناك خليفة فى الأرض. قال : فإذا نحن بثلاثة إخوة كاللآلئ ، فقالوا : أُمُّنا وربِّ الكَعبة ، أضللناها مذ (٢) ثلاث! فقالت : الحمدُ لله الذى أذْهبَ عنَّا الحزَن إن ربنا لغفور شكور . فأومأتْ إلى أحدهم فقالت : فابعثوا أَحَدَكُمْ بِوَرِقِكُمْ هَذه إلى المدينة ، فلينظُرْ أيُّها أزْكَى طعامًا ، فليأتِكُمْ برزْقٍ منه . فقلت : إنها أمرتَهُمْ أنْ يُزَوِّدُونا ، فجاءوا بخُبزٍ وكَعْكٍ ، فقلت : لا حاجةَ لنا فى ذلك ، فقلت للفتْية : مَنْ هذه منكم ؟ قالوا : هذه أمنا ، ما تكلمتْ منذ أربعين سنةً إلا من كتاب الله [تعالى] (٣) ، مخافة الكذب . فدنوتُ منها فقلت : يا أمةَ الله ، أوْصِينى . فقالت : ما (٤) أسألُكُمْ عليه أجرًا إلا المودةَ فى القُرْبى . فعلِمت أنها شِيعية، فانصرفت (٥) .

قال أبو حاتم رضى الله عنه : قد ذكرتُ ما شاكل هذه الحكايات فى كتاب « حفظ اللسان » ، فأغنى ذلك عن تكرارها فى هذا الكتاب .

فالواجب على العاقل أن يَروض نفسه على ترك ما أُبيح له من المنطق (٦) ، لئلا يقع فى المزجورات ، فيكون حَتْفُه فيما يخرج منه ؛ لأن الكلام إذا أكثر (٧) منه ، أورث صاحبه التلذذَ بضد الطاعات ، فإذا لم يوفق العبد لاستعمال اللسان فيما يجدِى عليه نفعه فى الآخرة ، كان وجود الإمساك عن السوء أولى ليسلم (٨) .

وأنشدنى المنتصرُ بن بلال الأنصاريّ : [الطويل]

وَلَنْ يَهْـلِكَ الإنْسَانُ إلا إذَا أتَى ... مِنَ الأَمْرِ مَا لَمْ يَرْضَهُ نُصَحَاؤُهُ
فَأَقْلِلْ (٩) إذَا مَا قُلْتَ قَـوْلاً ؛ فَإنَّهُ ... إذَا قَلَّ قَوْلُ المَرءِ قَلَّ خَطَاؤُهُ (١٠) (١١)

---

(١) سقط فى ط . (٢) فى ط : منذ .
(٣) سقط فى ط . (٤) فى ط : ما .
(٥) يحتمل كلامها الإشارة إلى حب آل البيت ويحتمل التوصية المطلقة بالعطف على ذوى القرابة وبر المحتاجين منهم .
(٦) فى ط : النطق . (٧) فى ط : كثر .
(٨) فى ط : به . (٩) فى ط : وأقلل .
(١٠) الخطأ مهموز بفتحتين : ضد الصواب ، يقصر ويمد ، وهو اسم من أخطأ يخطئ فهو مخطئ. المصباح .
(١١) المرء دائم على السلامة ما اتبع نصحائه واستضاء بقولهم ، ولن تصيبه مهلكة بذلك ، إذا ما خاب من استشار ولا ندم من استخار ، ومن استنصح العاقل شاركه فى عقله .
وصدق صالح بن عبد القدوس إذ نصح فقال : =

. . . .

= ولقد نصحتك إن سمعت نصيحتى فالنصـــــح أغلى ما يباعُ ويوهبُ

[راجع بائيته الرائعة] .

ويرحم الله من نصح فعقب على من ابتاع نصحه فقال لنصيحه :

« فاحفظ وصيتى ، وجانب معصيتى ، وخذُ مثالى ، وافقه أمثالى ، فإنك إن استرشدت بنصحى، واستصبحت بصبحى ، أمرع خانك وارتفع دخانك . [راجع المقامات للحريرى ص ٤١٨] .

وأُعقِبُ هذا الفصلَ بمختتم ، ضمنته مختارا من أبدع ما نظم فى الأخلاق والحكم ، فاسمع خير الكلم . . . ! قال الزين فى منظومته :

لا يزد حيل صامت	إن الجـــماد ساكت
وليس ترك المنطـــق	دليل حســـن الخلق
رب سكـــوت عَىّ	ورب نطـــــق غىّ
وإن علا الجـــــدال	وانتضل الرجـــال
وعزك الخطـــــاب	وأعوز الصـــــواب
كان السكـــوت غنما	حتى تصيب المرمى
ذرهم على جدالهـــم	واصـغ إلى أقوالهم
واحرص على أن تَسْمَعَا	أكثر من أن تُسْمِعَا
حتى ترى ما يجملُ	مـــنها وما يسترذل
فانتق منها ما صفـا	واطـرح المزيفــــا
واحفظ جميل القول	فهـو لقاح العقـــل
وراع فهـــم الناس	تكـن من الأكياس
دلـــيل حسن العقل	ومن سمات الفضـل
ولا تكــــن ممن غدا	يضـــيع علمه سدى

[راجع منظومه الزين ص ٣٤] .

وقال صالح بن عبد القدوس البصرى : [فى بائيته الرائعة] .

ودع الكذوب فلا يكن لك صاحباً	إن الكذوب يشينُ حمراً يصحـــبُ
وزن الكلامَ إذا نطقت ولا تكـــن	ثرثارة فى كـــــــــل فادٍ تخطبُ
واحفظ لسانك واحترز من لفظـه	فالمرءُ يسلم باللّسان ويعطـــــب

وأنشد الشيخ أبو عبد الله السابورى :

من أحمـد الأشياء في الإنسان	زيادة العقـــــــل على اللسان
إسراف ذى الإطناب فى المقال	أضرّ من إســـــرافه فى المال
لا شىء من جـــوارح الإنسان	أحق بالســــجن من اللّسان
اثر شىء فى الفتى وأفضـــــل	فى الخير والشر جميعاً مقول =

أنبأنا محمد بن الحسين بن الخليل ، حدثنا عبد الله بن أبى زياد القَطَوَانىّ ، حدثنا سيار، حدثنا جعفر بن سليمان ، حدثنا المُعَلَّى بن زياد ، قال : قال مُوَرِّق العِجْلِىّ : أمرٌ أنا فى طلبه منذ عشر سنين ، ولست بتارك طلبه ، قالوا [1] : وما هو يا أبا المعتمر؟ قال: الصمتُ عما لا يعنينى .

أنبأنا إبراهيم بن نصر العَنْبَرىّ ، حدثنا على بن الأزهر الرازىّ ، حدثنا إبراهيم بن رُسْتُم ، قال : سمعت خارجة يقول : صحبت عبد الله بن عَوْن خمسًا وعَشْرين [2] سنة، فما أظن الملائكة كتبت عليه شيئًا [والله أعلم] [3] .

* * *

=

إن اللســان سَبُعٌ عقـــور ... إن لم يسـه الرأى والتدبير
لا تطلقن القولَ فى غير بصـر ... إنَّ اللسان غير مأمور الضرر
والقـــول ما لم تبده مملوك ... مـالك فى ملكته شـريك
فالقول ما أرسلته على عجل ... موكـــلٌ به العثار والزلل
يا رب محقور من المقـــال ... يصـبح شراً غير مستقال
ولفـظه زائفة سبيلـــها ... قـد سلبت نعمة من يقولها
آله ذى الحرفة تستعـــادُ ... وحـكمة اللسان لا تعـادُ
لا تطـلقن فى مجلس مقاله ... إذا مضـت ليس لها إقالة

(١) فى ط : قال . (٢) فى ط : خمس عشرة . (٣) سقط فى ط .

ذِكْرُ الْحَثِّ عَلَى لُزُومِ الصِّدْقِ ، وَمُجَانَبَةِ الْكَذِبِ

أخبرنى أحمد بن محمد بن حبيب الجُنَيدىّ [بنَسَائح] [1] ، قال : حدثنا حُمَيد بن زَنجويهْ حدثنا محاسن بن المودّع [2] ، حدثنا الأعمش ، عن أبى سفيان [3] ، قال : قال عبد الله : قال رسول الله ﷺ : « عَلَيْكُمْ بالصِّدْقِ ، فَإِنَّ الصِّدْقَ يَهْدِى إِلَى الْبِرِّ ، وَإِنَّ الْبِرَّ يَهْدِى إِلَى الْجَنَّةِ ، وَإِنَّ الرَّجُلَ لَيَصْدُقُ ، حَتَّى يُكْتَبَ عِنْدَ الله صِدِّيقًا ، وَإِيَّاكُمْ وَالكَذِبَ ، فَإِنَّ الْكَذِبَ يَهْدِى إِلَى الْفُجُورِ ، وَإِنَّ الْفُجُورَ يَهْدِى إِلَى النَّارِ ، وَإِنَّ الرَّجُلَ لَيَكْذِبُ حَتَّى يُكْتَبَ عِنْدَ الله كَذَّابًا » [4] .

قال أبو حاتم رضى الله عنه : إن الله جلّ وعلا فَضَّل اللسان على سائر الجوارح ، ورفع درجته ، وأبان فضيلته ، بأن أنطقه من بين سائر الجوارح بتوحيده . فلا يجب

---

(1) سقط فى ط . (2) فى الأصل : محاضر بن المورع . (3) فى الأصل : شقيق .

(4) أخرجه البخارى : ١٠/٥٢٣ فى « الأدب » ، باب: قول الله تعالى : ﴿ يا أَيُّهَا الَّذينَ اتَّقُوا الله وكونوا مع الصادقين ﴾ (٦٠٩٤) ، ومسلم : ٤/٢٠١٢ - ٢٠١٣ فى قبح الكذب وحسن الصدق وفضله (١٠٣ - ١٠٥ /٢٦٠٧) . وأبو داود : ٢/٧١٥ فى « الأدب » ، باب : فى التشديد فى الكذب (٤٩٨٩) ، والترمذى : ٤/٣٠٥ فى « البر والصلة » ، باب : ما جاء فى الصدق والكذب (١٩٧١) ، والبخارى فى « الأدب المفرد » ص ١١٧ حديث رقم (٣٨٧) ، وأحمد : ١/٣٨٤ ، ٣٩٣، ٤٣٢ ، ٤٣٩ - ٤٤٠ ، والطيالسى : ٢/٤١ - ٤٢ برقم (٢٠٧٥) ، والطبرانى فى « الصغير » : ١/٢٤٣ ، وأبو يعلى :(٥١٣٨) ، والبيهقى : ١٠/١٩٦ ، والبغوى فى « شرح السنة » بتحقيقنا : ٦/٥٢٦ برقم (٨/٣٤٦) من طرق عن أبى وائل ، عن عبد الله بن مسعود رفعه .

وأخرجه ابن ماجة : ١/١٨ فى المقدمة » ، باب : اجتناب البدع والجدل (٤٦) ، والدارمى : ٢/٢٩٩ ، والبغوى فى « شرح السنة » برقم (٣٤٦٩) ، عن أبي إسحاق ، عن الأحوص ، عن عبد الله بن مسعود مطولاً .

ويشهد له حديث أبى بكر الصديق أخرجه ابن ماجه : ٢/١٢٦٥ فى « الدعاء » ، باب : الدعاء بالعفو والعافية (٣٨٤٩) ، والنسائي فى « عمل اليوم والليلة » (٨٧٩ - ٨٨٥) ، وأحمد : ١/٣ ، ٥، ٧ ، وأبو يعلى (٨ ، ٤٩ . ١٢٢) ، وابن حبان (١٠٦ ، ٢٤٢٠ موارد) ، والخطيب : ١١/٨٢ ، والحميدى رقم (٧) ، والخرائطى فى « مكارم الأخلاق » ص ٥٢ ، والمروزى فى « مسند أبي بكر » برقم ٩٢ ص ١٦٣ .

وينظر شواهده الأخرى فى مجمع الزوائد : ١/٩٧ - ٩٨ فى باب : ما جاء أن الصدق من الإيمان.

للعاقل أن يُعَوِّد آلةً خَلَقها الله للنطق بتوحيده الكذب (١) ، بل يجب عليه المداومة برعايته، بلزوم الصدق ، وما يعود عليه نفعه فى داريْه ؛ لأن اللسان يقتضى ما عُوِّد : إن صدقا فصدقًا ، وإن كذبًا فكذبًا .

ولقد أحسن الذى يقول : [البسيط]

عَوِّدْ لِسَانَكَ قَوْلَ الخَيْرِ تَحْـظَ بِهِ ... إنَّ اللِّسَـانَ لِمَا عَـوَّدْتَ مُعْتَادُ
مُـوَكَّلٌ بِتَقَـاضِى مَا سَنَنْتَ لَهُ ... فَاخْتَرْ لِنَفْسِكَ ، وَانْظُرْ كَيْفَ تَرْتَادُ (٢)

أخبرنا محمد بن سعيد القزاز ، حدثنا الفضل بن العباس البغدادىّ ، حدثنا الهيثم بن خارجة ، حدثنا الهيثم بن عمران ، قال : سمعت إسماعيل بن عُبيد الله يقول : كان عبد الملك بن مروان يأمُرنى أن أجنِّبَ بنيه السِّمَن ، وكان يأمرنى أن لا أُطعِم طعامًا حتى يخرجوا إلى البراز (٣) ؛ وكان يقول عَلِّم بنىَّ الصدقَ كما تعلمهم القرآن ، وَجَنِّبْهُمُ الكذب ، وإن [كان] (٤) فيه كذا وكذا ، يعنى القتل .

وأنشدنى الأبرش [رحمه الله] (٥) : [السريع]

الْكَـذِبُ يُرْدِيكَ (٦) وَإِنْ لَمْ تَخَفْ ... وَالصِّدْقُ يُنْجِيكَ (٧) عَلَى كُلِّ حَالْ
فَانْطِـقْ بِمَا شِئْتَ تَجِـدْ غِبَّهُ ... لَمْ تُبْتَخَسْ وَزْنَةَ مِثْقَـالْ (٨)

أخبرنا أبو يَعْلَى ، حدثنا أبو خيثمة ، حدثنا عبد الرحمن بن مَهدىّ ، حدثنا سَليم

---

(١) فى الأصل : بالكذب . (٢) هذا التزمه واعتاده ، و عثاره وَسَقَطَهُ .

ولن يكون هو أجمع من النفس ، وهى إنْ رُوِّضَتْ راضت .

والنفس طامعة إذا أطمعتها ... وإذا ترد إلى قليل تقـنع

فاللسان لك تبعٌ وهو بما عودته ، وسلكت له يبوح ، فإن عودته الخير تفتق به ، وإن عودته السوء نَزَفَ سوءاً ، فانظر أى السبيلين ترتاده وَدَوِّم لسانك أن يعتاده !

(٣) لعل المراد أنهم يخرجون للرياضة قبل تناول الطعام . (٤) سقط فى ط .

(٥) سقط فى ط . (٦) فى ط : مرديك . (٧) فى ط : منجيك .

(٨) وهذان البيتان فى الدَّعوة إلى الصِّدق ، والتحذير من الكذب والتذكير بضبط الكلام وزنته فيقول : الكذب وإن كان ظاهر النجاة فهيهات ، إنَّمَا ذلك سراب ، بل هو مرديك وموقعك فى المهالك ولو بعد حين .

وأما الصدق فإنَّه نجاة وسلامة فى كل حالة ، ولو كان ظاهره الهلكة فمغبته وعقباه النجاة .

فإذا ما نطقت ، فاختر أىّ المركبين تركب ، وإلى أى سبيل ترغب فقد استبان الصبح لذى عينين ، وَنُشِرَ مطوىّ الذين والشَّين ، وكلٌ له عقبى لا بد أن يركبها صاحبها . =

ابن حيَان ، عن قتادة ، عن حُمَيد بن عبد الرحمن الحميرىّ : أن عُمر بن الخطاب قال: إن أبا بكر قام [فينا عامَ] (١) أوّلَ (٢) ، فقال : إنه لم يُقْسَم بين الناس شىء أفضل من المعافاة بعد اليقين ، ألا إن الصدقَ والبرَّ فِى الجنة ، ألا وإن الكذبَ والفجورَ فى النار.

أخبرنا أبو خليفة ، حدثنا أبو الوليد الطيالسىّ ، حدثنا عكْرمة بن عَمَّار ، حدثنى طَيْسَلة بن على البهدلىّ ، قال : كنت مع ابن عمرَ [يومًا] (٣) فى أصول الأراك يومَ عرفة ، وبين يديه رجل من أهل العراق ، فقال له الرجل : يابن [عمر ما] (٤) المنافق، قال : المنافق ويْحك ! الذى إذا حدث كَذَب ؛ وإذا وعد لم يُنْجِز ، وإذا اؤتمن لم يؤدّ .

سمعت أحمد بن محمد بن الأزهر يقول : سمعت محمد بن خلف (٥) بن أبى الأزهر يقول : سمعت الفُضَيل بن عياض يقول : ما مِن مُضغةٍ أحبّ إلى الله من لسان صَدوق، وما من مضغة (٦) أبغض إلى الله من لسان كذوب .

قال أبو حاتم [رضى الله عنه] (٧) : كل شىء يستعار ليُتجمَّلَ به ، سَهْلٌ (٨) وُجودُه، خلا اللسان ، فإنه لا ينبئ إلا عما عُوِّد ، والصدقُ يُنجِى ، والكذب يُرْدِى ، ومن غلبَ لسانَه أمَّره قومُه ، ومن أكثر الكذب لم يترك لنفسه شيئًا يصدَّق به ، ولا يكْذِب إلا من هانت عليه نفسُه .

حدثنا أحمد بن محمد (٩) بن زَنْجُويَه [بنسا] (١٠) ، حدثنا جعفر بن أبى عثمان الطيَّالسىّ ، حدثنا سعيد (١١) بن سليمان ، حدثنا أنس بن عِياض ، عن صالح بن حسانَ(١٢) ، عن محمد بن كعب القُرَظِىّ قال : إنما يكذبُ الكاذبُ من مَهانة نفسه ، وأنشدنى الكُرَيْزِىّ : [الطويل]

= وقد تبين الرُّشْدُ من الغَىِّ » ومن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر » . وهذا كما يقول الناظم :

والكذب فاعلم أفظع المساوئ صاحبه مشرف على المـــــهاوى
ليس له فى قومــــــه مُروه ولا ترجّى عنده أخـــــــوة

(١) فى الأصل : بياض . (٢) أى منذ عام (اللسان) . (٣) سقط فى الأصل .
(٤) سقط فى ط . (٥) فى الأصل : خليفة .
(٦) والمضعة قطعة اللحم ، وقيل المضغة غير اللحم . اللسان (٦/ ٤٢٢٢) .
(٧) سقط فى الأصل . (٨) فى الأصل : يسهل .
(٩) فى الأصل : حميد . (١٠) سقط فى ط .

كَذَبْتَ ، وَمَنْ يَكْذِبْ ، فَإِنَّ جزَاءَهُ — إِذَا مَا أَتَى بِالصِّدْقِ أَلا يُصَدَّقَا
إِذَا عُرِفَ الْكَذَّابُ بِالكِذْبِ لَمْ يَزَلْ — لَدَى النَّاسِ كَذَّابًا ، وَإِنْ كَانَ صَادِقَا
وَمِنْ آفَةِ الْكَذَّابِ نِسْيَانُ كِذْبِهِ — وَتَلْقَاهُ ذَا فِقْهٍ إِذَا كَانَ حَاذِقَا (١)

قال أبو حاتم : لو لم يكن للكذب من الشَّين إلا إنزالُه صاحبه بحيث إن صَدَقَ لم يُصَدَّق ، لكان الواجب على الخلق كافَّةً لزومُ التثبت بالصدق الدائم ؛ وإن من آفة الكذب أن يكون صاحبه نَسيا (٢) ، [فإنه إذا] (٣) كان كذلك ، كان كالمنادى على نفسه بالخزى فى كل لحظة وطَرْفة .

سمعت أحمد بن محمد بن الأزهر (٤) يقول : سمعت نصر بن على الجَهْضَمِىّ يقول: إن الله أعاننا على الكذابين بالنسيان ، وأنشدنى محمدُ بن عبد الله البغدادىّ : [الوافر]

إِذَا مَا الْمَرْءَ أَخْطَأَهُ ثَلاثٌ — فَبِعْهُ ، وَلَوْ بِكَفٍّ مِنْ رَمَادِ
سَلامَةُ صَدْرِهِ ، وَالصِّدْقُ مِنْهُ — وَكِتْمَانُ السَّرَائِرِ فِى الفُؤَادِ (٥)

---

(١) هذه الأبيات فى التحذير من الكذب والتنفير عنه ، وقد حسنت أيما إحسان فيقول :
أيها الكاذب ويحك ، قد تماديت فى غيك ، وظننت أنك بمنجى عن المؤاخذة ، وهيهات بل يشفُّ كلامك عما تحته من كذب وفرى حتى وإن صدقت فأنت كذوب موصف بهذا بين الوَرَى ، وهذا جزاء من امتطى بساط الكذب . . . جزءاً وفاقاً .
ثم يؤكد هذا المعنى المسوف فى شطر البيت الأوَّل ، فيخبر أنَّ الكاذب عند استشهاده بين النَّاس بالكذب ، فهيهات أن تُدفَعَ عنه هذه المَسَبَّةِ والشبهة حتى وإن كان صادقاً فى مقاله واستبان ذلك من حاله .
ثم إنَّ الكَاذِبَ يَقَعُ فى حَبَائِل كذبه إن كان غِراً غُفْلاً فينسى ما قاله من كذب فيكذب نفسه ، ويفتضح أمرُهُ ، فيغدو ضحكة بين الخاص والعام ، أما إن كان حاذقاً ممن مردوا على الكذب وأشرب صناعته ، فإنَّهُ يصير خطيراً خبٌ والخب لا يخدعه .
(٢) كثير النسيان ، وزنه فعول كصبور ، أو فعيل كقدير .
(٣) فى ط : فإذا . (٤) فى الأصل : الزدى .
(٥) هذان البيتان من روائع الشعر وجيده ، وفيهما تحذير ممن لا يراعى حقّ الصحبة . . وحض على نبذه والزهد فيه فيقول : إذا ما جاوز صاحبك ثلاث خصال ، ولم يلتزمها ويتعهدها معك فحقّ لك أن تزهد فيه ، وتنبذه وتقذف به إلى الهاوية .
وقد عبَّر الشَّاعر عن ذلك أحسن تعبير بقوله « بعه » فجعله كسائمة تباع ، ثم قال : « ولو بكف من تراب » ، وهو تعبير غاية فى الجود والكناية عن مدى التفريط فيه والتأفف عن معالقته وشدة الرغبة فى التخلص منه .
وذلك كما يقول الشَّافِعِىُّ - رحمه الله - : =

أنبأنا بكر بن أحمد الطاحيّ بالبصرة ، حدثنا إبراهيم بن عَزْرة ، حدثنا سفيان بن عُيينة ، قال عن معمر ، قال : قال الزُّهْريّ : لو رأيتَ طاووساً لعلمت [1] أنه لا يكذب.

قال أبو حاتم رضى الله عنه : اللسان سَبُع عَقُور [2] إن ضَبَطَه صاحبه سَلِم ، وإن خَلّى عنه عقَرَه ، وبفمه [3] يفتضح الكذوب ، فالعاقل لا يشتغل بالخوض فيما لا يعلم ، فيتَّهَم فيما يعلم ، لأن رأس الذنوب الكذب ، وهو يبدى الفضائح ، ويكتم المحاسن [4] ، ولا يجب على المرء إذا سمع شيئًا يعيبه ، أن يُحدِّث به ، لأن من حدَّث عن كل شيء [5] أزرَى برأيه [6] ، وأفسد صدقَه .

ولقد أنبأنا أبو خليفة ؛ حدثنا ابن كَثير ، أنبأنا سفيان الثوريّ ، عن أبى إسحاق ، عن الأحوص ، عن عبد الله ، قال : حَسْبُ المؤمن من الكذب أن يحدِّث بكل ما سمِع.

أنبأنا الحسن بن سفيان ، حدثنا حِبّان بن موسى ، أنبأنا عبد الله ، أنبأنا سفيان ، عن منصور ، عن سالم بن أبى الجَعْد ، قال : قال عيسى ابن مريم عليه السلام : طُوبىَ لمن خزَن لسانَه ، ووسعه بيتُه ، وبكى على خطيئته !

أنشدنى محمد بن إسحاق الواسطى : [مجزوء الكامل]

= إذا المرء لم يلقاك إلا تكلــــفا ... فدعه ولا تكـثر عليه التأســفا
ففي الناس أبدال وفى الترك راحة ... وفى القلب ود للحبيب ولو جنا

إلى قوله : سَلامٌ على الدنيا إذا لم يكن بها صديق صادق الوعد متصفاً وهنا يذكر الخصال التى بعدَمِهَا ، فلا خير فى الصَّديق ، وينبغى نبذه وهى « سلامة صدره » من الحقد والغل والحسد . . وغيره من الآفات و « صدق حديثه » ، و« كتمان السر » ، فلا يبوح به لأحد .

ومن أفضل ما قيل فى هذا قول قيس بن الخطيم .

أجود بمضمـون التلاد وإننى ... بسـرك عمن سالني لضنين
وإن ضيع الإخـوان فإننى ... كتوم الأسـرار الخليل أمين
يكون له عندى إذا ما ائتمنته ... مكـان بسوداء الفؤاد مكين
إذا جاوز الإثنين سـرُّ فإنَّهُ ... بنشرٍ وإفشاء الحديث كمين

[راجع ديوانه ص ٥٥ ، وباب الآداب ٢٣] .

(١) فى الأصل : علمت .

(٢) العقور : الذى يعقر ، أى يجرح من يصيبه يقال : كلب عقور . اللسان (٤/ ٣٠٣٥) .

(٣) فى الأصل : وبفهمه . (٤) فى الأصل : المصايب .

(٥) في الأصل : أحد . (٦) أزرى به : عابه وحقده وهونه . اللسان (٣/ ١٨٣٠) .

وَإِذَا الأُمُـــــورُ تَزَاوَجَتْ　　فَالصِّـــــدْقُ أَكْرَمُهَا نِتَاجَا
الصِّـــــدْقُ يَعْقِدُ فَوْقَ رَأْ　　سِ حَلِيفِهِ (١) بِالصِّدْقِ تَاجَا
وَالصِّـــــدْقُ يَقْدَحُ زَنْدُهُ　　فِي كُـــلِّ نَاحِيَةٍ سِرَاجَا (٢)

أنبأنا القطان بالرَّقة ، حدثنا نوح بن حبيب ؛ حدثنا وَكِيع ، حدثنا سفيان ؛ عن منصور عن رِبْعيٍّ ، قالوا : مَن ذكرتَ يا أبا سفيان ؟ قال : ذكرتُ رِبْعيا ، وتدرون مَن كان رِبْعِي ؟ كان رجلاً من أشجع ، زعَم قومُه أنه لم يكذب قطُّ ، فسعى به ساع إلى الحَجَّاج ، فقال : هاهنا رجل من أشجع ، زعم قومه أنه لم يكذب قطُّ ، وإنه يكذبك(٣)

---

(١) في الأصل : خليقة .

(٢) هذه الأبيات من روائع أبى العتاهية ، وما أعظم شعره وأرقَّه فى الزهد والفضائل ، وفيها حث على الصدق والتزامه ، وامتداح عاقبته فيقول :

إذا ما الفضائل أنتجت ، وأخصبت وتكشفت عن ثمار لها ، فالصدق أفضلها وأكرمها وأشدها بركة في نتاجه ، وقصد بالتزاوج هنا الاجتماع والاقتران للفضائل ، وقصد بالنتاج هذا ، العاقبة والثمرة، على سبيل التشبيه .

كما أن الصدق يورث صاحبه كل مكرمة وفضل فينصب على جنبه تاجًا للبر والفخار وحبذا التاج فوق المفرق . وهنا إيماء إلى حديث النبى ﷺ « وإن الصدق يهدى إلى البر وإن البر يهدى إلى الجنة . . وإن الرجل لا يزال يصدق حتى يكتب عند الله صديقًا » .

كذلك الصدق يتكشف فى كل أحواله عن الخير ويضىء لصاحبه منارات من هدى ، فيسترشد بها، فلا يضل ولا يزل ، إذ الصدق حليف النجاة ، والكذب حليف الروى .

وقدح زند الصدق : كناية عن حسن عاقبته وفلاح صاحبه ولأبى العتاهية أشعار كثيرة فى هذا الباب قد ضمنها ديوانه ولولا خشية الإحلال والإثقال لأتيت على جملتها .

ومن روائع ما قيل فى هذا لغير أبي العتاهية ، وفى نفس معنى ما قال :

وأكرم الآداب صـــدق النطق　　أكـــرم من أكرم به من خلق
أعدل شاهـــد على الصلاح　　أقـــرب منهاج إلى الفـــلاح
شرِّف به أخلاقك الكـــريمة　　واســـتر به حالتك الذميمة
من صدق الحديث في المقال　　شاركه المثرون فى الأمـــوال

ومن روائع ما قيل فيه لذلك قول محمود الوراق :

اصدق حديثك إن فى الصـ　　ـدق الخلاص من الدنـــس
ودع الكـــذوب لشـــأنه　　خيرٌ من الكـــذب الخرس

ومما قاله أبو العتاهية :

الحمد لله كلٌّ ذو مكـــاذبة　　أمسى التصادق لا يسقى به الماء

(٣) فى ط : يكذب لك .

اليوم ، فإنك ضربت على ابنيه البيعة [(١)] ، فَعَصَيَا ، وهما فى البيت ، وكان عقوبة الحجّاج للعاصى ضربُ السيف . قال : فدعاه ، فإذا شيخ منحَنٍ ، فقال له : أنت رِبْعيٌّ؟ قال : نعم ، قال : ما فعل ابناك ؟ قال : هاهما ذان فى البيت . قال : فحمله وكساه ، وأوصى به [(٢)] خيرًا .

أنبأنا عمر بن محمد [(٣)] ، حدثنا الغلابى ، حدثنا عبيد الله بن محمد التميمى [(٤)] ، عن أبيه ، قال : كان عمر بن الخطاب بمنًى ، فعطِش ، فانتهى إلى عَجوز ، فاستسقاها ماءً ، فقالت : ما عندنا ، فقال : لبن [(٥)] ، فقالت : ما عندنا . فبدرت جارية ، فقالت لها : أتكذبين [(٦)] وما تستحين ؟ ثم قالت لعمر : هذا السقاء فيه لبن ، فسأل عمر عن الجارية ، فإذا أبوها ثقفى ، فخطبها على عاصم بن عُمر فزوَّجها منه ، فولُد له منها أم عاصم ، فتزوجها عبد العزيز بن مروان ، فولدت له عمر بن عبد العزيز بن مروان – رحمة الله عليه [(٧)] .

قال أبو حاتم – رضى الله عنه : الصدق يرفع المرء فى الدارين ، كما أن الكذب يهوِى به فى الحالين ، ولو لم يكن للصدق خَصْلة تحمد ، إلا أن المرء إذا عُرِف به قُبِلَ كذبه ، وصار صدقًا [(٨)] عند من يسمعه – لكان الواجب عَلَى العاقل أن يبلغ مجهوده فى رياضة لسانه ، حتى يستقيم له عَلَى الصدق ، ومجانبة الكذب . والعِيُّ فى بعض الأوقات خير من النطق ؛ لأن كل كلام أخطأ صاحبُه موضعه ، فالعىُّ خير منه .

أنشدنى المنتصر بن بلال الأنصارى : [الطويل]

تَحدَّثْ بِصِدْقٍ إنْ تَحدَّثْتَ ، ولْيَكُنْ ... لِكُلِّ حَدِيثٍ مِنْ حَدِيثِكَ حِينُ
فَمَا القَوْلُ إلا كَالثِّيَابِ ، فَبَعْضُهَا ... عَلَيْكَ ، وَبَعْضٌ فِى التُّخُوتِ [(٩)] مَصُونُ [(١٠)]

وأنشدنى عبد العزيز بن سليمان الأبرش [البسيط] :

---

(١) فى ط : البعث . (٢) لو كذب هذا الشيخ الحجّاج لقتله ، ولذلك قيل : الصدق منجاة .
(٣) فى الأصل : محمد الأنصارى . (٤) فى الأصل : التيمى .
(٥) فى ط : لبنًا . (٦) فى ط : تكذبين .
(٧) هذه إحدى ثمرات الصدق فى الدنيا : يرفع الذليل ، ويقوى جناح المكسور .
(٨) فى الأصل : صديقًا .
(٩) التخوت : جمع تخت ، وعاء تصان فيه الثياب ، فارسى ، وقد تكلّمتْ به العرب . اللسان (٤٢٢/١) .
(١٠) هذان البيتان فى امتداح الصدق كذلك والدعوة إليه فيقول : إذا ما تحدثت فاصدق ، وليكن = كلامك حسب الحال والمقام حاملاً لكل مقام مقال .

كَمْ مِنْ حَسِيبٍ كَـــرِيمٍ كَانَ ذَا شَرَفٍ قَدْ شَانَهُ الْكِذْبُ وَسْطَ الحَيِّ إِذْ[1] عَمَدَا
وَآخَــرٍ كَانَ صُعْلُـــــــوكًا فَشَرَّفَهُ صِدْقُ الحَدِيثِ وَقَوْلٌ جَانَبَ الفَنَدَا [2]
فَصَــــارَ هَذَا شَرِيفًــا فَوْقَ صَاحِبِهِ وَصَــــارَ هَذَا وَضِيعًا تَحْتَهُ أَبَدَا [3]

أنبأنا أبو خليفة ، حدثنا محمد بن كَثير ، أنبأنا سفيان الثورىُّ ، عن حبيب بن أبى ثابت ، عن ميمون بن أبى شبيب ، قال : قال عمر : « لا يجدُ عبد حقيقة الإيمان حتى يدَع المِراء [4] ، وهو مُحق ، ويدَع الكذب فى المِزاح ، وهو يرى أنه لو شاء لغلَب » .

أنبأنا ابن [5] سعيد القزاز ، حدثنى يوسف بن سعيد بن مسلم ، حدثنا على بن بكَّار، عن يونس بن عُبيد ، عن حُميد بن هلال ، عن عبد الله بن عمرو ، قال : ذَر ما لستَ منه فى شيء ، ولا تنطق فيما لا يعنيك ، واخْزَن لسانك كما تخزن دراهمك .

وأنشدنى محمد بن المنذر بن سعيد الهَرَوىُّ [والله أعلم وأحكم] [6] : [البسيط]

أَلْقَــــوْلُ كَاللَّبَنِ المَحْلُوبِ ، لَيْسَ لَهُ رَدٌّ ؛ وَكَيْفَ يَرُدُّ الحَـــــالِبُ اللَّبَنَا

= ثم أبدع هنا فى التشبيه مؤكدًا على قيمة مناسبة المقال للمقام والحال مشبهًا هذا بالثياب فلا يلبس جميعه ولا يترك جميعه ، وإنما يلبس بحسب اقتضاء الحال فكذا ينبغى أن يكون المقال .

(١) فى ط : إن .

(٢) الفند : وهو الخَرَفُ وإنكار العقل من الهَرَمِ أو المرض ، وقيل الخطأ فى الرأى والقول . قال تعالى : ﴿ لولا أنْ تُفَنِّدُونِ ﴾ أى لولا أن تكذبونى وتعجزونى وتضعفونى . اللسان (٥/ ٣٤٧٢) .

(٣) هذه الأبيات فى تفضيل الصادق والثناء على حالته ، وذم الكذوب الوضيع ودنو رتبته فيقول : مَن مِن الناس كان رفيع القدر جليل الذكر قد اتصف بالكذب ، وهو الحسيب النسيب غير أن هذا لم يشفع له ، فعدا ضحكة الأنام ، وحديث الخاص والعام وما قوَّض مجده ، وأتى بنيانه إلا كذب حديثه، ولا غرو فإن الكذب مروى وعلى النقيض من هذا كم من صعلوك وضيع ليس بذى حسب ولا نسب لَمَّا أن داوم على الصدق ، وتحلى بلباسه أضحى زينًا شريفًا بين جلسائه موثق الحديث عندهم ، قصيدًا لكل مكرمة منهم ، وإنما كساه الصدق هذا الفخار ولا غرو ، فإن الصدق يهدى إلى البر ، وإن البر يهدى إلى الجنة .

وكذلك صار الحال هذا فى صُعُد عقبى لصدقه أو ذاك فى صبب عقبى لكذبه ودنسه ، وتلك هى القسمة العليا جزاءاً وفاقًا ولا يظلم ربك أحدًا .

ومما قيل فى هذا لمنصور الفقيه - رحمه الله :

الصـــــدق أولى مابه وإن أمرؤ فاجعله دينًا
ودع النفاق فما رأيـــــ ـــتَ منافقًا إلا أُهـــين

(٤) المراء : الجدل والمخاصمة من ماريت الرجل أماريه مراءً إذا جادلته . اللسان (٦/ ٤١٨٩) .

(٥) فى الأصل : محمد بن .   (٦) سقط فى ط .

فِى ضَـــرْعِه ؛ وَكَذَاكَ القَوْلُ لَيسَ لَهُ فِى الجَوْفِ رَدٌّ ، قَبِيحًا كَانَ أَوْ حَسَنًا[(١)]

قال [أبو حاتم رضي الله عنه] [(٢)] : الواجب على العاقل ترك الإغضاء عن تعاهد[(٣)] اللسان ، لأن من كثر كلامه كثر سَقَطه ، والسقَط ربما تعدى غيرَه ، فيهلكه فى وَرْطة لا [حيلة له فى التخلص منها ؛ لأن اللسان لا يَنْدَمِلُ جُرحه ، ولا يلتَئِمُ ما قُطع به ، وكَلْمُ القول إذا وصل إلى القلب لم يُنزع إلا بعد مدة طويلة ، ولم يُستخرَج إلا بعد][(٤)] حيلة شديدة ، ومن الناس من لا يُكْرَم إلا للسانه ، ولا يهان إلا به ، فالواجب عَلَى العاقل ألا يكون ممن يُهان به .

أنبأنا عبد الله بن محمد الأنماطىُّ الهمْدانىُّ ، حدثنا محمد بن عُمير ، حدثنا عبد الله ابن الحسين العُقَيْلىُّ ، حدثنا أبو سلمة الخُزَاعىُّ ، حدثنا شَبيب بن شَبَّة[(٥)] ، قال : سمعت ابن سيرين يقول : الكلام أوسع من أنْ يَكذِب فيه ظَرِيف .

* * *

---

(١) هذان البيتان فى التحذير من مغبة القول إذ لا راد لسوئه ولا دافع لعقباه الوخيمة .. فيقول : مثال اللفظ الخارج من المرء كمثل اللبن المحلوب لا ردَّ له معود هيهات إن دون ذلك خرط القتاد وقطع الألباد .

ومثل هذا فى صعوبته ، مثل رد القول إلى أولى حالته .

لذا ينبغى للعاقل أن يتحرز قبل إخراج ملافظه ؛ فينظر عقباها ومرماها لأنها بعد خرجتها هى ليست فى ملكه وحوزته .

وختامًا لهذا الباب نورد هذه الأشعار :

مَن يشتهر خالا بكذب المنطق ... ثم أتى بالصدق لم يصـــدق
من عزَّه الكـــذبُ على لسانه ... فالصـدق ليس كائنًا من شأنه
مسكــــــنة المنطق بالصواب ... خير من الاتضاح بالكــذاب
لا تستـــميلن إلى كـــذوب ... فإنه لا رأى للمكــــــذوب
لا تأمنن من كـــاذب لَديكَا ... إذا حـــلا بكــــذبه عليها
لا تعصين قول ذى التجارب ... لا تســـتعن فى عملٍ بكاذب

وقال منصور الفقيه :

الحمـــد لله شكــراً ... فالشكـــر أيسر حقه
أمسَى الصدوق كثير الـ ... عَدوِّ من أجل صـدقه

ومن قول بعضهم :

لا يكــذب المرء إلا من مهانته ... أو عادة السوء أو من قلة الأدب

وقال جميل العذرى :

لحا الله من لا ينفـع الود عنده ... ومن حبـــله إن مرَّ غير متين
ومـــن هو ذو لونين ليس بدائم ... على خـــــلق خوان كل أمين

حماسة أبى تمام ص ٨/ ١٢٥

(٢) سقط فى الأصل .

(٣) فى ط : تعهد .

(٤) سقط فى ط .

(٥) فى الأصل : شيبة .

ذِكْرُ الْحَثِّ عَلَى لُزُومِ الحَيَاءِ ، وَتَرْكِ القِحَةِ [1]

أنبأنا الفُضيل بن الحُباب الجُمَحيُّ ، حدثنا القَعْنَبيُّ ، عن شعبة ، عن منصور ، عن ربعيٌّ ، عن ابن [2] مسعود : أن النبيَّ ﷺ قال : « إنَّ مِمَّا أَدْرَكَ النَّاسُ مِنْ كَلامِ النُّبوَّةِ الأُولَى : إذَا لَمْ تَسْتَحِي فَاصْنَعْ مَا شِئْتَ » [3] .

قال [أبو حاتم رضى الله عنه] [4] : الواجب على العاقل لزوم الحياء ، لأنه أصل العقل ، وبذر الخير ، وتركه أصل الجهل ، وبَذْر الشر ، والحياء يدل على العقل ، كما أن عدمه دال على الجهل ، ومن لم يُنصف الناسَ منه حياؤه ، [لم ينصفْهُ منهم] [5] قِحَتُه ، ولقد أحسن الذى يقول : [الطويل]

وَلَيْسَ بِمَنْسُوبٍ إِلَى العِلْمِ وَالنُّهَى ... فَتًى لا تُرَى فِيهِ خَــلائِقُ أَرْبَعُ

---

(١) القحة : الجرأة وقلة الحياء . اللسان (٦/٤٨٨٨) . (٢) فى الأصل : أبى .

(٣) أخرجه البخارى : ٦/ ٥٩٤ فى « أحاديث الأنبياء » (٣٤٨٣ : ٣٤٨٤) ، و(١٠/ ٥٤٠) فى «الأدب » ، باب : إذا لم تستحى فاصنع ما شئت (٦١٢٠) ، وأخرجه فى « الأدب المفرد » ص (١٧٥) برقم (٥٩٩) ، وص (٣٧٨) برقم (١٣٢٠) ، وأبو داود : (٢/٦٦٨) فى « الأدب » ، باب : فى الحياء (٤٧٩٧) ، وابن ماجة : (٢/ ١٤٠٠) في « الزهد » ، باب : الحياء (٤١٨٣) ، وأحمد : (٤/ ١٢١ ، ١٢٢) ، والطبرانى فى« الكبير » (٦٥١ - ٦٦١) ، وعبد الرزاق (٢٠١٤٩) ، والقضاعى فى « مسند الشهاب » (١١٥٣ ، ١١٥٤ ، ١١٥٥ ، ١١٥٦) ، والبيهقى : (١٠/١٩٢) ، وأبو نعيم فى« الحلية » : (٤/ ٣٧٠ ، ٨/ ١٢٤) ، والخطيب فى« التاريخ » : (٣/ ١٠٠ ، ١٠/ ٣٠٤ ، ٣٥٦) ، والبغوى فى «شرحه السنة » بتحقيقنا : (٦/٥٤٢) برقم (٣٤٩١) ، من طريق منصور عن ربعى بن خراش عن أبى مسعود رفعه به .

ويشهد حديث حذيفة : (٥/ ٤٠٥) ، وأبو نعيم : (٤/ ٣٧١) ، والبزار (٢٠٢٨ - كشف الأستار) ، والخطيب فى « التاريخ » : (١٢/ ١٣٥ - ١٣٦) عن أبى مالك الأشجعى عن ربعى بن خراش عن حذيفة به .

وقال الهيثمى فى « المجمع » (٨/ ٣٠) : رواه أحمد والبزار ورجاله رجال الصحيح .

وينظر شواهده فى المجمع .

ويحتمل الحديث تأويلين : الأول : إذا لم تقارب ما يستحيا منه من الأفعال ، فكل فعل مباح لك ، والثانى : إذا قل حياؤك فاصنع ما بدا لك .

(٤) سقط فى الأصل . (٥) فى الأصل : لم تنصفهم منه .

فَوَاحِدَةٌ : تَقْوَى الإِلَهِ ؛ الَّتِى بِهَا(1) يُنَالُ جَسِيمُ الخَيْرِ وَالفَضْلُ أَجْمَعُ
وَثَانِيَةٌ : صِـــدْقُ الحَيَاءِ ؛ فَإِنَّهُ طِـــبَاعٌ (2) عَلَيْهِ ذُو المُرُوءَةِ يُطْبَعُ
وَثَـالِثَةٌ : حِلْمٌ إِذَا الجَهْـلُ أَطْلَعَتْ إِلَيْهِ [خَبَايَا] (3) مِنْ فُجُورٍ تَسَرَّعُ
وَرَابِعَـــةٌ : جُـودٌ بِمِلْكِ يَمِينِهِ إِذَا نَابَهُ الحَقُّ الَّذِى لَيْسَ يُدْفَعُ (4)

وأنشدنى محمد بن عبد الله البغدادىُّ : [الطويل]

إِذَا قَــلَّ مَاءُ الوَجْـــهِ قَلَّ حَيَاؤُهُ وَلَا (5) خَيْرَ فِى وَجْهٍ إِذَا قَلَّ مَاؤُهُ
حَيَاؤُكَ (6) فَاحْفَظْهُ عَلَيْكَ ؛ فَإِنَّمَا يَـدُلُّ عَلَى وَجْهِ الكَرِيمِ حَيَاؤُهُ (7)

---

(1) فى الأصل : الذى به .

(2) الطباع هنا الطبع ، أو الطبيعة ، وهى الخلائق والسجايا التى جبل عليها الإنسان . اللسان (٤/٢٦٣٤) .

(3) فى الأصل : خنا .

(4) هذه الأبيات غاية فى الجودة معنىً ، ومبنىً ، ولقد أحسن صاحبها جدًا إذ يقول :
وليس يحق لامرئ وإن زعم الزاعمون ، أن ينسب إلى زمرة أهل العلم وأهل الثقات إلا أن يتحلى بخلائق أربع :
وأولاها : التقوى لله العظيم ؛ فبها ينال المرء ما يتمنى من عظيم الخيرات ، ﴿ ومن يتقِ الله يجعل له مخرجًا ويرزقه من حيث لا يحتسب ﴾ .
وثانيها : أن يكون حييًا فإنه سجية وخلق أهل المروءة ، وقال النبى ﷺ : « الحياء كله خير » .
وثالثها : أن يكون حليمًا جسورًا لا يجهل على أحدٍ إذ الجهل يفضى إلى الفجور أسرع إفضاء .
ورابع هذه الخصال : هو الجود والكرم قدر الطاقة فى العسر والإضاقة وفى الرحب والسعة ، إذا ما طرقته النوائب والدواعى لهذا .
وفى مثل هذا يقول محمد بن حازم :

وإنى ليثنينى عن الجهل و الخنا وشتم ذوى القربى خلائق أربع
حياء وإســـلام وتقوى وأننى كـــريم ومثلى قد يضرٌ وينفع

(5) فى ط : فلا . (6) فى ط : حياءك .

(7) هذان البيتان فى تحبيذ الحياء ولزومه فيقول :
إذا كان المرء ذا قحة لا وازع له فى الحياء قليل ماء الوجه والمروءة فلا خير فيه ولا فائدة ، إذ إن دواعى الحياء ، إذا ذهبت ذهب الحياء ، ولا خير فى وجه لا حياء لصاحبه .
والحياء سمة الكرام العظام ، فدم على الحياء ، فإنما هو شيمة ووسمة كل كريم معلى .
وفى هذا أشعار كثيرة منها :

ما إن دعانى الهوى لفاحشة لأنهـــا فى الحياء والكرمُ
ولا إلى محرم صدوق يرى ولا مـــشت بى لريبة قدمُ

أنبأنا أبو خليفة ، حدثنا ابن كثير ، حدثنا سفيان الثوريُّ ، عن أبى إسحاق ، عن أبى الأحوص ، عن عبد الله ، قال : ألأم شىء فى المؤمن الفُحْش .

قال أبو حاتم - رضى الله عنه : الحياء اسم يشتمل على مجانبة المكروه من الخِصال .

والحياء حياآن : أحدهما : استحياء العبد من الله - جل وعلا - عند الاهتمام (١) بمباشرة ما حُظِر عليه .

والثانى : استحياؤه من المخلوقين ، عند الدخول فيما يكرهون من القول والفعل معًا .

والحياآن جميعًا محمودان ، إلا أن أحدهما فرض ، والآخر فَضْل ؛ فلزوم الحياء عند مجانبة ما نَهى الله عنه فرض ، ولزوم الحياء عند مفارقة ما كره الناس فضل .

وأنشدنى محمد بن المنذر بن سعيد ، عن محمد بن خَلَف التيميِّ ، قال : أنشدنى رجل من خُزاعة : [الوافر]

إذَا لَمْ تَخْـــشَ عَاقِبَةَ اللّيَالِى ... وَلَمْ تَسْتَحيِ فَاصْـنَعْ مَا تَشَاءُ
فَلا وَاللهِ ، مَا فِى العَيْشِ خَيْرٌ ... وَلا الدُّنْيَا ، إذَا ذَهَــبَ الحَيَاءُ
يَعِيشُ المَرْءُ مَا استَحْيَا بَخَـيْرٍ ... وَيَبْقَى العُودُ مَا بَقِىَ اللِّحَاءُ (٢)

حدثنا إسحاق بن إبراهيم القاضى ، حدثنا قُتيبة بن سعيد ، حدثنا الليث بن سعد ،

---

(١) فى الاهتمام : الهمُّ بالشىء والإقدام على فعله . اللسان (٦/ ٤٧٠٣) .

(٢) هذه الأبيات المشهورات من روائع ما قيل فى الحياء أطراح من عدمه وعدم المبالاة به ، فيقول : أيها المرء الذى لم تراع عاقبة أفعالك ، ولم تنظر سير أحوالك ولم تلزم الحياء فى صنائعك اصنع ما شئت ولا تخجل فقد عدمت غراس الأساس فكيف يُحْزَنُ على البنيان . . .

ثم يقسم هنا بالله قسمة برٍ إنه لا خير فى المعاش والصحبة بل الدنيا قاطبة عند عُدم الحياء .

وعلة ذلك أن الحياء نيط به الخير والبرُّ ، وبه يعيش المرء صفوًا وخلوًا من الأذى والقذى ، فهو ظلٌّ يظلل صاحبه بكل محمده ولا يبقى ذو الظل إلا بظله كما لا يبقى العود ، إذا ذهب قشره وتنحى عنه - فكذا الحياء يكون لصاحبه بالخير .

وفى مثل هذا فالأشعار كثيرة جدًا ، ومنها قول العرجى :

إذا حـــرم المرء الحـــياء فإنه ... بكـــل قبيحٍ كان منه جـــدير
له قمة فى كل شىء وســـره ... مباح وخدناه خنا وغـــرور
يرى الشتم مدحًا والدنا تره فيه ... وللـسمع منه فى العظات تغـور
ووجـــه الحياء ملبس جلد رقة ... بغيض إليه ما يشين كـــثيرُ
له رغـــبة فى أمره وتجـرد ... حليم لدى جهل الجهول وقـور
فَـــرَجٌ الغنى ما دام يحيا فإنه ... إلى خير حالات المنيب يصـير

عن عقَيل ، عن الزهرىِّ : أن أبا بكر الصديق [رضى الله عنه] [1] قال يومًا [وهو يخطب : أيها الناس] [2] ، استحيُوا من الله ، فوالله ما خرجتُ لحاجة منذ بايعتُ رسول الله ﷺ أريد الغائط ، إلا وأنا مُقَنِّع رأسى حياء من الله .

قال أبو حاتم - رضى الله عنه : الحياء من الإيمان ، والمؤمن فى الجنة ، والبَذاء من الجفاء ، والجافى فى النار ، إلا أن يتفضل الله عليه برحمته ، فيخلصه منه .

فإذا لزم المرءُ الحياء كانت أسباب الخير منه موجودة ، كما أن الوقِح إذا لزم البَذاء كان وجود الخير منه معدومًا ، وتواتُرُ الشر منه موجودًا ؛ لأن الحياء هو الحائل بين المرء وبين المزجورات كلِّها ، فبقوَّة الحياء يضعف ارتكابه إياها ، وبضعف الحياء تقوى مباشرته إياها.

ولقد أحسن الذى يقول : [الوافر]

وَرُبَّ قَبِيحَةٍ [3] مَا حَالَ بَيْنِى ... وَبَيْنَ رُكُـوبِهَا إلا الحَيَاءُ [4]
فَكَانَ هُوَ الدَّوَاءَ لَهَا وَلَكِـنْ ... إِذَا ذَهَبَ الحَيَاءُ فَلا دَوَاءُ [5]

وأنبأنا محمد بن المنذر بن سعيد ، حدثنا عمر بن شبَّة [6] ، حدثنا عبد الأعلى بن عبد الأعلى ، حدثنا هشام ، عن محمد ، عن كثير بن أفلح ، عن زيد بن ثابت ، قال: من لا يستحيى من الناس ، لا يستحيى من الله .

قال أبو حاتم - رضى الله عنه : الواجب على العاقل أن يعوِّد نفسه لزوم الحياء من الناس ، وإن من أعظم بركته تعويدَ النفس ركوبَ الخصال المحمودة ، ومجانبتَها الخلال

= وقال آخر :

أعا ذلـــنى قد جربت حسى ... وتـم العقل وانكشف الغطاء
فما فى أن يعيش المرء خير ... إذا ما المرء زايله الحـــــياء
يعيش المرء ما استحى بخيرٍ ... ويبقى العود ما بقي اللحـاء

(١) سقط فى ط . (٢) فى ط : وهو يخطب الناس .

(٣) قبيحة : أى فعلة قبيحة والجمع قبائح ، وقباح . اللسان ٥٠٠٨/٣٥ .

(٤) هنا يذكر الشاعر فضل الحياء وجلالته ، وأنه عاصمٌ من القبائح ومما يورث الذّم ، فكم من قبيحة حال دونها الحياء أن تصنع .

(٥) فكان الحياء حينها هو العاصم ، والمجن ، لكن عند ذهابه فلا دواء ولا عاصم من ركوب القبائح والمذامّ .

(٦) فى الأصل : شيبة .

المذومة ، كما أنَّ من أعظم بركة الاستحياء (١) من الله الفوزَ من النار بلزوم الحياء عند مجانبة ما نهى الله عنه ؛ لأن ابن آدم مطبوع على الكرم واللؤم معًا ، فى المعاملة بينه وبين الله ، والعِشْرَة بينه وبين المخلوقين ، وإذا (٢) قوى حياؤه قوى كرمه وضعُف لؤمه ، وإذا ضعف حياؤه قوى لؤمه ، وضعف كرمه ، ولقد أنشدنى على بن محمد البَسَّامىُّ : [الوافر]

إِذَا رُزِقَ الفَتَى وَجْهًا وَقَاحًا ... تَقَلَّبَ فِى الأُمُورِ كَمَا يَشَاءُ (٣)

وَلَمْ يَكُ لِلدَّوَاءِ وَلَا لِشَىْءٍ ... يُعَالِجُهُ بِهِ فِيهِ غَنَاءُ (٤)

فَمَالَكَ فِى مُعَاتَبَةِ الَّذِى لَا ... حَيَاءَ لِوَجْهِهِ إِلا العَنَاءُ (٥)

قال أبو حاتم : إن المرء إذا اشتد حياؤه صان عِرضه ، ودفن مَساوِيَه ، ونشر محاسنه، ومن ذهب حياؤه ذهب سروره ، ومن ذهب سروره هان على الناس ومُقت ، ومن مُقِتَ أُوذِى ، ومن أُوذِى حَزِن ، ومن حزن فقد عقله ، ومن أصيب فى عقله ، كان أكثر قوله عليه لا له ، ولا دواء لمن لا حياء له ، ولا حياء لمن لا وفاء له ، ولا وفاء لمن لا إخاء له ، ومن قلَّ حياؤه ، صنع ما شاء ، وقال ما أحب .

وأنشدنى عبد العزيز بن سليمان الأبرش : [الطويل]

إِذَا لَمْ تَصُنْ عِرْضًا وَلَمْ تَخْشَ خَالِقًا ... وَتَسْتَحْىِ مَخْلُوقًا فَمَا شِئْتَ فَاصْنَعِ (٦)

---

(١) فى ط : الحياء . (٢) فى الأصل : فإذا .

(٣) وهنا يقول : إذا ما الفتى كان قليل ماء الوجه ذا وقاحة وصلابة وجه فهو يهيم على وجهه ويسعى على غير بصيرة لا عاصم له من أن يأتى .

(٤) وحينئذٍ فلا دواء له يرده عنه ، ولا عاقل له عن سوء سعيه ، فكل هذا لا يشفى علة ولا ينقع غلة .

(٥) وكيف تعاقب حينها ذا الوجه الوقاح ، أتنفخ فى غير ضرم ، وقد صدق أبو الطيب إذ قال :

لقد أسمعت لو ناديت حيًا ... ولكن لا حياة لمن تنادى

وقال غيره :

بكل داءٍ دواء يستطب به ... إلا الحماقة أعيت من يدوا بها

وحينئذ لن تتحصل من عتبك بما دام الحياء إلا على العناء والمشقة دون حصين خير من نصحه فما فى ا لنار للظمآن ماء .

(٦) وتحرير المعنى هنا : أنه إذا لم تصن عرضك من الدنس وتراعى الله حقًا ، ولم تستح من الخلق ، فأنت فى حلٍّ من أمرك ، فاصنع ما بدا لك ، إذ كل صنيعك هباء وشقاء ، ولعنة ونقمة عليك .

إِذَا كُــــنْتَ تَأْتِى المَرْءَ تُعْظِمُ حَـــقَّهُ   وَيَجْهَلُ مِنْكَ الحَقَّ فالصُّرْمُ أَوْسَعُ (١)

أنبأنا محمد بن سعيد القزاز ، حدثنى عبد الله بن مسعود الثعلبىُّ باليمن ، حدثنا أحمد بن زيد بن السَّكْن الجَنَدىُّ ، عن سفيان بن عيينة ، قال : قال يحيى بن جَعْدَة : إذا رأيت الرجلَ قليل الحياء ، فاعلم أنه مدخول فى نسبه .

* * *

(١) وإذا كنت ذا فضل تراعى الحقوق ، وتأتيها وتجتنب ما يذم مع صاحبك ولم يراع . لك حقك، ولم يعتبر لك صنيعك فأفٍ تفٍ عليه ودونك صرم حباله ، ومنابذة فعاله وهجره وطرده .

واختم هذا الفصل بهذه الروائع :

قالت ليلة الأخيلية :

فــتى كان أحيا من فتاة حيية   وأشجع من ليث نجفان خاور

وقالت :

ومخترق عنه القميص ثمالة   وسط البيوت من الحياء سقيمًا

وقال أمية بن أبى الصلت يمدح ابن جدعان بالحياء :

أأذكر حاجتى أم قد كفانى   حياؤك إن شيمتــك الحياء

وعــلمك بالأمــور وأنت   لك الحسب المؤثل والثنـاء

وقال الأصمعى : سمعت أعربيًا يقول : « من كساه الحياء ثوبه ، خفي على الناس عيبه » .

وقال آخر :

إياك أن تزرى الرجـــال فما   تعلـــم مـــاذا ثمــــنّه

نفس الجواد الكـــريم باقية   فيه وإن كان مسه عجـــف

والحرُّ حر وإن ألم به الــــ   ضر وفيه الحـــياء والأنف

ذِكْرُ الحَثِّ عَلَى لُزُومِ التَّوَاضُعِ ، وَمُجَانَبَةِ الْكِبْرِ

أنبأنا أبو خليفة ، حدثنا موسى بن إسماعيل التَّبُوذَكِيُّ ، حدثنا إسماعيل بن جعفر ، عن العلاء بن عبد الرحمن ، عن أبيه ، عن أبي هريرة ، قال : قال رسول الله ﷺ :

« مَا نَقَصَتْ صَدَقَةٌ مِنْ مَالٍ ، وَلَا زَادَ اللهُ عَبْدًا بِعَفْوٍ إِلا عِزًا ، وَلَا تَوَاضَعَ أَحَدٌ للهِ إِلا رَفَعَهُ اللهُ »(١) .

---

(١) أخرجه مسلم : ٢٠٠١/٤ في « البر والصلة » ، باب : استحباب العفو والتواضع (٢٥٨٨/٦٩) ، والدارمي : ٣٩٦/١ ، في « الزكاة » ، باب : فضل الصدقة ، وابن خزيمة : ٩٧/٤، برقم (٢٤٣٨) ، وأبو يعلى (٦٤٥٨) ، وابن عبد البر في « جامع بيان العلم وفضله » : ٥٦٣/١ برقم (٩٤٦) ، والبيهقي : ١٧٨/٤ ، ٢٣٥/١٠ ، والبغوى في « شرح السنة » بتحقيقنا : ٣٩٩/٣ برقم (١٦٢٧) من طريق إسماعيل بن جعفر به .

وأخرجه الترمذي : ٤/ ٣٣٠ في« البر والصلة » ، باب : ما جاء في التواضع (٢٠٢٩) ، وأحمد: ٢٣٥/٢ ، ٣٨٦ ، ٤٣٨ ، والبغوى في « شرح السنة » (١٦٢٧) من طرق عن العلاء بن عبد الرحمن به .

وقال الترمذي : هذا حديث حسن صحيح .

وأخرجه مالك : ٢/ ١٠٠٠ في « الصدقة » ، باب : ما جاء في التعفف عن المسألة (١٢) عن العلاء بن عبد الرحمن أنه سمعه يقول : ما نقصت .... فذكره .

وقال مالك : لا أدرى أيرفع هذا الحديث عن النبي ﷺ أم لا .

فتعقبه ابن عبد البر فقال : مثله لا يكون رأيًا ، وأسنده عنه جماعة ، وهو محفوظ مسند .

ويشهد له حديث أبي كبشة الأنماري رواه الترمذي : ٤٨٧/٤ في « الزهد » ، باب : ما جاء مثل الدنيا مثل أربعة نفر (٢٣٢٥) ، وأحمد : ٢٣١/٤ ، وقال الترمذي : هذا حديث حسن صحيح .

كما يشهد له حديث عبد الرحمن بن عوف أخرجه أحمد : ١٩٣/١ ، وأبو يعلى : ٨٤٩) عن عمر بن أبي سلمة ، عن أبيه عن قاص أهل فلسطين ، قال : سمعت عبد الرحمن بن عوف يقول : قال رسول الله ﷺ : ثلاث والذي نفسي محمد بيده إن كنت لحالف عليهن : لا ينقص مال من صدقة فتصدقوا . . . » فذكره بنحوه وفيه زيادة .

وأخرجه البزار (٩٢٩ - كشف الأستار) عن يونس بن خباب ، عن أبي سلمة بن عبد الرحمن ابن عوف ، عن أبيه ، عن النبي ﷺ . . .

وذكره الهيثمي في « المجمع » : ١٠٨/٣ ، وقال : رواه أحمد وأبو يعلى والبزار ، وفيه رجل لم يسم ، وله عند البزار طريق عن أبي سلمة ، عن أبيه ، وقال البزار : هذه أصح ، والله أعلم .

ويشهد له حديث أم سلمة رواه الطبراني في« الصغير » : ٥٤/١ وفي « الأوسط » كما في =

قال [أبو حاتم رضى الله عنه] (١) : الواجب عَلَى العاقل لزوم التواضع ، ومجانبة التكبر ؛ ولو لم يكن فى التواضع خَصلَة تُحمد إلا أن المرء كلما كثر تواضعه ، ازداد بذلك رفعة ، لكان الواجب عليه ألا يتزيًا (٢) بغيره .

والتواضع تواضعان : أحدهما محمود ، والآخر مذموم . فالتواضع (٣) المحمود : ترك التطاولِ على عباد الله ، والإزدراء (٤) بهم . والتواضع المذموم : هو تواضع المرء لذى الدنيا رغبة فى دنياه .

فالعاقل يلزم مفارقة التواضع المذموم عَلَى الأحوال كلها ، ولا يفارق التواضع المحمودَ على الجهات كلها .

فلقد حدثنا (٥) الحسن بن سفيان ، حدثنا قتيبة بن سعيد ، حدثنا الليث ، عن ابن عَجْلان ، عن بكير (٦) بن عبد الله ، عن عُبيد (٧) الله بن عدى : أن عمر بن الخطاب [رضى الله عنه] (٨) قال : إن الرجل إذا تواضع لله رفع الله حِكمَته (٩) . وقال : انتعشْ نَعَشَكَ الله ، فهو فى نفسه صغير ، وفى أعين الناس كبير . وإذا تكبَّر العبد وعَدَا طَوْره، وَهَصَه الله إلى الأرض ، وقال : اخسأ ! أخسأك الله ، فهو فى نفسه كبير ، وفى أعين الناس صغير .

قال أبو حاتم - رضى الله عنه : التواضع يرفع للمرء (١٠) قدرًا ، ويُعْظِم له خطَرًا ، ويزيده نُبلاً .

والتواضع لله - جل وعز - على ضربين :

= المجمع: ٣/١٠٨ ، عن ذكريا بن دريد بن محمد بن الأشعث بن قيس الكندى حدثنا سفيان الثورى عن منصور ، عن يونس بن خباب ، عن أبى سلمة بن عبد الرحمن ، عن أم سلمة رفعته : « ما نقص مال من صدقة .... » فذكر بنحو حديث عبد الرحمن بن عوف .

وقال الطبرانى فى « الصغير » : لم يروه عن الثورى إلا قاسم بن بريد الحرمى وذكريا بن دريد الأشعنى ، وقال الهيثمى : فيه زكريا بن دويد وهو ضعيف جدًا .

كما يشهد له حديث ابن عباس رواه الطبرانى فى « الكبير » (١٢١٥٠) ، وقال الهيثمى : ٣/١١٣: فيه من لم أعرفه .

(١) سقط فى الأصل . (٢) أى لا يلبس غير المتواضع .

(٣) فى ط : والتواضع . (٤) فى ط : والإزراء . (٥) فى ط : ولقد أنبأنا .

(٦) فى الأصل : بكر . (٧) فى الأصل : عبد . (٨) سقط فى ط .

(٩) قال ابن الأثير فى « النهاية » : رفع الله حكمته : أى قدره ومنزلته كما يقال له عندنا حكمة، أى : قدر ، وفلان عالى الحكمة ، وقيل : الحكمة من الإنسان : أسفل وجهه ، مستعار من موضع حكمة اللجام ، ورفعها كناية عن الإعزاز ، لأن من صفة الذليل تنكيس رأسه .

(١٠) فى ط : المرء .

أحدهما : تواضع العبد لربه عندما يأتى من الطاعات غيرَ مُعْجَبٍ بفعله ، ولا راءٍ له ، عندهُ حالة توجب له [(١)] أسباب الولاية ، إلا أن يكون المولَى - جل وعلا - هو الذى يتفضل عليه بذلك . وهذا التواضع هو السبب الدافع لنفس العُجْب عن الطاعات .

والتواضع الآخر : هو ازدراء المرء نفسه ، واستحقاره إياها ، عند ذكره ما قارف [(٢)] من المآثم ، حتى لا يرى أحدًا من العالم إلا ويرى نفسه دونه فى الطاعات ، وفوقه فى الجنايات .

كما أنبأنا أحمد بن الحسن بن عبد الجبار الصوفىُّ ببغداد ، حدثنا يحيى بن مَعِين ، حدثنا عبد الصمد بن عبد الوارث ، عن عبد الله بن بكر بن عبد الله المزَنِىٌّ ، قال : قال [لى] [(٣)] أبى : يا بُنىَّ لو لم أحضرِ الموسم ، لرجوت أن يغْفَر لهم .

أنبأنا عبد الرحمن بن يحيى بن معاذ البزار ، حدثنا هشام بن عمار ، حدثنا ابن سُميع، حدثنا زهير بن محمد ، عن ابن جُريج ، عن مجاهد فى قوله : ﴿ وكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ ﴾ [الأنبياء : ٩٠] قال : متواضعين .

قال أبو حاتم - رضى الله عنه : العاقل يلزم مجانبة التكبُّر ؛ لما فيه من الخصال المذمومة:

إحداها : أنه لا يتكبر على أحد حتى يُعْجَب بنفسه ، ويرى لها على غيرها [(٤)] الفضل.

والثانية : ازدراؤه بالعالم ، لأن من لا [(٥)] يستحقرِ الناس لا يتكبر عليهم ، وكفى بالمستحقر لمن أكرمه الله بالإيمان طُغيانًا .

والثالثة : منازعة الله - جلَّ وعلا - فى صفاته ، إذ الكبرياء والعظمة من صفات الله [جل وعلا] [(٦)] ، فمن نازعه إحداهما ألقاه فى النار ، إلا أن يتفضل عليه بعفوه .

ولقد أحسن الذى يقول : [البسيط]

التِّـــيهُ مَفْسَـــدَةٌ للدِّينِ ، مَنْقَصَةٌ للْعَقْلِ ، مَهْلَكَةٌ للْعِـــرْضِ ، فَانْتَبِه
لا تَشْـــرَهَنَّ ؛ فَإنَّ الذُّلَّ فِى الشَّرَهِ وَالعِزَّ فِى الحِلْمِ ، لا فِى الطَّيْشِ [(٧)] وَالسَّفَهِ [(٨)]

---

(١) فى ط : يوجب بها . (٢) فى الأصل : قارب . (٣) سقط فى ط .
(٤) فى الأصل : غيره . (٥) فى ط : لم . (٦) سقط فى الأصل .
(٧) فى ط : البطش .
(٨) هذان البيتان فى التحذير من التيه والسفه ، وهما آفتان حرى بالعاقل أن يتجنبهما لسوء عاقبتهما . فيقول : =

سمعت محمد بن محمود النسائيُّ يقول : سمعت أبا داود السِّنْجيّ يقول : سمعت الأصمعيّ يقول : سمعت يحيى بن خالد البرمكيّ يقول : الشريفُ إذا تَقَرّأ تواضع ، والدنىء إذا تَقرّأ [1] تكبر .

قال أبو حاتم - رضى الله عنه : لا يمتنع من التواضع أحد ، والتواضع يكسب السلامة، ويورث الألفة ، ويرفع الحقد ، ويُذهب الصَّدَّ ، وثمرة التواضع المحبة ، كما أن ثمرة القناعة الراحة ، وإنَّ تواضع الشريف يزيد فى شرفه ، كما أنَّ تكبر الوضيع يزيد في ضَعته ؛ وكيف لا يتواضع من خُلقَ من نطفة مَذِرَة [2] ، ويعود آخره [3] جيفةً قَذِرة، وهو بينهما يحمل العَذِرة ؟

سمعت أبا يَعْلَى يقول : سمعت إسحاق بن أبى إسرائيل يقول : سمعت ابن عيينة يقول : لو قيل أخرجوا خيار هذه القرية ، لأخرجوا من لا يُعرف [4] .

وأنشدنى الكُرَيزيُّ : [الطويل]

وَلا تَمْشِ فَوْقَ الأَرْضِ إِلا تَوَاضُعًا ... فَكَمْ تَحْتَهَا قَوْمٌ هُمُ مِنْكَ أَرْفَعُ [5]

فَإِنْ كُنْتَ فِي عِزٍّ وَحِرْزٍ [6] وَمَنْعَةٍ ... فَكَمْ مَاتَ مِنْ قَوْمٍ هُمُ مِنْكَ أَمْنَعُ ؟ [7]

= أن تيهك وتنطعك يفسد عليك دينك ويورثك خبالاً ونقصًا فى عقلك ويعرض عرضك للشين ، فاحترز من هذا ، وأربع على نفسك ، واذكر قول ربك لأهل الجحيم يوم الدين حينما يستغيثون ولا موت ويدعون ولا مجيب :

﴿ ذلكم بما كنتم تفرحون فى الأرض بغير الحق وبما كنتم تمرحون ﴾ [غافر : ٧٥]

وهنا يحذر من الشره وشدة التيه والسفه ، فإنه يكسو المرء ثياب المذلة والمهانة . . . كما أن العزَّ والفخر فى الثبات والتؤدة والحكم .

ويرحم الله أبا العتاهية لما قال :

كـن فى أمورك ساكنًا ... فالمرء يدرك فى سكونه

وقوله :

سامـح الناس فإنى أراهم ... أصبحـوا إلا قليلاً ذئابًا

أفش معروفك فيهم وأكثر ... ثم لا تبتغى عـليه ثوابًا

(١) القارىء والمُتَقَرِّىءُ ، والقُرَّاء : الناسك . اللسان (٥/ ٣٥٦٤) .

(٢) فى الأصل : متنتة . (٣) فى ط : وآخره يعود . (٤) فى ط : نعرف .

(٥) وتحرير المعنى : أنه ينبغى أن تتواضع فلا تمشى إلا الهوينا من التواضع ، فإن ظننت أنك ذو رفعة ، فكم من أناس يمشون على الأرض وهم فوق رفعة ومكانة .

(٦) فى ط : وخير .

(٧) فإن حادثتك نفسك بأنك ذو العز والفضل والمنعة ، وأنت أنت فهذه عوارض زائلة ، ولو دامت لغيرك لما وصلتك ، فقد هلك من هو فوقك عزة ومنعة وشرفًا . =

أنشدنا أبو عَروبة أو ابن قُتيبة ، [قال] (١) : أنشدنا المسيب بن واضح ، عن يوسف بن أسباط : [الكامل]

وكَـــفى بِمُلْتَمِسِ التَّوَاضُعِ رِفْعَةً وَكَفَى بِمُلْتَمِسِ العُلُوِّ سَفَالا (٢) ، (٣)

أنبأنا ابن خزيمة ، حدثنا محمد بن هشام المَرْوَزِىُّ ، حدثنا حفص بن غياث ، عن جعفر بن محمد ، عن أبيه ، قال : حج الحسين بن على عشر حجج ماشيًا ونُجبُه تقاد(٤) إلى جنبه .

قال أبو حاتم - رضى الله عنه : أفضل الناس مَنْ تواضع عن رفعة ، وزَهد عن قدرة، وأنصف عن قوة ، ولا يترك المرء التواضع إلا عند استحكام التكبر ، ولا (٥) يتكبر على الناس أحد إلا عند إعجابه (٦) بنفسه ، وعُجْب المرء بنفسه أحد حُساد عقله ، وما رأيت أحدًا تكبر على مَنْ دونه ، إلا ابتلاه الله بالذلة لمن فوقه .

وأنشدنى محمد بن أبى على الخَلادِى : [الخفيف]

وَدَعِ التِّيهَ وَالعُبُــــــوسَ عَلَى النَّا سِ ؛ فَإِنَّ العُبُوسَ رَأْسُ الحَمَاقَهْ (٧)

= ويرحم الله منصور الفقيه ، إذ قال :

تتيه وجسمك من نطفة وأنت وعاء لما تعلـم

وقال أبو العتاهية :

ما بال من أوله نطـــفة وجـــيفة آخره يفخـــر
أصبح لا يملك تقديم ما يرجو ولا تأخير ما يحذر
وأصبــح الأمر إلى غيره فى كل ما يقضى وما يقدَّر

(١) سقط فى ط . (٢) السفال : نقيض العلو أو العلاء . اللسان (٣/ ٢٠٣١) .

(٣) هذا البيت جليل القدر عظيم المعنى حيث يقول :

يأيهذا الملتمس التواضع كفاك بهذا رفعةً ورقيًا إلى مدارج المجد والرضا .

وعلى النقيض ينعى على مبتغى العلو والتيه بأنه فى سفاك وثبات وكفى بطلبه العلو بالباطل إثمًا. فإنه يهوى إلى دركات الجحيم .

(٤) جمع النجيب من الإبل ، وهو القوى الخفيف السريع يقال : جمل نجيب ، وناقة نجيب ، جمعها : نجب ، وناقة نجيب ، والجمع : نجائب . اللسان (٦/ ٤٣٤٢) .

(٥) فى ط : فلا . (٦) فى ط : بإعجابه .

(٧) وتحرير المعنى هذا : أنه يوصى العاقل أن يخفض من شموخه ويستبدل التية بالتواضع فيرافق الناس بالخير ، ولا يترفع على أحد فإن عبوسه ، وشموخه لهو آية الحماقة وكفى بها خزيًا وعيبًا .

كُـلَّمَا شِئْتَ أن تُعَـــادِيَ عَادَيْـ ـتَ صَدِيقًا وَقَدْ تَغُرُّ (١) الصَّدَاقَهْ (٢)

---

(١) فى الأصل : تعز .

(٢) ثم ينص عليه هنا أنه يتبع هواه ، وباطله ، فيعادى أصدقاءه كلما شاء كأنه اغتر بذلك ، وما هو إلا غِرٌّ غفل فيما يصنع ويصدق على حال أهل الصلف قول القائل .

قـولوا لزوار الكنف والمنتشين من النطف
ياصيغًا مـن الجيفِ ما لكـم وللصـلف

ومن روائع ما قيل فى هذا الفضل .

قول العربى :

قـوم إذا نزل الغريب بأرضهم تركـــوه رب صـواهل وقيـان
وإذا دعوتهـــم ليوم كـــريهة سروا شعاع الشمس بالخرصان
متصعلكين على كثافة ملكـــهم متواضـــعين على عظيم الشان
لا ينكثون الأرض عند سؤالهم لتطـــلب العلات بالعـــيدان
بل يبسطون وجوهم فترى لهـا عند الســـؤال كأحسن الألوان

ولأبى العتاهية ، ويروى لمنصور الفقيه :

حــذرتك الكبر لا يعلقك ميسمه فإنـــه ملبـــس نازعتــــه الله
يا بوس حامل رجس ليس يغسله بالماء عنه إذا كـــلمته شـــــاها
يرى عليك له فضـــلاً ومـنزلة إن نال فى العاجل السلطان والجاها
مُثْنٍ على نفســــه راضٍ بسيرته كذبت يا صـــاحب الدنيا ومولاها

وقال منصور الفقيه :

قـــلت للمعجب لما قال مثلى لا يراجـــع
يا قريب العهد بالمخـ ـرج لم لا تتواضـــع

وما قاله الزين :

لا تزدهـيك عزه المناصـــــب فعـــزة الدنيا كبرق خـــالب
عمــــاً قليل شمســـها تُغَيَّبُ ما فخر ذي العقل بمجد يذهـــب
فحســـبك التقوى علاً وعـزاً وعـــــده لمن أراد بـــــــزاً
لا تفخــــر بمنصــب ومــــال إن كنت ذا عقـــل وذا كمـــــال
دع ما استطعت الفخر بالأصول فـــذاك فخر العاجز الكســـول
ومـــن تكـــن بغـــيته العلياء فقـــــدره فى نفســه هـــباء
يسعى إلى المجـــد وليس يقنع ومن يذق طعـــم العلا لا يشبع
أما قصـــير الباع فى المعــالى فإنه يقـــنع بالآمـــــــال
مهمـــا تكن رتبته صـــغيرة فإنهـــا فى ظـــنه كـــبيرة

=

قال أبو حاتم - رضى الله عنه : ما استُجلبت البِغْضةُ بمثل التكبُّر ، ولا استُجْلِبَت [١] المحبةُ بمثل التواضع ، ومَن استطال على الإخوان فلا يثقنَّ منهم بالصفاء ، ولا يجب لصاحب الكِبر أن يطمع فى حسن الثناء ، ولا تكاد ترى تائهًا إلا وضيعًا .

فالعاقل إذا رأى من هو أكبر سنا منه تواضع له ، وقال : سبقنى إلى الإسلام ، وإذا رأى من هو أصغر سنا [منه] [٢] تواضع له ، وقال : سبقته بالذنوب [٣] ، وإذا رأى من هو مثله عدَّه أخًا ، فكيف يحسن تكبر المرء عَلَى أخيه ، ولا يجب استحقار أحد ، لأن العُود المنبوذ ربما انتفع به ، فَحَكَّ الرجل به أذنه .

أخبرنا محمد بن المسيب بن إسحاق ، حدثنا العباس بن الوليد بن مَزْيَد ، قال : سمعت محمد بن شعيب بن شابور يقول : دخل رجل الحمام وزيد [٤] بن أبى حبيب فيه، وكان أسود ، فقال له : يا أسود ، قم فاغسل رأسى ، فقام فشدَّ [عليه] [٥] إزاره، فغسل رأسه ، ودَلَك جسده ، فلما فرغ قال له الرجل : كثَّر الله فى السُّودان مثلك ، قال: أحببتَ أن يكثر مَنْ يخدُمك ؟

أنبأنا محمد بن زَنْجُويه القُشيرىُّ ، حدثنا عبد العزيز بن عبد الله المدائنى [٦] ، حدثنا أبو معاوية ، عن الأعمش ، عن مجاهد ، عن ابن عباس ، قال : لو بغى جبل على جبل لَدَكَّ الله الباغىَ منهما .

أنبأنا الحسن بن سفيان ، حدثنا نصر بن علىٍّ ، حدثنا نوح بن قيس ، عن أخيه ، عن قتادة ، قال : ما نسِيت شيئًا قطُّ ، ثم قال لغلامه : ناولنى نَعْلى ، قال : نعلك فى رِجلك [٧] .

=
حسبك ما قد جاء فى الأمثال	والكـــــلم النفائس الغوال
إن الأســـــود فخرها زئير	وبالنهـــــيق تفخر الحمــير
لا تـــــزه بالطريف والتلاد	فكـــل ما ترى إلى نفــــاد
أواه لو يعرف كنه قـــــدره	فى الناس من أسقطه بكبره
لو ينظـــر الإنسان مما صورا	وما يؤول أمره ما استكـــبرا
إن كـنـت ذا علا وذا ارتفاع	فى الناس فاحفظه بالاتضـــاع

(١) فى ط : اكتسبت . (٢) سقط فى ط . (٣) فى الأصل : إلى الذنوب .
(٤) فى الأصل : ويزيد . (٥) سقط فى الأصل . (٦) فى الأصل : المدينى .
(٧) وهكذا كل من ادعى دعوى غير صادقة ، فما أسرع ما تقوم الشواهد على بطلانها .

أنبأنا عبد الله بن محمد بن عمر ، أنبأنا [1] على بن خَشْرم ، قال : سمعت الفضل ابن موسى يقول : كان مالك « نَسَّاءً » [2] ، فقال لقَهرمانه [3] : اشتر لى غلامًا ، وسَمِّهِ باسم خفيف حتى لا أنساه ، قال : فاشترى له غلامًا ، وأدخله عليه ، فقال : اشتريت لك هذا الغلام ، وسميته باسم خفيف ، قال : ما سميته ؟ قال : فَرْقَد ، قال : فنظر إلى الغلام ، وقال : اجلس يا واقد .

* * *

---

(١) فى الأصل : عمرو .   (٢) فى ط : ينسى .

(٣) القهرمان : وكيل الرجل على ماله ، وأمين الملك وخاصته . فارسى معرب . اللسان (٥/٣٧٦٤).

ذِكْرُ اسْتِحْبَابِ التَّحَبُّبِ إِلَى النَّاسِ ، مِنْ غَيْرِ مُقَارَفَةِ المَأْثَمِ [1]

أنبأنا أحمد بن الحسين بن عبد الجبار ببغداد ، حدثنا يحيى بن مَعين ، حدثنا عَبْدَةُ بن سليمان ، عن هشام بن عُروة ، عن موسى بن عُقبة ، عن عبد الله بن عمر الأزديِّ ، عن ابن مسعود ، عن النبيِّ ﷺ ، قال : « يُحَرَّمُ عَلَى النَّارِ كُلُّ هَيِّنٍ لَيِّنٍ ، قَرِيبٍ سَهْلٍ »[2].

---

(1) المأثم : الإثم ، والمقارفة : المقاربة والدنو من الشيء ، وهو الأمر الذى يأثم به الإنسان . اللسان (١/ ٢٩) .

(2) أخرجه المصنف فى« صحيحه » (١٠٩٦ - موارد) بهذا الإسناد ، ومن طريقه البيهقى فى «شعب الإيمان » : ٧/ ٥٣٥ برقم (١١٢٥١) .

وأخرجه الترمذى : (٤/ ٥٦٤) فى « صفة القيامة » ، باب : (٤٥) برقم (٢٤٨٨) ، وأحمد : (١/ ٤١٥) ، والطبرانى فى « الكبير » : (١٠/ ٢٨٥) ، برقم (١٠٥٦٢) ، وابن حبان (١٠٩٧ - موارد)، والخرائطى فى « مكارم الأخلاق » ص ١١ ، ص ٢٣ ، وهناد فى « الزهد : (٢/ ٥٩٦) برقم (١٢٦٣) ، والبيهقى فى « الشعب » (١١٢٥٢) ، والبغوى فى « شرح السنة » بتحقيقنا : (٦/ ٤٨٠) برقم (٣٣٩٩) من طرق عن هشام بن عروة به ، بلفظ : « ألا أخبرك بمن يحرم على النار أو بمن تحرم عليه النار ، على كل قريب هين سهل » .

وقال الترمذى : هذا حديث حسن غريب .

وأخرجه الطبرانى فى « الصغير » : (١/ ٣٦) ، وأبو يعلى (١٨٥٣) عن مصعب بن عبد الله الزبيرى حدثنى أبى ، عن هشام بن عروة ، عن محمد بن المنكدر ، عن جابر ، أن رسول الله ﷺ قال : . . . فذكره ، وكذا أخرجه البيهقى فى « الشعب » : (٦/ ٢٧٢) برقم (٨١٢٦) .

وقال الهيثمى فى « المجمع » : (٤/ ٧٨) : رواه الطبرانى فى « الأوسط » ، وأبو يعلى . . . وفيه عبد الله بن مصعب الزبيرى ، وهو ضعيف .

وقال ابن أبى حاتم فى علل الحديث : (٢/ ١٠٨) برقم (١٨١٩) : سألت أبي وأبا زُرْعة عن حديث رواه مصعب بن عبد الله الزبيرى ، عن أبيه ، عن هشام بن عروة ، عن محمد بن المنكدر ، عن جابر، عن النبى ﷺ . . . فذكره ، قالا . هذا خطأ :رواه الليث بن سعد ، وعبدة بن سليمان ، عن هشام بن عروة ، عن موسى بن عقبة ، عن عبد الله بن عمرو الأودى ، عن ابن مسعود ، عن النبى ﷺ : . . . وهذا هو الصحيح ، قلت لأبى زرعة : الوهم ممن هو ؟ قال : من عبد الله بن مصعب ، قلت : ما حال عبد الله بن مصعب ، قال : شيخ . =

قال أبو حاتم - رضى الله عنه : الواجب على العاقل أن يتحبب إلى الناس ، بلزوم حسن الخلق ، وترك سوء الخُلُق ؛ لأن الخلق الحسن يذيب الخطايا ، كما تذيب الشمس الجليد ، وإن الخُلُق السيئ ليفسد العمل كما يفسد الخلُّ العسل ، وقد تكون فى الرجل

= ويشهد له حديث معيقيب : أخرجه الطبرانى فى « الكبير » : (٢٠/ ٣٥٢) برقم (٨٣٢) ، والخرائطى فى « مكارم الأخلاق » (ص ٢٣) ، وأحمد فى « الورع » : (٨٣) ، والدولابى فى«الكنى»: (١/ ٨٧) عن شيبان بن فروخ ثنا أبو أمية بن يعلى الثقفى عن محمد بن معيقيب عن أبيه، عن النبى ﷺ : حرمت النار على الهين اللين السهل القريب » .

وقال الهيثمى : (٤/ ٧٨) : رواه الطبرانى فى « الكبير » ، و« الأوسط » ، وفيه أبو أمية بن يعلى، وهو ضعيف .

وحديث معيقيب أخرجه البيهقى فى « شعب الإيمان » : (٦/ ٢٧٢) برقم (٨١٢٥) ، كما يشهد له حديث أبى هريرة أخرجه الطبرانى فى « الأوسط » ، والعقيلى فى « الضعفاء » : (٤/ ٣٢٣) عن جمهور ابن منصور القرشى ، قال : حدثنا وهب بن حكيم ، عن محمد بن سيرين ، عن أبى هريرة، عن النبى ﷺ قال : تحرم النار على كل هين لين سهل قريب » .

وقال الطبرانى : لم يروه عن ابن سيرين إلا وهب ، تفرد به جمهور .

وأما جمهور فقال فيه العقيلى : قال لنا الحضرمى : سألت ابن نمير عن جمهور فقال : اكتب عنه.

وأما وهب فقال فيه العقيلى : مجهول بالنقل ، ولا يتابع على حديثه .

قلت : أخرجه أبو نعيم فى« الحلية » : (٢/ ٣٥٦) عن حماد الأبح ، عن محمد بن واسع ، عن محمد بن سيرين به .

وقال أبو نعيم : رواه عيسى بن موسى غنجار ، عن عبد الله بن كيسان ، عن محمد بن واسع مثله.

وقال : ابن أبى حاتم فى« العلل » : (٢/ ١١٩) : سألت أبي عن حديث رواه محمد بن أمية السادى، عن عيسى بن موسى التيمى ، عن عبد الله بن كيسان ، قال : سمعت محمد بن واسع يحدث عن ابن سيرين ، عن أبى هريرة ، عن النبى ﷺ قال : . . . فذكره .

فسمعت أبى يقول : وهو حديث غريب منكر حدثنا به الحسن بن على بن مهران المتولى ، عن أحمد بن محمد بن أمية ، عن أبيه محمد بن أمية .

وأخرجه الحاكم : (١/ ١٢٦) ، والبيهقى فى « السنن » : (١٠/ ١٩٤) ، وفى « شعب الإيمان » (٨١٢٣) ، عن محاضر بن المورع ، ثنا سعد بن سعيد الأنصارى ، عن عمرو بن أبي عمرو ، عن المطلب ، عن أبى هريرة عن النبى ﷺ قال : « من كان هينًا لينًا قريبًا حرمه الله على النار » .

وصححه الحاكم ووافقه الذهبى .

كما يشهد له حديث أنس أخرجه الطبرانى فى « الأوسط » كما فى « المجمع » : (٤/ ٧٨) ، وقال: فيه الحارث بن عبيدة ، وهو ضعيف .

والحديث صححه الألبانى فى « السلسلة الصحيحة » برقم (٩٣٨) .

أخلاقٌ كثيرة صالحة كلها ، وخلق سيِّئ ، فيفسد الخلق السيِّئ الأخلاق الصالحة كلها .

وأنشدنى البغدادىُّ (١) : [الرمل]

خَالِقِ النَّاسَ بِخُلُقٍ حَسَنٍ ... لا تَكُنْ كَلْبًا عَلَى النَّاسِ يَهِرُّ (٢)

وَالْقَهُمْ مِنْكَ بِبِشْرٍ ، ثُمَّ صُنْ ... عَنْهُمُ عِرْضَكَ عَنْ كُلِّ قَذَرْ (٣)

أنبأنا حامد بن شعيب البلخىُّ ببغداد ، حدثنا سُريج بن يونس ، حدثنا سفيان ، عن إبراهيم ، عن (٤) ميسرة ، عن طاوس ، قال : سمعت ابن عباس يقول : إن الرَّحِمَ تُقْطَع ، وإن النعم تُكفَر ، ولم أرَ مثل تقارب القلوب .

أنبأنا الخَلادى ، حدثنا محمد بن المغيرة النوفلىُّ ، ثنا عبد العزيز بن منيب ، حدثنا إبراهيم بن الأشعث ، قال : سمعت الفُضَيل بن عياض يقول : إذا خالطتَ فخالطْ حَسَنَ الخُلق ، فإنه لا يدعو إلا إلى خير ، وصاحبُهُ منه فى راحة ، ولا تخالط سيِّئَ الخُلق ، فإنه لا يدعو إلا إلى شر ، وصاحبُه منه فى عناء ؛ ولأن يصحبَنى فاجرٌ حَسن الخلُق ، أحبُّ إلىَّ من أن يصحبنى قارئ سيِّئُ الخلق ، إن الفاسق إذا كان حَسن الخلق عاش بعقله ، وخفَّ على الناس وأحبُّوه ، وإن العابد إذا كان سيئ الخلق ، ثقل عَلَى الناس ومَقَتوه .

وأنشدنى محمد بن المهاجر المعدَّل ، أنشدنى محمد بن إبراهيم اليَعمَرىُّ : [الكامل]

حَافِظْ عَلَى الخُلُقِ الجَمِيلِ وَمُرْ بِهِ ... مَا بِالجَمِيلِ وَبِالقَبِيحِ خَفَاءُ (٥)

---

(١) في الأصل : البغدادى محمد بن زنجى .

(٢) يهر : يهر الكلب صريراً وهو صوته دون نباحه من قله صبره على البرد
هنا يوصى الشاعر بمخالقة الناس بأحسن الأخلاق ، وألا يسترذل المرء عليهم ، ويصخب بلا مدعاة كالكلب ينبح على كل مارّ .

(٣) ثم يوصى هنا بالبشر والطلاقة ، وحسن المخالقة لهم مع صفاء شرفك ومن هذا ما قاله الوراق:

أخو البشر محمود على كل حالة ... ولن يعدم البغضاء من كان عابسًا
ويسرع بخل المرء فى هتك عرضه ... ولم أر مثل الجود للعرض حارسًا

وما قاله الزين فى منظومته :

أولى بنى حواء ... بالمدح والثناء
من قوله معروف ... والألف المألوف
فطيب المعاملة ... وأحسن المجاملة
وأدرع المصافعة ... ليأمن المقاطعة

(٤) فى الأصل : بن .

(٥) وهنا يحث الشاعر المرء على الحفاظ على الأخلاق الجميلة الحميدة ، وجميل الأخلاق بيِّنٌ فينبغى التعلق به ، وقبيحها بيِّنٌ نتن الريح فينبغى التوقِّى عنها والترقِّى .

إِنْ ضَاقَ مَالُكَ عَنْ صَدِيقِكَ فَالْقَهُ ... بِالْبِــــشْرِ مِنْكَ إِذَا يَحِينُ لِقَاءُ (١)

أنبأنا الحسين بن إسحاق الأصبهانى (٢) ، حدثنا يحيى بن حكيم المُقَوِّمِىُّ ، حدثنا الخليل بن عبد العزيز ، قال : سمعت حماد بن سلمة يقول : الصومُ فى البستان من الثِّقَل (٣) .

قال أبو حاتم [رضى الله عنه] (٤) : حسن الخلق بَذْر اكتساب المحبة ، كما أن سوء الخلق بَذْر استجلاب البِغضة ، ومن حَسُنَ خُلقه صان عرضه ، ومن ساء خُلُقه هَتك عرضه ؛ لأن سوء الخلق يورث الضغائن (٥) ، والضغائن إذا تمكنت فى القلوب أورثت العداوة ، والعداوة إذا ظهرت من غير صاحب الدِّين ، أهوت صاحبها إلى النار ، إلا أن يتداركه المولى بفضل منه بعفو (٦) .

أنبأنا محمد بن المنذر ، حدثنا أبو حاتم الرازىُّ ، حدثنا أبو عمير النخاس ، حدثنا ضَمْرة ، عن رجاء بن أبى سَلَمَة ، عن الزُّهرىِّ ، قال : وهل يُنتفع من سَيِّئِ (٧) الخلق بشىء ؟

وأنشدنى عبد العزيز بن سليمان الأبرش : [مجزوء الكامل]

لِلْخَـــــــيْرِ أَهْلٌ لا تَزَا ... لُ وُجُوهُهُمْ تَدْعُو إِلَيْهِ (٨)

---

(١) ويذكر هنا أن البشاشة والطلاقة والترحاب تغنى عن بذل المال فمن لم يسطع أن يسع الناس بماله ، فليسعهم بأخلاقه ففى ذلك غناء وكفاية ومزيد فضل .

ومن هذا ما قاله أعرابى يمدح رجلاً بسَّامًا .

أخ لك ما تراه الدهــــر إلا ... على العِلات بسَّامًا جـــوادا

سألناه الجــــزيل فما تلكا ... وأعــــطى فوق منيتنا وزادا

وأحسن ثم أحسن ثم عدنا ... فأحســـن ثم عدت له فعادا

(٢) فى الأصل : الأصفهانى .

(٣) يريد أن من دخل البستان تطلعت نفسه إلى الأكل من ثمره الشهى ، لا ينبغى أن يعتذر عنه بالصوم ، وكان حريًا ألا يدخله وهو صائم .

(٤) سقط فى الأصل .

(٥) الضغائن : الأحقاد ، والمفرد : ضغينة . اللسان (٤/ ٢٥٩٢) .

(٦) فى ط : بتفضل منه وعفو .

(٧) فى ط : السىء .

(٨) هنا يمتدح الشاعر أهل الخير ، ويخصهم بالثناء والفضل ، ويذكر أن ميسمهم البِشر والطلاقة، فهم أهل الخير ، بهم عرف ، وبه عرفوا .

طُوبَى لِمَنْ جَرَتِ الأُمو ... رُ الصَّالِحَاتُ عَلَى يَدَيْه (١)

مَا لَمْ يَضِقْ خُلُقُ الفَتَى ... فَالأَرْضُ وَاسِعَةٌ عَلَيْه (٢)

أنبأنا أبو يَعلى ، حدثنا عبد الله بن محمد بن أسماء ، حدثنا مهديُّ بن ميمون ، عن موسى (٣) بن عُبيد ، عن ميمون بن مِهران ، قال : « التودُّد إلى الناس نصفُ العقل، وحسن المسألة نصفُ العلم ، واقتصادك فى معيشتك يُلْقِى عنك نصف المئونة ».

قال أبو حاتم [رضى الله عنه] (٤) : التحبُّب إلى الناس أسهل ما يكون وجهًا ، وأظهرَ [ما يكون] (٥) بِشرًا ، وأقصد (٦) ما يكون أمرًا ، وأرفقَ ما يكون نهيًا ، وأحسنَ ما يكون خُلُقًا ، وألينَ ما يكون كَنَفًا ، وأوسعَ ما يكون يدًا ، وأدفعَ ما يكون أذىً ، وأعظمَ ما يكون احتمالاً ؛ فإذا كان المرء بهذا النعت لا يحزَنُ من يُحبه ، ولا يَفرحُ من يحسُده ؛ لأن من جعل رضاه تبعًا لرضا الناس ، وعاشرهم من حيث هُمْ ، استحقَّ الكمال بالسؤدُد ، وأنشدنى على بن محمد البَسَّامى : [الوافر]

أُعَاشِرُ مَعْشَرِى فِى كُلِّ أَمْرٍ ... بِأَحْسَنِ مَا أُرِيتُ وَمَا رَأَيْتُ (٧) ، (٨)

وَأَجْتَنِبُ المَقَابِحَ حَيْثُ كَانَتْ ... وَأَتْرُكُ مَا هَوِيتُ وَمَا فَرَيْتُ (٩) ، (١٠) ، (١١)

قال أبو حاتم [رضى الله عنه] (١٢) : حاجة المرء إلى الناس مع محبتهم إياه ، خير

---

(١) ثم يدعو هنا عن بادر لصنيع الصالحات ، وأجراها على يديه ، وابتغاها لوجه ربه .

(٢) وهنا يشير إلى سعة أخلاق الفتى وأنها ترحب له كل ضيق وتكشف عنه كل حرج فهذا فى معنى ما قاله الشاعر :

لعمرك ما ضاقت بلاد بأهلها ... ولكن أخلاق الرجال تضيق

(٣) فى الأصل : يونس . (٤) سقط فى الأصل . (٥) سقط فى ط .

(٦) فى ط : وأخصر . (٧) فى الأصل : ما رأيت وما أريت .

(٨) هنا يمتدح الشاعر حسن عشرته ورفقته لمعشره فإنه يعطيهم البذل ، ويمطرهم الفضل ، ويجتنب العذل ، وكل هذا مطيعًا لهم فيما رأوا بأحسن ما يرى .

(٩) فى الأصل : فَوِيتُ

(١٠) فريت : اختلقت ، ويقال : فلان يفرى الفرى : إذا كان يأتى بالعجيب فى عمله ، يريد أن يعاشر الناس بمحاسن الأخلاق ، ويجنبهم مقابحها ، مثل الكذب ، أو الفخر بما أتى من عمل . اللسان (٣٤٠٨/٥) .

(١١) ويخبر أنه يجتنب كل قبيح مترفعًا عنه حيث كان من الأرض كذلك لا يتبع هواه ، ولا يأتى ما يعجب منه الناس ، ويدعو إلى استكاره بل هو هين لين سهل .

(١٢) سقط فى الأصل .

من غناه عنهم مع بغضهم إياه ، والسبب الداعي إلى ضدٍّ محبتهم له : هو التضايق فى الأخلاق ، وسوء الخلق ؛ لأن من ضاق خلقه ، سئمه أهله وجيرانه ، واستثقله إخوانه، فحينئذٍ تمنَّوا الخلاص منه ، ودعَوا بالهلاك عليه .

سمعت عُمر بن سعيد بن سِنان الطائيَّ يقول : سمعت أبا الحسن [1] الرُّهاويَّ يقول: سمعت يزيد بن هارون يقول : [الطويل]

فَقَدتُ ثِقَالَ النَّاسِ فِى كُلِّ بَلْدَةٍ [2]   فَـيَارَبِّ لا تَغْفِرْ لِكُلِّ ثَقِيلِ ! [3]

أنبأنا أحمد بن محمد بن الحسن البَلْخيُّ ، حدثنا محمد بن إدريس الحافظ ، حدثنا محمد بن عبيد الله بن إسماعيل ، قال : سمعت عمرو بن الحارث يقول : تسخِينُ العين[4] : النظر إلى من تكْره .

قال أبو حاتم - رضى الله عنه : الاستثقال من الناس يكون سببه شيئين :

أحدهما : مقارفة المرء ما نهَى الله عنه من المآثم ، لأن من تعدَّى حرمات الله أبغضه الله ، ومن أبغضه الله أبغضته الملائكة ، ثم يوضع له البُغْض فى الأرض ، فلا يكاد يراه أحد إلا استثقله وأبغضه .

والسبب الآخر : هو استعمال المرء من الخِصال ما يكره الناس منه ، فإذا كان كذلك استحق الاستثقالَ منهم . وأنشدنى الكُرِيْزىُّ : [الخفيف]

---

(١) فى الأصل : الحسين .

(٢) يدعو على الثقلاء من الناس ألا يبقى منهم أحد فى بلد .

(٣) هذا البيت فى ذم ودحر الثقال من الناس ، وهم ذوو الأخلاق الضيقة والعقول الصفقة ، أهل القحة والشره ، فهم ظلٌّ ثقيل خير حالهم الملالة والسآمة ، وحمتهم تعقب الندامة ، ولعل الشاعر تلظى منهم ، ثم ها هو ذا يدعو ألا يغفر لهم لنذالة ، وبلاء وعظيم سوء ما يصدر عنهم .. وقد حق له الدعاء : وأنا من المؤمِّنين ، فاللهم آمين ، وقد قيل فيهم .

وما الفـــيل تحمله ميتًا   بأثقل من بعض جلاسنا

وقال آخر

إذا جلس الثقيل إليك يومًا   أتتك عقوبة من كــل باب

فهل لك يا ثقيل إلى خصال   تنال ببعضهـــا كرم المآب

إلى مالى فتأخـــذه جميعًا   أحل لديك من ماء السحاب

وتنتف لحـــيتى وتدق أنفى   وما فى فىَّ من ضرْسٍ وناب

(٤) تسخين العين ، أى : تدمع حارة فى الحزن ، وقرة العين : أن تدمع دمعة باردة فى السرور . اللسان (٣/ ١٩٦٦) .

لَيْتَنِى كُنْتُ سَـــاعَةً مَلَكَ المَوْ ... تِ ، فَأُفْنِى الثِّقَالَ حَتَّى يَبِيدُوا

وَلَوْ أَنِّى وَأَنْتَ فِى جَنَّةِ الخُلْدِ ... لَقُـــلْتُ الخُرُوجَ مِنهَا أُرِيـــدُ

لَدُخُولُ الجَحِيمِ أَهْوَنُ مِنْ جَنَّةِ ... خُلْدٍ ، تَرَاكَ [1] فِيهَا تَرُودُ [2]

أنبأنا عمر بن حفص البزاز بجند يسابور ، حدثنا إسحاق بن الضيف ، حدثنا أبو مُسْهِر ، حدثنا هشام بن يحيى ، قال : كان نقش خاتم أبيك - يعنى أبا أبى مُسْهِر : أَبْرَمْتَ [3] فقم .

قال : وكان [4] إذا جلس إليه الرجل فتثاقل ؛ أخرج [5] خاتمه ، وقال : اقرأ نقش خاتمى ، فكان [6] إذا قرأ قام .

أنبأنا أحمد بن محمد بن الحسن ، حدثنا محمد بن إدريس ، حدثنا موسى بن إسماعيل ، حدثنا موسى بن رَباح ، قال : سمعت مَخْلَدًا أبا أبى عاصم يقول : إذا أبغضتُ الرجلَ أبغضتُ شِقِّى [7] الذى يَلِيه .

---

(١) فى ط : أراك .

(٢) هذه الأبيات فى نبذ الثقال ونفثه ما بالصدر منهم ، وقد أبدعت فيما صورت فيقول :

ليتنى وهل تنفع ليتُ بيدى الأمر أكون مكان ملك الموت ولو ساعة ، فأنزع أرواح الثقال من أبدانهم ، وأبيدهم جميعًا بلا بقية .

ولقد بلغت فى بغضهم الغاية ، وإنى لا أطيقهم ، ولو أنهم دخلوا معى جنة الخلد لطلبت الخروج فرارًا منهم فأشدد بثقلهم علىَّ وأقبح بصنيعهم إلىَّ . . .

ولو أنى خيرتُ قعدة مع ثقيل أو أن أرود الجحيم لطلبت دخول الجحيم عن الجنات لئلا أبصر ثقيلاً . . وسبحان الله على ما صور الشاعر ، لعله كان معذورًا ولا غَرْو . . فيما قال فما يعرف لهيب النار إلا من تحرق بها .

وفى هذا المعنى يقول الشعراء :

إن غـــابَ عنك ثقيل كل قبيله ... ممَّـــنْ يَشُوبُ حديثه بمـــراء

فهناك طاب لك الحديث وإنما ... طيب الحـــديث بخفة الجلساء

وقال آخر :

إنى أجـــالس معشرًا ... نَوْكَى أخفهـــم ثقيل

قـــــوم إذا جالستهم ... صَدِئت بقربهم العقول

لا يفقهـــون مقـــالتى ... ويدق عنهم ما أقـــول

(٣) أبرم فلان فلانًا : ضايقه وأضجره .

(٤) فى ط : فكان .   (٥) فى ط : حرك .   (٦) فى ط : وكان .

(٧) شِقِّىْ : جانبى . اللسان : (٤/ ٢٣٠٠) .

سمعت محمد بن السَّرِىِّ البغدادىَّ يقول : سمعت أبا بكر المَرْوَرُّوذى يقول : سألت أحمد بن حَنْبَل عن الثُّقَلاء ، فقال : سألت عنهم بشرًا الحافى (١) ، فقال : النظر إليهم سَخْنَة العين . فقلت (٢) لأحمد : مَنِ الثقلاء ؟ قال : أهل البِدَع .

قال أبو حاتم [رضى الله عنه] (٣) : هذا الذى قال أحمدُ بن حنبل - رحمة الله عليه- هو استثقال الخاصة (٤) : إذا عرفَ أحدهم من ببعض (٥) الناس ثَلْمًا فى السنة أبغضه علَى بدعته ، فأما العوام (٦) فلا يكادون يعادُون ويُوالُون إلا على المحبوب من الخصال ، والمكروه من الفعال ، ألا ترى [إلى] (٧) المقنَّع الكِندىَّ (٨) حيث يقول لبعض من صحبه : [الهزج]

أَلا يَا مـــرْكَبَ المَقْتِ الـ ... لَذِى أَرْسَى ، فَلا يَبْـــرَحْ
وَيَا مَـــــنْ سَكَرَاتُ المَوْ ... تِ مِنْ طَـــلْعَتِه أَرْوَحْ
لَقَـــدْ صُوِّرْتَ فِى فِكْرِى ... فَلا أَدْرِى لِمَا تَصْـــلُحْ ؟
فَلا تَصْـــلُحُ أَنْ تُهْجَى ... وَلا تَصلُحُ أَنْ تُمْــــدَحْ
بَلَى ، تَصْـــلُحُ أَنْ تُقْتَـ ... ـلَ أَوْ تُصْلَبَ أَوْ تُذْبَحْ (٩)

---

(١) بشر الحافى من متصوفة المسلمين ، وأحمد بن حنبل من كبار الزهاد والمحدثين ورجال الفقه ، وقد فسر الثقلاء من وجهة نظر رجال الشرع ، وهو تفسير مناسب ، ولكن الثقلاء ليسوا محصورين فى أهل البدع ، فهم فى كل طائفة ومجتمع ، تعرفهم بسيماهم وميولهم وتصرفهم فى كل شىء وقد تعرفهم فى لهجة الكلام وسخافة الزى ، ومخالفة جمهور الناس فيما تواضعوا عليه من عرف وعادة وخلق ، وقد عقب المؤلف بما يغنى عن إطالة القول فيهم .

(٢) في ط : قلت . (٣) سقط فى الأصل . (٤) فى ط : الخاص .

(٥) فى ط : من بعض . (٦) فى ط : العام . (٧) سقط فى الأصل .

(٨) المقنع الكندى : هو محمد بن عميرة بن أبى شمر بن فرعان .. شاعر من كندة ، وكان من أجمل الناس وجهًا ، وأمدهم قامة ، وكان إذا كشف عن وجهه أصيب بالعين ، فكان يتقنع دهره ، فسمى المقنع ، والقناع من سيما الرؤساء البيان والتبين : (٣/ ٥٣) ، والشعر والشعراء : (٢٨٤) ، الأعلام: (٦/ ٣٢٠) .

(٩) هذه الأبيات للمقنع الكندى يصور فيها غيظه وبغضه له ، وقد أبدع فى مبالغته وبلغ الغاية فيقول :

يا من ركبت كل مقت... لا بل أنت مركب كل مقت وبغض وقد حللت علىَّ ، فلا تبرح عنى بئس الإرساء أرسيت .

ويا من مذاقة سكرات الموت على هولها ، وجحيمها أروح وأخفُّ علىَّ من ظهوره وطلعته علىَّ . =

سمعت أحمد بن محمد البلخيَّ الذَّهَبيَّ يقول : قال محمدُ بن أبي الوَرْد ، قال يحيى ابن ماسَوَيْه : النظر إلى الثقيل حُمَّى تَعتَرِي بين الجِلْدَين .

سمعت [1] أحمد بن عمرو بن يزيد يقول : سمعت سَلَمة بن شبيب يقول : سمعت أبا أسامة يقول : ائتوني بمُستَملٍ خفيف على الفؤاد ، إيايَ والثقلاء ، إياى والثقلاء !

أنبأنا أحمد بن محمد بن الحسن ، حدثنا عباس بن أبي طالب ، حدثنا إبراهيم بن المنذر ، حدثنا حماد بن يزيد ، عن أيوب ، عن ابن سِيرين ، قال : سمعت رجلاً من أهل البادية يقول : نظرت إلى ثقيلٍ مرةً ، فغُشِي عليَّ .

وأنشدني المنتصر بن بلال : [الوافر]

وأَنْتَ عَلَى مَـــوَدَّتِنَا حَـــرِيصٌ ... وَلَكِنْ لا تَخِـفُّ عَلَى الفُـــؤَادِ
وأَثْقَلُ مِنْ رَحَى بَذْرٍ [2] عَلَيْنَا [3] ... كَـــأَنَّكَ مِنْ بَقَايَا قَوْمِ عَـادِ [4]

= لقد تدبرت حالك فما أدرى لما تصلح كأنى بك والعدم في كل نفع .

فمثلك لخسته ودنوه لا يصلح أن يهجى بل الهجاء فوقه ومثلك فى سذاجته وسفهه ، وعنه ليس أهلاً أن يمدح وحاشا المدح أن يدنس بمثلك .

وقد أستقر خاطرى على صلاحك ؛ لأن تضرب عنقك ، فتهلك أو تذبح شرَّ ذبحة كالبهم ، لا بل أرى أن تصلب فتتخطفك الطير أو تهوى بك الريح فى كل مهوى سحيق .

وفى مثل هذا قال حبيب بن أوس .

يا من تبرمــت الدنيا بطلـــعته ... كما تبرمت الأجفان بالسهـــد
يمشى على الأرض مختالاً فأحسبه ... لبغض طلعته يمشى على كبدى

وقال آخر :

لخرط قتاده ولحمــــل فيل ... ومـاء البحر يغرف فى زبيل
وفك الماضغين وقلع ضرس ... لأهــون من مجالسة الثقيل

(١) في ط : حدثنا .
(٢) فى ط : بزر

(٣) الرحى : التى تطحن البذر الطرى تكون أبطأ وأثقل من التى تطحن الحب اليابس .

(٤) هذان البيتان فى ذم الثقلاء كذلك ، وتنبيهم فيقول أنت وإن كنت تبغى لنا الخير ، وتحرص على معالقتنا ومودتنا ولكن لا تروق للقلب ولا تسيغك النفوس .

فأنت أثقل من طاحنة الحب علينا ، وكأنا بك منصب فوق رءوسنا كأنك بقية من قوم عادٍ لا يبرح، ولا يزول مع أنهم هلكوا .

ومما قيل فى هذا :

أنت يا هـــذا ثقيل ... وثقـــيل وثقـيل
أنت فى المنظر إنسا ... ن وفى الميزان فـيل

=

حدثنا إبراهيم بن مُضَر بن عَنبر ، حدثنا يوسف بن عيسى ، حدثنا وكيع ، حدثنا أبو سهل ، عن إبراهيم بن بُكَير ، قال : كان أبو هريرة إذا استثقل جليسًا له قال : «اللهم اغفر لنا وله ، وأرِحْنا منه فى عافية» .

قال أبو حاتم [رضى الله عنه] (١) : الواجب على العاقل مجانبةُ الخصال التى تورثه استثقال الناس إياه ، وملازمةُ الخصال التى تُؤدِيه إلى محبتُهم إياه .

ومن أعظم ما يُتوسل به إلى الناس ، ويُستَجلَب به مَحبتهم : البذْلُ لهم مما يملك المرءُ من حُطام هذه الدنيا ، واحتماله عنهم ما يكون منهم من الأذى ، فلو أن المرءَ صحبه طائفتان : إحداهما تحبه ، والأخرى تُبغِضه ، فأحسنَ إلى الذى (٢) تبغضه ، وأساء إلى التى تحبه ؛ ثم أصابته نكبة ، فاحتاج إليهما ؛ لكان أسرعهما إلى خِذلانه ، وأبعدهما عن نُصرته ، الطائفة التى كانت تحبه ، وأسرعهما إلى نصرته ، وأبعدهما عن خِذْلانه ، الطائفة التى كانت تُبْغِضه ، لأن الكلب إذا فى: أشبع (٣) قوى ، وإذا قوِى أمَّل ، وإذا أمَّلَ تبع المأمول ، وإذا جاع ضَعُف ، وإذا ضعُف أيِس ، وإذا أيِس ولَّى عن المتبوع .

فمن عُدِم المالَ فليبسُط وجهَه للناس (٤) ، فإن ذلك يقوم مقام بذل المعروف ، إذْ هو أحد طرفيه .

أنبأنا محمد بن المهاجر المعدَّل ، حدثنا هارون بن عبد الخالق المازنىُّ ، قال : سُئل ابن المبارك عن حسن الخلق ، فقال : هو بسط الوجه ، وبذل المعروف .

أنبأنا الحسن بن سفيان ، حدثنا أبو عمَّار [هو] (٥) الحسين بن حُرَيث ، حدثنا محمد بن القاسم الأسدى عن منحة بن عمرو ، قال : «خرج غلام لنا بقُمامة الدار ، أو بكُناسة الدار عُرْيان ، وسعيد بن جُبير على الباب ، فقال : يا خبيثُ ارفع إزارك» .

أنبأنا محمد بن إبراهيم البُدورىُّ بالبصرة ، حدثنا إبراهيم بن بشَّار الرمادى ، حدثنا

= وقال ابن أبى أمية :

شهـــدت الرقاشى فى مجلس ... وكـــان إليَّ بغيضـــا مقيتًا

قـــال : اقترح بعض ما تشتهى ... فقلت : اقترحت عليك السكوت

(١) سقط فى الأصل . (٢) فى ط : التى . (٣) فى ط : شبع .

(٤) بسط الوجه للناس : كناية عن البشر وحسن اللقاء . اللسان (١/ ٢٨٢) .

(٥) سقط فى ط .

سفيان بن عيينة ، عن ابن أبى نجيح ، عن مجاهد ، قال : إذا لقِى المسلم أخاه فصافحه وكَشَرَ (١) فى وجهه ، تحاتَّت ذنوبه كما تحات العُذُق (٢) من النَّخْلة . فقال رجل لمجاهد : يا أبا الحجاج ، إن هذا من العمل يسير . فقالَ مجاهد : ﴿ هو الذى [أيدك بنصره وبالمؤمنين] (٣) ، وألَّف بين قلوبهم لو أنفقت ما فى الأرض جميعًا ما ألفت بين قلوبهم﴾ [الأنفال : ٦٢ ، ٦٣] أفيسيرٌ هذا ؟

* * *

(١) كشر : تبسم ، وكشر عن أسنانه : يكشر كشرًا أبدى ، ويكون ذلك فى الضحك وغيره . اللسان (٥/ ٣٨٨١) .

(٢) الغذق : كباسة النخلة يكون فيها البلح . اللسان (٤/ ٢٨٦١) .

(٣) سقط فى الأصل .

ذِكْرُ اسْتِحْبَابِ(١) لُزُومِ الْمُدَارَاةِ، وَتَرْكِ الْمُدَاهَنَةِ مَعَ النَّاسِ

أنبأنا محمد بن الحسن بن قُتيبة اللخميُّ بعَسقلان (٢) وعُمر بن سعيد بن سِنانٍ الطائيُّ بمَنْبِجَ (٣) ، قالا : حدثنا ابن واضح ، حدثنا يوسف بن أسباط ، حدثنا سفيان ، عن محمد بن المنكدِر ، عن جابر ، قال : قال رسول الله ﷺ : « مُدَارَاةُ النَّاسِ صَدَقَةٌ»(٤) .

---

(١) فى ط : استعمال .

(٢) عسقلان : بلد من فلسطين قريبة من مصر ، دون غزة يقال لها : عروس الشام . مراصد الإطلاع: (٢/ ٩٤٠) .

(٣) منبج : بلد بينه وبين الفرات ثلاثة فراسخ ، وإلى حلب عشرة فراسخ . المرصد (٣/ ١٣١٦).

(٤) أخرجه المصنف فى « صحيحه » برقم (٤٧١) ، وهو فى « الموارد » برقم (٢٠٧٥) .

وأخرجه ابن السنِّى فى « عمل اليوم والليلة » برقم (٣٢٧) ، والقضاعى فى « مسند الشهاب » : (١/ ٨٩) برقم (٩٢) من طريق أبى عَرُوبة .

وأخرجه أبو نعيم فى « الحلية » : (٨/ ٢٤٦) من طريق أبى بكر بن أبى عاصم .

وأخرجه ابن عدى فى « الكامل » : (٧/ ٢٦١٤) من طريق الحسن بن سفيان ، والقاسم بن الليث، وميمون بن مسلمة ، وسعد بن محمد العكى ، ومحمد بن بشر القزاز ، والحسين بن محمد السكونى، ومحمد بن محمد بن سليمان الباغندي ، وإبراهيم بن يوسف الهسنجاني الرازى ، والفضل بن عبد الله بن مخلد .

وأخرجه القضاعى فى « مسند الشهاب » : (١/ ٨٨) برقم (٩١) ، من طريق أحمد بن أنس بن مالك الدمشقى .

وأخرجه السمعانى فى « أدب الإملاء والاستملاء » ص (١٤٥) ، وابن الجوزى فى « العلل المتناهية»: (٢/ ٧٢٩) ، برقم (١٢١٥) ، من طريق الفضل بن جعفر .

وأخرجه البيهقى فى « شعب الإيمان » : (٦/ ٣٤٣) برقم (٨٤٤٥) من طريق أبى أسامة الحلبى ، ومن طريق محمد بن على بن زيد جميعهم حدثنا المسيب بن واضح .

وقال ابن أبى حاتم فى « العلل » : (٢/ ٢٨٥) برقم (٢٣٥٩) : سألت أبى عن حديث رواه المسيب ابن واضح ، عن يوسف بن أسباط ، عن الثورى ، عن محمد بن المنكدر ، عن جابر ، عن النبى ﷺ ، قال : ... فذكره .

قال أبى : هذا حديث باطل لا أصل له ، ويوسف بن أسباط دفن كتبه .

وقال ابن عدىّ : وهذا يعرف بالمسيب بن واضح عن يوسف ، عن سفيان بهذا الإسناد ، وقد سرقه منه جماعة من الضعفاء رووه عن يوسف ، ولا يرويه غير يوسف عن الثورى . =

....

= وقال ابن الجوزى فى « العلل المتناهية » : (٢/ ٧٣٠) : هذا حديث لا يصح عن رسول الله ﷺ وإنما يعرف بالمسيب بن الواضح ، وهو فى مقام مجهول ، وقد رواه عن يوسف قال أبو حاتم الرازى : كان يوسف يغلط كثيراً المسيب بن واضح السلمى الحمصى .

قال الدارقطنى : ضعيفٌ « السنن » : (١/ ٧٥) ، (٨٠) ، (٤/ ٢٨٠) .

يوسف بن أسباط بن واصل الشيبانى الكوفى .

قال البخارى : قال صدقة : دفن يوسف كتبه ، فكان بعد يقلب عليه فلا يجىء به كما ينبغى . «التاريخ الكبير » : (٨/ ٣٤١٤) ، و« التاريخ الصغير » : (٢/ ٢٦٥) ، وزاد فيه يضطرب فى حديثه ، وقال العجلىُّ : كوفىٌّ ثقة ، صاحب سنَّة وخير ، دفن كتبه ، وقال : لا يصلح قلبى عليها ، «الثقات» : (١٦٤٩) .

وأخرجه ابن عدى فى الكامل : (٢/ ٧٤٦) ، والخطيب فى « التاريخ » : (٨/ ٥٨) ، وأبو نعيم فى«تاريخ أصبهان » (٩١٢) ، وابن الجوزى فى « العلل » (١٢١٥) ، من طريق الحسين بن عبد الرحمن ابن عباد الاحتياطى حدثنا يوسف بن أسباط به .

وقال ابن عدى عن الاحتياطى ، نسبه لى محمد بن العباس الدمشقى ، يسرق الحديث ، منكر عن الثقات، وقال : ولا يشبه حديثه حديث أهل الصدق .

وأخرجه الطبرانى فى « الأوسط » : (١/ ٢٨٦) برقم (٤٦٦) ، وابن عدي فى « الكامل » : (٧/ ٢٦١٣) من طريقين عن يوسف بن محمد بن المنكدر عن أبيه به .

وذكره الهيثمى فى « المجمع » : (٨/ ٢٠) ، وقال : رواه الطبرانى فى « الأوسط » ، وفيه يوسف ابن محمد بن المنكدر ، وهو متروك ، وقال ابن عدى : أرجو أنه لا بأس به .

قال النسائى : متروك الحديث ، شامى « الضعفاء والمتروكون » (٦٤٧) ، وقال أيضًا : ليس بشىء فى الحديث : « السنن الكبرى » (٣٣٧) ، وذكره الدارقطنى فى « الضعفاء والمتروكون » (٥٩٨) .

وقال الحافظ ابن حجر فى « الفتح » : (١٠/ ٥٤٥) ، تعليقًا على قول البخارى ، باب : المداراة مع الناس ، وأشار المصنف بالترجمة إلى ما ورد فيه على غير شرطه واقتصر على إيراد ما يؤدى معناه ، فمما ورد فيه صريحًا حديثٌ لجابر عن النبى ﷺ قال : « مداراة الناس صدقةٌ » ، أخرجه ابن عدى والطبرانى فى« الأوسط » ، وفى سنده يوسف بن محمد بن المنكدر ضعَّفوه ، وقال ابن عدى : «أرجو أنه لا بأس به » ، وأخرجه ابن أبى عاصم فى « آداب الحكماء » بسند أحسنَ منه . وحديث أبى هريرة: « رأس العقل بعد الإيمان بالله مداراة الناس » . أخرجه البزَّار بسندٍ ضعيف .

وأخرجه ابن عدى فى« الكامل » : (٣/ ٩٠٤) من طريق خالد بن عمرو الحمصى حدثنا سفيان بن عيينة عن محمد بن المنكدر به .

وخالد بن عمرو بن خالد قال فيه ابن عدى : روى أحاديث منكرة عن ثقات الناس ، وقال ابن الجوزي : قال جعفر الفريابى : كان خالد يكذب ، وقد روى عن مهدى بن جعفر ، عن ابن عيينة ، ومهدى يروى عن الثقات ما لا يتابعه عليه أحدٌ ، وقد روى من حديث المقدام بن معدى كرب ، عن أبيه ، قال : إبراهيم الحربى ، وهو حديث كذب . =

. . . .

= وأخرجه وكيع فى « أخبار القضاة » : (٣/٤٧) ، من طريق محمد بن عبد الواحد الأزدى قال : كتب إلى محمد بن عيسى النصيبى المعروف بالرازى حدثنا سهيل بن سفيان ، قال : حدثنا حماد بن الوليد عن ابن شبرمة ، عن ابن المنكدر به .

قلت : فيه حماد بن الوليد ، قال ابن عدى : (٢/٦٥٨) : وحماد له أحاديث غرائب ، وإفرادات عن الثقات ، وعامة ما يرويه لا يتابعونه عليه .

والحديث رَمَزَ له السيوطى فى « الجامع الصغير » بعلامة التصحيح .

ويشهد له حديث أبى هريرة أخرجه البزار (١٩٤٥ - كشف الأستار) ، عن عبيد الله بن عمرو ، والبيهقى فى « شعب الإيمان » (٨٤٤٦) ، عن حميد بن الربيع نا هُشَيْم ، كلاهما عن على بن زيد ، عن سعيد بن المسيَّب ، عن أبى هريرة رفعه « رأس العقل بعد الإيمان بالله التوددُ إلى الناس » ، ورواه أيضًا القضاعى فى « مسند الشهاب » (٢٠٠) ، وابن عدى : (٥/١٩٨٧) ، والطبرانى فى «الأوسط»، وقال البزار : رواه هشيم ، عن علي بن زيد ، عن سعيد مرسلاً ، وعبيد الله بن عمرو ليس بالحافظ لا سيما إذا خالف الثقات .

وقال البيهقى : وَصْلُهُ منكرٌ ، وإنما يروى منقطعًا ، وأورده مرسلاً عن سعيد (٨٤٤٧) من طريق عبد الله بن أحمد بن حنبل حدثنى أبى نا هشيم ، عن على بن زيد عنه .

وقال عبد الله : سمعت أبى يقول : لم يسمعه هشيم من على بن زيد . قال أحمد - رحمه الله : هذا الحديث يعرف بأشعث بن بزار ، عن على بن زيد عن ابن المسيب عن النبى ﷺ : « رأس العقل بعد الإيمان بالله التودد إلى الناس » ، فدلَّسه هشيم .

وذكره الهيثمي فى « المجمع » : (٨/ ٢٠) ، وقال : رواه البزار ، وفيه عبيد الله بن عمرو أو ابن عمر القيسى ، وهو ضعيف .

كما يشهد له حديث الحسين بن على بن أبي طالب رفعه : « رأس العقل بعد الإيمان بالله التودد إلى الناس » .

أخرجه أبو نعيم فى « الحلية » : (٣/٢٠٣) عن الحسن بن الحسين عن أبيه عن جعفر بن محمد عن أبيه عن على بن الحسين ، عن الحسين به .

وقال أبو نعيم : هذا حديث غريب من حديث جعفر لم نكتبه إلا من هذا الوجه .

وينظر « مجمع الزوائد » : (٨/ ٢٠) ، باب : مداراة الناس ، والبيهقى فى « الشعب » : (٦/٣٤٣ - ٣٤٤) ، و« المقاصد الحسنة » ص (٢٢٣ ، ٣٧٧) ، وكشف الخفاء : (٢/٢٠٠) ، و« فتح القدير»: (٤/٢-٤) .

وقال الحافظ فى « الفتح » : (١٠/٤٤٥) : قال ابن بطال :

المداراة من أخلاق المؤمنين ، وهى خفض الجناح للناس ولين الكلمة وترك الإغلاظ لهم فى القول وذلك من أقوى أسباب الألفة ، وظن بعضهم أن المداراة هى المداهنة فغلط ، لأن المداراة مندوب إليها=

قال أبو حاتم [رضى الله عنه] (١) : الواجب على العاقل أن يلزم المداراة مع من دُفع إليه فى العِشرة ، مِن غير مقارفة المُداهنة (٢) ؛ إذ المُداراة من المدارِى صدقة له ، والمُداهنة من المداهِن تكون خطيئةً عليه . والفصل بين المُداراة والمُداهنة : هو أن يجعل المرءُ وقته فى الرياضة لإِصلاح الوقت الذى هو به (٣) مقيم ، بلزوم المداراة ، من غير ثَلْم فى الدين من جهة من الجهات ، فمتى ما تخلَّق المرءُ بخلق شابهُ (٤) بعض ما كَرِه الله منه فى تخلقه، فهذا هو المداهنة [لا المداراة ، فالعاقل يجتنب المداهنة] (٥) ، لأن عاقبتها تَصير إلى قُلّ (٦) ويلزم (٧) المداراة ؛ لأنها تدعو إلى صلاح أحواله . ومن لم يُدار الناس ملُّوه، كما أنشدنى علىُّ بن محمد البسَّامىُّ : [السريع]

دَارِ مِنَ النّاسِ مَــلالاتِهِـمْ مَنْ لَمْ يُدَارِ النَّاسَ مَلُّوهُ (٨)
وَمُكْرِمُ النَّاسِ حَبِيبٌ لَهُمْ مَنْ أَكْرَمَ النَّاسَ أَحَبُّوهُ (٩)

= والمداهنة محرمة ، والفرق أن المداهنة من الدهان وهو الذى يظهر على الشيء ويستر باطنه ، وفسرها العلماء بأنها معاشرة الفاسق وإظهار الرضا بما هو فيه من غير إنكار عليه ، والمداراة هى الرفق بالجاهل فى التعليم وبالفاسق فى النهى عن فعله ، وترك الإغلاظ عليه حيث لا يظهر ما هو فيه ، والإنكار عليه بلطف القول والفعل ، ولا سيما إذا احتيج إلى تألفه ونحو ذلك .

(١) سقط فى الأصل .

(٢) المداهنة : النفاق والمَلَق مع سوء الطوية ، أما المداراة فهى التغافل عن هفوات الناس وصغائرهم اتقاءً لشرهم . اللسان (٢/١٤٤٧) ، (٢/١٣٤٧) .

(٣) فى ط : له . (٤) شابه : مازجه ، وخالطه فهو مشوب . اللسان (٤/ ٢٣٥٥) .

(٥) سقط فى ط . (٦) قل : أى صَغَار وذل . (٧) فى ط : ويلازم .

(٨) هنا يوصى الشاعر بالتلطف مع الناس ومُدَارَاتهم فمن لم يدارهم ، ويدفع بالمداراة ملالاتهم ملُّوه وسئموه .

(٩) ومن يكرم الناس ويتودد إليهم ، فإنه يقرع أبواب قلوبهم ويستعبدهم ويؤسر قلوبهم بحبه ، إذ من يكرم الناس يحبوه .

وقال غيره :

إن رمــــاك الدهر في معشرٍ قد أجمع الناس على بغضهم
فــدارهم ما دمت فى دارهم وأرضهم ما دمت فى أرضهم

وقال غيره :

إذا ما أخـــــى يومًا تولى بـــوده وأنكرت منه بعض ما كنتُ أعرف
عطــــفت عليه بالمـــــــودة إننى على مدبر الإخـــوان بالود أعطف
وإغضاؤك العينين عن عيب صاحـب لعمـــــرك أبقى للوداد وأشـــرف =

أنبأنا محمد بن أحمد بن أبى عون الرَّيانى ، حدثنا أحمد بن مَنيع ، حدثنا ابن المبارك، عن الحسن بن عمرو ، عن مُنْذر الثَّورىِّ ، عن ابن الحَنَفية ، قال : « ليس بحكيم من لم يعاشر بالمعروف مَنْ لا يجد من معاشرته بُدا ، حتى يأتيَه الله منه بالفَرَج و (١) المَخرج » .

قال أبو حاتم [رضى الله عنه] (٢) : الواجب على العاقل أن يُدارىَ الزمان (٣) مُداراةَ الرجل السابح فى الماء الجارى ، ومن ذهب إلى عِشْرة الناس من حيث هو ، كدَّر على نفسه عيشَه ، ولم يصف (٤) له مَودَّته ؛ لأن وداد الناس لا يستجلَب إلا بمساعدتهم على ما هُمْ عليه ، إلا أن يكون مأثمًا ، فإذا كانت حالة معصية فلا سمع ولا طاعة ، والبَشَرُ قد رُكِّب فيهم أهواء مختلفة ، وطبائع متباينة ، فكما يَشُق عليك ترك ما جُبِلت عليه ، فكذلك يَشُقُّ على غيرك مجانبة مثله ، فليس إلى صفو ودادهم سبيل ، إلا بمعاشرتهم من حيث هم ، والإغضاء عن مخالفتهم فى الأوقات (٥) ، أنشدنى الأبرش : [الطويل]

فَقَالَتْ (٦) ، وهَزَّتْ رأْسَهَا وتَضاحكَــــتْ   عَلَى الودِّ نُجْفَى (٧) ؟ أمْ عَلَى العَهْدِ نُوصَلُ (٨) ؟

فَقُلْـــتُ : فَلَمْ أفعَلْ ، فَقَالَتْ : تُرِيدُهُ   فَقُلْتُ : فَلَمْ أفعَلْ ، فَقَالَتْ : سَتَفْعَـلُ

أنبأنا ابن قَحْطبة ، حدثنا أحمد بن المِقدام ، حدثنا حَزْم ، قال : سمعت حبيب بن الشَّهيد يقول : سمعت الحسن يقول : يابنَ آدم ، اصحب الناس بأى خُلق شئت ، يَصحبوك عليه ، وأنشدنى الكُرَيْزِىُّ : [المتقارب]

تَجَـــنَّى عَلَىَّ بِمَا قَدْ جَنَى   ويُغْلِظُ فِى القَوْلِ ، إنْ لِنْتُ لَهْ

ويَسْـــبِقُ بِالعَــذْلِ لِى ظَالِمًا   كَأنَّ الصَّـــوَابَ لَهُ لاَلِيَهْ

= وقال آخر :

سأتـــرك ما بينى وبينك واقفًـــا   على حـــاله بين المودة والهجـــر

وأنتحـــل الصبـــر الجميل تجلدًا   وإن كنت محرومًا نصيبى من الأجر

وقال آخر :

وإنى على أشياء منـــك تريبنى   قدومًا لذو صفح على ذاك مجمل

إذا سؤتنى يومًا صفحت إلى غد   ليعقب يومًا منك آخـــر مقبل

(١) فى ط : أو . (٢) سقط فى الأصل . (٣) فى ط : الناس .
(٤) فى ط : تصف . (٥) أى فى بعض الأحيان ، وفيما لا إثم فيه ولا حرج .
(٦) فى ط : وقالت . (٧) فى الأصل : تجفى . (٨) فى الأصل : توصل .

كَمَــا قَالَ فِى مَثَــلٍ عَالِــمٌ خُذِ اللِّصَّ بِالذَّنْبِ لا تُغْفِلَهْ (١) ، (٢)

قال أبو حاتم [رضى الله عنه] (٣) : مَنْ التمس رضا جميع الناسِ ، التمسَ ما لا يُدْرَك ، ولكن يقصِد العاقل رِضا من لا يجد من معاشرته بُدا ، وإن دفعه الوقت إلى استحسان أشياء من العادات [مما] (٤) كان يستقبحها ، واستقباح أشياء كان يستحسنها ، ما لم يكن مأثَمًا ، فإن ذلك من المُداراة ، وما أكثر من دارَى فلم يَسْلَم ، فكيف تُوجد السلامة مَن لم (٥) يدارى ؟ أنشدنى محمد بن عبد الله [بن زَنْجى] البَغدادى : [السريع].

يَا ذَا الَّذِى أَصْبَــحَ لا وَالِدٌ لَهُ عَــلَى الأَرْضِ وَلا وَالِــدَهْ

قَــدْ مَاتَ مِنْ قَبْلِهِمَــا آدَمٌ فَأَىُّ نَفْسٍ بَعْدَهُ خَالِــدَهْ ؟

إِنْ جِئْــتَ أَرْضًا أَهْلُهَا كُلُّهُمْ عُورٌ ، فَغَمِّضْ عَيْنَكَ الوَاحِدَهْ (٦)

---

(١) المثل : « خذ اللص قبل يأخذك » ، وقد تصرف فيه الشاعر للضرورة ويأخذ منصوب عند الكوفيين بأن المحذوفة فى غير المواضع العشرة المعروفة فى النحو ، والبصريون يأبونه ويحملونه على الشذوذ وكذلك قوله : « لا تغفله » بالنصب شاذ .

(٢) هذه الأبيات تصور حال صاحب أو محبٍ مع صاحبه ، وما يلاقيه من الشقة والعناء يقول:

صاحبى هذا غريب الطور ، مفرط الجود ، إنه إن يكتسب مأثمة ورزية ، فإنه يرمينى بها وما جناه إلا هو فأنَّى له علىَّ أنْ يتجنى ؟!

كذلك إن تلطفت معه فى المقال يغلظ لى فى الحال .. وهو يسارع إلى هجرى وعذلى حتى كان الصواب الذى أنا ربيبه لخاصته هو لالى .

وحاله كما يقول الحكماء فى حكمهم وأمثالهم بادر اللص قبل أن يبادرك ولا تغفله .

(٣) سقط فى الأصل . (٤) سقط فى ط . (٥) فى ط : لمن لا .

(٦) هذه الأبيات وإن بدا ظاهرها أنها ليست من جنس الباب ، فإن السياق قد اقتضاها ؛

فإن المؤلف أراد أن يؤكد أن المداراة إنما هى خيرٌ ، ولكن صاحبها ومرتادها لا يسلم على الدوام ، ولكنه يبذل ما فى الوسع ، فهذه الأبيات تحض على ركوب الخير ، وعدم اشتراط السلامة والمنجاة بعقله ؛ إذ كل من عليها فان ، ويبقى وجه ربك ذو الجلال والإكرام . فيقول :

يا من عُمِّرَ له فى عمره ، وأدرك منه حظا ، وقد مات والداه سبب حياته ويبقى هو بعدهما .

قد مات قبل والديك أبوكَ آدم وهو أصل الخليقة ، فكيف البقاء للفرع وقد ذهب الأصل . . . ؟!!

فينبغى أن تشاكل الناس لتجانسهم ، وتتالفهم فهم بنو جلدتك فإن حللت بين معشر فاشرب شرابهم ، وتنفس الأشياء بأنوفهم حتى وإن كانوا على غير الجادة من الطريق ، فخض خوضهم وعبر =

أنبأنا أبو يَعْلَى ، حدثنا عبد الله بن محمد بن أسماء ، حدثنا مَهدى بن ميمون ، حدثنا مُعاذ بن سعد الأعور ، قال : كنتُ جالسًا عند عطاء بن أبى ربَاح ، فحدَّث رجل بحديث ، فتعرَّض (١) رجل من القوم في حديثه ، قال : فغضب ، وقال : ما هذه الطِّباع؛ إنى لأسمع الحديث من الرجل وأنا أعلم به ، فأُرِيه كأنى لا أُحسِن منه شيئًا .

أنبأنا محمد بن المُهاجر ، حدثنا أحمد بن محمد الصَّيداوِىُّ ، حدثنا حماد بن إسحاق، عن المدائنى ، قال : قال معاوية : لو أن بينى وبين الناس شَعرةً ما انقطعتْ ، قيل : وكيف ؟ قال : لأنهم إن مَدُّوها خَلَّيْتُها ، وإن خلَّوها مَدَدْتها .

قال أبو حاتم [رضى الله عنه] (٢) : من لم يعاشر الناس على لزوم الإغضاء عما يأتون من المكروه ، وترك التوقُّع لما يأتونَ من المحبوب ، كان إلى تكدير عيشه أقربَ منه إلى صفَائه ، وإلى أن يدفعه الوقت إلى العداوة والبغضاء ، أقربَ منه إلى أن ينال منهم المودات (٣) وتركَ الشَّحناء ، ولم يُدارِ صديق السَّوء ، كما يدارى صديق الصِّدق ، لم يكن (٤) بحازم . ولقد أحسن الذى يقول : [الطويل]

تَجنَّبْ صَدِيقَ السَّوْءِ وَاصْرِمْ حِبَالَهُ ... فَإِنْ (٥) لَمْ تَجِدْ عَنْهُ مَحِيصًا فَدَارِهِ
وَأَحْبِبْ حَبِيبَ الصِّدْقِ ، وَاحْذَرْ مِرَاءَهُ ... تَنَلْ مِنْهُ صَفْوَ الوُدِّ مَا لَمْ تُمَارِهِ (٦)

= عن ذلك بعور العين إذ إنه البصير ذو العينين ، وهم ذوو حولٍ فلمشاكلتهم وتجالسهم لا عليه أن يغمض عينًا ، وليعدو ذا عين واحدة مثلهم . . ومن ذلك ما قاله أبو العلاء المعرى .

ولما رأيت الجهـل فى الناس ... تجاهلت حتى قيل إنى جاهل

وقال آخر :

وعـوراء جاءت من أخٍ فنبذتها ... ورائى وعندى لو أشاء نكـير
صبرت لها والصبر منى سجية ... وإنى على ما نابنى لصبـــور
وما أنا ممن يقسم الهم أمـــره ... ويسأل من يلقاه كيف يسيـــر
ولكـــننى كالدهر أشفى وأشتفى ... وأقضـــى ولا يقضى على أمير

وقال آخر :

لقد أسمع القول الذى كاد كلما ... تذكـــــر نيه النفس قلبى يصدع
فأبدى - لمن أبداه - منى بشاشة ... كأنى مسرور بما منه أسمـــــع
وما ذاك من عجب به غـير أننى ... ارى أن ترك الشر للشـــر أقطع

(١) فى ط : فَعَرَّض . (٢) سقط في الأصل . (٣) فى ط : الوداد .
(٤) فى ط : فليس . (٥) فى ط : وإن .
(٦) هذان البيتان فى الدعوة إلى المداراة كذلك فيقول :
ينبغى على العَاقِلِ أن يتجنب معالقة صديق السُّوء ، فإن اضطر ولم يجد عنه محيصًا ، فينبغى أن يداريه . =

أنبأنا الحسن بن سفيان ، حدثنا إبراهيم بن الحَوْرَانىّ ، حدثنا أبو مُسْهِر ؛ حدثنا سهل ابن هاشم ، عن إبراهيم بن أدهم ، قال : قال أبو الدَّرْداء لأم الدَّرداء : إذا غضِبتُ فرضِّينى ، وإذا غضبتِ رَضَّيتك ، فمتى ما [1] لم نكن هكذا فما أسرع ما نفترق.

قال أبو حاتم [رضى الله عنه] [2] : العاقل إذا دفعه الوقت إلى صحبة من لا يثق بصداقته ، أو صداقة من يثق بأخُوَّته ؛ فرأى من أحدهما زَلَّةً ، فَرَفَضه لزلَّته ، بقى وحيدًا ؛ لا يجد مَنْ يعاشر ، فريدًا لا يجد من يخادن ، بل يُغضِى عن [3] الأخ الصادق زَلاته ، ولا يناقش الصديق السيِّئ على عَثَراته ، لأن المناقشة يلزمه [4] فى تصحيح أصل الوداد ، أكثر مما يلزمه فى فروعه [5] .

ومن أنواع المُداراة : ما حدثنى [به] [6] الحسن بن سفيان ، حدثنا عبد الله بن أحمد ابن شَبُّويه ، حدثنا الحسن بن واقع ، حدثنا ضَمْرة ، عن ابن شَوْذَب ، قال :

كان [7] لرجل جارية ، فوطئها سرا ، فقال لأهله : إن مَرْيَم [عليها السلام] [8] كانت تغتسل فى هذه الليلة . فاغتسلوا ، فاغتسل هو ، واغتسل أهله . قال ابن شَوْذَب : وكانت مريمُ تغتسل فى كل ليلة .

وأنشدنى منصور بن محمد الكُرَيزىُّ : [الطويل]

أُغَمِّضُ عَيْنِى عَنْ صَـديقِى تَعَامِيًا[9] ... كَأَنِّى [10] بِمَا يَأْتِى مِنَ القُبحِ جَاهِـلُ
وَمَا بِىَ جَهْـــلٌ غَيْرَ أَنَّ خَـلِيقَتِى ... تُطِيقُ احتِمَالَ الْكُرْهِ فِيمَا أُحَـاوِلُ[11]
مَـتَى مَا يَرِبْنِى [12] مَفْصِلٌ فَقَطَعْتُهُ ... بَقِيتُ وَمَالِى فِى نُهُوضِى[13] مَفَاصِلُ

= وكما يقول أبو الطيب :

ومن نكد الدنيا على المرء ... عــدوا له ما من صداقته بدُّ

ثم كن مع صديقك الصفو ذى المودة حميمًا وَمِقًا مع حذرٍ منه أن تماريه أو تجادله ، فإنَّ الجدالَ منقصة مَصْدَعَة ومَفْصَمة .

(١) فى ط : فإذا . (٢) سقط فى الأصل . (٣) فى ط : على .
(٤) فى ط : تلزمه . (٥) فى ط : فرعه . (٦) سقط فى ط .
(٧) فى ط : كانت . (٨) سقط فى ط . (٩) فى ط : كأننى .
(١٠) فى ط : لديه . (١١) فى الأصل : أحامل .
(١٢) فى الأصل :جفانى . (١٣) فى الأصل : النهوض .

وَلَكِـــنْ أُدَارِيهِ ، فَإِنْ صَحَّ سَرَّنِى (١) فَإِنْ هُوَ أَعْيَا كَانَ فِيهِ تَحَامُلُ (٢) ، (٣)

أنبأنا محمد بن أبى على ، الخلادىُّ ، حدثنا محمد بن الحسن الذُّهْلىُّ ، عن أبى السائب ، قال : قال على : لا تعامل (٤) بالخديعة ، فإنها خلُقُ اللئام ، وامحَض أخاك النصيحة ، حسنة كانت أم قبيحة ، وساعدْه على كل حال ، وزُلْ معه حيثُ زال » (٥) .

* * *

(١) فى ط : وإن صح شدنى . (٢) فى الأصل : التعامل.

(٣) هذه الأبيات ترسم منهاجًا فى مدارات الأصدقاء فيقول : أنا أتغاضى عن ذلات صديقى حتى كأنى جاهلٌ بما أتى وما هو إلا محالة منى وإغماض عن بصيرة .

وما هذا منى بالغفالة ، وإنما هو الحلم إذْ خليقتى ، وسجيتى تطيق هذا الاحتمال أن أحملها على هذا. . .

وإن كان دأبى قطعُ العلاقة بيننا لكلّ طارقة ، ولأول بارقة فإنّى عديم الصديق لا نهوض لى بأمرٍ ، إذِ المشَاكِلُ طارقة لا تنفكّ عن الغشيان لى ، وقد شبه ذلك بالمفاصل لأهميتها وجلالتها واعتماد المرء عليها فى قيامه وقُعُدَته فكذا الصّديق ، وقد شبه قطع العلاقة بقطع المفاصل ، فحبذا التشبيه .

ثم ترفع الشاعر أن يكون هذا من دابه وشِنْشِنته ، ولكنه يدارى صديقه ويغضى عن زَلاته فانتفع كذلك أن يقوى وُدُّنا ويرسخ فيشدُّ هذا من أزرى وعزمى . . .

ولنختم هذه الأبواب بروائع فى ذلك :

قال الشاعر :

وهجــــــر عدو كاشحٍ قد سمعته فكنتُ كمن أغضى بعينٍ على قذى
تصـــافحت عنه واغتفرت مكـانه فلم يعتلق بالجســـم من قِبَلَه أذى

وقال حاتم الطائى :

ومـامن شيمتى شتمُ ابن عمى وما أنا مخــلف من يرتجينى
وكـــلمة حاسد من غير جرم سمعتُ فقلت أمرى فانفذينى
غـيبتُ بها كأن قيلت لغيرى ولم يعــــرق مخافتها جبينى

وقال آخر :

لن يدرك المجد أقوام وإن كرموا حتى يذلوا . وإن عزوا . لأقوام
ويشتموا فترى الألوان مســفرة لا صفح ذل ولكن صفح أحلام

من باب لباب الآداب ص ٣٢٣ ، ٣٢٤

(٤) فى الأصل : تعمل .

(٥) أى كن معه حيث كان ، يريد لا تخالفه ، فإن المخالفة تؤدى إلى القطيعة ، إلا إذا خالفت معصية .

ذِكْرُ اسْتِحْبَابِ إِفْشَاءِ السَّلَامِ ، وَإِظْهَارِ الْبِشْرِ وَالتَّبَسُّمِ

أنبأنا أحمد (١) بن صالح الطَّبَرىُّ ، حدثنا الفضل بن سهل الأعرج ، حدثنا محمد ابن جعفر المدائنىُّ ، حدثنا وَرْقَاء ، عن الأعمش ، عن زيد بن وهب ، عن ابن مسعود، قال : قال رسول ﷺ : « إِنَّ السَّلَامَ اسْمٌ مِنْ أَسْمَاءِ الله ، وَضَعَهُ [الله] (٢) فِى الأَرْضِ ، فَأَفْشُوهُ بَيْنَكُمْ ، فَإِنَّ الرَّجُلَ الْمُسْلِمَ إِذَا مَرَّ بِالْقَوْمِ فَسَلَّمَ عَلَيْهِمْ ، فَرَدُّوا عَلَيْهِ ، كَانَ لَهُ عَلَيْهِمْ فَضْلُ دَرَجَةٍ ، بِتَذْكِيرِهِ إِيَّاهُم السَّلَامَ (٣) ، فَإِنْ لَمْ يَرُدُّوا عَلَيْهِ رَدَّ عَلَيْهِ مَنْ هُوَ خَيْرٌ مِنْهُمْ وَأَطْيَبُ» (٤) ، (٥) .

---

(١) فى الأصل : محمد (٢) سقط فى ط . (٣) فى ط : بتذكيرهم إياهم بالسلام

(٤) يريد : ردت عليه الملائكة ، وسيأتى فى كلام المؤلف .

(٥) أخرجه الطبرانى فى « الكبير » : (١٠/ ٢٢٤) برقم (١٠٣٩٢) ، عن عبدان بن أحمد ، والبزار (١٩٩٩ - كشف الأستار) ، عن الفضل بن سهل به .

وأخرجه البيهقى فى « الشعب » (٨٧٨٠) ، عن يحيى بن نصر بن حاجب ، قال : نا ورقاء به.

وأخرجه البزار (١٩٩٩) ، والبيهقى فى « الشعب » (٨٧٨٢) ، عن عبد الرحمن بن شريك ، عن أبيه عن الأعمش به .

وأخرجه الطبرانى (١٠٣٩١) ، والبيهقى(٨٧٨٣) ، عن أيوب بن جابر ، عن الأعمش به .

وأخرجه البيهقى فى الشعب (٨٧٧٩) من طريق يعلى بن عبيد عن الأعمش به موقوفًا على ابن مسعود . وقال : هكذا جاء موقوفًا ، وقد روى مرفوعًا من وجه ضعيف ، وقال البزار : رواه غير واحد موقوفًا ، وأسند ورقاء وشريك وأيوب بن جابر .

وقال المنذرى فى « الترغيب » : (٣/ ٤١٦) عقب هذا الحديث : رواه البزار والطبرانى ، وأحد إسنادي البزار جيد قوى .

وقال الهيثمى فى « المجمع » : (٨/ ٣٢) : رواه البزار بإسنادين ، والطبرانى بأسانيد ، وأحدهما رجاله رجال الصحيح عند البزار والطبرانى .

وأخرجه أبو الشيخ فى « طبقات المحدثين بأصبهان » : (٢/ ٢٩٣) ، عن عبد الله بن عمر قال : ثنا يحيى بن سعيد ، عن الأعمش به ، بلفظ : « السلام اسم من أسماء الله فأفشوا السلام بينكم » .

ويشهد له حديث أنس رواه البخارى فى « الأدب المفرد » (٩٩٨) ، عن شهاب ، قال : حدثنا حماد بن سلمة ، عن حميد ، عن أنس رفعه : « إن السلام اسم من أسماء الله تعالى وضعه الله فى الأرض فأفشوا السلام بينكم » .

وهذا إسناد صحيح رجاله كلهم ثقات ، رجال الشيخ سوى حماد بن سلمة فهو من رجال مسلم وحده .

=

قال أبو حاتم [رضى الله عنه] : الواجب على العاقل أن يلزم إفشاء السَّلام ، على العامِّ (١) ؛ لأن من سَلَم على عشرة ، كان له عِتق رقبة ، والسلام مما يَذْهَبُ إفشاؤه بالمُكْتَنِّ (٢) من الشَّحْناء (٣) ، وما فى الخَلَد (٤) من البغضاء ، ويقطع الهِجران ، ويصافِى الإخوان .

والبادئ بالسلام بين حُسنيين (٥) إحداهما : تفضيل الله جَلَّ وَعَلا (٦) إيَّاه على المسلَّم عليه بفضل درجة ؛ لتذكيره إياهم بالسلام (٧) ، وبين رد الملائكة عليه عند غَفْلتهم عن الردِّ .

ولقد حدثنا عمرو بن محمد الأنصاريُّ ، حدثنا الغلابيُّ ، حدثنا شعيب بن واقد ، حدثنا جرير ، قال : قال زُبَيْد اليامىُّ (٨) : إن أجود الناس من أعطى ما (٩) لا يريد

= كما يشهد له حديث أبى هريرة ، رواه عبد الرزاق : (١١/ ١٣١) برقم (٣٠١١٧) ، وعنه العقيلى فى الضعفاء : (١/ ١٤١) ، والبيهقى فى « الشعب » : (٨٧٨٤ - ٨٧٨٥) عن بشر بن رافع ، عن يحيى بن أبى كثير ، عن أبى سلمة ، عنه رفعه بمثل حديث أنس .

وقال العقيلى : حدثنا عبد الله بن أحمد . قال : سألت أبي عن بشر بن رافع فقال : هو النجرانى، ليس بشىء ، ضعيف الحديث ، حدث عنه عبد الرزاق ، وصفوان بن عيسى ، ثم قال العقيلى بعد أن ساق له ثلاثة أحاديث ، السابق منها : وكلها لا يتابع عليها بشر بن رافع إلا من هو قريب منه فى الضعف .

وقال البيهقى : ليس بالقوى .

وقال الهيثمى فى « المجمع » : (٨/ ٣٢) : رواه الطبرانى فى الأوسط ، وفيه بشر بن رافع ، وهو ضعيف .

قلت : أخرجه الطبرانى فى « الصغير » : (١/ ٧٥) ، ومن طريقه الخطيب فى « التاريخ » : (١/ ٣٩٦) عن أحمد بن محمد بن أيوب الأنصارى البغدادى حدثنا محمد بن يحيى الأنيس أبو عبد الله ، حدثنا عصمة بن محمد الأنصارى عن يحيى بن سعيد الأنصارى عن سعيد بن المسيب عن أبى هريرة رفعه : « إن السلام اسم من أسماء الله تعالى وضعه فى الأرض تحية لأهل ديننا ، وأمانًا لأهل ذمتنا » .

قال الطبرانى : لم يروه عن يحيى بن سعيد إلا عصمة بن محمد ، تفرد به ، محمد بن يحيى الأنيس من ولد عبد الله بن أنيس الأنصارى .

وقال الهيثمى : (٨/ ٣٢) : رواه الطبرانى فى « الصغير » : وفيه عصمة بن محمد الأنصارى ، وهو متروك .

(١) فى الأصل : للعالم . (٢) فى الأصل : بالمكمن .

(٣) أى المضمر فى النفس من الأحقاد والعداوات .

(٤) الخَلَد ، بفتح أوله وثانيه : القلب والبال والنفس وجمعه أخلاد يقال وقع ذلك فى خلدى أى فى روعى وقلبى . اللسان (٢/ ١٢٢٦) .

(٥) فى ط : حسنتين . (٦) فى ط : عز وجل . (٧) فى الأصل : بتذكره إياه بالسلام.

(٨) فى الأصل : الأيامى . (٩) فى ط : مالاً .

جزاءَه ، وإن أحسنَ الناس عفواً من عفا بعد قدرة ، وإن أوصل [١] الناس من وصل من قَطَعه ، وإن أبخل الناس من بَخِل بالسلام .

أخبرنا أبو خليفة ، حدثنا محمد بن كثير ، أنبأنا سفيان ، عن أبي إسحاق ، عن صِلَة بن زُفَر العَبْسيّ ، قال : حدثنا عمار بن ياسر ، قال : « ثلاثٌ من جَمعهنَّ جمع الإيمان : الإنفاقُ من [٢] الإقتار ، والإنصافُ من النَّفْسِ [٣] ، وبَذْلُ السلام [للعالَم][٤] » .

قال أبو حاتم - رضي الله عنه - : الواجب على المسلم إذا لقي أخاه المسلم أن يسلم عليه متبسِّمًا إليه ، فإنَّ من فعل ذلك تحاتَّ عنهما خطاياهما ، كما يَتَحاتُّ [٥] ، [٦] وَرَقُ الشجر في الشتاء إذا يَبِس ، وقد استحق [٧] المحبة [من الناس] [٨] من أعطاهم بِشْرَ وجهه [٩] .

ولقد حدثني [١٠] محمد بن المهاجر المعدَّل ، حدثنا إبراهيم بن عبد السلام العنبريُّ ، حدثنا إبراهيم بن سعيد الجوهريُّ ، حدثنا إسماعيل بن حماد ، عن سعيد [١١] بن الخمس ، قال : قيل له : ما أبشَّك ؟ قال : إنه يَقُومّ عليَّ بِرُخْصٍ [١٢] ، وأنشدني الأبرش : [الطويل]

أَخُو الْبِشْرِ مَحْبُوبٌ عَلَى حُسْنِ بِشْرِهِ ... وَلَنْ يَعْدَمَ الْبَغْضَاءَ مَنْ كَانَ عَابِسَا
وَيُسْرِعُ بُخْلُ الْمَرْءِ فِي هَتْكِ عِرْضِهِ ... وَلَمْ أَرَ مِثْلَ الْجُودِ لِلْمَرْءِ حَارِسَا [١٣]

---

(١) في ط : أفضل . (٢) في ط : مع .
(٣) في ط : نفسك . (٤) سقط في الأصل .
(٥) تحات ورق الشجر : تساقط بعضه في إثر بعض ، لجفوفه ويبسه . اللسان (٢/ ٧٦٧) .
(٦) في ط : تحات . (٧) في الأصل : مستحقًا . (٨) سقط في ط .
(٩) في الأصل : وجههم . (١٠) في ط : أخبرني . (١١) في الأصل : سعير .
(١٢) في ط : برخيص .
(١٣) في هذين البيتين يشيد الشاعرُ بالسَّمْحِ البشوش اللين البشوش ، ويذمُّ العابس والبخيلَ . . فيقول :

ومن كان ذا بشرٍ وطلاقة ، فإنه محبوب لذلك قريب من القلوب ، أما من كان عابسًا مكفهر الوَجْه مقطبه ، فهذا حليفُ البغضاء قرين الازدراء ، ليته كان جميلاً ، ليرى الوجود جميلاً . . . ؟!

ومن كان ذا بخلٍ ، فإنه يسعى لاستجلاب ذمِّ النَّاسِ له ، ومن تبعه الناس بذم فلا سلم عرضه ولا وفر ، كذلك من كان سَخيا جوادًا ، فإنَّهُ يُلْجِمُ الأفواه عنه وتلهج الألسن بالثَّناءِ عليه ، وفي ذلك حراسة وحفظ له .

قال أبو حاتم : البشاشة إدام العلماء ، وسَجِيَّة الحكماء ، لأن البشر يُطْفِئ نار المعاندة، ويَحْرِق هَيَجان المباغضة ، وفيه تحصينٌ من الباغى ، ومَنْجاة من الساعى ، ومن بَشَّ للناس وجْهًا ، لم يكن عندهم بدون الباذل لهم ما يملك .

أخبرنا محمد بن سعيد القزاز ، حدثنا إبراهيم بن محمد العبادىُّ ، حدثنا سُوَيد ، عن علىِّ بن مُسْهر ، عن هشام بن عُروة ، عن أبيه قال : « أُخْبِرْت أنه مكتوب فى الحِكمة : يا بُنَىَّ ، لِيكُنْ وجهُك بَسْطًا ، ولْتكُنْ كلمتُك طَيِّبةً ، تكُنْ أحبَّ إلى الناس من أن تعطيهم العَطاء » .

وأنشدنى الخَلادىُّ ، أنشدنا أحمد بن بكر بن خالد اليزيدىُّ ، لسعيد بن عُبيد الطائىِّ: [الخفيف]

الْقَ بَالْبِشْــرِ مَنْ لَقِيتَ مِنَ النَّا ... سِ جَمِيعًا ، وَلاقِهِـمْ بِالطَّلاقَةْ

تَجْنِ مِنْهُمْ جَنَى ثِمَارٍ ، تَجِدْهُ (١) ... طَـيِّبًا طَعْمُهُ لَذِيذَ الْمَذَاقَـهْ (٢)

أخبرنا محمد بن صالح الطَّبَرِىُّ ، حدثنا محمد بن حميد ، حدثنا حكَّام بن مسلم(٣)، عن سعيد بن عبد الرحمن الزُّبَيدىِّ ، قال : يُعجبنى من القُرَّاء (٤) كلُّ سَهْلٍ طَلْق مِضْحاك . فأما من تلقاه ببشرٍ ، ويلقاك بعبُوس ، يَمُنُّ عليك بعمله ، فلا أكثر الله فى القُراء ضربَ هذا ! (٥) .

قال أبو حاتم [رضى الله عنه]:(٦) لا يجب على العاقل إذا رُزِق السلوك فى ميدان طاعة من الطاعات ، إذا رأى من قَصَّر فى سلوك قَصْده ، أن يُعبِّس عليه بعمله

---

(١) فى ط : فخذها .

(٢) فى هذين البيتين يشيد الشاعرُ بالسَّمح البشوش اللين البشوش ، ويذم العابس والبخيلَ . . فيقول :

ومن كان ذا بشرٍ وطلاقة ، فإنه محبوب لذلك قريب من القلوب ، أما من كان عابسًا مكفهر الوَجْه مقطبه ، فهذا حليفُ البغضاء قرين الازْدِرَاء ، ليته كان جميلاً ، ليرى الوجود جميلاً . . . !

(٣) فى الأصل : سالم .

(٤) يريد بالقراء هنا : العباد الزهاد فى الدنيا .

(٥) يقول : إنه لا يعجبه المتزمتون من العباد والزهاد ، لأنه يؤثر أن يكون الإنسان سهلاً طلق الوجه ، وإن كان من أزهد الناس وأتقاهم لله .

(٦) سقط فى الأصل .

ووجهه[1]، بل يُظهرُ البِشْر والبشاشة له ، فلعله فى سابق علم الله أن يرجع إلى صحة الأوبة إلى قصده ، عما يجب عليه من الحمد [لله] [2] والشكر له ، على ما وفقه لخدمته ، وحرَمَ غيرَه مثله .

أخبرنا محمد بن أبي عليّ الخَلادىُّ ، أخبرنى محمد بن موسى السَّمَرِى ؛ أن حماد ابن إسحاق أنشدهم : [الطويل]

فَتًى مِثْـلُ صَفْوِ المَاءِ ، أمَّا لِقَاؤُهُ ... فَبِشْرٌ ، وأمَّا وَعْــدُهُ فَجَمِيلُ
يَسُرُّكَ مُفْتَرٌ [3] ، ويُشْرِقُ وَجْهُهُ ... إذَا اعْتَلَّ مَذْمُومُ الفِعَالِ بَخِيــلُ
عَيِى عَنِ الفَحْشَاءِ ، أمَّا لِسَانُهُ ... فَعَفٌ ، وأمَّا طَرْفُهُ فَكَلِيلُ [4]

وأنشدنى منصور بن محمد [5] الكُرَيْزِىُّ : [البسيط]

لَنْ تَسْتَتِمَّ جَــمِيلاً أَنْتَ فَاعِلُهُ ... إلا وأَنْتَ طَلِيقُ الوَجْــهِ بُهْلُولُ
مَا أَوْسَطَ الخَيْرَ فَابْسُطْ رَاحَتَيْكَ بِهِ ... وكُــنْ كَأَنَّكَ دُونَ الشَّرِّ مَغْلُولُ [6]

---

(١) فى ط : وجهه .   (٢) سقط فى ط .

(٣) المفتر : الباسم ، يقول : إن جئته فى حاجة سرك منه ابتسامة وطلاقة وجهه ، ولا يلقاك كما يلقاك ذميم الفعل البخيل عابسًا مقطبًا .

(٤) هذه الأبيات الثلاثة فى امتداح الفتى اليَسر حسن الأخلاقِ الباسم الثغر العفيف النَّفْسِ ، وهى أبيات غاية في اللَّطَافَة والجمال ، قد بلغ بها صاحبها قمة البلاغة ومن تذوقها عرف مكانتها . . فيقول: إنه صاحب صفوٍ من كُلّ كدرة كأنَّهُ الماء في صفائه ، بَسَّامٌ عند اللقاء وفاءٌ لكل عِدَةٍ لا يخيس الوعد ولا ينكثه .

وإن تعبس النَّاس واكفهروا وبخلوا وتنمروا ، فهو مفترٌ عن ثغره مشرق وجهه طَلْقُ المحيًا ، كأنَّهُ السَّعادة ترفل فى أذيالها .

وهو مع كل ذَلِكَ جَامِعٌ المعىٌّ فى منطقه فإنْ عيى أناس عن الخير فهو عيى عن الفَحْشَاء ، وإن كلَّ النَّاس عن الخير فهو كليل عن السوءات وإن بَرَزَت ألسن النَّاس تَفْتِكُ بالأعراض والغيبات ، فإنَّهُ عفُّ اللِّسَانِ مصون المنطق .

(٥) فى الأصل : محمد بن منصور .

(٦) هذان البيتان في الحض على الاستبشار والطلاقة والتوسط فى الأمور : فيقول :

إن كنت فاعلاً للجميل ، ومن أربابه فأتمم جميلك ببشرك وطلاقتك حتى يتم لك الجميل على خير حال ، وما البشرُ ، والطَّلاقَةُ عليك بالمحال .

أنبأنا محمد بن المهاجر المعدَّل ، حدثنا الدارِمىُّ ؛ حدثنا موسى بن إسماعيل ، حدثنا أبو عَوانة ، عن إسماعيل بن سالم ، عن حبيب بن أبى ثابت ، قال : مِنْ حُسْن خُلق الرجل ، أن يحدِّث صاحبَه وهو يتبسم [وبالله التوفيق] (١) .

* * *

= والزم فى الأُمورِ الوسط والقصد إذِ القصدُ والتَّوفيق مقترنان ، فإن لزمت القصد ، فإنَّكَ فِى حلبة الخير ؛ لأنه وسطٌ ، واحذر المغَالاة والمَجافاة وَغُلَّ نفسك عن ذلك ، فإنَّهَا مسارحٌ للشَّر والضَّرِّ .

وفى ذلك يقول الشاعر :

خير الأمور إذَا حَقَّقْتَ أوسطها ... ما بالتَّفــرط والتفريط مدخــر

خير الأمور إذَا حَقَّقْتَ أوسطها

وهو من نور قوله ﷺ : « خير الأمور أوسطها » .

(١) سقط فى ط .

ذِكْرُ مَا أُبِيحَ مِنَ المِزَاحِ [1] لِلْمَرْءِ ، وَمَا كُرِهَ لَهُ مِنْهُ

أنبأنا أحمد بن عَلَيٍّ بن المثنى ، حدثنا هُدْبة بن خالد ، حدثنا هَمَّام بن يحيى ، حدثنا قتادة ، عن أَنَس : أن النبيَّ ﷺ كان له خادم يقال له : أنجَشَة ، وكان حَسَنَ الصوت ؛ فقال [له] [2] النبيُّ ﷺ : « يَا أَنجَشَةُ ، لا تُكْسِرِ القَوَارِيرَ » [3] ، [4] . قال قتادة : يعنى : ضَعَفَةَ النساء .

---

(١) المزاح بكسر الميم مصدر مازحه ، وبضمها الاسم منه لما يكون به المفاكهة من الملح والطرائف . اللسان (٦/ ٤١٩١) .

(٢) سقط فى ط .

(٣) قال ابن الأثير فى النهاية : أراد النساء . شبَّهن بالقوارير من الزجاج لأنه يسرع إليها الكسر وكان أنجشة يحدو وينشد القريض والرجز ، فلم يأمن أن يصيبهن أو يقع فى قلوبهن حداؤه فأمر بالكف عن ذلك ، وقيل أراد أن الإبل إذا سمعت الحداء أسرعت فى المشيء فأزعجت الراكب وأتعبته، فنهاه عن ذلك لأن النساء يضعفن عن شدة الحركة ، وواحدة القوارير قارورة سميت بها لاستقرار الشراب فيها .

(٤) أخرجه البخارى : (١٠/ ٦٠٩) فى « الأدب » ، باب : المعاريض مندوحة عن الكذب (٦٢١١)، ومسلم : (٤/ ١٨١٢) فى « الفضائل » ، باب : رحمة النبى ﷺ للنساء (٧٣/ ٢٣٢٣) ، وأحمد : (٣/ ٢٥٢) من طرق عن همام به .

وأخرجه مسلم (٧٣ - ٢٣٢٣) ، والبغوي فى « شرح السنة » : (٦/ ٥٢٩) برقم (٣٤٧١) بتحقيقنا من طريقين عن هشام بن عبد الله عن قتادة به .

وأخرجه البخارى (٦٢٠٩ ، ٦٢١٠) ، وباب : ما جاء فى قول الرجل : « ويلك » (٦١٦١) ، ومسلم (٢٣٢٣) ، وأحمد : (٣/ ١٧٢ ، ١٨٧ ، ٢٠٢ ، ٢٢٧ ، ٢٥٤) ، والبيهقى : (١/ ١٩٩ - ٢٠٠) ، والبغوى (٣٤٧٢ ، ٣٤٧٣) من طريقين عن ثابت عن أنس .

وأخرجه البخارى : (١٠/ ٥٥٤) فى « الأدب » ، باب : ما يجوز من الشعر والرجز (٦١٤٩) ، وباب : ما جاء فى قول الرجل : « ويلك » (٦١٦١) ، وباب : المعاريض مندوحة عن الكذب (٦٢١٠) ، ومسلم (٧٠ - ٧١ / ٢٣٢٣) ، وأحمد : (٣/ ٢٢٧) ، وأبو يعلى (٢٨٠٩) من طرق عن أيوب عن أبى قلابة ، عن أنس .

وأخرجه مسلم (٧٢ - ٢٣٢٣) ، وأحمد : (٣/ ١١١ ، ١١٧ ، ١٧٦) ، والحميدى برقم (١٢٠٩)، من طرق عن سليمان التيمى أنه سمع أنسًا .

وأخرجه أحمد : (٣/ ١٠٧) من طريق ابن أبى عدى عن حميد عن أنس .

وقال الحافظ فى « الفتح » (١٠/ ٥٦٠ ، ٥٦١) . =

قال أبو حاتم – رضى الله عنه – : الواجب عَلَى العاقل أن يستميل قلوب الناس إليه بالمِزاح(١) ، وتَرْك التعبس .

والمِزاح عَلَى ضربين : فمزاح محمود ، ومِزاح مذموم .

فأما المِزاح المحمود : فهو الذى لا يَشُوبه ما كره الله – عَزَّ وجَلَّ – ولا يكون بإِثم ولا قطيعة رَحِم .

وأما المزاح المذموم : فهو الذى (٢) يُثير العداوة ، ويُذهب البَهاء ، ويقطع الصداقة ، ويَجرِّىء (٣) الدنىء عليه ، ويُحقر(٤) الشريفُ به .

أخبرنا محمد بن المنذر حدثنا إبراهيم بن محمد الرَّقِّىُّ ، حدثنا أبو موسى الأنصارىُّ ، حدثنا بكر بن سليم ، قال : سمعت ربيعة يقول : إياكم والمزاح ، فإِنه يُفسد المودة ، ويُغِلُّ (٥) الصدر .

أنبأنا محمد بن سعيد القَزَّاز ، حدثنا الفُضَيل (٦) بن الخَضْر التميمىُّ ، حدثنا عبد الله بن

= قال عياض : قوله : رويدًا منصوب على أنه صفة لمحذوف دل عليه اللفظ أى سق سوقًا رويدًا ، أو احدُ حدوًا رويدًا ، أو على المصدر أى أورد رويدًا مثل ارفق رفقًا ، أو على الحال أى سر رويدًا ، أو رويدك منصوب على الإغراء ، أو مفعول بفعل مضمر أي : الزم رفقك ، أو على المصدر أى أورد رويدك ، وقال الراغب : رويدًا أورد كأمهل يمهل وزنه ومعناه ، وهو من الرود بفتح الراء وسكون ثانية وهو التردد فى طلب الشىء برفق راد وارتاد ، والرائد طالب الكلأ ، ورادت المرأة ترود إذا مشت على هينتها ، وقال الرامهرمزى : رويدًا تصغير رود وهو مصدر فعل الرائد ، وهو المبعوث فى طلب الشىء ، ولم يستعمل في معنى المهملة إلا مصغرًا ، قال : وذكر صاحب « العين » إنه إذا أريد به معنى التزويد فى الوعيد لم ينون ، وقال السهيلى : قوله رويدًا أي ارفق ، جاء بلفظ التصغير لأن المراد التقليل أى ارفق قليلاً ، وقد يكون من تصغير المرخم ، وهو أن يصغر الاسم بعد حرف الزوائد كما قالوا فى أسود سويد فكذا فى أرود رويد .

« ولا تكسروا القوارير » ، قال قتادة : يعنى ضعفة النساء ، والقوارير جمع قارورة وهى الزجاجة سميت بذلك لاستقرار الشراب فيها ، وقال الرامهرمزى : كنى عن النساء بالقوارير لرقتهن وضعفهن عن الحركة ، والنساء يشبهن بالقوارير فى الرقة واللطافة وضعف البنية ، وقيل : المعنى : سقهن كسوقك القوارير لو كانت محمولة على الإبل ، وقال غيره : شبههن بالقوارير لسرعة انقلابهن عن الرضا ، وقلة دوامهن على الوفاء ، كالقوارير يسرع إليها الكسر ولا تقبل الجبر ، وقد استعملت الشعراء ذلك ، فقال بشار :

ارفق بعمرو إذا حركت نسبته ... فإنه عربى من قـــــوارير

(١) في الأصل : فى المزاح . (٢) فى ط : فالذى . (٣) فى الأصل : ويجترىء .
(٤) فى ط : ويحقد . (٥) فى ط : المروءة وينجل . (٦) فى الأصل : الفيض .

حُبَيق ، قال : كان يقال : لا تمازِحِ الشريف ، فيحقِدَ عليك ، ولا تمازِح الوضيع ، فيجترىءَ عليك .

وأنشدني محمد بن عبد الله [الأنصاري] [1] : [الكامل]

أَكْرِمْ جَلِيسَكَ ، لا تُمَازِحْ بِالأَذَى   إِنَّ المُزَاحَ تُرَاثُهُ [2] الأَضْغَـــانُ [3]
كَــــمْ مِنْ مِزَاحٍ جَذَّ حَبْلَ قَرِينِهِ   فَتَجَذَّمَتْ [4] مِنْ أَجْلِهِ الأَقْرَانُ [5] [6]

قال أبو حاتم [رضي الله عنه] [7] : المُزَاح في غير طاعة الله مَسْلَبَةٌ للبهاء ، مَقْطَعة للصداقة ، يُورِثُ الظِّغن [8] ، ويُنْبت الغِلَّ .

وإنما سمى المُزاح مزاحًا ؛ لأنه زاح [9] عن الحقِّ ، وكم من افتراق بين أخوين وهِجران بين متآلفين ، كان أولَ ذلك المُزاح .

أنبأنا [10] محمد بن أحمد بن الحسين [11] القُرشيُّ ، حدثنا الأسود بن عامر ، عن أبي إسرائيل ، عن الحكم ، قال : كان يقال : لا تمارِ صديقَك ولا تمازِحْه ، فإن مجاهِدًا كان له صديق فمازحه ، فأعرض كلٌّ واحد منهما عن صاحبه ، فما زاده عن السلام حتى مات .

---

(1) سقط في ط .   (2) في ط : ترى به .

(3) الضغن : الحقد ، وترى به : تحدث بسببه ، فتظهر بعد أن كانت خفية مستورة .

(4) في الأصل : فتجزمت .

(5) جذ : قطع ، وتجذمت : تقطعت ، والأقران : جمع قرن بالتحريك ، وهو الحبل والعلاقة بين الصديقين : أي أن المزاح تنقطع به علائق المحبة والوداد .

(6) هذان البيتان في الحث على إكرام وممازحة الجليس صاحبًا أو ضيفًا ولكن بالحق ، وبلا شطط ... فيقول :

أكرم من جالسك بحسن ملاطفته ، وحسن حديثك له ، واحذر من شطط المزاح ، إذ رُبَّ مزحة برزت كأنها أفعَى ... ورب جدٍّ جرَّهُ مزاح ، وقد يفضى المزاح إلى حلول الضغينة فتصرم المودة ، وتفسد المحبة . كما يقول أبو العتاهية :

ولرب مزحة صادق برزت   في لفظـــة وكأنها أفعى

وقال أيضًا :

....   يا رُبَّ جدٍّ جره المزاح

(7) سقط في الأصل .   (8) في ط : الضغن .

(9) هذا وإن صح في التأويل ، فإنه لا يصح في اشتقاق اللغة ، لأن (مزح) ، و(زاح) أصلان متباعدان في اشتقاق الألفاظ .

(10) في الأصل : حدثنا محمد بن المنذر ثنا .   (11) في الأصل : الحسن .

قال أبو حاتم - رضى الله عنه : وإن من المزاح ما يكون سببًا لتهييج المراء ، فالواجب [1] على العاقل اجتنابه ؛ لأن المراء مذموم فى الأحوال كلها ، ولا يخلو الممارى من أن يفوقه [2] أحد رجلين فى المراء : إما رجلٍ هو أعلم منه ، فكيف يجادل من هو دونه فى العلم ؟ أو يكون ذاك أعلم منه ، فكيف يمارى من هو أعلم منه ؟

ولقد سمعت حفصَ بنَ عُمَر البزاز يقول : سمعت إسحاق بن الضيف [3] يقول : سمعت جعفر بن عون يقول : سمعت مِسْعَر بن كِدَام يقول لابنه كِدَام [4] : [الكامل]

إنِّى نَخَلْتُكَ [5] ، [6] يا كِدَامُ نَصِيحَتِى [7] ... فَاسْمَعْ مَقَالَ أَبٍ عَلَيْكَ شَفِيقِ
أَمَّا المُزَاحَةُ وَالْمِرَاءُ فَدَعْهُمَا ... خُلُقَانِ لا أَرْضَاهُمَا لِصَدِيقِ
إنِّى بَلَوْتُهُمَا ، فَلَمْ أَحْمَدْهُمَا ... لِمُجَاوِرٍ جَارًا ، وَلا لِشَقِيقِ [8]
وَالْجَهْلُ يُزْرِى بِالفَتَى فِى قَوْمِهِ ... وَعُرُوقُهُ فِى النَّاسِ أَىُّ عُرُوقِ [9] ، [10]

قال أبو حاتم - رضى الله عنه : المِراء أخو [11] الشَّنَآن [12] ، كما أن المناقشة أخت [13]

---

(١) في ط : والواجب . (٢) فى ط : يفوته .

(٣) إسحاق بن الضيف الباهلي ، أبو يعقوب العسكرى البصرى نزيل مصر من رواة الحديث ، توفى بالرى سنة (٥٦) هـ .

(٤) كدام : بوزن كتاب ، كما فى القاموس وشرحه ، وهو كدام وكدوم أي عَضُوض . اللسان (٣٨٣٦/٥) .

(٥) نخلتك ، بالخاء : أخلصت لك النصيحة من الشوائب . اللسان (٤٣٧٨/٦) .

(٦) في الأصل : نخلتك . (٧) فى الأصل : نصيحة . (٨) فى ط : لشفيق .

(٩) يعنى : يعيبه وينقص قدره ، وعروقه : أصوله ، يريد أن المزاح يلصق العيوب بالمرء ، وإن كان أصله نقيا من العيوب .

(١٠) هذه الأبيات فى النصيحة والإرشاد ، وهى من روائع الحكمة ، وصفوة القول ، ولا غَرْو ؛ فإنها من أب لابنه ، فيقول :

أى بنى إنى أبوك ولا أحنٌ عليك منىٌ ، لذا إنى ممحضك النصح وباذلٌ لك صفوه فاسمع مقالى فهى ليست كأى مقال :

إياك والمزاح السُّوءَ ، وكذاك المراء والمجادلة بالباطل ، فهما خلقان لا يبقيان على صديق ولا رفيق؛ فدعهما وتجنب مغبتهما ، وحديثى لك حديث المجرب لهما المتلظى بنارهما ، وما راءٍ كمن سمعا ، لذا فلا أرضاهما لجار ولا لمحب فضلاً أن أرضاهما لفلذة كبدى .

واحذر عليك يا بنى الجهل فإنَّهُ يحط المرء فى قومه ويزرى به بينهم ، فكم نكَّسَ رأسًا وكم أزل قدمًا.

(١١) فى الأصل : رسمت وكأنها المزاح .

(١٢) الشنآن : العداوة والكراهة . أى : أنه يجر إلى العداوة والبغضاء .

(١٣) فى الأصل : أخو .

العداوة ، والمِراء قليلٌ نفعُه ، كثيرٌ شرُّه ، ومنه يكون السِّباب ، ومن السِّباب يكون القتال ، ومن القتال يكون هِراقة الدم [1] وما مارى أحدٌ أحدًا إلا وقد غيَّر المِراء قلبيهما ، ولقد أحسن الذى يقول : [الطويل]

وإيَّاكَ مِنَ حُلْــــوِ المُزَاحِ وَمُـــرِّهِ ... وَمِنْ أَنْ يَرَاكَ النَّاسُ فِيهِ مُمَـــارِيَا
وَإِنَّ مِراءَ المَرْءِ يُخلِقُ وَجْهَــــــهُ ... وَإِنَّ مُزَاحَ المَرْءِ يُبْدِى التَّشَانِيَا [2]
دَعَـــــاهُ مُزَاحٌ أَوْ مِراءٌ إِلَى الَّتِى ... بِهَا صَارَ مَقْلِىَّ الإِخَاءِ وَقَالِيَا [3][4]

أخبرنى [5] محمد بن المنذر ، حدثنى كثير بن عبد الله التميمىُّ ، حدثنى إسماعيل ابن محمد الطَّلْحِىُّ [6] ، حدثنا أبو الأخفش الكنانىُّ ؛ أنه قال لابن له : [الكامل]

أَبُنَىَّ لا تَكُ مَا حَيِيتَ مُمَـــارِيًا ... وَدَعِ السَّفَاهَةَ ، إِنَّهَا لا تَنْفَـــعُ
لا تَحْمِلَنَّ [شعة] [7] ضَغِينَةً لِقَرَابَةٍ ... إِنَّ الضَّغِينَةَ لِلقَرَابَةِ تَقْطَـــــعُ
لا تَحْسَبَــــنَّ الحِلْمَ مِنْكَ مَذَلَّةً ... إِنَّ الحَلِيمَ هُوَ الأَعزُّ الأَمْنَـــعُ [8]

---

(١) أى إراقة الدم وصبُّه .

(٢) يخلق : يبلى ، أي : يجعله وقحًا قليل الحياء ، والتشانى : أن يرمى كل من الخصمين صاحبه بالشين وهو العيب .

(٣) يريد أن المزاح يؤدى إلى أن يكون صاحبه مكروهًا من الناس ثم كارهًا لهم .

(٤) هذه الأبيات تحذر من المراء وسوء المزاح كذلك فيقول :

احذر عليك أيها الصديق من المزاح حلوه ومرِّه إذ لا مأمن له ولا قيد فعساه يلقى بك إلى التهلكة وكذا دع عنك المراء ، واحذر أن تشهر به بين الزملاء . . .

فمراؤك يذهب ببهاء وجهك ونضرتك ، وكذلك المزاح يثير عليك الأقران فيستبدلوك الحسنى بالبغض والشنآن .

فقد يلدغك المزاح والمراء ، ويدعواك إلى ما لا تحمد عقباه فيثير عليك صديقًا فيقلبك أو يثيرك على رفيق فتقلبه وهكذا يتصرم حبل الإخاء ويُستبدل الصفاء بالجفاء .

(٥) فى الأصل : أخبرنا . (٦) من رجال الحديث مات سنة (٢٣٢) هـ ، « الخلاصة » .

(٧) سقط فى ط .

(٨) هذه الأبيات تشاكل أبيات مِسعر بن كدام فى نصيحة ابنه فيقول :

يا بنى احذر المماراة مدة حياتك فلا تكن من أخلاقك أبدًا ، ودع السفه ، والطيش والنَّزق ، فإن ذلك شرُّه غالب لنفعه ، واصفح عن القربى وعاملهم بالحسنى ، ولا تصطغن عليهم حتى لا تجنى القطيعة لهم فهم رحمك وأهلك .

وتحلم عن الأدنين وسعهم بحلمك ، ولا تحسبن هذا لك واضعٌ بل هو العز والسؤدد . =

أخبرنا محمد بن إبراهيم الخالدىُّ الهَروىُّ ، حدثنا العباس بن الوليد بن مَزْيَد ، قال: سمعت أبى ، عن الأوزاعىِّ قال : قال بلال بن سعد : إذا رأيتَ الرجل لجوجًا مماريًا معجبًا برأيه ، فقد تمت خَسارته .

قال أبو حاتم - رضى الله عنه : المزاح إذا كان فيه إثم ، فهو يُسَوِّد الوجه ، ويُدْمى القلب ، ويورثُ البغضاء ، ويحيى الضغائن (١) ، وإذا كان من غير معصية ، يُسَلِّى الهمَّ ، ويوقِّع الخُلَّة (٢) ، ويُحيى النفوس ، ويُذْهب الحِشْمَة . فالواجب على العاقل أن يستعمل من المزاح ما يُنسَب بفعله إلى الحلاوة ، ولا ينوى به أذى أحد ، ولا سرورَ أحدٍ بمساءة أحد .

أخبرنا عبد الله بن محمد بن عائذ (٣) كان بهرَاة ، حدثنا أحمد بن عبد الله بن حكيم العريانى (٤) : [« قَرْية من قُرَى مَرْوَ »] (٥) ، حدثنا سهلُ بن يحيى ، عن أبيه، عن الأعمش ، عن إبراهيم ، قال : لا يمازحُك إلا من يحبك .

أخبرنا محمد بن سعيد القَزَّاز ، حدثنا إبراهيم بن الجُنيد ، حدثنا الصَّلتُ بن مسعود، حدثنى ابن عُيينة قال : أظننى سمعته من داود بن شابور ، عن محمد بن المنكدر ، قال: قالت لى أمى وأنا غلام : لا تمازح الغِلْمان ، فتَهونَ عليهم ، أو يجترئوا عليك .

حدثنا عمرو ، حدثنا الغلابىُّ ، حدثنا ابن عائشة ، حدثنا دُرَيد بن مجاشع ، عن غالب القَطَّان ،عن مالك بن دينار ، قال : قال عمر بن الخطاب [رضى الله عنه] (٦) :

= وفى مثل هذا قال حاتمُ :

تحلم عن الأدنين واستبق ودهم ... ولن تستطيع الحلم حتى تحلما

وكذلك ما قاله عَبَدَةُ بنُ الطيب لأبنائه :

أوصيكـــــم بتقوى الإله فإنه ... يعطى الرغائب من يشاء ويمنـــع

ودعوا الضغائن لا تكن من شأنكم ... إن الضغـــائن للغواية توضـــع

(١) في ط : الضغينة .

(٢) الخلة : الصداقة بضم الخاء ، والتوقيع : إصلاح ما فسد منها بطول العهد مأخوذ من توقيع الصيقل السيف بالميقعة (المطرقة) ، قال فى تاج العروس : « التوقيع إقبال الصيقل على السيف بميقعته يحدده » ، فكأنه على تشبيه الصداقة بسيف قد تثلم من طول الضراب به ، وتشبيه المزاح البرىء بالتوقيع ، وقد تكون الواو فى « توقيع الخلة » ، قد حرفها النساخون عن راء وأصلها « ترقيع » الخلة: إصلاح ما وقع فيها من تمزيق . وهذا قريب .

(٣) فى الأصل : هاجك عابدٌ .

(٤) فى الأصل : الغريانانى .

(٥) سقط فى الأصل .

(٦) سقط فى ط .

مَنْ كَثُر ضَحِكُه قَلَّتْ هَيْبَته ، ومن مَزَحَ استُخِفَّ به ، ومن أكثر من شيء عُرِف به .

أنبأنا الحسن بن سُفيان ، حدثنا أبو الدرْداء ، حدثنا أبو إسحاق الطالَقانيُّ ، عن مُبَشَّر ابن إسماعيل ، عن راشد بن أبى قبال ، قال : استسقى سعيدُ بن جبير ، فأتيتُه بسَوِيقٍ مُحَلى ، فقال : يا راشدُ شِكَر أزْدَسْتُ شِيرِينْ .

قال أبو حاتم – رضى الله عنه : من مازح رجلاً [1] من غير جنسه ، هان عليه ، واجترأ عليه ، وإن كان المِزاح حقًّا ؛ لأن كل شىء لا يجب أن يسلك به غيرُ مَسْلَكه ، ولا يَظْهر إلا عند أهله .

على أنى أكره استعمال المُزاح بحضرة العوامِّ [2] ، كما أكره تركه عند حضور الأشكال[3] .

ولقد أخبرنا كامل بن مكرّم ، حدثنا ربيعة بن الحارث الجيلانيُّ ، حدثنا عبد الله بن عبد الجبار [4] ، قال : قال أبو عبد الرحمن الأعرج : « كان إبراهيم بن أدهم يحدثنا ويضاحكنا ، وإذا رأى غريبًا [5] قال : هذا جاسوس » .

* * *

(١) فى الأصل : أحدًا . (٢) فى ط : العام .

(٣) العام يريد الجمهور المختلط من عامة الناس ، والأشكال : جمع شكل والمراد به شبيهك ونظيرك ومن يقرب منك فى المرتبة .

(٤) فى الأصل : الخبايرى . (٥) فى ط : غيرنا .

ذِكْرُ اسْتِحْبَابِ الاعْتِزَالِ مِنَ النَّاسِ عَامًا

أنبأنا عبد الله بن محمد بن سَلْم (1) ببيت المقدس ، حدثنا عبد الرحمن بن إبراهيم(2)، حدثنا الوليد ، حدثنا الأوزاعىُّ ، عن الزُّهرىِّ ، عن عطاء بن يزيد الليثىِّ ، عن أبى سعيد الخُدرىّ ، قال : قيل : « يَا رَسُولَ الله ، أَىُّ الأَعْمَالِ أَفْضَلُ ؟ قَالَ : الْجِهَادُ فِى سَبِيلِ الله ، قَالَ : ثُمَّ مَاذَا ؟ قَالَ : رَجُلٌ فِى شِعْبٍ مِنَ الشِّعَابِ(3) يَتَّقِى اللهَ ، وَيَدَعُ النَّاسَ مِنْ شَرِّهِ » (4) .

---

(1) فى الأصل : سالم . (2) فى الأصل : يعنى ابن دُحَيم .

(3) أصل الشعب : الطريق فى الجبل ، يريد أن العزلة عن الناس فى شعاب الجبال خير من معاشرة لئام الناس .

(4) أخرجه البخارى : (11/338) فى الرقاق ، باب : العزلة راحة من خلاط السوء (6464) ، ومسلم : (3/1503) فى « الإمارة » ، باب : فضل الجهاد والرباط (124 - 1888) ، والترمذى : (4/160) فى فضائل الجهاد ، باب : ما جاء أى الناس أفضل (1660) ، وأحمد : (3/88) ، من طريق الأوزاعى به ، وكذا أبو يعلى فى « مسنده » (1225) .

وأخرجه البخارى : (6/8) ، فى « الجهاد والسير » ، باب : أفضل الناس مؤمن مجاهد بنفسه وماله فى سبيل الله (2786) ، ومسلم (122 - 123/1888) ، وأبو داود : (2/7) فى « الجهاد » ، باب : فى ثواب الجهاد (2485) ، والنسائى : (6/11) في « الجهاد » ، باب : فضل من يجاهد فى سبيل الله بنفسه وماله ، وابن ماجة : (1/1316) فى « الفتن » ، باب : العزلة (3978) ، وأحمد : (3/16) ، (37) ، (56) ، (88) من طرق عن الزهرى به .

وقال الترمذى : هذا حديث حسن صحيح .

ويشهد له حديث أبى هريرة رواه مسلم (125 - 127/1889) ، وابن ماجة : (2/1316) فى «الفتن» ، باب : العزلة (3977) من طريقين عن بعجة بن عبد الله الجهنى عنه رفعه قال : « خير معايش الناس لهم رجل ممسك بعنان فرسه فى سبيل الله ، ويطير على متنه . كلما سمع هيعة أو فزعة طار عليه إليها ، يبتغى الموت أو القتل مظانة ، ورجل فى غنيمة فى رأس شغفة من هذه الشغاف ، أو بطن وادٍ من هذه الأودية يقيم الصلاة ، ويؤتى الزكاة ، ويعبد ربه حتى يأتيه اليقين ، ليس من الناس إلا فى خير » .

ويشهد له أيضًا حديث ابن عباس رواه النسائى : (5/83 - 84) فى « الزكاة » ، باب : من يسأل بالله - عز وجل - ولا يعطى به ، والدارمى : (2/201) فى « الجهاد » ، باب : أفضل الناس رجل ممسك برأس فرسه فى سبيل الله ، وأحمد : (1/237) ، (319) ، (322) من طريق ابن أبى ذئب عن سعيد بن خالد القارظى عن إسماعيل بن عبد الرحمن عن عطاء بن يسار ، عن ابن عباس أن رسول الله ﷺ قال : =

قال أبو حاتم - رضى الله عنه : الواجب على العاقل لزومُ الاعتزال عن الناس عامًا مع توقى مخالطتهم ، إذ الاعتزال من الناسِ لو لم يكن فيه خَصْلة تُحمد إلا السلامة من مقارفة المآثم ، لكان حقيقًا بالمرء أن لا يُكَدِّر وجود السلامة ، بلزوم السبب المؤدِّى إلى المناقشة .

= ألا أخبركم بخير الناس منزلاً ؟ قلنا : بلى يا رسول الله . قال : رجل آخذ برأس فرسه فى سبيل الله - عز وجل - حتى يموت أو يقتل . وأخبركم بالذى يليه ؟ قلنا : نعم يا رسول الله . قال : رجل معتزل فى شعب يقيم الصلاة ويؤتى الزكاة ويعتزل شرور الناس . . . » .

كما يشهد له حديث أم مالك البهزية ، رواه الترمذى : (٤/ ٤١٠) فى « الفتن » ، باب : ما جاء كيف يكون الرجل فى الفتنة (٢١٧٧) ، عن محمد بن حجارة عن رجل عن طاوس عن أم مالك البهزية ، قالت : ذكر رسول الله ﷺ فتنة فقربها ، قالت : قلت : يا رسول الله من خير الناس فيها؟ قال : رجل فى ماشيته يؤدى حقها ويعبد ربه ، ورجل آخذ برأس فرسه يخيف العدو ويخيفونه .

وأخرجه أحمد : (٤١٩/٦) من طريق ليث بن أبى سليم عن طاوس به .

وقال الترمذى : هذا حديث حسن غريب من هذا الوجه ، وقد رواه الليث بن أبى سليم عن طاوس . . .

وقال الحافظ فى « الفتح » : (٩/٦) : قوله : (يتقي الله) فى رواية مسلم من طريق الزبيدى عن الزهرى « يعبد الله » ، وفى حديث ابن عباس : « معتزل فى شعب يقيم الصلاة ويؤتى الزكاة ويعتزل شرور الناس » ، وللترمذى وحسنه والحاكم ، وصححه من طريق ابن أبى ذئب عن أبي هريرة : «أن رجلاً مر بشعب فيه عينٌ عذبة ، فأعجبه ، فقال : لو اعتزلت ، ثم استأذن النبى ﷺ فقال : « لا تفعل ، فإن مقام أحدكم فى سبيل الله أفضل من صلاته فى بيته سبعين عامًا » ، وفى الحديث فضل الانفراد لما فيه من السلامة من الغيبة واللغو ونحو ذلك ، وأما اعتزال الناس أصلاً فقال الجمهور : محل ذلك عند وقوع الفتن كما سيأتى بسطه فى كتاب الفتن ، ويؤيد ذلك رواية بعجة بن عبد الله ، عن أبي هريرة مرفوعًا : « يأتى على الناس زمان يكون خير الناس فيه منزلةً من أخذ بعنان فرسه فى سبيل الله يطلب الموت فى مظانه ، ورجل فى شعب من هذه الشعاب يقيم الصلاة ويؤتى الزكاة ويدع الناس إلا من خير » ، أخرجه مسلم وابن حبان من طريق أسامة بن زيد الليثى عن بعجة ، وهو بموحدة وجيم مفتوحين بينهما مهملة ساكنة .

قال ابن عبد البر : إنما أوردت هذه الأحاديث بذكر الشعب والجبل لأن ذلك فى الأغلب يكون خالياً من الناس ، فكل موضع يبعد على الناس فهو داخل فى هذا المعنى .

وقال أيضًا : (٣٣٩/١١) : وقال ابن المبارك فى كتاب « الرقائق » عن شعبة ، عن خبيب بن عبد الرحمن ، عن حفص بن عاصم قال : قال عمر : « خذوا حظكم من العزلة » ، وما أحسن قول الجنيد - نفع الله ببركته « مكابدة العزلة أيسر من مداراة الخلطة » ، وقال الخطابى : لو لم يكن فى العزلة إلا السلامة من الغيبة ومن رؤية المنكر الذى لا يقدر على إزالته لكان ذلك خيرًا كثيرًا .

وفى معنى الترجمة ما أخرجه الحاكم من حديث أبى ذر مرفوعًا بلفظ : « الوحدة خير من جليس السوء » ، وسنده حسن .

ولقد أخبرنى الحسن بن سفيان ، حدثنا حِبَّان بن موسى ، أنبأنا عبد الله ، أخبرنا شُعبة ، عن حبيب (١) بن عبد الرحمن ، عن حفص بن عاصم ، عن عمر بن الخطاب [رضى الله عنه] (٢) قال : « خذوا بحظِّكم من العزلة » .

أنبأنا عمرو (٣) بن سعيد بن سنَانٍ الطائىُّ ، حدثنا حامد بن يحيى البَلْخىُّ ، قال : سمعت سفيان بن عُيينة يقول : رأيتَ الثَّورىَّ فى المنام ، فقلت له : أوصِنِى ، فقال : أقِلَّ معرفة الناس ، أقلَّ معرفة الناس : أقلَّ معرفة الناس .

أنبأنا (٤) القطان بالرَّقَّة ، حدثنا المَرْوَرُّوذِىُّ (٥) ، قال : سمعت أحمد بن حنبل يقول: رأيت ابن السَّمَّاك يكتب إلى أخٍ له :

إن استطعت أن لا تكون لغير الله عبدًا ما وجدتَ من العُبودية بُدا ، فافعل .

قال أبو حاتم - رضى الله عنه : العاقل لا يستعبد نفسه لأمثاله ، بالقيام فى رعاية حقوقهم ، والتصبر على ورود الأذى منهم ، ما وجَد إلى ترك الدخول فيه سبيلاً ؛ لأنه إذا حَسم عن نفسه باب (٦) الاختلاط بالعالَم ، والمخالطة بهم ، تمكَّن من صفاء القلب ، وعدم تكدُّر الأوقات فى الطاعات .

ولقد استعمل العُزْلة جماعة من المتقدمين مع العامِّ والخاصِّ معًا .

كما أخبرنا محمد بن إبراهيم الخالدىُّ ، حدثنا داود بن أحمد بن سليمان الدِّمياطىُّ ، حدثنا عبد الرحمن بن عفان ، قال : سمعت ابن المبارك (٧) يقول : عادَ فُضيلٌ داودَ الطائىَّ ، فأغلق داود الباب ، وجلس فُضيل خارج الباب يبكى ، وداود داخل البيت (٨) يبكى .

أنبأنا الحسين بن محمد السِّنجِىُّ ، حدثنا عَلَى بن المنذر ، حدثنا الحسن بن مالك ، قال : سمعت بكر بن محمد العابد يقول : قال لى داود الطائىُّ: يا بكر (٩) ، استوحِش من الناس ، كما تستوحِش من السَّبُع .

أنبأنا محمد بن أحمد بن الفرج البغدادىُّ بالأُبُلَّة ، حدثنا إبراهيم بن حماد بن زياد ، حدثنا عبد العزيز بن الخَطاب ، قال : رُئِى إلى جنب مالك بن دينار كلب عظيم ضخم

---

(١) فى الأصل : خُبَيْب . (٢) سقط فى ط . (٣) فى الأصل : حدثنا عمر .
(٤) فى الأصل : حدثنا . (٥) فى الأصل : المروذى أبو بكر .
(٦) فى ط : ترك . (٧) فى الأصل : السماك . (٨) فى الأصل : دخل الباب .
(٩) فى الأصل : أبا بكر .

أسود رابض ، فقيل له : يا أبا يحيى ألا ترى هذا الكلب إلى جنبك ؟ قال : هذا خير من جليس السُّوء .

قال أبو حاتم - رضى الله عنه - : هذا الذى ذهب إليه داود الطائى وضُرباؤه من القُرَّاء من لزوم الاعتزال من الخاصِّ ، كما يلزمهم ذلك من العامِّ ، أرادوا بذلك عند رياضة الأنفس عَلَى التصبُّر على الوحدة ، وإيثار ضِدِّ الخُلطة على المعاشرة ؛ فإنَّ المرء متى ما لم [١] يأخذ نفسه بترك ما أُبيحَ له ، فأنا خائف عليه الوقوع فيما حُظِر عليه .

وأما السبب الذى يوجب الاعتزال عن [٢] العالَم كافة : فهو ما عرفتهم به [٣] من وجود دَفْن الخير ، ونشر الشرِّ ، يدفنون الحسنة ، ويظهرون السيئة . فإن كان المرء عالمًا بدَّعوه ، وإن كان جاهلاً عَـيَّروه ، وإن كان فوقهم حسدوه ، وإن كان دونهم حقَرُوه ، وإن نطق قالوا : مِهذار ، وإن سكت قالوا : عَيِى ، وإن قَدَّرَ قالوا : مُقْتِرٌ [٤] ، وإن سمح قالوا : مبذِّر ، فالنادم فى العواقب ، المحطوط عن المراتب ، مَنِ اغترَّ بقوم هذا نَعتُهم ، وغرَّه ناسٌ هذه صفتهم .

ولقد أنبأنا محمد بن المهاجر المعدَّل ، أخبرنى أحمد بن محمد بن بكر الأَبناوىُّ [٥] ، عن داود بن رُشيد : حدثنى إبراهيم بن شماس ، قال : قال لى الأَكَّاف حَفْص بن حميد، صاحب ابن المبارك بمرو : يا إبراهيم ، صحبتُ الناس خمسين سنة ، فلم أجد أحدًا ستَر لى عَوْرة : ولا وصلنى إذا قطعتُه ، ولا أمِنتُه إذا غَضِب ، فالاشتغال بهؤلاء حمق كثير .

وأنشدنى محمد بن المهاجر المعدَّل ، لعلىِّ بن حَجَر السعدىِّ : [الوافر]

زَمـــَانُكَ ذَا زَمَانُ دُخُولِ بَيْتٍ وَحِفْظٍ لِلِّسَانِ ، وَخَفْضِ صَوْتِ
فَقَدْ مَرِجَتْ عُهُـودُ النَّاسِ إلا أَقَلَّهُـــمُ ، فَبَادِرْ قَبْلَ فَـوْتِ
فَمَـــا يَبْقَى عَلَى الأَيَّامِ شَىْءٌ وَمَا خُلِقَ امْرُؤٌ إلا لِمَـوْتِ [٦]

---

(١) فى ط : متى لم (٢) فى الأصل : من . (٣) فى الأصل : عزفيهم .
(٤) فى ط : مُقَتِّر . (٥) فى الأصل : الأنباوى .
(٦) هذه الأبيات فى الحث على الاعتزال عن الناس ، إذ قد فسد الزمان وعم العدوان وطغى الإنسان ... فيقول :
هذا الزمان غريب مريب لا كالأزمنة الماضية ، فخير دواء يداوى به هو العُكُفَةُ في البَيْتِ ، وخزن اللسان ، وملازمة الهمس بخفض الصوت . =

أخبرنا يعقوب بن إسحاقَ القاضى ، حدَّثنا محمد بن يحيى ، قال : وفيما قرأت على نافع ، عن مالك بن أنس [رضى الله عنه] [١] : أنه بلغه عن أبى ذَرّ ، قال : كان الناسُ وَرَقًا لا شوك فيه ، فهم اليوم شَوْكٌ لا ورَق فيه » .

أنبأنا محمد بن أبى علىٍّ الخَلادى ، حدثنا جُنيد بن حكيم الدَّقاق ، حدثنا سليمان بن أبى شيخ ، قال : كان القَحذَمى ينشد كثيرًا : [الخفيف]

ذَهَــــبَ الْحُسْنُ وَالْجَمَالُ مِنَ النَّا ... سِ وَمَاتَ الَّذِينَ كَانُوا مِلاحا [٢] [٣]

إنَّ فِي المَوْتِ مِنْ أُولَئِكَ رَاحًا [٤] ... وبَقَى الأسْمَجُونَ مِنْ كُلِّ صِنْــفِ [٥]

قال أبو حاتم - رضى الله عنه - : العاقل يعلم أن البَشَر مجبولون على أخلاق متباينة ، وشيم مختلفة ، فكل واحد يُحب اتِّباع مساعدته ، وترك مخالفته [٦] ، فمتى رام من أخيه ضِدًّ ما وطّن نفسه عليه قَلاه [٧] ، وإذا تبين له منه خلاف ما أضمر عليه قلبُه

= وذلك لأنَّ هذا العهد عهد الهرج والمرج ، فلا عهدٌ ولا ذمة ، ولا أمَانٌ ، فليبادر المرء بحفظ نفسه، وتقويمها قبل حلول الموت والفناء به .

ولا أحزن على ما حَدَثَ للناس إذ ليس شيء إلا وهو للفناء والذهاب حتى إن المرء لا يخلق إلا للموت .

وفى هذا المعنى يقول الألبيرى :

إن أولى العلـــم بما في الفتن ... تَهيَّبوهَا من قديمِ الزَّمَـــــن

فاستعصمـــوا الله وكان التُّقَى ... أوفى لهم فِيهَا مِنْ أوفى الجُنَنْ

فَعَـــــالمٌ مستمجد عامل ... يسلل بالناس سواء الســـنن

مرتهـــن البيت كقـــبر له ... وبرده فيه له كالكفـــــن

إن شَمَّـــرَ النَّاسُ لدنياهــم ... شَمَّرَ فى تمهيده للجـــنَنْ

لا يرهب الأسْدَ ومن لم يَخُنْ ... سيِّدَهُ فى عَهْدِه لَمْ يُخَـــن

(١) سقط فى ط . (٢) فى ط : صلاحًا

(٣) وتحرير المعنى هنا أنه يتحسر على زمانه ويشكو جهامة أيامه وأن الموت عصف بذوى الحسن والفضل .

(٤) بقى : بفتح القاف : أصله بقى بكسرها ، وهذه لغة عامة العرب ، والأولى لغة طيء ، وهى عندهم عامة في مكسور العين ، المعتل اللام ، كرضى ونسى وفنى ، وراحا : أى راحة . اللسان .

(٥) وبعد ممات أحاسن الناس بقى الأسمجون السفهاء ذوى الفظاظة ، وقد كانت السيدة عائشة تنشد كثيرًا .

ذهب الَّذينَ يعاش فى أكنافهم ... وبقيت فى خلف كجلد الأجرب

(٦) فى ط : مباعدته .

(٧) قليت فلانًا أقليه ، من باب رمى ، وقليته أقلاه لغة طيء ، بفتح اللام فيهما وبكسر اللام فى الماضى ، وفتحها فى المضارع : أبغضته وكرهته غاية الكراهية ، فتركته .

ملّهُ ، ومن الملال يكون الاستثقال ، ومن الاستثقال يكون البغض ، ومن البغض تُهيَّجُ العداوة ، فالاشتغال بمن هذا نعته للعاقل حُمْق .

ولقد أحسن النِباحيُّ ؛ حيث يقول : [الرجز]

أَرْفُـــــضِ النَّاسَ وَكُلٌّ (١) مَشْغَلَهْ   قَدْ بَخِـــــلَ النَّاسُ بِمِثْلِ خَرْدَلَهْ (٢)

لا تَسْأَلِ النَّاسَ وَسَلْ مَنْ أَنْتَ لَهُ (٣)

وأنشدنى ابن أبى علىٍّ ، قال : أنشدنى محمد بن يعقوب (٤) العَبْدىُّ : [الطويل]

إِذَا قُلْتُ هَذَا صَاحِبٌ قَدْ رَضِيتُهُ   وَقَرَّتْ بِهِ عَيْنَاىَ ، بُدِّلْتُ آخَـرَا

وَذَلِكَ أَنِّى لا أُصَاحِـبُ صَاحِبًا   مِنَ النَّاسِ إِلا خَانَنِى وَتَغَيَّرَا (٥)

أخبرنا عبد الله بن محمد بن مسلم ، حدثنا أحمد بن أبى الحَوَارِىِّ ، حدثنا أبو مُسْهِر، عن سعيد بن عبد العزيز ، قال : قال مكحول : إن كان فى مخالطة الناس خير، فالعُزلة أسلَم .

---

(١) فى الأصل : فكل .   (٢) فى الأصل : الخردلة .

(٣) هنا يزرى الشاعر بالناس ، ويدعو إلى الاعتزال عنهم فيقول : أنا أنابذ النَّاس ، وأدافع كل شغل بهم ، فلا خير فيهم ألبتة فكلهم مجبولون على الشح ، إذْ يبخلون بالضئيل البَيِل وبها دون القطمير بله الخردلة . . . !

لذا فالعاقل من يترك الناس جملة ، ولا يسألهم مذقة وليسأل ربه سبحانه فأنت لله وبالله . .

وهذا المعنى كثيرٌ وفيرٌ فى الشعر ، ومنه قول أبي العتاهية :

سامـــح الناس فإنى أراهم   أصبحـــــوا إلا قليلاً ذئابًا

أفشى معروفك فيهم وأكثر   ثم لا تبتغى عليه ثـــوابًا

وســـل الله إذا خفت فقرًا   فهو يعطيك العطايا الرِّغَابا

(٤) فى الأصل : أبى يعقوب .

(٥) وهذان البيتان فى الشكوى من غدر الأصحاب وسوء عشرتهم فيقول :

إذا ما ركنت إلى صاحب لى ، وعقدت معه المودة ، وأُشْرِبَتُ حبه وقرَّت به عينى إذا بِى أَصْدِفُ عنه ، وأنزع إلى آخر .

وما هذا بالغَدْرِ منى والجفاء ، ولكنَّنى كلما عقدت حبل الوصل على صديق جذَّ الحبل وقصمه غدرًا، وخيانة وتغيرًا ، فإلى الله المشتكى . . . !!

وفى هذا أبيات كثيرة وفيرة تجلُّ عن الحصر ، بل فى هذا الفصل مؤلفاتٌ مفردة .

[فراجع العزلة » ، للإمام الخطابى ، تحقيق الشيخ : عادل عبد الموجود ، ففيها ما تَقَرُّ بهِ عينك ، وراجع أبواب لباب الآداب وغيره من كتب الأدب] .

أنبأنا على بن سعيد العسكرىُّ ، حدثنا شعيب بن يحيى ، [حدثنا أحمد] (١) النَّسَائىُّ ، حدثنا يحيى بن عبد الأعلى : أن مالك بن دينار كان يقول : من لم يأنس بحديث الله عن حديث المخلوقين ، فقد قَلَّ عِلمه ، وعَمِى قلبُه ، وضيعَ عمْره » (٢) .

أنبأنا القطان ، حدثنا أحمد بن أبى الحَوَارِىِّ ، حدثنا محمد بن رَوح ، قال : سمعت إبراهيم البخارىَّ يقول : « دخلت المسجد الحرام بعد المغرب ، فإذا بفضيلٍ (٣) جالس ، فجئت فجلست إليه ، فقال : مَنْ هذا ؟ فقلت : إبراهيم ، قال : ما جاء بك ؟ قلت : رأيتك وَحْدَك ، فجلست إليك ، قال : تحِبُّ أن تغتابَ أو تَتَزيَّن (٤) ، أو تُرَائى ؟ قلت: لا ، قال : قُمْ عَنِّى » .

* * *

---

(١) سقط فى الأصل . (٢) فى الأصل : أمره . (٣) فى ط : فضيل .

(٤) التزين فى لسان الصوفية : يراد به أن يذكر المرء فى مجلس الإخوان ما يدل على فضله وعبادته وأوراده ونحو ذلك ، مما يشعر غيره بأنه من المجتهدين ، لا من الذين يقنعون بالعمل القليل للآخرة وكبار الصوفية ينكرون مثل هذه الحال ، ويرونه من باب رؤية المتعبد عمله أى اعتداده به ، وهو منكر عندهم .

ذِكْرُ اسْتِحْبَابِ المُؤَاخَاةِ لِلْمَرْءِ مَعَ الخَاصِّ

أنبأنا أحمدُ بن عليّ بن المُثَنَّى بـ « الموصل » ، حدثنا قَطَنُ بن نُسَيْر ، حدثنا جعفر ابن سليمان ، حدثنا ثابت ، عن أنس ، قال : آخى رسول الله ﷺ بين سَلْمَانَ وأبي الدَّرْداء ، وآخى بين عوف بن مالك وبين الصَّعْب بن جَثَّامة (1) .

---

(1) مؤاخاة النبي ﷺ بين سلمان وأبي الدرداء ، رواه البخاري : (4/246- 247) في « الصوم » ، باب : من أقسم على أخيه ليفطر في التطوع ، ولم ير عليه قضاء إذا كان أوفق له (1968) ، و(10/ 550 - 551) في « الأدب » ، باب : صنع الطعام ، والتكلف للضيف (6139) ، والترمذي: (4/526) ، في « الزهد » ، (2413) عن محمد بن بشار حدثنا جعفر بن عون ، حدثنا أبو العميس ، عن عون بن أبي جحيفة ، عن أبيه ، قال : آخى رسول الله ﷺ بين سلمان وأبي الدرداء ، فزار سلمان أبا الدرداء .... » فذكره وفيه قصة .

وقال الترمذي : هذا حديث صحيح .

وأما مؤاخاة النبي ﷺ بين عوف بن مالك ، والصعب بن جثامة ، فقال ابن حجر في « الإصابة » في ترجمة الصعب : وأخرج أبو بكر بن لال في كتاب « المتحابين » من طريق جعفر بن سليمان ، عن ثابت ، قال : آخى رسول الله ﷺ بين عوف بن مالك والصعب بن جثامة ، فقال كل منهما للآخر : إن مت قبلي فتراءلي فمات الصعب قبل عوف فتراءى . فذكر قصة .

وقال الحافظ في « الفتح » ، (7/317 - 818) : قال ابن عبد البر : كانت المؤاخاة مرتين : مرة بين المهاجرين خاصة وذلك بمكة ، ومرة بين المهاجرين والأنصار فهي المقصودة هنا ، وذكر ابن سعد بأسانيد الواقدي إلى جماعة من التابعين قالوا : لما قدم النبي ﷺ المدينة آخى بين المهاجرين ، وآخى بين المهاجرين والأنصار على المواساة ، وكانوا يتوارثون ، وكانوا تسعين نفسًا بعضهم من المهاجرين وبعضهم من الأنصار ، وقيل كانوا مائة ، فلما نزل ﴿وأولو الأرحام﴾ ، بطلت المواريث بينهم بتلك المؤاخاة .

قلت : وسيأتي في الفرائض من حديث ابن عباس : « لما قدموا المدينة كان يرث المهاجرين الأنصاري دون ذوي رحمه بالأخوة التي آخى رسول الله ﷺ بينهم ، فنزلت » .

وعند أحمد من رواية عمرو بن شعيب عن أبيه ، عن جده نحوه ، قال السهيلي : آخى بين أصحابه ليُذهب عنهم وحشة الغربة ويتأنسوا من مفارقة الأهل والعشيرة ويشد بعضهم أزر بعض ، فلما عزَّ الإسلام واجتمع الشمل وذهبت الوحشة أبطل المواريث وجعل المؤمنين كلهم إخوة وأنزل : ﴿إنما المؤمنون إخوة﴾ . يعني في التوادد وشمول الدعوة ، واختلفوا في ابتدائها ، فقيل : بعد الهجرة بخمسة أشهر ، وقيل : بتسعة ، وقيل وهو يبني المسجد ، وقيل قبل بنائه ، وقيل : بسنة وثلاثة أشهر قبل بدر ، وعند أبي سعيد في « شرف المصطفى » ، كان الإخاء بينهم في المسجد ، وذكر =

. . . .

= محمد بن إسحاق المواخاة فقال : « قال رسول الله ﷺ لأصحابه بعد أن هاجر : تآخوا أخوين أخوين ، فكان هو وعلى أخوين ، وحمزة وزيد بن حارثة أخوين ، وجعفر بن أبى طالب ومعاذ بن جبل أخوين » وتعقبه ابن هشام بأن جعفراً كان يومئذ بالحبشة ، وفى هذا نظر ، وقد تقدم ، ووجهها العماد بن كثير بأنه أرصده لإخوته حتى يقدم ، وفى تفسير سنيد : آخى بين معاذ وابن مسعود ، وأبو بكر وخارجة بن زيد أخوين ، وعمر وعتبان بن مالك أخوين ، وقد تقدم فى أوائل الصلاة قول عمر « كان لى أخ من الأنصار » ، وفسر بعتبان ، ويمكن أن يكون أخوته له تراخت كما فى أبى الدرداء ، وسلمان ، ومصعب بن عمير وأبو أيوب أخوين ، وأبو حذيفة بن عتبة وعباد بن بشر أخوين ، ويقال : بل عمار وثابت بن قيس لأن حذيفة إنما أسلم زمان أحد ، وأبو ذر والمنذر بن عمرو أخوين، وتعقب بأن أبا ذر تأخرت هجرته ، والجواب كما فى جعفر ، وحاطب بن أبى بلتعة وعويم بن ساعدة أخوين ، وسلمان تأخر إسلامه وكذا أبو الدرداء .

والجواب ما تقدم فى جعفر ، وكان ابتداء المؤاخاة أوائل قدومه المدينة ، واستمر يجددها بحسب من يدخل فى الإسلام أو يحضر إلى المدينة ، والإخاء بين سلمان وأبى الدرداء صحيح كما فى الباب وعند ابن سعد ، وآخى بين أبى الدرداء وعوف بن مالك وسنده ضعيف ، والمعتمد ما فى الصحيح ، وعبد الرحمن بن عوف وسعد بن الربيع مذكور فى هذا الباب ، وسمى ابن عبد البر جماعة آخرين ، وأنكر ابن تيمية فى كتاب « الرد على ابن المطهر الرافضى » المؤاخاة بين المهاجرين وخصوصاً مؤاخاة النبى ﷺ لعلى قال : لأن المؤاخاة شرعت لإرفاق بعضهم بعضاً ولتأليف قلوب بعضهم على بعض فلا معنى لمؤاخاة النبى لأحد منهم ، ولا لمؤاخاة مهاجرى لمهاجرى ، وهذا رد للنص بالقياس وإغفال عن حكمة المؤاخاة لأن بعض المهاجرين كان أقوى من بعض بالمال والعشيرة والقوى فآخى بين الأعلى والأدنى ليرتفق الأدنى بالأعلى ويستعين الأعلى بالأدنى وبهذا تظهر مؤاخاته ﷺ لعلى لأنه هو الذى كان يقوم به من عهد الصبا من قبل البعثة واستمر ، وكذا مؤاخاة حمزة وزيد بن حارثة لأن زيداً مولاهم فقد ثبت أخوتهما وهما من المهاجرين ، وسيأتى فى عمرة القضاء قول زيد بن حارثة : إن ابنة حمزة بنت أخى ، وأخرج الحاكم وابن عبد البر بسند حسن عن أبى الشعثاء ، عن ابن عباس «آخى النبى ﷺ بين الزبير وابن مسعود » ، وهما من المهاجرين .

قلت : وأخرجه الضياء فى « المختارة » من المعجم الكبير للطبرانى وابن تيمية يصرح بأن أحاديث المختارة أصح وأقوى من أحاديث المستدرك ، وقصة المؤاخاة الأولى أخرجها الحاكم من طريق جميع ابن عمير ، عن ابن عمر : « آخى رسول الله ﷺ بين أبى بكر وعمر ، وبين طلحة والزبير ، وبين عبد الرحمن بن عوف وعثمان - وذكر جماعة قال - فقال على : يا رسول الله إنك آخيت بين أصحابك فمن أخى ؟ قال : أنا أخوك » ، وإذا انضم هذا إلى ما تقدم تقوى به ، وقد تقدم فى باب «الكفالة » ، قبيل كتاب « الوكالة » الكلام على حديث « لا حلف فى الإسلام » بما يغنى عن الإعادة، وقد سبق كلام السهيلى فى حكمة ذلك الميراث ، وسيأتى فى الفرائد حديث ابن عباس « كان المهاجرون لما قدموا المدينة يرث المهاجرى الأنصارى دون ذوى رحمة للإخوة » . الحديث الأول .

قال أبو حاتم - رضى الله عنه - : الواجب على العاقل ألا يَغْفُل عن مؤاخاة الإخوان، وإعداده إياهم للنوائب والحَدَثان ، لأن من تَعَزَّى (١) عن موضع سَلْوته بأخيه عند الهموم والغُموم ، [و] (٢) كان عقله إلى التقديح (٣) أقرب ، ومن النماء أنقص .

ولقد أنبأنا محمد بن المنذر ، حدثنا الفضل بن عبد الصَّمد الأصْبَهانيُّ ، حدثنا يزيد ابن خالد الرَّمليُّ (٤) ، حدثنا سُهَيل أبو عمرو ، قال : قال محمد بن واسع : لم يَبْق من العيش إلا ثلاث : الصلاة في الجماعة تُرْزَقُ فَضْلَهَا ، وتُكْفَى سَهْوَهَا ، وكَفَافٌ من مَعَاش ليستْ لأحد من الناس عليكَ فيه مِنَّة ، ولا لله عليك فيه تبِعَةَ ، وأخٌ يُحسن (٥) العِشرة ، إن زِغْتَ قَوَّمك .

أنبأنا عبد الرحمن بن عبد المحسن (٦) بجُرجان ، حدثنا محمد بن عبد الله القَصَّار(٧)، أنبأنا عبد الرزاق ، عن ابن المُقَفَّع ، قال : « ثلاث من اللَّذَّات : محادثة الإخوان ، وأكل القديد ، وَحكُّ الجَرَب » (٨) .

أنبأنا محمد بن أبى على ، حدَّثنا محمد بن هُرَيْم الشَّيْبانىُّ ، [قال] (٩) : أنشدنا محمد بن عِمران الضَّبِّىُّ : [المتقارب]

وَمَـــا المَرْءُ إلا بِإخْـــــــوَانِهِ ... كَمَا تَقْبِضُ الكَفُّ بِالْمِعْصَــــمِ
وَلا خَــــيْرَ فِى الكَفِّ مَقْطُوعَةً ... وَلا خَيْرَ فِى السَّاعِدِ الأجْذَمِ (١٠)

---

(١) تعزى : تسلى وترك . (٢) سقط فى ط .
(٣) التقديح : مصدر قدح فرسه : إذا ضمره ، يريد : صار عقله إلى الضعف ، وأبعد من النماء.
(٤) فى الأصل : البرمكى . (٥) فى ط : محسن .
(٦) فى الأصل : المؤمن . (٧) فى الأصل : العضار .
(٨) القديد : اللحم الذى يقطع شرائح ويملح ، ويجفف فى الشمس ، وقد تضاف إليه التوابل ، فتكسبه طعمًا لذيذًا ، وتجعل الآكل منه لا يشبع ، وقد تكون لذته من ناحية كونه قطعًا رقيقًا ، تامة النضج، فتكون سهلة التناول ، وأما حكُّ الجرب ، فإنه ترتاح له النفس ؛ لأنه إذا اشتعلت ناره فى الجسم ، وجد صاحبه الراحة فى حكه ، أو تبريده بوضع الدواء المسكن له .
(٩) سقط فى ط .
(١٠) هذان البيتان يحضَّان على التآخى والتَّصَاحُبِ ، وقد بلغ الشَّاعرُ الغاية فى تشبيهه ، فقال : لا تُحْسَبُ قيمة المَرْءِ ومكانته ولا يستقيم حاله إلا بإخوانه وأصحابه ، كما الكفُّ لازمٌ لها المعصم ، وإلا لما قُبِضَتْ وبُسطت . . !

ولا خير فى المرء ، وهو أبترٌ أجزم عن أصحابه ، لا رفيق له منهم ولا صديق ، كما لا خير فى الكف ، وهى مبتورة ، ولا خير فى الساعد الأبتر الأجذم . =

قال أبو حاتم – رضي الله عنه – : الواجب على العاقل ألا يَعُدَّ فى الأدواء إخاء من لم يُواسه (١) (٢) فى الضَّراء ، ولم يشاركه فى السراء ، ورُبَّ أخى إِخاء خيرٌ من أخى وِلادة، ومن أتَمِّ حِفاظ الأُخُوَّة ، تفقُّد الرجلِ أمورَ من يَوَدُّه .

والودُّ الصحيح : هو الذى لا يميل إلى نفع ، ولا يفسدُه منع ، والمودة أمنٌ ، كما أن البغضاء خوف .

والعاقل لا يُؤَاخى إلا من خالفه على الهوَى ، وأعانه على الدواء (٣) ، ووافق سرُّه علانيتَه ؛ لأن خير الإخوان مَنْ لم يناقش ، كما أن خير الثناء ما كان على أفواه الأخيار، والمُسْتَوْخِمُ (٤) لا يُؤْلف ، كما أن غير الثقة لا يُودُّ ، فمتى ما آخى المرء مَنْ لم يصافه الوفاءَ (٥) ، يجب (٦) الاستظهارُ عليه بمن يُسَلِّيه عنه ؛ لأن التودد ممن لا يُوَدُّ يُعَدُّ مَلَقًا (٧) ، ولا يفوتُ الإنسانَ فِى الأُخُوَّة أحدُ رجلين : إما أريب قَصَّر فى حقوقه ، فاغتاله بمكْر ؛ وإما جاهل لم يُصَافِه ، فيؤذيه بسوء معاشرته ، وصيانة الأخوة ليست إلا فى الاستغناء عن الإخوان .

ولقد أحسن العباسُ بن عُبيد بن يَعِيشَ ؛ حيث يقول : [الكامل]

= وهذا معنى مذكورٌ موفورٌ لدى الحكماء والشعراء ، وهناك منظومة « نغمة الأغَانِى فى الصَّحب والإِخوان » للشيخ أحمد بن مشرف فى الصَّدَاقَة وحدَها ، وقد جاوزت المائتى بيت . ومنها :

من كان ذَا حَمِيم	ينجو من الجحيم
كقـول أهل النار	وعصبة الكفَّـارِ
فمـالنا من شَافعْ	ولا حميم نافــع

ومنها : عن الأصحاب أيضًا :

هــــم الجناح واليدُ	والكهــــف والمعتمدُ
فافدهـــــم بالروح	فى القرب والنـــزوح
واسلك بحيث سلكوا	وابــذل لهم ما تملكُ
فلا يَرُوْك مالكَــــا	من دونهم لمالـــك

(١) يواسه : يقرب منه ويعاونه ، ويشاركه آلامه . (٢) فى ط : يواته .

(٣) فى ط : الرأى .

(٤) المستوخم : الثقيل الذى لا يخلو من ضر ، كالكلأ المستوبل المستوخم ترعاه الماشية ، فتمرض به .

(٥) فى ط : بالوفاء . (٦) فى ط : يحب .

(٧) يريد أن الإنسان إذا ابتلى بمصاحبة غير المخلصين ، فينبغى أن يتقوى عليهم بمصاحبة أهل الوفاء والإخلاص ، ولا يحاول التودد إلى هؤلاء اللئام ، لأنهم ليسوا أهلاً للود ، بل التودد إليهم يكون أشبه بالتملق لهم ، وهو ما يزيدهم شرًا .

كَـــمْ مِنْ أَخٍ لَكَ لَمْ يَلِدْهُ أَبُوكَــا ... وَأَخٍ أَبُــــوهُ أَبُوكَ قَدْ يَجْفُوكَــا
صَافِ الْكِرَامَ إِذَا أَرَدتَّ إِخَاءَهُــــم ... وَاعْلَــمْ بِأَنَّ أَخَا الحِفَاظِ أَخُوكَـــا
كَــمْ إِخْــوَةٍ لَكَ لَمْ يَلِدْكَ أَبُوهُمُ ... وَكَأَنَّمَـــا آبَاؤُهُــــمْ وَلَدُوكَـا
لَوْ كُنْتَ تَحْمِلُهُمْ عَلَى مَكْرُوهَـــةٍ ... تُخْشَى الحُتُوفُ بِهَا [1] لَمَا خَذَلُوكَـا
وأَقَارِبٍ لَوْ أَبْصَـــرُوكَ مُعَلَّقًـــا ... بِنِيَاطِ قَلْبِـــكَ ثُمَّ مَا نَصَـرُوكَا
أَلنَّـاسُ مَا اسْتَغْنَيْتَ كُنْتَ أَخَا لَهُمْ ... وَإِذَا افْتَقَرْتَ إِلَيْهِمُ فَضَحُـوكَا [2]

أخبرنا القطان بالرَّقّة ، حدثنا أحمد بن إسماعيل السُّنى [3] ، حدثنا عبد الرزاق ، عن معمر ، قال : دخلت على قَتَادَة وأنا ظمآن ، وفى الحجرة حِب [4] ماء [5] ، فقلت : أشرب من ماتكم هذا ؟ قال : أنت لنا صديق .

---

(١) فى الأصل : لها .

(٢) هذه الأبيات الحسان فى الثناء على المخلص من الإخوان ، وذكر فضلهم ، وأنهم فوق أخوة النسب ، فربَّ أخ لك لم تلده أمك فيقول :

كم من أخ لك صاحب باذل للفضل والودِّ ، وهو من غير لُحمَتِكَ قد آخاك ، ووالاك ، دون أخيك من النَّسَب ، وما هذا بغريب بل هو الكثيرُ الشَّائعُ .

فينبغى عليك أن تُصافى الكرام ، ولا تُخادِعهُم ، وتخذلهم فمن حَفِظَكَ فى نفسك وأهلك ، فهو حقيق قمينٌ منك بحفظك .

فلربما بلغ إخاءُ أولئك الكرام لك فوقَ ما يبلغه إخوتك من النسب وهم فى ودِّهم لك يقبلون الهلكة فى سبيلك محبةً وإخلاصًا لك ، وكذلك يكون الصديق .

ولا يخفى غلط إسناد الولادة إلى الأب ، وإنما ساقه إلى ذلك الوزن ، وليس ذلك من الضرورات، ولسنا مع المؤلف فى استحسان هذه الأبيات .

ورب أقارب من لُحمَتِكَ وجِلدَتِكَ لَو استغثت بهم لما أغاثوك ، ولو كنت مُمزَّق الفُؤاد لما رَفَعَ احدهم لك رأسًا ولما رأى فى صنيعته بأسًا .

واعلم أن الناس يحبونك ويكرمونك ما استغنيت عنهم ، فإذا ما ابتغيت منهم النفع والبذل تَنَحَّوا عنك وَخَذَلُوكَا .

وفى هذا يقولُ أبو العتاهية :

مَنْ يَسأَلِ النَّاسَ يهن عليهمُ ... بُؤْسًـــا لمن حَاجَتُهُ إليهمُ
من صـــانع النَّاس تكنفوه ... واقتربوا منه وكرمـــــوه
من يســـأل النَّاس يخيبوه ... ويعرضوا عنه ويهجـــروه

(٣) فى الأصل : السبتى . (٤) فى ط : حب .

(٥) حب الماء : الخابية يحمل فيها الماء ، فارسى معرَّب عن خُنب ، بضم الخاء .

قال أحمد : قال عبد الرزاق : يتأوّل القرآن ﴿ أَوْ صَدِيقِكُم ﴾ يقول : لا تستأذن[1][2] .

أنبأنا محمد بن سعيد القزاز ، حدثنا عَلان بن المغيرة البصريُّ [3] ، حدثنا عمرٌو الناقد، حدثنا ابن عيينة ، عن أيوبَ السَّختيانيِّ : أنه قال : يزيدني حرصًا عَلَى الحجِّ لُقى [4] إخوان لى لا ألقاهم بغير الموسم .

قال أبو حاتم - رضى الله عنه - : الواجب عَلَى العاقل أن يعلَم أن الغرض من المؤاخاة ليس الاجتماع والمؤاكلة والمشاربة [لأنَّ البِغالَ وَالحَميرَ تَجْتَمِعُ على المُؤَاكَلَةِ وَالمشارَبَةِ] [5] ، والسُّرّاق يداخلون الرجال عَلَى التقارف [6] ، ولا يزدادون بذلك مَودَّة . ولكنَّ من أسباب المؤاخاة التى يجب عَلَى المرء لزومُها [7] ، مَشْيَ القَصْد [8] وخَفْضَ الصوت ، وقلة الإِعجاب ، ولزوم التواضع ، وترك الخلاف .

ولا يجب للمرء أن يُكْثر عَلَى إخوانه المئونات ، فيُبْرِمَهم [9] ؛ لأن الرضيع [10] إذا كثر مَصُّه ، ربما ضَجِرَتْ أمُّه فتلقيه .

ولا ينبغى لمن قَدَر أن يمنع أخاه شيئًا يحتاج إليه ، ليجبُر به مصيبته ، أو يفرِّج به كُرْبته .

والعاقل لا يؤاخى لئيمًا ؛ لأن اللئيم كالحيَّة الصمَّاء ، لا يوجد عندها إلا اللدغ والسَّم، ولا يَصِلُ اللئيمُ ولا يؤاخى ، إلا عن رَغْبة أو رهبة ، والكريم يَوَدُّ الكريم عَلَى لَقْيَة واحدة [11] ، ولو لم يلتقيا بعدها أبدًا .

[حدثنا البحيرى عمر بن محمد الهمذانى ، ثنا محمد بن سهل بن عسكر ، ثنا

---

(١) يشير إلى الآية (٦١ من سورة النور :ليس على الأعمى حرج . . . أو صديقكم) .

(٢) فى ط : يستأذن .

(٣) فى الأصل : المصرى .

(٤) فى ط : لقاء .

(٥) سقط فى ط .

(٦) أى يخالطون أمثالهم على الإثم والعدوان على الناس ، ولا يزداد بذلك حب بعضهم لبعض ، وفى الأصل : التعارف .

(٧) فى ط : صونها .

(٨) أى أن يمشى المرء مشية معتدلة ، لا خيلاء فيها ولا تعجرف .

(٩) فيبرمهم : يضجرهم ويسئمهم من صحبته .

(١٠) فى ط : المرضع .

(١١) أى يقع فى قلبه حب مصادقته وإن لم يلقه إلا مرة واحدة لكمال خلاله .

سعيد بن كثير بن عفير ، ثنا الفضل بن المختار ، عن أبى حمزة ، عن ابن عباسٍ قال : إنَّ من أفضلِ الحسناتِ تكرمةَ الجُلَساء] .(١)

ولقد أخبرنا محمد بن المنذر ، حدثنا إسحاق بن إبراهيم بن يونس ، حدثنا إسماعيل ابن محمود ، عن ابن المبارك ، عن سفيان ، عن يونس بن عُبيد : أنه أصيب بمصيبة ، فقيل له : ابنُ عوف (٢) لم يأتك ، فقال : إنا إذا وثقنا بمودة أخينا ، لم يَضُرَّه ألا يأتينا.

قال أبو حاتم - رضى الله عنه - : العاقل يتفقد ترك الجفاء (٣) (٤) مع الإخوان ، ويراعى محوَها إن بدت منه ، ولا يجب أن يستصغر (٥) الجفوة اليسيرة ، لأن من استصغر الصغير يوشِك أن يجمع إليه صغيراً ، فإذا الصغير كبير ، بل يبلغ مجهودَه فى مَحْوِها ؛ لأنه لا خير فى الصدق (٦) إلا مع الوفاء ، كما لا خير فى الفقه إلا مع الوَرَع ، وإن من أخْرَقِ الخُرْقِ ، التماسَ المرء الإخوان بغير وفاء ، وطلب الأجر بالرياء ، ولا شيء أضيع من مودة تُمنحُ مَنْ لا وفاء له ، وصنيعة تصطنع عند مَنْ لا يشكرها .

وأنشدنى الخَلادى ، قال : أنشدنى محمد بن محمد البكرىُّ : [الكامل]

احْـــذَرْ مَودَّةَ مَاذقٍ(٧) خَـــلَطَ المَرَارَةَ بِالحَـــلاوهْ
يُحْصِى الذُّنُوبَ عَلَيْكَ أيْـ ـامَ الصَّدَاقَةِ لِلْعَـــدَاوهْ (٨)

---

(١) حدثنا البحيرى عمرو بن محمد الهمذانى ثنا محمد بن سيد بن عسكر ، ثنا سعيد بن كثير ، ثنا الفصل بن المختار ، عن أبى حمزة ، عن ابن عباس ، قال : إن من أفضل الحسنات تكرمة الجلساء.

(٢) فى الأصل : عون .

(٣) فى الأصل : الجفاء ، ولكنه أعاد عليه الضمير مؤنثًا فى قوله : « ويراعى محوها » .

(٤) فى ط : الجفوة . (٥) فى ط : يستضعف . (٦) فى الأصل : الصديق .

(٧) المذاق : خلط الشيء بغيره ، والماذق هنا : من لم يصف لك وداده وقد بينه فى البيت الثانى.

(٨) هذان البيتان يحذِّران من صحبة اللَّئيم الأنانيِّ ، فيقول :

ينبغى على العَاقل أن يحذر مَودَّةَ السَّفَلَةَ من الصحب أولى الغاية التى إن انقضت تولَّى عنك وأدبَرَ، وقد يحشو لك العَسَلَ سُما .

فحالته الخديعة والمكر ويحفظ لك زلاتك ، وسقطاتك ليبارزك بهما حال انقلابك عليه ، فمثل هذا ينبغى أن يندحر ، وأن تبتَّ حباله وأن تزمع فِصَالَه . . .

وفى مثله يقول صالح بن عبد القدوس : =

وأنشدنى محمد بن إبراهيم البصرىُّ بصُوْر ، لنفسه : [الرمل]

لا يغُـــرَّنْكَ صَــدِيقٌ أَبَدًا ... لَـكَ فِى المَنْظَرِ ، حَتَّى تَخْبُرَهْ
كَـمْ صَدِيقٍ كُنْتُ مِنْهُ فِى عَمًى ... غَـرَّنِى مِنْهُ زَمَانًا مَنْظَـــرُهْ
كَـانَ يَلْقَانِى بِوَجْهٍ طَلِــقٍ ... وَكَــلامٍ كَاللآلِى يَنْثُــرُهْ
فَـإِذَا فَتَّشْتُهُ عَنْ غَيْبِــهِ ... لَمْ أَجِدْ (١) ذَاكَ لِوُدٍّ (٢) يُضْمِرُهْ
فَـدَعِ الإِخْوَانَ إِلا كُلَّ مَنْ ... يُضْمِـرُ الوُدَّ كَمَا قَدْ يُظْهِـرُهْ
فَإِذَا فُزْتَ بِمَنْ يَجْمَـعُ ذَا ... فَاجْعَلَنْهُ لَكَ ذُخْرًا تَذْخُـرُهْ(٣)

أنبأنا القطان بالرَّقة ، حدثنا هشام بن عمار ، حدثنا إبراهيم بن موسى المكىُّ ، عن

=
لا خير فى ودّ امرئ متمـلق ... حلو اللِّسان وقلبه يتلهـب
يلقــاك يَحْلِفُ أنَّهُ بك واثقٌ ... ويروغ منك كَمَا يَرُوغُ الثَّعْلَبُ
واختر قرينك واصطفه تفاخرًا ... إنَّ القرين إلى المقارن ينسبُ

وقال :

واحـــذر مصاحبـة اللئيم فإنَّهُ ... يُعدى كما يعدى الصَّحِيحَ الأَجْرَبُ

(١) فى الأصل : تجد . (٢) فى الأصل : بود

(٣) هذه الأبيات فى التحذير من ذوى اللُّوءم من الأصدقاء ، فيقول :

لا يغرنك مَظْهرٌ عن مَخْبَرٍ ، فإنَّما النَّاسُ ببواطنهم ، وهذا هو أساسهم ، فلا تغترَّ بصداقته حتَّى تخبر صاحبها ، وتبلوه .

فكم من صديق ظاهره شهد وباطنه سمٌّ زعاف .

وقد يلقاك بوجهٍ طلق ولسانٍ ذَلْف ، وكلام كنظم اللآلى .

وهو فى حقيقته وسريرته لا يملك لى مزقة ودّ ، بل هو خواء ومنها خلاء .

لذا فينبغى على العاقل ألا يصاحب إلا من كان ظاهره كباطنه ومخبره كمظهره .

فإذا ما ظفرت بصاحب هذه صفته فاشدد يديك له وعض عليه بنواجذك .

وفى هذا المعنى أشعار كثيرة منها :

إن الرجال إذا اختبرت طباعهم ... ألفيتهم شتى على الأخبـار
لا تعجلن إلى شريعــة مورد ... حـتى تبين صفحة الإصـدار

وقال آخر :

اتــرك مكاشفة الصديق إذا ... غطـــى على هفواته ستر
وتجـــاف عنه بلا مصارمة ... فلنعم صائن عرضك الصبر

وقال آخر :

لا تحمدن امرءًا حتى تجربه ... ولا تذمنه من غير تجريب

يحيى بن سعيد الأنصاريّ ، عن سعيد بن المسيب ، قال : وضع عمر بن الخطاب رضى الله عنه - للناس ثمانى عشرة كلمة ، كلُّها حِكَم ، قال :

ما كافأتَ من يَعصِى الله فيك بمثل أن تطيعَ الله فيه . وضَع أمرَ أخيك على أحسنه ، حتى يأتيَك منه ما يغلبُك (١) ، ولا تَظُنَّنَّ بكلمة خرجت من مسلم شرا ، وأنت تجد لها فى الخير مَحْملاً ، ومن تَعَرَّض للتُّهْمَة فلا يلومنَّ من أساء به الظن . ومن كتم سِرَّه كانت الخِيرَةُ (٢) فى يديه . وعليك بإخوان الصدْق ، تَعِش (٣) فى أكنافهم (٤) ، فإنهم زينة فى الرخاء ، وعُدَّة فى البلاء ، وعليك بالصدق وإن قَتَلَكَ الصدق ، ولا تعرَّض (٥) لما لا يعنيك ، ولا تسأل عما لم يكن ، فإن فيما كان شُغْلاً عما لم يكن ، ولا تطلبنَ حاجتك إلى من لا يحبُّ لك نجاحها ، ولا تصحبنَّ الفاجر فَتَعَلَّمَ فجورَه ، واعتزل عدُوَّك ، واحذر صديقَك إلا الأمين ، ولا أمين إلا من خَشِىَ الله ، وتخشَّعْ عند القبور(٦)، وذِلَّ عند الطاعة ، واعتصم عند المعصية ، واستَشِرْ فى أمورك الذين يَخْشَوْنَ اللهَ ؛ فإنَّ الله تعالى يقول : ﴿ إنَّمَا يَخْشَى اللهَ من عبادِهِ العُلَمَاءُ ﴾ (٧) [فاطر : ٢٨] .

قال أبو حاتم : العاقلُ لا يُؤاخِى إلا ذَا فَضْلٍ فى الرأى والدين والعلم والأخلاق الحسنة ، ذا عقْلٍ نَشَأَ مع الصالحين ؛ لأنَّ صحبةَ بليدٍ نَشَأَ مع العُقَلاءِ خيرٌ من صُحبةِ لبيبٍ نَشَأَ مع الجُهَّالِ .

ورأسُ المودةِ الاسترسال ، وآفتُها الملالةُ .

ومَن أضاع تعاهُدَ الوُدِّ من إخوانه حُرِمَ ثَمَرَةَ إخائهم ، وأبأسَ الإخوانَ من نفسه . ومَن ترك الإخوانَ مخافَةَ تَعاهُدِ الوُدِّ يوشكُ أنْ يَبْقَى بلا أخٍ ، كما أنَّ مَن تركَ نَزْعَ الماءِ إشفاقًا على رِشائهِ (٨) يوشك أن يموت عَطَشًا .

---

(١) ما يغلبك : أى يحملك على أن تغير اعتقادك الحسن فيه .

(٢) الخيرة : بوزن عنبة : الاختيار ، أى من لم يفش سره للناس ملك أمر نفسه ، وكان مختاراً فيه ، أما إذا أفشاه وعلمه الناس فإنه لا يكون حراً فيما يأتى أو يذر منه .

(٣) فى ط : فعش .

(٤) أى فعش معهم ، والأكناف : جمع كنف ، وهو الجانب .

(٥) أصله تتعرض ، حذفت إحدى التاءين ، أى : لا تدخل نفسك فى شىء ليس لك .

(٦) فى ط : القول .

(٧) هذه الحكم ، سبع عشرة لا ثمانى عشرة .

(٨) الرشاء : حبل الدلو .

والعاقل يستخبر أمورَ إخوانه ، قبل أن يُواخِيهَم ، ومن أصحِّ الخِبْرة للمرء وجودُ حالته بعد هَيَجان الغضب (١) .

أنبأنا عمرو بن محمد الأنصاريُّ ، حدثنا الغَلابيُّ ، حدثنا عبد الله بن الضحاك الهداديُّ . حدثنا هشام بن محمد ، عن عَوَانة بن الحكَم ، قال : قال لُقمان لابنه : « يا بُنَيَّ إذا أردت أن تُوَاخيَ رجلاً فاغضِبهُ قبل ذلك ، فإن أنصفك عند غضبه ، وإلا فدعه» .

أنبأنا محمد بن صالح الطبريُّ ، حدثنا أبو هشام الرفاعيُّ ، حدثنا داود بن يحيي بن اليمان ، عن أبيه ، عن سفيَّان ، قال : اصحَبْ من شئتَ ، ثم أغضبه، ثم دُسَّ إليه مَنْ يسأله عنك .

قال أبو حاتم - رضى الله عنه - : من لم يُنصِفْك عند غضبه، لم يوَدَّكْ (٢) أيامه(٣)، وليس الصديق كالمرأة يُطلقها المرءُ إذا شاء ، والجاريةِ يبيعها متى أحبَّ ، لكنه عِرْضه ومُروءته ، فالتثبت والاتئاد أوْلى من التهاجُر والانقطاع ، ومن غاب عنه أخوه ، فلا يغب عما يجب له عليه ، وليُكثر منهم عُدَّةً للشدائد ؛ لأن الشَّعَرَ مع دِقته إذا جُمع عُمِل منه الحبل الغليظ الذى يقهر الفيل المغتلِم (٤) ، ولا يصلُح أن يكون رفيقًا ، من لم يزدرد ريقًا (٥) .

وأنشدنى الخَلادىُّ قال : أنشدنى محمد بن محمد البكرىُّ (٦) ، لصالح بن عبد القدوس:

[الطويل]

إذَا كَـانَ وُدُّ المَـرْءِ لَيْسَ بِزَائِـدٍ ... عَلَى « مَرْحَبًا » و« كَيْفَ أَنْتَ وَحَالُكَا ؟ »
أَوِ القَوْلِ « إنِّى وَامِقٌ لَكَ ، حَافظٌ » ... وَأَفْعَـالُهُ تُـبْدِى لَنَا غَـيْرَ ذَلِكَـا
وَلَـمْ يَـكُ إلا كَاشِـرًا أَوْ مُحَـدِّثًا ... فَـأُفٍّ لِـوُدٍّ لَـيْسَ إلا كَـ ذَلِكَا

---

(١) أى إن عقل الصديق وأدبه ينكشف لك إذا أغضبته . (٢) فى ط : تودك .

(٣) يريد : لم ترد فى أيامه المستقبلة منه ودًا محضًا ، وإنما يكون مشوبًا وده بضغينة أو حقد عليك، قل أو كثر .

(٤) المغتلم : الهائج .

(٥) حكى هذه العبارة الأخيرة أبو حيان التوحيدى فى كتابه « الصداقة والصديق » ص (١٧) عن سيدنا عثمان بن عفان ، قال : قال عثمان بن عفان : « ما ملك رفيقًا ما لم يتجرع بغيظٍ ريقًا » يريد من لم يتغاض أحيانًا عن عيوب أصدقائه ، عاش بلا صديق .

(٦) محمد بن محمد النكرى .

وَلَكِنْ إِخَـــاءُ المَرْءِ مَـــنْ كَـانَ دَائِـمًا لِذِى الوُدِّ مِنْهُ حَيْثُمَا كَانَ سَـالِكَا (١)

أخبرنا أبو يعلى ، حدثنا علىُّ بن الجعْد ، حدثنا سفيان الثورىُّ عن شُعبة ، قال : خرج عبد الله بن مسعود على أصحابه ، فقال : أنتم جِلاءُ حُزنى .

أخبرنى محمد بن سعيد القَزاز ،حدثنا هلال بن العلاء ، حدثنا إسحاق بن الضَّيِّف ، عن [شيبة بن] (٢) أبى مُسْهِر ، عن الحكم بن هشام ، قال خالد بن صفوان (٣) : لم يبق من لذات الدنيا إلا ثلاث : مجالسة النِّسوان ، وشمُّ الوِلدان (٤) ، ولُقِىُّ الإخوان .

حدثنا محمد بن المنذر ، حدثنا مَسْعَدة بن حازم (٥) المصرىُّ ، حدثنا خالى هارون بن سعيد ، حدثنا خالد بن نزار ، حدثنا سفيان ، عن موسى بن عُقبة ، قال : إن كنتُ لألْقَى الأخَ من إخوانى ، فأكون بلُقيِّه عاقلاً (٦) أياما .

قال أبو حاتم [رضى الله عنه] (٧) : قد ذكرت ما يشاكل هذه الحكايات فى كتاب «مراعاة العِشْرَة » ، فأغنى ذلك عن تكرارها فى هذا الكتاب .

---

(١) هذه الأبيات فى ذكر حقيقة الصديق والتمييز بين من يستحق الصحبة ، ومن ليس لها بأهل فيقول:

إذا ما تملقك صديق ولم تنل منه إلا حلاوة لفظ ، وقولة مرحبًا ، وكيف أنت . .
أو قوله : أنى لك محب ، وحافظ لودك ، ولكن فعاله تغاير مقاله .
وقد يكشر لك ويتغصص عليك ، فمثل هذا يقال له : أفٌ وتفٌ وجوربٍ وخف ، فإن قلت : وما جورب وخف ؟ قلت : هما واديان فى جهنَّم !
ولا خير فى وده ولا فى صفائه ، فبتَّ حباله وفضَّ آجاله ودعه وحاله . .
وإنما يؤاخى من كان صافى الود فمثله حقيق بكل خير ، ويرحم الله الشافعى لما نظم هذا المعنى أحسن نظم فقال :

إذا المـــــرء لا يرعاك إلا تكلفًـــا فدعـــــه ولا تكثر عليه التأسفــــا
ففـــى الناس أبدال وفى الترك راحة وفى القلب صبر للحبيب ولو جفــا
فمـــــن كل من تهواه يهواك قلبه ولا كل من صافيته لك قد صفـــا
إذا لم يكن صفـــــو الوداد طبيعة فلا خير فى ودٍّ يجـــــىء تكلفًا
ولا خير فى خل يخـــون خليله ويلقـــاه من بعد المودة بالجفـــا
وينكـــــر عيشًا قد تقادم عهـــده ويظهر سرًا كان بالأمس قد خفـــا
ســلام على الدنيا إذا لم يكن بها صديق صدوق صادق الوعد منصفًا

[ديوان الشافعى ص ٧٧ ، من ١ ، ٢ ، ٣] .

(٢) سقط فى الأصل .
(٣) فى الأصل : صفوان بن الأهتم .
(٤) حب الأطفال الصغار .
(٥) فى الأصل : خازم .
(٦) عاقلاً ، أى : لا أتركه ، ولا أبرح من مجلسه ، سرورًا به .
(٧) سقط فى الأصل .

فالواجب على العاقل أن يعلمَ أنه ليس من السرور شىء يَعْدِل صحبة الإِخوان ، ولا غَم يعدِل غَمَّ فقدهم ، ثم يَتوقَّى جهدَهُ مُفاسدَةَ (١) مَنْ صافاه ، ولا يسترسل إِليه فيما يَشينه.

وخيرُ الإِخوان مَنْ إذا عَظَّمتْه صانك ، ولا يعيب أخاه عَلَى الزلة ؛ فإنه شريكه فى الطبيعة ، بل يصفح ، ويتنكَّبُ محاسدة الإخوان ؛ لأن الحسد للصديق مِن سقَم المودة ، كما أن الجود (٢) بالمودة أعظم البذل ، لأنه لا يظهر ود مستقيم (٣) من قلب سقيم ، وليحذر المرءُ فى إِخائه ألَمَ التثقيل عَلَى أخيه ؛ لأن من ثَقَّل عَلَى صديقه ، خَفَّ على عدوه ، وإن من أعظم المعونة عَلَى تسلية الهمِّ ، الرضا بالقضاء ، ولُقىِّ الإِخوان .

أنبأنا محمد بن هلال (٤) العُقْبىُّ ، حدثنى يونس بن إبراهيم الغَزِّى (٥) ، حدثنا إبراهيم بن عبد الله العَدَنىُّ ، عن سفيان ، أنه (٦) قيل له : ما ماء العيش ؟ (٧) قال : لِقاء الإخوان .

حدثنا القطان ، حدثنا أحمد بن أبى الحَوَارىّ ، حدثنا المسيب بن واضح ، عن ابن المبارك ، قال : قال سفيان : لربما لقيتُ الأخ من إخوانى ، فأقيم شهرًا عاقلاً (٨) بلقائه .

وأنشدنى عبد العزيز بن سليمان الأبرش : [البسيط]

اسْـتكْثِرَنَّ مِنَ الإِخْـوَانِ إِنَّهُمُ ... خَـيْرٌ لِكَانِزِهِم كَنْزًا مِنَ الذَّهَـبِ

كَـمْ مِنْ أَخٍ لَكَ لَوْ نَابَتْـكَ نَائِـبَةٌ ... وَجَدْتَهُ لَكَ خَيْرًا مِنْ أَخِى النَّسبِ (٩)

وأنشدنى الكُرَيْزِىُّ : [البسيط]

مِـنْ خَـيْرِ مَا حُـزْتَهُ وُدٌّ لِذِى كَرَمٍ ... يَجْزِيكَ مَا عِشْتَ بِالإِحْسَانِ إِحْسَانَا

---

(١) لا يتابعه فى الأخذ فيما يعيبه . (٢) فى الأصل : فالجود . (٣) فى الأصل : مستقيم .
(٤) فى الأصل : عثمان . (٥) فى الأصل العدنى . (٦) فى الأصل : قال .
(٧) فى الأصل : ما للعيش .
(٨) عاقلاً : لا أبرح مجلسه أو مكانه سروراً به ، وقد تقدم مثل هذا القول : عن سفيان الثورى عن موسى بن عقبة .
(٩) هذان البيتان فى الثناء على التكثر من الأصحاب فيقول :
ينبغى على العاقل أن يستكثر من إخوانه ، فمعرفة الصحب كنوز الذهب ، فكم بهم تدفع النوائب، وتسهل المصاعبُ ، وكم من أخٍ لى من غير نسب دفع عنى الوصب والنصب .

تَلْقَى بَشَاشَتَهُ فِى قُرْبِهِ ، وَإِذَا أَنَالَكَ نِلْتَ لَدَيْهِ الْبِرَّ مَا كَانَا [1] ، [2]

أنبأنا القطان ، حدثنا أحمد بن أبى الحَوَارِىُّ ، قال : سمعت أبا سليمان يقول : كنت أنظر إلى أخٍ من إخوانى بالعراق ، فأعملُ على رؤيته شهراً .

حدثنا الحسن بن سفيان ، حدثنا سويد بن سعيد ، حدثنا مسلم بن عبيد أبو فِراسٍ قال : قال ربيعة : « المروءة مُروءتان : فللسفَر مروءة ، وللحضَر مروءة . فأما مروءة السفر ، فبذل الزاد ، وقلةُ الخِلاف على أصحابك ، وكثرة المُزاح فى غير مَساخط الله . وأما مروءة الحَضر : فالإِدمان إلى المساجد ، وكثرة الإخوان فى الله ، وتلاوة القرآن .

* * *

(١) فى ط : أنال نالك منه البر ما كانا .

(٢) وفى هذين البيتين يمتدح الشاعر امتناح الوداد من الصحب ، فيقول :

من الذخائر المحوزة والكنوز السائغة أن تنال ودَّ الكرام وتظفر به ، وأن يحسنو لك كما تحسن إليهم.

ونفعه ينالك فى كل حين ففى قربه تظفر منه بالبشاشة وطلاقة الوجه ، وعندما ينيلك شيئاً ، فلن تنال إلا البر والخير على كل حال .

ذِكْرُ كَرَاهِيَةِ المُعَادَاةِ لِلنَّاسِ

أنبأنا محمد بن عبد الله بن عبد السلام ببيروت ، حدثنا محمد بن محمد بن مُصْعب، وحدثنى [1] ابن المبارك ، عن عمرو بن واقد ، عن إسماعيل بن عُبيد الله ، عن أم الدَّرْداء ، عن أبى الدَّرْداء ، عن النبىِّ ﷺ ، قال : « [إنَّ] [2] أَوَّلُ شَىْءٍ نَهَانِى عَنْهُ رَبِّى ، بَعْدَ عِبَادَةِ الأَوْثَانِ ، الخَمْرُ [3] ، ومُلاحَاةُ الرِّجَالِ » [4] .

قال أبو حاتم - رضى الله عنه - : الواجب على العاقل أن يعلم أن من يَوَدُّه لم يحسُدْه، ومن لم يَحسُدْه لم يعاده ؛ فيكون للعدوِّ المكاتم ، أَشَدَّ حَذَرًا منه للعدوِّ المبارز[5] . ومن وَجَدَ عنده مُغْتَرًا [6] وكان ممن لا يعفُو ، ثم لم يَتَّصِفْ [7] منه : أصابته الندامة

---

(١) فى الأصل : وحْشِى ، ثنا . (٢) سقط فى ط . (٣) فى ط : لعن لحمير .

(٤) قال الهيثمى فى « المجمع » : (٥/٢٦) ، وعن أبى الدرداء ، أو معاذ بن جبل ، عن النبى ﷺ قال : إن أول شيء نهانى عنه ربى بعد عبادة الأوثان شرب الخمر وملاحاة الرجال .

وقال الهيثمى : رواه البزار والطبرانى ، وفيه عمرو بن واقد وهو متروك ، رمى بالكذب .

وقال محمد بن المبارك الصورى : كان صدوقًا ، ورد قوله : والجمهور ضعفوه .

وذكره السيوطى فى « الجامع الصغير » ، وعزاه للطبرانى عن أبى الدرداء ، وعن معاذ ، ورمز له بعلامة التضعيف . وذكره الهندى (١٣١٦١) ، وعزاه للطبرانى عن أبى الدرداء ، وعن معاذ .

وحديث معاذ أخرجه الطبرانى : (٢٠/ ٨٣) برقم (١٥٧) ، وأبو نعيم فى « الحلية » : (٩/ ٣٠٣)، والبزار (٢٩٢١) ، وفيه عمرو بن واقد .

وفى الباب عن أم سلمة ، رواه الطبرانى فى الكبير : (٢٣/ ٥٠) برقم (٥٠٥) من طريق يحيى بن المتوكل ، ثنا إسماعيل بن رافع ، عن ابن أبى سلمة عن أم سلمة ، رفعته : « إن كان أول ما عهد إلىَّ فيه ربى ونهانى عنه بعد عبادة الأوثان وشرب الخمر وملاحاة الرجال » .

وأخرجه برقم (٥٥٢) عن يحيى بن المتوكل عن إسماعيل بن مسلم ، عن الزهرى ، عن أبى سلمة، عن أم سلمة . . . .

وقال الهيثمى فى « المجمع » : (٥/ ٥٦) ، (٨/ ٣٠) : فيه يحيى بن المتوكل ، وهو ضعيف عند الجمهور ونقل عن ابن معين توثيقَه فى رواية ، وقال فى الأخرى : ليس بشىء .

(٥) المبارز : المجاهر بعداوته . (٦) اغترارًا وعدم مبالاة بصديقه .

(٧) فى ط : لا ينتصف .

والرأى إذا كان من الأريب كان أبلغ فى هلاك العدوّ من عدد (١) الكثير من الجنود ، وترك العداوة على الأحوال كلها ، أحوط للعاقل من الخوض فى سلوكها .

أنبأنا الحسن بن سُفيان ، حدثنا حِبَّان بن موسى ، أخبرنا عبد الله بن هارون ، هو(٢) الأعور ، عن إسماعيل ، قال : « لا تَشترِيَنَّ عداوةَ رجلٍ ، بمودَّة ألف رجل » .

وأنشدنى عمرو بن محمد ، قال : أنشدنى (٣) الغَلابى ، قال : أنشدنى مَهدىُّ بن سابق : [الطويل]

تَكَثَّرْ مِنَ الإِخْوَانِ مَا اسْطَعْتَ ؛ إِنَّهُمْ ... عِمَادٌ إِذَا اسْتَنْجَدْتَهُمْ وَظُهُورُ (٤)

وَلَيْسَ كَثِيراً أَلْفُ خِلٍّ لِصَاحِبٍ ... وَإِنَّ عَدُوا وَاحِـــداً لَكَـثِيرُ (٥)

قال أبو حاتم [رضى الله عنه] (٦) : لا يجب على العاقل أن يُكافِىءَ الشرَّ (٧) بمثله ، وأن يتخذ اللعن والشتْم على عدوه سِلاحًا ، إذ لا يُستعان على العدو بمثل إصلاح العيوب ، وتحصين العَورات (٨) ، حتى لا يجدَ العدو إليه سبيلاً .

والعاقل لا يرحمُ مَنْ يخافُه ، ولا يترك إحصاء معائب العدو ، ويتفقد عَثَراتِهم (٩) ، مع السكوت عن ثلْبه (١٠) ، ولا يستضعف عدوا بحيلة (١١) ، فإن من استضعف الأعداء اغتر ، ومن اغترَّ لم يسلَم ، اللَّهم إلا أن يكون العدو ذليلاً ، فإذا كان كذلك عطف عليه بالإغضاء ؛ لأن العدو الذليل أهلٌ أن يُرحَمَ ، كما أن المستجير (١٢) الخائف أهلٌ أن يُؤَمَّنَ ، والمعاداة للعاقل خير من المصافاة للجاهل .

---

(١) فى ط : العدد . (٢) فى الأصل :ابن (٣) فى ط : حدثنا .

(٤) ظهور : جمع ظهر ، أى : يستظهر بهم على عوادى الزمان تأتيه من إخوان السوء أو من غيرهم .

(٥) سقط فى الأصل . (٦) هذان البيتان فى الثناء على الصُّحْبَة :

أكثر من الإخوان فإنَّهم لك عون ونجدة ، وهم لك ظهرٌ

والعاقل لا يستكثر آلاف الأصدقاء ؛ لأنهم ذخر وفخرٌ له ؛ لأن العدو الواحد قد يشغَبُ ويُلَغِّبُ ، ويصنع ما لا يصنعه الكثير . . . [وفى هذا كلام رائع لابن الجوزى ، فراجع الصيد] .

(٧) فى الأصل : البشر . (٨) فى الأصل : العواقب .

(٩) فى الأصل : يعقد عثراته . (١٠) الثلب : الذم والعيب .

(١١) عدوًا بحيلة ، أى : معه حيلة .

(١٢) المستجير : اللاجىء إليك المعتصم بك من خوف .

وأنشدنى الخَلادىُّ ، قال : أنشدنى أحمد بن محمد البَكْرىُّ : [الكامل]

وَلَمَنْ يُعَادِى عَاقِـــــلاً خَيْرٌ لَهُ ... مِنْ أَنْ يَكُـــونَ لَهُ صَدِيقٌ أَحْمَــقُ

فَـــارْغَبْ بِنَفْسِكَ أَنْ تُصَادِقَ أَحْمَقًا ... إِنَّ الصَّدِيقَ عَلَى الصَّدِيقِ مُصَدِّقُ (١) ، (٢)

وأنشدنى محمد بن عبد الله بن زنجىٌّ البغدادىُّ : [البسيط]

أَخْلِقْ بِذِى الصَّبْرِ أَنْ يَحْظَى بِحَاجَتِهِ ... وَمُدْمِنِ القَرْعِ لِلأَبْوَابِ أَنْ يَلِجَـــا

أَبْصِـرْ لِرِجْلِكَ قَبْلَ الخَطْوِ مَوْضِعَهَا ... فَمَنْ عَلَا قُلَّةً عَنْ غِرَّةٍ (٣) زَلَجَا (٤) ، (٥)

قال أبو حاتم - رضى الله عنه - : العاقل يبصر مواضع خطواته قبل أن يضعها ، ثم يقارب عدوَّه بعض المقاربة ، لينال حاجته ، ولا يقاربه كل المقاربة ، فيَجترأ عليه ،

---

(١) مصدق بكسر الدال ، أى : محقق لما يظنه الناس فى صديقه من خير أو شر لأنه على شاكلته.

(٢) هذان البيتان فى الحض على صحبة العاقل من الناس وترك الأحمق الأصفق فيقول :

لمعادتك العاقل أفخر وأزخر ، وأثمن لك من صحبة الغفل الأَحْمَق لأَنَّ العدوّ العاقل قد ينبهك على ذلك فتتجنبه ، فلا تنفك عن فائدة منه رغم عداوتك له . . !

وينبغى إذن على العاقل أن يربأ ويترقى عن صحبة الأَحَامِقِ لأن الصديقَ دَلِيلٌ على صديقه وبرهان عليه . . .

وقال الشيخ أحمد بن مشرف فى منظومته :

لا تصحبن الأحمق ... المائـــق الشمعمقَ

عـــدو سوء عاقل ... ولا صديق جاهـل

وصحبـــة الأحامق ... من أعظم البـوائق

(٣) فى الأصل : عزِّه

(٤) القلة : رأس الجبل ، والغرة ، الغفلة وقلة الاحتياط ، وزلجت رجله تزلج من باب ضرب : زلقت .

(٥) هذان البيتان من روائع ما قيل فى الصبر ، والحذر وإن لهما لحلاوة وإن عليهما لطلاوة . . فيقول :

ما أجدر وأحرى المجاهد الصابر المثابر أن ينال مراده وحاجته وكذلك من أدمن قرع باب قَمِينٌ به أن يَلجَهُ .

ويرحم الله الحسن البصرىَّ لما قال : « مَنْ أدْمَنَ قَرْعَ البَابِ فُتِحَ لَهُ . . . » ، وكلامه فى كتاب «الزهد والرقائق » لابن المبارك ، وإنه لجدير بالقراءَة . . . !

ثم يقول هنا منبهًا على أخذ الحيطة والحذر فى الأُمُور ينبغى على العاقل أن يتبصر حيث يرد ويصدر، وأن يقدر لكل فكرة يهمُّ بها عاقبتها ، فإنْ كانت حُسْنَى فليمضِ عَزْمَهُ بفعالٍ ، وإلا زَلَجَ وانزلق وانحدر إلى الهاوية ، وحينها لا يشفع له أنه غر غُفَلٌ .

والعاقل لا يعادى ما وجد إلى المحبة سبيلاً ، ولا يعادى مَنْ ليس له منه بُد [١] ؛ لأن[٢] العدوَّ الحَنِق الذى لا يُطاق ، - فإنه - ليس له حيلة إلا الهرب منه ، وحيلةُ السبيل إلى القدرة على العدوِّ وجود الغِرَّة فيه ، وأن يُرِىَ العدوَّ أنه لا يتخذه عدوا ، ثم يصادقَ أصدقاءه ، فيدخلَ بينه وبينهم .

وأحزم الأمور فى أمر العدوِّ : أن لا يذكره بسوء إلا عند الفرصة ، وإن من أيسر الظفر بالأعداء اشتغالَ بعضهم ببعض ، وإن مما يستعين به المرءُ على عدوِّه : مجانبةَ من يعاشرُه ويَصحبُ عدوَّه .

أخبرنى محمد بن سعيد القزاز ، حدثنى أحمد بن زهير بن حرب ، قال : سمعت يحيى بن مَعين يقول : قال ابن السمَّاك : لا تخَفْ ممن تحذَر ، ولكن احذَر ممن تأمن .

وأنشدنى علىُّ بن محمد البَسَّامىُّ : [الطويل]

تَمَنَّيْتُ أَنْ أبقَى مُعَافَى ، وَأَنْ أَرَى ... عَلَى مَنْ يُنَاوِينِى تَدُورُ الدَّوَائِرُ [٣]

فَيُصْبِحَ مَخْذُولاً ، وأُمْسِيَ سَالِمًا ... إِلَى اللهِ دَاعٍ بِالْكِفَايَةِ نَاصِـرُ [٤]

سمعت محمد بن محمود يقول : سمعت علىَّ بن خَشْرم يقول : سمعت الفضل بن موسى الشَّيْبانىَّ [٥] يقول : كان صيَّاد يصطاد العصافير فى يوم ريح ، قال : فجعلت الرياح تُدخلُ فى عينيه الغُبار ، فتذرِفان ، فكلما صاد عُصْفُوراً كسر جناحه ، وألقاه فى ناموسه [٦] ، فقال عصفور لصاحبه : ما أرقَّه علينا ! ألا ترى إلى دموع عينيه ؟ فقال له الآخر : لا تنظر إلى دموع عينيه ، ولكن انظر إلى عمل يديه !

قال أبو حاتم - رضى الله عنه - : العاقل لا يأمن عدوه على كل حال ، إن كان بعيدًا لم يأمن مُغادَرَتَهُ [٧] ، وإن كان قريبًا لم يأمن مُواثبته [٨] . والعاقل لا يخاطر بنفسه فى الانتقام من عدوه ، فإنه [٩] إن هلك فى قصده ، قيل : أضاع نفسه ، وإن ظفر قيل: القضاءُ فعلَه .

---

(١) فى الأصل : به يدان   (٢) فى ط : ولا .

(٣) يناوينى : أصله يناوئنى بالهمز ، من المناوأة ، وهى المخاصمة والمساداة .

(٤) هذان البيتان يعبران عن رغبة ملحَّة طالما تُسَاوِرُ الشَّاعِرَ ، فيقول : إنى لأتمنى المعافاة ، ودوام السَّلامَة ، ومن ابتغى لى المهالك فهو الهالك دونى ، ولصفاء نيتى وخلوص طَويتى فإنه سيطوق بما أراد أن يكيدنى به . . .

(٥) فى الأصل : السينانى .

(٦) ناموسه : قترته ، بضم القاف ، وهى بيته الذى يختبىء فيه حتى لا يراه الصيد .

(٧) المغادرة : الإلقاء فى الغدر ، أى لم يأمن أن يغدر به بحيلة ، وهو بعيد عنه .

(٨) مواثبته : أن يهجم عليه .   (٩) فى ط : لأنه .

فالمعاداة (١) بعد الخُلَّة فاحشة عظيمة ، لا يليق بالعاقل ارتكابها ، فإن دفعه الوقتُ إلى ركوبها ترك للصلح موضِعًا .

وأنشدني أبو الدرداء الكاتب (٢) لأبي الأسود الدُّؤَلِيِّ (٣) : [الطويل]

وأَحْبِبْ إذَا أَحْبَبْتَ حُبًا مُقَارِبًا ... فَإِنَّكَ لا تَدْرِى ، مَتَى أَنْتَ نَازِعُ ؟
وأَبْغِضْ إذَا أَبْغَضْتَ غَيْرَ مُجَانِبِ ... فَإِنَّكَ لا تَدْرِى ، مَتَى أَنْتَ رَاجِعُ ؟
وكُنْ مَعْدِنًا لِلْحِلْمِ ، وَاصْفَحْ عَنِ الأَذَى ... فَإِنَّكَ رَاءٍ مَا عَمِلْتَ وَسَامِعُ (٤)

وأنشدني منصور بن محمد الكُرَيزِيُّ : [الطويل]

إِذَا أَنْتَ عَادَيْتَ امْرأً بَعْدَ خُلَّةٍ ... فَدَعْ فِي غَدٍ لِلْعَوْدِ والصُّلْحِ مَوْضِعَا
فَإِنَّكَ إِنْ نَابَذْتَ مَنْ زَلَّ زَلَّةً ... ظَلِلْتَ وَحِيدًا لَمْ تَجِدْ لَكَ مَفْزَعَا (٥)

---

(١) في ط : والمعاداة . (٢) في ط : بعض أهل الأدب . (٣) في الأصل : « الديلي » .

(٤) هذه الأبيات غاية في الجودة نظمًا ومعنًى ولا غرو فمنشؤها هو الألمعيُّ الكبير والخنذيذ الخطير واضع النحو كما قيل - أبو الأسود الدُّؤَلِيُّ : يقول :

إذا أحببت امرأ فاتَّئِدْ ، ولا تسرف ، ولا تفرط ، فإنَّكَ لا تدرى متى تفارقه ، وتنزع عنه ، ولكن أَحِبَّ الهوينى ، وتوسَّط في أمورك واقتصد .

وكذلك إذا كرهت امرأ فلا تشطط ولا تغالى ، فإنَّك لا تدرى حوادث الزَّمان فقد ترجع للمبغوض صاحبًا وخليلاً ، وحاصل البيتين هو هذه الحكمة : « لا يَكُنْ حُبُّكَ كَلَفًا ولا بُغْضُكَ تَلَفًا » .

وهو من نور ما جاء في الأثر : « أحبب حبيبك هونًا ما عَسَى أن يكون بغيضك يومًا ما ، وأبغض بغيضك هونًا ، عسى أن يكون حبيبك يومًا » .

ثم يوصى هنا بالحلم والصفح عمن فرط وشط في المعاملة فإن مَغَبَّة ذلك إلى خير ، ولا بد لمن زرَعَ الحلم والصفح أن يجنى ثمار حلمه وصفحه ويبصرها فيتوج بذلك أفضل التيجان ..

(٥) هذان البيتان في معنى الأبيات السَّابقة تمامًا والبيت الثاني عَضدٌ للأول ، يقول الشاعر :

إذا ما رَغِبْتَ عن صديق وابتغيت فَهْمَ مَوَدَّتِه فتلطف وأحسن الختام عسى أن تعود لِخُلَّتِه ، فاجعل لهذا العَوْدِ مَوْضِعًا فإنك لا تدرى ما اللهُ صانع .

وفي هذا يقول الشافعيُّ :

وعاشر بمعروف ، وسامح من اعتدى ، وفارق ، ولكن بالتى هي أحسن .

ثم احترز في الفراق واتَّئِدْ ، فلا تَفْصِمْ عُرَى الصَّدَاقَة لكلِّ بَارِقَةٍ وطَارِقَةٍ وإلا ظلِلْتَ ، وَحيدًا شريدًا لا صَاحِبَ لك ولا عضد .. وكفى بذلك خسارة ...

وفي هذا يقول العلامة أحمد بن مشرف في منظومة « الصداقة » . =

أنبأنا محمد بن إسحاق الثقفيُّ ، حدثنا أبو همام ، حدثنا ابن وهب ، أخبرنى يونس ابن يزيد ، عن ابن شهاب ، قال : « اجتمع مروان بن الحكَم وابنُ الزبير يومًا عند عائشة [رضى الله عنها] (١) ، فجلسا فى حجرتها ، وبينها وبينهما الحجاب ، فسألا عائشة [رضى الله عنها] (٢) شعرًا فحدثتهما (٣) ، ثم قال مروان : [الطويل]

وَمَنْ يَشَإِ الرَّحْمَنُ يَخفِضْ بِقَدْرِهِ ... وَلَيسَ لِمَنْ لَمْ يَرْفَعِ اللهُ رَافِعُ (٤)

وقال ابن الزبير : [الطويل]

وَفَوِّضْ إِلَى اللهِ الأُمُورَ إِذَا اعتَرَتْ ... وَبِاللهِ لا بِالأَقْرَبِينَ تُدَافِـــعُ (٥)

وقال مروان : [الطويل]

وَدَاوِ ضَمِيرَ القَلْبِ بِالبِرِّ والتُّـــقَى ... وَلا يَستَوِى قَلْبَانِ قَاسٍ وَخَاشِعُ (٦)

وقال ابن الزبير : [الطويل]

وَلا يَسْتَــوِى عَبْدَانِ : عَبْدٌ مُكَلَّمٌ ... عُتُل ، لأَرْحَامِ الأَقَارِبِ قَاطِعُ (٧)

=
حــافظ على الصديق ... فى الوسع والمضيـق
فهـــو نسيمُ الروح ... فى القرب والنزوح
وإن سمعــت قيلاً ... يحتملُ التأويـــلا
فاحمله خير محمل ... فعل الرجال الكمل

(١) ، (٢) سقط فى ط . (٣) فى ط : وحديثا

(٤) ينبه مروان بن الحكم هنا إلى قطب من أقطاب العقيدة ، وهى قدرة الله تعالى وسابق قضائه فيقول : من يشإ الرحمن له الذِّلَّةَ والضَّعَةَ ، فقد ختم عليه ، ولا رافع له دهر الدَّاهرين وأبد الآبدين، رُفِعَتْ بذلك الأقلام ، وجفت الصحف

إذ لم يكن عونٌ من اللهِ للفتى ... فــأوَّلُ مَا يَجْنِى عليه اجتهاده

وقال آخر :

وإذا العناية لاحظتك عيونها ... نــم فالمخاوفُ كلُّهنَّ أمَانُ

(٥) وهنا يوصى ابنُ الزبير بتفويضِ الأمر إلى الله عند حلوله ونزوله فإذا ما وقع القدر عَجزَ البَشَر، فلا ولى ولا شفيع ولا قريب ولا بعيد ، ولا مولى ولا نصير بل الله الله إيَّاهُ فالزم يستقيم لك الأمر وتَسلَمْ . . . !!

(٦) ويوصى مروان هنا بمداواة القلوب لا باللهو والعبث ولا بالغيد والدنس ، ولا بمزمور الشيطان من الموسيقى والألحان بل بالبر وتقوى الرحمن ، وشتان ما بين القلبين قلب البَرِّ النقى الطَّاهِرِ الوَضِى، وبين قلب الدنى صَاحِبِ الألْحَان ومزامير الشيطان فقبحًا له ، وسُحقًا وعيا له وغيا . . !

(٧) وتحرير المعنى : لا يستوى عبدٌ ساهٍ لاهٍ ضلولٌ قطاع لِرَحِمِه وصالٌ للهوه .

وقال مروان : [الطويل]

وَعَبْــــــدٌ تَجَافَى جَنْبُهُ عَنْ فِرَاشِهِ ، يَبِيتُ يُنَاجِي رَبَّهُ وَهْوَ رَاكِعُ (١) ،(٢)

وقال ابن الزبير : [الطويل]

وَلِلْخَيْــــــرِ أَهْلٌ يُعْرَفُونَ بِهَدْيِهِمْ إِذَا اجْتَمَعَتْ عِنْدَ الخُطُوبِ المَجَامِعُ (٣)

وقال مروان : [الطويل]

وَلِلشَّــــرِّ أَهْلٌ يُعْرَفُونَ بِشَكْلِهِمْ تُشِيرُ إِلَيْهِمْ بِالفُجُورِ الأَصَابِعُ (٤)

قال : فسكت ابن الزبير ، فلم يجب مروان بشىء .

فقالت عائشة : « يا عبد الله ، مالك لم تجب صاحبك ، والله ما سمعتُ تَجاوبَ رجلين تجاولا نحو ما تجاولْتما فيه ، أعجبَ إلىَّ من مجاولتكما » .

قال ابن الزُّبير : إنى خفت عوْزَ (٥) ، (٦) القول ، فكففت .

فقالت عائشة : إن لمروان فى الشعر ما ليس لك !

أنبأنا محمد بن المنذر ، حدثنا عصام بن الفضل الدارىُّ (٧) ، حدثنى الزبير بن بكّار، عن محمد بن حرب ، قال : قال عبد الله بن حسن لابنه محمد : إياك ومعادَاةَ الرجال ، فإنها لا تُعْدِمك مكْرَ حليم ، أو مبارأة (٨) (٩) جاهلٍ .

---

(١) يجافى : يمنع جسمه من الرقاد قائمًا للصلاة والدعاء طول ليله .

(٢) بعيد تقى برٌ صوَّام قوَّام رهَّاب مُخبِتٌ لربِّه يبيت الدُّجَى يتلوا الكِتَابَ ، ولا ينم إلا كنومةِ حَائرٍ ولَهانٍ يُنَاجِى ربَّه ويستغفرُ ذَنْبَهُ . . .

هيهاتَ هيهاتَ أن يقارن الأَحياءُ بالأَمْوَاتِ لقد رُمْتَ إذن شططا وجعلت الأُسْدَ قِطَطًا . . . !!

وبدلت الحكمة لغوًا ولَغَطًا . . . وتلك إذن قِسْمةٌ ضِيزَى .

(٣) وأَهْلُ الخير وذووه موسومون بسمات الهُدَى ، ومُعَلَّمُونَ بِخِدْمَةِ الوَرَى ، عندما يحلُّ خطبٌ فاضح ، وبلاء غَيْرُ نَازِحِ فكلٌّ تَابعهمْ حينها نَاجٍ وَفَالِح .

(٤) وكذلك أهل الشَّرِّ ، والضُّرِّ ، قد وُسِمُوا بِشَرٍّ مَيْسم ، فَهُمْ أهل رِيبَةٍ وَضَلالٍ حيثما حَلُّوا ! حلَّتِ النِّقَمُ وزَالَتِ النِّعَمُ ، ولا تنفكُّ أصابعُ الوَرَى تَطْعَنُهُم بالإيماء إليهم والإشارة إلى فجورهم وضلالهم . . عافانا اللَّهُمَّ من ذلك - آمين - .

(٥) عوز القول : أن يجر إلى الجور فى الحكم ، بل إلى ما لا يليق بالأشراف من السباب وفاحش القول .

(٦) فى ط : عول .

(٧) فى الأصل : الرازى .

(٨) المبارأة : المفاحشة فى القول والمخاصمة .

(٩) فى ط : مباذأة .

قال أبو حاتم - رضى الله عنه - : العاقل لا يُعَادَى على الحالات كلها ؛ لأن العداوة لا تخلو من أن تكون لأحد رجلين : إما حليم لا يؤمَنُ مكْرُهُ ، أو جاهل لا يؤمن شتمه؛ ولا يجب على العاقل إذا عادى ، أن يغترَّ بإحسانه (١) إلى عَدوه ، وما يرى من سكونه إليه ؛ فإن الماء وإن أطيل إسخانه ، ليس بمانعه ذلك من إطفاء النار إذا صُبَّ عليها ، ولا يجب أن يعظم عليه حمله عَدُوَّه على عاتقه (٢) إذا وثق بحسن عاقبته ؛ لأن اللين والمكر أنكَى فى العدوِّ من الفظاظة والمكابرة ألا ترى النار مع حرها لا تُحْرِق من الشجر[ة] (٣) إلا ما ظهر ، والماء مع برده ولينه يستأصلها ، ومجانبة المرء [مع] (٤) عدُوه فى العِشْرة ، أحدُ الأعوان عليه عند الفرصة .

كما حدثنا عمرو بن محمد الأنصاريُّ ، حدثنا الغلابيُّ ، حدثنا العُتْبىُّ ، عن أبيه ، قال : قال الأحنف بن قيس : من جالس عَدوه ، حفظ عليه عيوبَه .

وأنشدنى الأبرش : [الخفيف]

لا تَخَافَنَّ إنْ رَمَــاكَ عَــدُو ... بعُــيُوب ، إذَا تَكُــونُ بَرِيًّا
إنَّمـــا العَيْبُ أنْ يكُونَ مُحِقا ... فِى الَّذى قَالَهُ ، ولَسْتَ نَقِيًّا (٥)
فَإذَا كَـــانَ كَاذِبًا كُنْتَ بِالصِّدْ ... قِ عَلَى العَائِبِ الْكَذُوبِ جَـرِيًّا
ولَقَـــدْ يُلْزِقُ العَدُوُّ بِجَنْبِ الْـ ... ـمَرْءِ عَيْبًا تَخَالُهُ مكْــوِيًّا (٦)

---

(١) فى ط : يغره إحسانه . (٢) العاتق : ما بين المنكب والعنق .
(٣) سقط فى الأصل . (٤) سقط فى ط . (٥) فى الأصل : تقيا .
(٦) هذه الأبيات الحِسَانُ فى الحثِّ على ترك كَلامِ الوُشَاة والحقَدَة الفَسَدَة ذوى الرِّيبَة والغيبة فيقول : لا عليك إنْ رُميتَ بعيبٍ ليس لك فيه يَدٌ ولا إصْبَعٌ ، فلا تَأبَهْ لهذا ولا تلتفت إليه ، فهل يضرُّ السَّحَابَ نبحُ الكلاب . . . !!
وإنما تَهتَمُّ لهذا إنْ كَانَ مَنْ رَمَاكَ محقًا فحينها فافزع وادفع عنك الملامةَ وإلا فهى الندامة .
وإن كان كذوبًا فيما يَقُولُ ، فأنت بصدقك ، وطُهرِكَ كاسِرُهُ وخاذله إذْ لا يَجْرُؤ مثله أنْ يواجهَكَ، ويجابِهَكَ ، فَلا عَلَيْكَ به . . .
أو كُلَّمَا طَنَّ الذُّبَابُ طَرَدْتَهُ ... إنَّ الذُّبَابَ إذَنْ عَلَيْكَ عَزِيزُ
فلقد يتصنع العدوُّ المبغض ، ويلفقُ مِنْ لا شىء أشياء ، فقد يأتى على السمر : لعلَّهُ قصد بها الرِّمَاح الرُّدينية الجيدة - ولا أدرى - وهى جيِّدة لا عيب فيها فيلزق بها العيوبَ ويزيفها ويثبتها حتى تَخَالَ العيبَ عيبًا مكوى ومطبوع عليها وما هو بعيب .

قال أبو حاتم - رضى الله عنه - : العاقل لا يغيِّره إلزاق العدو به العيوبَ والقبائح ؛ لأن ذلك لا يكون له وقعٌ ، ولا لكثرته ثبات ، ولا يَلتذُّ المرء ما دام [1] عدوُّه باقيًا ، كما لا يجد السقيم طعم النوم والطعام حتى يبرأ .

وأشد مكيدة العدو ، ما يعمل فيك من سبيل مَأْمَنك ، والغالب بالشرِّ مغلوب .

وإن من أعظم الأعوان على الأعداء ، تعاهُدُ المرء ولَدَه وعيالَه وخَدَمَه ، وتوقيه إياهم عن المعايب والزلات .

أنبأنا الحسن بن سفيان ، حدثنا محمد بن الصباح ، حدثنا الوليد ، عن الأوزاعيِّ ، عن يحيى بن أبى كثير ، قال : قال سليمان بن داود لابنه : « يا بُنىَّ ، إذا أردت أن تغيظ عدوك ، فلا ترفع عن ابنك العصا » .

❋ ❋ ❋

---

(١) فى ط : ما كان .

ذِكْرُ الْحَثِّ عَلَى صُحْبَةِ الأَخْيَارِ ، وَالزَّجْرِ عَنْ عِشْرَةِ الأَشْرَارِ

حدثنا الحسن بن سفيان النَّسائيُّ (١) ، حدثنا عبيد الله بن مُعاذ العنبريُّ ، حدثنا أبي عن شُعْبة ، عن قتادة ، عن أنس ، عن أبي موسى ، قال : قال رسول الله ﷺ : «مَثَلُ الجَلِيسِ الصَّالِحِ مَثَلُ العَطَّارِ ، إِنْ لَمْ يَنَلْكَ مِنْهُ (٢) أَصَابَكَ مِنْ رِيحِه ، وَمَثَلُ الجَلِيسِ السَّوْءِ مَثَلُ القَيْنِ ، إِنْ لَمْ يُصِبك (٢) نَارُهُ ، أَصَابَكَ شَرَرُهُ (٣) » (٤) .

---

(١) في الأصل : الشيباني . (٢) في ط : تصبيك .

(٣) الشرر : ما يتطاير من النار .

(٤) أخرجه أبو داود : (٢/٦٧٥) في « الأدب » ، باب : من يؤمر أن يجالس (٤٨٣٠) ، عن ابن معاذ به .

أخرجه البخاري : (٤/٣٧٩) في « البيوع » ، باب : في العطاء وبيع المسك (٢١٠١) ، (٩/٥٧٧) في « الذبائح والصيد » ، باب : المسك (٥٥٣٤) ، ومسلم : (٤/٢٠٢٦) في « البر والصلة » ، باب: استحباب مجالسة الصالحين ومجانبة قرناء السوء (١٤٦/٢٦٢٨) ، وأحمد : (٤/٤٠٤ - ٤٠٥، ٤٠٨) ، والحميدي : (٢/٣٣٩ - ٣٤٠) برقم (٧٧٠) ، والبيهقي : (٦/٢٦) ، والبغوي في « شرح السنة»: (٦/٤٦٨) برقم (٣٣٧٧) بتحقيقنا ، والعقيلي : (١/١٥٨) من طريق أبي بردة عن أبي موسى رفعه به .

ويشهد حديث أنس أخرجه أبو داود (٤٨٣١) ، وأبو يعلى (٤٢٩٥) ، والحاكم : (٤/ ٢٨٠) ، من طريق شبيل بن عزرة ، قال : دخلت أنا وقتادة على أنس بن مالك فحدثنا أنس بن مالك : قال رسول الله ﷺ : « مثل الجليس الصالح مثل العطار إن أصابك منه ، وإلا أصابك من ريحه ، ومثل الجليس السوء . . . » فذكره ، وصححه الحاكم ، ووافقه الذهبي .

وأخرجه أبو داود (٤٨٢٩) ، عن مسلم بن إبراهيم ، ثنا أبان ، عن قتادة ، عن أنس به مطولاً .

وينظر مجمع الزوائد : (٨/٦٤) .

وقال الحافظ في« الفتح » : (٤/٣٧٩ - ٣٨٠) قوله (كمثل صاحب المسك) في رواية أبي أسامة عن بريد كما سيأتي في « الذبائح » : « كحامل المسك » ، وهو أعم من أن يكون صاحبه أولا .

قوله : (وكير الحداد) بكسر الكاف بعدها تحتانية ساكنة معروف ، وفي رواية أبي أسامة : «كحامل المسك ونافخ الكير » ، وحقيقته البناء الذي يركب عليه الزق والزق هو : الذي ينفخ فيه فأطلق على الزق اسم الكير مجازًا ، لمجاورته له،وقيل : الكير هو الزق نفسه وأما البناء فاسمه الكور.

قوله : (لا يعدمك) بفتح أوله وكذلك الدال من العدم أي لا يعدمك إحدى الخصلتين أي لا يعدوك ، تقول : ليس يعدمني هذا الأمر أي ليس يعدوني ، وفي رواية أبي ذر بضم أوله وكسر الدال من الإعدام ، أي لا يعدمك صاحب المسك إحدى الخصلتين . =

قال أبو حاتم - رضى الله عنه - : العاقل يلزم صحبة الأخيار ، ويفارق صحبة الأشرار؛ لأن مَودَّةَ الأخيار سريعٌ اتصالها [(١)] ، بطيءٌ انقطاعها . ومَودَّةُ الأشرار سريع انقطاعها ، بطيء اتصالها ، وصحبة الأشرار تورث سوء الظن بالأخيار ، ومَنْ خادَن الأشرار ، لم يسلم من الدخول فى جملتهم .

فالواجب على العاقل أن يجتنب أهل الرِّيَب ؛ لئلا يكون مَريبًا . فكما أن صحبة الأخيار تورث الخير ، كذلك صحبة الأشرار تورث الشر .

وأنشدنى محمد بن عبد الله بن زنجيٍّ البغداديُّ : [الطويل]

عَلَيْكَ بِإخْـــــوَانِ الثِّقَاتِ ؛ فَإِنَّهُمْ قَلِيلٌ فَصِلْهُمْ دُونَ مَنْ كُنْتَ تَصْحَـــبُ
وَنَفْسَــــكَ أَكْرِمْهَا ، وَصُنْهَا ؛ فَإِنَّهَا مَتَى مَا تُجَالِسْ سِفْلَةَ النَّاسِ تَغْضَبُ [(٢)]

= قوله : (إما تشتريه أو تجد ريحه) فى رواية أبى أسامة إما أن يحذيك وإما أن تبتاع منه ، ورواية عبد الواحد أرجح ؛ لأن الإحذاء - وهو الإعطاء - لا يتعين بخلاف الرائحة فإنها لازمة سواء وجد البيع أو لم يوجد .

قوله : (وكير الحداد يحرق بيتك أو ثوبك) فى رواية أبى أسامة : « ونافخ الكير إما أن يحرق ثيابك » ، ولم يتعرض لذكر البيت وهو واضح ، وفى الحديث النهى عن مجالسة من يتأذى بمجالسته فى الدين والدنيا ، والترغيب فى مجالسة من ينتفع بمجالسته فيهما ، وفى جواز بيع المسك والحكم بطهارته ؛ لأنه ﷺ مدحه ورغب فيه ففيه الرد على من كرهه وهو منقول عن الحسن البصرى وعطاء وغيرهما ، ثم انقرض هذا الخلاف واستقر الإجماع على طهارة المسك وجواز بيعه ، وسيأتى لذلك مزيد بيان فى كتاب « الذبائح » ، ولم يترجم المصنف للحداد لأنه تقدم ذكره ، وفيه ضرب المثل والعمل فى الحكم بالأشباه والنظائر .

(١) هذا الكلام مقتبس من كتاب كليلة ودمنة .

(٢) هذان البيتان فى الوصيةِ بصحبة ذوى الهمم العلية لا ذوى الرِّمم والبلية فيقول :

الزم إخوان الثقات والملمات من ذوى الفضل فإنهم قليلون عددًا كثيرون مددًا ، وحافظ على وصالهم ومخالطتهم دون غيرهم من الأشباح والسقط .

وصدق الله إذ يقول : ﴿ وَقَلِيلٌ مِنْ عِبَادِىَ الشَّكُور ﴾ [سبأ] ، وقوله : ﴿ وَإِنْ تطع أكثر من فى الأرضِ يُضلوك عن سبيل الله ﴾ [الأنعام] ، وقوله : ﴿ وقليل ما هم . . . ﴾ [ص] وآيات كثيرة فى إثبات قلة أهل الخير دائمًا .

وهنا يوصي بملازمة النفس بالفضائل والصيانة وذلك بأن تحاميها عن السَّفلة الرذلة من الناس .

وصدق الشَّاعرُ إذ يقولُ :

عن المـــــرءِ لا تسأل وسل عن قرينه فكـــل قرين بالمقارن مقتـــــــدى
وصاحب أولى التقوى تنل من تقاهم ولا تصحب الأردى فتردى مع الردى

وقال سهل الوراق : =

سمعت أبا يعلى يقول : سمعت إسحاق بن [أبى] (١) إسرائيل يقول : سمعت سفيان بن عيينة يقول : من أحبَّ رجلاً صالحًا ، فإنما يحبُّ اللهَ تبارك وتعالى .

أنبأنا محمد بن أبى علىٍّ الخَلادىُّ ، حدثنا عبد الله بن الصقر السكرىُّ ، حدثنا وهب ابن محمد بن منبه البُنانىُّ ، قال : سمعت الحارث بن وجيه (٢) يقول : سمعت مالك ابن دينار يقول : إنك أن تنقلَ الحجارة مع الأبرار ، خيرٌ من أن تأكل الخَبيصَ (٣) مع الفجّار .

قال أبو حاتم - رضى الله عنه - : [العاقلُ] (٤) لا يُدنِّس عرضه ، ولا يعوِّدُ نفسه أسباب الشر ، بلزوم صحبة الأشرار ، ولا يُغْضِى عن صيانة عرضه ، ورياضة نفسه ، بصحبة الأخيار ، على أن الناسَ عندَ الخبرة يتبين منهم أشياء ضد الظاهر منها .

أنشدنى علىُّ بن محمد البَسَّامىُّ : [السريع]

وَقَلَّمَا احْلَوْلَى كَــلامُ امْرِئٍ ... وَلانَ إِلا كَانَ مُرَّ الفِعَــالْ

وَرُبَّمَــا احْلَوْلَى كَلامُ الفَتَى ... وَكَانَ مَحْمُودًا عَلَى كُلِّ حَالْ

[ورُبَّمَا لَمْ يَكُ ذَا مَنْطِــقٍ ... فكان حُلْوَ الفِعْلِ مِنَ المقالْ] (٥)

فَكُــلُّ هَــذَا أَنْتَ رَاءٍ إِذَا ... تُصَاحِبُ النَّاسَ ، وتَبْلُو الرِّجَالْ (٦)

= تخيــر قريناً لا يعيبُ فإنَّهُ ... يقاسُ لعمرى بالقرين قرينه

وشــر خدين قاطع لخدينه ... إذا حاد يومًا عن هواه خدينه

(١) سقط فى الأصل . (٢) فى الأصل : وجبة

(٣) الخبيص : الحلواء المخبوصة . (اللسان) .

(٤) سقط فى ط . (٥) سقط فى ط .

(٦) هذا الباب فى الحث على اختيار الصديق الحسن المظهر والمخبر والتحذير من الخبِّ الضَّبِّ فيقول:

هنا ينظم الشَّاعرُ معنى قوله تعالى عن المنافقين : ﴿ وإذَا رأيتَهُم تعجبك أجسامهم وإن يَقُولُوا تسمع لقولهم ﴾ [المنافقون] ، فيذكر أنَّ جلَّ من حلا كلامه وسيغ أنه مرُّ الفعال وسيئها كما قال الشاعر :

إن الأفاعى وإن لانت ملامسها ... عند التقلب فى أنيابها العطب

ثم عاد يستثنى من قاعدته ، وقال :

قد يَحْلو لى كلامُ المرء ويطيب مع طيبِ فعَالِهِ وسائر أحواله .

وكأنه يهتف بعد ذكر الأصل قائلاً :

فلربما قد شذَّ عنها نادرُ ... وأصولنا ألا يقاس بنادر

وضابط ما سبق هو من رؤيتك وخبرك عمن تصاحبه إذ من أبصر وابتصر استنار واعتبر ، وميز الطيب من الخبيث من البشر ومن يبلو الرِّجَالَ يستقمْ له الحَال . . .

حدثنا بكر بن أحمد بن سعيد الطاحيُّ ، حدثنا نصر بن عليٍّ ، أنبأنا نوح بن قيس، حدثنا حَوْشب ، عن الحسن فى قوله : « وعباد الرحمن الذين يمشون على الأرض هَوْنًا»(١) ، قال : حُلَماء علماء ، صُبُرٌ ثُبُتٌ (٢) ، إن ظُلموا لم يظلموا ، وإن بُغى عليهم لم يبغُوا ، قد برَاهم الخوف ، كأنهم القدح (٣) .

أنبأنا حامد بن محمد بن شعيب البلخيُّ ، حدثنا سريج بن يونس ، حدثنا شجاع بن أبى نصر ، أبو نعيم القارى ، عن أبى عمرو بن العلاء ، قال : رآنى سعيد بن جبير وأنا جالس مع الشباب ، فقال (٤) : ما يُجْلِسك مع الشباب ؟ عليك بالشيوخ .

أنبأنا الحسن بن سفيان ، حدثنا أبو بكر بن أبى شيبة ، حدثنا أبو أسامة ، عن سفيان ، عن أبى المحجِّل ، عن ابن عمران بن حِطَّان ، عن أبيه ، قال : قال أبو الدرداء (٥) : [الصاحب الصالح] (٦) خير من الوحدة ، والوحدة خير من الصاحب (٧) السُّوء ، ومملى الخيرِ خيرٌ من الساكت ، والساكت خير من مُملِى الشر .

قال أبو حاتم - رضى الله عنه : العاقل لا يصاحب الأشرار ، لأن صحبة صاحب السوء قِطْعة من النار ، تُعقِب الضغائن : لا يستقيم وده ، ولا يفى بعهده .

وإن من سعادة المرء خصالاً أربعًا : أن تكون زوجته موافقة ، ووَلَدُهُ أبرارًا ، وإخوانه صالحين ، وأن يكون رزقه فى بلده .

وكل جليس لا يستفيد المرء منه خيرًا ، تكون (٨) مجالسة الكلب خيرًا من عشرته ، ومن يصحب صاحبَ السوء لا يسلم ، كما أن من يدخل مَداخل (٩) السوء يتَّهم .

وما أشبه صحبة الأشرار إلا بما أنشدنى منصور بن محمد الكُرَيزىُّ : [الطويل]

فَلَـــــــوْ كَانَ مِنْهُ الخَيْرُ إِذْ كَانَ شَرُّهُ ... عَتِيدًا (١٠) ، ضَرَبْتَ الخَيْرَ يَوْمًا مَعَ الشَّرِّ
وَلَوْ كَانَ لا خَيْرًا وَلا شَـــــــرًّ عِنْدَهُ ... رَضِيتُ لَعَمْرِى بِالْكَفَافِ مَعَ الأَجْـــــرِ
وَلَكِنَّـــــــهُ شَرٌّ ، وَلا خَيْـــرَ عِنْدَهُ ... وَلَيْسَ عَلَى شَرٍّ إِذَا طَالَ مِنْ صَبْـــرِ (١١)

---

(١) هون : فى رفق وتؤدة ، لا كما يمشى الجبارون .
(٢) ثبت : بضم الثاء والباء ، جمع ثبيت أى ثابتون ذوو وقار .
(٣) فى ط : القداح . (٤) فى ط : قال . (٥) فى الأصل : أبو ذر .
(٦) فى ط : لصاحب صالح . (٧) فى ط : صاحب . (٨) فى الأصل : يكون .
(٩) فى الأصل : مدخل . (١٠) فى الأصل : عنيدًا .
(١١) هذه الأبيات فى ذكر فساد صحبة الأشرار فيقول : هذا الصاحب الشرير لا سلامة فى =

أخبرنا إسحاق بن إبراهيم القاضى ، حدثنا الحسن بن محمد بن الصباح ، حدثنا ابنُ عُلَيَة ، عن يونس ، عن الحسن ، قال : أيُّها الرجلُ ، إن أشد الناس عليك فقدًا ، لَرَجلٌ إذا فزعت إليه وجدت عنده رأيًا ، ووجدت عنده (١) نصيحة ، بينا أنتَ كذلك إذ فقدته ، فالتمست منه خلَفًا فلم تجده .

أنبأنا محمد بن سعيد القزاز ، حدثنا خطاب بن عبد الرحمن الجَنَدِيُّ ، حدثنا عبد الله ابن سليمان ، قال : قال جعفر بن محمد : من كان فيه ثلاث ، فقد وجب له على الناس أربع : إذا خالطهم لم يظلمهم ، وإذا حدَّثهم لم يكذبهم ؛ وإذا وعدهم لم يُخلفهم . وعلى الناس : أن يظهروا عَدْله ، وأن تكمل فيهم مُروءتُه ، وأن يجب (٢) عليهم أخُوتُه ، وأن يَحْرُم (٣) عليهم غِيبتُه .

وأنشدنى محمد بن إسحاق بن حبيب الواسطى : [الكامل]

إِصْحَــــبْ خِيَارَ النَّاسِ أَيْنَ لَقِيْتَهُمْ ... خَيْرُ الصَّحَابَةِ مَنْ يَكُونُ ظَرِيفَـــــا
وَالنَّاسُ مِثْلُ دَرَاهِـــــــم مَيَّزْتَهَا ... فَوَجَدتَّ (٤) فِيهَا فِضَّةً وَزُيُوفَا (٥)، (٦)

= صحبته أبدًا حتى وإن كان فيه خير فإن شرَّه مُذْهِبٌ بخيره ولو كان وِفَاضًا وخِلْوًا من الخير والشر لرضيت صحبته على لا شيء مع ابتغاء الأجر بكونى له صاحبًا .

ولكن وآسفاه لا خير عِندَهُ ألبتة ، وإِنَّهُ لمحض شرٌ ولا يُطَاقُ الشَّرُّ أن يعاشر ، ويُصَاحَبُ إِذْ مَا لِى عليه مِنْ صَبْرٍ .

وفى مثل هذا قول على بن جبلة أو غيره فى صديقه (المتقارب)

ولما رأيتك لا فاجــــــرًا ... قويًا ولا أنت بالزاهـــــــد
وليـــــس عدوك بالمتقى ... وليس صديقك بالحامـــــد
دخـــلت بك سوق الرقيق ... وناديت هل فيك من زائد ؟
فمــــا جاءنى رجل واحد ... يزيد على درهم واحــــــد
سوى رجل حان منه الشقا ... ء وحلتْ به دعوةُ الوالـــــد
محـــــاط به معه درهـــم ... ردىء فأقبل كالراصـــــد
فبعتــــك منه بلا شاهـد ... مخافة ردك بالشّاهـــــد

(١) فى الأصل : عنه . (٢) فى الأصل : تجب .

(٣) فى الأصل : تحرم . (٤) فى الأصل : فرأيت .

(٥) زيوف : جمع زيف ، وهو الزائف المغشوش .

(٦) هذان البيتان فى الحث على صحبة الأخيار ذوى الخفة والروح . . . فيقول :

ينبغى على العاقل أن يصاحب خيار الناس وفضلائهم وخاصة من كان منهم خفيف الظل ليس بالكلِّ الممل ، فهذا هو الصاحب على كل حال ، وفى كل مكان وميقات . . . =

[« أخبرنا ابنُ قُتَيبةَ ، ثنا أحمدُ بنُ يحيى بن يزيدَ الصُّورى ، ثنا الهيثم بن جميلٍ ، قال : قال عمارةُ بنُ زاذان عن مكحول قال : قلتُ للحَسَنِ : إنِّى أُريدُ الحجَّ ، فقال لى : إيَّاك أنْ تَصحَبَ مَن يكرم عليك فتُفرِّقَ الذى بينك وبينه] (١) .

أخبرنا ابن قَحْطبة ، حدثنا عباس بن عبد العظيم ، حدثنا إسماعيل بن عبد الكريم ، حدثنا عبد الصمد بن معقل : أنه سمع وهبًا يقول : « إن الله ليحفظ بالعبد الصالح القبيلَ من الناس » .

= فالناس فى معادنهم كالدراهم عند نقادها ، فمنها الزيوف ، ومنها اللامع البارع الأصيل ، وكل يستبين بالامتحان وَيبين . . . !!

وفى هذا الفصل أدبُ كثير

وهذه من روائع الشعر فى ذلك :

قال الشيخ أحمد بن مشرف فى فصل صحبة الأشرار :

وصحبـــة الأشـرار أعظـــم فى الإضرار
مـــن خـدعة الأعداء ومن عضـــال الداء
يقبحــــون الحسـنا ودأبهـــم قـول الخنا
شـــأنهم النميمـــة والشيمُ الذميمـــة
إذا أردت تصنـــع خيرًا بشخص منعوا
الغـل فيهم والحسدْ والشر حبل من مسد
إن مُنحوا ما طلبـوا تنمـــروا وكلبـــوا
وأعرضـــوا إعراضًا ومزقـــوا الأعـــراض
ليس لهم صـــلاحُ حرامهـــم مبـــاحُ
لا يتقـــون قبحًا ولا يعـــون نصحًا
يغـــدون بالقبيح والضـــرُّ والتبريـــح
كـــلامهم فحاشُ وأنســـــهم إيحاشُ
الخيـــر منهم وانى والشـــر فيهـــم دانى
شـــيطانُهم مطاعُ ودينهم مُضَـــــاعُ
لا يرقبـــون إلا ولايرون خـــــلا
إخلاصهم مداهنة وودهـــــم مشاحنة
عـــزيزهم ذليلُ صحيحهـــم عليلُ
ضيـــاؤهم ظلامُ وعذرهـــم مَـــلامُ
تقريبهـــم بعيدُ ووعدهـــم وَعِيـدُ

(١) سقط فى ط .

قال أبو حاتم – رحمه الله [١] : الواجب على العاقل أن يستعيذ الله [٢] من صحبة مَنْ إذا ذكر الله لم يُعِنْه ، وإن نسى لم يذكره ، وإن غَفَل حرَّضه على ترك الذكر . ومن كان أصدقاؤه أشرارًا كان هو شرَّهم ، وكما أن الخيِّر لا يصحب إلا البررَة ، فكذلك [٣] الردِّىُّ لا يصحب إلا الفَجَرة ، فإن المرء إذا اضطره الأمر [٤] ، فليصحب أهل المروءات ؛ لأن محمد بن عثمان العُقْبىُّ [حدثنا] [٥] قال : حدثنا أحمد بن داود البصرىُّ ، حدثنا ابن عائشة قال : قال عبد الواحد بن زيد : جالسوا أهل الدين من أهل الدنيا ، ولا تجالسوا غيرهم ، فإن كنتم لا بُدَّ فاعلين ، فجالسوا أهل المروءات ، فإنهم لا يَرْفُثون [٦] في مجالسهم [وبالله التوفيق] [٧] .

* * *

(١) فى ط : رضى الله عنه . (٢) فى ط : بالله (٣) فى ط : كذلك .
(٤) فى الأصل : فإن امرؤ اضطره أمرٌ . (٥) سقط فى ط .
(٦) لا يرفثون : لا ينطقون الرفث ، وهو الألفاظ الفاحشة . (٧) سقط فى ط .

ذِكْرُ كَرَاهِيَةِ التَّلَوُّنِ فِي الوِدَادِ بَيْنَ المُتَآخِيِّينِ

أنبأنا محمد بن الحسن بن قُتيبة بعَسقلان ، حدثنا إبراهيم الحَوْرَاني [1] ، حدثنا بكار ابن شعيب ، حدثنا ابن أبي حازم ، عن أبيه ، عن سهل ، قال : قال رسول الله ﷺ: « لا خَيْرَ فِي صُحْبَةِ مَنْ لا يَرَى لَكَ مِنَ الحَقِّ مِثْلَ مَا تَرَى لَهُ » [2] .

---

(١) في الأصل : ابن أبي الحواري .

(٢) أخرجه الدولابي في « الكنى والأسماء » : (١٦٨/١) ، وابن حبان في «المجروحين»: (١٩٨/١) ، والخطابي في « العزلة » (٥٥) ، وابن عساكر كما في « تهذيب تاريخ دمشق » : (٨٦/٢) ، وأبو نعيم في « الحلية » : (٢٥/١٠) ، من طرق ، عن بكار بن شعيب ، عن أبي حازم، عن أبيه عن سهل بن سعد رفعه : « لا تصحب أحدًا لا يرى لك من الفضل كما ترى له » .

وهذا لفظ أبي نعيم أما لفظ الباقين : « الناس كأسنان المشط ، وإنما يتفاضلون بالعافية ، والمرء كثير بأخيه يرفده ويحمله ، ولا خير في صحبة من لا يرى لك مثل ما ترى له » .

وهذا سند ضعيف جدًا ، بكار بن شعيب ، قال فيه : ابن حبان يروى عن الثقات ما ليس من حديثهم ، لا يجوز الاحتجاج به .

وقال الحافظ في « اللسان » : وقال الجوزجاني : وهو منكر جدًا .

ولكن قال السيوطي في « اللآلئ » : (١٥٦/٢) : وقد توبع بكار فقال ابن لال : حدثنا محمد بن أحمد بن يعقوب حدثنا إبراهيم بن نصر : حدثنا محمد بن موسى : حدثنا غياث بن عبد الحميد ، عن عمر بن سليم ، عن أبي حازم به .

قلت : قال العقيلي في « الضعفاء » : (٤٤٠/٣) : غياث بن عبد الحميد : مجهول .

وفي الباب عن أنس رواه ابن عدي في « الكامل » : (٢٤٨/٣) ، ومن طريقه رواه القضاعي في مسند الشهاب (٩٠٧) ، وابن الجوزي في « الموضوعات » : (٨٠/٣) ، عن المسيّب بن واضح ، ثنا سليمان بن عمرو ، ثنا إسحاق بن عبد الله بن أبي طلحة ، عن أنس بن مالك ، زفعه : « الناس كأسنان المشط ... » ، وقال ابن عدي : هذا حديث وضعه سليمان بن عمرو على إسحاق قال : وأجمعوا على أنه كان يضع الحديث .

وفي الباب عن أبي أمامة رواه ابن عساكر : (٨٦/٢) ، عن بشر بن عون ، حدثنا بكار بن تميم ، عن مكحول ، عن أبي أمامة مرفوعًا .

قلت : بشر بن عون ، قال ابن حبان : (١٨١/١) : له نسخةٌ عن بكار بن تميم ، عن مكحول نحو مائة حديث كلها موضوعة . =

قال أبو حاتم - رحمه الله [(١)] : الواجب على العاقل إذا رزقه [الله] [(٢)] وُدَّ امرئ مسلم، صحيح الوداد ، محافظ عليه أن يتمسك به ، ثم يوطِّن نفسه على صلته إنْ صرَمه، وعلى الإقبال عليه إن صدَّ عنه ، وعلى البذلِ له إنْ حرَمه ، وعلى الدنوِّ منه إنْ باعده ، حتى كأنه ركنٌ من أركانه ، وإن من أعظم عيب المرء ، تلوُّنَه فى الوداد .

وأنشدنى المنتصر [(٣)] بن بلال الأنصارىُّ : [الطويل]

وَكَـــــمْ مِنْ صَدِيقٍ وُدُّهُ بِلِسَانِهِ خَئُونٍ بِظَهْـــــرِ الغَيْبِ لا يَتَنَدَّمُ
يُضَـــــاحِكُنِى كَرْهًا لِكَيْمَا أَوَدَّهُ وَتَتْبَعُنِى [(٤)] مِنْهُ إِذَا غِبْتُ أَسْهُمُ [(٥)]

أخبرنا محمد بن المهاجر المعدَّل ، حدثنى بن أبى شيبة ، قال : قال الأصمعىُّ : قال رجل من الأعراب : [إنَّ] [(٦)] مِن أعجز الناس مَنْ قَصَّرَ عن طلب الإخوان ، وأعجز منه مَنْ ظفر بذلك منهم ، فأضاع مودَّتَهم [(٧)] . وإنما يُحسن الاختيارَ لغيره ، من أحسن الاختيارَ لنفسه .

قال أبو حاتم - رحمه الله [(٨)] : العاقل لا يقصر فى تعاهد الوداد ، ولا يكون ذا لونين، وذا قلبين ، بل يوافق سِرُّه علانيتَهُ ، وقولُه فعلَه ، ولا خيرَ فى متآخِيَيْن ينمو بينهما الخَلَل ، ويزيد فى حاليهما الدَّغَلُ [(٩)] .

كما أنشدنى عبد العزيز بن سليمان الأبرش : [الطويل]

= وأخرجه الخطيب فى « التاريخ » : (٧/ ٧٥) من طريق بشر بن غياث عن البراء بن عبد الله الغنوى عن الحسن ، قال : قال رسول الله ﷺ : .... مرسلاً .

وذكره الشوكانىُّ فى « الفوائد » ص (٢٦٠) ، وقال : قال الصغانى : موضوع .

وقال الألبانى فى « السلسلة الضعيفة » (٥٩٦) : ضعيف جدا .

(١) فى ط : رضى الله عنه .
(٢) سقط فى الأصل .
(٣) فى الأصل : بلال بن المنتصر .
(٤) فى الأصل : ويتبعنى .
(٥) هذان البيتان فى التشكى من تلون الصديق وتغيره .. فيقول :
ما أكثر الأصدقاء والسُّفهاء ذوى الوجهين يعطون من طرف اللسان حلاوة ، ويروغون عند الغيب روغ الثعلب . فإما لقينى يَبْسِمُ إلىَّ بَسْمَةَ الأسد للافتراس لا بسمة الودّ والإيناس ، لذا عند مغيبى عنه ينضح علىَّ منه الكيد والغيبة وكل قبيحة مريبة ...
(٦) سقط فى ط .
(٧) هذا الكلام مقتبس من كتاب « كليلة ودمنة » .
(٨) فى ط : رضى الله عنه .
(٩) الدغل : الدخل والفساد .

لَحَا اللهُ (١) مَنْ لا يَنْفَعُ الوُدُّ عِنْدَهُ ... وَمَــنْ حَبْلُهُ إِنْ مُدَّ غَيْرُ مَتِيــنِ
وَمَنْ هُوَ ذُو لَوْنَيْنِ (٢) لَيْسَ بِدَائِمِ ... عَلَى الوَصْــلِ خَوَّانٌ لِكُلِّ أَمِيــنِ
وَمَــنْ هُوَ ذُو قَلْبَيْنِ ، أَمَّا لِقَاؤُهُ ... فَحُلْـــوٌ ، وَأَمَّا غَيْبُهُ فَظَنِينِ (٣)
وَمَنْ هُوَ إِنْ تُحْدِثْ لَهُ العَيْنُ نَظْرَةً ... يُقَطِّعُ (٤) بِهَا أَسْبَابَ كُلِّ قَرِينِ (٥)

وأنشدنى عمرو بن محمد النسائىُّ ؛ لابن الأعرابىِّ : [البسيط]

أَلْعَيْــنُ تُبْدِى الَّذِى فِى نَفْسِ صَاحِبِهَا ... مِنَ الشَّنَاءَةِ ، أَوْ وُدٍّ إِذَا كَانَا (٦) ، (٧)
إِنَّ البَغِــــيضَ لَهُ عَيْنٌ يَصُدُّ بِهَـا ... لا يَسْتَطِيعُ لِمَا فِى الصَّدْرِ كِتْمَــانَا (٨)
فَالْعَيْنُ (٩) تَنْطِقُ وَالأَفْوَاهُ سَاكِتَــةٌ (١٠) ... حَتَّى تَرَى (١١) مِنْ ضَمِيرِ القَلْبِ تِبْيَانَا (١٢)

وأنشدنى على بن محمد البَسَّامِىّ : [الوافر]

وَجَـــارٍ لا تَزَالُ تَزُورُ مِنْــــــهُ ... قَوَارِصُ (١٣) لا تَنَامُ وَلا تُنِيمُ (١٤) ، (١٥)

---

(١) لحاه الله : قبحه ولعنه . (٢) فى الأصل : ذو الونين .

(٣) ظنين : متهم غير مجنون . (٤) فى الأصل : يَقْطَع .

(٥) هذه الأبيات كسابقتها تجأر إلى الله بالشكوى من ذى الوجهين صاحب الشين والمين .. فيقول: قبح الله وسفَّه الصاحب ذا العذر ممن لا يعتبر وداً ولا يحفظ عهداً ومن حبله مُفَصَّم مرتخٍ غير متين..

وقبح كذلك من يَتَغَيَّرُ متلونًا كالحرباء ولا يُدِيمُ الوصل للمحب بل هو تَبِيع هواه ، خؤون لكل أمين . وكأنه مطبوعٌ على قلبين إذْ يحلو عند اللِّقاء ويهش ويبش وعند غيبته ، فمشكوك فى ودِّه .

وكذلك قُبِحَ من لا يَغْفِرُ الصَّغَائر ويصفحها فإنَّهُ لأوَّلِ نظرة ولمحة يقطع أَسْبَابَ الوُدِّ والإخاء ، فمثل هذا لا عهد له ولا خُلَّة . . .

(٦) الشناءة : البغض والكراهية شنأه : كمنعه وسمعه (قاموس) .

(٧) يخبر الشاعر هنا عن مكانة العين فى الإخبار وكشفها لخفى الأسرار ، فهى كاشفة لما فى جَوْف صاحبها من الشَّنَاءَة كانت أو المَرَاحَة .

(٨) ثم يذكر هنا أنَّ البغيض الكَاشح يبدو ذلك من عينه وحاله فهو يتنمَّرُ ويحاد بطرفه لا يَسْتَطِيعُ إخفاء ضَغِينَة صَدْرِه .

(٩) فى الأصل : العين . (١٠) فى ط : ساكنه . (١١) فى الأصل : يرى .

(١٢) فكأن العين تهتفُ ناطقة عن قَلْب صاحبها فَتُبْدى ما أكنَّ فيه من المودة أو البغضة . . . ، هذه الأبيات فى وَصْف حال اللِّئام الذين تَسَرْبَلُوا زِيَّ الصَّدَاقَة زوراً وبهتانًا .

(١٣) فى الأصل : لا يزال يزور منه قوارض .

(١٤) القوارص : جمع قارصة ، وهى الكلمة المؤذية ، لا تنام : لا تكف عن الأذى .

(١٥) رب جارٍ لى قد رصدتنى منه الهموم والغمُوم ، وغشيتنى منه السموم ، فلا هى تنفكُّ عنى لأستريح ، وأقر العين ، ولا هى تستريحُ ، وتتكفكف فتقر عينها . . . !! =

قَـــرِيبُ الدَّارِ نَائِى الوُدِّ مِنْــهُ   مُعَانَدَةً ، أَبَتْ لا تَسْتَقِيــمُ (١)
يُبَــــادِرُ بِالسَّلَامِ (٢) إِذَا الْتَقَيْنَا   وَتَحْتَ ضُلُوعِهِ قَلْبٌ سَقِيمُ (٣)

أنبأنا محمد بن أبى علىٍّ الخلادى ، حدثنا أحمد بن محمد بن بكر الأَبْنَاوِىّ ، عن هشام بن عبد الملك [بن مروان] (٤) اليَزَنِىّ ، قال المقنَّع الكندىُّ : [الكامل]

أَبْــلُ الرِّجَالَ إِذَا أَرَدْتَ إِخَاءَهُــمْ   وَتَوَسَّمَنْ أُمُورَهُمْ وَتَفَقَّدِ (٥) ، (٦)
فَـإِذَا ظَفِرْتَ بِذِى اللَّبَابَةِ (٧) وَالتُّقَى   فَبِهِ الْيَدَيْنِ قَرِيرَ عَيْنٍ فَاشْــدُدِ (٨)
وَمَـــتَى يَزِلَّ ، وَلا مَحَالَةَ ، زَلَّةً   فَعَلَى أَخِيكَ بِفَضْلِ رَأْيِكَ فَارْدُدِ (٩)

= فكأن راحتها فى قصِّ مضاجعى ، وبثٌّ مَفَارِعِى ، وَهُلْكَتُهَا فِى رَاحَتِهَا عَنِّى ، وَهَذَا من عجيب الأَشْيَاءِ ، وَمِنْ أَمَارَاتِ عَظِيمِ البَلَاءِ . . . !

(١) ورغم أَنَّه جَارِى بَيْتَ بَيْتَ ، إلا أَنَّ ودَّه لى بعيد وَمَيْت ، فلم تغن جيرَتى شيئًا . . . ، وهو معاندٌ مكابر يَتَأَبَّى أَنْ يَسْتَقِيمَ لِى ، والحاصل أَنَّهُ بئس الجار ، فهو على قُرْبِ جيرته بَعِيدَةٌ مَوَدَّتُهُ .

(٢) فى الأصل : بالسَّلْم .

(٣) وهذا الصديق الماذق يتملَّقُ كُلَّ التملق ، فإذا ما التقينا بادرنى بالسَّلامِ والتَّحِية ، وهو يَرُوغُ منى بقلب أشدَّ على من الحية الرَّقطاء ، كما قال ابن عبد القدوس (من الكامل)

يعطيك من طرف اللسان حلاوة   ويروغ منك كما يروغ الثَّعْلَبُ

(٤) سقط فى ط .   (٥) بلاه يبلوه : اختبره ، وتفقد .

(٦) فهذه الأبيات قد احتوت على وصايا حسان ، وعقود لؤلؤ ومرجان ، فيقول الشاعر :

إذا ما ابتغيت صحبة امرىءٍ فاخْبُرْهُ ، وابلُ باطنه ليتكشَّفَ لك أَمْرُهُ ، فإذا ما تكشفت أموره لديك فاستبعها وتفقدها .

(٧) فى الأصل : اللبانة .

(٨) فإذا ما تكشف عن أصالة معدن ، وظفرت بذى لب عقول ربيب تُقَىً وطاعَة ، فمثل هذا يُعْقَدُ الخِنصرُ على صحبته ، ويعضُّ بالنَّاجذِ على مودَّتِهِ . . وفيه يحقُّ قول ابْن المُقرِىِّ : [البسيط]

وأحمـــق الناس من قد ضاع من يده   صـــديق ود فلم يردده بالحـــــيل
استصفِ خلك واستخلصه أفضل من   تبديـــــل خلٍ وكيف الأمن بالبدل

(٩) وإذا ما استقامت صحبتك ارتفعت عنده مودتك فاعلم أنه بشرٌ لا ينفك عن سَهْوَةٍ ، وغفلة ، فإذا زلَّ وعثر فأقل عثرته ، واستر عورته ، وعد عليه بفضل رَأْيِكَ ومشورتك وحلمك فإنما ذلك من خلاق ذوى المكارم ، وفيها يقول الشاعر : (البسيط)

وعـــوراء جاءت من أخٍ فرددتهــا   مســـــألة للمرء طالبة عــــــذرًا
ولو أنه إذ قال قلت بمثلهـــــــا   ولم أعف عنها أورثت بيننا غمرًا =

وَإِذَا الخَنَا نَقَضَ الحُبَا فِى مَوْضِعٍ   وَرَأَيْتَ أَهْلَ الطَّيْشِ قَامُوا فَاقْعُدِ (١)

وقال الزيادى : (الخفيف]

لخليلى علىَّ منى ثلاث   واجبات أتيحها إخوانى
حفظه بالمغيب إن غاب عنى   ولقاء بالبشر إن لاقانى
ثم بذلى لما حوته يمينى   مسعدًا فى الخطوب أنىَّ دعانى
هذه حالة الصديق ، فإن   حال فعندى عوائد الإحسان

(١) وينبغى على العاقل أن يتحلَّم ، وأن يَتَرحَّبَ صدره للأمور ، فإذا ما انتقضت عرى المودة ، وفصمت الحبوة بين الأصدقاء ، فكن ممن عفا عمن جهل وسدَّ النقص وستر الخلل ، أما إذا طاشت الأمور ، وركب السفه والحماقة فحينها حق لك العزل والفصم ، إذْ ما يقوم أهل الطيش فى مقام إلا وتوجب المضى من أهل الفضل ، فهيهات أن يجتمعان وما يستوى الخبيث ولا الطيب ، وكذلك الزَبَدُ والزُبُدُ . . . !

وفى هذا وردت أشعار كثيرة نتقى منها روائعها ففى ابتلاء الرجال واختبارهم يقول الشاعر :

إن المودة بالتجارب   قضت من الناس المآرب
لم تترك لى صاحبًا   أصبو إليه ولا أعاتب
متفردًا بتوحدى   دون الأباعِد والأقارب
أرغب إلى الله الذى   يعطى الجزيل من المواهب
بالله تتسع الفجاج   إذا تضايقت المذاهب

وقال غيره فى نبذ الابتلاء :

أتمُّ الناس أعرفهم بنقصه   وأقمعهم لشهوته وحرصه
فدان على السلامة من تدانى   ومن لم ترض صحبته فأقصه
وخل الفحص ما استغنيت عنه   فكم من جالب غيظًا بفحصه
ولا تستغلَّنَّ عافية بشىء   ولا تسترخصنَّ أذىً لرخصه

وقال آخر :

ارض من المرء فى مودته   بما يؤدى إليك ظاهره
من يكشف الناس لم يجد أحدًا   تصحُّ منهم له سرائره

وقال آخر : فى نبذ اختبار الرجال أيضًا :

يكفيك من قوم شواهد أمرهم   فخذ عفوهم قبل امتحان السرائر
فإن امتحان القوم يوحش بينهم   ومالك إلا ما ترى فى الظواهر
وإنك إن كشفت لم تر طائلاً   وأبدى لك التكشيف خبث الضمائر

وقال ابن الرومى : وأحس بما قال :

إذا شئت تعرف أصل الفتى   أجل لحظ طرفك فى منظره
فإن لم يبن لك فانظر إلى   أفاعيله فهى من جوهره
فإن غاب عنك بهذا وذا   فلا تطلبن سوى محضره

أخبرنا عبد الله بن قَحْطُبة ، حدثنا محمد بن الصباح ، حدثنا الوليد ، عن الأوزاعىّ ، عن يحيى بن أبى كثير ، قال : قال سليمان بن داود لابنه : يا بنى عليك بالحبيب الأول، فإن الآخرَ لا يعدلُه .

أنبأنا محمد بن سعيد القزاز ، حدثنا أحمد بن بكر بن سيف ، حدثنى محمد بن حسين (١) قال : كان أعرابى بالكوفة ، وكان له صديق ، فكان (٢) يظهر له مودة ونصيحة، فاتخذه الأعرابى من عُدده للشدائد ، إذ حَزَبَ (٣) الأعرابىَّ أمر ، فأتاه ، فوجده بعيدًا مما كان يظهر للأعرابىّ ، فأنشأ يقول : [الطويل]

إذَا كَـــــانَ وُدُّ المَرْءِ لَيْسَ بِزَائِـــــدِ ... عَلَى « مَرْحَبًا » أوْ « كَيْفَ أَنْتَ وَحَالُكَا (٤)؟ »

ولَـــــمْ يَكُ إلا كَاشِرًا ، أوْ مُحدِّثًا ... فَأُفٌ لِـــــوُدِّ ، لَيْسَ إلا كَذَلِكَـــــا

لِسَـــــانُكَ مَعْسُولٌ وَنَفْسُـــــكَ بَشَّةٌ ... وَعِنْدَ الثُّرَيَّا مِنْ صَدِيقَـــــكَ مَا لَكَا (٥)

وَأَنْتَ إذَا هَمَّـــــتْ يَمِينُكَ مَـــــرَّةً ... لِتَفْعَلَ خَيْـــــرًا ، قَاتَلَتْهَا شِمَالُكَـــــا (٦)

= فإن المحاضـــــر سر الرجال ... بها يعرف النذل من خـــيره

بلـــــوْتُ الرجالَ وأفعالَهُم ... فكل يعودُ إلى عنصـــــره

هذه الأبيات نسب الأول منها والثانى إلى صالح بن عبد القدوس وقد مضت برقم (٢٥٢) ، (٢٥٣)، أما البيتان الآخران ، فيقول فيهما معرضًا بصديقه النذل الذى يظهر الود ، ويخفى البغض ، ولا يتكلف من حق الصداقة إلا ظاهرها .

(١) فى الأصل : حنين . (٢) فى ط : وكان . (٣) حزبه أمر : نزل به مكروه وشدة.

(٤) قدم المؤلف هذه المقطوعة ، مع اختلاف أبيات فيها عما هنا ، ونسبها إلى صالح بن عبد القدوس .

(٥) فى ط : مالكا .

(٦) لسانك يقطر الشَّهْدَ حلاوة ، ونفسك هشة بشة وما ذلك إلا لقلّة الكلفة ، وفى هذا ، أما عند الضيق والحاجة ، فإنه يجعل بينى وبينه كما بين الخافقين ، وكما بين الثرى والثريا ، وهيهات أنْ ينالنى من ماله نفع ، ومن فعاله شفعٌ

ثم يؤكد هذا المعنى فى هذا البيت فيقول : ومن شحِّكَ ، وبخلك ، وضنِّكَ بمالك أنَّكَ إنْ خطر على بالك نُفَيْقَةٌ - قد ترددَّتَ لها مئات المرات واستخرت لإنفاقها رب السماء واستشرت لبذلها خلائق النجباء أو السفهاء ، وأتبعتها المنَّ والأذى ، والحسرة ، قَاتَلَتْ شمالُكَ يَمينَكَ على صنيعها ، ورأت ما تبذله هَلَكَةً لها وما ذاك إلا لأنَّكَ شحيح نحيح ، ومودَّتُكَ مع الريح ، فافٌ وتفٌ على من هذه حاله . . . ويرحم الله الشيخ أحمد بن مشرف لما بوَّب بابًا لصحبة البخيل فقال :

مـــــودة البخيل ... جهـل بلا تأويل

يشح بالزهيـــــد ... فى الزمن الشديد

وإن تروم قرضه ... رأى البعاد قرضه

سمعت محمد بن المنذر يقول : سمعت عبد العزيز بن عبد الله يقول : قال محمد بن حازم (١) : [الطويل]

وَإِنَّ مِنَ الإِخوَانِ إِخْوَانَ كَشْــــرَةٍ ... وَإِخْوَانَ « حيَّاكَ الإِلَهُ » ، و« مَرْحَبًا »(٢)

وَإِخْوَانَ « كَيْفَ الحَالُ وَالأَهْلُ كُلُّهُ ؟ ... وَذَلِكَ لا يَســـوَى نَقِيرًا مُتَرَّبًا (٣)

جَــوَادٌ (٤) إِذَا استَغْنَيْتَ عَنْهُ بِمَالِهِ ... يَقُولُ : إِلَيَّ القَرْضَ ، وَالقَرْضَ فَاطْلُبَا

فَإِنْ أَنْتَ حَاوَلْتَ الَّذِى خَلْفَ ظَهْرِهِ ... وَجَدتَّ الثُّرَيَّا مِنْهُ فِى البُعْدِ أَقْرَبَا (٥)

قال أبو حاتم - رضى الله عنه : العاقل لا يصداق المتلون ، ولا يؤاخى المتقلب ، ولا يظهر من الوداد إلا مثل ما يضمر ، ولا يضمر إلا فوق ما يظهر ، ولا يكون فى النوائب عند القيام بها إلا ككونه قبل إحداثها والدخول فيها ؛ لأنه لا يحمد من الإخاء ما لم يكن كذلك .

وأنشدنى محمد بن المنذر ، قال (٦) : أنشدنى محمد بن خلف التيمىّ ، أنشدنى رجل من خُزاعة : [الطويل]

وَلَيْـــــــسَ أَخِى مَنْ وَدَّنِى بِلِسَانِهِ ... وَلَكِنْ أَخِى مَنْ وَدَّنِى فِى النَّوَائِبِ (٧)

---

(١) فى الأصل : خازم . .

(٢) كشرة : ابتسام . أى لا يزيدون فى أمر الأخوة على الابتسامة حين يلقون الصديق .

(٣) النقير : النقرة فى ظهر النواه ، والترب . المعفر بالتراب . وذلك أهون له .

(٤) فى الأصل : جوادًا .

(٥) هذه الأبياتُ الأربعةُ فى وصف أحوال صديق السوء ذى النفاقِ والشقاق ، وقد سبق مثلها فيقول : إنَّ من الصَّحْب من هو عبوسٌ مكفهر الوجه ، ومَنْ هو صديقك بلسانه دون قلبه ، وفعَاله ، فهو ليس طيب الكلام يبادر بالتحية والتملق قائلاً : « مرحبًا » ، و« حيَّاك الله » ، وغيرها من التحيات اللاطيبات وغير المباركات . . .

وزمرة أخرى على شاكلة الأولى يسائل عن الحالِ بلسانه فقط ، وعن الأهْلِ ويُعَدِّدُهم مبالغةً فى السلام ، إلا أن ذلك لا يغنى عنه شيئًا .

وإن وهمت أو حاولت أن تنال منه صيبًا وعطاءًا ، فهيهات فلقد طلبت حينها المُحَال ، وطيران الجِمَالَ ، وكانت الثريا أقرب لك مرتقًا ممَّا تحاول أن ترقاه منه .

(٦) فى ط : و

(٧) هنا يذكر الشاعر حقيقة ساطعة ، وهى أن الأخ والصَّاحب هو من تصدق منه الفعال كما حَسُنَ منه المقال ، وذلك عندما تحل بى غاشية ، أو تطرقنى داهبة ، وإلا فلا خير فى تملقه وطنطنته .

وَمَـــنْ مَالُهُ مَالِى ، إِذَا كُنْتُ مُعْدِمًا ‏ وَمَالِى لَهُ ، إِنْ عَضَّ دَهْرٌ بِغَارِبِ (١)

فَلا تَحْمَـــــــدَنْ عِنْدَ الرَّخَاءِ مُؤَاخِيًا ‏ فَقَدْ يُنْكِرُ (٢) الإِخْوَانُ عِنْدَ المَصَائِبِ(٣)

وَمَا هُوَ إِلا « كَيْفَ أَنْتَ ؟ » وَ« مَرْحَبًا» ‏ وَبِالبِيضِ رَوَّاغٌ كَرَوْغِ الثَّعَـــالِبِ (٤)

أخبرنا ابن قَحْطبة ، حدثنا محمد بن الصباح ، حدثنا أبو معاوية ، عن هشام بن عُروة ، عن أبيه ، قال : مكتوب فى الحكمة : أحبب خليلَك وخليل أبيك .

قال أبو حاتم – رضى الله عنه : إن من أعظم الأمارات على معرفة صحة الوداد وسقمه: ملاحظةَ العين إذا لَحَظَتْ ، فإنها لا تكاد تبدى إلا ما يضمر القلب من الود ، ولا (٥) يكاد تخفى ما تكنُّه الضمائر (٦) من الصد ، فالعاقل يعتبر الود بقلبه وعين أخيه، ويجعل له بينهما مسلكًا لا يرده عن معرفة صحته شىء تَخَيَّلَه .

ولقد حدثنا محمد بن المهاجر المعدَّل ، حدثنا محمد بن الحسن (٧) الذُّهْلِىّ ، حدثنا علىُّ بن محمد المَذْهَبِىّ (٨) ، عن محمد بن إبراهيم العباسىّ ، عن عبد الله بن الحجاج مولى المهدىّ ، [و] (٩) عن إبراهيم بن شَكْلة ، قال : اعلم أن مَنْ أظهر ما تحبُّ أو ما تكره ، فإنما لك أن تقيس ما أضمر قلبُه ، بالذى أظهر لسانه ، وليس لك أن تعرف ما أسر ضميرُه ، فعامله على نحو ما يبدى لك لسانُه ؛ وفى ذلك أقول : [الكامل]

---

(١) وكذلك الأخ الحقُّ من يجعل ماله فى تَصَرُّفِى كأنه مالى أنا وإن كُنْتُ ذا عُدْم للمال ، وكذلك أنا نحوه فى جعل مالى رهينةً له إن نابته نائبة ، وإن جَفَاه الدَّهرُ ، وعضه بنابه وصبَّ عليه سوطَ عذابه .

(٢) فى ط : تنكر .

(٣) وإنَّمَا الصَّدِيق فى العُسْرِ والمَضِيق ، لذا لا تُخْبَرُ الإخوان إلا إذا جفا الزَّمان ، فلا يستحقُّ صديقٌ حمدًا فى حالة مَيْسَرَة وسعة ، فقد يتقلبُ - كالزَّمَان - حين الشَّظف والنوائب .

(٤) وعند المصائب فإنَّه يتمطى المَقَالَ ، دون الفعال ، ويكتفى بالدَّمْعَزةِ والمَرحَبَةِ ، دون بذلٍ لبيضاء (وهى : الدراهم الفضيَّة) ، ولا للصفراء (وهى الدَّنَانير الذهبية) .

وقال أبو العتاهية :

العـــــنز لا يسمن إلا بالعلف ‏ لا يسمن العنز بقولٍ ذى لطف

ويرحم الله الشيخ أحمد بن مشرف لما قال :

حقيقة الصديق ‏ تعرف عند الضيق

وتخبر الإخوان ‏ إذا جفـاَ الزمـــان

(٥) فى الأصل : فلا .

(٦) فى ط : يخفى ما يجنه الضمير .

(٧) فى الأصل : الحسين .

(٨) فى الأصل : المرهبى .

(٩) سقط فى الأصل .

لَيسَ المُسيءُ إِذَا تَغَيَّبَ سُوءُهُ (١) عَــنِّى بِمَنْزِلَةِ المُسِيءِ المُعْلِنِ (٢)
مَـنْ كَانَ يُظْهِرُ مَا أُحِبُّ ؛ فَإِنَّهُ عِنْدِى بِمَنْزِلَةِ الأَمِينِ المُحْسِنِ (٣)
وَاللهُ أَعْلَمُ بِالقُلُــوبِ ، وَإِنَّمَا لَكَ مَا بَدَا لَكَ مِنْهُمُ بِالأَلْسُنِ (٤)
وَلَقَدْ يُقَالُ خِلافُ ذَلِكَ ، إِنَّمَا لَكَ مَا بَدَا لَكَ مِنْهُمُ بِالأَعْيُنِ (٥)

غير أن خالى خالفنى فى ذلك ، وزعم أن الأعين أبين شهادةً على ما فى القلوب من الألسن . وكَتَبَ فى ذلك رسالة : أما بعد ، فقد بدا لى من صَدِّك ، ما آيَسَنى من وُدك، ولم يزل يُخبرنى لحظُك ، ما تُضْمر لى من بُغضك ، وكتب فى أسفل ذلك : [البسيط]

وَمَــــا أُحِبُّ إِذَا أَحبَبْتُ مُكْتَتِمًا يُبْدِى العَدَاوَةَ أَحْيَانًا وَيُخْفِيهَا (٦)
تَظَــلُّ (٧) فِى قَلْبِهِ البَغْضَاءُ كَامِنَةً فَالقَلْبُ يَكتُمُهَا وَالعَيْنُ تُبْدِيهَا (٨)

---

(١) فى الأصل : سرُّه .

(٢) هذا البيت وتاليه من الأبيات الحاثة على الأخذ بظاهر الصداقة ، وعدم التكلف فى التنقيب عن البواطن وإلا كان الشك والريبة ، ولا يكلف الله نفسًا إلا وسعها فيقولُ : لا يستوى حالُ مجاهرٍ لى بالإساءة قد بلغ الغايةَ فى القِحَةِ والسَّلاطة ، والسفاهة بمن قد يسبنى فى مَغيبى وذلك أنَّ الأخير قد راعى على الأقل حرمة مَشْهَدِى فصان نفسه حياءً أن يجابهنى بِسَبِّى ، أما الآخرُ فإنه لا يضمرُ لى إلا كُلَّ سوءَة ، وبليَّة ، ولا يؤخذُ عندى الغائبُ بالشاهد .

(٣) ولأنى آخذ بظاهر القول ، ولا أتكلف تمحيصه ، فإنِّى آمنُ من يُظْهِرُ لى ما أحبُّه ، وأُنزلُهُ منزلةَ بِطَانَتى ، وَخاصتّى أَهْلِ مَودَّتى .

(٤) ولَا غَرْوَ فى صَنِيعى ، فالله أعلم بالبَوَاطِنِ ، وبمكنون القلوب وإنما لى الحكم على ما ابتدره صاحبه وباح به على لسانه .

(٥) ولئن كان صاحبى لُكَعًا خبا ضَنا يَحْسُنُ أمامى ويروغ ثعلبًا خلفى ، فلا علىّ ، وإنما لى ما رأته عيناى وسمعته أذناى لا أُذُنُ غيرى ، فالله أعلم بالسرائر ، وهذا بَابٌ عظيمٌ من أبواب الرَّاحة ، وقد نبَّه عليه ابن حزم فى رسالته « مداوة التقوى » ، بابٌ عظيمٌ من أبواب الراحة وهو المرام ، فيقول: المبالاة بكلام الناس ، واستعمال المبالاة بكلام الحق - عزَّ وجلَّ - بل هذا بابُ العقل كله والراحة كلها» [راجع المداواة] .

وهذه الأبيات وتاليتها ، فى الاستبصار والاستخبار عن حال الصديق ، فلا خير فيمن يضمر لى العداوة والبغْضَةَ ، ويظهرُ القُرْبَى والمحبة فيقول :

(٦) لا أحبُّ كَتُومَ العَدَاوَةِ ، وطاوى الحِشا على الضَّغِينَةِ فحينًا يَتَصَبَّرُ ، ويضمرها اهتِيَابًا منى ، وحينًا يظهرها .

(٧) فى الأصل : يظَلُّ .

(٨) ويظلُّ يغلى قلبه بالحقد علىَّ وإن كتمه ، وبالغ فعيناه تُخبِرُ عن مضمر فُؤَادِهِ ،وخبيث مراده .

وَالنَّفسُ تُعْرَفُ فِي عَيْنَيْ مُحَدِّثِهَا ... مَنْ كَانَ مِنْ سِلْمِهَا أَوْ مِنْ أَعَادِيهَا (١)
عَيْنَاكَ قَدْ دَلَّتَا عَيْنَيَّ مِنكَ عَلَى ... أَشْيَاءَ لَوْلاهُمَا مَا كُنْتُ أَدْرِيهَا (٢)

أخبرنا الخلادىُّ ، حدثنا أحمد بن محمد الصُّوفى ، حدثنا محمد بن صالح البغدادىّ، قال : سمعت إبراهيم الحَجَنىَّ (٣) يقول : دلائل الحب تُعْرَف فى المحبِّ ، وإن لم ينطق(٤) لسانه .

* * *

---

(١) العين بمنزلة الصحيفة التى تَخُطُّ ما يضمره المرءُ من عداوة أو محبة . . .
فإذا ما أبصرتها عينٌ قرأت حَالَ صاحبها . . . لذا من لم ينفعك لحظه لم ينفعك وعظه .

(٢) وهنا يقولُ الشاعر لصاحبه فَاضحًا : إن عينى قرأت باطنك فى عينك ، فعرفتُ من عينك أسرارًا وأخبارًا لولا عيناك ما عرفتها وجهلت سبيلها .

(٣) فى الأصل : الحجبى .

(٤) فى الأصل : تنطق .

ذِكْرُ ائْتِلافِ النَّاسِ وَاخْتِلافِهِمْ[1]

أخبرنا عمران بن موسى بن مجاشع السَّخْتِيانى ، حدثنا عبد الأعلى بن حماد النَّرْسِىّ، حدثنا حماد بن سلمة ، عن سهيل بن أبى صالح ، عن أبيه ، عن أبى هريرة، قال : قال رسول الله ﷺ : **« الأَرْوَاحُ جُنُودٌ مُجَنَّدَةٌ ، فَمَا تَعَارَفَ مِنْهَا ائْتَلَفَ ، وَمَا تَنَاكَرَ مِنْهَا اخْتَلَفَ[2] »** [3] .

حدَثنا أبو خليفة ، حدثنا محمد بن كثير ، أخبرنا سفيان الثَّوْرِىُّ ؛ عن حبيب بن أبى

---

(1) فى الأصل : وافتراقهم .

(2) روى المؤلف هذا الخبر مرتين ، منسوبًا إلى النبى فى الأول ، وإلى على فى الثانية .

(3) أخرجه مسلم : (٤/٢٠٣١) فى « البر والصلة » ، باب : الأرواح جنود مجنَّدة (٢٦٣٨/١٥٩)، وأحمد : (٢/ ٢٩٥ ، ٥٢٧) ، والخطيب فى « التاريخ » : (٣/ ٣٢٩ ، ٤/ ٣٥٢) ، من طريق سهيل بن أبى صالح عن أبيه عن أبى هريرة به . وكذا أخرجه البخارى فى « الأدب المفرد » (٩٠٨) .

وأخرجه أبو داود : (٢/ ٦٧٥) فى « الأدب » ، باب : من يؤمر أن يجالس (٤٨٣٤) ، وأحمد : (٢/ ٥٣٩) من طريق جعفر بن برقان عن يزيد بن الأصم عن أبى هريرة به .

وأخرجه البغوى فى شرح السنة : (٦/ ٤٦٠) برقم (٣٣٦٥) بتحقيقنا من طريق محمد بن عمرو عن أبى سلمة ، عن أبى هريرة .

ويشهد له حديث عائشة رواه البخارى فى « الأدب المفرد » (٩٠٦ ، ٩٠٧) ، وأبو يعلى (٤٣٨١)، والقضاعى فى « مسند الشهاب » (٢٧٤) ، عن يحيى بن سعيد ، عن عمرة بنت عبد الرحمن عن عائشة مرفوعًا به .

وعلقه البخارى : (٦/ ٤٢٦) فى أحاديث الأنبياء ، باب : الأرواح جنود مجندة (٣٣٣٦) بهذا الإسناد.

وقال الهيثمى فى « المجمع » : (٨/ ٩١) : رواه أبو يعلى ورجاله رجال الصحيح .

ويشهد له حديث علىٍّ ، رواه أبو نعيم فى « الحلية » : (٤/ ١١٠ - ١١١) عن الأعمش عن أبى وائل عنه ، وقال : غريب من حديث الأعمش لم نكتبه إلا بهذا الإسناد .

وأخرجه العقيلى : ١/ ١٣٥ من طريق سالم بن عبد الله بن عمر عن أبيه عنه به .

وقال العقيلى : هذا الحديث يعرف من حديث إسرائيل عن أبى إسحاق عن الحارث عن على موقوفًا ، كما يشهد له حديث سلمان أخرجه أبو نعيم فى « الحلية » : (١/ ١٩٨) وينظر « مجمع الزوائد»: (٨/ ٩١) .

=

ثابت ، عن أبى الطفيل ، قال : قال علىٌّ : الأرواح جنود مُجندة ، فما تعارف منها ائتلف وما تناكر منها اختلف .

قال أبو حاتم - رضى الله عنه - : سبب ائتلاف الناس وافتراقهم - بعد القضاء السابق - هو [1] تعارُف الرُّوحين ، وتناكرهما [2] ، فإذا تعارف الرُّوحان ، وجدت الألفة بين نفسيهما ، وإذا تناكر الرُّوحان وُجِدت الفُرقة بين جسميهما .

ولقد حدثنا محمد بن المهاجر ، حدثنا محمد بن عبد الله بن مهران ، حدثنا يوسف ابن يعقوب الصُّفَّار ، حدثنا أبو بكر بن عيَّاش ، عن أبى يحيى ؛ عن مجاهد ، قال :

= وحديث ابن عباس رواه السهمى فى « تاريخ جرجان » ص (٢٤٤) .

وحديث ابن مسعود رواه الطبرانى فى الكبير : (١٠/ ٢٨٣) برقم (١٠٥٥٧) ، وفيه عن عبد الله بن مسعود أو غيره .

وقال الهيثمى : (٨/ ٩١): رجاله رجال الصحيح ، وكذا قال : (١٠/ ٢٧٦) وينظر « المقاصد الحسنة » ص : (٥٠ - ٥٢) ، والعجلونى فى « كشف الخفا » : (١/ ١١١ - ١١٣) ، وقال الحافظ فى « الفتح » : (١٠/ ٤٢٦) : قوله : (الأرواح جنود مجندة .. إلخ) ، قال الخطابى : يحتمل أن يكون إشارة إلى معنى التشاكل فى الخير والشر والصلاح والفساد ، وأن الخيِّرَ مِنَ الناس يحن إلى شكله ، والشرير نظير ذلك يميل إلى نظيره فتعارف الأرواح يقع بحسب الطباع التى جبلت عليها من خير وشر ، فإذا اتفقت تعارفت ، وإذا اختلفت تناكرت ، ويحتمل أن يراد الإخبار عن بدء الخلق فى حال الغيب على ما جاء أن الأرواح خلقت قبل الأجساد ، وكانت تلتقى فتتشاءم ، فلما حلت بالأجسام تعارفت بالأمر الأول فصار تعارفها وتناكرها على ما سبق من العهد المتقدم ، وقال غيره : المراد أن الأرواح أول ما خلقت خلقت على قسمين ، ومعنى تقابلها أن الأجسام التى فيها الأرواح إذا التقت فى الدنيا ائتلفت أو اختلفت على حسب ما خلقت عليه الأرواح فى الدنيا إلى غير ذلك بالتعارف . قلت : ولا يعكر عليه أن بعض المتنافرين ربما ائتلفا ، لأنه محمول على مبدأ التلاقى ، فإنه يتعلق بأصل الخلقة بغير سبب ، وأما فى ثانى الحال فيكون مكتسبًا لتجدد وصف يقتضى الألفة بعد النفرة كإيمان الكافر وإحسان المسىء، وقوله : « جنود مجندة » ، أى أجناس مجنسة أو جموع مجمعة ، قال ابن الجوزى : ويستفاد من هذا الحديث أن الإنسان إذا وجد من نفسه نفرة ممن له فضيلة أو صلاح فينبغى أن يبحث عن المقتضى لذلك ليسعى فى إزالته حتى يتخلص من الوصف المذموم ، وكذلك القول فى عكسه ، وقال القرطبى : الأرواح وإن اتفقت فى كونها أرواحًا لكنها تتمايز بأمور مختلفة تتنوع بها ، فتتشاكل أشخاص النوع الواحد وتتناسب بسبب ما اجتمعت فيه من المعنى الخاص لذلك النوع للمناسبة ، ولذلك نشاهد أشخاص كل نوع تألف نوعها وتنفر من مخالفها ، ثم إنا نجد بعض أشخاص النوع الواحد يتآلف وبعضها يتنافر ، وذلك بحسب الأمور التى يحصل الاتفاق والانفراد بسببها .

(١) فى الأصل : فهو .

(٢) فى ط : وتنكار الروحين .

رأى ابن عباس رجلاً ، فقال : إن هذا لَيُحِبُّنى ، قالوا : وما علمك ؟ قال : إنى لأُحبُّه ، والأرواح جنود مجنَّدة ، فما تعارف منها ائتلف ، وما تناكر منها اختلف .

وأنشدنى محمد بن أبى علىٍّ الخَلادى ، أنشدنى أحمد بن محمد بن بكر الأَبناوى(١) :

[البسيط]

إِنَّ القُلُــــوبَ لأَجْنَادٌ مُجَنَّدَةٌ ... لله فِي الأَرْضِ بِالأَهْوَاءِ تَعْتَرِفُ

فَمَــــا تَعَارَفَ مِنهَا فَهوَ مُؤْتَلِفٌ ... وَمَا تَنَاكَرَ مِنهَا فَهوَ مُخْتَلِفُ (٢)

أنبأنا ابن مُكرَّم بالبصرة ، حدثنا بشر بن الوليد ، حدثنا الحكم بن عبد الملك ، عن قتادة ، فى قول الله تعالى : ﴿ إِلا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ ، وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ ﴾ قال : للرحمة وللطاعة (٣) ، فأما أهل طاعة الله فقلوبهم وأهواؤهم مجتمعة ، وإن تفرقت ديارهم ، وأهل معصية الله قلوبهم مختلفة ، وإن اجتمعت ديارهم .

وأنشدنى منصور بن محمد الكُرَيزىُّ : [الطويل]

فَمَـــا تُبصِرُ العَينَانِ وَالقَلْبُ آلِفٌ ... ولا القَلْبُ وَالْعَيْنَانِ مُنْطَبِقَــــانِ

وَلَكِنْ هُمَا رُوحَانِ يَعْرِضُ ذَا لِذَا (٤) ... فَيَعْــــرِفُ هَذَا ذَا (٥) فَيَلْتَقِيَانِ (٦)

قال أبو حاتم - رضى الله عنه : إن من أعظم الدلائل على معرفة ما فيه المرء ، من تقلبه وسكونه : هو الاعتبار بمن يخادنه (٧) ويَوَدُّه ؛ لأن المرء على دين خليله ، وطير السماء على أشكالها تقع .

---

(١) الأبناوى : منسوب إلى الأبناء ، فهم بقايا من العجم سكنوا اليمن بعد سيف بن ذى يزن .

(٢) هذان البيتان فى نظم معنى حديث النبى ﷺ : « الأَرْوَاحُ جُنُودٌ مُجَنَّدَةٌ مَا تَعَارَفَ مِنْهَا ائْتَلَفَ ، وَمَا تَنَافَرَ مِنْهَا اخْتَلَفَ » . فيقول : إذن الأصل فى المعرفة هو تعارفُ الأرواح لا الأبدان وقد نصَّ الله على هذا ، فقال فى ذكر حال المشركين : ﴿ تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّى ﴾ [الحشر : ١٤] ، وقال تعالى : ﴿ لَوْ أَنْفَقْتَ مَا فِى الأَرْضِ جَمِيعًا مَا أَلَّفْتَ بَيْنَ قلوبهم ﴾ [الأنفال : ٦٣] .

(٣) فى ط : والطاعة . (٤) فى ط : تعرض ذى لذى . (٥) فى ط : ذى .

(٦) هذا البيت فى فهم معناه مذاهبُ منها : على اعتبار حالية الواو أنه عن حقيقة واقعة ، وهى أنَّ العينين لا تبصران العيوبَ ولا المساوئَ ما دام القلبُ قد ألفَ وأحبَّ إذ القلبُ هو أصل المحبة ، فإذا ما ألف كفى العينَ النَّظَر ، وإذا ما ألف أعمى العَيْنَ عن رؤيَة عيب بالمألوف .

وكذلك لا تبصرُ العينُ صاحبًا ، أو عيبًا ، وهى مطبقة مغلقة ، وأحرى بهما هذا إن انطبق القلبُ هو الآخر ألا تبصر شيئًا .. وهنا يؤكِّدُ أنَّ القلبَ - وهو كناية عن الروح - هنا هو الذى يصادفُ شقيقه وحبيبه فيعرفه ويألفه قبل العين ، ثم العينُ تابعةٌ له فى حبِّه .

وهذان البيتان ، هذا وسابقه فى شرح معنى الحديث السابق كذلك .

(٧) فى ط : يحادثه .

وما رأيت شيئًا أدلَّ على شيء ، ولا الدخانَ على النار ، مِثلَ الصاحب علَى الصاحب.

وأنشدني الأبرش : [الهزج]

يُقَـــاسُ المَرْءُ بِالَمـــرْءِ ۞ إِذَا مَا هُوَ مَا شَــــاهُ (١)
وَذُو العَرِّ إِذَا مَا احْـــتَكْ ۞ كَ ذَا الصِّحَّةِ أَعْدَاهُ (٢) ، (٣)
وَلِلشَّيْءِ عَلَى (٤) الشَّـــيْءِ ۞ مَقَايِـــيسُ وَأَشْبَـــاهُ (٥)
وَلِلــــرُّوحِ عَلَى الـــرُّوحِ ۞ دَلِيلٌ حِـــينَ يَلْقَـــاهُ (٦)

حدثنا أبو خليفة ، حدثنا محمد بن كثير العَبَدِيُّ ، أنبأنا سفيان ، عن أبي إسحاق ، عن هبيرة ، قال : اعتبر الناسَ بأَخْدَانِهِم (٧) .

أنبأنا محمد بن المهاجر ، حدثنا محمد بن موسى الأخباريُّ ، حدثنا محمد بن صالح العدويُّ ، حدثنا الحسين بن جعفر بن سليمان الضُّبَعِيُّ ، قال : سمعت أبي يقول : سمعت مالكًا يقول : الناس أشكال كأجناس الطير ، الحَمام مع الحَمام ،

---

(١) إنها ينقاس ويقدَّرُ الفتى بصاحبه الذى يماشيه ويؤاخيه وذلك أنَّه إذا رافقه وعاشره ، فإنه يتطبع به .

(٢) العَرُّ ، بالفتح : الجرب ، وتنسب هذه الأبيات إلى أبي العتاهية كما في « عيون الأخبار » .

(٣) ومن كان ذا حُسْنٍ حَسُنَ بِهِ صديقهُ ، ومن يَكُ ذا سفه فكذا يكون صديقُهُ ، إذا الأطباعُ كالجرب تنتقلُ كأشد العدوى وأفتكها . . . !!

(٤) في ط : من

(٥) وكل امرىء يصاحبُ من كان على شاكلته ونهجته ، والطيورُ على أشكالها تقَعُ ، وتتقارب الأشباهُ والنظائر كُلٌّ إلي شبْهِهِ ونَظِيره .

(٦) وكذلك تتعارفُ الأرواح ، وتتآلف ، وكل يهيمُ مع مثله ويعرفه حين لُقْيَتِهِ وابتصاره . .

وهذه الأبيات السابقة قد جاءت معانيها في شعرٍ كثير ، ومنها قول أبي العتاهيَة :

المرء نَحْوُ مِنْ خَدينه ۞ فبمَا تكشـــف من دَفِينه
أيُّ امرىء يخفى علـيـ ۞ ـكَ إذا نظرتِ إلى قَرِينه

وقال :

تَصفَّى الخَدينَ مَا استطعـــت ۞ ألا إنما كل امرىء بخـــدينه
وأفضلُ هَدْىٍ هَدْىُ سمتِ محمَّد ۞ نَبِيِّ تَنَقَّـــاهُ الإلَه لدينـــه

(٧) الخِدْن : بكسر الخاء : الصاحبُ ، والجمع أخدان : يريد أن الصديق يدل على صديقه كَيْسًا وحمقًا ؛ لأنه لابد من قدر من المناسبة بينهما في الطباع والمزاج ، وقد يتوافق الصديقان في معنى ، ويختلفان في معانٍ كثيرةٍ بعده ، كالذى زعمه الجاحظ بين الكميت والطرماح (انظر البيان والتبيين ١ : ٢٧) .

والغراب مع الغراب ، والبَطُّ مع البط ، والصعْوُ مع الصعْوِ (١) ، وكل إنسان مع شكله.

وأنشدنى المنتصر بن بلال الأنصارى [الطويل] :

يَزِينُ الفَتَى فِى قَوْمِهِ وَيَشِينُـــهُ وَفِى غَيْرِهِمْ : أَخْدَانُهُ وَمُدَاخِلُــهُ (٢)
لِكُـــلِّ امْرِىءٍ شَكْلٌ مِنَ النَّاسِ مِثْلُهُ وَكُلُّ امْرِىءٍ يَهْوِى إِلَى مَنْ يُشَاكِلُهُ (٣)

وأنشدنى محمد بن عبد الله بن زَنْجِى البغدادىّ : [البسيط]

إِنْ كُنْتَ حُلْتَ ، وَبِى اسْتَبْدَلْتَ مُطَّرِحًا وُدا ، فَلَمْ تَأْتِ مَكْرُوهًا وَلا بِدَعَا(٤)
فَكُلُّ طَيْرٍ إِلَى الأَشْكَالِ مَوْقِعُهَــا وَالفَرْعُ يَجْرِى إِلَى الأَعْرَاقِ مُنْتَزَعَا(٥)

قال أبو حاتم - رحمة الله (٦) عليه : العاقل يجتنب مماشاة المُريب فى نفسه ، ويفارق صحبة المتهم فى دينه ؛ لأن من صحب قومًا عُرف بهم ، ومن عاشر امرءًا نُسب إليه ، والرجل لا يصاحب إلا مثله أو شكلَه ، فإذا لم يجد المرء بدا من صحبة الناس ، تحرَّى صحبة مَنْ زانه إذا صحبه ، ولم يَشِنْه إذا عُرِف به ، وإن رأى منه حسنة عَدَّها ، وإن رأى منه سيئة سَتَرها ، وإن سكت عنه ابتدأه ، وإن سأله أعطاه .

فأما اليوم ، فأكثر أحوال الناس تكون ظواهرها بخلاف بواطنها ، وما أُشَبِّهُ عشرتهم إلا بما أخبرنى محمد بن يعقوبَ البَغْلانىّ ، حدثنى عبد الصمد بن الفضل ، حدثنا الحسين بن سهل التيَّاس ، عن أبى عبيدة ، قال :

تكلم عُصْفُور فى بنى إسرائيل مع فَخٍّ ، فقال العصفور : انحناؤك لماذا ؟ قال : من العبادة . قال : دفنك فى التراب لماذا ؟ قال : من التواضع . قال : فما هذا الشَّعْر ؟

---

(١) الصعو : طائر أصغر من العُصْفُور ، أحمر الرأس ، جمعه صعاء (اللسان) .

(٢) إنما المرء بأصحابه ، وبحسب صحبه يكون باطنه فينقاس فى الناس بذلك ، فإمًّا إلى عزٍّ وزَيْن ، وإما إلى الذُّلِّ القَبيح والشَّيْنِ .
هذه الأبيات فى ذكر تشاكل الأصحاب فيقول :

(٣) فكل امرئٍ يهوى شكله ، ويميل إليه ، فمن كان ذا زين هوى الخيرَ البرَ ، وإلا فإنَّهُ يهوى الرَّذلَ النَّذلَ .
هذان البيتان فى معنى سابقيهما ، فيقول :

(٤) أيها التَّاركى والمستبدل بى غيرى ، لا عَتْبَ عليك فى صنيعك ، ولا نكير ، فإنَّما أنت تَبِيع. مَنْ جَانستَهُ فى طباعه ، وخصاله . . .

(٥) فإن الطَّيور تآلفُ أشكالها ، وأمثلتها ، وإنَّ الفرع لينزعُ ويحنُّ إلى أصله فلا عليك . . :
فقد تبعث أشكالك وأمثالك فى غيهم ، وضلالهم أو فى صلاحهم ، ولا تدرى عنى المدح أم الذمَّ؛ لأن الأبيات مجتزأة وتحتمل الوجهين .

(٦) فى الأصل : رحمه الله .

قال : هذا لباسى . قال : ما هذا الطعام ؟ قال : هذا أعددتُه لعابر السبيل . قال : أفتأذن (١) لى فيه ؟ قال : نعم . قال : فنقر العُصْفُور نَقْرة ، فأُخذ بعنقه ، فجعل العصفور يقول : شَغْ ، شَغْ ، شَغْ . وقال : والله لا يَغُرَّنِّى قارئ بعدك أبدًا .

وأنشدنى محمد بن أبى على ؛ لابن أبى اللُّقَيْشِ (٢) : [السريع]

إِنْ كُنْتَ تَبْغِى العِلْمَ أَوْ نَحْوَهُ ... أَوْ شَاهِدًا يُخْبِرُ عَنْ غَائِبِ (٣)

فَاعْتَبِرِ الأَرْضَ بِأَسْمَائِهَـــــا ... وَاعْتَبِرِ الصَّاحِبَ بِالصَّاحِبِ (٤)

وأنشدنى محمد بن إسحاق بن حبيب الواسطىّ : [الطويل]

تَعَارَفُ أَرْوَاحُ الرِّجَالِ إِذَا الْتَقَـوْا ... فَمِنْهُــــمْ عَدُوٌّ يُتَّقَى وخَلِيلُ (٥)

كَذَاكَ أُمُورُ النَّاسِ، وَالنَّاسُ مِنْهُمُ ... خَفِيفٌ ، إِذَا صَاحَبْتَهُ وَثَقِيلُ (٦)

وأنشدنى المنتصر بن بلال الأنصارىّ : [الكامل]

اجْعَلْ قَرِينَكَ مَنْ رَضِيتَ فِعَالَهُ ... وَاحْذَرْ مُقَارَنَةَ القَرِينِ الشَّائِنِ (٧)

كَــــمْ مِنْ قَرِينٍ شَائِنٍ لِقَرِينِهِ ... وَمُهَجِّنٍ مِنْهُ لِكُلِّ مَحَاسِـــنِ (٨)

قال أبو حاتم - رضى الله عنه : إن من الناس من إذا رآه المرء تعجب (٩) به ، فإذا ازداد

---

(١) فى ط : فتأذن . (٢) فى الأصل : اللقيس .

(٣) أيها المبتغى مقياسًا وعلمًا تقيس به ما لا تعرفه بما تعرفه فاعتبر هذا فى الأرض بما سُمِّيَتْ له ، إِذْ أسماؤها مأخوذةٌ من طبائعها وخصائصها

فقد سموها البسيطةَ ؛ لأنها متسعة ومبسوطة .

(٤) وسموها الغبراء ؛ لأن الغُبَارَ والتراب يعلو يابسها ، وسموها بغير كذلك كثير . .

واعتبر مثل الأرض بالصاحب لأنه صورة لصَديقه وعنوان له .

(٥) إنما يتعارفُ الرجال بأرواحهم ، إِذْ يميل كلّ جنس إلى جنسه ، ومن أجناس الرِّجال التَّقىُّ البرُّ الَّذِى يميلُ إليه ذو الصلاح وَيَوَدُّ لَوْ عَالَقه ، وكذلك هناك الفسوقُ الأشِرُ ، وإليه تهفوا أرواح الأشرار.

(٦) وهكذا أمور الناس ومقاصدهم رهنٌ بين البرِّ والضرِّ وكل فى شأنه يسعى ، وكذلك فى طباعهم منهم الحيىُّ الخفىُّ ومنهم الدَّنِسُ الثقيل ، ذو القحة والصَّلافة .

(٧) هذان البيتان فى التنبيه على صحبة الفضلاء ومجانبة السفهاء فيقولُ :

اجعل صاحبك ، ومقارنك ذا الزين فى فعل ، والصِّدق فى قوله :

واحذر من ذى الشين فى أحواله ، والبذىء فى مقاله .

(٨) فكم من صاحب برٍّ ما إِن صاحب ذا شين حتى انحلَّ عِقْدُ حمده ، وعلاه كُلُّ قبيح ، ونفر عنه كُلُّ مليح .

(٩) فى ط : يعجب .

به علمًا ازداد به عُجبًا ، ومنهم من يبغضه حين يراه ، ثم لا يزداد به علمًا إلا ازداد له مَقتًا ، فاتفاقهما (١) يكون باتفاق الروحين قديمًا ، وافتراقهما يكون باقترابهما ، وإذا (٢) ائتلفا ثم افترقا فِراقَ حياة من غير بُغض حادث ، أو فراقِ مَمات ، فهنالك الموت الفظيع، والأسف الوجيع ، ولا يكون موقفٌ أطولَ غُمَّةً ، وأظهر حسرة ، وأدومَ كآبةً ، وأشد تأسفًا ، وأكثر تلهفًا ، من موقف الفراق بين المتآخيين ، وما ذاق ذائق طَعمًا أمرَّ من فراق الخِلَّين ، وانصرام القرينين .

حدثنا محمد بن يعقوب الخطيب ، قال : سمعت معمر بن سهل يقول : سمعت جعفر بن عون يقول : سمعت مِسعر بن كِدَام يقول : [الكامل]

لَنْ يَلْبَثَ القُرَنَاءُ أَنْ يَتَفَرَّقُوا ... لَيْلٌ يكُرُّ عَلَيْهِمُ ونَهارُ (٣) ، (٤)

أنبأنا محمد بن المهاجر المعدل ، حدثنا أبو أحمد بن حماد البربريّ ، حدثنا الزُّبير بن بكار ، حدثني محمد بن موسى أبو غَزِيّة ، قال : كان أبو العتاهية إذا قدم المدينة يجلس إليَّ ، فأراد مرةً الخروجَ ، فودعني ، وقال [الخفيف] :

إِنْ نَعِشْ نَجْتَمِعْ ، وإِلا فَمَا أشغل (٥) ... مَــــنْ مَاتَ من (٦) جَمِيعِ الأَنامِ (١) !

---

(١) فى الأصل : فاتفاقهم . (٢) فى الأصل : فإذا .

(٣) البيت لجرير (ديوانه ص ٢٠١) ، وقد تمثل به مِسْعر بن كِدام .

(٤) هذا البيتُ الفردُ فى ذكر حقيقةِ أليمةٍ تنفطر لها القلوبُ ، وتأسى لها الأنفُسُ وهى : أن القرناء لا بدَّ أن يتفرقوا ، وأنَّ الأحياء إلى فِصام وفراق ، فيقول : مهما طال الأمدُ ، وحَسُنَ الانسجام ، ونامت عنا الأيام ، وعشنا فى سعة وسلام .

لا بد من قارعة وغاشية تَعُمُّ القاصى والدانى ، وهى الفراق ، وذلك بكرِّ الأيام والليالى ، فأنفاس الحيِّ خُطَاهُ إلى أجله ، ولا يزال المرء فى هدم عمره منذ ولدته أمه ، إنَّما هو أيام كلما ذهب يومه ذهب بعضه ، وصدق من قال :

أشاب الصغير وأفنى الكبيـ ... ـر مَرُّ الليالى وكرُّ العشىّ

وقال غيره :

رب قـوم قد أناخوا عيسهم ... فى ذُرا مجدهم حين بَسَق

سكـت الدهر عليهم مدة ... ثم أبكاهم دمًا حين نطق

وفى هذا المعنى كلامٌ كثيرٌ مِنْ أروعه كلامٌ لابن حزم فى « مداواة النفوس » ، فليراجع لأهميته .

(٥) فى ط : أشغل . (٦) فى ط : عن

(٧) يقول : إما حَيِينا واجتمعنا وبلغنا آمالنا طاب معاشنا ، وإلا فالموت داهية دهياء ، وإذا ما أتى شغل صاحبه بما فيه من النعيم أو الجحيم عن الأنام طرًا .

حدثنا محمد بن أبي عليّ ، قال : أنشدنا محمد بن موسى السمريّ ، أنشدنا أحمد ابن عبد الأعلى الشيبانيّ : [الطويل]

فَـــوَا (١) عَجَبًا ممَّنْ يمدُّ يمينَهُ إِلَى إِلْفِه عِنْدَ الفِرَاقِ ، فَيُسْـــرِعُ
[ولَمَّا رأَيْتُ البَيْنَ قَدْ جَـدَّ جَدُّهُ وأَيْدِى المَطَايَا بالأَحِبَّةِ تُسْرِعُ] (٢)
ضَعُفْتُ عَنِ التَّوْدِيعِ لِمَّـــا رأَيْتُهُ فَصَافَحْتُهُ بالقَلْبِ ، والعَيْنُ تَدْمَعُ (٣)

وأنشدنى ابن فياض للبُحتريّ : [الكامل]

أَللهُ جَـــــارُكَ فِى انْطِلاقِكْ تِلْقَاءَ شَامِكَ ، أَوْ عِـــرَاقِكْ (٤)
لا تَعْذُلَنِّى فِى مَسِـــــــيـ ـرِى يَوْمَ سِرْتُ ، ولَمْ أُلاقِكْ (٦)
إِنِّى خَشِـــيتُ مَوَاقِفـــا لِلْبَيْنِ تَسْفَحُ غَرْبَ مَاقِك(٦) ، (٧)
وَعَلِمْتُ مَا يَخْشَى المُـــوَدِّعُ عِنْدَ ضَمِّكَ وَاعْتِنَاقِـــكْ (٨)
فَتَرَكْـــــتُ ذَاكَ تَعَمُّـــــدًا وَخَرَجْتُ أَهْرُبُ مِنْ فِرَاقِك(٩)

---

(١) فى ط : فيا . (٢) سقط فى ط .

(٣) هذان البيتان فى وصف الفراق فيقول :

ما أعجب هذه الحال مع حالتى ، فحالة غيرى أنه يتلهف ويتحرق على حبِّه عند توديعه ، فيسرع إليه بالسلام ، وأما حالتى فإنِّي ضعيف . إما البدن ، وإما رغمًا عنى أنْ أمدَّ يمينى لأصافح حبِّى عند السلام كغيرى لذا ، فلا أتمالك إلا أن أصافحه بقلبى خفقانًا وحسرةً ، وعينى منهلّة الدَّمع ، وكأنها الأخرى تصافحه .

(٤) هذه الأبيات فى وصف حال فراق كذلك ، فيقول : أيها الحبيب لك اللهُ حين سفرك ، وحيثما قصدت ناحيةً إلى العراق أو الشام ، وحسبك اللهُ جارًا ؛ فهو خيرٌ حافظًا ، وهو أرحم الراحمين.

(٥) وأسألك أن تتلمس لى العفوَ والعذر ، إذ لم ترنى حين سفرك وانطلاقتك .

(٦) تسفح : تسكب ، والغرب : مسيل الدمع حين يخرج من العين ، والمآق : لغة فى مأق العين، وهو مقدَّمُها حيث تسيل الدموع ، وقيل : هو مؤخَّرُها .

(٧) فما ذلك منى هجر أو جفاءٌ ، كلا . . بل خشيةٌ تحسُّرِك ، وتأسُّفِك الذى يورثك البكاء فتدمع عيناك ، ولا صبر لى على بكائك وإهاجتك بى .

(٨) كذلك لا أريدُ أن أهيجك بضمِّك واعتناقك ، فأبعث فيك الحسرة على الفرقة ، فتذوب كمدًا وتحمل هما يؤذيك ويرديك ، وعن قصدك يثنيك .

(٩) فلمَّا خشيت هذا عليك حرمتُ نفسى من لقائك وتعمدت التخفى عنك ، والهروب منك حين سفرك وفراقك .

وأنشدنى منصور بن محمد الكُريزيُّ : [الطويل]

أَفِى كُلِّ يَوْمٍ حبَّةُ القَلْبِ (١) تُقْرَعُ ... وَعَيْنِى لِبَيْنٍ مِنْ ذَوِى الوُدِّ تَدْمَعُ
فَلا النَّفْسُ مِنْ تَهْيَامِهَا مُسْتَفِيقَـةٌ ... وَلا بِالَّذِى يَأْتِى بِهِ الدَّهْرُ تَقْنَعُ (٢)

وأنشدنى محمد بن بُنْدار بن أصرَم : [الطويل]

أَيَا قَلْبُ لا تَجْزَعْ مِنَ البَيْنِ وَاصْطَبِرْ ... فَلَيْسَ لِمَا يُقْضَى عَلَيْكَ بِدَافِـــعِ
تَوَكَّلْ عَلَى الرَّحْمَنِ إِنْ كُنْتَ مُؤْمِنًا ... يُجِزْكَ ،وَدَعْنِى مِنْ نُحُوسِ الطَّوَالِعِ
وَكُلُّ الَّذِى قَدْ قَدَّرَ اللهُ وَاقِـــعٌ ... وَمَا لَمْ يُقَدِّرْهُ فَلَيْسَ بِوَاقِـــعِ (٣)

---

(١) فى ط : حين البين .

(٢) هذان البيتان فى التحسر على فراق الأحبة فيقول : قد تلظى حزنًا وشوقًا من وَدُود مفارقٍ . فلا أكاد أتنفس الراحة ، أو أشمها فلا أستفيقُ من الجوى ، وأنزعه عنى فأسلو الأحبَّاءَ لأستريح، ولا تركن نفسى كذلك ، وتسلم بما طرقها ، وَحَلَّ بها من حوادث الدّهر فتكفّ ، وتلك حالةٌ يكاد لها قلبُ الشفيقِ يَذُوبُ . . !!

(٣) هذه الأبيات فى « التصبر والتسلى عن فراق الأحبة » فيقول : يخاطب فؤاده هنا قائلاً : يا قلبُ تجلّد ولا تهلع ، ويا نفسى لا تطيرى شُعَاعًا فلا بدَّ مما ليس منه بدٌّ ، وليس لما قضى الله ردٌّ . .

وإذا المنية أنشبت أظفارها ... ألفيتَ كل تميمة لا تنفع

وقال غيره :

حكم المنية فى البرية سارى ... ما هـــــذه الدنيا بدار قرار

ومالك من حيلة ولا ملاذ إلا بالله - عزَّ وجَلَّ - فبه اعتصم ، وإليه لُذْ ، وعليه توكل . .

بالله ثق وله أنب وبه استعن ... فإذا فعلت فأنت خير معان

وذلك من مياسم الإيمان . . ودع عنك التشكك والتَّشاؤم . . . ففى العصمة بالله الأجرُ والمثوبة والإجارة من كل بَلِيَّةٍ ورزيّة .

واعلم أن ما قدره الله وقضى به هو واقع ، وإن لم تَخَلْهُ ، وهو قريب منك ، وإن بَعُدْتَ ، وما لم يقدره الله ، فهيهات أن تصيبك منه بدٌ أو تغشاك منه غاشية . .

وذلك نظم لمعنى قول النبى ﷺ لابن عباس : « احفَظْ اللهَ يَحفَظْكَ ، احفظ اللهَ تَجِدْهُ تَجاهَكَ ، إذَا سألت فاسألِ اللهَ ، وإذا استَعَنْتَ فاستعنْ بالله ، واعلم أنَّ الأمة لو اجتَمَعَتْ عَلى أنْ ينفعوك بشىء فلن ينفعوك إلا بشىء كتبه اللهُ عليك ، ولو اجتمعت على أن يضرُّوك بشىء لن يضرُّوك إلا بشىءٍ قد كتبه الله عليك . . . رفعت الأقلامُ وجفت الصُّحُفُ » .

وقال أبو العتاهية :

تجرى المقادير على غرز الإبر ... وكل شىءٍ بقضاء وقَـــدَر
اللهُ حَسْبى فى جميع أمْرِى ... به اعتمادى وإليه صَبْرِى
اللهُ مولانا ونِعْـــمَ المَولى ... فقل لمن يعصيه أولى أولى =

وأنشدنى عبد الرحمن بن يحيى بن حبيب الأندلسىّ لنفسه : [الكامل]

نَطقَــتْ مَدَامِعُهُ بِمَا فِى قَلْبِه (١) وَعَنِ الجَوَابِ لِسَانُهُ لا (٢) يَنْطِقُ

فَكَــــأنَّهُ مِمَّا يُقَاسِى قَلْبُهُ دَنِفٌ مَرِيضٌ أَوْ أَسِيرٌ مُوثَــقُ

وكَــأنَّمَا الأَشْجَانُ فِى أَحْشَائِهِ لِفِرَاقِ أَهْلِ الوُدِّ نَارٌ تُحْـــرِقُ

كَيْفَ السُّلُوُّ ، وَهَلْ لَهُ مِنْ سَلْوَةٍ مَنْ بَانَ عَنْ أَحْبَابِه فَتَفَرَّقُوا! (٣) (٤)

= وفى هذا المعنى روائع من الشعر العربى نطالعه خاصة عند الخنساء - رضى الله عنها - فى مراثيها لأخيها صخر ولمالك بن الرَّيب ، وأبى ذؤيب الهذلى

وفى عينيته المشهورة وهى تاج الرثاء فى العربية فيقول :

أمِـــنَ المنُون وريبها تَتَوَجَّـــعُ ؟ والدهـــرُ ليس بمعْتِبٍ من يَجْزِعُ

قـالت أميمةُ :ما لجسمك شاحبًا منـــذ ابتذلت ومثل مالك ينفعُ

أمْ ما لجنبك لا يلائــم مضجعًا إلا أقضَّ عليك ذاك المضجـــعُ

فأجبتهـــا : أما لجســمى إنَّه أودى بنى من البلاد فودَّعُـــوا

أودى بنى وأعقبـونى غصـــةً بعـــد الرُّقاد وعبرةً لا تقلـــعُ

سبقـــوا هَوَىَّ واعنقوا لهواهُمُوا فتُخرموا !! ولكل جنب مصرع

فغبـــرتُ بعدهمُ بعيش ناصب وإخال أنى لاحـــق مستتبعُ

ولقد حرصتُ بأن أدافع عنهـــم وإذَا المنيةُ أقبلت لا تُدْفَـــــعُ

وإذا المنيةُ أنشــبت أظفارهـــا ألفيتَ كُلَّ تَميمةٍ لا تَنْفَـــــعُ

فالعينُ بعدهمـــو كأنَّ حِدَاقَهـا سملت بشوك فهى عــور تدمعُ

حتى كأنى للحوادث مـــروةٌ بصفا المشرَّقِ كلَّ يوم تقـــرع

وتجـــلدى للشامتين أريهـــموا أنى لريب الدهر لا أتضعضـــع

والنفس راغبـــــةٌ إذا رغبتها وإذا ترد إلى قليلٍ تقنـــــع

(١) فى الأصل : بماء غليله . (٢) فى الأصل : ما . (٣) فى ط : يتفرق .

(٤) هذه الأبيات فى وصفِ لوعةِ وأسى الفراق ، فيقول : هذا المحب يتأسى ويأسف كمدًا على فراق حبيبه حتى إنَّ لسانه ليعجم أن يبوح بما فى قلبه ، فتنوبُ عنه عينه بسفحِ دموعها ، وتَشْعَابِهَا عساها تطفىء نارَ الشَّوْق فى قلبه .

وتراه من فرط جواه ، ولواعج حزنه فى هموم وغموم قد علته صفرةٌ ، فكأنه مريض محمومٌ أو أسيرٌ مهمومٌ يعانى الأَسْرَ والكَرْبَ ، وما به حمَّةٌ ولا أسرٌ لكنَّما الحبُّ ولواعجُ الأحزانِ على فراق الخِلان وأعْظَم بها فرقة . . . !!

ومثل هذا ما له من سلوة ، إذ إنه بُتَّ عن أصوله اليَانِعَة ، وهم أحبابه وأخِلاؤه ، ومن بان عن الأحباب ، غدا حزينًا مفجوعًا لصيق التراب ، لا جامع لشتاته ولا دافع لفواته . . وحسراته .

قال أبو حاتم - رحمة الله عليه [1] : السبب المؤدِّى إلى إظهار الجَزع عند فراق المتواخيين: هو ترك الرضا بما [2] يوجب القضاء ، ثم ورود الشىء على مُضْمر الحَشَا ، بِضد ما انطوى عليه قديمًا ؛ فمن وطَّن نفسه [3] فى ابتداء المعاشرة عَلَى ورود ضد الجميل عليها من صحبته ، وتأمل ورود المكروه منه عَلَى غفلته ، لا يظهر الجزع عند الفراق ، ولا يشكو الأسَف والاحتراق ، إلا بمقدار ما يوجب العلم إظهاره .

ولقد أُولِعَ جماعة بالفراق [4] حتى إنهم خرجوا إلى ثَلْب الطيور ، وقدح [5] الدِّمَن ، وتأوَّلوا لعن نوح - عليه السلام - [على] [6] الغُراب [7] .

أنبأنا جعفر بن أحمد بن سِنان القطَّان ، بواسط ، حدثنا عمرو بن محمد بن عيسى الضُّبَعى ، حدثنا عبد الأعلى بن عبد الأعلى ، حدثنا الجَريرىُّ ، عن أبى السَّليل ، عن أبى مُرواح ، قال : بعث نوح الغراب والحمامة ، حيث استقرت السفينة على الجودى ، يلتمسان له الجُدَّ ، يعنى الأرض ، فأما الغراب فرأى جيفة فوقع عليها ، فأكل منها . وأما الحمامة فجاءت عاضَّةً على غصن شجرة بطين أحمر . قال : فدعا للحمامة بالبركة، وأما الغراب فلعنه ، وقال له قولاً شديدًا.

أنبأنا محمد بن جعفر بن الحسن [8] البغدادىّ ، حدثنا أحمد بن محمد بن الحسين [9] البَغوَىّ ، قال : قال سَليم بن منصور : أمرتْ ابنتى [10] ، [11] فاشتُرى لها أربعة غربان ، فلما رأتهن صرخت وبكت ، وكَتَّفتهن ، وجعلت تَضْربهن بالسوط ، حتى قتلتهنَّ جميعًا ؛ وأنشأت تقولُ : [الوافر]

---

(١) فى ط : رضى الله عنه . (٢) فى الأصل : لما . (٣) فى الأصل : النفس .

(٤) فى الأصل : ولع بجماعة الفراق . (٥) فى ط : ومدح .

(٦) سقط فى ط .

(٧) غراب نوح : يضرب مثلاً للرسول الذى لا يعود . أو يبطىء عن ذى الحاجة من غير إلحاح ، زعموا أن نوحًا أرسل الغراب من السفينة ليأتيه بخبر الماء ، فاشتغل بميتة وجدها ، ولم يعد إلى نوح حتى أرسل مكانه الحمامة ، فجاءته بالخير (المضاف والمنسوب الثعالبى) ، وفى عرائس المجالس للثعالبى : فدعا عليه نوح بالخوف ، فلذلك لا يألف البيوت .

(٨) فى الأصل : الحسين . (٩) فى الأصل : الحسن .

(١٠) هى لبنى بنت الحباب الكعبية الخزاعية ، صاحبة قيس بن ذريح وامرأته ، لهما أخبارٌ كثيرةٌ فى الحب والهيام ، ذكرها صاحب الأغانى فى « الجزء » (٩/ ١٨٠ - ٢٢٠) ، والأبيات المنسوبة هنا إلى لبنى ، نسبها صاحب الأغانى إلى قيس بن ذريح صاحبها : قال : (٩/ ١٨٥) : وسقط غراب قريبًا منه فجعل ينعق مرارًا ، فتطير منه ، وقال : .. الأبيات .

(١١) فى ط : لبنى .

لَقَــــدْ نَادَى الغُرَابُ بِبَيْنِ لُبْنَى فَطَارَ القَلْبُ مِنْ حَذَرِ الغُــــرَابِ

وَقَالَ : غَدًا تَبَايَنُ (١)دَارُ (٢) لُبْنَى وَتَنْأَى (٣) بَعْدَ وُدٍّ وَاقْتِــــرَابِ

فَقُلْتُ : تَعِسْتَ ، وَيْحَكَ مِنْ غُرَابٍ أَكُلَّ الدَّهْرِ (٤) سَعْيُكَ فِـي تَبَابِ

لَقَــــدْ أُولِعْتَ لا لُقِّيتَ خَيْرًا بِتَفْرِيقِ المُحِبِّ عَنِ الحَبَابِ(٥)(٦)

وأنشدنى إبراهيم بن على الطرقىّ (٧) ، قال : أنشدنى على بن إسحاق (٨) : [الوافر]

غُرَابَ البَيْنِ، وَيْحَكَ صِحْ بِقُرْبٍ كَمَا قَدْ صِحْتَ وَيْحَكَ بِالبِعَادِ!

تُنَادِي بِالتَّفَرُّقِ كُــــلَّ يَوْمٍ فَمَالَكَ بِالتَّوَاصُلِ لا تُنَادِي ؟!

أَرَانِي اللهُ رِيشَكَ عَنْ قَــرِيبٍ تُمَرِّطُهُ البُزَاةُ بِكُــــلِّ وَادِي

كَمَــا أَسْخَنْتَ يَوْمَ البَيْنِ عَيْنِي وَأَلْقَيْتَ الحَزَازَةَ فِي فُؤَادِي (٩)

---

(١) فى الأغانى : تباعد . (٢) فى الأصل : تباين دار .

(٣) فى الأصل : وتنأى . (٤) فى الأغانى : فكان . والتباب : الخسار .

(٥) لم يرد البيت الرابع فى الأغانى ، ولا فى تزيين الأسواق ، بتفصيل أشواق العشاق ، للشيخ: داود الأنطاكى من (٤٤ - ٥٢) .

(٦) هذه الأبيات فى التنفيس عن لوعةِ وأسى الفراق بتحميلها للغراب ، إذ إنَّهُ مشهورٌ بالشُّؤْمِ . . . فتقول : هذا الغرابُ نذيرُ شؤم ، وهلاك ، وفراق ، ورؤيته تدعو إلى خَوْفِ الشِّقَاقِ ، حتى إنَّ القلب ليطير من الفزعِ ويسقطُ من الجزعِ برؤيته ، حَذَار شؤمه وسوء بُشْرَتِه . .

فلسان حال الغراب أنَّه ينذرُ بالفراق ويصرع الأفئدة على غرة وجهارًا نهارًا بتعجيله الفراق غدًا وقوله: « ستنأى عن لُبْنَى وستهجر دارها ، وسينقضى حبها فحينها هبَّتْ متنشطة ، فنفثت مصرورها، وأخرجت غيظها بسبِّ الغراب ، والنعى عليه أنه دائمًا نذير شؤم وخراب ويباب . . . !!

وقالت له : إنك مفرقٌ للأحبة ، وهذا من دأبك بل أنت مولع كَلِفٌ شغفٌ بهذا التفريق . . فلا لقيت خيرًا ولا نلْتَ برًا ، بل خَابَ حَدُّكَ ، وَقَامَ ضِدُّكَ وَاستعبدك نِدُّكَ . . . !!

(٧) فى الأصل : الطرفى . (٨) فى الأصل : إسحاق المقدر .

(٩) فى الأبيات كسابقتها فى نفث المصرور على غراب البين والبور . .

فيقول : يا غرابَ الخرابِ واليبابِ ، والذَّهاب لا الإياب تبًا لَكَ ! من نذير شؤم جلوب ذام ولُؤم. . هلا كُنْتَ بشير اقتراب كما أنت نَذيرُ بعاد . . ؟! أنت زعيمُ الفرقة ، ونافخ بوقِهَا ومضرم نارهما فما بالك - أيها الهالك : لا تنادى بالوصل والقرب . . ؟!

فإمَّا عجزت وبالصَّمْت لُذْتَ ، فقبحك اللهُ كل قبحٍ ، وأرانى فيك يومًا كلونك حيث تُمَزِّقك النُّسُور وتقطع أوصالك ، وتفرق ريشك كما فرقت بين المحبين . . . !

وذلك جزاءً وفاقًا ، كما قد أفسدت أمرى وسملت عينى وحرَّقْتَ فؤادى ، وباعدت أَحْبَابِى ، وأفقدتنى مُرادى . .

أنبأنا إبراهيم بن محمد بن يعقوب ، بهمَدَان ، حدثنا عبد الكبير بن محمد الأنسى ، حدثنا بعض أصحابنا ، قال : مررت بالبصرة على باب دار ، فإذا بصوت غُراب يُجْلَد ، فدنوت من الدار ، فإذا صاحبة الدار ، وبين يديها جوَار ، وهى تأمر بجلده ، فقلت : أما تتقون الله فى هذا الغراب ! فقلن لى : هذا الغراب الذى قيل فيه : [الطويل]

أَلا يَا غُرَابَ البَيْنِ قَدْ طِرْتَ بِالَّذِى   أُحَاذِرُ مِنْ لُبْنَى ، فَهَلْ أَنْتَ وَاقِعُ (١) ؟ (٢)

---

(١) فى الأصل : شعر سقط فى ط.

(٢) البيت لقيس بن ذريح ، أورده صاحب الأغانى (٩/ ٢١٧) .

هذا البيت الفرد فى معنى الأبيات سابقته : وكالعادة يحمله الشاعر إثم الفراق ، وهجر الأحبة فيخاطبه مخاطبة البائس اليائس : أن قد أذهبت بما لا أخافه منك بل كنت أخافه من محبوبتى لُبْنَى فَلمَّا استقامت لى قناتها ، واشتممتُ عبير وصلها أذهبت بها .. وفصمت عنى عرى وصلها ..!!

فويلك ولا لعًا لك : هلا عُدْتَ بما أذهبت وبنيت ما هَدَّمْتَ ، ورددت ما أخذت ..!!

وهيهات هيهات فى الفراق شعر كثيرٌ ، ومن روائعه ما قال الشافعى .

ومن نماذج اللوعة والأسى على فراق الأحبة عَيْنيةُ متمم بن نويرة اليربوعى فى رثاء أخيه مالك وقد تمنى عمر بن الخطاب أن يرثى متمم أخاه زيدًا بمثل هذا فيقول فيها - رضى الله عنه - :

أبى الصبـــــر آياتٌ أراها وأننى   أرى كلَّ حبل بعد حبلك أقْطَعَـا
وأنّى متى ما أدعُ باسمك لا تجب   وكنت جديرًا أن تجيب وتسمعـــا
وعشــــنا بخير فى الحياة وقبلنا   أصاب المنايا رهطَ كسرى وتُبَّعَـا
فلمـــا تفرقنا كأني ومالكًـــا   لطول اجتماعٍ لم نبت ليلةً معًـــا
وكنــــا كَنَدْمَانَىْ جذيمة حقبةً   من الدهر حتى قيل لن يتصــرعا
فــإن تكـــن الأيام فرقن بيننا   فقد بَانَ محمودًا أخى حين وَدَّعـا
أقـــول وقد طار السنا فى ربابه   وجــون يَسُحُّ الماء حتى تريَّعَـا
سـقى الله أرضًا حلَّهَا قبرُ مالك   ذهابَ الغَوادى المُدْجنَات فَأَمْرَعَــا
وآثــــر سيل الواديين بديمة   تُرشِّـعُ وسْميا من النبتِ خِروَعَا
فمجتمع الأسْدَام مِنْ حول شَارعٍ   فروَّى جبال القريتين فضَلْفعــا
فــوالله ما أُسقِى البلادِ لُحبِّهَا   ولكننى أسْقِى الحبيبَ المُوَدَّعَــا
تحيَّتُهُ منِّى وإن كان نَائيًــــا   وأمسى ترابًا فوقَهُ الأرضُ بَلْقَعَــا

ومثلها قصيدة الصِّمة القشيرى ومنها :

حنــنت إلى ريًّا ونفسك باعدت   مــزارك من رَيا وشعباكما معًـــا
فمــا حسن أن تأتى الأمر طائعًا   وتجزع أن داعى الصبابة أسْمَعَـــا
كَــأَنَّكَ لم تشهد وداعَ مفارق   ولم تَرَ شعبى صاحبين تقطَّعـــا
بكت عينى اليسرى فلما زجرتها   عن الجهل بـعد الحلم أسبلتا معًا =

فقلت : ليس هذا ذاك الغراب . فقالت : والله لا نَزَالُ نأخذ البرىء بالسقيم ، حتى نَظفرَ بذلك الغراب .

قال أبو حاتم - رضى الله عنه : قد ذكرت ما شاكل هذه الحكايات والأشعار على التقصى فى كتاب « الوداع والفراق » ، فأغنى ذلك عن تكرارها فى هذا الكتاب ؛ إذ شرطنا فيه الإشارة إلى الشىء المحصول ، والإيماء إلى الشىء المقول .

* * *

= ألا يا خليلىَّ اللذين تواصيَا بلومى إلا أن أطيع وأسمعا
عينيه الصَّبَابَة كلما دنا الليل أو أوفى من الأرض
فليست عشيات الحِمَى برواجعٍ إليك ولكن خلِّ عينيك تَدْمَعَا

ذِكْرُ الحثِّ عَلَى زِيَارَةِ الإِخْوَانِ وَإِكْرَامِهِمْ

أنبأنا الحسن [1] بن سفيان ، حدثنا يزيد بن صالح اليشكريّ ، حدثنا حماد بن سلَمة، عن ثابت عن أبي رافع ، عن أبي هريرة ، عن رسول الله ﷺ : « أَنَّ رَجُلاً زَارَ أَخًا لَهُ فِي قَرْيَةٍ ، فَأَرْصَدَ اللهُ عَلَى مَدْرَجَتِه مَلَكًا ، فَقَالَ : أَيْنَ تُرِيدُ ؟ فَقَالَ: أُرِيدُ أَخًا لِي فِي هَذِه القَرْيَةِ ، فَقَالَ : هَلْ لَهُ عَلَيْكَ مِنْ نِعْمَةٍ تَرُبُّها [2] ؟ قَالَ : لا ، إلا أَنِّي أُحِبُّهُ فِي الله ، قَالَ : إِنِّي رَسُولُ اللهِ إِلَيْكَ ، بِأَنَّ [3] اللهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى أَحَبَّكَ كَمَا أَحْبَبْتَهُ » [4] .

قال أبو حاتم - رحمة الله عليه : الواجب على العاقل تعاهد الزيارة للإخوان ، وتفقد أحوالهم ؛ لأن الزائر في قصده الزيارة ، يشتمل على مصادفة معنيين :

---

(١) في الأصل : الحسين . (٢) في الأصل : تربها فيه . (٣) في ط : إن .

(٤) أخرجه مسلم : (١٩٨٨/٤) في « البر والصلة » ، باب : فضل الحب في الله : (٢٥٦٧/٣٨)، والبخاري في « الأدب المفرد » (١٢٨) ، وأحمد : (٢٩٢/٢) ، (٤٠٨) ، (٤٦٢) ، (٤٨٢) ، (٥٠٨) ، وهناد في « الزهد » : ٢٧٧/١ برقم (٤٩٠) ، ووكيع في « الزهد » (٣٣٦) ، وابن أبي شيبة : (١٩٥/١٣) ، وابن حبان في « صحيحه » كما في « الإحسان » : (٤٧٥/١ ، ٤٧٨) ، والخطيب في «التاريخ » : (٤٠٠/٣ ، ٧٦/١١ ، ٣٧٦/١٢ ، ٣١/١٤) ، من طرق عن حماد بن سلمة به .

وأخرجه أحمد : (٥٠٨/٢) عن حسن ، عن حماد ، عن عاصم الأحول ، عن أبي حسان الأعرج، عن أبي هريرة .

وأخرجه ابن المبارك في « الزهد » (٢٤٧) ، عن حماد به موقوفًا على أبي هريرة .

وقال النووي في « شرح مسلم » : قوله ﷺ : « فأرصد الله على مدرجته ملكًا » معنى : (أرصده) أقعده يرقبه ، و(المدرجة) بفتح الميم والراء هي الطريق ، سميت بذلك ؛ لأن الناس يدرجون عليها، أي : يمضون ويمشون .

قوله : « لك عليه من نعمة تربها » أي : تقوم بإصلاحها وتنهض إليه بسبب ذلك . قوله : « بأن الله قد أحبك كما أحببته فيه » ، قال العلماء : محبة الله عبده هي رحمته له ورضاه عنه وإرادته له الخير ، وأن يفعل به فعل المحب من الخير ، وأصل المحبة في حق العباد ميل القلب ، والله تعالى منزه عن ذلك .

في هذا الحديث : فضل المحبة في الله تعالى ، وأنها سبب لحب الله تعالى العبد . وفيه : فضيلة زيارة الصالحين ، والأصحاب .

وفيه : أن الآدميين قد يرون الملائكة .

أحدهما : استكمال الذُّخر فى الآجل بفعله ذلك . وقد قال بعض القدماء : إن الرجل إذا زار أخًا له فى الله ، لم يبق فى السماء مَلَك إلا حيَّاهُ بتحية مستأنفة ، لا يحييه مَلَك مثلَه ، ولم تبق شجرةٌ من شجر الجنة إلا نادت صاحبتها : ألا إن فلانَ بن فلان زار أخًا فى الله (١) .

والآخر : التلذذ بالمؤانسة بالأخ المزُور ، مع الانقلاب بغنيمتين معًا .

ولقد أنبأنا عمرو بن محمد الأنصاريُّ ، حدثنا الغلابيُّ ، حدثنا عبد الله بن رجاء الغُدَانىّ ، قال : كان عُتبة الغلامُ يأوِى المقابرَ والصحارِى ، ثم يخرج إلى السواحل ، فيقيم بها ، فإذا كان يوم الجمعة دخل البصرة ، فشهد الجمعة ، ورأى إخوانه ، فيسلم (٢) عليهم .

حدثنا الحسن بن سفيان ، حدثنا أبو بكر بن أبى شيبة ، حدثنا عفان ، حدثنا جعفر ابن سليمان ، حدثنى بعض مشيختنا ، قال : قال عامر بن عبد قيس : إنما أخذنى أسَفٌ(٣) على البصرة لأربع خصال : تجاوبِ مؤذنيها ، وظَمأ الهواجر ؛ ولأن بها إخوانى ؛ ولأن بها وطنى .

أنبأنا محمد بن المهاجر المعدل ، حدثنا محمد بن بشر الخَطَّابىّ ، حدثنا (٤) محمد بن سهل التميمىّ ، قال : سمعت الفِريابىَّ (٥) يقول : جاءنى وكيع بن الجرَّاح من بيت المقدس وهو محرم بعُمرة ، فقال : يا أبا محمد لم يكن طريقى عليك ، ولكنى أحببت أن أزورك ، وأقيمَ عندك ، فأقام عندى ليلة . وجاءنى ابن المبارك ، وقد أحرم بعُمرة من بيت المقدس ، فأقام عندى ثلاثًا ، فقلت : يا أبا عبد الرحمن ، أقم عندى عشرة أيام ، قال : لا ، الضيافة ثلاثة أيام .

قال أبو حاتم - رضى الله عنه - : الناس فى الزيارة على ضربين :

فمنهم من صحَّح الحال بينه وبين أخيه ، وتعرَّى عن وجود الخَلَل ، وورود النقص (٦)

---

(١) هذا شبيه بما يتناقل من الإسرائيليات .

(٢) فى ط : فسلم . (٣) فى ط : أجدنى آسف . (٤) فى الأصل : حدثنى .

(٥) فى تاج العروس للزبيدى : فرياب كجريال : بلد مشهور بخراسان من أعمال جوزجان ببلخ ، منها جعفر بن محمد الفريابى الحافظ صاحب التصانيف وآخرون ، أو هو فيرياب ككيمياء ، أو هو فارياب كقاصعاء .

(٦) فى ط : البغض .

فيه ، فإذا كان بهذا النعت ، أحببت له الإكثار من الزيارة ، والإفراطَ فى الاجتماع ؛ لأن الإكثار من الزيارة بين من هذا نعتُه ، لا يُورِث المَلالة ، والإفراطَ فى الاجتماع بين من هذه صفته ، يزيد فى المؤانسة .

والضرب الآخر : مَن لم يستحكم الود بينه وبين من يُؤَاخيه ، ولا أدَّاهما الحالُ إلى ارتفاع الحِشْمة بينهما ، فيما يبتذلان لِمِهْنَتيهما (١) ، فإذا كان بهذا النعت ، أحببت له الإقلال من الزيارة ؛ لأن الإكثار منها بينهما (٢) يؤدى إلى المَلالة ، وكل مبذول مملول ، وكل ممنوع ملذوذ . وقد رُوى عن النبى ﷺ أخبارٌ كثيرةٌ تصرح بنفى الإكثار من الزيارة، حيث يقول : « زُرغِبًا تَزْدَدْ حبًا » ، إلا أنه لا يصح منها خبر من جهة النقل : فتنكَّبنا عن ذكرها وإخراجها فى الكتاب، وإليها ذهب بعض الناس، حتى ذكروها (٣) فى أشعارهم.

من ذلك ما أنشدنى محمد بن عبد الله بن زَنْجِىٍّ البغدادىّ : [الوافر]

وَقَدْ قَالَ النَّبِىُّ ، وكَـــانَ بَرا ... إذَا زُرْتَ الحَبِيبَ فَزُرْهُ غِبًّـــا
وَأَقْلِـــلْ زَوْرَ مَنْ تَهوَاهُ تَزْدَدْ ... إِلَى مَنْ زُرْتَهُ مِقَةً (٤) وَحبًّا (٥)

وأنشدنى محمد بن أبى علىٍّ : [الكامل]

إِنِّى رأَيْتُكَ لِى مُحِبًّـــا ... وَإِلَىَّ حِينَ أَغِيـــبُ صبًّا
فَقَعَـــــدْتُ لا لِمَلالَةٍ ... حَدَثَتْ وَلا استَحْدَثْتَ ذَنْبَا
إِلا لِقَـــوْلِ نَبِيِّنَـــا : ... زُورُوا عَلَى الأَيَّامِ غِبًّـا (٦)

أنبأنا محمد بن المهاجر المعدَّل ، حدثنا خالد بن أحمد الشيبانىّ ، حدثنا سعيد بن

(١) فى الأصل : لهيبتهما (٢) فى الأصل : بينهم .
(٣) فى الأصل : ذكروه . (٤) فى الأصل : حبًا .
(٥) وهذان البيتان فى التنبيه على أدبٍ من آداب الزيارة وهو التخفف .. فيقول :
لقد جاء عن نبينا محمد ﷺ وهو : البر الصدوق ، وكفى برسول الله صادقًا أنَّهُ أوصى بالتخفف فى الزيارة وأن يزور المرء محبوبه ، ويواصله شريطَة ألا يثقل عليه ، وإنما يزوره غبا .
ومن كان دأبه التَّلطف والتخفف فى الزيارة ، فلا تمجه القلوب ، ولا تستثقله نفسُ المحبوب ، بل إنه يطيب ويُصيبُ ويزداد وُدا وحبا من صديقه ورفيقه .
(٦) هذه الأبيات اللُّطَاف فى معنى حديث النبى ﷺ وهى كسابقتها غير أنها فوقها بلاغةً وجمالاً وجلالاً فيقول : أيها الحبيب الودود أعرفُ أنك بى متيمٌ ، وإلىَّ تهفو حنينًا وشوقًا .
وما تقاعدى عن الإكثار من زيارتك لمللٍ أو لسأمٍ منك ، ولا لذنب اجترحته فى إحداث هجرٍ وجفوة لوُدِّك لا ثمَّ لا .
وإنما ذلك حتى لا أثقل عليك ، وحتي تستديم المودةُ ، وتزداد المحبة ، ومعلومٌ أنه من زار غِبا فقد ازداد حُبا .

عنبسة ، حدثنا حميد بن عبد الرحمن الرُّؤاسي ، قال : سمعت الحسن بن صالح يقول : كل مودة لا تزداد إلا بالالتقاء : مدخولة .

قال أبو حاتم - رضى الله عنه : من صحَّح الحال بينه وبين الإخوان ، لم يضره [كثرة الالتقاء ولا يضره] (١) قلة الاجتماع لاستحكام الحال بينهما ، والمودة إذا أضرَّ بها قلة الالتقاء ، تكون مدخولة ، وأما من لم يحلَّ فى نفس صحة الحال ، ولم يستحكم أسباب الوداد ، فالتوقِّى من الإكثار فى الزيارة أولى به ، لئلا يُستثقل ويُملُّ (٢) .

وأنشدنى الخلادىُّ ، [قال] (٣) : أنشدنى أحمد بن محمد الصَّيداوىّ : [الطويل]

عَلَيْـــــكَ بِإقْلالِ الزِّيَارَةِ إنَّهَا ... تَكُونُ إذَا دَامَتْ إلَى الهَجْرِ مَسْلَكَا
فَــــإنِّى رَأَيْتُ القَطْرَ يُسْأمُ دَائِبًا ... وَيُسْأَلُ بِالأَيْدِى إذَا هُوَ أَمْسَكَا (٤)

وأنشدنى الكُرَيزىُّ : [الكامل]

أَقْـــــلِلْ زِيَارَتَكَ الْحَبِيــ ... ــبَ تَكُونُ كَالثَّوْبِ اسْتَجَدَّهْ
إنَّ الصَّــــــدِيقَ يُمِلُّهُ ... أَلا يَزَالَ يَرَاكَ عِنْــــدَهْ (٥)

وأنشدنى أوس بن أحمد بن محمد بن أحمد (٦) ، لأبى تمام : [الطويل]

وطُولُ مُقَامِ المَرْءِ فِى الحَىِّ مُخْلِقٌ ... لِدِيبَاجَتَيْهِ ، فَارْحَلَنْ (٧) تَتَجَدَّدِ (٨)
فإنى رأيت الشمس زيدت محبةً ... إلى الخلق إذ ليست عليهم بسرمد
[أَلَمْ تَرَ أن . . . . إلى النَّاسِ أَنْ . . . .] (٩) (١٠)

---

(١) سقط فى ط . (٢) فى الأصل : ولا يمل . (٣) سقط فى ط .

(٤) هذان البيتان فى معنى سابقهما كذلك فيقول : ينبغى على العاقل أن يتخفَّفَ من الزيارة ، فلا يسرف فيها ، فإنها بسرفها وتجاوزها الاعتدال ، قد تكون سبيلاً إلى الهجر والفصال .

وذلك أنَّ الشيء المتندر مُبْتَغَى ، أما إذا كَثُرَ أسْأَمَ ، وكذلك الغَيْثُ ، رغم أنه الحياة ، فإن النفوس تمله ، والقلوب تمُجه ، أما فى غيبته فإنه يبتغى ويتلهف عليه ، ويسأل بالقلوب قبل الأكُفُ وفى معنى البيتين ، قول الشافعى :

أنى رأيتُ وقوف الماء يفســــــده ... إنْ سار طاب وإن لم يجر لم يطب
والشمسُ لو داومت فى الفلك واقفة ... لملها الناس من عجم ومن عــــرب

(٥) كذلك هذان البيتان فى معنى سابقيهما فيقول : ينبغى على العاقل أن يتخفف ، ويتقلل من زياراته محبوبه ، فيكون حاله كالثِّياب المتطرفةِ المستجدة وإلا فإن كثرة الزيارة تجعلك كالثِّياب الخلقة الرِّثة المورثة صاحبها المللَ والسَّأمَ . . .

(٦) فى الأصل : أوس . (٧) فى ط : فاغترب .

(٨) الديباجتان : صفحتا الوجه. (٩) سقط فى ط .

(١٠) هذان البيتان لأبى تمام فى معنى الأبيات السابقة غير أنها بلغت التمام ناهيك ، أنها لأبى =

أنبأنا الحسن بن سفيان ، حدثنا أحمد بن زَنْجويه ، حدثنا حسين بن الوليد ، حدثنا عبد الله بن المؤمَّل ، عن ابن أبى مُليكة ، قال : قال ابن عباس : أكرم الناس علىَّ جليسى ، الذى يتخطَّى رقاب الناس حتى يجلس إلىَّ .

أنبأنا مكحول (١) ببيروت ، حدثنا عُبيد بن محمد بن هارون ، حدثنا عمرو بن أبى سلَمَة ، عن سعيد بن بشير ، عن قتادة فى قوله تعالى : ﴿ **وَيَسْتَجِيبُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ** ﴾ قال : يشفعون فى إخوانهم . ﴿ **وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِ** ﴾ قال : يشفعون فى إخوان إخوانهم .

* * *

= تمام وعن مثله لا تسأل .. !! فيقول : بكثرة مكث الفتى فى مكانه فإنَّه يغدو خلِقًا مملولاً وتتضعُ درجته فى المحبة ، فينبغى أن يسافر ليتجدد ويتجدد .

فالشَّمس على مكانتها وفضائلها ، لولا مغيبها واحتجابها ليلاً وضعفها شتاءً لازدراها الخلقُ وحلَّ بها المقتُ ، ولكنها لما لم تَتَسَرْمَدْ ، وتستديم فى وقوفها فإنها حببت إلى الخلق وناف حُبُّهَا ونَمَا ..

يقول الشافعى :

ما فى المقام لذى عقـــل وذى أدب ... من راحة فدع الأوطان واغتـــــرب
سافـــر تجد عوضًا عمن تفارقـــه ... وانصب فإن لذيذ العيش فى النصب
إنى رأيت وقوف الماء يفســـده ... إن سار طاب وإن لم يجر لم يطـب
والأسد لولا فراق الأرض ما افترست ... والسهم لولا فراق القوس لم يصـب
الشمـس لو وقفت فى الفلك دائمة ... لملها الناس من عُجم ومن عـــرب
والتبـــر كالتراب ملقى فى أماكنه ... والعود فى أرضه نوع من الحطـــب
فإن تغـــرب هذا عز مطلبـــه ... وإن تغرب ذاك عز كالذهــــــب

[فصل فى صفة الأحمق والجاهل] .

(١) فى الأصل : مكحول بن محمد بن عبد الله بن عبد السلام .

ذِكْرُ صِفَةِ الأَحْمَقِ وَالْجَاهِلِ [مَعًا] (١)

أنبأنا محمد بن نصر بن نَوفل ، أنبأنا أبو دَاودَ السِّنْجِيّ ، حدثنا أبو عاصم ، عن شُبيل بن عَزْرَة ، عن أنس بن مالك ، قال : قال رسول الله ﷺ : « **مَثَلُ الجَلِيسِ الصَّالِحِ مَثَلُ العطَّارِ ، إنْ لَمْ يُعْطِكَ شيئًا يُصِبْكَ مِنْ عِطرِهِ ، وَمَثَلُ الجَلِيسِ السَّوءِ مَثَلُ القَيْنِ ، إنْ لَمْ يُحرِقْ ثوبَكَ ، أَصَابَكَ مِنْ دُخَانه** » .

قال أبو حاتم - رحمة الله عليه : شُبيل بن عَزْرة هذا من أفاضل أهل البصرة وقُرائهم، ولكنه لم يحفظ إسناد هذا الخبر ، لأن أنس بن مالك سمع هذا الخبر من أبى موسى ، عن النبىِّ ﷺ ، فقصَّر به شُبيل ، ولم يحفظه .

والواجب (٢) على العاقل ترك صحبة الحَمقَى (٣) ، ومجانبة عشرة (٤) النَّوكَى ، كما يجب عليه لزوم صحبة العاقل الأريب ، وعشرة الفطن اللبيب ؛ لأن العاقل وإن لم يصبك الحظ من عقله ، أصابك من الاعتبار به . والأحمق إن لم يُعْدِك حمقه ، تدنَّست بعشرته .

ولقد أنبأنا الحسين بن محمد السِّنْجِيّ ، حدثنا إبراهيم بن أبى داود البُرْسَلِي(٥) ، حدثنا زهير بن عباد ، حدثنا شهاب بن خِراش ؛ عن أبيه ، عن يسير ابن عمرو ، وكان قد أدرك الصحابة ، قال : اهْجُرُ الأحمق ، فليس للأحمق خير من هِجرانه .

أنبأنا محمد بن المهاجر المعدل ، حدثنا محمد بن أبى يعقوب الرَّبَعِيّ ، حدثنا أحمد ابن إسحاق الخَشّاب ، عن الأصمعيِّ ، عن سَلَمة بن بِلال ، قال : كان فتى يُعْجِبُ عليَّ بن أبى طالب [رضى الله عنه] (٦) ، فرآه يومًا ، وهو يماشى رجلاً متَّهمًا ، فقال له : [الهزج]

---

(١) سقط فى ط .

(٢) فى الأصل : فالواجب .

(٣) فى ط : الأحمق .

(٤) فى ط : معاشرة .

(٥) فى الأصل : البرلس .

(٦) سقط فى ط .

فَلا تَصْحَبْ أخَا الجَهْلِ وَإِيَّاكَ وَإِيَّـــــاهُ [1]

فَكَـــمْ مِنْ جَاهِلٍ أرْدَى حَلِيمًا حِينَ آخَـــــاهُ

يُقَـــاسُ المَرْءُ بِالمَرْءِ إِذَا مَا هُوَ مَا شَـــــاهُ

وَلِلشَّيْءِ عَلَى [2] الشَّيْءِ مَقَايِيسُ وَأَشْبَـــــاهُ

وَلِلْقَلْـــبِ عَلَى القَلْبِ دَلِيلٌ حِيـــنَ يَلْقَاهُ [3]

وأنشدنى عبد العزيز بن سليمان الأبرش : [السريع]

اخْتَـــرْ ذَوِى التَّمْيِيزِ وَاسْتَبْقِهِمْ [4] وَجَانِبِ النَّوْكَى وَأَهْـــــلَ الرِّيَبْ

فَصُحْبَـــــــةُ العَاقِلِ زَيْنُ الفَتَى وَصُحْبَةُ الأنْوَكِ إِحْدَى السُّبَبْ [5] [6]

---

(١) نسب الناس إلى على بن أبى طالب أشعارًا كثيرةً جمعت فى ديوان ، طبع عدة طبعات فى مصر وفى الهند ، وربما لا تصح نسبة كل هذا الشعر إليه ، و لعلَّ له أبياتًا ، والبيت الأول من هذه المقطوعة يروى فى بعض الكتب هكذا :

ولا تصحب أخا الجهل وإيـــــاك وإيـــاه

(٢) فى ط : من

(٣) هذه الخمسة أبيات تحض على ترك صحبة الأحامق ومجانبتهم وإلا تحامق قرينهم ، وشرب من طباعهم وقد سبق منها الأبيات الثلاثة الأخيرة فيقول :

ينبغى على العاقل أن يتجنب صحبة الجاهل ، فاحذره كل الحذر لحاك لاحٍ أو عذر . . .

فكم من جهول ضلول سفَّه حليمًا عليمًا رزينًا حين صاحبه ، والمرء بخليله ، فهو مقياس ودليل عليه كما الشيء يقاس بالشيء وكما القلب يدل على القلب حين لقائه .

(٤) فى الأصل : واستقم . (٥) فى ط : أخذ السبب .

(٦) هنا يحض الشاعر على صحبة أهل الفضل والعقل ، فيقول : ينبغى على العاقل أن يتزلف ، ويدلف إلى صحبة أهل الفضل وذوى العقل ، وليحرص على إخائهم ما استطاع سبيلاً وينبغى عليه أن يجانب الأحمق ذا السفه والريبة . . فمن صاحب العاقل ازدان به ، وعلى ضدها صحبة النوكى ذوى الحمق والسفه .

وفى هذا المعنى يقول ذو الإصبع لابنه :

آخى الكرام إن استطعت إلى إخائهـــــم سبيلاً

إن الكــــرام وإن تـوا خيهم وجدت لهم فضولاً =

قال أبو حاتم - رضى الله عنه - : من علامات الحمق التى يجب للعاقل تفقدها ممن خفى عليه أمره : سرعة الجواب ، وترك التثبت ، والإفراط فى الضحك ، وكثرة الالتفات ، والوقيعة فى الأخيار ، والاختلاط بالأشرار .

والأحمق إذا أعرضْتَ عنه اغتم ، وإن أقبلت عليه اغترَّ ، وإن حَلُمْتَ عنه جَهِل عليك، وإن جَهِلت عليه حلم عنك ، وإن أسأت إليه أحسنَ إليك ، وإن أحسنت إليه أساء إليك ، وإذا ظلمته انتصفتَ منه ، ويظلمك إذا أنصفته .

وما أشبَّه عِشْرة الحمقَى إلا بما أنشدنى محمد بن إسحاقَ الواسطىّ : [الخفيف]

لِى صَـــديقٌ يَرَى حُقُـــوقِى عَلَيْهِ نَافِـــلات وَحَقَّهُ كَانَ فَرْضَـــا
لَـــوْ قَطَعْتُ الجِبَالَ طُـــــولاً إلَيْهِ ثُمَّ مِنْ بَعْدِ طُولِهَا سِرْتُ عَرْضَـــا
لَرَأَى مَا صَنَعْـــتُ غَيْرَ كَبِيـــرٍ وَاشْتَهَى أَنْ أَزِيدَ فِى الأَرْضِ أَرْضَا (١)

حدثنا محمد بن سعيد القزَّاز ، حدثنا إبراهيم بن الجنيد ، قال : [قال لى] (٢) أبو طاهر بن السَّرْح ، قال : حدثنى خالى أبو رَجاء عبد الرحمن بن عبد الحميد ، عن سعيد ابن أَبى أيوب ، قال : لا تصاحِبْ صاحب السَّوْء ، فإنه قطعة من النار ، لا يستقيم ودُّه، ولا يفى بعهده .

= وقال غيره فى التحذير من صاحب السوء :

وصاحـــب السوء كالدَّاء العياء إذا ما ارفض فى الجوف يجرى هاهنا وهنا
ينبى ويخبرُ عن عورات صاحبـــه وما أرى عنده من صالـــح دفنا
كمهـــر سوء إذا ررَفَّعْت سيرته رام الجماح وإن أخفضتـــه حـرنا
إن يحيـــى ذاك فكن منه بمعزلة أو مات ذاك فلا تقـــرب له جننًا

(١) هذه الأبيات فى التشكى ، وبثُّ الزفرات من عديمى المروءات ذوى القحة والضلالات ، فيقول الشاعر :

إن لى صديقًا لا أقام الله له قائمة - بلغ فى الصفاقة المنتهى لا يُبصِرُ إلا حقَّه علىَّ ، فهو عنده فرض أما حقى عليه ، فهو تبعٌ ونفلٌ ويتعامى عنه جهلاً واستخفافًا فلو أنى بذلتُ له الوسع ، ونظمت له النجوم بله نقلت الجبالَ ، وقطعت الأرض له طولاً ، وعرضًا ، وصنعت ما لم أسبق إليه ، لاستخفَّ بهذا ورأى ذلك من الواجبات علىَّ لا بل رأى هذا باليسير الحقير ، ويبتغى أن أزيد أرضًا على الأرض، فكأنه يطلب بَيْض الأنوق وطَيَرانَ النوق وفى هذا شعرٌ كثير منه .

لحا الله وصلاً إن تغيبت ساعة فـأنت وأقصى الناس فيه سواء
وخـــلا إذا لم تأته بهدية بدت لك منه غفلـــة وجفاء

(٢) سقط فى الأصل .

وأنشدني المنتصر بن بلال الأنصاريّ : [السريع]

لَنْ يَسْمَعَ الأَحْمَقُ مِنْ وَاعِظٍ ... فِي رَفْعِهِ الصَّوْتَ وَفِي هَمْسِهِ
لا يَبْلُغُ (١) الأَعْدَاءُ مِنْ جَاهِلٍ ... مَا يَبْلُغُ الجَاهِلُ مِنْ نَفْسِهِ
وَالحُمْقُ دَاءٌ ، مَالَهُ حِيلَةٌ ... تُرْجَى ، كَبُعْدِ النَّجْمِ فِي لَمْسِهِ (٢)

قال أبو حاتم - رضى الله عنه : أظلم الظُّلمات الحُمْق ، كما أن أنفذ البصائر العقل، فإذا امتُحِن المرء بعشرة الأحمق ، كان الواجب عليه اللزوم لأخلاق نفسه ، والمباينة لأخلاقه ، مع الإكثار من الحمد لله على ما وَهَب له من الانتباه لما حُرِم غيرُه التوفيقَ له ؛ فإن جرى الأحمق فى صحبته ميدانَه فى عشرته ، فالواجب على العاقل لزوم السكوت حينئذ فى أوْقاته ، لأن أبا حمزة محمد بن عمر بن يوسف ، أنبأنا بنَسَا ، حدثنا نصر ابن على الجَهْضَميّ ، حدثنا ابن داود قال : سمعت الأعمش يقول : السكوت للأحمق جَواب .

قال أبو حاتم - رضى الله عنه : وإن من الْحَمْقَى من لا يَصدُّه عن سلوكه السكوت عنه، ولا يدفعه عن دخول المكامن الإغضاءُ عنه ، ولا ينفعه .

فالعاقل إذا امتُحِن بعشرة مَن هذا نعتُه تكلف بعض التجاهل فى الأحايين ؛ لأن بعض الحلم إذعان ، كما أن استعماله فى [بعض] (٣) الحالات قُطْبُ العقل .

---

(١) فى ط : لن تبلغ .

(٢) هذه الأبيات فى ذكر حال الأحمق ، واجتناء حمقه عليه ، فيقول :

وإنما الجاهل خاسرٌ عاثر لا لعًا له ، فإنه لحمقه وخبطه فى عمهه ... فهو يكيدُ لنفسه ، ويبالغ فى جوك هَلَكته بيَدِه بما لا يستطيعه أعداؤه ، فهو ممن سعى إلى حتفه بظلفه ...

ولا غرو فى اجتناء حمقه عليه إذِ الحمق داء عياء ماله من مرد ولا شفاء ، فعلاج الأحمق تركه وإلا من الحماقة علاجه وشفاؤه وصلاحه بعيد كبعد النجم فى كبد السماء لا يناله النائل أن يلمسه وفى هذا المعنى يقول القائل :

لكــل داء دواء يستطب به ... إلا الحماقة أعيت من يداويها

وقال غيره :

وجـاء فى الصَّحيح ... نقـلاً عن المسيح
عالَجتُ كل أكمه ... وأبره مشـوهْ
لكـننى لم أطق ... قطُّ علاج الأحمق

(٣) سقط فى الأصل .

ولقد أنشدني محمد بن إسحاق الواسطي (١) : [الطويل]

لَئِنْ كُنْتُ مُحْتَاجًا إِلَى الحِلْمِ، إِنَّني ... إِلَى الجَهْلِ فِي بَعْضِ الأَحَايِينِ أَحْوَجُ
وَلِي فَرَسٌ لِلْحِلْمِ بِالحِلْمِ مُلْجَمٌ ... وَلِي فَرَسٌ لِلْجَهْلِ بِالجَهْلِ مُسْرَجُ
فَمَنْ شَاءَ تَقْوِيمِي ، فَإِنِّي مُقَوَّمٌ ... وَمَنْ شَاءَ تَعْوِيجِي ، فَإِنِّي مُعَوَّجُ
وَمَا كُنْتُ أَرْضَى الجَهْلَ خِدْنًا وَلَا أَخًا ... وَلَكِنَّنِي أَرْضَى بِهِ حِينَ أُحْرَجُ (٢)
فَإِنْ قَالَ بَعْضُ النَّاسِ : فِيهِ سَمَاجَةٌ ... فَقَدْ صَدَقُوا ، وَالذُّلُّ بِالحُرِّ أَسْمَجُ (٣)

---

(١) في الأصل كلمتان غير مقروءتين . (٢) في الأصل : أحوج .

(٣) هذه الأبيات اللطاف غاية في الجودة نظمًا ومعنى وخفة ورشاقة ولا يخفى هذا على الذائق الفطن . . !! فيقول :

اعلم أن الحلم بضاعة لا غنية عنها ، وأنا إليه في حاجة ، وكذلك من خَبَرَ الأحوالَ ، وأبصر العواقب علم أنه قد يحيق به حالٌ هو إلى الجهل فيه أحوج منه إلى الحلم .

وإني وإن كنت فارسًا في الحلم أطوي به سفه السفيه فإني كذلك فارسٌ في الجهل مستعدٌ للتسفه عند من لا يرد سوءة عني إلا هذا . .

فمن كان من ذوي السفه ، ولن يردعه ، ويضعضعه إلا ذلك فأنا له ، ومن كان معوجًا ولن يقومه إلى ذلك فإني قد عنيت وله بذلك ولن أكسل ، ولن أبتلد عن تقويم سفهه بسفه مني .

وما كانت من شنشنتي أني جهول أومشتملٌ ثياب الجهل ، ولكنني أرتديه وأصطبغ به حين المآذق لدفع الحرج والهرج عني .

وحينها لا عبرة ببوح من باح بسفهي وسماجتي فإن الذُّل عندي أسمجُ وأسفه ولا عليَّ بما يقولون . . وفي هذه الأبيات أشعارٌ كثيرة ، ومن روائعها قول أبي الطيب :

ووضع الندى في موضع السيف ... مضر كوضع السيف في موضع الندى
إذا أنت أكرمت الكريم ملكته ... وإن إنت أكرمت اللئيم تمردا

وقول أبي العلاء المعري :

ولما رأيت الجهل في الناس فاشيًا ... تجاهلت حتى قيل : إني جاهلُ
فواعجبًا كم يدَّعي الفضلَ ناقصٌ ... ووأسفا كم يدعي النقص فاضلُ

وغيره :

عفونا عن بني ذهل ... وقلنا القوم إخوان
عسى الأيام إن يرجعـ ... ـن قومًا كالذي كانوا
فلما صرح الشرّ ... وأضحى وهو عريانُ
أثبناهم فدنّاهم ... . . . كما دانو
وبعض الحلم عند الجهل ... للذلة إذعان

وأنشدني عليُّ بن محمد البساميُّ : [البسيط]

لَنْ تُرْضِيَ الرَّذْلَ إلا حينَ تُسْخِطُهُ وَلَيْسَ يَسْخَطُ إلا حينَ تُرْضِيه
وَلا يَسُوءُكَ إلا حينَ تُكْرِمُهُ وَلا يَسُرُّكَ إلا حينَ تُقْصِيه (١) (٢)

حدثنا أبو يَعْلَى ، حدثنا سُرَيْج بن يونس ، حدثنا أبو سفيان المعمريّ ، عن سفيانَ الثَّوريِّ ، قال : ابن ادم لم يُخلق إلا أحمق ، ولولا ذلك لم ينفعه عيشه .

حدثنا محمد بن سعيد القزاز ، حدثنا عصام بن الفضل الرازيّ ، حدثنا الزبير بن بكار ، عن محمد بن حرب ، قال : قال عبد الله بن حَسَن (٣) لابنه (٤) : يا بنى ، احذر الجاهل ، وإن كان لك ناصحًا ؛ كما تحذر العاقل إذا كان لك عَدوا ، فيُوشك الجاهلُ أن يُورِّطك بمشورته فى بعض اغترارك ، فيسبقَ إليك مكْرُ العاقل .

قال أبو حاتم - رضى الله عنه : ومن شِيَم الأحمق : العَجَلة ، والخِفَّة ، والعَجْز ، والفجور ، والجهل ، والمَقْت (٥) ، والوَهَن ، والمَهانة ، والتعرض ؛ والتحاسد ، والظلم ، والخيانة ، والغفلة ، والسهو ، والغيُّ ، والفحش ، والفخر ، والخُيلاء ، والعُدْوان ، والبغضاء .

وإن من أعظم أمارات الحمق فى الأحمق لسانه ؛ فإنه يكون قَلْبه فى طَرَف لسانه ، ما خطر على قلبه ، نطق به لسانُه .

والأحمق يتكلم فى ساعة بكلام يَعجز عنه سَحبانُ وائل ، ويتكلم فى الساعة الأخرى بكلام لا يعجز عنه بَاقِلٌ .

والعاقل يجب عليه مجانبة مَنْ هذا نعته ، و[ترك] (٦) مخالطة مَنْ هذه صفته ، فإنهم يجترئون على من عاشرهم ؛ ألا ترى الزُّطَّ (٧) ليسوا هم بأشجع الناس ، ولكنهم يجترئون على الأُسُد ، لكثرة ما يرونها .

---

(١) فى ط : تقصيه .

(٢) هذان البيتان فى معنى الأبيات السابقة كذلك فيقول : إن الأراذل قوم سوء لا يرضهم ما يرضى الناس ، لذا فينبغى التعامل معه على شاكلته ، فعند إسخاطه تكون مرضاته ، وتسخطه عليك يأتى من مراضاته خلافًا للناس ، وكذلك فاجتنب كرمه ، واحذر تعليق القلائد فى أعناق الخنازير ، فمن أكرمه تمرد ، ولسيف مساءتك جرِّد ، وإنما أربه فى عزله ، وإقصائه وإقصائه فحينه ينضبط لك وتستقيم قناته . .

ورحم الله أبا الطيب لما قال ، فأوجز وأفاد وأجاد :

إذا أنت أكرمت الكريم ملكته وإن أنت أكرمت اللئيم تمرد

(٣) فى الأصل : حسين . (٤) فى الأصل : لأبيه .

(٥) فى الأصل : والتمقت . (٦) سقط فى ط .

(٧) الزط : جنس من الناس ، وهم من أهل السِّنْد ، سود الألوان ، طوال الأجسام كان يسكن البصرة منهم عدد كثير .

وأنشدني محمد بن يوسف بن أيوب الأرمنيّ : [الكامل]

وَلَمَــــنْ يُعَادِي عَاقِلاً خَيْــرٌ لَهُ ... مِنْ أَنْ يَكُونَ لَهُ صَدِيقٌ أَحْمَــقُ

فَارْغَــبْ بِنَفْسِكَ أَنْ تُصَادِقَ أَحْمَقًا ... إِنَّ الصَّدِيقَ عَلَى الصَّدِيقِ مُصَدِّقُ (١)

وأنشدني [محمد] (٢) منصور بن محمد الكُرَيزيُّ ، قال : أنشدني أبي ، لصالح ابن عبد القُدُّوس [رحمه الله] (٣) : [الرمل]

احْـــذَرِ الأَحْمَقَ أَنْ تَصْحَبَهُ ... إِنَّمَا الأَحْمَقُ كَالثَّوْبِ الخَلَــقْ

كُلَّمَا رَقَّعْتَـــهُ مِنْ جَانِبٍ ... حَرَّكَتْهُ الرِّيحُ وَهْنًا فَانْخَــرَقْ

أَوْ كَصَـــدْعٍ فِي زُجَاجٍ فَاحِشٍ ... هَلْ تَرَى صَدْعَ زُجَاجٍ يَلْتَصِقْ ؟!

كَحِمَـــارِ السُّوءِ ، إِنْ أَقْضَمْتَهُ ... رَمَحَ النَّاسَ ، وَإِنْ جَاعَ نَهَقْ (٤)

وَإِذَا جَالَسْتَهُ فِي مَجْلِـــسٍ ... أَفْسَدَ الْمَجْلِسَ مِنْهُ بِالخُــرُقْ (٥)

وَإِذَا نَهْنَهْتَهُ كَيْ يَرْعَــوِي ... زَادَ شَرًا ، وَتَمَادَى فِي الحُمُــقْ (٦)

عَجَبًا لِلنَّاسِ فِي أَرْزَاقِهِـــمْ ... ذَاكَ عَطْشَانٌ ، وَهَذَا قَدْ غَــرِقْ (٧)

---

(١) هذان البيتان في التحذير من صحبة الأحمق وبيان فضل العدو العاقل عليه وقد مضى شرحهما.

(٢) سقط في ط . (٣) سقط في ط .

(٤) علفته وعنيت به . ورمح الناس : رفسهم .

(٥) الخُرُق ، بضمتين : الحمق ، وأصله بسكون الراء ثم حرك بضمها .

(٦) نهنهته : زجرته وكففته .

(٧) هذه الأبيات غاية في اللطافة والرقة ، ولا غرو فهي لحكيم الشعراء صالح بن عبد القدوس فيقول :

فينبغي على ذي العقل أن يحذر مصاحبة الأحمق ، فإنه صديق بالٍ لا خيرَ فيه ، ولا منفعة ، والعاقل يربأ بنفسه أن يخلق حديدة بأحمق أصفق .

وصحبة الأحمق تكسو صاحبها شرَّ سربال ، فهو خلق وبالٍ يهي ، ويتساقط ولا يصلح لأن يرفع، وإن دفع فإنه طالما يخرق رقعه بسفهه وحمقه . .

فصحبته فاسدة بائدة كزجاج صُدِعَ ، فلا انشعاب له وكيف ينشعب صدع الزجاج . . ؟!

وهو على كل حال ذو سفه ، وغيٌّ وسوء كالحمار إن أكرمته ، وأحسنت علفه بارز الناس بالسفه والعار ، وإن أجعته ، وشددت يدك عنه نهق وأزعجك ، وقلب لك ظهر المجن ، فهو سوء على كل حال جاع ، أو شبع أهين أو أكرم .

وإن جلست معه سربلك السوء ، وأفسد المجلس بالمناكير ، والمساءات والمخارق والشقاشق والبذاءات ومثل هذا لا يتكفكف ، ولا يرعوى ، وإنما يتمادى وينبسط في غيه بزجرك له . . عنادًا وتعنتًا . =

أنبأنا يعقوب بن إسحاق القاضى ، حدثنا أبو هانئ عبد الحميد بن عبد الله ، حدثنا عبد المنعم ، عن أبيه ، عن وهب بن منبه ، قال : الأحمق كالثوب الخَلَق ، إن رفأته من (١) جانب انخرق من جانب آخر ؛ ومثل الفَخَّار المكسور ، لا يُرقَع ، ولا يُشْعَب ، ولا يُعادُ طينًا .

فهذا مَثَل الأحمق : إن صَحِبْتَهُ عنَّاك ، وإن اعتزلته شتَمك ، وإن أعطاك منَّ عليك ، وإن أعطيته كفَرك ، وإن أسرَّ إليك اتَّهمك ، وإن أسررت إليه خانك ، وإن كان فوقك حقَرك ، وإن كان دُونك غَمَزك .

وأنشدنى عبد العزيز بن سليمان الأبرش : [الكامل]

اعلَـــــمْ بِأَنَّ مِنَ الرِّجَالِ بَهِيمَةً فِى صُورَةِ الرَّجُلِ السَّمِيعِ المُبْصِرِ
فَطِنًا بِكُـــــلِّ مُصِيبَةٍ فِى مَالِهِ وَإِذَا يُصَابُ بِدِينِهِ لَمْ يَشْعُـرِ (٢)

وأنشدنى محمد بن عبد الله البغدادىّ : [الطويل]

وَإِنَّ عَنَاءً أَنْ تُفَهِّمَ جَاهِـــــــلاً فَيَحْسَبَ جهلاً أَنَّهُ مِنكَ أَعْلَـــــمُ
وَتَشْخَـــــصَ أَبصَارُ الرعَاعِ تَعَجُّبًا إِلَيْهِ ، وَقَالُوا : إِنَّه مِنكَ أَفْهَمُ (٣)

= وسبحان من اصطنع الناس ، وهيأ مشاربهم وأطباعهم فهذا عقول ، وذاك جهول ضلول ، وهذا ظمىء لا ينفك عن مخمصة وذاك غرق من الرىّ . . .

وخير ما يعبر عن هذه منظومة الشيخ أحمد بن مشرف .

(١) رفأته : لغة رفوته .

(٢) هذان البيتان فى ذكر حال بعض الأحامق من إهماله الأصل ، وتكلفه الصور فيقول :

رب رجال فى صورهم وما هم إلا بهمٌ وأنعام صغامٌ فى حقيقتهم غير أنهم يسمعون ، ويبصرون كالبشر ولكنها عميت منهم القلوب .

وهو حاذق يتذاكى ، فيما كان له من مال وضيع وصفقان ، أما فى دينه وآخرته وأصله فلا عليه ، ولا إليه ولا به ولا منه كما قال أخوهم :

نرقع دنيانا بتمزيق ديننا فلا ديننا يبقى ولا ما نرقع
فطوبى لعبد آثر الله ربه وجاد بدنياه ولما يتوقـــع

(٣) هذان البيتان اللطيفان فى ذكر حال الجهول الضلول الهمج الرعاع من الناس ، فيقول :

إن من الشقاء والعناء أن تجتهد في إفهام جاهلٍ شيئًا فإنه لا يعى ما نقول ، ولا يرعوى إن وعى وغالب حاله أنه يظن بنفسه المعالى والعلم ويستيقن أنه منك أفهم وأعلم . .

ومن المحرق والمؤرق أن الهمج الرعاع أتباع كل ناعق من فقراء الناس أنهم يعضدون حاله =

قال أبو حاتم - رضى الله عنه : الأحمق يتوهم أنه أعقل مَن رُكِّب فيه الروح ، وأن الحمق قُسِّم على العالم غيره . والأحمق مُبَغَّض فى الناس ، مجهول فى الدنيا ، غير مرضىٍّ العمل ، ولا محمود الأمر عند الله وعند الصالحين ، كما أن العاقل محبَّب إلى الناس ، مُسَوَّد فى الدنيا ، مرضىُّ العمل عند الله فى الآخرة ، وعند الصالحين فى الدنيا.

أنبأنا محمد بن المنذر بن سعيد ، حدثنا خطاب بن عبد الرحمن الجَنَدِىِّ ، حدثنا عبد الله بن سليمان ، قال : كان الحسن يقول : لأنا للعاقل المدبر ، أرجَى منى للأحمق المقبل .

وأنشدنى المنتصرُ بن بلال الأنصارى : [الطويل]

وَمَــــا الغَىُّ إلا أنْ تُصَاحِبَ غَاوِيًا   وَمَا الرُّشْدُ إلا أنْ تُصَاحِبَ مَنْ رَشَدْ
وَلَنْ يَصْحَــــبَ الإنْسَانُ إلا نَظِيرَهُ   وَإنْ لَمْ يَكُونَا مِنْ قَبِيلٍ وَلا بَلَــدْ (١)

وأنشدنى علىُّ بن محمد البَسَّامىّ : [السريع]

لَنَا جَــلِيسٌ تَارِكٌ لِلأَدَبْ   جَلِيسُهُ مِنْ نَوْكِهِ فِي تَعَبْ

= ويؤيدون مقاله ، ويظنون زورًا وبهتانًا ، أنه فوقك فهمًا وعلمًا ، وما يغنى عنهم ظنهم من الحق شيئًا ، ويرحم الله العلامة الربانى شيخ الإسلام الثانى الإمام ابن القيم لما شكا من أولئك فقال فى منظومته السنية الباذخة العلية (الكافية الشافية فى الانتصار للفرقة الناجية) ، وهى من روائع وأفراد ما نظم فى العقائد يقول منها :

هـــــذا وإنى بعد ممتص بأر   بعة وكلهم ذوو أضعـــــان
قـــــط غليظ جاهل متعلم   ضخم العمامة واسع الأردان
متفيهق متضلع بالجهل ذو   ضلع وذو جلح من العرفـان
فرجي البضاعة في العلوم وإنـه   زاح من الإبهام والهــــذيان
تشكو إلى الله الحقوق تظلمًا   من جهله كشكـاية الأبـــدان

وقال غيره فى وصف حال أحد الجهلاء

جملت ولا تدرى بأنك لا تدرى   فمـــــن لى بأن تدرى لا تدرى

[راجع رسالة التعالم للعلامة بكر بن عبد الله أبو زيد - طبعة مكتبة التربية الإسلامية]

(١) هذان البيتان في الحث على صحبة ذوى الرشاد ونبذ ذوى الفساد فيقول :
إنما الغىُّ والضلال فى صحبتك ذويه فمن صحب غويًا غوى ومن صحب ضلولاً ضلَّ .
وكذلك ما الرشاد والهدى إلا فى صحبة ذويه فمن صحبهم نال منالهم واستن سننهم .
وكذلك أطباع الناس على أشكالهم يقعون ، ولأشباههم يتقربون كما الطيور تواقع أشكالها على غير اتفاق فى ميلاد ولا بلد ..

يَغْضَبُ جَهْلاً عِنْدَ حَالِ الرِّضَا — عَمْدًا وَيَرْضَى عِنْدَ حَالِ الغَضَبْ
فَنَحْنُ مِنْهُ كُلَّمَا جَاءَنَا — فِي عَجَبٍ قَدْ جَازَ حَدَّ العَجَبْ
فَكَأَنَّهُ مِنْ سُوءِ تَأْدِيبِهِ — أُسْلِمَ فِي كُتَّابِ سُوءِ الأَدَبْ (١)

أنبأنا محمد بن المهاجر المعدّل ، حدثنا محمد بن أبى يعقوب الرَّبعىّ ، حدثنا عبد الله ابنُ موسى البصرىّ ، حدثنا العُتْبى ، قال : سمعت أعرابيًا يقول : العاقل بخشونة العيش مع العقلاء ، أسَرُّ منه بلين العيش مع السُّفهاء .

قال أبو حاتم - رضى الله عنه : وإن من شِيم العاقل : الحلم ، والصمت ، والوقار ، والسكينة ، والوفاء ، والبذل ، والحكمة ، والعلم ، والورَع ، والعدل ، والقوة ، والحزم، والكياسة ، والتمييز ، والسَّمْت ، والتواضع ، والعفو ، والإغضاء ، والتعفُّف، والإحسان ، فإذا وُفِّق المرء لصحبة العاقل ، فليشُدَّ يديه به ، ولا يزايله على الأحوال كلها . والواجب على العاقل ألا يصحَب بحيلة من لا يستفيد منه خيرًا .

ولقد أنبأنا محمد بن محمود بن عدىّ النَّسَوِى ، حدثنا علىُّ بن سعيد بن جرير ، قال: سمعت أحمد بن حنبل - رحمه الله - يقول : أخبِرت عن مالك بن دينار : أنه قال : مررت براهب فى صومعته ، فناديته ، فأشرف علىَّ ، فكلَّمنى وكلَّمته ، فقال لى فيما يقول : إذا استطعت أن تجعل فيما بينك وبين الدنيا حائطًا من حديد فافعل ، وإياك وكلَّ جليس لا تستفيد منه خيرًا ، فلا تجالسه قريبًا كان أو بعيدًا .

* * *

(١) هذه الأبيات الأربعة فى ذكر أحوال النوكى ذوى الغباء وكيف هم فى خلاف وشقاق واعوجاج وانحراف عن سواء السبيل فيقول : إن لنا لطرفةً ، وعجيبةً ، وهى أن جليًا أحمق ذا سفه وعىٍّ وسوءِ أدبٍ ، وكل من جالسه فهو فى تعب ونصب من حمقه وسفاهته .

وهذا الجليس حالته على خلاف الناس ، فما يلبس لكل حالة لبوسها إما نعيمها وإما بؤسها لا ، وإنما هو غضوب عند الرضا ، رضىٌّ عند الغضب ، وما ذل إلا لفرط جهالته وسعة حماقته ووفير خيبته .

ونحن لا يتمالكنا إلا الوجوم من حالته ، فنحن فى عجب عجاب بل فى عجب عجيب من حاله المريب ، فإنه فاق كل غريب .

وهو لفرط جهله ، وسوء أدبه كأنه معلم فى معاهد سوء الأدب ، حتى كأنه إمام لأهل السوء !! ؟ وأختم هذا الفصل بروائع من الشعر فى عذل الأحمق وفراقه !

ذِكْرُ الزَّجْرِ عَنِ التَّجَسُّسِ ، وَظَنِّ السَّوْءِ

حدثنا محمد بن أحمد الرقّام بتستَر ، حدثنا أبو الخطّاب زياد بن يحيى ، حدثنا أبو داود ، [حدثنا] (١) سليمان (٢) بن حيان ، عن أبيه ، عن أبي هريرة ، قال : قال رسول الله ﷺ : « **إِيَّاكُمْ وَالظَّنَّ ، فَإِنَّ الظَّنَّ أَكْذَبُ الحَدِيثِ ، وَلَا (٣) تَجَسَّسُوا ، وَلَا تَحَسَّسُوا (٤) ، وَلَا تَبَاغَضُوا ، وَكُونُوا عِبَادَ اللهِ إِخْوَانًا** » (٥) .

---

(١) سقط فى الأصل . (٢) فى الأصل : سليم . (٣) تكررت في الأصل .

(٤) التجسس بالجيم : التفتيش عن بواطن الأمور ، وأكثر ما يقال فى الشر . أو التجسس أن يطلبه لغيره ، وبالحاء : أن يطلبه لنفسه ، أو بالجيم البحث عن العورات . وبالحاء : الاستماع .

(٥) أخرجه أبو داود الطيالسى : (٢/٦١) برقم (٢١٨٩) .

وأخرجه البخارى : (٩/١٠٦) فى « النكاح » ، باب : لا يخطب على خطبة أخيه حتى ينكح أو يدع (٥١٤٣) ، و(١٠/٤٩٦) فى « الأدب » ، باب : ما ينهى عن التحاسد والتدابر (٦٠٦٤) ، وباب: ﴿ يا أيها الذين آمنوا اجتنبوا كثيرًا من الظن ﴾ (٦٠٦٦) ، (١١/٦) فى « الفرائض » ، باب: تعليم الفرائض (٦٧٢٤) ، ومسلم : (٤/١٩٨٥) فى « البر والصلة » (٢٨ - ٣١ / ٢٥٦٣) ، وأبو داود : (٢/٦٩٧) فى « الأدب » ، باب : فى الظن (٤٩١٧) ، والترمذى فى « البر والصلة » (١٩٨٨) ، ومالك فى « الموطأ » : (٢/٩٠٧ - ٩٠٨) فى حسن الخلق ، باب : ما جاء فى المهاجرة (١٥) ، وأحمد : (٢/٢٤٥ ، ٢٨٧ ، ٣١٢ ، ٣٤٢ ، ٤٦٥ ، ٤٧٠ ، ٤٨٢ ، ٤٩١ ، ٤٩٢ ، ٥٠٤ ، ٥١٧ ، ٥٣٩) ، والبخارى فى « الأدب المفرد » (١٢٩٠) ، وعبد الرزاق (٢٠٢٢٨) ، والقضاعي فى «مسند الشهاب » (٩٣٩ - ٩٥٩) ، والبيهقى : (٦/٨٥) ، والبغوى فى « شرح السنة » بتحقيقنا : (٦/٤٩٦ - ٤٩٧) برقم (٣٤٢٧ - ٣٤٢٨) من طرق عن أبى هريرة .

ويشهد له حديث أنس أخرجه البخارى : (١٠/٤٩٦) فى « الأدب » ، باب : ما ينهى عن التحاسد والتدابر (٦٠٦٥) ، وباب : الهجرة (٧٠٧٦) ، ومسلم : (٤/١٩٨٣ - ١٩٨٤) فى « البر والصلة » ، باب : تحريم التحاسد والتباغض والتدابر (٢٣ - ٢٤ / ٢٥٥٩) ، وأبو داود : (٢/٦٩٥) فى « الأدب »، باب : فيمن يهجر أخاه المسلم (٤٩١٠) ، والترمذي : (٤/ ٢٩٠) فى « البر والصلة»، باب : ما جاء فى الحسد (١٩٣٥) ، ومالك فى « الموطأ » : ٢/٩٠٧) فى حسن الخلق ، باب : ما جاء فى المهاجرة (١٤) ، وأحمد : ١٩٩/٣ ، ٢٠٩ ، ٢٢٥ ، ٢٧٧ ، ٢٨٣ ، والحميدى (١١٨٣) ، والطيالسى (٢١٩٠) ، وعبد الرزاق (٢٠٢٢٢) ، وأبو يعلى (٣٢٦١) ، والبيهقى : (١٠/٢٣٢) ، والبغوى فى « شرح السنة » بتحقيقنا : (٦/ ٤٩٠) برقم (٣٤١٦) من طرق عن أنس بلفظ : « لا تحاسدوا ولا تباغضوا ولا تدابروا وكونوا عباد الله إخوانًا ، ولا يحل لمسلم أن يهجر أخاه فوق ثلاث .

وقال الحافظ فى « الفتح » : (١٠/٤٩٦ - ٤٩٨) قوله : (إياكم والظن) قال الخطابى وغيره : ليس المراد ترك العمل بالظن الذى تناط به الأحكامُ غالبًا ، بل المرادُ ترك تحقيق الظن الذى يضر بالمظنون =

. . . .

= به ، وكذا ما يقع فى القلب بغير دليل ، وذلك أن أوائل الظنون إنما هى خواطر لا يمكن دفعها ، وما لا يقدر عليه لا يكلف به ، ويؤيده حديث : « تجاوز الله للأمة عما حدثت به أنفسها » ، وقد تقدم شرحه ، وقال القرطبى : المراد بالظن هنا التهمة التى لا سبب لها كمن يتهم رجلاً بالفاحشة من غير أن يظهر عليه ما يقتضيها ، ولذلك عطف عليه قولَهُ : ﴿ ولا تجسسوا ﴾ وذلك أن الشخص يقع له خاطر التهمة فيريد أن يتحقق فيتجسس ويبحث ويستمع ، فنهى عن ذلك ، وهذا الحديث يوافق قوله تعالى : ﴿ اجتنبوا كثيرًا من الظن إن بعض الظن إثم ولا تجسسوا ولا يغتب بعضكم بعضًا ﴾ ، فدل سياق الآية على الأمر بصون عرض المسلم غاية الصيانة لتقدم النهى عن الخوض فيه بالظن ، فإن قال الظان أبحث لأتحقق ، قيل له : ﴿ ولا تجسسوا ﴾ فإن قال تحققت من غير تجسس قيل له : ﴿ ولا يغتب بعضكم بعضًا ﴾ ، وقال عياض : استدل بالحديث قوم على منع العمل فى الأحكام بالاجتهاد والرأى ، وحمله المحققون على ظن مجرد عن الدليل ليس مبنيا على أصل ولا تحقيق نظر .

وقال النووى : ليس المراد فى الحديث بالظن ما يتعلق بالاجتهاد الذى يتعلق بالأحكام أصلاً ، بل الاستدلال به لذلك ضعيف أو باطل ، وتعقب بأن ضعفه ظاهر ، وأما بطلانه فلا ، فإن اللفظ صالح لذلك ، ولا سيما إن حُمِلَ على ما ذكره القاضي عياض ، وقد قربه القرطبى فى « المفهم » ، وقال : الظن الشرعى الذى هو تغليب أحد الجانبين أو هو بمعنى اليقين ليس مرادًا من الحديث ولا من الآية ، فلا يلتفت لمن استدل بذلك على إنكار الظن الشرعى ، وقال ابن عبد البر : احتج به بعض الشافعية على من قال بسدِّ الذريعة فى البيع فأبطل بيع العِينة .

ووجه الاستدلال النهى عن الظن بالمسلم شرا ، فإذا باع شيئًا حمل على ظاهره الذي وقَّع العقد به ولم يبطل بمجرد توهم أنه سلك به مسلك الحيلة ، ولا يخفى ما فيه .

وأما وصف الظن بكونه أكذب الحديث ، مع أن تعمد الكذب الذى لا يستند إلى ظن أصلاً أشدُّ من الأمر الذى يستند إلى الظن ، فللإشارة إلى أن الظن المنهى عنه هو الذي لا يستند إلى شىء يجوز الاعتماد عليه فيعتمد عليه ويجعل أصلاً ويجزم به ، فيكون الجازم به كاذبًا ، وإنما صار أشدّ من الكاذب ؛ لأن الكذب فى أصله مستقبح مستغنىً عن ذمِّه ، بخلاف هذا فإن صاحبه يزعمه مستند إلى شىء فوصف بكونه أشد الكذب مبالغة فى ذمه والتنفير منه ، وإشارة إلى أن الاغترار به أكثر من الكذب لخفائه غالبًا ، ووضوح الكذب المحض .

قوله : (فإن الظن أكذب الحديث) قد استُشكلت تسمية الظن حديثًا ، وأجيب بأن المراد عدم مطابقة الواقع سواء كان قولاً أو فعلاً ، ويحتمل أن يكون المراد ما ينشأ عن الظن فوصف الظن به مجازًا .

قوله : ﴿ ولا تحسسوا ولا تجسسوا) إحدى الكلمتين بالجيم والأخرى بالحاء المهملة ، وفى كلٍّ منهما حذف إحدى التاءين تخفيفًا ، وكذا فى بقية المناهى التى فى حديث الباب ، والأصل : تتحسسوا .

قال الخطابى : معناه : لا تبحثوا عن عيوب الناس ولا تتبعوها ، قال الله تعالى حاكيًا عن يعقوب - عليه السلام : ﴿ اذهبوا فتحسسوا من يوسف وأخيه ﴾ وأصل هذه الكلمة التى بالمهملة من الحاسة إحدى الحواس الخمس ، وبالجيم ، من الجس بمعنى اختبار الشىء باليد وهى إحدى الحواس ، فتكون التى بالحاء أعم ، وقال إبراهيم الحربى : هما بمعنى واحد . =

= وقال ابن الأنبارى : ذكر الثانى للتأكيد كقولهم بُعدًا وسحقًا ، وقيل : بالجيم البحث عن عوراتهم ، وبالحاء استماع حديث القوم ، وهذا رواه الأوزاعى عن يحيى بن أبى كثير أحد صغار التابعين، وقيل : وبالجيم : البحث عن بواطن الأمور وأكثر ما يقال فى الشر ، وبالحاء : البحث عما يدرك بحاسة العين والأذن ورجح هذا القرطبى ، وقيل : بالجيم تتبع الشخص لأجل غيره وبالحاء : تتبعه لنفسه ، وهذا اختيار ثعلب ، ويستثنى من النهى عن التجسس ما لو تعين طريقًا إلى إنقاذ نفس من الهلاك مثلاً كأن يخبر ثقة بأن فلانًا خلا بشخص ليقتله ظلمًا ، أو بامرأة ليزنى بها ، فيشرع فى هذه الصورة التجسس والبحث عن ذلك حذرًا من فوات استدراكه ، نقله النووى عن « الأحكام السلطانية » للماوردى واستجاده ، وأن كلامه : ليس للمحتسب أن يبحث عما لم يظهر من المحرمات ولو غلب على الظن استسرار أهلها بها إلا هذه الصورة .

قوله : (ولا تحاسدوا) : الحسد تمنى الشخص زوال النعمة عن مستحق لها أعم من أن يسعى فى ذلك أولا ، فإن سعى كان باغيًا ، وإن لم يسع في ذلك ولا أظهره ولا تسبب في تأكيد أسباب الكراهة التى نهى المسلم عنها فى حق المسلم نظر ، فإن كان المانع له من ذلك العجز بحيث لو تمكن لفعل فهذا مأزور ، وإن كان المانع له من ذلك التقوى فقد يعذر لأنه لا يستطيع دفع الخواطر النفسانية فيكفيه فى مجاهدتها أن لا يعمل بها ولا يعزم على العمل بها ، وقد أخرج عبد الرزاق عن معمر عن إسماعيل بن أمية رفعه : « ثلاث لا يسلم منها أحد : الطيرة والظن والحسد ، قيل : فما المخرج منها يا رسول الله ؟ قال : إذا تطيرت فلا ترجع ، وإذا ظننت فلا تحقق ، وإذا حسدت فلا تبغ » وعن الحسن البصرى ، قال : ما من آدمى إلا وفيه الحسد ، فمن لم يجاوز ذلك إلى البغى والظلم لم يتبعه منه شىء .

قوله (ولا تدابروا) قال الخطابى : لا تتهاجروا فيهجر أحدكم أخاه ، مأخوذ من تولية الرجل الآخر دبره إذا أعرض عنه حين يراه ، وقال ابن عبد البر : قيل للإعراض مدابرة لأن من أبغض أعرض ومن أعرض ولى دبره ، والمحب بالعكس ، وقيل : معناه لا يستأثر أحدكم على الآخر ، وقيل للمستأثر مستدبر لأنه يولى دبره حين يستأثر بشىء دون الآخر .

وقال المازرى : معنى التدابر المعاداة يقول : دابرته ، أى : عاديته ، وحكى عياض أن معناه لا تجادلوا ولكن تعاونوا ، والأول أولى .

وقد فسَّره مالك فى « الموطأ » بأخص منه فقال : إذ ساق حديث الباب عن الزهرى بهذا السند : ولا أحسب التدابر إلا الإعراض عن السلام ، يدبر عنه بوجهه ، وكأنه أخذه من بقية الحديث «يلتقيان فيعرض هذا ، ويعرض هذا وخيرهما الذى يبدأ بالسلام » فإنه يفهم أن صدور السلام منهما أو من أحدهما يرفع ذلك الإعراض ، وسيأتى مزيد لهذا فى « باب الهجرة » ، ويؤيده ما أخرجه الحسين بن الحسن المروزى فى « زيادات كتاب البر والصلة » لابن المبارك بسند صحيح عن أنس قال : التدابر التصارم .

قوله : (ولا تباغضوا) أى لا تتعاطوا أسباب البغض ؛ لأن البغض لا يكتسب ابتداء ، وقيل : المراد النهى عن الأهواء المضلة المقتضية للتباغض ، قلت : بل هو لأعم من الأهواء ؛ لأن تعاطى الأهواء ضرب من ذلك ، وحقيقة التباغض أن يقع بين اثنين وقد يطلق إذا كان من أحدهما ، والمذموم منه كان فى غير الله تعالى ، فإنه واجب فيه ويثاب فاعله لتعظيم حق الله ولو كانا أو أحدهما عند الله من أهل السلامة ، كمن يؤديه اجتهاده إلى اعتقاد ينافى الآخر فيبغضه على ذلك وهو معذور عند الله . =

حدثنا محمد بن عثمان العقبىّ ، حدثنا جعفر بن محمد بن الحجاج الرقّى ، حدثنا محمد بن حاتم الجَرْجَرَائىّ ، حدثنا محمد بن المبارك ، عن يونس بن نافع ، عن كثير ابن زياد ، قال : سمعت الحسن يقول : لا تسأل عن عمل أخيك الحسن والسيء ، فإنه من التجسُّس (١) .

قال أبو حاتم - رضى الله عنه : الواجب على العاقل لزوم السلامة ، بترك التجسُّس عن عيوب الناس ، مع الاشتغال بإصلاح عيوب نفسه ؛ فإن من اشتغل بعيوبه عن عيوب غيره ، أراح بدنه ، ولم يتعب قلبه ، فكلما اطّلع على عيبٍ لنفسه ، هان عليه ما يرى مثله من أخيه ، وإن من اشتغل بعيوب الناس عن عيوب نفسه ، عمى قلبه ، وتعب بدنه، وتعذر عليه ترك عيوب نفسه ، وإن من أعجز الناس من عاب الناس بما فيهم ، وأعجز منه من عابهم بما فيه ، ومن عاب الناس عابُوه ؛ ولقد أحسن الذى يقول : [الطويل]

إِذَا أَنْتَ عِبْتَ النَّاسَ عَابُوا وَأَكْثَــرُوا ... عَلَيْكَ ، وَأَبْدَوْا مِنْكَ مَا كَانَ يُسْتَرُ (٢)

= قوله : (وكونوا عباد الله إخوانًا) بلفظ المنادى المضاف ، زاد مسلم فى آخره من رواية أبى صالح عن أبى هريرة : « كما أمركم الله » ومثله عنده من طريق قتادة عن أنس .

وهذه الجملة تشبه التعليل لما تقدم ، كأنه قال : إذا تركتم هذه المنهيات كنتم إخوانًا ومفهومه ، إذا لم تتركوها تصيروا أعداء ، ومعنى كونوا إخوانًا اكتسبوا ما تصيرون به إخوانًا مما سبق ذكره وغير ذلك من الأمور المقتضية لذلك إثباتًا ونفيًا ، وقوله : « عباد الله » أى : يا عباد الله بحذف حرف النداء ، وفيه إشارة إلى أنكم عبيد الله فحقكم أن تتواخوا بذلك ، قال القرطبى : المعنى كونوا كإخوان النسب فى الشفقة والرحمة والمحبة والمواساة والمعاونة والنصيحة ، ولعل قوله فى الرواية الزائدة: « كما أمركم الله » ، أى بهذه الأوامر المقدم ذكرها فإنها جامعة لمعانى الأخوة ، ونسبتها إلى الله لأن الرسول مبلغ عن الله ، وقد أخرج أحمد بسند حسن عن أبى أمامة مرفوعًا : « لا أقول إلا ما أقول » ويحتمل أن يكون المراد بقوله : « كما أمركم الله » ، الإشارة إلى قوله تعالى : ﴿ إنما المؤمنون إخوة ﴾ ، خبر عن الحالة التى شرعت للمؤمنين ، فهو بمعنى الأمر .

قال ابن عبد البر : تضمن الحديث تحريم بغض المسلم والإعراض عنه وقطيعته بعد صحبته بغير ذنب شرعى ، والحسد له على ما أنعم به عليه ، وأن يعامله معاملة الأخ النسيب ، وأن لاينقب عن معايبة ، ولا فرق فى ذلك بين الحاضر والغائب ، وقد يشترك الميت مع الحى فى كثير من ذلك .

(تنبيه) : وقع فى رواية عبد الرزاق عن معمر عن همام فى هذا الحديث من الزيادة : « ولا تنافسوا» ، وكذا .

(١) فى الأصل : التجسيس . (٢) فى الأصل : كنت تستر .

وَقَدْ قَالَ فِى بَعْضِ الأَقَاوِيلِ (١) قَائِلٌ	لَهُ مَنْطِقٌ فِيهِ كَلَامٌ مُحَبَّـــــرُ
إِذَا مَا ذَكَرْتَ النَّاسَ فَاتْــرُكْ عُيُوبَهُمْ	فَلا عَيْبَ إِلا دُونَ مَا مِنْكَ يُذْكَـرُ
وَإِنْ عِبْتَ قَوْمًا بِالَّذِى لَيْسَ فِيهِــمُ	فَذَلِكَ عِنْدَ اللهِ وَالنَّاسِ أَكْبَـــرُ
وَإِنْ عِبْتَ قَـــوْمًا بِالَّذِى فِيكَ مِثْلُهُ	فَكَيْفَ يَعِيبُ العُورَ (٢) مَنْ هُوَ أَعْوَرُ ؟!
وَكَيْفَ يَعِيبُ النَّاسَ مَنْ عَيْبُ نَفْسِـهِ	أَشَدُّ ، إِذَا عُدَّ العُيُوبُ ، وَأَنْكَرُ (٣)؟!
مَتَى تَلْتَمِسْ لِلنَّاسِ عَيْبًا تَجِدْ لَهُــمْ	عُيُوبًا ، وَلَكِنَّ الَّذِى (٤) فِيكَ أَكْثَرُ
فَسَالِمْهُمْ بِالكَفِّ عَنْهُمْ ؛ فَإِنَّهُــمْ	بِعَيْبِكَ مِنْ عَيْنَيْكَ أَهْدَى وَأَبْصَرُ (٥)

حدثنا محمد بن سعيد القزاز ، حدثنا هارون بن صَدَقَة القاضى ، حدثنا سعيد بن مسلمة الإيادىُّ ، قال : ادعت امرأة على رجل حمارًا لها ، فقدمته إلى القاضى ، فسألها البيِّنة ، فأحضرت أبا دُلامة ورجلاً آخر ، فقال لها القاضى : أما شاهدُك هذا فقد قبلنا

---

(١) فى الأصل : الأوائل .　　(٢) فى الأصل : العَوَرَ .

(٣) فى الأصل : عد العيوب وأنكروا .　　(٤) فى الأصل : التى .

(٥) هذه الأبيات الحسان فى الحث على التشاغل بعيوب النفس عن عيب الغير فيقول :

ينبغى على العاقل أن يكفكف لسانه عن عيوب الناس ، فمن عابهم ، فقد أباح نفسه لهم ذلك .

وقد قال العقلاء ذوو الفطنة كلامًا حُقَّ لنا أن نجعله حلقًا فى آذاننا وقلائد فى أعناقنا لجماله وجلاله :

قالوا : اعرض عيوب الناس ، واتق ذكرها وإلا ففيك المعايب والمثالب ولا بد أن ستذكر وتشهر .

وإن عبتهم بما لم يجترحوا أو يقترفوا ، فقد أعظمت الفرية عليهم ، وأتيت بإحدى الكبر ، وذاك لعمرى عند الله ثم عند الناس عظيم . .

وإن عبتهم بما أنت معيب به ، فكيف تداوى الناس وأنت مريض ؟ وكيف ترى القذاه فى أعينهم وتنسى الجزع فى عينك ؟ أم كيف للأعمى أن يعيب الأعور ؟ !

وكيف يسيغ المرء هذا أن يعيب الناس بما هو أصيل فيه أيمزق عنهم قميصًا لبس هو منه عباتره ؟!

وإذا ما صدقك الحال ، وحق لك المقال عن معايبهم ومثالبهم ، فاعلم أن عيوبك أكثر وأوفر !!

فإن أردت الغنى ، فكف عنهم وستر ما بدا منهم وإلا فإنهم ذوو أعين هى أبصر من عينك ، وأقدر أن يسربلوك الخزى والعار وما تحمده البتة .

فسالمهم تخفَ عنهم ، وإن كنت عنهم ذا غنًى فاغن وازود ، وفى هذا المعنى يقول الشافعى - رحمه الله - :

إذا شئت أن تحيا مصونًا من الأذى	وحظـــك موفورٌ وعرضك صين
لســـانك لا تذكر له عورة امرئ	فكـــلك عورات وللناس ألسـن
وعـــيناك إن أبدت إليك مساوئًا	فَلُمْهَا وقل يا عين للناس أعــينُ

شهادته : فأتنا بشاهد آخر ، فأتت أبا دُلامة فأخبرته ، فصار إلى القاضى ، وأنشأ يقول: [الطويل]

إنِ النَّاسُ غَطَّوني تَغَطَّيْتُ عَنهُمُ ... وَإِنْ بَحثُوا عَنّى فَفِيهِمْ مَبَاحِثُ
وَإِنْ حَفَرُوا بِئْرِى حَفَرْتُ بِئَارَهُم ... لِيُعلَمَ يَومًا كَيفَ تِلكَ النَّبَائِثُ[1] ، [2] ؟ [3]

فقال القاضى للمرأة : كم ثمن حمارك ؟ قالت : ثلاثمائة ، قال : قد احتملتُهَا لك من مالى ، وأنشدنى الكُرَيْزِىُّ : [الطويل]

أرَى كُلَّ إنسَانٍ يَرَى عَيبَ غَيْرِهِ ... وَيَعْمَى عَنِ العَيْبِ الَّذى هُوَ فِيهِ
وَمَا خَيْرُ مَنْ تَخفَى عَلَيْهِ عُيُوبُهُ ... وَيَبْدُو لَهُ العَيْبُ الَّذى لأخِيهِ [4]

حدثنا محمد بن المنذر ، حدثنا الليث بنُ عَبْدة المصرىّ ، حدثنا الحسن بن واقع ، حدثنا ضَمْرة ، عن الشيبانىّ [5] ، قال : فى الكتب مكتوب : كما تَدين تُدَان ، وبالكأس الذى تَسقِى به ، تَشْرَب وزيادة ؛ لأن البادئَ لا بد له من أن يزاد .

قال أبو حاتم - رحمة الله عليه : التجَسُّس من شُعَب النِّفاق ، كما أن حسن الظن من شعب الإيمان ، والعاقل [6] يحسن الظن بإخوانه ، وينفرد بغمومه وأحزانه ، كما أن الجاهل يسىء الظن بإخوانه ، ولا يفكر فى جناياته وأشجانه .

ولقد أحسن الذى يقول : [مخلَّع البسيط]

مَا يَستَرِيحُ المُسِىءُ ظَنًّا ... مِنْ طُولِ غَمّ ، وَمَا يُرِيحُ
وَقَلَّ وَجْهٌ يَضِيقُ إلا ... وَدُونَهُ مَذْهَبٌ فَسِيحُ
مَنْ خَفَّفَ اللهُ عَنهُ هَبَّتْ ... مِنْ كُلِّ وَجْهٍ إِلَيْهِ رِيحُ

---

(١) فى الأصل : المنابت . (٢) نبثُ التراب ونبشه : حفره بيده وأثاره .

(٣) هذان البيتان من أبى دلامة فى ذكر حاله مع الناس ، فهو إمعة تبعٌ لهم .. ولا غَرْو ، فأبو دلامة هو الشاعر الساخر ذو الفكاهة والمزاحة ... فيقول : أنا تبعٌ للناس فى معاملتهم فإن تكفكفوا عنى انثنيت عنهم وسترت أخبارهم وإن نبشوا ورائى وأعلنوا عدائى فأنا كذلك مشهر العداء .

وكذلك إن هم عدو على ما كان لى من بئر حفرتها وفطرتها عدوت على ما كان لهم من بئار ... فإنما جزاء سيئة بمثلها ..

(٤) هذان البيتان فى غض الطرف عن عيوب الغير كذلك فيقول :

من طباع المرء أنه دائب دائمٌ للنظر فى مثالب ومعايب غيره ، ولكن قليل عمى عن عيوب نفسه . وما ذاك بالمحمود أن تخفى عنه عيوبه ويبصر بعين الفحص عيوب إخوانه وخلانه .

(٥) في الأصل : السيبانى يحيى بن عمرو . (٦) فى الأصل : فالقاقل .

وَالجِسْمُ حَيْثُ اسْتَقَرَّ هَادٍ وَالرُّوحُ جَـوَّالَةٌ تَسِيحُ

كَمْ تَذْبَحُ الأَرْضُ مِنْ بَنِيهَا كُـلُّ بَنِيهَا لَهَا ذَبِيحُ

لَنْ يَهْلِكَ المَرْءُ مِنْ سَمَاحٍ وَقَلَّمَا يُفْلِحُ الشَّحِيحُ (١)

قال أبو حاتم – رضى الله عنه : سوء الظن عَلَى ضربين :

أحدهما : منهى عنه بحكم النبىِّ ﷺ .

والضرب الآخر : مُسْتَحَبٌّ .

فأما الذى نُهِىَ عنه ، فهو استعمال سوء الظن بالمسلمين كافة ، عَلَى ما تقدم ذِكْرنا له .

وأما الذى يُستحبُّ من سوء الظن ، فهو لمن بينه وبينه عداوة أو شحناء فى دين أو

---

(١) هذه الأبيات الستة فى الزجر عن سوء الظن ، وضيق العطن والحث على السعة والترحاب فيقول :

من كان ذا سوء ظن فإنه تعب ووصب لا ينفك عنه الهم فلا أراح نفسه ، ولا يريح صاحبه وخليله لتشككه فيه والتربص به . .

ولقد ضيق واسعًا بضيق عقله عن السعة والترحاب ولو أنه ابتصر الصواب والرشاد لأبصر أن فى الأمور سعة وفسحة . . . تغنيه عن سوء ظنه وتقليب فعال أخيه بحسب ما انقدح فى مخيلته . . .

وقد شدد فى غير تشدد ، وكاد للخلة والوداد يبدد ، ولو أنه خفف التشكى والتظنى لخفف الله عنه همه وأصاب رياح الراحة وشذي عبير الإراحة ، وجعل له من همِّه مخرجًا ، وحيثما أراح المرء نفسه وجسده ، ولم يؤلمه بطول تقصى أو لسوء تظنى فهو فى قرارة وراحه وسعة .

ثم كلنا إلى هلاك وفكاك وما أجد على الأرض باق فقد أنجبتنا لتئدنا ، وما أنبتتنا إلا لتأكلنا ، فنحن قرابين لها إذ منها الخلق ، وفيها العود ، ومنها المراجع .

والعاقل من يترقى عن سوء الظنون ، فيريح نفسه ويصيب الفلاح والنجاح ، وقلَّ أن ينجو الشحيح ضيق الفكر مقبوض النفس .

وصدق من قال :

لعمرك ما ضاقت بلادٌ بأهلها ولكـن أخلاق الرجال تضيق

لو كلف أحدهم تبعات التقوى والصلاح لصغر الوفاض وبدت منه الأنقاض وكَلَّ وذلَّ عنها . .

وكم من عفيف شريف قد استغنى واستكفى ، وصدته تقواه عن ركوب الآثام وظلم الأنام ، فاشتهر بين الناس بالعجز والذل ، وإنه لأسدٌ هصور شجاع جسور غير أن التقوى ترده عن مقارفه السوء مما رأيته وعجبت منه أن الغنى لا يتأتى بالحرص والطمع ولا يدرك المال بالاحتيال والتكلف وإنما هى أرزاق مسوقة وقسم معلومة وكل شىء بقضاء وقدر . . .

ولكن حقيقة الأمور أنها تجرى بإذن الله وعلى مراد الله ؛ فإن الله لا يعجل بعجلة أحد ، ومن غالب الله غلبه ، ومن يخادع الله خدعه سبحانه ، وهو خير الماكرين .

دنيا ، يَخاف على نفسه مكْره ؛ فحينئذٍ يلزمه سوء الظن بمكايده ومكره ؛ لئلا يصادفه عَلَى غِرَّةٍ بمكره فيهلكه .

وفي ذلك أنشدني الأبرش : [الوافر]

وَحُسْنُ الظَّنِّ يَحْسُنُ فِى أُمُورٍ ويَكْمُنُ (١) فِى عَوَاقِبِهِ نَدَامَهْ

وَسُوءُ الظَّنِّ يَسْمُجُ (٢) فِى وُجُوهٍ وَفِيهِ عَلَى سَمَاجَتِهِ حَزَامَهْ (٣)

وأنشدني محمد بن إسحاق الواسطيّ : [البسيطَ]

مَا يَنْبَغِى لأخِى لُبٍّ وتَجْرِبَةٍ أَنْ يَتْرُكَ الدَّهْرَ سُوءَ الظَّنِّ بِالنَّاسِ

حَتَّى يكُونَ قَرِيبًا فِى تَبَاعُدِهِ غِبا ، ويَدْفَعَ ضُرَّ الحِرْصِ بِاليَاسِ (٤)،(٥)

حدثنا محمد بن المنذر ، حدثنا إبراهيم بن هانيء ، حدثنا ابن أبى مريم ، حدثنا أنبأنا الليث ، عن خالد بن يزيد ، عن سعيد بن أبى هلال ، عن زيد بن أسلم ، عن

---

(١) فى الأصل : ويمكن . (٢) فى الأصل : يسمح

(٣) هذان البيتان في اعتبار سوء الظن :

حسن الظن يستحب فى الأمور لدفع التهمة والريبة ، ولإراحة النفس ، ولكن قد يكمن فى عاقبته الندم والهلكة ، وكذلك سوء الظن على أنه مردود ، مبغوض إلا أنه حزمٌ ويقظةٌ ، وقد يغدو من السموم الناقعات دواء ، وقد نصَّ العلامة ابن حزم على هذا ، فقال : « وسوء الظن من الحزم . . . » [راجع المداواة . . .]

وقال الطغرائى :

وحسنُ ظنك بالأيَّامِ معجزة فَظُنَّ شرا وكن منها على وجلِ

فإنما رجل الدنيا وواحدها من لا يعول فى الدنيا على رجل

وقال ابن المقرى :

والغدر فى الناس طبع لا تثق بهم فإن أبيت فخذ فى الأمن والوجل

من فطنة بالفتى إظهار غفلته مع التحرز من غدرٍ ومن ختَلِ

(٤) فى الأصل : بالناس .

(٥) هذان البيتان يحثان على سوء الظن بالناس لأنه مجن يتقى به خداعهم . .

فيقول :

ينبغى على ذى الخبرة والتجربة وذى القريحة الجيدة ألا ينابذ أبدًا سوء الظن بالناس ، بل يجب اقتناؤه واستعماله فى كل حال أبدًا .

وبذلك تجتنى الخير وتتقى خداعهم ورواغهم ، فتكون بمنأى ومبعد عن ذلك مع قرب فى الظاهر ، لا يورثك نفورهم منك ، وكذلك ينبغى ترك الحرص ، ومده بحسام اليأس كما قال الحطيئة :

ازمعت يأسًا مبينًا من نوالكم ولن ترى طاردًا للحر كاليأس

عُمر بن سعد ، عن عبد الله بن عمرو بن العاص ، قال : مكتوب في التوراة : « مَنْ نَحَرَ نُحِرَ ، ومن حفر حفرة سوء لصاحبه وقع فيها » .

قال أبو حاتم - رضى الله عنه - : الواجب على العاقل مباينة العوام فى الأخلاق والأفعال ، بلزوم ترك التجسُّس عن عيوب الناس ؛ لأن من بحث عن مكنون غيره ، بُحِث عن مكنون نفسه وربما طَمَّ مكنُونه على ما بَحَث من مكنون غيره ، وكيف يستحسن بمسلم ثَلْبَ مسلم بالشىء الذى هو فيه ؟

وأنشدنى المنتصر بن بلال الأنصارى : [البسيط]

لا تَلْتَمِسْ مِنْ مَسَاوِى النَّاسِ مَاسَتَرُوا ... فَيَهْتِكَ النَّاسُ سِتْرًا مِنْ مَسَاوِيكَا
وَاذْكُرْ (١) مَحَاسِنَ مَا فِيهِمْ إِذَا ذُكِرُوا ... وَلَا تَعِبْ أَحَدًا عَيْبًا بِمَا فِيكَا (٢)

وأنشدنى محمد بن عبد الله بن زنجىٍّ البغدادىّ : [الطويل]

إِذَا مَا اتَّقَيْتَ الأَمْرَ مِنْ حَيْثُ يُتَّقَى ... وَأَبْصَرْتَ مَا تَأْتِى ، فَأَنْتَ لَبِيبُ
وَلاتَكُ كَالنَّاهِى عَنْ الذَّنْبِ غَيْرَهُ ... وَفِى كَفِّهِ مِمَّا يُذَمُّ نَصِيبُ
يَعِيبُ فِعَالَ السُّوءِ مِنْ فِعْلِ غَيْرِهِ ... وَيَفْعَلُ أَفْعَالَ الَّذِينَ يَعِيبُ (٣)

---

(١) فى الأصل : وانشر .

(٢) هذان البيتان فى الدعوة إلى غض الطرف عن مساوئ الناس فيقول :

ينبغى على المرء أن يتلمس سبيل المعيشة السالمة ، ومن مسالك هذا السبيل ألا يُكشِّف مستور الناس، فيتتبع العورات ويرض الزلات ، وينشر مطوى الآفات ، وإلا تسلَّط الناس عليه ، فأتوا بنيان فضله من القواعد ، وبثوا له المثالب والمساوئ .

وينبغى عليه ألا يذكر كلامًا إلا ما كان حسنًا فهذا أدعى لذكر محاسنه ، وكذلك فليعقل غبَّ قوله، وليدرك قصر حوله فلا يعيبنَّهم بما هو مقترفٌ .

(٣) هذه الأبيات الحكمية فى معنى ما سبق فيقول :

ينبغى على المرء أن يكون لبيبًا ذكيًا ، يعرف كيف يقتطف ومن أين تؤكل الكتف ؟ . .

فمن لبه وذكائه أن يبصر الأمور ، وكيف تتأتى ، ويتجنب المآبق وما يتقى فيتقيه ويحترزُ منه . .

ومن الفطانة كذلك ألا يسلط لسانه فى نهى غيره وزجره وهو رَسُوخ أصيل فيما ينهى عنه . . !!

فيعيب هذا وينقر ذاك ، ويأتى هذه المناهى فلا خَافَ ربه ، ولا تحرج من نفسه ، وما راعى عقله إذْ يكيل بمكيالين ، ويزن الأمور بميزانين ، ويبصرها بعين واحدة عوراء . . . !

وفى هذا يقول أبو العتاهية :

يا واعظ الناس قد أصبحت متهمًا ... إذ عبت منهم أمورًا أنت تأتيها
كالملبس الثوب من عرى وعوراته ... للناس بادية ما إن يواريها =

حدثنا محمد بن المهاجر المعدّل ، حدثنا محمد بن موسى السمرىّ ، حدثنا حماد بن إسحاق بن إبراهيم ، عن أبيه ، قال : وحدثنى عُزيز ، عن الزبير بن موسى المخزومىّ ، قال : قالت ابنة [1] عبد الله بن مطيع الأسود [2] ، وهى زوجة طلحة بن عبد [3] الله بن

= واعظـــم الإثم بعد الشرك نعلمه ... فى كل نفس عماها عن مساويها
عرفانها بعيوبِ الناس تبصرهـــا ... منهم ، ولا تبصر العيب الذى فيها

وقال محمود الوراق :

لا تلتمس من مساوى الناس ما ستروا ... فيهتك الله سترًا عن مساويكـــــا
واذكر محاسن ما فيهم إذا ذكـــروا ... ولا تعب أحدًا منهم بما فيكـــــا

ومن روائع جامع الحكم هذه القصيدة الفريدة ليزيد بن عبد الحكم ، وقد أوردها أبو تمام فى حماسته (٢/ ٤٠ - ٤٥) فيقول فيها :

يا بـــدر والأمثال يضـ ... ـربها لذى اللب الحكيم
دم للخليـــــل بـوده ... ما خيـر ودٍّ لا يــدوم
واعـــرف لجارك حقَّه ... والحـق يعرفه الكريـم
واعلم بأن الضيف يو ... مًا سوف يحمد أو يلوم
والناس مبتنيان محـــ ... ـمود البناية أو ذميم
واعلـــــم بنى فإنه ... بالعـلم ينتفع العليـم
أن الأمـــور دقيقها ... مما يهـاج به العظيـم
والتَّبْل مثل الدين تقـ ... ـضاه وقد يلوى الغريم
والبغى يصرع أهلـــه ... والظلـم مرتعه وخيم
ولقد يكون لك الغريـ ... ـب أخًا ويقطعك الحميـم
والمرء يكـــرم للغنى ... ويهان للعدم العـديم
قد يقتر الحول النفـس ... ويكثر الحمق الأثيـم
يملـــى لذاك ويبتلى ... هـــذا فأيهما المضيم
ما بخل من هو للمنو ... ن وريبها غرض رجيم
ويرى القرون أمامـه ... همدوا كما همد الهشيم
وستخربُ الدنيا فلا ... بؤس يدوم ولا نعيـم
كل امرئ مستتيم منـ ... ـه العرس أو منها يئيم
ما علم ذى ولد أيث ... كـــله أم الولد اليتيـم
والحرب صاحبها الصليـ ... ـب على تلاتلها العزوم
من لا يمل ضراسها ... ولدى الحقيقة لا يخيم
واعلم بأن الحرب لا ... يسطيعها المرح السؤوم

(١) فى الأصل : بنت . (٢) فى الأصل : بن الأسود . (٣) فى الأصل : عبيد .

عوف لزوجها : ما رأيت أحدًا قَطُّ الأَمَ من أصحابك . قال : مه ، لا تقولى ذاك فيهم، وما رأيتِ من لؤمهم ؟ قالت : أمرًا والله بيِّنًا . قال : وما هو ؟ قالت : إذا أيسرتَ لَزموك ، وإذا أعسرتَ جانبوك . قال : ما زدتِ على أن وصفتهم بمكارم الأخلاق . قالت : وما هذا من مكارم الأخلاق ؟ قال : يأتوننا فى حال القوَّة مِنَّا عليهم ، ويفارقوننا فى حال الضعف مِنَّا عليهم [1] [أخبرنا عمر بن محمد الهمذانى ، ثنا الفضل بن سهل الأعرج ، ثنا يعقوب بن إبراهيم بن سعد ، ثنا أبى عن صالح بن كيسان ، عن ابن شهاب ، حدثنى زُرارة بن مصعب بن عبد الرحمن بن عوف أن المسور بن مخرمة أخبره أن عبد الرحمن بن عوف أخبره أنه حرس ليلةً مع عمر بن الخطاب - رضى الله عنهما - فبينما هم يمشون إذ شَبَّ لهم سراج فى بيتٍ ، فانطلقوا يؤمونه حتى إذا دنوا إذا بباب البيت مجافٍ على قومٍ لهم فيه أصوات مرتفعةٌ ولغطٌ . فقال عمر وأخذ بيد عبد الرحمن: أتدرى بيت مَن هذا ؟ فقال : هذا بيتُ ربيعة بن أمية بن خلف ، وهم الآن فى شربٍ . قال : فماذا ترى ؟ فقال عبد الرحمن : أرى أنَّا قد أتينا ما نُهينا عنه . قال الله جَلَّ وعلا : ﴿ ولا تجسَّسُوا ﴾ وقد تجسسنا . فانصرف عمر وتركه] [2] .

* * *

---

(1) فى الأصل : عنهم .

(2) سقط فى ط .

ذِكْرُ الحَثِّ عَلَى مُجَانَبَةِ الحِرْصِ لِلْعَاقِلِ

حدثنا محمد بن إسحاق بن خُزَيْمة - رحمه الله - حدثنا بشر بن معاذ العَقَدىّ ، حدثنا أبو عَوانة عن قتادة ، عن أنس ، قال : قال النبىّ ﷺ : « يَهْرَمُ ابْنُ آدَمَ وتَشِبُّ مِنْهُ اثْنَتَانِ (١) : الحِرْصُ ، والحَسَدُ » (٢) .

---

(١) فى الأصل : ويشيب منه اثنان .

(٢) أخرجه ابن حبان كما فى « الإحسان » (٣٢٢٧) ، وأخرجه ابن ماجة : (٢/ ١٤١٥) فى «الزهد» ، باب : الأمل والأجل (٤٢٣٤) عن بشر بن معاذ به .

وأخرجه مسلم : (٢/ ٧٢٤) فى « الزكاة » ، باب : كراهة الحرص على الدنيا (١١٥/ ١٠٤٧) ، عن يحيى بن يحيى وسعيد بن منصور وقتيبة بن سعيد ، وأخرجه أحمد : (٣/ ١٩٢) عن عفان وبهز : (٣/ ٢٥٦) ، عن عفان ، وأبو يعلى (٢٨٥٧) ، عن عبد الواحد ، وابن حساب كلهم عن أبي عوانة به .

وأخرجه البخارى : (١١/ ٢٤٣) فى « الرقاق » ، باب : من بلغ ستين سنة فقد أعذر الله إليه فى العمر (٦٤٢١) ، ومسلم (١٠٤٧) ، والطيالسى برقم (٢١٩٧) من طرق عن هشام عن قتادة به .

وأخرجه أبو نعيم فى « الحلية » : (٨/ ١٦٠) ، عن منصور بن زاذان ، عن قتادة .

وعلقه البخارى (٦٤٢١) ، بقوله : رواه شعبة عن قتادة ، ووصله مسلم (١٠٤٧) ، والبيهقى : (٣/ ٣٦٨) من طريقين عن شعبة .

وأخرجه أبو نعيم : (٧/ ٢٦١) ، عن مِسْعر ، عن قتادة به . وأخرجه ابن المبارك فى « الزهد » ص (٨٧) برقم (٢٥٦) من طريق شعبة .

ويشهد له حديث أبى هريرة أخرجه البخارى : (١١/ ٢٤٣) ، فى باب من بلغ ستين عامًا فقد أعذر الله إليه فى العمر (٦٤٢٠) ، ومسلم (١١٣ - ١١٤ / ١٠٤٦) ، والترمذى (٢٣٣٨) ، وابن ماجة (٤٢٣٣) ، والحاكم : (٤/ ٣٢٨) ، وأحمد : (٢/ ٣٣٥) ، (٣٣٨) ، (٣٣٩) ، (٣٥٨) ، (٣٧٩) ، (٣٨٠) ، (٣٩٤) ، (٤٤٣) ، (٤٤٧) بلفظ : « قلب الشيخ شاب على حب اثنتين : طول الحياة ، وحب المال » ، وكذا أخرجه البيهقى : (٣/ ٣٦٨) ، ولفظ البخارى : لا يزال قلب الكبير شابًا فى اثنتين : فى حب الدنيا وطول الأمل » .

وقال الحافظ فى « الفتح » : (١١/ ٢٤٥) : قال النووى : هذا مجاز واستعارة ومعناه : أن قلب الشيخ كامل الحب للمال متحكم في ذلك كاحتكام قوة الشاب فى شبابه ، هذا صوابه ، وقيل فى تفسيره غير هذا مما لا يرتضى ، وكأنه أشار إلى قول عياض : هذا الحديث فيه من المطابقة وبديع الكلام الغاية ، وذلك أن الشيخ من شأنه أن تكون آماله وحرصه على الدنيا قد بليت على بلاء جسمه إذ انقضى عمره ولم يبق له إلا انتظار الموت ، فلما كان الأمر بضده ذم . قال : والتعبير بالشاب إشارة إلى كثرة الحرص وبعد الأمل الذى هو فى الشباب أكثر وبهم أليق لكثرة الرجاء عادة عندهم فى طول أعمارهم ودوام استمتاعهم ولذاتهم فى الدنيا ، قال القرطبى : فى هذا الحديث كراهة الحرص =

قال أبو حاتم - رضى الله عنه : ركّب الله - جل وعلا - فى البشر الحرص والرغبة فى الدنيا الفانية ، لئلا تَخرب ، إذ هى دارُ الأبرار ، ومكسب الأتقياء ، وموضع زاد المؤمنين ، واستجلاب المِيرة للصالحين ، ولو تعرّى الناسُ عن الحرص فيها بطَلَت وخربت ، فلم يجد المؤمن ما يستعين به على أداء فرائض الله ، فضلاً عن اكتساب ما يُجْدِى عليه النفع فى الآخرة نَفْلاً . والإفراطُ فى الحرص مذموم ؛ كما أنشدنى علىٌّ بن محمد البسَّامىّ : [الخفيف]

لَيْـسَ عِنْدِى إلا الرِّضَا بِقضَاءِ ... اللهِ فِيمَا أَحبَبْتُهُ أَوْ كَرِهتُـــهْ
لَـوْ إِلَىَّ الأُمُورُ ، أَخْتَارُ مِنْهَا ... خَيْـــرَهَا لِى عَوَاقِبًا مَا عَرَفْتُهْ
وَلَوَ أنِّى حَرَصْتُ جَهْدِىَ أَنْ أَدْ ... فَعَ أَمْرًا مُقَدَّرًا مَا دَفَعْتُـــهْ
فَـــأَرَى أَنْ أَرُدَّ ذَاكَ إِلَى مَنْ ... عِنْدَهُ عِلْمُ كُلِّ مَا قَدْ جَهِلْتُهْ (١)

وأنشدنى محمد بن نصر المدينىّ : [الرمل]

يَا كَثِيرَ الحِرْصِ مَشْغُو ... لا بِدُنْيَا لَيْسَ تَبْقَـــى
مَا رَأَيْنَا الحِرْصَ أَدْنَى ... مِنْ حَرِيصٍ قَــطُّ رِزْقَا
لا ، وَلَكِنْ فِى قَضَاءِ ... اللهِ أَنْ تَعيَا وَتَشْـــقَى

= على طول العمر وكثرة المال وأن ذلك ليس بمحمود ، وقال غيره : الحكمة فى التخصيص بهذين الأمرين أن أحب الأشياء إلى ابن آدم نفسه ، فهو راغب فى بقائها فأحب لذلك طولَ العمر ، وأحب المال لأنه من أعظم الأسباب فى دوام الصحة التى ينشأ عنها غالبًا طول العمر ، فكلما أحس بقرب نفاد ذلك اشتد حبه له ورغبته فى دوامه ، واستدل به على أن الإرادة فى القلب خلافًا لمن قال : إنها فى الرأس ، قاله المازرى .

(١) هذه الأبيات الأربعة فى التسليم لقضاء الله والرضا به فيقول : إنها زخرى وعدتي عند وقعة مكروه أو هطول نعمة هو الرضا بقضاء الله سبحانه .

والرضا بقضاء الله نعم المقتنى ، فإن الله لا يرضى لعباده السوء ، واختياره هو خير الاختيار ، بل لو وكلت إلىَّ الأمور ، وترك لى الاختيار لأختار خيرها مآلاً وعاقبة لما استطعت ذلك ، وما عرفت سبيله ، لذا فالخيرة فيما خاره الله لى ، وحتى لو لم أرضَ بالقضاء ، ولم أصبر على البلاء ، وتسخطت فما يغنى هذا عنى شيئًا ، إذ لا قِبَل لى بدفع مقدورٍ أو النجاة من محذورٍ .

وينبغى على العاقل بعد هذا أن يرد الأمور وعواقبها إلى ربه - جل وعلا - فهو العليم الخبير ، وهو السميع البصير وصدق من قال :

فاشدد يديك بحبل الله معتصمًا ... فإنـــه الركن إن خانتك أركان

تَعْرِفُ الحَقَّ ، وَلَكِنْ لا تَرَى لِلْحَقِّ حَقًّا (١)

أنبأنا أحمد بن محمد بن سعيد القيسىّ ، حدثنا محمد بن الوليد بن أبان ، حدثنا نعيم بن حماد ، عن ابن المبارك ، قال : سخاء النفس عما فى أيدى الناس ، أكثر من سخاء البذل ، ومروءة القناعة أكثر من مروءة الإعطاء .

أنشدنا أبو يعلَى ، قال : أنشدونا منذ دَهر للشافعى - رحمه الله : [مجزوء الخفيف]

قَـــــدَرُ اللهِ وَاقِعٌ حَيْثُ يُقْـضَى وُرُودُهُ
قَدْ مَضَى فِيكَ حُكْمُـهُ وَانْقَضَى مَا يُرِيـــدُهُ
وَأَخُو الحِرْصِ حِرْصُهُ لَيْسَ مِمَّــــا يَزِيدُهُ
فَـــأَرِدْ مَا يَكُونُ إذْ لَمْ يَكُنْ مَا تُرِيـدُهُ (٢)

أنبأنا عبد الله بن عُرْوة ، حدثنا يعقوب الدَّوْرَقىُّ ، حدثنا ابن عُلَيَّة ، عن أيوب ، عن ابن سِيرين ، قال : إذا لم يكن ما تريد فأرِدْ ما يكون .

قال أبو حاتم - رضى الله عنه : أغنى الأغنياء من لم يكن للحرص أسيرًا ، وأفقر الفقراء من كان الحرص عليه أميرًا ؛ لأن الحرص سبب لإضاعة الموجود عن مواضعه ؛ والحرص مَحْرَمَة ، كما أن الجبن مَقْتلة ؛ ولو لم يكن فى الحرص خصلة تذم ، إلا طول

---

(١) هذه الأبيات فى زجر الحريص عن حرصه فيقول :

يا من تلبس بالحرص وأكثر منه حتى غدا عبدًا للحرص فشغل بالدنيا ، ومفاتنها ، وهيهات أن تبقى له أو لغيره . . .

أتظنُّ أن الحرص سيجلب لك الدّر ويدفع عنك الشر ويطوق لك الأرزاق كلا . . فما يدنى حرص الحريص له رزقًا .

ولكن بالتوكل على الله والرضا بما قضى اللهُ يهنأ المرء حيًا وميتًا أو يشقى . . .

وإنك أيها الحريص لمعاند مكابر حتى إنك لتعرف أن هذا هو الحق ، ولكن تتغافله وتهمله ، وبئس ما صنعت ولا حبذا ما أتيت . . .

(٢) هذه الأبيات فى التسليم بقضاء الله ، ونبذ الحرص وذمه . . . فيقول : إن ما قضى الله من الأمور فهو حاق لا محالة عندما يحين ميعاده وكل عبد له قضاء وقدر ولا يظلم ربك أحدًا ، وجفت بذلك الصحف ورفعت الأقلام ، فحبذا أن يعلم العاقل هذا ويعيه ومن كان حريصًا فإنه حارس لنفسه، وكاسف لراحته إذ الحرص مما لا يفيد ولا يزيد .

فينبغى على العاقل إذن ألا يحاول ما ليس بنائل فلا يشتط فى الطلب ، ولا يبتغى المحال ، وإنما إذا لم يستطع أمرًا يدعه ويجاوزه إلى ما يستطيع . . . كما قال الشاعر :

إذا لم تستطع شيئًا فدعه وجاوزه إلى ما تستطيع

المناقشة بالحساب فى القيامة عَلَى ما جَمَعَ ، لكان الواجب على العاقل ترك الإفراط فى الحرص .

وقد كان بعض أصحابنا كثيرًا ما ينشد : [الرجز]

فَجَانِبِ الْحِرْصَ ودَعْ عَنْكَ الحَسَدْ ... فَـفِيهِمَا الذُّلُّ وإِتْعَابُ الْجَسَدْ (١)

وأنشدنى الكُرِيزىُّ : [الطويل]

وأَرَّقَنِى طُـولُ التَّفَكُّـــرِ إِنَّنِى ... عَجِبْتُ لِدَهْـرٍ مَا تَقَضَّى عَجَائِبُهْ

فَـكَمْ عَاجِزٍ يُدْعَى جَلِيدًا لِغَشْمِه ... ولَوْ كُلِّفَ التَّقْوَى لَكَلَّتْ مَضَارِبُهْ

وَعَـــفٍّ يُسَمَّى عَاجِزًا لِعَفَافِه ... ولَوْلا التُّقَى مَا أَعْجَزَتْهُ مَذَاهِبُـهْ

فَـلَيْسَ بِحِرْصِ المَرْءِ إِدْرَاكُهُ الغِنَى ... ولا بِاحْتِيَالٍ أَدْرَكَ المَالَ كَاسِبُـهْ

ولَكِـــنَّهُ قَبْضُ الإِلَهِ وبَسْطُهُ ... فَلا ذَا يُجَارِيه (٢) ولا ذَا يُغَالِبُهْ (٣)

---

(١) هذا البيت الفرد فى ذم الحرص والحسد فيقول :

ينبغى على العاقل ألا يلقى نفسه بيده إلى التهلكة وذلك كائن لمن لم يتجنب الحرص المذل المورث الحسد والبغضاء ولمن ينال شيئًا إلا إتعاب جسده ، وإرهاق بدنه ، وإكثار همه ، وفى هذا يقول محمود الوراق .

كفـــلت لطالب الدنيا بهم ... طـــويل لا يؤول إلى انقطاع

وذل فى الحيـــاة بغير عز ... وفقـــر لا يدل على اتساع

وشغـــل ليس يعقبه فراغ ... وسعـــى دائم مع كل ساعى

وحـــرص لا يزال عليه عبدًا ... وعبد الحرص ليس بذى ارتفاع

(٢) فى الأصل : يجاوزه .

(٣) هذه الأبيات الحسان فى التفكر وذكر طَرَفٍ من عجيب أحوال الدنيا . . . فيقول :

إنى ليطول فكرى واعتبارى بحوادث الدهر وأفعاله ، فإنه لا تنقضى عجائبه ، ولا تفنى غرائبه .

وفى هذا المعنى يقول أبو العتاهية :

من لا يزل متعجبًا من كل ما ... يأتى به الأيام طال تعجبـــه

ومن عجائب الدَّهر أن العُجَّزَ الأضلال ذوى الغشم والحمق قد تمادَوْا فى غشمهم وطيشهم حتى اشتهروا بالقوة والفتوة والجلادة وما هم إلا سفهاء ضعفاء

وهنا يشكو الشاعرُ أرَقَهُ ، ودهشته من أفعال الدَّهر وصنائعه ، فإنَّه متقلبٌ لا يَبْقَى على حالٍ ، ولا يبرحُ يأتى بالعَجَائب والنقائض . .

ومن عجائبه المُفَزِّعَة المُرَوِّعَة أنَّ العَاجِزَ النَّذْلَ ، الخليعَ الرَّسَنِ بركوبه القبائح والسَّفَاهات ، وبطيشه ، وحمقه ، وإتيانِهِ الأُمور من غير أبوابها ، غير مُبَالٍ بِعوَاقِبهَا ، وفضَائحها ، يسمى عند الناس شَهْمًا =

قال أبو حاتم - رضى الله عنه : الحرص غير زائد فى الرزق ، وأهون ما يعاقَبُ الحريص بحرصه ؛ أن يُمنع الاستمتاعَ بما عنده من محصوله ، فيتعبَ [(١)] فى طلب ما لا يدرى أيلحقه أم يحول الموت بينه وبينه ؟ ولو لزم الحريصُ تركَ الإفراط فيه ، واتكل على خالق السماء ، لأتحفه المولى - جل وعز - بإدراك ما لا يسعى فيه ، والظفر بما لو سعى فيه وهو حريص - عسى - لَتعذر [(٢)] عليه وجوده .

وأنشدنى على بن محمد البسَّامىّ : [الطويل]

أَلا رُبَّ بَاغٍ حَاجَـــــةً لا يَنَالُهَا ... وآخَــــــرَ قَدْ تُقْضَى لَهُ وَهْوَ آيِسُ
يُحَــــاوِلُهَا هَذَا ، وَتُقْضَى لِغَيْـــرِهِ ... وَتَأْتِى الَّذِى تُقْضَى لَهُ وَهْوَ جَالِسُ [(٣)]

= جاسرًا ، وفاتكًا جلْدًا ، وما صدَقُوا فى دعواهم ، إذ هو خَنُوعٌ كَسُولٌ عن الخيرات ، والطيبات ، ولا يطيق قليلها ، ولا يطرق أبوابَهَا ، بل تتنصل سيوفُهُ دونها ، وتكسر سِهَامُهُ عندها ، ويَفُلُّ سَيْفَهُ، ويذهب عزمه إن تيممها .

وكذلك من عجائب الدَّهْرِ ، وغرائبه أنّ العفَّ البرَّ يوسمُ من النَّاسِ بشرٍّ ميسم ، فيدعى عاجزًا ، وجبانًا ، وخضوعًا ، وأبلهًا ، وكذبوا فى دعواهم إنَّمَا ذلك لتقواه وخشيته ، ولولا ذلك لنبحهم ، ونهش الدُّنيا كما ينهشون. . .

وفى مثل هذا يقول الشَّنْفَرَى فى لاميته : [الطويل]

وَلَوْلا اجْتِنَابُ الذَّأْمِ لَمْ يُلْفَ مَشْرَبٌ ... يعاشُ به إلا لدىَّ ومأكـــــــلُ
ولكـــــنَّ نَفْسًا حرَّةً لا تَقيمُ بِى ... على الذَّأْمِ إِلا ريثمـــا أَتَحَـــوَّلُ

ومنها :

وَأَستفُّ ترب الأرض كى لا يرى له ... علىَّ من الطَّوْلِ امرؤ متطـــــول

ويقول الألبيرىُّ - رحمه الله تعالى - :

ولو أنَّنى أرْضَى القذى فى مشربى ... لكرعتُ كَرْعَةَ ظامئٍ بهواجـــر
وَعَبَرْتُ بَحْرَ الرِّزق ألتمس الغنى ... وبرزت فيه وكنت أمهر ماهـــر
لكننى عوضت عنه عنايةً وتعففًا ... وتجمـــــلاً فى الظَّاهــــر

وهذا البيت حكمة نتاج تأمل ، وتبصرِ لحوادث الدُّهور فيقولُ : وليعلم العاقل أن الغِنَى لا يصابُ، ويتأتَّى بالحرص والشره ، ولا المال يظفر به بالاحتيال ، وبذل الأديان والأعراض ، ونصب الشباك ، وحبك الأعراض . . . !!

وإنما معاقدُ الأمور وأزمتها بيد الله القدير الذي لا يعجل لعجلة أحد ، ومن يغالبه غلبه ، ومن يخادعه خدعه .

(١) فى الأصل : ويتعب . (٢) فى الأصل : يتعذر .

(٣) ربما يَبْغِى المرءُ مَنَالاً ، ويسعى للظفر به ، ويحتال ويجدُّ فلا ينالها ولا يشمُّ عبيرها ، وذلك لأنه ليس كل جادّ واجدًا ، ولا كلُ زارع حاصدًا ، ورب آخر قد استيأس من طلابها ، وأزمع اليأس من منالها فتأتيه هنية مرية بعدما نضبت رغبته عنها . . =

وأنشدني عبد العزيز بن سليمان الأبرش : [الوافر]

وكَمْ مِنْ أَكْلَةٍ مَنَعَتْ أَخَاهَا ... بِلَذَّةِ سَاعَةٍ أَكَلاتِ دَهْرِ

وَكَمْ مِنْ طَالِبٍ يَسْعَى لِشَيْءٍ ... وَفِيهِ هَلاكُهُ لَوْ كَانَ يَدْرِي (١)

قال [أبو حاتم رضي الله عنه] (٢) : الحرص علامة الفقر ، كما أن البخل جِلْباب المسكنة ، والبخلُ لِقَاحُ الحِرص ، كما أن الحميَّة لقاح الجهل ، والمنع أخو الحرص ، كما أن الأنفة توءم السَّفَه . وأنشدني عمر (٣) بن محمد ، قال : أنشدني الغلابيُّ : [الكامل]

لا تَأْتِيَنَّ نَذَالَةً لِمَنَالَةٍ (٤) ... فَلَيَأْتِيَنَّكَ رِزْقُكَ المَقْدُورُ

وَاعْلَمْ بِأَنَّكَ آخِذٌ كُلَّ الَّذِي ... لَكَ فِي الكِتَابِ مُحَبَّرٌ مَسْطُورُ

وَاللهِ مَا زَادَ امْرَأً فِي رِزْقِهِ ... حِرْصٌ ، وَلا أَزْرَى بِهِ التَّقْصِيرُ (٥)

= فما أعجب ما سبق هذا يحاولها ، وتداعبه الأماني أن يحصلها فتعدوه وتخطوه ، وتجوزه إلى من جلس عنها وقطع الأمل باليأس عن طلابها .

(١) ربَّ حرصٍ أودى بصاحبه دَرَكَاتِ الجحيم ، كما تُورِثُ لذَّة ساعة ندمًا طويلاً ، وما أكثر ما منعت أكلة زينها الشَّرَهُ وشدَّة المخمصة - أكلاتٍ كثيرات كانت منها أهنأ وأمرأ ، ولكن الغَبَنَ ، ومقتضى لذة الساعة . . . حيث أطفأت سراج العقل .

وقد يسعى المرء لطلاب شيء ، ويبذل له الطارف والتليد وهذا الشيء فيه حتفه وهلاكه ، ولكنه ما دَرَى ، ولا وعى فقد سَعَى إلى حتفه بظلفه كما قال أحدهم .

إلى حتفي سعى قدمي ... أرى قدمي أراق دمي

(٢) سقط في الأصل . (٣) في الأصل : عمرو . (٤) في الأصل : لمثالة .

(٥) ينبغي على العاقل ألا يبذل دينه وعرضه ويهرق ماء وجهه عند الحاجة ،بل ليربأ بنفسه ، ويعزّ بنفسه ، ولا يبذلها إلا في أعزّ منها ، ولا يعجل الرِّزْق ، فكل ما هو مقدورٍ آت . . . ومن قدَّر له رزق ، فهو مصيبة ولو بطيٌّ الأرضين .

وليعلم العاقل أن ما كتب له ، أو عليه فهو مصيبه ، ودارکه لا محالة إذ الأمور تجرى بإذن الله ، فلا يعزب عنه مثقال ذرة في السموات ، ولا في الأرض ، وصدق الله إذ يقول : ﴿ وكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ كِتَابًا ﴾ (النبأ : ٢٢٩) .

وقال أبو العتاهية :

تجـــرى المقادير على غرز الإبر ... إن كنت أخطأت فما أخطأ القدر

ويقسم الشاعر هنا قَسَمَةَ برٍّ لا حنث فيها ، ولا كفارة ، كما قال الله تعالى : ﴿ وفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ فَوَرَبِّ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقٌ مِثْلَ مَا أَنَّكُم تَنْطِقُونَ ﴾ (الذاريات : ٢٢ ، ٢٣) .

أن المرء مدرك رزقه ، وما كتب له ، ولن يزيده حِرصٌ ، ولن ينقصه توان وكسل ، وإنّما هي مقادير مقدره .

وأنشدنى محمد بن عبد الله بن زنجى البغدادىّ : [البسيط]

وَ ارْضَ مِنَ العَيْشِ فِى الدُّنْيَا بِأَيْسَرِهِ ... وَلا تَرُومَنَّ مَا إِنْ رُمْتَهُ صَعُبَا

إِنَّ الغَنِىَّ هُوَ الرَّاضِى بِعِيشَتِهِ ... لامَنْ يَظَلُّ عَلَى مَا فَاتَ مُكْتَئِبَا (١)

أنبأنا محمد بن سعيد القزاز ، حدثنا عبد الله بن يحيى بن حميد الطويل ، حدثنا أبو عبد الرحمن العُتْبى ، حدثنى أبى ، قال : اختصمت بنو إسرائيل فى القَدَر ، خمسمائة عام ، ثم تحاكموا إلى عالم من علمائهم ، فقالوا له : أخبرنا عن القَدَر ، وقَصِّر وبيِّن ، لتفهمه عنك العوام ، فقال : حِرْمَان عاقل ، وحَظٌّ جاهِل .

قال أبو حاتم - رضى الله عنه : لاحَظَّ فى الراحة لمن أطاع الحرص ، إذ الحرص سائق البلايا ، فالواجب عَلَى العاقل ألا يكون بالمفرَط فى الحرص فى الدنيا ، فيكون مذمومًا فى الدارين ، بل يكون قصدُه لإقامة فرائض الله ، ويكون لبغيته نهايةٌ يرجع إليها ، لأن من لم يكن لقصده نهاية ، آذى نفسه ، وأتعب بدنه . فمن كان بهذا النعت فهو من الحرص الذى يُحْمد .

وأنشدنى المنتصر بن بلال [الأنصارىّ] (٢) : [الكامل]

أَلْحِرْصُ عَوْنٌ لِلزَّمَانِ عَلَى الفَتَى ... وَالصَّبْرُ نِعْمَ القِرْنُ لِلأَزْمَانِ

لا تَخْضَعَنَّ فَإِنَّ دَهْرَكَ إِنْ رَأَى ... مِنْكَ الخُضُوعَ أَمَدَّهُ بِهَوَانِ

وَإِذَا رَآكَ وَقَدْ قَصَدتَّ لِصَرْفِهِ ... بِالصَّبْرِ ، لاقَى الصَّبْرَ بِالإِذْعَانِ (٣)

---

(١) ينبغى على العاقل أن يرضى من العيش بيسيره ، حتى يهنأ به ويمرأ ، ولا يتفصص عليه ، وإذا ما طمح ، فلا يشطط ويروم البعيد المبيد . .

فإنما الغنى هو القانع الرَّاضِى بما أوتى من العيش ، لا من يتحرق ، ويتلظى ويتهمم على ما فاته ، فما كاد يصيبه ، ولا على ما فاته مما تمناه ، واشتط فى أمله ، ولم يُصِبْهُ . . . وفى هذا يقول أبو العتاهية :

ارضَ من الدنيا بما يَقُوتُكَ ... وَاعْلَم بأنَّ الرزق لن يفوتك

الرِّزق من حلٍّ كثير طيب ... والحظُّ بكر تارة وثيب

(٢) سقط فى الأصل .

(٣) ينبغى على العاقل أنْ يجانب الحرص ويتقيه ، فإنه سبب إلى كل همٍّ ، وذُلٍّ ، وإنه عون لحوادث الزمان وغيَره على الفتى ، أما التصبر ، والترضى ، فإنه راحة ومسلاة عن كل هم وذلٍّ ، كما أنه نعم العُدَّةُ والعتاد ، يعتد به المرء على الحدثان وغيَرِ الزَّمَان .

وينبغى على العاقل ألا يخضع ويتضعضع لحادثة ، ونكبة تعصف به ويمسه منها لفحات . =

وأنشدنى منصور بن محمد الكُريزى ، قال : أنشدنى شُعيب بن أحمد ، لأبى العتاهية : [البسيط]

لا تَخْضَعَنَّ لِمَخْلُوقٍ عَلَى طَمَعٍ فَإِنَّ ذَاكَ مُضِرٍ مِنْكَ بِالدِّينِ (١)

وأنشدنى أيضًا الكريزى قال : أنشدنى شُعيب بن أحمد ، لأبى العتاهية : [البسيط]

قَدْ شَابَ رَأْسِى ، وَرَأْسُ الحِرْصِ لَمْ يَشِبِ إِنَّ الحَرِيصَ عَلَى الدُّنْيَا لَفِى تَعَبِ
مَالِى أَرَانِى إِذَا حَاوَلْتُ مَنْزِلَةً فَنِلْتُهَا طَمَحَتْ نَفْسِى إِلَى رُتَبِ
لَوْ كَانَ يَنْفَعُنِى عِلْمِى وَتَجْرِبَتِى مَا اشْتَدَّ غَيْظِى مِنَ الدُّنْيَا وَلَا كَلَبِى (٢)

قال أبو حاتم - رضى الله عنه : قد ذكرت ما يشاكل هذه الحكايات بعللها ، فى كتاب « الثقة بالله » ، بما أرجو أن يكون فيها غُنية لمن أراد الوقوف على معرفتها ، فأغنى ذلك عن تكْرَارها فى هذا الكتاب .

* * *

= ولكنه يتقيها ، ويدافعها بالجسارة ، والتصّمد ، والتجلد ، وإلا ركبه الدَّهر ، وأوسعه بالقهر ، وأمره بهوان مديد . .

وإذا ما وُجِّه الدَّهْرُ بالجَلَد والشموخ ، والثبات والرُّسُوخ ، فإنّه ينأى بكلاكله ، ويقصر حبائله ، ويقبض رذائله ، ويذعن للصبر أيّما إذعان . .

(١) ينبغى للعاقل أنْ يقدَّ الطمع ، ويقْطعه بحسام البأس ، فلا يخضع ولا يهن لمخلوق ، ويتزلف له يبذل دينه وعرضه ، كلا فإنَّ ذلك مضرٌ ومفسدٌ لديانته ، وحاطٌ لمنزلته وصدق القائل .

أزمعت بأسًا مبينًا من نوالكم ولن ترى طاردًا للحر كاليأس

(٢) لعمرى لقد وهن عظمى واشتعل شيب رأسى ولكنه الحرص متّقد متأجج لم تخبُ له نارٌ ، ولم يدركه شيب وفتور ، وأرش ذلك حاصد نعيمى ، ومقيم جحيمى ، إذ الحريص لا ينفك عن الوصَب والنصَب ، وهو من الدُّنيا في تعب

ولعَمرى لا أكاد أُدَافِعُ حرص نفسى ، واستكفها عن المطامع وأحبسها عن التمادى فى درك أمانيها ، إذْ إنها ما نالت رتبة بعد شقّة وعنت إلا وطمحت إلى مراتب ، ولا أصابت عُرضًا إلا وتطاولت إلى أعراض ، كما قال أبو ذؤيبٌ !

والنفس راغبة إِذَا رغبتها وإذا ترد إِلَى قليل تقنـع

وقال البوصيرى :

والنفس كالطِّفلِ إن تتركه شبَّ على حُبِّ الرضاع وإن تفطمه ينفطم

وتبا لهذه الدنيا الدّنية ، فإنها شَرَكُ الرَّدَى ، وقرارة الأقدار ، وإنّها لتأتى على الجهول والعليم حتى وإن انتفعت بعلمى وتجربتى ، وتبصرت حقيقتها ، وصورتها لما اشتفت منها علتى ، ولا نُقعَتْ منها غُلّتى .

وصدق أبو العلاء المعرى لَمَّا قال :

يا أم وفر لحاك الله من أمة فيك الشقاء وفيك البؤس والترف
لو أنك العرس أوقعت الطلاق بك لكنك الأم ما لى عنك منصرف

ذِكْرُ الزَّجْرِ عَنِ التَّحَاسُدِ وَالبَغْضَاءِ

أنبأنا محمد بن الحسين [1] بن مكَرَّم البزاز بالبصرة ، حدثنا عمرو بن على الفَلاس ، حدثنا أبو عاصم ، عن [2] ابن جريج ، حدثنى عطاءٌ ، أنه سمع أبا هريرة يقول : قال رسول الله ﷺ : « لا تَبَاغَضُوا ، ولا تَحَاسَدُوا ، ولا تَدَابَرُوا ، وكُونُوا عِبَادَ الله إِخْوَانًا » .

قال أبو حاتم - رضى الله عنه : الواجب على العاقل مجانبة الحسد على الأحوال كلها، فإن أهون خصال الحسد هو ترك الرضا بالقضاء ، وإرادة ضدَّ ما حكم الله - جل وعلا - لعباده ، ثم انطواء الضمير على إرادة زوال النعم عن المسلم [3] ؛ والحاسد لا تهدأ رُوحه ولا يسكن قلبه ، ولا يستريح بدنه ، إلا عند رؤية زوال النعمة عن أخيه ، وهيهات أن[4] يساعِد القضاء ، ما للحسَّاد [5] فى الأحشاء .

وأنشدنى محمد بن إسحاق بن حبيب الواسطىّ : [البسيط]

اعْذِرْ حَسُودَكَ فِيمَا قَدْ خُصِصْتَ بِهِ ... إِنَّ العُلا حَسَنٌ فِى مِثْلِهَا الحَسَدُ
إِنْ يَحْسُدُونِى فَإِنِّى لا أَلُومُهُمُ ... قَبْلِى مِنَ النَّاسِ أَهْلُ الفَضْلِ قَدْ حُسِدُوا
فَدَامَ لِى وَلَهُمْ مَا بِى وَمَا بِهِمُ ... وَمَاتَ أَكْثَرُنَا غَيْظًا بِمَا يَجِدُ
أَنَا الَّذِى وَجَدُونِى فِى صُدُورِهِمُ ... لا أَرْتَقِى صَدَرًا مِنْهُمْ وَلا أَرِدُ (٦)

---

(١) فى الأصل : الحسن . (٢) فى الأصل : حدثنا .
(٣) فى الأصل : المسلمين . (٤) فى الأصل : أنى . (٥) فى الأصل : للحاسد .
(٦) ينبغى على العاقل أن يترفع عن حَسُودِهِ ، فلا يهتم له ، ولا يحزن على صنيعه ، وليهنأ بما فيه من العُلا ، فإنَّ ما هو فيه حفى وحقيق أن يثير الحسد ، وكذلك العلا مبتغى ، وما كُلُّ من رامه حَازَهُ ، وإن حسدنى الحاسدون ، وتلمظوا وكلَّبوا وأعرضوا أو اقبلوا فلا علىَّ بهم إذْ هذه سنة الله فى خلقه ، فقد حُسِدَ أهلُ الفضل قَبْلُ ، ونحن على آثارهم مُقْتَدُونَ .
فلم يغير ذلك من فضلهم شيئًا ، بل دام لهم الفضل ، والعلوُّ ، وأدام لأهل الحسد الكمد والحسرة، وسيهلك المغيظُ الكمود الحقود بما يجد من نار ذلك . .
وأنا للحاسدين غُصَّةٌ ونقمة وجحيمٌ ، فليذهبوا إلى الهاوية ، غير أنى لا أَرِدُ مَوَارِدَهُم ، ولا أصْدر مصادرهم ، بل :

كِلانا غنى عن أخيه حياته ... ونحن إذًا متنا أشدُّ تفانيا

أنبأنا أبو خليفة ، حدثنا ابن كثير ، أنبأنا سُفيان الثَّوريُّ ، عن أبي إسحاق ، عن عمرو بن ميمون ، قال : رأى موسى رجلاً عند العرش ، فغبطه بمكانه ، فسأل عنه ، فقال : ألا أخبرك بعمل كان يعمله لا يحسُد الناس على ما آتاهم الله من فضله ، ولا يُعقُّ والديه ، قال : وكيف يعُق والديه ؟ قال : يَستسِب لهما حتى يُسبَّا ، ولا يمشى بالنميمة .

أنشدنى ابن بلال الأنصاريّ : [البسيط]

عَــينُ الحَسُودِ عَلَيْكَ الدَّهرَ حَارِسَةٌ ... تُبْدِى مَسَاوِيكَ وَالإِحْسَانُ يُخْفِيهَا

فَـاحْذَرْ حِرَاسَتَهَا ، وَاحذَرْ تَكَشُّفَهَا ... وَكُنْ عَلَى قَدْرِ مَا تُولِيكَ تُولِيهَا (١)

أنبأنا عبد الرحمن بن زياد الكنانى بالأبله ، حدثنا أبو يحيى الضرير ، حدثنا موسى ابن داود ، حدثنا ابن لهَيعة ، عن كعب بن علقمة ، قال : كان عمر بن الخطاب - رضى الله عنه : ما من أحد عنده من الله نعمة إلا وجدتْ له (٢) حاسدًا ، ولو كان المرء أقومَ من القِدْح ، لوجدتَ له غامزًا ، وما ضَرَّت كلمة لم يكن (٣) لها خواطب .

وأنشدنى على بن محمد البسَّامىّ : [الكامل]

حَسَدُوا الفَتَى إِذْ لَمْ يَنَالُوا سَعْيَهُ ... فَالقَوْمُ أَنْدَادٌ (٤) لَهُ وَخُصُــــومُ

كَضَــرَائِرِ الحَسْنَاءِ قُلْنَ لِوَجْهِهَا ... حَسَـــــدًا وَبَغْيًا : إِنَّهُ لَدَمِيمُ

وتَرَى اللَّبِيبَ مُحَسَّدًا لَمْ يَجْتَلِبْ ... شَتْمَ الرِّجَالِ،وعِرْضُهُ مَشْتُومُ (٥)

---

(١) فليعلم العاقل أنَّ الحسد شرٌ لازم حارس لرايات المساوئ طامس لكل فضل منكِّس لكل عَلِيَّة فليحذر العاقل من ذلك ، وليدرك ما كان له من مساوئ فليدفعها ، ويتنزه عنها ، وأولِ ذلك منك عناية . .

(٢) فى الأصل : لها . (٣) فى الأصل : تكن . (٤) فى الأصل : أندادًا .

(٥) هؤلاء الأقوام الطغام ، تدنسوا ، وتنكبوا الصواب ، فسعوا فى حسد أولى الفضل ، إذ لم يطاولوهم في سعيهم ، ولم يستطيعوا رقيهم ، فناصبوهم العداء وأعلنوا عليهم الحرب العشواء . .

وذلك كائن كذلك فى كل شىء حسن مبتغى باغيه قصير الباع أن يطاوله ، قليل المتاع أن يحصله كالفتاة الحسناء ذات الوجه البدريِّ والعبير الأريحى ، والجيد الدريِّ الذى يذرى بالحلى ، فترى الدَّمَائم يتبعنها بكل مساءة وريبة ، ولن تعدم الحسناءُ ذامًا - فتبجحن وكذبن نور الشمس فى ضحاها ، وقلن على وضاءَةِ وجهها إِنَّهُ لذميم أثيم ، حتى كأنَّ بياضه البَرصَ عندهن - وما ذلك إلا لِلْحَسَدِ . =

أخبرنا محمد بن سعيد القزاز ، حدثنا أحمد بن إبراهيم [1] بن حرب ، حدثنا غسَّان ابن المفضل [2] ، أخبرني محمد بن يزيد عن يونس بن عُبيد ، قال : قال ابن سيرين : ما حسدت أحداً على شيء من الدنيا ؛ لأنه إن كان من أهل الجنة ، فكيف أحسُده على شيء من الدنيا وهو يصير إلى الجنة ؟ وإن كان من أهل النار ، فكيف أحسده على شيء من الدنيا وهو يصير إلى النار ؟

قال أبو حاتم - رضي الله عنه : الحسد من أخلاق اللئام ، وتركه من أفعال الكرام ، ولكل حريق مُطفيء ، ونار الحسد لا تُطفأ [3] .

ومن الحسد يتولد الحِقْد ، والحقد أصل الشر ، ومَنْ أضمر الشر في قلبه ، أنبت له نباتًا مُرا مذاقُه ، نماؤه الغيظ ، وثمرته الندم .

والحسد : هو اسم يقع على إرادة زوال النعم عن غيره ، وحلولها فيه . فأما من رأى الخير في أخيه ، وتمنى التوفيق لمثله ، أو [4] الظفر بحاله ، وهو غير مريد لزوال ما فيه أخوه ، فليس هذا بالحسد الذي ذُمَّ ونُهي عنه .

ولا يكاد يوجد الحسد إلا لمَنْ عَظُمت نعمة الله عليه ، فكلما أتحفه الله بتزداد النعم ، ازداد الحاسدون له بالمكروه والنِّقَم .

وقد كان داود بن عليّ [5] - رحمة الله عليه - ينشد كثيراً : [البسيط]

إنِّي نَشَــــأْتُ وَحُسَّادِي ذَوُو عَدَدٍ ... يَا ذَا المَعَارِجِ ، لا تَنْقُصْ لَهُمْ عَـدَدَا
إنْ يَحْسُدُونِي [6] عَلَى مَا كَانَ مِنْ حَسَنٍ ... فَمِثْلُ خُلُقِي فِيهِمْ جَرَّ لِي حَسَدَا [7]

= وكذلك اللَّبيبُ الأريبُ تراه متبوعًا بالحَسَد من أقرانه إذْ تقاصروا عمَّا فيه ، فكلما تنزه ، وترفع عن شتم ، ويرأ من ذلك شُتِمَ وأُهِينَ وَمُزِّقَ عرضه .

(1) في الأصل : زهير . (2) في الأصل : الفضل .

(3) في الأصل : يطفئ . (4) في الأصل : و .

(5) في الأصل : على بن خلف . (6) في الأصل : تحسدوني .

(7) هنا بلغ بالشاعر المنتهى من حُسَّاده ، والحقدة عليه حتى إنه ليدعو لهم لا عليهم .. فيقول معرضًا :

إني ركبت المجد وبلغت رتبة ، وتسربلت بالفضل وحُسَّادي كثيرون وفيرون ، ولا يكادون يسلون حسدي ، ويبتغون تعبي ونكبتي لذا فاللَّهُمَّ زدهم عددًا ، ولا تنقصهم فقليلهم ككثيرهم ..

فإن يحسدوني على ما كان لي من محاسن ، وفضائل فكذلك أنا محسود بخلائقي معهم ، وحسن سيرتي فيهم .

حدثنا عمرو بن محمد ، حدثنا الغلابيُّ ، حدثنا مهدى بن سابق ، أخبرنا (١) عباد [ابن عباد] (٢) المهلبيّ ، قال : قال أبو جعفر المنصور لسفيان بن معاوية : ما أسرع الناس إلى قَدْمتك المدينة ! فقال : يا أمير المؤمنين : [الطويل]

إنَّ العَرَانِينَ تَلْقَاهَا مُحَسَّدَةً ... وَلَنْ تَرَى لِلِئَامِ النَّاسِ حُسَّادَا (٣)

وأنشدنى الكريزيُّ ، أنشدنى محمد بن الحسين العَمّيّ : [الرمل]

حَسَـــدُوا النِّعْمَةَ لَمَّا ظَهَرَتْ ... فَرَمَـــوْهَا بِأَبَاطِيلِ الْكَلِـــمْ

وَإِذَا مَا اللهُ أَبْدَى نِعْمَـــــةً ... لَمْ يَضِرْهَا قَوْلُ حُسَّادِ النِّعَمْ (٤)

سمعت أحمد بن محمد بن الأزهر يقول : سمعت أحمد بن سعيد الدارميّ يقول : سمعت أبا إسحاق الطالَقانيّ يقول : كنا نتعلم فى الكُتَّاب ، كما نتعلم أبو جاد (٥) : جهلٌ نَيْسَابورِيٌّ ، وبُخل مَرْوزِيٌّ ، وحَسَد هَرَوِيٌّ ، وطُرْم (٦) بلْخِيٌّ (٧) .

أنبأنا محمد بن عثمان العقبى ،حدثنا عمران بن موسى بن أيوب ، حدثنى أبى ، عن مخلد بن الحسين ، عن هشام ، عن ابن سيرين ، قال : ما حسدت أحدًا على دين ولا دنيا .

قال أبو حاتم – رضى الله عنه – : لا يوجد من الحسود أمان أحْرَزُ من البعد منه ؛ لأنه ما دام مشرفًا على ما خُصصت به دونه ، لم يزده ذلك إلا وحشة وسوء ظن بالله ، ونماء الحسد فيه .

---

(١) فى الأصل : أخبرنى . (٢) سقط فى الأصل .

(٣) هذا البيت الفرد غاية فى الحُسْن والجودة ، وإنه لأحد فى جماله من بين أقرانه فى معناه إذْ يقول :

الا إنَّ الحسْد مفخرة ومحمدة ، وإن أصابنى منه الضرُّ إذْ لا يحسد إلا العظام الكرام من النَّاس والأسد الضرغام من الحيوان أما الدَّنس والرذل والحُثَالَةُ ، فلا حاسد لهم بل لا ملتفت نحوهم لقلة فضلهم ودنو رتبتهم . .

(٤) هؤلاء اللئام الأضلال قد حسدونى لما فاح عبير فضلى وتكاثرت علىَّ نعمُ ربى فلم أسلم من فعالهم ولا مِّن سيء مقالهم بل قلَّدوها باطل كلامهم ، وزينوها بالبهت والزور . . .
ولا علىَّ من نباحهم ، ونارهم إذِ الله هو المنعم ، ولا رادَّ لفضله ولا دافع لقضائه ، فبه النعمة تَمَّتْ ، وبفضله من عيونهم حفظت . .

(٥) أبو جاد : ضرب من ترتيب حروف الهجاء اشتهر عند الأمم السامية .

(٦) فى الأصل : طرمده .

(٧) فى اللسان : الطرم : الكانون ، والمراد به الواشى .

فالعاقل يكون على إماتة الحسد بما قَدَر عليه ، أحرص منه على تربيته ، ولا يجد لإماتته دواء أنفع من البعاد ، فإن الحاسد ليس يحسدك على عيب فيك ، ولا على خيانة ظهرت منك ، ولكن يحسدك لما تركب فيه من ضد الرضا بالقضاء ، كما قال العُتبىُّ : [الطويل]

أفكّـــرُ مَا ذَنْبِى إلَيْكَ ، فَلا أرَى لِنَفْسِىَ جُرْمًا ، غَيْرَ أنَّكَ حَاسِدُ (١)

وأنشدني عبد العزيز بن سليمان الأبرش : [الرمل]

لَيْسَ لِلْحَاسِـــدِ إلا مَا حَسَـــدْ وَلَهُ البَغْضَاءُ مِنْ كُلِّ أحَـــــدْ
وأرَى الوَحْـــــدَةَ خَيْرًا (٢) لِلفَتَى مِنْ جَلِيسِ السُّوءِ ، فَانْهَضْ إنْ قَعَدْ (٣)

وأنشدني محمد بن نصر المدينيُّ ، لحبيب بن أوْس : [الكامل]

وَإذَا أرَادَ اللهُ نَشْـــــرَ فَضِيلَةٍ طُوِيَتْ ، أتَاحَ لَهَا لِسَانَ حَسُودِ
لَوْلا اشْتِعَالُ النَّارِ فِيمَا جَـاوَرَتْ مَا كَانَ يُعْرَفُ طِيبُ عَرْفِ العُودِ
لَوْلا التَّخَوُّفُ لِلْعَوَاقِبِ لَمْ تَزَلْ (٤) لِلْحَاسِدِ النُّعْمَى عَلَى المَحْسُودِ (٥)

أنبأنا محمد بن المنذر ، حدثنا يحيى بن أبى طالب ، حدثنا رَوح بن عبادة ، حدثنا حماد عن حُميد ، قال : قلت للحسن : يا أبا سعيد ، هل يَحسد المؤمن ؟ قال : ما أنساك ! بنى (٦) يعقوب ، لا أبالك ! حيث حسدوا يوسف ؛ ولكنَّ غَمَّ الحسد فى صدرك ، فإنه لا يضرك ، ما لم يعدُ لسانك ، وتعمل به يدُك (٧) .

---

(١) لعمرى لا أدرى ما ذنبى وجريمتى التى أستحقُّ بها منك التعنت والشقَّة ، والبغض لى ، ولما طَالَ تفكُّرى ، وَدَقَّ تأمّلى لم أرَ لِى جرمًا ولا مساءة ، وإنما ذلك للحسد منك .

(٢) ينبغى على العاقل أن يتحرز عن الحسد إذْ لا خير فيه ، ولا منفعة ومهما جهد فلا حصيد له إلا الحقد ، والضغينة والكمد ، وإنه ليزيد من الناس بغضًا ، ونُفْرَة ، وبُعْدًا ، وكل أحد له مبغض ماقت .

(٣) فى الأصل : خير . (٤) فى الأصل : يزل .

(٥) هذه الأبيات للبحترى . . . . وهى من الروائع الذوائع فيقول :

إنما الحسود ناشرٌ للنعمة مذيعٌ لها فكأن الله يقيضه لنشر الفضيلة والتنبيه على نعمة المحسود وفضله . . .

ونار الحسد هى نار للإضاءة والصُّعود لا للتَّفحُم والخمود فكالعود ناره تشتعل لتَبَخُّر ، وتفيح طيب الروائح ، وتنشر عبيرها ولولا سوء العاقبة ، وخوف المغبة ، لشاع بين الأنام أن النعمى والفضل ونشر المحاسن ، والمدائح إنما يرجع إلى الحاسد الذى ينبِّهُ النَّاسَ على مواطنها فى المحسود .

(٦) فى الأصل : أولاد (٧) فى الأصل : ويعمل به يداك

قال أبو حاتم - رضى الله عنه : العاقل إذا خطر بباله ضربٌ من الحسد لأخيه ، أبلغ المجهود فى كتمانه ، وترك إبداء ما خطر بباله .

وأكثر ما يوجد الحسد بين الأقران ، أو (١) من تقارُب فى الشكل ؛ لأن الكَتَبة لا يحسُدُها إلا الكتبة ، كما أن الحَجَبة لا يحسدها إلا الحجبة ، ولن يبلغ المرء مرتبة من مرات هذه الدنيا ، إلا وجد فيها مَنْ يبغضه عليها ، أو (٢) يحسده فيها . والحاسد خصم معاند ، لا يجب للعاقل أن يجعله حكمًا (٣) عند نائبة تحدث ، فإنه إن حكم لم يحكم إلا عليه ، وإن قصد لم يقصد إلا له ، وإن حَرَم لم يحرِم إلا حَظَّه ، وإن أعطَى أعطَى غيره ، وإن قعد لم يقعد إلا عنه ، وإن نهض لم ينهض إلا إليه ، وليس للمحسود (٤) عنده ذنب إلا النعمَ التى عنده .

فليحذر المرء ما وصفت من أشكاله ، وأقرانه ، وجيرانه ، وبنى أعمامه .

ولقد أنبأنا عمرو بن محمد ، حدثنا الغلابىُّ ، حدثنا العباس بن بكار قال : قال رجل لشبيب بن شيبة : إنى لأحبك (٥) ، قال : صدقت ، قال : وما علمك ؟ قال : لأنك لست بجار ، ولا ابن عم .

[قال أبو حاتم - رحمه الله - : الواجب على العاقل الحازم أن يوطنَ نفسَه على تحمل مقاساة ألم الحسدِ من الحاسد فيه ، وأكثر ما يوجد الحسد مِنَ الجيران والإخوان ؛ إذا تعرَّوا عن الديانة ولزوم أسبابِ الصيانة ، ثم من الأقارب ؛ إذ الأقاربُ فى الحقيقة عقاربُ ، إلا من عصمه الله ، وجَازَ به عن أمثالها ، ثم فى أهل الصناعة الذين لم يسلكوا مسلك ذوى الحجى ، ولا راموا محل أولى النحل فى مجانبة الدِّين فى الأقوال ، ولزوم ضده بالآمال] (٦) .

وأنشدنى محمد بن عبد الله بن زَنْجِىٍّ البغدادىٍّ : [البسيط]

أَنْتَ امْرُؤٌ قَصُرَتْ عَنْهُ مُـــرُوءَتُهُ ... إلا مِنَ الغِشِّ لِلإخْوَانِ وَالْحَسَـــدِ
لأَنْ تَرَانِىَ خَيْرًا مِنْكَ تَحْسُدُنِى ! ... إنَّ الفَضِيلَةَ لا تَخْلُو مِنَ الحَسَدِ (٧)

---

(١) فى الأصل : و   (٢) فى الأصل و .   (٣) فى ا لأصل : خصمًا .
(٤) فى الأصل : للحسود .   (٥) فى الأصل أحبك .   (٦) سقط فى ط .
(٧) أنت امرؤ نذلٌ وضيعٌ ، ولا تشرئب إلا إلي الغش للأخدان والحسد للإخوان ، وعن سوى ذلك ، فأنت قصير الباع غير ذى متاع - أو كلمَا مُنِحتَ فضلاً ، ورُزِقْتَ مِنَّةً ، ورَكِبَتْ فضيلة طوقتنى منك بالحسد ، وجهدت فى الضغينة والكيد لى .
وهناك أشعارٌ كثيرة فى نبذ الحسد وسلوك سبيله . . . ومنها !
[ذكر مجانبة الغضب وكراهية العجلة] .

قال أبو حاتم - رضى الله عنه : بئس الشعار للمرء الحسدُ ؛ لأنه يورث الكَمَد ، ويورث الحُزْن ، وهو داء لا شفاء له .

والحاسد إذا رأى بأخيه نعمة بُهِت ، وإن رأى به عثرة شَمِت ، ودليل ما فى قلبه مكمن على وجهه مبين ، وما رأيت حاسدًا سَالَمَ أحدًا .

والحسد داعية إلى النكد ، ألا ترى إبليس ؟ حسد آدم فكان حسده نكدًا على نفسه ، فصار لعينًا بعد ما كان مكينًا . ويَسْهل على المرء [1] ترضِّى كل ساخط فى الدنيا حتى يرضَى ، إلا الحسود ، فإنه لا يرضيه إلا زوال النعمة التى حَسَدَ من أجلها .

ولقد حدثنى محمد بن عثمان العقبى ، حدثنا محمد بن زكريا الغلابىُّ ، حدثنا ابن عائشة ، قال : قال بعض الحكماء : ألزمُ الناس للكآبة [2] أربعةٌ : رجل حَديد ، ورجل حسود ، وخَليط للأدباء وهو غير أديب ، وحكيم محتقَرٌ لدى الأقوام . وأبعد الناس من الدخول فى دِين الحقِّ والنصيحة لأهله : جاهل ورث الضلالة عن أهله ، ورأسُ أَهل ملِّته ، حَظِى فيهم بفضل الضلالة ، ومُعَظِّم للدنيا ، يرى بهجتها دائمة محبوبة ، ويرى ما رُجِىَ من خيرها قريبًا ، و ما صُرِف من شرها بعيدًا ، ليس يعقد قلبَه على الإيمان ؛ ورجل خالط النُسَّاك [3] ، فانصرف عنهم لحرصه وَشرَهه ، ودامَجهم على [4] مكر وخديعة ، وبالله التوفيق .

* * *

(1) فى الأصل المرء أن .
(2) فى الأصل : له الكآبة .
(3) فى الأصل : ورجل يخالط النساك وانصرف .
(4) فى الأصل : عن .

ذِكْرُ الْحَثِّ عَلَى مُجَانَبَةِ الغَضَبِ، وَكَرَاهِيَةِ العَجَلَةِ

أنبأنا عمر بن حفص البزَّار [1] بجُنْدَيْسابُور، حدثنا محمد بن زياد الزيادىُّ، حدثنا الفُضَيل بن عِياض، عن سليمان، عن أبى صالح، عن أبى هريرة: أن جابرًا [2] قال: جاء رجل إلى النبىِّ ﷺ، فقال: علمنى شيئًا يا رسول الله أدخل به الجنة، ولا تُكْثِرْ علىَّ، لعلى أعقِلُ، قَالَ: «لا تَغْضَبْ» [3].

---

(1) فى الأصل: البزاز. (2) فى الأصل: أو جابر.

(3) أخرجه البخارى: (١٠/٥٣٥) فى الأدب، باب: الحذر من الغضب (٦١١٦)، والترمذي: (٣٢٦/٤) في «البر والصلة»، باب: ما جاء فى كثرة الغضب (٢٠٢٠)، وأحمد: ٤٦٦/٢، والبيهقى: ١٠٥/١٠، والبغوى فى «شرح السنة» بتحقيقنا: (٥٣١/٦) فى «البر والصلة»، باب: ما يحذر من الغضب (٣٤٧٤)، من طريق أبى بكر بن عياش، عن أبى حصين، عن أبى صالح به.

وأخرجه أحمد: (٣٦٢/٢) من طريق العلاء بن زبر قال: سمعت القاسم مولى يزيد يقول: حدثنى أبو هريرة..

وأخرجه مالك: (٩٠٥/٢ - ٩٠٦) فى «حسن الخلق»، باب: ما جاء في الغضب (١١) عن الزهرى، عن حميد بن عبد الرحمن بن عوف أن رجلاً.. مرسلاً.

وأخرجه أبو نعيم فى «الحلية»، من طريق مالك: (٣٣٤/٦)، عن أبي هريرة موصولاً وقال: غريب من حديث مالك عن الزهرى، متصلاً، لم نكتبه إلا من حديث مسلمة عن المغيرة.

ويشهد له حديث جارية بن قدامة، أخرجه: (٤٨٤/٣، ٣٤/٥، ٣٧٠)، والبخارى فى «التاريخ الكبير»: (٢٣٧/٢)، وابن أبى شيبة: (٥٣٢/٨، ٥٣٣)، برقم (٥٤٣٢، ٥٤٣٣)، والطبرانى في «الكبير»: (٢٦٢/٢ - ٢٦٤) (٢٠٩٣ - ٢١٠٧)، وابن سعد فى «الطبقات»: (٣٨/١/٧ - ٣٩)، والخطيب فى «التاريخ»: (١٠٨/٣)، وأبو يعلى (٦٨٣٨)، وابن حبان (١٩٧٢)، وابن عبد البر فى «الاستيعاب»: (١٢٢/٢ - ١٢٣)، وابن الأثير فى «أسد الغابة»: (٣١٤/١)، والحاكم: (٦١٥/٣)، وصححه وسكت عنه الذهبى، وذكره ابن حجر فى الإصابة: (٥٣/٢).

كما يشهد له حديث عبد الله بن عمرو بن العاص أخرجه أحمد: (١٧٥/٢)، وابن حبان (١٩٧١ - موارد)، وذكره الهيثمى فى «المجمع»: (٧٢/٨)، وقال: رواه أحمد، وفيه ابن لهيعة، وهو لين الحديث، وبقية رجاله ثقات.

ويشهد له أيضًا حديث ابن عمر رواه أبو يعلى فى مسنده (٥٦٨٥)، وأورده الحافظ فى «المطالب»: (٤٠٤١٢)، برقم (٢٥٨٦)، وعزاه لأبى يعلى، وقال البوصيرى: رواته ثقات، وذكره الهيثمى فى «المجمع»: (٧٢/٨): رواه أبو يعلى، وفيه ابن أبى الزناد، وقد ضعفه غير واحد، وبقية رجاله رجال الصحيح. =

= وأخرجه أبو يعلى فى « مسنده » (١٥٩٣) عن الأعمش، عن أبى صالح عن بعض أصحاب النبى ﷺ أنه قال : يا رسول الله علمنى عملاً يدخلنى الجنة ولا تكثر علىَّ ، قال : لا تغضب .

وذكر الهيثمى فى « المجمع » : (٨/٤٧٣) ، وقال : رواه أبو يعلى من رواية صالح عن الأعمش ولم أعرف صالحًا هذا » .

وقال الحافظ فى « الفتح » : (١٠/٥٣٦ - ٥٣٧) .

قوله : « قال : لا تغضب » ، في رواية أبى كريب « كل ذلك يقول لا تغضب » ، وفى رواية عثمان بن أبى شيبة ، قال : « لا تغضب ثلاث مرات » ، وفيها بيان عدد المرار ، وقد تقدم حديث أنس أنه - صلى الله عليه وسلم - كان يعيد الكلمة ثلاثًا لتفهم عنه ، وأنه كان لا يراجع بعد ثلاث، وزاد أحمد وابن حبان فى روايةٍ عن رجل لم يسمٍّ قال « تفكرت فيما قال فإذا الغضب يجمع الشر كله»، قال الخطابى معنى قوله : « لا تغضب » اجتنب أسباب الغضب ولا تتعرض لما يجلبه وأما نفس الغضب فلا يتأتى النهى عنه لأنه أمر طبيعى لا يزول من الجبلة .

وقال غيره : ما كان من قبيل الطبع الحيوانى لا يمكن دفعه ، فلا يدخل فى النهى لأنه من تكليف المحال ، وما كان من قبيل ما يكتسب بالرياضة فهو المراد . وقيل : معناه لا تغضب لأن أعظم ما ينشأ عنه الغضب الكبر لكونه يقع عند مخالفة أمر يريده فيحمله الكبر على الغضب ، فالذى يتواضع حتى يذهب عنه عزة النفس يسلم من شر الغضب .

وقيل : معناه لا تفعل ما يأمرك به الغضب ، وقال ابن بطال : فى الحديث الأول أن مجاهدة النفس أشد من مجاهدة العدو ؛ لأنه ﷺ جعل الذى يملك نفسه عند الغضب أعظم الناس قوة، وقال غيره : لعل السائل كان غضوبًا ، وكان النبى ﷺ يأمر كل أحد بما هو أولى به ، فلهذا اقتصر فى وصيته له على ترك الغضب ، وقال ابن التين : جمع ﷺ فى قوله : « لا تغضب » خير الدنيا والآخرة لأن الغضب يؤول إلى التقاطع ومنع الرفق ، وربما آل إلى أن يؤذى المغضوب عليه فينتقص ذلك من الدين .

وقال البيضاوى : لعله لما رأى أن جميع المفاسد التى تعرض للإنسان إنما هى من شهوته ومن غضبه، وكانت شهوة السائل مكسورة فلما سأل عما يحترز به عن القبائح نهاه عن الغضب الذى هو أعظم ضررًا من غيره ، وأنه إذا ملك نفسه عند حصوله كان قد قهر أقوى أعدائه . انتهى

ويحتمل أن يكون من باب التنبيه بالأعلى على الأدنى ؛ لأن أعدى عدو للشخص شيطانه ونفسه ، والغضب إنما ينشأ عنهما ؛ فمن جاهدهما حتى يغلبهما مع ما فى ذلك من شدة المعالجة كان لقهر نفسه عن الشهوة أيضًا أقوى ، وقال ابن حبان بعد أن أخرجه : أراد لا تعمل بعد الغضب شيئًا مما نهيت عنه ؛ لا أنه نهاه عن شىء جبل عليه ولا حيلة فى دفعه ، وقال بعض العلماء: خلق الله الغضب من النار وجعله غريزة فى الإنسان ، فمهما قصد أو نوزع فى غرض ما اشتعلت نار الغضب وثارت حتى يحمر الوجه والعينان من الدَّم ، لأن البشرة تحكى لون ما وراءها ، وهذا إذا غضب على من دونه واستشعر القدرة عليه ، وإن كان ممن فوقه تولد منه انقباض الدم من ظاهر الجلد إلى جوف القلب فيصفر اللون حزنًا ، وإن كان على النظير تردد الدم بين انقباض وانبساط فيحمر ويصفر ويترتب =

قال أبو حاتم [رضى الله عنه] (١) : أحسن الناس عقلاً مَن لم يَحْرَد ، وأحضر الناس جوابًا من لم يغضب .

وسرعة الغضب أنكَى فى العاقل من النار فى يَبَسِ العَوْسَج ؛ لأن من غضب (٢) زايله عقله ، فقال ما سَوَّلت له نفسه ، وعمل ما شَانَهُ وأرداهُ .

ولقد أنبأنا محمد بن عثمان العقبى ، حدثنا إسحاق بن زكرياءَ البُنَانىُّ ، حدثنا عبد الصمد بن حسان ، حدثنى وُهيب ، قال : مكتوب في الإنجيل : ابنَ آدم ، اذكرنى حين تغضب ، أذكرك حين أغضَب ، فلا أمْحَقُك فيمن أمْحَق ، وإذا ظلِمْت فلا تنتصر، فإن نُصْرتى لك خير من نصرتك لنفسك .

وأنشدنى الكُرَيزىّ : [الطويل]

وَلَمْ أرَ فَضْــــــلاً تَمَّ إلا بِشِيمَةٍ   وَلَمْ أرَ عَقْلاً صَحَّ إلا عَلَى الأدَبْ

= على الغضب تغير الظاهر والباطن كتغير اللون والرعدة فى الأطراف وخروج الأفعال عن غير ترتيب واستحالة الخلقة حتى لو رأى الغضبان نفسه فى حال غضبه لكان غضبه حياء من قبح صورته واستحالة خلقته ، هذا كله فى الظاهر ، وأما الباطن فقبحه أشد من الظاهر ، لأنه يولد الحقد فى القلب والحسد، وإضمار السوء على اختلاف أنواعه ، بل أولى شيء يقبح منه باطنه ، وتغير ظاهره ثمرة تغير باطنه ، وهذا كله أثره فى الحسد ، وأما أثره فى اللسان فانطلاقه بالشتم والفحش الذى يستحى منه العاقل ويندم قائله عند سكون الغضب ويظهر أثر الغضب أيضًا فى الفعل بالضرب أو القتل ، وإن فات ذلك بهرب المغضوب عليه رجع إلى نفسه فيمزق ثوب نفسه ويلطم خده ، وربما سقط صريعًا، وربما أغمى عليه وربما كسر الآنية وضرب من ليس له فى ذلك جريمة ، ومن تأمل هذه المفاسد عرف مقدار ما اشتملت عليه هذه الكلمة اللطيفة من قوله ﷺ : « لا تغضب » ، من الحكمة واستجلاب المصلحة فى درء المفسدة مما يتعذر إحصاؤه ، والوقوف على نهايته ، وهذا كله فى الغضب الدنيوى لا الغضب الدينى كما تقدم تقريره في الباب الذى قبله ، ويعين على ترك الغضب استحضار ما جاء فى كظم الغيظ من الفضل ، وما جاء فى عاقبة ثمره الغضب من الوعيد ، وأن يستعيذ من الشيطان كما تقدم فى حديث سليمان بن صرد ، وأن يتوضأ كما تقدمت الإشارة إليه فى حديث عطية، والله أعلم.

وقال الطوفى : أقوى الأشياء فى دفع الغضب ، استحضار التوحيد الحقيقي ، وهو أن لا فاعل إلا الله ، وكل فاعل غيره فهو آلة له ، فمن توجه إليه بمكروه من جهة غيره فاستحضر أن الله لو شاء لم يمكن ذلك الغير منه اندفع غضبه ؛ لأنه لو غضب والحالة هذه كان غضبه على ربه - جل وعلا - وهو خلاف العبودية ، قلت : وبهذا يظهر السر فى أمره ﷺ الذي غضب بأن يستعيذ من الشيطان لأنه إذا توجه إلى الله في تلك الحالة بالاستعاذة به من الشيطان أمكنه استحضار ما ذكر ، وإذا استمر الشيطان متلبسًا متمكنًا من الوسوسة لم يمكنه من استحضار شيء من ذلك ، والله أعلم .

(١) سقط فى الأصل .   (٢) فى الأصل : من غضبه .

وَلَـــمْ أَرَ فِي الأَعْدَاءِ حِينَ اخْتَبَرْتُهُمْ عَدُوًا لِعَقْلِ المَرْءِ أَعْدَى مِنَ الغَضَبْ (١)

قال أبو حاتم - رحمة الله عليه : سرعة الغضب من شِيَم الحمقَى ، كما أن مجانبته من زِىِّ العقلاء .

والغضب بَذْر الندم ، فالمرء على تركه قبل أن يغضب ، أَقْدَرُ منه على إِصلاح ما أفسده بعد الغَضب .

ولقد أنبأنا محمد بن إسحاق الثقفىُّ ، حدثنا حاتم بن الليث الجوهرىُّ ، حدثنا بكار ابن محمد قال : كان ابن عَوْن لا يغْضَب ، فإِذا أغضبه إنسان قال : بارك الله فيك .

وأنشدنى محمد بن إسحاقَ بنِ حبيب الواسطىُّ : [البسيط]

لَمْ يَأْكُلِ النَّاسُ شَيْئًا مِنْ مَآكِلِهِـمْ أَحْلَى وَأَحْمَدَ عُقْبَاهُ مِنَ الغَضَـــبِ

وَلا تَلَحَّفَ إِنْسَـــانٌ بِمِلْحَفَـــةٍ أَبْهَى وَأَزْيَنَ مِنْ دِينٍ وَمِنْ أَدَبِ (٢)

أنبأنا كامل بن مُكرم ، حدثنا الربيع بن سليمان ، حدثنا أسد بن موسى ، حدثنا ضمْرة ، عن أبى سعيد ، قال : كان عون بن عبد الله بن عتبة إذا غضب على غلامه قال: ما أَشْبَهَكَ بمولاك ! أنت تعصِينى وأنا أعصِى الله ؛ فإِذا اشتد غضبه قال : أنت حُر لوجه الله .

قال أبو حاتم - رضى الله عنه : الواجب على العاقل إذا ورد عليه شىء بضدِّ ما تهواه نفسه ، أن يذكر كثرة عصيانه ربَّه ، وتواتُرَ حلمِ الله عنه ، ثم يسكن غضبه ، ولا يُزْرِى بعقله بالخروج إلى ما لا يليق بالعقلاء فى أحوالهم ، مع تأمل وفور الثواب فى العقبى ، بالاحتمال ونفى الغضب .

---

(١) لقد خبرت الأمور ، وقلبت أطرافها ، اطفيت زبدة تجاربها فعلمت أنه لا فضل ، وحسن على الحقيقة إلا لمن كان ذا شيمة وخلاق ، ولا عقل يحق للمرء أن يُوسَّمَ به إلا لمن كان متأدبًا ذا حياءً وعفاف ..

وكذلك تفكرتُ فى الأعداء المترصدين للمرء ، فلم أرَ عدوًا أبلغ نكاية ، وأشدَّ فتكًا بالمرء من الغضب ، إذْ إنه يورد صاحبه الموارد ويعجل إليه الحتوف .

(٢) هذا البيت ينظم المعنى الذى قاله معاوية بن أبى سفيان : « انه ما شىء أحبُّ إلىَّ من جرعة غيظ أتجرعها » ... وذلك أنه يسع بحلمه وبسطته .. فذلك الجرع للصبر هو خير مأكلٍ وأحسن عقبى لمن ازدان به .

وكذلك ما تسربل المرء أو تقمص سرْبالاً أحلى ، وأبهى وأزين من سربال الدِّين والأدب ، فنعم المرء من بهما يلتحف ، وحبذا الثوبان ...

وأنشدني الأنصاريُّ : [البسيط]

وَكَظْـمِيَ الغَيْظَ أَوْلَى مِنْ مُحَاوَلَتِي غَيْـــظَ العَدُوِّ بِإِضْـــرَارِي بِإِيمَانِي

لا خَيْـــرَ فِي الأَمْرِ تُرْدِينِي مَغَبَّتُهُ يَوْمَ الحِسَابِ إِذَا مَا نُصَّ مِيزَانِي (١)

أنبأنا محمد بن المنذر ، حدثنا عمر بن عَلَى بن زياد العنبريُّ ، قال : سمعت سالم ابن ميمون الخوَّاصَّ يقول : [الوافر]

سكَتُّ عَنِ السَّفِيهِ فظَنَّ أَنِّي عَيِيتُ عَنِ الجَوَابِ ، وَمَا عَيِيتُ

شِـــرَارُ النَّاسِ لَوْ كَانُوا جَمِيعًا قَذًى فِي جَوْفِ عَيْنِي مَا قَذِيتُ

فَلَسْتُ مُجَاوِبًا أَبَدًا سَفِيهًـــا خَزِيتُ لِمَنْ يُجَاوِبُهُ خَزِيتُ (٢)

إِذَا نَطَـــقَ السَّفِيهُ فَلَا تُجِبْهُ فَخَيْرٌ مِنْ إِجَابَتِهِ السُّكُـــوتُ

وأنشدني عبد العزيز بن سليمانُ الأبرش : [الرجز]

تَأَنَّ فِي أَمْرِكَ ، وَافْهَمْ عَنِّي فَلَيْـــسَ شَيْءٌ يَعْدِلُ التَّأَنِّي

---

(١) لئن أكظم غيظ صدرى ، فلا أنفثه وأبوح به ، خيرٌ لي هذا من المقامرة بديني للنيل من عدوى، وإغاظته والتَّشفى لنفسى ، فدفع المضرة عن ديني أولى وأبدى واهدى سبيلاً من جلب منفعة المتشفى من العدو ، وعلى هذه القاعدة نَصَّت الفُقَهاءُ العقلاء ، والعاقل من يحتذى حذوهم . .

ولا خير فى مخالفة ذلك إذْ مغبته سوء ، وهى مَرْدِيَةٌ لا هاوية ، وكيف أعتجل هوىً يَعْقِبُ طول حسرة ، وتلظِي يوم القيامة حيث الموازين وزنة ذرات الشَّر والأخذ بها ، وزنة ذرات الخير والإجزاء عليها . .

(٢) ينبغي على العَاقِلِ ألا يُجَاوِبَ السفيه ، ويماريه ، وإلا تسفَّهَ مثله وخاض خوضه ، وتنزل من الشَّمَمِ والصُّعُدِ إلى الدَّنَاءَةِ ، والصَّبِّ ، بَل خيرٌ من ذلك السُّكَاتُ وَالصُّمَاتُ عنه . .

ودعه يضربُ بذهنه فى كُلِّ وادٍ يظن كل الظن أنى عَيِيٌّ عن جوابه عاجز عن دفع صوابه ، وكذب، وما صدق ، ولكنه الترفع عن دناءَته والمساءَة بسوءَته . . .

وأنا صموت عن الفحشاء جبانٌ عن الخنى ، لا أبدى له اهتمامًا ، ولا ألقى له بالاً ، حتى لو أنَّ أشرار الناس اجتمعوا ، وكانوا قذى ، بل أجذاعًا فى عينى لما أبهت لهم ، أو بصرتهم ، أو دمعت لهم . . ، بل كأن لم يكونوا .

بل أن صائن عرضى ، ومرفع لنفسى عن إجابته ، ومحاورته وذلك كما كان الشَّافعى - رحمه الله يَقُولُ ، وقد أفاد ، وأجاد وبلغ الغَايَةَ فى المُرَاد .

إذا نطق السَّفِيهُ فلا تُجِبْـه فخيرٌ من إجَابَتِه السُّكُوتُ

فإن كَلَّمته فرَّجـــت عَنْهُ وإن خليته كمدًا يمـــوتُ

تَأَنَّ فِيهِ ، ثُمَّ قُلْ ؛ فَإِنِّى أَرْجُو لَكَ الإِرْشَادَ بِالتَّأَنِّى (١)

أخبرنى محمد بن أبى عَلَىٍّ الخلادىُّ ، حدثنا عبد الله بن جعفر الزُّبَيْرِىُّ ، عن سعيد(٢) بن إبراهيم بن محمد بن طلحة ، قال : أنشدنى يونس بن إبراهيم بن محمد ابن طلحة ، لمحمد بن عيسى بن طلحة بن عُبيد الله : [الوافر]

فَلا (٣) تَعْجَلْ عَلَى أَحَدٍ بِظُلْمٍ فَإِنَّ الظُّلْمَ مَرْتَعُهُ وَخِيمُ
وَلا تُفْحِشْ ، وَإِنْ مُلِّيتَ غَيْظًا عَلَى أَحَدٍ ؛ فَإِنَّ الفُحْشَ لُومُ
وَلا تَقْطَعْ أَخًا لَكَ عِنْدَ ذَنْبٍ فَإِنَّ الذَّنْبَ يَغْفِرُهُ الكَرِيمُ
وَلَكِنْ دَاوِ عَوْجَاهُ بِرِفْقٍ كَمَا قَدْ يُرْقَعُ الخَلَقُ القَدِيمُ (٤)
وَلا تَجْزَعْ لِرَيْبِ الدَّهْرِ وَاصْبِرْ فَإِنَّ الصَّبْرَ فِى العُقْبَى سَلِيمُ
فَمَا جَزَعٌ بِمُغْنٍ عَنْكَ شَيْئًا وَلا مَا فَاتَ تُرْجِعُهُ الهُمُومُ (٥)

---

(١) ينبغى على العاقل أن يلزم التأنى فى أموره فإن التأنى نعم مورث لحسن العاقبة ، وما يدرك التمنى إلا بالتأنى ، وما دخل شيئًا إلا زانه ، وليس شىء يدانيه أو يساويه . .

وإنما يبلغ الرَّشَاد بالتأنى ، ومن لزمه عرفه ، وذاق آثاره وحسن عقباه .

(٢) فى الأصل : سعد . (٣) فى الأصل : ولا . (٤) فى الأصل : العديم .

(٥) ينبغى على الدَّيِّن التقى ألا يعجل فى أموره ، فتحمله العجلة على الظلم وللظلم شرّ عقبى، وأسوء عاقبة ، وأخسرُ منقلب .

وكذلك ينبغى عليه ألا يبادر بالعداوة أحدًا ، أو يجنح إليه ولو تلظى غضبًا ، وبلغت وجه الحلوم، فإنَّه لا يجتنى من فحشه إلا الملامة والتهمة ، والاشتهار باللؤم ، والدنس وكفى بهذه مثلبة ، تشين المرء وتهينه .

وكذلك ينبغى للصاحب أن يتحلم عن الأدنين إليه ، ويستبق ودهم فتلك شنشنة البر الكريم ، فلا يبادر إلى قطع علائقهم ونفى مودتهم إن اجترحوا ذنبًا وركبوا إثمًا .

ولكن رافقه واستر عواره ، واصفح عن زَلَّتِه وترفق بحالته كما يترفق مع خرق الثوب ، وهكذا العاقل ، يرقع الخرق بلطف ولِيَانٍ ولا يحقُّ للعاقل أن يرتاب ، ويهتاب جازعًا يائسًا إن جفته الأيام وأحزنَ منه العظام ، بل فليصبر ، وليتصبر ، وليدفع بصبره عائدة أيامه ، فيجبر كسرها ، ويرقع خرقها ، فإنَّ ذلك خير عاقبة ، وأحسن منقلبًا .

وألا يفعل فإنه سيأس وسيوليه التسخط جزعًا وهما وما يغنى ذلك عنه شيئًا كما قال القائل :

أم هل رأيت مديد دهرك عبرة باءَت بها ثكلى ترد فقيدها

[ذكر الزجر عن الطمع إلى الناس]

قال أبو حاتم – رضى الله عنه : لو لم يكن فى الغضب خَصلة تُذَم إِلا إجماع الحكماء قاطبة على أن الغضبان لا رأىَ له ، لكان الواجب عليه الاحتيالُ لمفارقته بكل سبب .

والغضبان لا يعذره أحد فى طَلاق ولا عِتاق . ومن الفقهاء من عَذَرَ السكران فى الطلاق والعِتاق ، والخَلْق مجبولون على الغضب والحلم معًا ، فمن غَضِبَ وحَلُم فى نفس الغضب ، فإن ذلك ليس بمذموم ، ما لم يخرجه غضبه إلى المكروه من القول والفعل ، على أن مفارقته فى الأحوال كلها أحمد .

ولقد أنبأنا عُمر بن محمد ، حدثنا الغلابىُّ ، حدثنا مَهدىُّ بن سابق ، عن عطاء : قال : قال عبد الملك بن مروان : إذا لم يغْضَب الرجل لم يحلُم ، لأن الحليم لا يُعْرَف إلا عند الغضب ، وبالله التوفيق

* * *

ذِكْرُ الزَّجْرِ عَنِ الطَّمَعِ إِلَى النَّاسِ

أنبانا محمد بن أحمد بن المستنير بالمَصِّيصة [1] ، حدثنا يوسف بن سعيد بن مسلم ، حدثنا خالد بن عمرو ، عن سفيان ، عن أبي حازم ، عن سهل بن سعد ، قال : جاء رجل إلى النبيِّ ﷺ ، فقال : يا رسول الله ، علمني عملاً إذا [أنا] [2] عملته أحبَّني الله ، وأحبَّني الناس ، فقال : « ازهَدْ فِي الدُّنْيَا يُحِبُّكَ اللهُ ، وَازْهَدْ فِيمَا فِي أَيْدِي النَّاسِ يُحِبُّكَ النَّاسُ » [3] .

---

(١) المصِّيصة : ضبطها ياقوت في المعجم بتشديد الصاد المكسورة نقلاً عن الأزهري وغيره ، وقال هو الصواب : وضبطها الجوهري كسفينة ، وهي مدينة على شاطىء جيحان من ثغور الشام بين أنطاكية، وبلاد الروم ، تقارب طرطوس ، وهي أيضًا قرية من قرى دمشق قرب بيت لهيا ، ولعل هذه المقصودة .

(٢) سقط في الأصل .

(٣) أخرجه ابن ماجة : (٢/١٣٧٣ - ١٣٧٤) في« الزهد » ، باب : الزهد في الدنيا (٤١٠٢) ، والطبراني في « الكبير » : (٢/١٩٣) برقم (٥٩٧٢) ، والعقيلي في« الضعفاء » : ٢/١١ ، وابن عدي: (٢/١١) ، وأبو الشيخ في « التاريخ » ص (١٨٣) ، وأبو نعيم في « الحلية » : (٣/٢٥٢ - ٢٥٣)، (٧/١٣٦) ، وفي « تاريخ أصبهان » : (٢/٢٤٤ - ٢٤٥) ، والحاكم : (٤/٣١٣) ، وابن الجوزي في «العلل المتناهية » : (٢/٨٠٨) ، برقم (١٣٥٢) ، والبيهقي في « الشعب » : (٧/٣٤٤) برقم (١٠٥٢٢) من طرق عن خالد بن عمرو به .

وقال الحاكم : صحيح الإسناد ، وتعقبه الذهبي بقول : قلت : خالد وضَّاع .

تنبيه : لم يتفرد به ، فقد قال العقيلي : ليس له من حديث الثوري أصل ، وقد تابعه محمد بن كثير الصنعاني ، ولعله أخذه ودلَّسه ؛ لأن المشهور به خالد هذا .

أخرج هذه المتابعة البيهقي في « الشعب » (١٠٥٢٣) ، عن محمد بن أحمد بن الوليد ثنا محمد بن كثير عن سفيان به .

وقال : أخبرنا أبو سعد الماليني ، قال : قال أبو أحمد بن عدي الحافظ : لا أدري ما أقول في رواية ابن كثير عن الثوري هذا الحديث ، فإن ابن كثير ثقة ، وهذا الحديث عن الثوري منكر .

وقد روى عن زافر عن محمد بن عيينة أخي سفيان ، عن أبي حازم ، عن سهيل ، وروى من حديث زافر عن محمد بن عيينة ، عن ابن عمر قلت [القائل هو البيهقي] : حديث ابن كثير تفرد به محمد بن أحمد بن الوليد بن برد الأنطاكي عنه ، والله أعلم . كما تابعه أبو قتادة .

أخرجه البيهقي أيضًا (١٥٠٥) عن ابن إسحاق الشيرازي أنا أبو عروبة ثنا يزيد بن محمد ، ثنا أبو قتادة ، عن الثوري فذكره .

= وقال ابن أبى حاتم فى « العلل » : (١٠٧/٢) برقم (١٨١٥) سألت أبى عن حديث رواه على بن ميمون الرقى عن محمد بن كثير ، عن سفيان الثورى ، عن أبى حازم ، عن سهل بن سعد الساعدى ، قال : جاء رجل . . . فذكر الحديث . فقال أبى : هذا أيضًا حديث باطل ، يعنى بهذا الإسناد .

ويشهد له حديث ابن عمر رواه ابن عساكر : (٥٨/١٠) ، عن محمد بن أحمد بن العلس حدثنا إسماعيل بن عبد الله بن أويس ، عن مالك ، عن نافع عنه .

وأخرجه أبو نعيم فى « الحلية » : (٤١/٨) من طريق أبى أحمد إبراهيم بن محمد بن أحمد الهمدانى ثنا أبو حفص عمر بن إبراهيم المستملى ثنا أبو عبيدة بن أبي السفر ، ثنا الحسن بن الربيع ، ثنا الفضل بن يونس ، ثنا إبراهيم بن أدهم عن منصور ، عن مجاهد ، عن أنس ، أن رجلاً أتى النبى ﷺ ، فقال : . . . فذكره .

وقال أبو نعيم : ذكر أنس فى هذا الحديث وهمٌ من عمر . أو أبى أحمد ، فقد رواه الأثبات عن الحسن بن الربيع ، فلم يجاوزوا فيه مجاهدًا .

ثم ساله من طريق أحمد بن إبراهيم الدورقى ثنا الحسن بن الربيع أبو على البجلى به مرسلاً مرفوعًا: لم يذكر فيه أنسًا ، وقال : قال الحسن : قال المفضل : لم يسند لنا إبراهيم بن أدهم حديثًا غير هذا ، ورواه طالوت ، عن إبراهيم ، فلم يجاوز إبراهيم ، وهو من حديث منصور ومجاهد عزيز. مشهوره ما رواه سفيان الثورى عن أبى حازم عن سهل بن سعد . وصححه السيوطى فى « الجامع الصغير » .

والحديث صحيح عند الألبانى فى « السلسلة الصحيحة » (٩٤٤) ، وقال المناوى فى « فيض القدير »: ٤٨١/١ .

(ازهَدْ) من الزهد بكسر أوله وقد يفتح ، وهو لغة : الإعراض عن الشىء احتقارًا ، وشرعًا (الاقتصار على قدر الضرورة مما يتيقن حله ، وقيل : أن لا يطلب المفقود حتى يفقد الموجود (فى الدنيا) باستصغار جملتها ، واحتقار جميع شأنها لتحذير الله تعالى منها واحتقاره لها ، فإنك إن فعلت ذلك (يحبك الله) لكونك أعرضت عما أعرض عنه ولم ينظر إليه منذ خلقه ، وفي إفهامه أنك إذا أحببتها أبغضك ، فمحبته مع عدم محبتها ولأنه - سبحانه وتعالى - يحب من أطاعه ، ومحبته مع محبة الدنيا لا يجتمعان ؛ وذلك لأن القلب بيت الرب فلا يحب أن يشرك فى بيته غيره ، ومحبتها الممنوعة هى إيثارها بنيل الشهوات لا لفعل الخير والتقرب بها ، والمراد بمحبته غايتها من إرادة الثواب ، فهى صفة ذاتية ، أو الإثابة فهى صفة فعلية (وازهد فيما عند الناس) منها :

(يحبك الناس) لأن قلوبهم مجبولة على حبها مطبوعة عليها ومن نازع إنسانًا فى محبوبه كرهه وقلاه ، ومن لم يعارضه فيه أحبه واصطفاه ، ولهذا قال الحسن البصرى :

لا يزال الرجل كريمًا على الناس حتى يطمع فى دنياهم فيستخفون به ويكرهون حديثه ، وقيل لبعض أهل البصرة : من سيدكم ؟ قال الحسن : قال : بم سادكم ؟ قال : احتجنا لعلمه واستغنى عن =

قال أبو حاتم - رضى الله عنه - : الواجب على العاقل ترك الطمع إلى الناس كافة ، بكمال الإياس عنهم ، إذ [1] الطمع فيما لا تشك فى وجوده من الناس فقر حاضر ، فكيف بما أنت شاكٌّ فى وجوده أو عدمه ؟

ولقد أحسن الذى يقول : [البسيط]

لأجْعَلَنَّ سَبِيلَ اليَأْسِ لِى سُبُلاً ... مَا عِشْتُ مِنْكَ ، وَدَارَ الهَجْرِ أَوْطَانَا
وَالصَّبْرَ أَجْعَلُهُ عَزْماً أَنَالُ بِهِ ... فِى النَّاسِ قُرْبَى ، وَعِنْدَ اللهِ رِضْوَانَا
فَالنَّفْسُ [2] قَانِعَةٌ ، وَالأَرْضُ وَاسِعَةٌ ... وَالدَّارُ جَامِعَةٌ مَثْنَى وَوُحْدَانَا [3]

وأنشدنى عمرو بن محمد بن عبد الله النَّسَائىُّ ، قال : أنشدنى الحسين بن أحمد بن عثمان : [الكامل]

أَلْيَأْسُ أَدَّبَنِى وَرَفَّعَ هِمَّتِى ... وَاليَأْسُ خَيْرُ مُؤَدِّبٍ لِلنَّاسِ

= دنيانا (طب ك هب عن سهل بن سعد) الساعدى ، قال : قال رجل : يا رسول الله دلنى على عمل إذا عملته أحبنى الله وأحبني الناس ، فذكره ، وحسَّنه الترمذى وتبعه النووى ، وصححه الحاكم واغتر به المصنف فرمز لصحته وكأنه ما شعر بتشنيع الذهبى عليه بأن فيه خالد بن عمر وضاع ، ومحمد بن كثير المصيصى ضعفه أحمد .

وقال المنذرى عقب عزوه لابن ماجة : وقد حسن بعض مشايخنا إسناده وفيه بُعْدٌ لأنه من رواية خالد القرشى وقد تُرك واتهم ، قال : لكن على هذا الحديث لامعة من أنوار النبوة ولا يمنع كونه رواه الضعفاء من أن يكون النبى قاله : أ . هـ .

قال السخاوى : فيه خالد هذا مجمع على تركه ، بل نسبوه إلى الوضع ، قال ابن حبان ينفرد عن الثقات بالموضوعات ، وقال ابن عدى : خالد وضع هذا الحديث .

وقال العقيلى : لا أصل له أ . هـ ، ثم قضية من صنيع المصنف أيضًا أن البيهقى خرجه وأقره، والأمر بخلافه بل عقبه بقوله خالد بن عمر ضعيف .

(١) فى الأصل : إذا .   (٢) فى الأصل : النفس .

(٣) هذه الأبيات الثلاثة فى إظهار التجلد والتشمخ والتثبت أمام حوادث الدهر وغيره فيقول :

لا صبرت على ما أوتيت ، وما به ابتليت ، وسأقدُّ طَمَعِى بحسام يأسى لم يشبه ترداد ، وليغدون هذا من سجيتى الدهر ، ولا أنثنى عن ذلك ولو اتخذت دياراً لهمْ لى وطنًا .

ولأرضيَّنَّ نفسي ، وأعللها بالصبر لا بل ، ولألزمنه حتى أكلَّفه واغرم به ، وبذلك أنال به من الناس القرب ، إذ الناس أحياء من قطع نفسه الرَّجاء ، والنوال منهم ، وفى ذلك رضوان ربى إذْ لا أرغب إلا إليه ولا ألجأ إلا له .

فالنَّفسُ تقنعُ ، إن قُنِّعَتْ بردِّهَا إلى القليل ، وذبح طمعها بسكين اليأس ، ثم إنَّ لى فى الأرض متسعًا ورحبة ، وفيها التمس خطى ، وحاجتى كما أن الدَّار تجمع الناس شتى زرافات ، وأحاد ومثنى وجماعات . . وكل فى شأن .

إِنِّى رَأَيْتُ مَوَاضِعَ الطَّمَـــعِ الَّذِى ... يَضَعُ الشَّرِيفَ مَوَاضِعَ الأَخْسَاسِ [1]

وأنشدنى محمد بن عبد الله البغدادى [2] : [الطويل]

فَأَجْمَعْـــتُ يَأْسًا لا لُبَانَةَ [3] بَعْدَهُ ... وَلَلْيَأْسُ [4] أَدْنَى لِلْعَفَافِ مِنَ الطَّمَعْ [5]

وقيل : [الكامل]

وَالنَّفْسُ تَطْمَعُ هَشَّةً إِنْ أُطْمِعَــتْ ... وَتَنَالُ بِاليَأْسِ السُّلُوَّ فَتَقْنَعُ [6] ، [7]

أنبأنا محمد بن عثمان العقبىُّ ، حدثنا يزيد بن عبد الصمد ، حدثنا يحيى بن صالح ، حدثنا سعيد بن عبد العزيز ، عن سعد بن عُمارة : أنه قال لابنه : يا بُنَىَّ أَظْهِرِ اليأس ، فإنه غِنًى ، وإياك والطمعَ ، فإنه فقر حاضر .

قال أبو حاتم – رضى الله عنه – : أشرف الغِنَى ترك الطمع إلى الناس ، إذ لا غِنَى لذى طمع ، وتارك الطمع يجمع به غاية الشَّرَف ، فطُوبَى لمن كان شعارُ قلبه الورَع ، ولم يُعْمِ بصرَه الطمع .

ومن أحب أن يكون حُرا فلا يَهْوَى ما ليس له ؛ لأن الطمَع فقرٌ ، كما أن اليأس غِنىً . ومن طمعَ ذَلَّ وخضَع ، كما أنَّ من قنِع عَفَّ واستغنى .

---

(١) هذا البيت وتاليه فى الثَّناء على هَجْرِ الطَّمَع ونبذه فيقول : اليَأْسُ نعم المؤدِّبُ للمرء ، وخير ما يحتذيه النَّاس حتى لا يطمحون إلى ما لا ينالون فيهمون ، وييأسون ، وكذلك من لزم اليأس عن المطامع أورث الرَّاحَةَ والرِّفْعَةَ وعلوَّ الهمة .

أما المطامع فإنها أشراك الرَّدَى ، وبقاع الضلالة لا الهدى وإنها لتورد الشريف العفيف شر المواضع وأخسها ؛ حيث مواضع السفلة الرذلة .. الجهلة .

(٢) فى الأصل : ابن زنجى .   (٣) فى الأصل : لُبَنَانَةَ .

(٤) فى الأصل : واليأس .

(٥) لقد جمعت همى وثبت عزمى على اليأس من درك الحاجة من الناس ، فإن ذلك مظفر لى العفة والكرامة ، ودفع الندامة إذ فى المطامع الذلة والمهانة والطمع سبب لكل همٍّ وذل وصدق أبو محمد على بن حزم – رحمه الله : « إذَا حدث الطمع ، تبعه الهمُّ والأسف والغيظ ، والفكرة ، وتلفُ الدنيا والآخرة [راجع الأخلاق والسير فى مداومة النفوس ص ١٧١ ...] وكذلك راجع الصيد لابن الجوزى فصول الطمع .

(٦) في الأصل : فتشبع .

(٧) النفس فطرت على الرَّغبة ، والحرص ، والطمع ، ولا سيما إن أُطمعت ومُنِّيت ، وإلا فإنها ترضى باليأس ، وتقنع بالقليل ، وتتكفكف عن طلب الجزيل ، وخير من هذا البيت بيت أبى ذؤيب– رضى الله عنه – إذ يقول :

وَالنَّفْسُ رَاغِبَةٌ إِذَا رَغَّبْتَهَا ... وَإِذَا تُرَدُّ إلى قليل تقنع

ولقد أنشدنى الكُريزىُّ : [الكامل]

لا خَيْـــــرَ فِى عَزْمٍ بِغَيْرِ رَوِيَّةٍ وَالشَّكُّ عَجْزٌ ، إنْ أَرَدتَّ سَرَاحَـا
وَاليَأْسُ مِمَّا فَاتَ يُعْقِبُ رَاحَــــةً وَلَرُبَّ مَطْمَعَةٍ تَعُودُ ذُبَاحَا (١)، (٢)

وأنشدنى علىُّ بن محمد البسَّامىُّ : [البسيط]

وَكُنْتَ لِى أَمَلاً دَهْرًا لِطَـــــالِبِهِ فَغَيَّرَتْهُ صُرُوفُ الدَّهْرِ أَطْـــــوَارَا
صَرَفْتُ بِاليَأْسِ عَنْهُ النَّفْسَ فَانْصَرَفَتْ فَمَا أُبَالِى أَقَامَ الدَّهْرَ ، أَمْ سَارَا(٣)

أنبأنا محمد بن المهاجر المعدَّل ، حدثنا عبد الله بن أبى شيبة ، حدثنا عبد الله بن مروان حدثنا محمد بن هانئ الطائىُّ ، قال : بعث أبو الأسود الدِّيلىُّ (٤) ، إلى جارٍ له يقترض منه ، فلم يُقرضْه ، واعتَلَّ عليه ، وكان حسن الظن به ، فقال أبو الأسود : [الطويل]

لا تُشْعِرَنَّ النَّفْسَ يَأْسًا ؛ فَإِنَّمَا يَعِيشُ بِجِدٍّ عَاجِزٌ وَجَلِيـــــدُ
وَلا تَطْمَعَنْ فِى مَالِ جَارٍ لِقُرْبِهِ فَكُـــلُّ قَرِيبٍ لا يُنَالُ بَعِيـدُ
وَفَوِّضْ إِلَى اللهِ الأُمُورَ ؛ فَإِنَّمَا تَـرُوحُ بِأَرْزَاقِ العِبَادِ جُدُودُ (٥)

---

(١) المطعمة مفعلة من الطعام ، يريد مكانًا فيه طعام ، أو دعوة كذلك ، والذباح : نبات من السم كذا فى لسان العرب ، وأنشد الشطر الثانى : (ولرب مطعمة تكون ذباحًا) ، قال : ويقال : أصابه موت زؤام ، وزؤاف ، وذباح .

(٢) لا ينفع إمضاءُ العزم إذا لم يُتوَّج بروية ، وفكر ثاقب ، وخير ريح يعبقُ بها العزم ، هى ريح الثَّبات ، والتوكل ، إذ الشك عجزٌ ، وخور ، وتلك حقيقة ساطعة .. وصدق الله إذ يقول : ﴿ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ ﴾ [آل عمران]

وكذلك تتأتى الرَّاحة من الغائب باليأس من دَرَكِهِ وطلبه ، فإن الطمع غيظٌ ، وذبح ، وحسرةٌ .. وذو اللبِّ يسعى وذو الطيش لا يرعوى .

(٣) لقد كان لى أملٌ ومنية أسعى فى طلابه ، والظفر به ، وقد احتلت له بالنفس ، والفلس والوسع ، ولكن عُدْتُ عليه الصروف وشذبته وأعزبته عنى .

ولم تستقرَّ لى قراره ، ولم تسترح فِىَّ جارحة إلا باليأس وركوب سفينه فلما لزمته واستوطنته استرحت ودفعت ملاماتى فلا أبالى عدت الصُّروف أم تنهنهت ، وساد الدهر أم قعد . . .

(٤) أصله : الدؤلى : سهل الهمزة وكسر ما قبلها فقلبت ياء .

(٥) هذه الأبيات فى التقنع والزهد فى الناس واللجأ إلى الله سبحانه فَيَقُولُ : ينبغى ألا ييأس المرءُ، وييأس ، إذ الحظ والثراء يدركه طوائفُ الناس من كان منهم مجدًا وجلدا ومن كان بليدًا عاجزًا.

أنبأنا القطان بالرَّقَّة ، حدثنا المَرْوَزِىُّ (١) ، قال : سمعت أحمد بن حنبل يقول : سمعت ابن السَّماك يقول : الرجاء حَبْل فى قلبِك ، وقَيدٌ فى رِجلك ؛ فأخرِجِ الرجاء من قلبك ، ينفكَّ القيدُ من رجلك :

قال أبو حاتم – رضى الله عنه : الطمع : غُدَّة من (٢) قلب المرء له طَرَفان ، أحدهما : القيدُ فى رجليه ، والآخر : الطَّبَع على لسانه ، فما دامت الغُدَّة قائمة ، لا تَنْفَكُّ رجلاه، ولا ينطق لسانُه ؟ فإذا أخرج الطمع من قلبه انفكَّ القيدُ عن رجليه . وزال الطَّبَع عن لسانه ، فسعى إلى ما شاء ، وقال ما أحب .

ودواء زوال الطمع عن القلب : هو رؤية الأشياء من مُكَوِّنها بدوام الخَلْوة ، وترك اليأس ؛ كما أنشدنى عبد العزيز بن سليمان الأبرش : [الرمل]

كُـــــنْ لِقَعْرِ البَيْتِ حِلْسًـــا ... وَارْضَ بِالوَحْدَةِ أُنْسًـــا (٣)
لَسْـــــتَ بِالوَاجِدِ (٤) حُرًا ... أَوْ تَـــرُدَّ اليَوْمَ أَمْسًـــا
فَاغْـــرِسِ اليَأْسَ بِأَرْضِ الـ ... زُهْدِ عُمِّرْتَ غَرْسًــــا
وَلْيَكُـــــنْ يَأْسُكَ دُونَ الـ ... طَمَعِ الكَاذِبِ تُرْسًا (٥) ، (٦)

= ولا تغترر بقرب جار ، أو صاحب فيحملك هذا على المطمعة ، فى عطائه وفيئه ، وإنما القريبُ من أعطاك ، وبعيدٌ جارك وصديقك القريب إن نأيا عنك بما لهما ، وشحًّا عليك بفضلهما ..

واستعن بالله والجأ إليه ، فإنما هى حظوظ وأرزاق تروح وتغدو بإذن الله .

(١) فى الأصل : المروذى .

(٢) الغدة : كل عقدة فى جسد الإنسان أطاف بها شحم (اللسان) .

(٣) حلس البيت : ما يبسط على الأرض تحت نفيس المتاع وفلان حلس بيته : إذا لم يبرحه . على التشبيه .

(٤) فى الأصل : بالوحدة.

(٥) الترس : المِجَنُّ يتقى به المحارب ضربات عدوه .

(٦) هذه الأبيات فى الحث على الزهد والاعتزال والإنكفاف عن الناس فيقول :

فلتكن قعيد البيت ملازمًا له كالبُسُط والفُرُش الملازمة .. لتفتن بالوحدة ، وتأنس بالوحشة عن الأنس بالخلطة .

فإنما الناس ذِئَابٌ عبيدُ حاجاتهم ، فلا حرٌ فيهم نقى بل إن رد الأمسى أقرب إليك من منال ذلك الحر وصدق من قال :

وما قتل الأحرار كالعفو عنهم ... ومن لك بالحر الذي يحفظ اليدا
إذ أنت أكرمت الكريم ملكته ... وإن أنت أكرمت اللئيم تمــــرّدا =

قال أبو حاتم - رضى الله عنه : العاقل يجتنبُ الطمع من الأصدقاء ، فإنه مَذَلَّة ، ويَلزمُ اليأسَ عن الأعداءَ ، فإنه مَنجاة ، وتركه مَهْلكة ، والإياس هو بَذر الراحة والعز ، كما أن الطمع هو بَذْر التعب والذلّ، فكم من طامع فى تَعب وذَلّ ، ولم ينلْ بُغيته ، وكم من آيِس استراح وتعزّز ، وقد أتاه ما أمَّل وما لم يأمُل .

وأنشدنى الأبرش : [البسيط]

يَعْرَى ويَغْرِثُ مَنْ أمْسَى عَلَى طَمَعٍ ... مِنَ المَكَارِمِ وَهْوَ الطَّاعِمُ الْكَاسِى (١)

إنَّ المَطَامِعَ ذُلٌّ لِلرِّقَابِ ، وَلَوْ ... أمْسَى أخُوهَا مكَانَ السَّيِّدِ الرَّاسِ (٢)،(٣)

وأنشدنى محمد بن إسحاق الواسطىُّ : [الطويل]

ألَمْ تَعلَمِى أنِّى إذَا النَّفْسُ أشْرَفَتْ ... عَلَى طَمَعٍ لَمْ أنسَ أنْ أتكَرَّمَا

ولَسْتُ بِلَوَّامٍ عَلَى الأمْرِ بَعْدَ مَا ... يَفُوتُ ، وَلَكِنْ عَلَّ أنْ أتَقَدَّمَا (٤) ، (٥)

= وقال أبو العتاهية :

سامح الناس فإنى أراهم ... أصبحوا إلا قليلاً ذئابا

وسل الله إذا خفت فقرًا ... فهو يعطيك العطايا الرغابا

وقال غيره :

ذئاب كلنا فى ثوب ناس ... فسبحان الذى فيه برانا

وينبغى على العاقل أن يقطع مطامعه عن الناس بالزهد فيهم ، والنأى عنهم ، وذلك بغرس اليأس فى أرض الزهد وليجعل اليأس هو المجن الواقى والسلاح الملاقى لضربات الطمع وتوثباته . . . فلن ترى طاردًا للحر كاليأس .

(١) غرث يغرث كفرح : جاع ، فهو غرثان ، وهى غرثى ، والطاعم الكاسى : المطعوم المكسى .

(٢) الرَّاس : أصله الرأس ، بالهمز ، وهو رئيس القوم وكبيرهم .

(٣) إن الطامع لا يكاد يهنأ بشىء ، فكلما أدرك شيئًا فاته أشياء وهكذا دواليك فى هموم لا تنقضى، فإن ارتدى ثياب الطمع عَرِى عن ثياب الكرامة والفضل إذْ الطمع ذل ومهانة . . .

فالمطامع هى دروب الذل بعينها ولو أن للطامع مال قارون لذل لزهيد المال أن يصيبه ، ولو أنه رأس بين القوم لتمنى مكانه من الذنب كذلك ، ولا يملأ جوف ابن آدم إلا التراب .

(٤) يقول : لا ألوم على قانت ، لأنه لا جدوى له ولكن أقدم النصح قبل الدخول فى الأمر .

(٥) هنا يربأ الشاعر بنفسه أن يشرف ، ويخوض مطمعًا ، ولكنه يتكرم ويجلُّ بنفسه عن ذلك لئلا يذل ويضل .

وكذلك يتنزه أن يَتحامَق ويتشكى المقدور ، ويندم على ما فات تحصيله لأن الندم لا يرد القضاء ، ولا يتأتى به ما فات ، ولكنه يتقدم للأمام ويجدّ فى السعى ، وعلى الله التكلان ، وهو المستعان ﴿ولا يَظلم ربُّكَ أحَدًا﴾ [الكهف : ٤٩] ، ﴿ وأنْ لَيس للإنسَانِ إلا مَا سعَى ﴾ [النجم : ٣٩] .

أنبأنا محمد بن سعيد القزاز ، حدثنا الفضل بن يوسف الكوفيُّ ، حدثنا عبد الله بن جَبَلة الكنانيُّ ، عن معاوية بن عمار ، عن أبي جعفر ، قال : اليأس [1] عما في أيدي الناس عز ، ثم قال : أمَا سمعت قول حاتم الطائيُّ : [الطويل]

إِذَا مَا عَـــــرَفْتَ اليَأْسَ أَلْفَيْتَهُ الْغِنَى إِذَا عَرَفَتْهُ النَّفْسُ ، وَالطَّمَعُ الفَقْرُ [2]

* * *

(١) في الأصل : الإياس .

(٢) إن اليأس عن المطامع والترضى بالزهيد من القوت هو حقيقة الغنى ، أما الطمع والتوثب والتربص بكل قنيصة لتدرك وإرصاد النفس ، فهذا عين الفقر والفاقة ، وصدق أبو العلاء إذ يقول :

الحمد لله قد أصبحت في سعة أرضى القليل ولا أهتم بالقوت

وشاهد خالقي أن الصلاة لـه أجـلُّ عندي من درٍ وياقـوت

ذِكْرُ الحَثِّ عَلَى مُجَانَبَةِ المَسْأَلَةِ وَكَرَاهِيَتِهَا

حدثنا أبو يزيد ، خالد بن النضر بن عمرو القُرشيُّ بالبصرة ، حدثنا عبد الواحد بن غِيَاث ، حدثنا حماد بن سَلَمة ، حدثنا هشام بن عُرْوة ، عن أبيه ، عن الزُّبير بن العَوَّام: أن رسول الله ﷺ قال : « لأَنْ يَأْخُذَ أَحَدُكُمْ حَبْلاً ، فَيَأْتِيَ بِحُزْمَةٍ من حَطَبٍ فَيَبِيعَهَا، خَيْرٌ لَهُ مِنْ أَنْ يَسْأَلَ النَّاسَ : أَعْطَوهُ أَوْ مَنَعُوهُ » (١) .

---

(١) أخرجه البخارى : (٤/ ٣٥٥) فى البيوع ، باب : كسب الرجل ، وعمله بيده (٢٠٧٥) ، وابن ماجة : (١/ ٥٨٨) فى « الزكاة » ، باب : كراهية المسألة (١٨٣٦) ، وأحمد : (١/ ١٦٧) ، وأبو يعلى (٦٧٥) ، والبيهقى : (٤/ ١٩٥ ، ٦/ ١٥٣) ، من طريق وكيع عن هشام به .

وأخرجه البخارى : (٣/ ٣٩٣) فى « الزكاة » ، باب : الاستعفاف عن المسألة (١٤٧١) ، وأحمد : (١/ ١٦٤) من طريق وهيب عن هشام به .

وأخرجه عبد الرزاق فى « مصنفه » (٢٠٠١٠) عن معمر عن هشام به .

وأخرجه الطبرانى فى « الكبير » : (١/ ١٢٤ - ١٢٥) برقم (٢٥٠) من طريق محمد بن أبي السرى العسقلانى ، ثنا عمر بن حفص بن ثابت بن أسعد بن زرارة الأنصارى ، ثنا عبد الملك بن يحيى بن عباد بن عبد الله بن الزبير عن أبيه ، عن جده ، عن عبد الله بن الزبير ، عن الزبير بن العوام به ، وقال الهيثمى : (٥/ ٢٥٨) : رواه الطبرانى ، وفيه من لم أعرفه .

ويشهد له حديث أبى هريرة رواه البخارى (١٤٧٠) ، ومسلم : (٢/ ٧٢١) فى « الزكاة » ، باب : كراهة المسألة للناس (١٠٦/ ١٠٧ - ١٠٤٢) ، والترمذى : (٣/ ٦٤) فى « الزكاة » ، باب : ما جاء فى النهى عن المسألة (٦٨٠) ، والنسائى : (٥/ ٩٦) فى « الزكاة » ، باب : الاستعفاف عن المسألة ، ومالك : (٢/ ٩٩٨) فى الصدقة ، باب : ما جاء فى التعفف عن المسألة (١٠) ، وأحمد : (٢/ ٢٨٤، ٢٥٧ ، ٣٠٠) ، والحميدى (١٠٥٦ - ١٠٥٨) ، والبيهقى : (٥/ ١٩٥) .

ويشهد له أيضًا حديث عائشة رواه البزار (٩١٢ -كشف الأستار) ، عن حميد ثنا إسماعيل بن أبى فديك ثنا الضحاك بن عثمان ، عن هشام بن عروة ، عن أبيه عنها ، وقال الهيثمى : رجاله ثقات .

ورواه عبد الرزاق (٢٠٠٠١٣) ، عن معمر عن ابن طاوس ، عن أبيه ، عن النبى ﷺ قال : ... فذكره .

قال الحافظ فى « الفتح » : (٣/ ٣٩٣ - ٣٩٤) : حديث أبى هريرة والزبير بن العوام بمعناه ، وفى رواية الزبير زيادة : « فيبيعها فيكف الله بها وجهه » ، وذلك مراد فى حديث أبى هريرة وحذف لدلالة السياق عليه ، وفى رواية أبى هريرة : « يأتى رجلاً » ، وفى حديث الزبير : « يسأل الناس »، والمعنىّ واحد ، وزاد فى أول حديث أبى هريرة قوله : « والذى نفسى بيده » ففيه القسم على الشىء المقطوع بصدقه لتأكيده فى نفس السامع ، وفيه الحض على التعفف عن المسألة والتنزه عنها ولو امتهن=

قال أبو حاتم - رضى الله عنه : الواجب على العاقل مجانبة المسألة على الأحوال كلها، ولزوم ترك التعرُّض ؛ لأن الإفكار فى العزم على السؤال ، يُورث المرءَ مَهانة فى نفسه ، ويَحُطُّه رَتْوة [1] عن مَرتبته ، وتركُ العزم على الإفكار فى السؤال ، يُورث المرء عِزا فى نفسه ، ويرفعه درجة عن مرتبته .

ولقد « أنبأنا » محمد بن المنذر ، حدثنا الفَيْض بن الخَضِر التميميُّ ، حدثنا عبد الله ابن خُبَيق ، قال : قال موسى بن طَرِيف : إن الحاجة لَتَعْرِضُ لى إلى الرجل ، فيُخرِج عِزِّى من قلبى قطعَ الحاجة من ناحيته ، فيرجعُ عِزِّى إلى قلبى .

وأنشدنى الكُرَيْزِىُّ قال : أنشدنا الحسن [2] بن أحمد ، لعلىِّ بن الجَهْم : [الطويل]

هِــــىَ النَّفسُ ، مَا حَمَّلْتَهَا تَتَحَمَّلُ ... وَلِلدَّهْـرِ أيَّامٌ تَجُـــورُ وتَعْـــدِلُ
وَعَـــاقِبَةُ الصَّبْرِ الجَمِيــلِ جَمِيلَةٌ ... وَأفْضَلُ أخْلاقِ الرِّجَالِ التَّفَضُّـــلُ
وَلا عَــارَ إنْ زَالَتْ عَنِ الحُرِّ [3] نِعْمَةٌ ... وَلَكِنَّ عَارًا [4] أنْ يَزُولَ [5] التَّجَمُّلُ [6]

أخبرنا زكرياء بن يحيى الساجِىُّ ، حدثنا عبد الواحد بن غياث ، حدثنا خالد بن عبد الله ، حدثنا داود بن أبى هند ، عن الشعبىِّ : أن عمر بن الخطاب - رضى الله عنه قال : مَنْ سأل الناس ليُثْرِى مالَه ، فإنما هو رَضْفٌ [7] من النار يُلْقَمه ، فمن شاء استقلَّ، ومن شاء استكثر .

= المرء نفسه فى طلب الرزق ، وارتكب المشقة فى ذلك ، ولولا قبح المسألة فى نظر الشرع لم يفضل ذلك عليها وذلك لما يدخل على السائل من ذلك السؤال ومن ذل الرد إذا لم يعط ولما يدخل على المسئول من الضيق فى ماله إن أعطى كل سائل » .

وأما قوله : « خير له » ، فليست بمعنى أفعل التفضيل إذ لا خير فى السؤال مع القدرة على الاكتساب ، والأصح عند الشافعية أن سؤال من هذا حاله حرام ، ويحتمل أن يكون المراد بالخير فيه بحسب اعتقاد السائل وتسميته الذى يعطاه خيراً وهو فى الحقيقة شر ، والله أعلم .

(١) رتوة : مسافة بقدر خطوة .

(٢) فى الأصل : أنشدنى الحسين . (٣) فى الأصل : المرء .

(٤) في الأصل : ولكن عارٌ . (٥) فى الأصل : تزول .

(٦) ينبغى للعاقل أن يوطن نفسه على التأهب لصروف دهره فالأيام دول والدهر غِيَرٌ ، والحظ بكر تارة وثيب .

وليتحلَّ بالصبر الجميل إذْ عاقبته إلى حسنى ، وليكن ذا رحابة وسعة وبذل وفضل ، فإنما الفضل لكل مفضل ، وهو من عظيم شيم الرجال . فلا بأس ولا مذمة فى فوت النعمةه المرء ، وإنما العار هو الجزع والفزع والتغصص ، فلا أعاد النعمة ، ولا ابتغى الآخرة وتلك عاقبته خُسْرًا .

(٧) الرضف : الحجارة التى حميت بالشمس أو النار ، واحدتها ، رضْفة ، بسكون الضاد .

أنبأنا محمد بن سليمان بن فارس الدَّلال ، حدثنا الحسن بن محمد بن الصَّبَّاح ، حدثنا أبو عباد يحيى بن عباد ، حدثنا شُعبة ، عن قَتادة ، قال : سمعت مُطَرِّف بن عبد الله ، يحدث عن حكيم بن قيس بن عاصم ، عن أبيه : أنه أوصى بنيه عند موته ، فقال : يا بَنِىَّ ، إياكم ومسألَةَ الناس ، فإنها آخرُ كَسْبِ الرجُل .

قال أبو حاتم - رضى الله عنه - : العاقل لا يسأل الناس شيئًا فيردوه ، ولا يُلحف فى المسألة فيَحْرِموه ، ويلزمُ التعففَ والتكرم ، ولا يطلبُ الأمرَ مُدْبِرًا ، ولا يتركه مُقْبِلاً ؛ لأن فَوْت الحاجة خيرٌ من طلبها إلى غير أهلها ، وإن من سأل غير المستحق حاجةً ، حَطَّ لنفسه مَرْتبتين ، ورفع المسئول فوق قدره .

أخبرنى محمد بن المنذر ، حدثنا أحمد بن مؤمَّل (١) المصرىُّ ، قال : سمعت حامد ابن يحيى يقول : سمعت سفيان بن عيينة يقول : من سَأَلَ نَذْلاً حاجة ، فقد رفعه عن قدره .

أنشدنى ابن زَنْجِىٍّ [البغدادىُّ] (٢) : [البسيط]

ذُلُّ السُّؤَالِ شَجًا فِى الحَلْقِ مُعْتَرِضُ ... مِنْ دُونِه شَرَقٌ ، مِنْ خَلْفِه جَرَضُ
مَا مَاءُ كَفِّكَ إِنْ جَادَتْ وَإِنْ بَخِلَتْ ... مِنْ مَاءِ وَجْهِى إِذَا أَفْنَيْتُهُ عِوَضُ (٣)

وأنشدنى محمدُ بن عبد الله المؤدِّب [الكامل] :

مَا اعْتَاضَ بَاذِلُ وَجْهِـه بِسُـؤَالِه ... عِـوَضًا ، وَإِنْ نَالَ الغِنَى بِسُؤَالِ
وَإِذَا السُّـــؤَالُ مَعَ النَّوَالِ وَزَنْتَهُ ... رَجَحَ السُّؤَالُ ، وَخَفَّ كُلُّ نَوَالِ
وَإِذَا ابْتُلِيتَ بِبَذْلِ وَجْهِكَ سَائِلاً ... فَابْذُلْهُ لِلْمُتَكَـرِّمِ المِفْضَـــالِ (٤)

---

(١) فى الأصل : محمد بن مدرك .   (٢) سقط فى الأصل .

(٣) ينبغى على العاقل أن يتقى المسألة للناس ، فإنه عين المذمة والمذلة وهى غصة قائمة فى الحلق ، تكاد تذهب بصاحبها بل هى أشد كذلك مَن الشَّرَق والاغتصاص بالريق ...

وليعلم أنه وإن أصاب ما سأل وأفاء السائلونَ عليه ، وأصابوا يده ببللٍ من الصدقة ، فما هذا يعوض عما بذل من ماء وجهه وبها حيائه .

(٤) العاقل لا يبذل وجهه ونفسه إلا فيما هو أعز منها ومن بذل وجهه بسؤال الناس فقد خسرت صفقته وما ربحت بيعته وتجارته ، وإذا ما قارن العاقل بين مزلة السؤال ولذة النوال والعطاء لبذت هذه الثانية الأولى ، ولطاشت صفحة النوال ، وتضعضعت أمام ذُل السؤال .

وإذا ما اضطر المرء أن يسأل ويبذل وجهه ، فينبغى أن يتحرز ويتحيز من كان من ذوى الفضل ليحفظ ماء وجهه ، ويظفر بحاجته ، وفي هذا يقول الشافعي - رحمه الله تعالى .

ما حكَّ جلدك مثل ظفرك ... فتولَّ أنت جميع أمرك
وإذا قصدت لحاجـــــة ... فاقصد لمعترف بفضلك

أنبأنا محمد بن المهاجر المعدَّل ، حدثنا أبو جعفر بن ابنة أبى سعيد التغلَبىّ (١) الدمشْقِىّ ، حدثنا حاجب بن أبى علقمة العُطارِدِىّ ، قال : سمعت أبى يقول : قال مُطَرِّف بن عبد الله بن الشِّخِّير لابن أخيه : يابن أخى ، إذا كانت لك حاجة إلىَّ ، فاكتب بها إلىَّ فى رُقعة ، فإنى أصون وجهك عن ذلّ السؤال وبَذْلِ الجُهَّالِ . وأنشدنى ذلك : [السريع]

يَاأَيُّهَـــا المُتْعَبُ بِذُلِّ السُّؤَالْ (٢) وَطَالِبَ الحَاجَاتِ مِنْ ذِى النَّوَالْ
لا تَحْسَبَـــنَّ المَوْتَ مَوْتَ البِلَى فَإِنَّمَا المَوْتُ سُؤَالُ الرِّجَـــالْ
كِـــلاهُمَا مَوْتٌ ، وَلَكِنَّ ذَا أَعْظَمُ مِنْ ذَاكَ لِذُلِّ السُّـؤَالْ (٣)

قال أبو حاتم - رضى الله عنه : أعظم المصائب سوء الخَلَف ، والمسألة من الناس ، والهمُّ بالسؤال نصفُ الهرم ، فكيف المباشرة بالسؤال ؟ ومن عزَّت عليه نفسه ، صَغُرتِ الدنيا فى عينه ، ولا يَنْبُلُ الرجل حتى يَعِفَّ عما فى أيدى الناس ، ويتجاوزَ عما يكون منهم ، والسؤال من الإخوان مَلالٌ ، ومن غيرهم ضِدُّ النَّوال .

وأنشدنى الأبرش : [الكامل]

أَنْبِلْ بِنَفْسِكَ أَنْ تَكُونَ حَرِيصَةً إِنَّ الحَرِيصَ إِذَا يُلِحُّ يُهَـــانُ
مَـــنْ يُكْثِرِ التَّسْآلَ مِنْ إِخْوَانِهِ يَسْتَثْقِلُوهُ ، وَحَظُّهُ الحِرْمَانُ (٤)

---

(١) فى الأصل : الثعلبى . (٢) فى الأصل : يا أيها المبتغ بَذْلَ الرجال .
(٣) هنا ينادى الشاعر على من أدمن السؤال واستراه قائلاً :
يا من ركبت الذلَّ بالمسأله ، وأتعبت نفسك بغية نوالٍ لو تعففت عنه لأصبت . لا تحسب الموت للرجال بلحدهم فى قبورهم وبرمم أجسادهم بعد مماتهم ، وإنما الميت الهامد ، هو من رضى الذلة واستهان ببذله دينه وعرضه وسؤاله الناس أعطوه أو حرموه .
وموت الرجال فى القبور كموتهم ببذل المسألة ، غير أن ذلَّ المسألة أعظم ميتة ، فصاحبه حيٌّ فى عداد الأموات ، وميت فى عداد الأحياء ، بما ارتكب من الآفات والمخالفات ... وقد علق الجاحظ على هذه الأبيات بالبرود والسذاجة ، فهى نظم ردىء المعنى جيد . [راجع « البيان والتبيين » .] .
(٤) ينبغى على العاقل أن يعزَّ بنفسه ، ويربأ بها أن يذل بحرصه إذا الحريص مهان مدان .
ولا يظن من اتقح والتَقَحَ أن التقاحه عامر ، لا بل هو ثقيل ، وبيل موشك أن يمنع القليل والجزيل؛ لأن كما يقول أبو العتاهية :

من يسأل الناس يهن عليهم بؤسًــا لمن حاجته إليهم
مـــن يسأل الناس يخيبوه ويعرضوا عنه ويصغـرروه

وقال :

وسل اللهَ إذا خفت فقرًا فهو يعطيك العطايا الرغابا

وأنشدنى على بن محمد البسامىُّ : [الطويل]

أَتَيْتُ أَبَا عَمْرٍو أُرَجِّى عَطَــــاءَهُ　　فَــزَادَ أَبُو عَمْرٍو عَلَى حَزَنِى حُزْنَا

فَكُنْــــتُ كَبَاغِى القَرْنِ أَسْلَمَ أُذْنَهُ　　فَبَاتَ بِلا أُذْنٍ ، وَلَمْ يَسْتَفِدْ قَرْنَا (١)

حدثنا محمد بن عثمان العقبى ، حدثنا خطاب بن عبد الرحمن الجَنَدىُّ ، حدثنا عبد الله بن سليمان ، قال : كان أَكْثَمُ بن صَيْفِىٍّ يقول : السؤال وإن قلَّ ، أثمن من النوال وإن جَلَّ .

قال أبو حاتم - رضى الله عنه - : لا يجب للعاقل أن يبذَل وجهه لمن يكرُم عليه قَدْرُه، ويعظُم عنده خَطَرُه ، فكيف بمن يهون عليه ردُّه ، ولا يكرُم عليه قَدْرُهُ ؟ وأبغض (٢) اللقاء الموت ، وأشدُّ منه الحاجة إلى الناس دون السؤال ، وأشدُّ منه التكلف بالسؤال ؛ لأن السؤال إذا كان بنجاح الحاجة مقرونًا ، لم يَخْلُ من أن يكون فيه ذُلُّ السؤال ، وإذا الحاجة لم تُقْضَ كان فيه ذلان موجودان : ذُلُّ السؤال ، وذُل الردِّ .

وأنشدنى منصور بن محمد الكُريزىُّ : [الخفيف]

لا يُحِــسَّ الصَّدِيقُ مِنْكَ بِفَقْرٍ　　لا ، وَلا وَالِدٌ ، وَلا مَوْلُــودُ

ذَاكَ ذُلٌ إِذَا سَأَلْتَ بَخِيــــلاً　　أَوْ سَأَلْتَ الَّذِى عَلَيْكَ يَجُودُ (٣)

أنبأنا أحمد بن الحسن بن عبد الجبار ببغداد ، حدثنا (٤) على بن الجَعْد ، أنبأنا شُعْبَة، عن الأعمش ، قال : سمعت المعرور بن سويد يحدث عن عبد الله ، قال : إن فى طلب الرجل الحاجة إلى أخيه فتنة ، إذا أعطاه حمِدَ غير الذى أعطَاه ، وإن منعه ذم غير الذى منعه .

---

(١) في الأصل : يجد القرنا .　　(٢) فى الأصل : وأبعد .

(٣) هذان البيتان فى التحسر على بذل النفس ، وهوانها واعتقاب الحرمان مع بذلها .. وذلك هو الخسران المبين ، فيقول : ذهبتُ إلى أبى عمرٍ ابتغى فيئه وعطاءَه ، مع حزنى لحاجتى إليه فليته جبر كسرى أوفك أسرى ، وأذهب عسْرِى ، لا بلْ زادنى حزنًا على ما بى .

فكان حالى بئس الحال تضرب به الأمثال ، فلم أبق عزتى ولم أظفر بحاجتى ، وذلك هو الضلال البعيد .

ينبغى على العاقل أن يتحفظ ويتنزه التشكى ، والتفاقر فيظهر ذلك لصديقه أو والده بل وولده ، فإن ذلك لا يجدى ، ولا يجنى المرء منه خيرًا .

وفى ذلك المذلة والمهانة والضعة إذْ إِتت بين بخيل يتنكر لك وينزوى عنك ، وبين باذل قد يمنُّ عليك ، وتذل منه ببذله لك ، والحر حرٌ ، وإن مسه الضرّ ، وتجوع الحرة ولا تأكل بثديها .

وفى هذا الباب روائع من الشعر نختار منها : (القناعة) .

(٤) فى الأصل : حدثنى .

قال أبو حاتم - رضى الله عنه : لو لم يكن فى السؤال خَصلة تُذمُّ إلا وجود التذلل فى النفس ، عند الاهتمام بالسؤال وإبدائه ، لكان الواجب على العاقل أن لو اضطره الأمر إلى أن يَستَفَّ الرملَ ، ويَمُصَّ النوى ، ألا يتعرض للسؤال أبدًا ، ما وجد إليه سبيلاً ، فأما من دفعه الوقت إلى ذلك ، فسأل من يعلم أنه يقضى حاجته ، أو ذا سلطان ، لم يَحْرَج فى فعله ذلك ، كما لم يخرج فى القبول إذا أُعطِى من غير مسألة ، ومن استغنى بالله أغناه الله ، ومن تعزَّزَ به لم يفقره ، كما أنَّ من اعتز بالعبيد أذلَّه الله .

ولقد أنبأنا (١) سعيد بن محمد القزاز ، حدثنا أبو الهيثم الرازىُّ (٢) ، حدثنا خالد بن يزيد ، حدثنا إبراهيم بن موسى ، حدثنا هشام بن يوسف ، عن معمر ، قال : قال أبو معاوية ، رجل من ولد كعب بن مالك : لقد رأيتُنى أنضَح أول النهار ، وأضربُ آخر النهار على بطنى بالمِعْول فى المعدِن (٣) ، قال : قلت : لقد لقيتَ مئُونة ، قال : أجَلْ ، إنا طلبنا الدراهم من أيدى الرجال ، ومن الحجارة ، فوجدناها من الحجارة أسهل علينا .

* * *

(١) فى الأصل : حدثنا . (٢) فى الأصل : خالد بن يزيد الرازى .

(٣) على بطنى : أي لكسب طعام بطنى ، والمعول : ما تكسر به الحجارة والمعدن ، المكان لتستخرج منه المعادن النافعة للناس .

ذِكْرُ الحَثِّ عَلَى لُزُومِ القَنَاعَةِ

حدثنا الحسن بن سفيان الشيبانىّ ، حدثنا محمد بن أبى بكر المُقَدَّمىّ ، حدثنا محمد ابن عبد الرحمن الطُّفَاوىّ ، عن الأعمش ، عن مجاهد ، عن ابن عمر، قال : أخذَ رسول الله ﷺ بمَنكِبى ، فقال : « كُنْ فِى الدُّنْيَا كَأَنَّكَ غَرِيبٌ ، أَوْ عَابِرُ سَبِيلٍ » (١) .

---

(١) أخرجه أبو نعيم فى « الحلية » : (٣/ ٣٠١) عن أحمد بن جعفر بن حمدان ، ثنا عبد الله بن أحمد بن حنبل ، حدثنى محمد بن أبى بكر المقدمى به . وأخرجه الطبرانى فى « الكبير » : (١٢/ ٩٣٨) برقم (١٣٤٧٠) ، عن يوسف القاضى ، ثنا محمد بن أبى بكر المقدمى .

وأخرجه البخارى : ١١/ ٢٣٧ فى « الرقاق » ، باب : قول النبى ﷺ : « كن في الدنيا ... » (٦٤١٦) ، عن على بن عبد الله ، والطبرانى (١٣٤٧٠) من طريق عمرو بن محمد الناقد كلاهما عن الطفاوى به .

وأخرجه الترمذى : (٤/ ٤٩٠) فى « الزهد » ، باب : ما جاء فى قصر الأمل (٢٣٣٣) ، وابن ماجة: (٢/ ١٣٧٩) فى « الزهد » ، باب : مثل الدنيا (٤١١٤) ، وأحمد : (٢/ ٢٤ ، ٤١) ، والطبرانى فى « الكبير » : (٢/ ٤١٨) برقم (١٣٥٣٨) ، وفى « الصغير » : (١/ ٣٠) ، والخطيب فى« التاريخ » : (٤/ ٩٦) ، وأبو نعيم فى « الحلية » : (١/ ٣١٣) ، وابن المبارك ص (٥) برقم (١٣)، والبغوى فى « شرح السنة » : (٧/ ٢٨١) برقم (٣٩٢٤) ، بتحقيقنا من طرق عن ليث عن مجاهد به .

ولفظ : البخارى : أخذ رسول الله ﷺ بمنكبى فقال : كن فى الدنيا كأنك غريب أو عابر سبيل ، وكان ابن عمر يقول : إذا أمسيت فلا تنتظر الصباح ، وإذا أصبحت فلا تنتظر المساء ، وخد من صحتك لمرضك ، ومن حياتك لموتك » .

قال الحافظ فى « الفتح » : (١١/ ٢٣٨ - ٢٣٩) : قوله : (كن فى الدنيا كأنك غريب أو عابر سبيل)، قال الطيبى : ليست أو للشك بل للتخيير والإباحة ، والأحسن أن تكون بمعنى بل ، فشبه الناسك السالك بالغريب الذى ليس له مسكن يأويه ولا مسكن يسكنه ، ثم ترقى وأضرب عنه إلى عابر السبيل ؛ لأن الغريب قد يسكن فى بلد الغربة بخلاف عابر السبيل القاصد لبلد شاسع وبينهما أودية مردية ومفاوز مهلكة وقطاع طريق فإن من شأنه أن لا يقيم لحظة ولا يسكن لمحة ، ومن ثم عقبه بقوله: « إذا أمسيت فلا تنتظر الصباح .. إلخ » ، وبقوله : « وعد نفسك فى أهل القبور » ، والمعنى استمر سائرًا ولا تفتر ، فإنك إن قصرت انقطعت وهلكت فى تلك الأودية ، وهذا معنى المشبه به ، وأما المشبه فهو قوله : « وخذ من صحتك لمرضك » أي أن العمر لا يخلو عن صحة ومرض ، فإذا كنت صحيحًا فسر سير القصد وزد عليه بقدر قوتك ما دامت فيك قوة بحيث يكون ما بك من تلك الزيادة قائمًا مقام ما لعله يفوت حالة المرض والضعف ، زاد عبدة في روايته عن ابن عمر : « اعبد الله كأنك تراه وكن فى الدنيا » الحديث ، وزاد ليث فى روايته « وعدَّ نفسك فى أهل =

قال أبو حاتم - رضى الله عنه : قد مكثتُ بُرْهَةَ من الدهر مُتَوَهِّمًا أن الأعمش لم يسمع هذا الخبر من ليث بن أبى سُلَيم ، فدلَّسه ، حتى رأيت علىَّ بن المدينى حدث بهذا الخبر عن الطُّفاوىِّ عن الأعمش ، قال : حدثنى مجاهد ، فعلمت حينئذ أن الخبر صحيح ، لا شك فيه ، ولا امتراء فى صحته .

فقد أمر النبىُّ ﷺ ابن عمر فى هذا الخبر ، أن يكون فى الدنيا كأنه غريب ، أو عابر سبيل ؛ فكأنه أمره بالقناعة باليسير من الدنيا ؛ إذ الغريب وعابر السبيل لا يقصدان فى الغَيبة الإكثارَ من الثروة ، بل القناعة إليهما أقرب من الإكثار من الدنيا .

ولقد أخبرنى محمد بن عثمان العقبى ، حدثنى جعفر بن سُنَيد بن داود ، حدثنى أبى، حدثنى حجاج ، حدثنا عتبة بن سالم (١) ، قال : قال أكثم بن صَيْفِىٍّ لابنه : يا بُنىَّ ، من لم يأسَ على ما فاته وَدَّع بدنُهُ ، ومن قَنِع بما هو فيه قَرَّتْ عينُه .

وأنشدنى على بن محمد البسَّامىّ : [الرمل]

مِــــنْ تَمَامِ العَيْشِ مَا قَرَّتْ بِهِ   عَيْنُ ذِى النِّعْمَةِ ، أثْرَى أوْ أقَــلّ
وَقَلِيــــلٌ أنْتَ مَسْــــرورٌ بِهِ   لَكَ خَيْرٌ مِنْ كَثِيرٍ فِى دَغَلْ (٢)، (٣)

= القبور » ، وفى رواية سعيد بن منصور « وكأنك عابر سبيل » ، وقال ابن بطال : لما كان الغريب قليل الانبساط إلى الناس بل هو مستوحش منهم إذ لا يكاد يمر بمن يعرفه مستأنس به فهو ذليل فى نفسه خائف ، وكذلك عابر السبيل لا ينفذ فى سفره إلا بقوته عليه وتخفيفه من الأثقال غير متشبث بما يمنعه من قطع سفره ، معه زاده وراحلته يبلغانه إلى بغيته من قصده شبهه بهما ، وفى ذلك إشارة إلى إيثار الزهد فى الدنيا وأخذ البلغة منها والكفاف ، فكما لا يحتاج المسافر إلى أكثر مما يبلغه إلى غاية سفره فكذلك لا يحتاج المؤمن فى الدنيا إلى أكثر مما يبلغه المحل .

وقال غيره : هذا الحديث أصل فى الحث على الفراغ عن الدنيا والزهد فيها والاحتقار لها والقناعة فيها بالبلغة .

وقال النووى : معنى الحديث : لا تركن إلى الدنيا ولا تتخذها وطنًا ولا تحدث نفسك بالبقاء فيها ولا تتعلق منها بما لا يتعلق به الغريب فى غير وطنه .

وقال غيره : عابر السبيل هو المار على الطريق طالبًا وطنه ، فالمرء فى الدنيا كعبد أرسله سيده فى حاجة إلى غير بلده ، فشأنه أن يبادر بفعل ما أرسل فيه ثم يعود إلى وطنه ولا يتعلق بشىء غير ما هو فيه ، وقال غيره : المراد أن ينزل المؤمن نفسه فى الدنيا منزلة الغريب فلا يعلق قلبه بشىء ، من بلد الغربة ، بل قلبه متعلق بوطنه الذى يرجع إليه ، ويجعل إقامته فى الدنيا ليقضى حاجته وجهازه للرجوع إلى وطنه ، وهذا شأن الغريب ، أو يكون كالمسافر لا يستقر فى مكان بعينه بل هو دائم السير إلى بلد الإقامة .

(١) فى الأصل : قال : حدثنا عقبة بن سنان .

(٢) الدغل : الفساد ، يريد الغش والخيانة ، والغصب والإكراه .

(٣) مما يتممُ للمرء عيشته ، وتكتمل به سعادته ، فتقر عينه ، ويدفع شينه ، ويكفى همه أن يقنع بما لديه كان ثريًا أو مقلاً ، وليرضى بقضاء ربه ففى الرضا الهناءَةُ والسعادة . =

وأنشدنى ابن زَنْجِىٍّ البغدادىّ : [البسيط]

أَقُولُ لِلنَّفْسِ : صَبْرًا عِنْدَ نَائِبَةٍ (١) فَعُسْرُ يَوْمِكِ مَوْصُولٌ بِيُسْرِ غَدِ

مَا سَرَّنِى أَنَّ نَفْسِى غَيْرُ قَانِعَةٍ وَأَنَّ أَرْزَاقَ هَذَا الخَلْقِ تَحْتَ يَدِى (٢)

أنبأنا أبو خليفة ، حدثنا محمد بنْ كثير (٣) ، أنبأنا سفيان الثورىُّ ، عن عيسى بن عبد الرحمن ، عن القاسم بن عبد الرحمن ، عن أبيه ، عن ابن مسعود ، قال : أربع قد فُرِغ منها : الخَلْق ، والخُلُق ، والرِّزق ، والأجل . وليس أحد بأكسب من أحد .

قال أبو حاتم - رضى الله عنه : من أكثَرِ مواهبِ الله لعبادِه وأعظمها خطَرًا ، القناعة ، وليس شىء أروحَ للبدن من الرضا بالقضاء ، والثقة بالقاسم ؛ ولو لم يكن للقناعة خَصلة تحمدُ إلا الراحة ، وعدم الدخول فى مواضع السوء ، لطَلَبِ الفضْل ، لكان الواجب على العاقل ، ألا يفارق القناعة على حالة من الأحوال .

ولقد أنبأنا عمر بن حفص بن عمرو البزار (٤) ، حدثنا أبو مسعود ، حدثنا محمد بن عبد الله بن عُبيد بن عقيل ، حدثنا عبد الله بن إبراهيم المدنىّ ، حدثنا أبو بكر بن محمد ابن المنكدر ، عن أبيه ، قال : القناعةُ مال لا ينفَد .

سمعت محمد بن المنذر يقول : سمعت عبد العزيز بن عبد الله يقول : قال محمد بنُ حميد الأكّاف : [الوافر]

تَقَنَّعْ بِالكَفَافِ ، تَعِشْ رَخِيا وَلَا تَبْغِ الفُضُولَ مِنَ (٥) الْكَفَافِ

فَفِى خُبْزِ القَفَارِ بِغَيْرِ أُدْمٍ وَفِى مَاءِ الفُرَاتِ غِنًى وَكَافِ (٦)

= ومن كان ذا لبٍّ فإنه يتقنع بالقليل الضئيل ، فهو له خير من الكثير المدخول الذى قد يشوبه الدغل والريبة « ولا يستوى الخبيث ولا الطيب وإن أعجبك كثرة الخبيث . . . » .

وصدق الألبيرى :

ومن الغنى ما قد يضر بأهله والفقر عند الله ليس بضائر

(١) فى الأصل : مهما ضِقْتِ فَاتَّسِعى .

(٢) ينبغى على العاقل أن يقنع نفسه ، ويواسيها فيصبرها عند النائبة ويرضها بأن عسر يومها إلى يسر غد ، فما هو إلا صبر أيام كأن ساعاتها أطياف أحلام .

وإنى لا أسر بالطمع والحرص ، ولو ملكت التصرف فى أرزاق الناس قاطبة إذ القناعة كنز لا يفنى وجديدها لا يبلى .

(٣) فى الأصل : أبى كثير . (٤) فى الأصل : البزاز . (٥) فى الأصل : مع .

(٦) الخبز القفار : بفتح القاف : الذى لا يكون معه إدام .

وَفِى الثَّوْبِ الْمُرَقَّعِ مَا تَغَطَّى ... بِهِ مِنْ كُلِّ عُرْىٍ وَانْكِشَافِ
وَكُــــلٌّ تَزَيُّنٍ بِالْمَرْءِ زَيْنٌ ... وَأَزْيَنُهُ التَّزَيُّنُ بِالْعَفَافِ (١)

وأنشدنى الكُرَيزىُّ : [الطويل]

لَعَمْــــرُكَ مَا طُولُ التَّعَطُّلِ ضَائِرِى ... وَلا كُلُّ شُغْلٍ فِيهِ لِلْمَرْءِ مَنْفَعَـــــهْ
إِذَا كَانَتِ الأَرْزَاقُ فِى القُرْبِ وَالنَّوَى ... عَـلَيْكَ سَوَاءً فَاغْتَنِمْ رَاحَةَ الدَّعَهْ (٢)
وَإِنْ ضِقْتَ فَاصْبِرْ يُفَرِّجِ اللهُ مَا تَـرَى ... أَلا رُبَّ ضِيقٍ فِى عَوَاقِبِهِ سَعَــهْ (٣)

وأنشدنى محمد بن إسحاق الواسطىّ : [البسيط]

أَلْحَمْــــدُ للهِ حَمْــــدًا دَائِمًا أَبَدًا ... لَقَدْ تَزَيَّنَ أَهْلُ الْحِرْصِ بَالشَّيْــــنِ
لا زَيْنَ إِلا لِـــرَاضٍ فِى تَقَلُّلِــــهِ ... إِنَّ القُنُوعَ لَثَوْبُ العِزِّ وَالزَّيْنِ (٤)، (٥)

---

(١) ينبغى على العاقل أن يرضى بقليله ففى الرضاء رخاء المعيشة وليرضى بما يقيته ، ويغنيه عن طمعه فى كثير من الفضول قد يطغيه وليزهد فى الدنيا ، وليعزف عن غرورها حتى ليكتف بالخبز غير المؤتدم ، وبماء لا فى إناء إنما تغترفه من نهر الفرات .

وليقنع بثوب يغطى عريه ، ولو كان مرقعًا خَلِقًا ، ففيه الغطاء والستر عن الكشف والافتضاح .

وإن ابتغى التزيد والتزيد فلا عليه ما دام فى الحلِّ والبلِّ ولا ينسى أن خير زينة يزدان بها المرء هى العفاف كما أن خير الزاد التقوى .

(٢) ولكن لا بد من السعى المأمور به لملاقاة المقسوم من الرزق ، فإن السماء لا تمطر ذهبًا ولا فضة.

(٣) هذه الأبيات فى الدعوة إلى التزهد كذلك فيقول : ليعلم المرء المعتزل عن الناس أن اعتزاله واختلاءَه ليس ضروريًا أن يضره ويؤله ، كذلك ليس كل عاملٍ مضيبًا نفعًا .

وإذا كانت الأرزاق مقسمة عند الله ومقدرة ضرب إليها المرء فى الآفاق ، أم اقتعد رَحْبَةَ بيته ، ففى القعدة والراحة مسلمة ، ومغنمة ما تساوى الأمران وتشاكل الضربان ، فإن عقباه فرح وظَفَر ، فطالما أعقب الضيقَ اتساعٌ ، وأَعْقَبَ الفقرَ إمراعٌ . . . وإن مع العسر يسرًا .

(٤) القنوع : التقلل من الدنيا والرضا باليسير .

(٥) هذان البيتان لأبى العتاهية أمير شعراء الزهد والحكمة بلا منازع ولا مدافع ، وهما فى الحث على الزهد والتقنع فيقول :

الحمد لله على فضله وحكمته وحسن ما صرف من أموره ، ثم الحمد لله أبد الأبدين على حسن صنعه ، وله الحمد كذلك على إعطائه ومنعه ، ومن رضى بالله كان مع الله ومن تلبس بالحرص فقد تسربل بالشين والغبن .

ومن تقنع ورضى بما آتاه ربه ، فقد التحف بالفضل واشتمل بالزين ، وتقمص بالراحة ، ودفع الهم وكذلك الرضا والسعادة لا يدركها إلا الرضىُّ القنوع .

قال أبو حاتم - رضى الله عنه - : العاقل يعلم أن الأقسام لم توضع على قدر الأخطاء ، وإن من عدم القناعة لم يزده المال غنى ، فتمكن المرء بالمال القليل مع قلة الهمِّ أهنأ من الكثير ذى التَّبعة (١) ، والعاقل ينتقم من الحرص بالقُنوع ، كما ينتصر من العدو بالقصاص ؛ لأن السبب المانع رزقَ العاقل هو السبب الجالب رزق الجاهل .

وأنشدنى محمد بن سعيد القزاز ، أنشدنا محمد بن خلف التيمى قال : أنشدنى رجل من خُزاعة : [الطويل]

رَأَيْتُ الغِنَى وَالفَقْرَ حَظَّيْنِ قُسِّمَا ... فَيُحْرَمُ مُحْتَالٌ وَذُو الْعِيِّ كَاسِبُ
فَهَــذَا مُلِحٌّ دَائِبٌ غَيْرُ (٢) رَابِحٍ ... وَهَذَا مُرِيحٌ رَابِحٌ غَيْرُ دَائِبِ (٣)

وأنشدنى عبد العزيز بن سليمان الأبرش : [الطويل]

إِذَا المَرْءُ لَمْ يَقْنَـــعْ بِعَيْشٍ ، فَإِنَّهُ ... وَإِنْ كَانَ ذَا مَالٍ مِنَ الفَقْرِ مُوقَـرُ
إِذَا كَانَ فَضْلُ النَّاسِ يُغْنِيكَ بَيْنَهُمْ ... فَأَنْتَ بِفَضْلِ اللهِ أَغْنَى وَأَيْسَرُ (٤)

أخبرنا أحمد بن سعيد القيسى ، حدثنا محمد بن الوليد بن أبان ، حدثنا نعيم بن حماد ، قال : سمعت ابن المبارك يقول : مروءة القناعة ، أفضل من مروءة (٥) الإعطاء .

قال أبو حاتم - رضى الله عنه : القناعة تكون بالقلْب : فمن غَنِى قلبه ، غنيت يداه ،

---

(١) التبعة : الحقوق المغصوبة تكون عند الرجل فيتعونه من أجلها ويطلبونه بها .

(٢) فى الأصل : دائبًا غير .

(٣) ينبغى على العاقل أن يعلم أن الأمور تجرى بقدر الله وحكمته وكذلك الغنى والفقر قد قسمهما الله ، فلا راد لما أعطى ولا معطى لمن حرم سبحانه ، فمن كان ذا عيٍّ وهو مجدودٌ فإنه ناعمٌ مصيب وإن قعد عن الكسب .

ومن كان محرومًا عند ربه ، فهو محروم ، وإن احتال وحاول كل محال ، فالمحروم جاهد مكابد ساهد ، ولا يغنى ذلك عنه شيئًا ، والمحظوظ قعود كسوب رابح على قعدته وعدم دأبته .. فسبحان من أغنى وأقنى ومنع وأعطى : ﴿ لا يُسأَلُ عمَّا يفعلُ وَهُمْ يَسألُونَ وَلا يَظْلِمُ ربُّكَ أحَدًا ﴾ .

(٤) ليعلم الفتى أن القناعة راحة ورحبة يستروح وينعم فيها وبها صاحبها ، فإن لم يتقنع ، فهو فى عذاب وتباب ، وفى فاقة وسُهَاد ، ومذبوح بسكين الفقر ، وإن أصاب صَيْبَ قارون إذ حرم القناعة فكسدت عليه البضاعة ..

وليغتنِ العاقل بفضل ربه ، فهو فضل الغنى والسعة عن فضل العباد ذى الفساد المشوب بالرنق والقذى .

(٥) فى الأصل : مرُوِّيه .

ومن افتقر قلبه ، لم ينفعه غناه ، ومن قنع لم يَتسخط ، وعاش آمنًا مطمئنًا ، ومن لم يقنع لم يكن له فى الفوائد نهاية لرغبته ، والجَدُّ والحِرمان كأنهما يصطرعان بين العباد .

ولقد أحسن الذى يقول : [الطويل]

فَمَا كُلُّ مَا حَازَ الفَتَى مِنْ تِلادِهِ بِكَيْسٍ ، وَلا مَا فَاتَهُ بِتَوَانِ
فَأَجْمِلْ إذَا طَالَبْتَ أَمْرًا ؛ فَإِنَّهُ سَيَكْفِيكَهُ جَدَّانِ يَصْطَرِعَانِ (١)

حدثنا عمرو بن محمد ، حدثنا الغلابىُّ ، حدثنا محمد بن عبيد الله الجُشَمىّ ، عن المدينىّ (٢) ، قال : كان يقال : مروءة الصبر عند الحاجة والفاقة ، بالتعفف والغنى ، أكثر من مروءة الإعطاء .

و أنشدنى عمرو بن محمد ، أنشدنى الغلابىّ ، أنشدنى ابن عائشة : [الطويل]

غِنَى النَّفْسِ يُغْنِي النَّفْسَ حَتَّى يُعِفَّهَا وَإِنْ مَسَّهَا حَتَّى يُضِرَّ بِهَا الفَقْرُ
وَمَا شِدَّةٌ ، فَاصْبِرْ لَهَا إِنْ لَقِيتَهَا بِدَائِمَةٍ إلا سَيَتْبَعُهَا يُسْرُ (٣)

وأنشدنى محمد بن عبد الله بن زنجىٍّ البغدادىّ : [الطويل]

فَيَارُبَّ كُرْهٍ جَاءَ مِنْ حَيْثُ لَمْ تَخَفْ وَمَسْرُورِ أَمْرٍ بِالَّذِى (٤) أَنْتَ خَائِفُ
تَرَى النَّاسَ ، مَا لَمْ تَبْلُ ، إِخْوَانَ ظَاهِرٍ وَإِنْ تَبْلُ تُنْكِرْ جُلَّ مَا أَنْتَ عَارِفُ (٥)

---

(١) الأمور تجرى بمقدور الله وحكمته ، فما كلُّ ظافر بحاجة ومتنعم بنعمى يُرَدُّ ذلك إلى كَيَاسَته ، وفطنته ، وحيله لا وإنَّمَا هو مقدورُ الله ، وحكمته ، وكذلك من فاتته النِّعم ، وحلَّت بساحته الفَوَاقِر والغمم ، فلا يرد ذلكَ إلى كسله وعجزه . .

إنما هى حظوظٌ وأقدار تَتَعَارَكُ أن تُصيبَ الفتَى ، ولن يغشاه إلا مَا قدَّرَهُ الله ، لَذَا ينبغى عليه أن يجمل فى الطلب ويحسن المطلب ، بعزة نفس ، وقوة بأسٍ ، وتوكل على الله .

(٢) فى الأصل : المدائنى .

(٣) ينبغى على العاقل أن يغتنى ليغنى ، وأن يعفَّ نفسه عن الحرصِ ، والطمعِ ، ويرضى ، فإن صنع ذلك أصَابَ رضا سمن وراحة النفس ، وإن مسه الفقرُ وطوقه الضرُ .

وإن الشدائد إذا حلَّت بساحة الفتى ، فإنها مدفوعةٌ ، وذاهبة وإذ ما من عسرٍ إلا وفى أثره يسرٌ ، وصدق اللهُ إذ يقول :

﴿ إنَّ مع العُسْرِ يُسْرًا إنَّ مَعَ العُسْرِ يُسْرًا ﴾ [الشرح : ٥ ، ٦] وقوله : ﴿ سَيَجْعَلُ اللهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا ﴾ [الطلاق : ٧]

(٤) فى الأصل : فى الذى .

(٥) ألا ربَّ أمورٍ استحبها الفتَى ، وركن إليها ، وَوَدَّ تحصيلها وفيها المكاره والحتوف ، وكذلك ربَّمَا كره الفتى أموراً وأوصد أبوابها وتجنب طلابها ، وفيها السُّرور والحبور : ﴿ وعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا ويجعلِ اللهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا ﴾ [النساء : ١٩] .
=

أنبأنا محمد بن عثمان العقبى ، حدثنا إبراهيمُ بن مهدىٍّ الأُبُلّى ، حدثنى محمد بن يحيى بن أبى عمر ، قال : سمعت سفيان بن عيينة ، وذُكر عنده الفضلُ بن الربيع وضرباؤه ، فأنشأ سفيان يقول : [البسيط]

كَـــمْ مِنْ قَوِىٍّ قَـــوِىٍّ فِي تَقَلُّبِهِ ... مُـــهَذَّبِ الرَّأْيِ عَنْهُ الرِّزْقُ مُنْحَرِفُ
وَمِنْ ضَعِيفٍ ضَعِيفِ العَقْلِ مُخْتَلِطٍ ... كَـــأَنَّهُ مِنْ خَلِيجِ البَحْرِ يَغْتَرِفُ (١)

قال أبو حاتم - رضى الله عنه : من نازعته نفسه إلى القُنوع ، ثم حسد الناس عَلَى ما فى أيديهم ، فليس ذلك لقناعة ولا لسخاوة ، بل لعجز وفشل (٢) ؛ فَمَثَلُه كمثل حمار السَّوء الذى يَفْرَحُ بخفَّة حِمْله ، ويحزَن إذا رأى العَلَفَ يُؤْثَر به ذو القوة والحِمْل الثقيل ، فالقانع الكريم أراح قلبه وبدنه ، والشَّرِهُ اللئيم أتعب قلبه وجسمه ، والكرام أصبر نفوسًا، و(٣) اللئام أصبر أجسادًا .

وأنشدنى عمرو بن محمد ، قال : أنشدنى الغلابىُّ : [الطويل]

لَعَمْـــرُكَ مَا الأَرْزَاقُ مِنْ حِيلَةِ الفَتَى ... وَلا سَبَبٌ (٤) فِى سَاحَةِ الحَىِّ ثَاقِبُ
وَلَكِنَّهَـــا الأَرْزَاقُ تُقْسَـــمُ بَيْنَهُمْ ... فَمَا لَكَ مِنْهَا غَيْرُ مَا أَنْتَ شَـــارِبُ

وأنشدنى محمد بن سعيد ، قال : أنشدنى هلال بن العلاء الباهلىّ : [الطويل]

تَجَمَّـــلْ إِذَا مَا الدَّهْرُ أَوْلاكَ غِلْظَةً ... فَإِنَّ الغِنَى فِى النَّفْسِ ، لا فِى التَّمَوُّلِ
يَـــزِينُ لَئِيمَ القَـــوْمِ كَثْرَةُ مَالِهِ ... وَمَا زَيَّنَ الأَقْوَامَ مِثْلُ التَّجَمُّـــلِ (٥)

حدثنا الحسين (٦) بن سفيان ، حدثنا عبد العزيز بن مُنِيب ، حدثنا محمد بن يحيى الصائغ ، قال : قال الخليل بن أحمد : [المجتث]

= وكذلك الناس كالأمور قد يحلو ظاهرها ، ويبرق ، وإن تخبر الباطن وتسبره لطوقك الحزن والوجوم، ولأنكرت من الظاهر وكفرته . . .

(١) هذان البيتان فى الإرشاد أن الأمور تجرى بقدر الله وأن الأرزاق والأقوات مقدرة ، وكل مصيب ما كتب له .. فيقول : ألا رُبَّ عاقل أخو ذى أريب ، علىٌّ الكعب ، فى الرأى ثاقب ، إلا أنه محروم ، ذو فاقه لا تطرقه الأرزاق ولا تكفيه الأقوات .

ورب ضعيف غرٌّ غفل ، ذى بله وعته ، لكنه ذو سعة قد تيممته الأرزاق ، وتكنفته البركات ، كأنه يغرف من بحرٍ لا قَرار له .

(٢) الفشل : العجز والجبن . (٣) فى الأصل : كما . (٤) في الأصل : نسيب .

(٥) ينبغى على المؤمن الرذان أن يتجمل إذا ما انقلب الدهر عليه بفاقة ، وليعف نفسه ، وليقنع بما عنده ، فإنما الغنى هو غنى النفس - نعم إن كثرة المال زين بل إنها لتزين اللئيم النذل ، ولكن الزين عين الزين هو التعفف والتجمل والترفع عن بذل العرض والدين .

(٦) فى الأصل الحسن .

إنْ لَمْ يكُنْ لَكَ لَحْمٌ　　كَفَـــاكَ خَل وَزَيْتُ

إلا يكُـــنْ ذَا وَهَذَا　　فَكِسْـــرَةٌ وبُيَيْتُ

تَظَـــلُّ فِيهِ وتَأْوِى　　حَتَّى يَجيئَكَ مَـوْتُ

هَـــذَا لَعَمْرِى كَفَافٌ　　فَلا يَغُـرَّكَ لَيْتُ (١)

أنبأنا كامل بن مكرم ، حدثنا محمد بن مروان البَيروتىّ ، حدثنا أبو مُسْهر ، حدثنا سعيد بن عبد العزيز ، عن محمد بن كعب القُرَظِىِّ ، فى قوله تعالى : ﴿ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً ﴾ قال : القناعة ، وبالله التوفيق .

* * *

---

(١) هذه الأبيات الحسان لإمام أهل النحو والصرف والعروض والمعجم بلا مدافع لفخر العربية وعملاقها الأوحد الأفذ : الخليل بن أحمد - عليه سحائب الرحمة - آمين

وهى فى الحث على التعفف والتزهد والقناعة وقد كان - رحمه الله تعالى - عالمًا عاملاً كان يقعد فى كوخ، ويقنع بالقليل ، ويدخل تلاميذه بعلمه على الملوك ، ويسكنون القصور ، ويبنون الدور . . . فيقول :

إذا ما كنت معدمًا لا لحم تملك ، فلا تهلك ، وتتفصص واستقنع بما عندك من القليل ، ولو أنه الخلُّ والزيت ، فنعم الإدام الخل فإن عدمت هذا القليل فترفق أن تضمر أو تتسخط ، واقنع بكسرة خبز زهيدة ، وبكوخ يسترك .

وهكذا الأيام تمضى فعيش دون عيش وبيت دون بيت حتى يعمنا جميعًا الموت .

وهذا هو الزهد الحق ، وهو عين رضا الحق فلا تغتر بمن ساكن الشوامخ وأكل الكامخ ، فإن عاقبته خسرًا .

ذِكْرُ الحَثِّ عَلَى لُزُومِ التَّوَكُّلِ عَلَى مَنْ ضَمِنَ الأَرْزَاقَ

أنبأنا زكريا بن يحيى بن عبد الرحمن الساجيُّ بالبصرة ، حدثنا أبو الربيع الزهرانيّ ، حدثنا المُقْرئ ، حدثنا حَيْوة بن شُرَيح وابن لهيعة ، قالا : حدثنا أبو هانئ حُميد بن هانئ الخَولانيّ ، قال : سمعت أبا عبد الرحمن الحُبُليَّ يقول : سمعت عبد الله بن عمرو بن العاص يقول : سمعت النبى ﷺ يقول : « **قَدَّرَ اللهُ المَقَادِيرَ قَبْلَ أَنْ يَخْلُقَ السَّمٰوَاتِ وَالأَرْضَ بِخَمْسمائَة سَنَة** » (١) .

قال أبو حاتم - رضى الله عنه : الواجب على العاقل لزوم التوكل عَلَى من تكفَّل بالأرزاق ؛ إذ التوكل هو نظام الإيمان ، وقَرين التوحيد ، وهو السبب المؤدِّى إلى نفى الفقر ، ووجود الراحة ، وما توكل أحد على الله - جل وعلا - من صحة قلبه ، حتى(٢) كان الله - جل وعلا - بما تضمن من الكفالة أوثقَ عنده بما حوته يده ، إلا لم يكِلْه الله إلى عباده ، وآتاه رزقه من حيثُ لم يحتسب .

وأنشدنى منصور بن محمد الكُرَيزى : [الطويل]

تَــوَكَّلْ عَلَى الرَّحْمَنِ فِى كُلِّ حَاجَةٍ ... أَردتَّ ؛ فإنَّ اللهَ يَقْضِى وَيَقْـــدِرُ

مَتَى مَا يُرِدْ ذُو العَرْشِ أَمْرًا بِعَبْدِهِ (٣) ... يُصِبْـــهُ ، وَمَا لِلْعَبْدِ مَا يَتَخَيَّرُ (٤)

وَقَـــدْ يَهْلِكُ الإِنْسَانُ مِنْ وَجْهِ أَمْنِهِ ... وَيَنْجُو بِإِذْنِ اللهِ مِنْ حَيْثُ يَحْذَرُ (٥)

---

(١) أخرجه مسلم : (٤/٢٠٤٤) ، كتاب « القدر » ، باب : حجاج آدم وموسى ـ عليهما السلام - حديث : (١٦/٢٦٥٣) ، والترمذى : (٤/٣٩٨ - ٣٩٩) ، كتاب « القدر » ، باب (١٨) ، حديث (٢١٥٦) كلاهما من طريق أبي هانيء الخولانى عن أبى عبد الرحمن الحبلى عن عبد الله بن عمرو بن العاص ، قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : كتب الله مقادير الخلائق قبل أن يخلق السماوات والأرض بخمسين ألف سنة ، قال : وعرشه على الماء . واللفظ لمسلم .

وقال الترمذى : حسن صحيح غريب .

(٢) فى الأصل : إلا . (٣) فى الأصل : لعبده . (٤) فى الأصل : أن يتخير .

(٥) ينبغى على الفتى أن يكل الأُمور لربه ، وأن يقصده حتى إذا انقطع شسع نعله ، فإن الأمر لله وبالله ومن الله ولا حول إلا بالله . فما أن يرد اللهُ بعبده قدرًا إلا كان أمرًا حتمًا ، وحكمًا جزمًا لا رادَّ لقضائه ، ولا معقب لحكمه ولا خيرة للعباد إلا ما أرادَ .

ولا تدرى عواقب الأمور ، فقد تظن الهلكة منجاة ، والنجاة هلكة إنما هى أقدار وغيوب لا يعلمها إلا من عنده مفاتح الغيب سبحانه .

وأنشدنى على بن محمد البسامىّ : [الرمل]

أَحْسِنِ الظَّنَّ بِمَنْ قَدْ عَوَّدَكْ ... كُلُّ إِحْسَانٍ ، وَسَوَّى أَوَدَكْ (١)

إِنَّ مَنْ قَدْ كَانَ يَكْفِيكَ الَّذِى ... كَانَ بِالأَمْسِ سَيَكْفِيكَ غَدَكْ (٢)

أنبأنا محمد بن الحسن بن قُتيبة بعسقلان ، حدثنا أبو مروان الأزرق ، حدثنا الوليد عن ابن جابر ، عن إسماعيل بن عُبيد الله بن أبى المهاجر ، عن أم الدَّرداء ، عن أبى الدرداء ، قال : إن الرزقَ ليطلبُ العبدَ كما يطلبه أجله .

وأنشدنى عبد العزيز بن سليمان لعلى بن أبى طالب - رضى الله عنه - الأبرش : [البسيط]

لَوْ كَانَ فِى صَخْرَةٍ فِى البَحْرِ رَاسِيَةٍ ... صَمَّاءَ مَلْمُومَةٍ مُلْسٍ حَوَالِيهَا

رِزْقٌ لِعَبْدٍ بَرَاهُ اللهُ لانْفَلَقَتْ ... حَتَّى تُؤَدِّىَ إِلَيْهِ كُلَّ مَا فِيهَا

أَوْ كَانَ بَيْنَ طِبَاقِ السَّبْعِ مَطْلَبُهُ ... يَوْمًا لَسَهَّلَ فِى المَرْقَى مَرَاقِيهَا

حَتَّى يَنَالَ الَّذِى فِى اللَّوْحِ خُطَّ لَهُ ... إِنْ هِى أَتَتْهُ ، وَإِلا فَهْوَ آتِيهَا (٣)

وأنشدنى منصور بن محمد الكُرِيزى ، أنشدنى محمد بن الحسين العَمِّى : [السريع]

سَلْ كُلَّ حَاجَاتِكَ (٤) مِنْ سَيِّدٍ ... لَيْسَ لَهُ سِتْرٌ وَلا حَاجِبُ

يُعْطِى عَطَايَاهُ إِذَا شَاءَهَا ... مِنْ غَيْرِ تَوْقِيعٍ إِلَى كَاتِبِ (٥)

---

(١) فى الأصل : عوجك .

(٢) ينبغى على العبد أن يثق بربه ، ويكل إليه أمره فسبحانه كم دفع عن الإنسان من خير وكم سوى له من عوج بلطفه ورحمته : ﴿ وَإِنْ تَعُدُّو نِعْمَةَ اللهِ لا تُحْصُوهَا ﴾ [النحل : ١٨] .

فالله بصير بعباده لطيفٌ بهم خبير بأحوالهم ، هو الذى يسوقك الرزق من حيث لا تدرى ، وقد كفاك ، وأنت فى بطن أمك فالا يكفيك فى عاقبة أمرك .

(٣) ينبغى على العبد أن يوقن بطلب الرزق له كما يطلبه هو ، فلو أن رزقه كان فى قعر بحر على صخرة مصمتة ذى لجّة لكل صاعد عليها ، صعبة المنال وبلوغها من المحال .

وقد قدر الله بعبد رزقًا بها ليأتينه ، وليصبنه ذلك الرزق بما يشاء الله إذْ لا يعجزه شىء فى الأرض ولا فى السماء سبحانه ولو أنه رزقه كذلك ، قد ضمن فى السبع السموات التى لا يعلم مداها إلا الله لأصابه العبد ، وأدركه حتى ولو رقاها الله إليه ، وذلك فى علم الله ، وبقدر الله وما كان مقدوراً ، فحصوله حتمٌ ، وجزمٌ .

(٤) فى الأصل : سائر الحاجات .

(٥) ينبغى على العبد اللجأ إلى ربّه دون خلقه ؛ فالله أكرم من خلقه لا حاجب على عباده عنه إذ قال =

حدثنا محمد بن الحسين (١) بن الخليل بنَسَا ، حدثنا القطَوانى ، حدثنا سنان (٢) ، حدثنا رياح القيسىّ ، قال : إن لله ملائكة مُوكَّلين بأرزاق بنى آدم ، يحملون أرزاقهم عَلَى درجاتهم ، ثم قال : أيُّما عبدٍ من عبادى جعل هَمَّه هَمًا واحدًا ، فضمِّنوا السمواتِ والأرَضين وبنى آدم رِزقه ، وأى عبد طلب رزقه ، فأعطوه رزقه حيث أراد ، فإن تحرى مكاسبه بالعدل ، فطيبوا له رزقه ، وإن تعدَّى إلى الحرام ، فليأخذ من هواه إلى غاية درجته التى ليس فوقها ، ثم حُولوا بينه وبين سائر الدنيا ؛ فلا يأخذَن من حلالها ولا من حرامها فوق الدرجة التى كتبت له .

قال أبو حاتم - رضى الله عنه - : العاقل يعلم أن الأرزاق قد فُرِغ منها ، وتَضَمنها العلى(٣) الوفىُّ ، على أن يُوفرها على عباده فى وقت حاجتهم إليها ، فالاشتغال بالسعى لما تُضُمِّن وتُكُفِّل ، ليس من أخلاق أهل الحزم ، إلا مع انطواء صحة الضمير ، على أنه وإن لم يسع فى قصده ، أتاه رزقه من حيث لم يحتسب .

وأنشدنى محمد بن إسحاق بن حبيب الواسطىّ : [الكامل]

لَمَّا رَأَيْتُكَ قَاعِدًا مُسْتَقْبِلِي ... أَيْقَنْتُ أَنَّكَ لِلْهُمُومِ قَرِينُ
فَارْفُضْ لَهَا وَتَعَرَّ عَنْ (٤) أَثْوَابِهَا ... إِنْ كَانَ عِنْدَكَ لِلْقَضَاءِ يَقِينُ
هَوِّنْ عَلَيْكَ ، وَكُنْ بِرَبِّكَ وَاثِقًا ... فَأَخُو التَّوَكُّلِ شَأْنُهُ التَّهْوِينُ
طَرَحَ الأَذَى عَنْ نَفْسِهِ فِى أَمْرِهِ ... مَنْ كَانَ يَعْلَمُ أَنَّهُ مَضْمُونُ (٥)

= ﴿ ادعونى استجب لكم ﴾ [غافر : ٦٠] ، ومن داوم قرع باب ربه ، واستغفر من ذنبه ، وحسنت نيته وطهر طويته أُعطِىَ عطاء لا ينفد من غير كلفة ، ولا شُقَّة فسبحانه إذ يقول : ﴿ أليس اللهُ بكافٍ عبده﴾ [الزمر : ٣٦] بلى يا ربى أنت الكافى والباقى سبحانك جَلّ جلالك ، وصدق القائل :

لا تسألن بُنَىَّ آدم حاجة ... وسل الذى أبوابه لا تحجب
الله يغضب إن تركت سؤاله ... وبنى آدم حين يسأل يغضب

(١) فى الأصل : الحسن .
(٢) فى الأصل : سيار .
(٣) فى الأصل : الولى .
(٤) فى الأصل : من .
(٥) هذه الأبيات الحسان كأنى بالشاعر يخاطبنا على لسان الرزق فيقول : يا من ركبه الهمُّ واعتلاه الغم ، وأرصد نفسه ، واحتال على صيد رزقه هون عليك ودافع الهموم .
ولتخلع عنك أثوِبَةَ الطمع ؛ لأنها ألبسة هم وحزن وتيقن بقضاء ربك فهو حق لا ريب فيه .
واعلم أن المتوكل قرين راحة بال ، مطمئن النفس ، قرير العين ؛ لأنه قد وثق بربه ، ورضى بقضائه وحكمه .
ومن كان واثقًا بربه راضيًا بقضائه ، فهو الفائز الظافر لراحة نفسه ورضا ربه ، ومجىء رزقه . .

حدثنا أبو خليفة ، حدثنا محمد بن كثير ، أنبأنا سفيان الثورىُّ ، عن أبى قيس ، عن هُذيل (١) بن شُرحبيل ، قال : جاء سائل إلى النبىّ ﷺ ، وفى البيت تمرة ، فقال رسول الله ﷺ : « هَاكَ ، لَوْ لَمْ تَأتها ، أَتَتْكَ » .

وأنشدنى المنتصر بن بلال الأنصارىّ : [الطويل]

فَنَحْـــنُ بِتَوْفِيقِ الإِلَهِ وَأَمْـــرِهِ عَلَى كُلِّ حَالٍ أَمْرُنَا مُتَوَاسِـــعُ
عَطَـــاءُ مَلِيكٍ لا يُمَنُّ عَطَاؤُهُ خَبِيرٌ بِمَا تُحْنَى عَلَيْه الأَصَالِعُ (٢)

أنبأنا محمد بن إبراهيم الشافعىُّ ؛ حدثنا داود بن أحمد الدمياطى ، حدثنا عبد الرحمن ابن عفان ، قال : سمعت الفُضَيل بن عِياض يقول : ما اهتممت لرزق قَطُّ .

قال أبو حاتم – رحمة الله عليه : الواجب عَلَى العاقل أن يعلم أن السبب الذى يُدرك به العاجز حاجته ، هو الذى يحول بين الحازم وبين مصادفته ، فلا يجب أن يحزن العاقل لما يهوَى وليس بكائن ، ولا لما لا يهوَى وهو لا محالة كائن ، فما كان من هذه الدنيا للمرءِ ، أتاه من غير تعب فيه ، وما كان عليه لم يدفعه بقوته ، ولا يُدرِك بالطلب المحرومُ ، كما لا يحرمُ بالقعود المرزوق .

ولقد أحسن الذى يقول : [الطويل]

يَنَالُ الْغِنَى مَنْ لَيْسَ يَسْعَى إِلَى الْغِنَى وَيُحْـــــرَمُ مَنْ يَسْعَى لَهُ وَيُدَاوِمُ
وَمَا العَجْزُ يَحْرِمُهُ وَلا الحِرصُ جَالِبٌ وَمَـــا هُوَ إِلا حِظْوَةٌ وَمَقَاسِـــمُ (٣)

وأنشدنى عمرو بن محمد الأنصارىّ ، قال : أنشدنا الغلابىّ ، قال : أنشدنا العتبىُّ : [الوافر]

---

(١) فى الأصل : هزيل .

(٢) هذه الأبيات يهتف صاحبها بالإيمان ، والثقة بالله فيقول : الحمد لله على توفيقه وتبصيره لنا بأن توكلنا عليه ، وفوضنا أمورنا إليه ، فأصبنا راحة البال ، وقرارة البلبال فنحينا الضيق إلى السعة .

وقد بثثنا همومنا لربنا فهو العليم الحكيم ، عالم السر وأخفى خبير بما فى الجوانح من الحاجات ، والمطلعات ، وعطاؤه لا دافع له ، ولا حدَّ لفضله سبحانه الكريم الوهاب .

(٣) إنما الغنى على الحقيقة من قرت عينه بالرضاء عن ربه وأيقن بمجىء رزق ربه إليه مع أخذه بالأسباب ، والتوكل على الوهاب ومن كان سعاء لا يمل ، ولا يكل ولا يصرف الأمر لربه فهو المحروم المكلوم قرين الحزن والغموم .

إذ الرزق مكتوب ، وهو طالب ، ومطلوب ، فلا الحرص يكثره ويعجله ، ولا التوانى يصرفه ويقله، وإنما هى أقدار وكل يجرى بمقدار .

وَرِزْقُ الخَلْقِ مَقْسُومٌ عَلَيْهِمْ مَقَادِيرٌ يُقَدِّرُهَا الجَلِيلُ
فَلا ذُو المَالِ يُرْزَقُهُ بِعَقْلٍ وَلا بِالمَالِ تُقْتَسَمُ (١) العُقُولُ (٢)

أنبأنا الهيثم بن خلف الدُّورى ببغداد ، قال : سمعت إسحاق بن موسى الأنصارىّ يقول : سمعت يَمان النجرانىّ (٣) ، وكان لا يدخر شيئًا ، يقول : مررت براهب فى قارعة (٤) فَلاة من الأرض ، وأنا جائع ، فقلت : يا راهب ، هل عندك من فضل ؟ فأدلى إلىّ زَنبيلاً فيه فِلَق من خبز ، فأكلت منها ، ورمَيت إليه بالباقى ، فقال : تزوده، قلت : الذى أطعمنى فى هذا الموضع وليس فيه إنسى ، يطعمنى إذا جعت ولا يكون معى شىء .

وأنشدنى ابن زنجىّ البغدادى : [السريع]

لا تَتَّهِمْ رَبَّكَ فِيمَا قَضَى وَهَوِّنِ الأَمْرَ ، وَطِبْ نَفْسَا
لِكُلِّ هَمٍّ فَرَجٌ عَاجِلٌ يَأْتِى عَلَى المُصْبِحِ والمُمْسَى (٥)

قال أبو حاتم - رضى الله عنه : التوكل هو قطع القلب عن العلائق ، برفض الخلائق ، وإضافته بالافتقار إلى مَحوِّل الأحوال ، وقد يكون المرء مُوسِرًا فى ذات الدنيا وهو متوكل صادق فى (٦) توكله ، إذا كان العدم والوجود عنده سِيَّان ، لا فرق عنده بينهما ، يشكر عند الوجود ، ويرضى عند العدم . وقد يكون المرء لا يملك شيئًا من الدنيا بحيلة من الحيل ، وهو غير متوكل ، إذا كان الوجود أحبَّ إليه من العدم ، فلا هو فى العدم يرضَى حالته ، ولا عند الوجود يشكر مرتبته .

وأنشدنى الكريزىُّ : [الطويل]

وَلَوْ كَانَتِ الدُّنْيَا تُنَالُ بِفِطْنَةٍ وَفَضْلِ عُقُولٍ نِلْتُ أَعْلَى المَرَاتِبِ

---

(١) فى الأصل : يقتسم .

(٢) إنما الرزق مكتوب عند الله تعالى ، كل امرئ ورزقه ، وهو من قسم الله للعبد من حرصه وسعيه.

فلا العقل زائد للعبد فى رزقه ، ولا تتصرف العقول فى الأرزاق إنماهى قسمة الكريم الخلاق .

(٣) فى الأصل : البحرانى . (٤) فى الأصل : قاع .

(٥) ينبغى على المؤمن أن يرضى بقضاء ربه ويسلم لحكمته فلا يضجر ، ولا يفخر وليطب نفسًا بقضاء الله وحكمته .

فإما طرقه هم ، فليفرغ لربه وليوقن بذهاب همه إذ مع العسر يسرٌ ومع الضيق فرجٌ .

(٦) فى الأصل : ففى .

وَلَكِنَّهَـــا الأَرْزَاقُ حَـظٌّ وَقِسْمَةٌ ... بِمِلْكِ مَلِيكٍ ، لا بِحِيلَةِ طَالِبِ (١)

أنشدنا عمرو بن محمد الأنصارىّ ، أنشدنا الغلابىُّ ، أنشدنا مهدىُّ بن سابق : [البسيط]

أَلا تَرَى الدَّهْرَ لا تَفْنَى عَجَائِبُهُ ؟ ... وَالدَّهْرُ يَخْلِطُ مَيْسُوراً بِمَعْسُورِ (٢)

وَلَيْسَ لِلَّهْوِ (٣) إلا كُلُّ صَـــافِيَةٍ ... كَأَنَّهَا دَمْعَةٌ مِنْ عَيْنِ مَهْجُــورِ (٤)

أنبأنا على بن سعيد العسكرىّ ، حدثنا إبراهيم بن الجنيد ، حدثنا سهل بن عاصم ، حدثنا نافع بن خالد ، قال : دخلنا عَلَى رابعة العدوية ، فذكرنا أسباب الرزق ، فخضنا فيه وهى ساكتة ، فلما فرغنا قالت رابعة : خيبةٌ لمن يدعى حبَّه ، ثم يتهمه فى رزقه !

قال أبو حاتم – رضى الله عنه : قد ذكرت هذا الباب بالعلل والحكايات على التقصىّ فى كتاب « التوكل » ، فأغنى ذلك عن تكْرارها فى هذا الكتاب .

* * *

---

(١) هذان البيتان فى التنبيه على التوكل وأن الأمور بمقادير الله وقد مضى بمعناها الكثير فيقول :
فليعلم العاقل أن الدنيا وحظوظها لا تُنَال بدهاء وحنكة إذْ لو كانت كذلك لصار كل لبيب مثل قارون .

ولكنها حكمة الله وأقداره لا بسعى العبد وأنصاره وحِيَلِه . .

(٢) ينبغى للعاقل أن يفطن لحوادث الدُّهور ، وتقلبها ، وإذا ما لاحظها فليبصرها ببصيرته ، ولينتفع بعبرتها ، فالسعيد من وُعِظَ بغيره ، والشقى من شقى فى بَطْنِ أُمِّهِ . . . والدَّهْرُ لا يبقى على حال ، إنما هو خابط يخلط العسر باليسر . .

(٣) فى الأصل : للهم .

(٤) وهذا البيت فيه مذاهب – أرجح منها – أنَّ اللهو يريد الصفاء دون كدرٍ ، حَتَّى كأن صفاء هو صفاء الماء المتحدر من الباكى المهجور ، وذلك فى الدُّنيا من المحال إذ قد اختلط صفاؤها بكدرها وعسرها بيسرها .

ذِكْرُ الحَثِّ عَلَى لُزُومِ الرِّضَا بِالشَّدَائِدِ ، وَالصَّبْرِ عَلَيْهَا

أنبأنا أحمد بن على بن المثنى بالموصل ، حدثنا أحمد بن جمل المَرْوَزِىّ ، حدثنا ابن المبارك أنبأنا عمر بن حبيب ، عن القاسم بن أبى بَزَّة ، عن سعيد بن جبير ، عن ابن عباس ، قال : قال رسول الله ﷺ : « أَوَّلُ مَا خَلَقَ اللهُ القَلَمَ ثُمَّ أَمَرَهُ فَكَتَبَ مَا يَكُونُ إِلَى يَوْمِ القِيَامَةِ » (١) .

قال أبو حاتم - رضى الله عنه - : الواجب على العاقل أن يعلم أن الأشياء كلها قد فُرغ منها ، فمنها ما هو كائن لا محالة يكونُ ، وما لا للخلق فى تكوينه (٢) ، فإن دفعه الوقت إلى حال (٣) شدة ، يجب أن يتَّزر بإزار له طَرَفان : أحدهما : الصبر ، والآخر: الرضا ، ليستوفى كمال الزخر بفعله ذلك ، فكم من شِدَّة قد صعُبت (٤) وتعذر زوالها على العالم بأسره ، ثم فُرج عنها السهل (٥) فى أقل من لحظة .

---

(١) أخرجه أبو يعلى : (٤/٢١٧) ، رقم (٢٣٢٩) ، والبيهقى فى « سننه » : (٩/٣) ، كتاب «السير»، باب : فى مبتدأ الخلق ، وفى « الأسماء والصفات » (ص ٣٧٨) ، وابن أبى عاصم فى «السنة » : (١/ ٥٠) ، كلهم من طريق ابن المبارك عن عمر بن حبيب عن القاسم بن أبى بزَّة عن سعيد بن جبير ، عن ابن عباس مرفوعًا .

ومن هذا الطريق أيضًا أخرجه أبو نعيم فى « الحلية » : (٨/١٨١) ، والحديث ذكره الحافظ ابن حجر فى « المطالب العالية » : (٣/٧٨) ، رقم (٢٩٢٨) ، وعزاه لأبى يعلى .

وللحديث طريق آخر عن ابن عباس لكنه موقوف ، أخرجه البيهقى فى « سننه » : (٩/٣) ، كتاب: « السير » ، باب : فى مبتدأ الخلق ، وفى « الأسماء والصفات » (ص ٣٧٨) والطبرى فى «تفسيره»: (٢٩/١٤) كلهم من طريق الأعمش عن أبى ظبيان ، عن ابن عباس ، قال : إن أول ماخلق الله - عَزَّ وَجَلَّ - من شىء القلم ، فقال : اكتب ، فقال : يا رب وما أكتب ؟ قال : اكتب القدر فجرى بما هو كائن من ذلك اليوم إلى قيام الساعة ، وللحديث شاهد من حديث عبادة بن الصامت .

أخرجه أحمد : (٥/٣١٧) ، وأبو داود : (٢/٦٣٧ - ٦٣٨) ، كتاب « السنة » ، باب : الدليل على زيادة الإيمان ونقصانه ، حديث (٤٧٠) ، والترمذى : (٤/٣٩٨) ، كتاب « القدر »، باب : ١٧، حديث (٢١٥٥) ، والطيالسى : (١/ ٣٠ - منحة) رقم (٥٣) ، والآجرى فى « الشريعة » (١٧٧) ، وابن أبى عاصم فى « السنة » : (١/٤٨) رقم (١٠٢ ، ١٠٣ ، ١٠٤) ، من طرق عن عبادة بن الصامت .

(٢) في الأصل : تكوينها .

(٣) فى الأصل : حالة .

(٤) فى الأصل : صحبت .

(٥) فى الأصل : المسهل .

ولقد أنشدنى محمد بن إسحاق بن حبيب الواسطىّ : [الرمل]

كَـمْ مِنَ أمرٍ قَدْ تَضايَقْتُ بِهِ ... فَأتَانِى اللهُ مِنْهُ بِالفَــــرَجْ
وبَعِــيدٍ مُوءَسٍ قَــرَّبَهُ ... قَدَرُ اللهِ ، فَعَادَ بالبَهَــجْ
وكَـــذَاكَ اللهُ رَب قَــادرٌ ... يُصْلِحُ الأمْرَ الَّذى فِيهِ عِوَجْ(١)
فَـــلَهُ الحَمْدُ عَلَى ذَا سَرْمَدًا ... مَا أضَاءَ الصُّبْحُ يَوْمًا أوْ بَلَجْ
وَلَهُ الحَمْــــدُ عَلَى آلائِهِ ... يَسْتَدِيمُ اليُسْرَ مِنْهُ وَالفَلَجْ (٢)

حدثنا أبو خليفة ، حدثنا محمد بن كثير ، أنبأنا سفيان عن أبى إسحاق ، عن أبى الحجاج الأزدىّ ، قال : سألنا سَلْمان ، ما الإيمان بالقدَر ؟ قال : إذا علم العبد أن ما أصابه لم يكن ليخطئه .

وأنشدنى الأبرش : [السريع]

هَوِّنْ عَلَى نَفْسِكَ مِنْ سَعْيِهَا ... فَلَيْـــسَ مَا قُــدِّرَ مَرْدُودُ
وَارْضَ بِحُكْمِ اللهِ فِي خَلْقِـهِ ... كُلُّ قَضَاءٍ مَحْمُــــودُ (٣)

أنبأنا عبد الله بن قحطبة الطرحىّ (٤) ، حدثنا منصور بن قُدامة الواسطىّ ، حدثنا محمد

---

(١) فى الأصل : هذا البيت مقدم على الذى قبله .

(٢) هذه الأبياتُ فى ذكر فتوح الله وكشفه الكُرَب فيقول : كم من أمورٍ ضاق المرء بها ذرعًا ، وانتضج منها غيظًا ، وهمًا ، ثم حلَّ به الفرح واليسر بفضل من الله ورحمة .

وكم من عبد ضلَّ ، وعن النَّهجة السوية ذلَّ ، وكان من المحال عودة فتفضل الله عليه ورده بالحسنى إليه ، وأعاده خير عودٍ فضلاً منه ورحمة .

والحمد لله على هذه المياسر والفُرَجِ - أحمد دائمًا أبدًا ما كان ليلٌ يحلُّ وفجر يتفجر ، وصبحُ ينبلجُ .

وهكذا أمور الله ، وتصاديفه ما بين طرفة عين وانتباهتها يبدِّلُ الله من حالٍ إلى حَالٍ ، فيصلح ما فَسَدَ ، وينبت ما وُئِدَ ، ويربح ما كسد ، فلله الحمد حمدًا يوافى نعمه ، ويباركها ويُدِرُّهَا لا انقطاع له . . .

(٣) ينبغى على العبد أنْ يتَّئِدَ فلا يَعْجَلَ ، ويستوطن الرِّضا والصَّبْر ، فلا يجزع إذ كلُّ شىءٍ بقضاء وقدر ، ولا رادَّ لحكم الله .

وليرضى العبدُ بحكم ربِّه ، وليعلم أنَّهُ إلى خيرٍ وصلاحٍ ، فالله لطيف بعباده ، ولله أرحمُ بعبده من امرأةٍ عطوفٍ بولدها الصَّغير ، وهو البرُّ الرحيم .

(٤) فى الأصل : الصلحى .

ابن كثير ، عن معمر ، قال : لما حاصر الحجاجُ ابْنَ الزُّبير بمكة ، جعلت الحجارة تضرب الحائط ، فقيل له : إنا لا نأمن عليك أن يصيبك منها حجر ، فقال ابن الزبير : [المتقارب]

هَــوِّنْ عَلَيْكَ ؛ فَإِنَّ الأُمُورَ ... بِكَفِّ الإِلَهِ مَقَـــــادِيرُهَا

فَلَيْـــــسَ بِآتِيكَ مَنْهِيُّهَـــا ... وَلا يَتَأَخَّرُ عَنْكَ مَأْمُورُهَا (١)

أنبأنا عمرو بن محمد الأنصاريّ ، حدثنا الغلابيُّ ، حدثنا إبراهيم بن بشار الرماديّ، حدثنا سفيان عن مِسْعَر ، أن رجلاً ركب البحر ، فكُسِر به ، فوقع في جزيرة من جزائر البحر ، فمكث فيها ثلاثًا لا يرى أحدًا ، ولا يأكل طعامًا ، ولا يشرب شرابًا، فأيِس من الحياة ؛ فتمثَّل : [الوافر]

إِذَا شَابَ الغُرَابُ أَتَيْتُ أَهْـلِي ... وَصَارَ القَارُ كَاللَّبَنِ الحَلِيبِ (٢)

فأجابه مجيب يقول : [الوافر]

عَسَى الكَرْبُ الَّذِى أَمْسَيْتَ فِيهِ ... يَكُـــونُ وَرَاءَهُ فَرَجٌ قَرِيبُ (٣)

فنظر ، فإذا سفينة في البحر ، فلوَّح لهم ، فأتوه ، فحملوه ، وأصاب معهم خيرًا ، ورجع إلى أهله سالمًا .

وأنشدني محمد بن جعفر الهَمَذاني بصُورَ ، على ساحل بحر الروم : [الخفيف]

لا تَضِيقَنَّ فِى الأُمُورِ ؛ فَقَـــدْ ... تُكْشَفُ (٤) غَمَّاؤُهَا بِغَيْرِ احْتِيَالِ

رُبَّمَا تَكْرَهُ النُّفُـــوسُ مِنَ الأَمْـ ... ـرِ ، لَهُ فَرْجَةٌ كَحَلِّ العِقَالِ (٥)

---

(١) هذان البيتان في معنى الأبيات السابقة تمامًا ، فهو يدعو للصبر والتريث وإيطان النفس على الرضا بقضاء الله إذْ كل مكتوب نافذ وكل قضاءٍ مُقدَّر واقع ، فلا رادَّ لحكم الله ، ولا دافع له .

(٢) هذا البيت في السأم واليأس من النجاة ، فيقول : « إني لفي حيص بيص » ما عنه منجاة إذ انقطع عني الطريق ، وافتقدت الرفيق ، وهيهات النجاةُ إلا أن يشيب الغراب ، وأن يصير القار الأسود لبنًا حليبًا أبيضًا وهيهات هيهات ، وضُرب هذا المثل للاستحالة .

(٣) وهذا البيت يفارق سابقه تمامًا وتفوح منه روائح الفرج والجسارة فيقول :
يا عبدَ الله اصبر واستعن بربك ، وأحسن الثقة به ، فقد يبدل حالك المكروب إلى فرج وسعة وفتح ، وما ذلك ببعيد ، وحقا فقد صار إلى ما فيه الخير والقرار . .

(٤) في الأصل : يكشف .

(٥) ينبغي على العبد ألا يميت نفسه حرصًا وكمدًا عند ضيق الأمور وتأزمها فقد يكشفها الله بغير سبب وعنت ، والله على كلِّ شيءٍ قدير .

=

وأنشدنى المنتصر بن بلال الأنصارىّ : [الطويل]

عَسَى فَرَجٌ يَأْتِى بِهِ اللهُ ؛ إِنَّهُ لَهُ كُلَّ يَوْمٍ فِى خَلِيقَتِهِ أَمْرُ
عَسَى مَا تَرَى أَلا يَدُومَ ، وَأَنْ تَرَى لَهُ فَرَجًا مِمَّا أَلَحَّ بِهِ العُسْرُ
إِذَا اشْتَدَّ عُسْرٌ فَارْجُ يُسْرًا ؛ فَإِنَّهُ قَضَى اللهُ أَنَّ العُسْرَ يَتْبَعُهُ اليُسْرُ (١)

أنبأنا محمد بن صالح الطبرىّ بالصَّيمرة ، حدثنا محمد بن عثمان العجْلىّ ، قال : لما حدَّث شَرِيك بحديث الأعمش ، عن سالم ، عن ثَوْبان : أن النبى ﷺ قال : «استقيموا لقريش ما استقاموا لكم ، فإذا خالفوكم فضعوا سيوفكم على عواتقكم ، فأبيدوا خضراءهم ، فإن لم تفعلوا فكونوا زرَّاعين أشقياء » . فسُعِىَ به إلى المهدىّ ، فبعث إلى شَرِيك ، فأتاه ، فقال : حَدثتَ بها ؟ قال : قلت : نعم ، قال : عمن روَين؟ قلت : عن الأعمش ، قال : ويْلى عليه ! لو عرفتُ مكان قبره لأخرجته ، فأحرقته بالنار ، قلت : إن كان لمأمونًا على ما روَى . قال : يا زنديق ، لأقتلنَّك ، فقلت : الزنديق من يشرب الخمر ، ويَسْفِكُ الدم ؛ قال : والله لأقتلنَّك . قلت : أَوْ يكْفِى الله ! قال : فخرجنا من عنده ، فاستقبلنى الفضلُ بن الربيع ، فقال : ليس لك موضع تهرُب إليه ؟ قلت : بلى ، قال : فإنه قد أمر بقتلك، قال : فخرجت إلى جبَلٍ، فخرجت يومًا أتحسَّس الخبر ، فأقبل ملاح من بغداد ، فاستقبله مَلاح آخر من البصرة ، فسأله : ما الخبر ؟ قال : مات أمير المؤمنين . قلت : يا ملاح ، قرِّب ، فقرَّب .

وأنشدنى منصور بن محمد الكُرِيزىُّ : [البسيط]

تَجْرِى المَقَادِيرُ إِنْ عُسْرًا وَإِنْ يُسُرًا وَلِلْمَقَادِيرِ أَسْبَابٌ وَأَبْوَابُ
مَا اشْتَدَّ عُسْرٌ ، وَلا انْسَدَّتْ مَذَاهِبُهُ إِلا تَفَتَّحَ مِنْ مَيْسُورِهِ بَابُ (٢)

= فقد تشرف النفس على الهلاك والردى ثم الأمر ميسور يُسْرُهُ يسابق عسرَهُ ليكشفه ويفضه فيبدل الضيق سعة والكرب فرجًا . .

(١) هذه الأبيات تهتف بمن حلّ بساحته البلايا وغشته الرزايا أن يفوض أمره لربه وألا ييأس ويبأس من فرج الله القريب فيقول : يا من تكنفته الهموم وطرقته الغموم لا تضجرن وثق بربك فإنه يجعل بعد العسر ميسرةً إذْ كل يوم هو فى شأن .

فما تراه قد يبيد ولا يعود فى طرفة العين فترى عقباه يسرًا ونُجْحًا ، فإما تأزمت الأمور وصغر الوطاب ، وبلغت الحلقوم فأيقن بالفرج إذ قضى الله أن يجيب المضطر إذا دعاه وأن مع العسر يسرًا .

(٢) فليعلم العاقل أن مقادير الله نافذة صائبة ، لا دافع لها ولا شافع دونها وهى تنفذ فى الخلائق بالعسر واليسر والضيق والفرج .
=

وأنشدني محمد بن عبد الله بن زنجيٍّ البغداديّ : [الطويل]

أَلا رُبَّ عُسْرٍ قَدْ أَتَى اليُسرُ بَعْدَهُ ... وَغَمْـــرَةِ كَرْبٍ فُرِّجَتْ لِكَظِيـــمِ

هُوَ الدَّهْرُ : يَوْمٌ يَومُ بُؤْسٍ وَشِدَّةٍ ... وَيَوْمُ سُـــرُورٍ لِلفَتَى وَنَعِيـــمِ (١)

أنبأنا أبو عَوانة يعقوب بن إبراهيم ، حدثنا محمد بن عبد الوهاب النيسابورى ، حدثنا بشر بن عبد الحكم ، عن عليِّ بن عثّام (٢) ، قال : رُئِي إبراهيم بن أدهم متنفِّطَ الرجلين ، رافعهما على ميل ، وهو يقول : ﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّى نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَنَبْلُوَا أَخْبَارَكُمْ ﴾ [محمد : ٣١] .

أنبأنا القطان بالرقَّة ، حدثنا أحمد بن أبي الحَوَارِيّ (٣) ، حدثنا عبد العزيز بن عمير، عن عطاء الأزرق ، عن عبد الواحد بن زيد ، قال : قلت للحسن : يا أبا سعيد ، مِن أين أُتِيَ هذا الخلق ؟ قال : من قلة الرضا عن الله ، قلت : ومن أين أُتُوا [مِنْ] (٤) قلة الرضا عن الله ؟ قال : من قلة المعرفة بالله .

قال أبو حاتم - رضى الله عنه - : يجب على العاقل إذا كان مبتدئًا ، أن يلزم عند ورود الشدة عليه سلوك الصبر ، فإذا تمكن منه حينئذ يرتقى من درجة الصبر إلى درجة الرضا ، فإن لم يرزق صبرًا فليلزم التصبُّر ، لأنه أول مراتب الرضا ، ولو كان الصبر من الرجال لكان رجلاً كريمًا ؛ إذ هو بَذْر الخير ، وأساس الطاعات .

ولقد أخبرنى محمد بن سعيد القزاز ، حدثنا طاهر بن الفضل بن سعيد ، حدثنا سفيان بن عيينة ، قال : سمعت رجلاً من أهل الكتاب أسلم قال : أوحى الله إلى داود: يا داود اصبر على المَئُونَةِ ، تأتك (٥) منى المعونة .

وأنشدني عبد الله بن الأحوص بن عمار القاضى : [البسيط]

صَبْرًا جَمِيلاً عَلَى مَا نَابَ مِنْ حَدَثٍ ... وَالصَّبْرُ يَنْفَعُ أَقْوَامًا إِذَا صَبَـــرُوا

= وما اجتاح امرأ عُسْرٌ وحلَّ ببابه إلا وتبعه اليسر طارقًا كل الأبواب فضلاً من الله ومِنَّةً .

(١) هذان البيتان فى معنى سابقهما كذلك ، فهما فى الدعوة إلى التفاؤل والرضى بقضاء الله فيقول: ربَّ يوم يحيق بالمرء يجرعه الغيظ والعسر والشقة ، ثم نسخه يوم هنيء مريء قبل الصدى ، وأذهب الردى وأنار الدجى .

وهذا هو حال الدَّهر لا يبقى على حاله بل أيامه أزواج أيام رخاء وهناء وأيام عسر وشقاء . .

(٢) فى الأصل : هشام .

(٣) فى الأصل : الجوارى .

(٤) سقط فى الأصل .

(٥) فى الأصل : يأتيك .

اَلصبْرُ أفْضَـــلُ شَىْءٍ تَسْتَعِينُ بِهِ   عَلَى الزَّمَانِ إِذَا مَا مَسَّكَ الضَّرَرُ (١)

وأنشدنى إبراهيم بن محمد بن سهل قال : أنشدنى أبو يعلَى الموصلىّ : [البسيط]

إِنِّي رَأَيْتُ وَفِى الأَيَّامِ تَجْـــرِبَةٌ   لِلصبْرِ عَاقِبَةً مَحْمُـــودَةَ الأَثَـــرِ

وَقَـــلَّ مَنْ جَدَّ فِى شَىْءٍ يُحَاوِلُهُ (٢)   فَاسْتَصْحَبَ الصَّبْرَ إِلا فَازَ بِالظَّفَرِ (٣)

وأنشدنى عبد العزيز بن سليمان الأبرش : [الوافر]

أَتَاكَ الرَّوْحُ وَالفَـــرَجُ القَرِيبُ   وَسَاعَدَكَ القَضَاءُ ؛ فَلا تَخِيبُ

صَبَرْتَ ، فَنِلْتَ عُقْبَى كُلِّ خَيْرٍ   كَـذَاكَ لِكُلِّ مُصْطَبِرٍ عَقِيبُ (٤)

أنبأنا عمرو بن محمد الأنصارى ، حدثنا الغلابىُّ ، حدثنا محمد بن على قال : سمعت مضر أبا سعيد يقول : قال عبد الواحد بن زيد : ما أحببت أن شيئًا من الأعمال يتقدم الصبْر إلا الرضا ، ولا أعلم درجة أشرف ولا أرفع من الرضا ، وهو رأس المحبة.

قال أبو حاتم - رضى الله عنه : الصبر جِمَاع الأمر ، ونظام الحزْم ، ودِعَامة العقل ، وبَذر الخير ، وحيلة من لا حيلة له .

---

(١) فليصبر العاقل جميل الصبر إذْ إنه يفضى إلى الفرج والظفر كما قال النبى ﷺ : « وأن النصر مع الصبر وأن مع العسر يسرًا » ، وكما قال الله تعالى : ﴿ إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [الزمر] .

والصبر خير عدة يعتدها المرء وخير زاد ينفق منه حين المعسرة والمخسرة وجنوح الدهر بالريب .

(٢) فى الأصل : يطالبه .

(٣) هذان البيتان كسابقيهما تمامًا فى امتداح الصبر ولزومه فيقول :

إذا تدبر العاقل غبَّ أمر الصبر ، فإنه يبصرها بيضاء معلاة يلوح منها نور الفرج وحسن الأثر والعقبى .

وهكذا كل من دام عليه وفهمه فاحتذى الصبر ، وركب سفينه فإنه حقيق أن يظفر بحاجته ، وأن يبلغ منيته . وصدق الله إذ يقول : ﴿ وجعلناهم أئمةً يهدون بأمرنا لما صبروا ﴾ [الحج] .

وصدق القائل :

أخلق بذى الصبر أن يحظى بحاجته   ومـــد من القَرْعِ للأبواب أن يلجا

(٤) هذان البيتان الطيبان فى ذكر عقبى الصبر والثناء على لزومه كذلك فيقول :

يا من نلت الظَفَرَ والنُّجْحَ ، وقد حلَّ بك فضل الله فحظيت بالنعمى أنت منصور مأجورٌ فلن تخيب أبدًا .

وما ذاك إلا لأنك صبرت نعم الصبر ، وبذلت الجهد وما استأخرت فَقَمِنٌ بك ما حلَّ بواديك ، وكذلك من انتهج نهجك ، فإنه مظفرمُعلَّى وارثٌ لنعم عقبى .

وأول درجته الاهتمام ، ثم التيقُّظ ، ثم التثبُّت ، ثم التصبُّر ، ثم الصبر ، ثم الرضا، وهو النهاية فى الحالات .

ولقد أنبأنا محمد بن عثمان العقبى ، حدثنا شعيب بن عبد الله (١) البزار (٢) ، حدَّثنا غَيلان ، عن (٣) معبد ، عن أبى المُلَيح ، عن ميمون بن مِهران ، قال : « ما نال عبد شيئًا من جسيم الخير ، [من] (٤) نبىٌّ أو غيره ، إلا بالصبر » .

وأنشدنى المنتصر بن بلال الأنصارىّ : [الطويل]

فَمَا شِدَّةٌ يَوْمًا ، وَإِنْ جَلَّ خَطْبُهَا ... بِنَازِلَةٍ إِلا سَيَتْبَعُهَا يُسْرُ
وَإِنْ عَسُرَتْ يَوْمًا عَلَى المَرْءِ حَاجَةٌ ... وَضَاقَتْ عَلَيْهِ كَانَ مِفْتَاحَهَا الصَّبْرُ (٥)

وأنشدنى على بن محمد (٦) البسَّامى : [الطويل]

تَعَزَّ ؛ فَإِنَّ الصَّبْرَ بِالحُرِّ أَجْمَلُ ... وَلَيْسَ عَلَى رَيْبِ الزَّمَانِ مُعَوَّلُ
فَإِنْ تَكُنِ الأَيَّامُ فِينَا تَبَدَّلَتْ ... بِنُعْمَى وَبُؤْسَى ، وَالْحَوَادِثُ تَفْعَلُ
فَمَا لَيَّنَتْ مِنَّا قَنَاةً صَلِيبَةً ... وَلا ذَلَّلَتْنَا لِلَّذِى لَيْسَ يَجْمُلُ
وَلَكِنْ رَحَلْنَاهَا نُفُوسًا كَرِيمَةً ... تُحَمَّلُ مَا لا تَسْتَطِيعُ فَتَحْمِلُ (٧)

وأنشدنا عمرو بن محمد الأنصارىّ قال : أنشدنا الغلابىُّ : [الطويل]

وَإِنِّى رَأَيْتُ الخَيْرَ فِى الصَّبْرِ مُسْرِعًا ... وَحَسْبُكَ مِنْ صَبْرٍ تَحُوزُ بِهِ أَجْرَا

---

(١) فى الأصل : عبد الله بن محمد . (٢) فى الأصل : البزاز .
(٣) فى الأصل : على بن . (٤) سقط فى الأصل .
(٥) ينبغى على العاقل ألا يجزع وألا يفزع إذْ ما من غاشية ، وإن جلّ وقعها ، وعظم خطبها تحيق به إلا وسيكشفها اليسر والفرج - كذلك إذا ما عسرت على المرء مطلبة وأعجمته مأربة وضاقت به السبل عنها فمفتاحها وجالبها هو الصبر .
(٦) فى الأصل : محمد بن على .
(٧) هذه الأبيات الحسان فى الحث على الصبر والتجلد على ريب الزمان ، وقد بلغ بها صاحبها غاية الجودة فيقول : ينبغى على العاقل أن يتصبر ويتأسى بغيره فيما يَحُلُّ به من قوارع ونوازل إذْ الزمان لا يبقى على حال ، وما شىء أجمل بالحر من الصبر فإن تنقلب الأيام وتغشانا بالأَوَامِ ، وتصب علينا البؤس وتنكس منا الرأس . .
فما ترضخ لها ولا نتدهده دونها ، بل نوليها الصلابة والجلد ولا ننوح كالنساء ، ونبوء بالفجيعة ، وحرِّ الرثاء ، وإنما نلبس ثياب التصبر والتجلد ، وما يجمل من الفعل والقول .
وهكذا نقطع هذه الحُرَق بأعز ما يعزنا وتقمص ما يحملنا إذْ نفوسنا أبية شامخة العرنين عَلِيَّة تتأبى الضَّيْم وتأباه وترى القبر دونه مثواه .

عَلَيْـــكَ بِتَقْوَى اللهِ فِى كُلِّ حَالَةٍ . فَإِنَّكَ إِنْ تَفْعَلْ تُصِيبُ بِهِ ذُخْرَا (١)

أخبرنا عمرو بن محمد الهَمَذَانى ، ثنا زيد بن أخزم ، ثنا سليمان بن حرب ، ثنا حماد بن زيد قال : قال أيوب : إذا لم يكن ما تريد فأرِدْ ما يكونُ .

قال أبو حاتم - رضى الله عنه : الصبر عَلَى ضروب ثلاثة : فالصبر عن (٢) المعاصى، والصبر على الطاعات ، والصبر عند الشدائد والمصيبات .

فأفضلها الصبر عن(٣) المعاصى .

فالعاقل (٤) يدبر أحواله بالتثبُّت عند الأحوال الثلاثة (٥) التى ذكرنا [ها] (٦) ، بلزوم الصبر على المراتب التى وصفنا [ها] (٧) قبلُ ، حتى يرتقى بها إلى درجة الرضا عن الله - جل وعلا - فى حال العسر واليسر معًا، نسأل الله الوصول إلى تلك الدرجة بمنه !

ولقد أنشدنى عبد الله بن الأحوص : [الطويل]

تَعَـــزَّ بِحُسْنِ الصَّبْرِ عَنْ كُلِّ هَالِكٍ . فَفِى الصَّبْرِ مَسْلاةُ الهُمُـــومِ اللَّوَازِمِ
إِذَا أَنْتَ لَمْ تَسْلُ اصْطِبَارًا وَحِسْبَـــةً . سَلَـــوْتَ عَلَى الأَيَّامِ مِثْلَ البَهَائِـــمِ
وَلَيْــــسَ يَذُودُ النَّفْسَ عَنْ شَهَوَاتِهَا . مِنَ النَّاسِ إِلا كُلُّ مَاضِى العَزَائِمِ (٨)

وأنشدنى ابن زنجىٍّ البغدادىّ : [الرمل]

غَـايَةُ الصَّبْرِ لَذِيذٌ طَعْمُهَا . وَبَدِىُّ الصَّبْرِ مِنْهُ كَالصَّبِرْ

---

(١) إنى تبصرتُ الأمور واعتقبتُها فرأيت الخير قد نِيطَ بالصبر ، وكفى بالصبر أجرًا وذخرًا وقد انضاف إلى ذلك حسبى وظفرًا .

والعقول من يلزم تقوى ربه فى حالة المعسرة والميسرة فإن ذلك عاقبته إلى صلاح وفلاح .

(٢) في الأصل : عند . (٣) فى الأصل : عند .

(٤) فى الأصل : والعاقل . (٥) فى الأصل بما يتثبت عند الأشياء .

(٦) سقط فى الأصل . (٧) سقط فى الأصل .

(٨) ينبغى على العاقل أن يلازم الصبر عند حلول الرزية وفقد الأحبة إذْ الصبر مسلاة له عن نفوذ الهموم وحرق الغموم .

والعاقل من يصبر طوعًا والإهام فى وجهه وانتهج سبيل البهائم واعتقب الخسر ، وسبيل السكر التلهى بالباطل ، فهو كالأنعام بل هو أضل سبيلاً .

وينبغى توطين النفس ، وتثبيتها على تقوى ربها ، والصبر على بلائه ولا يطيعه إلا العازمون الحازمون فما نجا من نجا إلا بضبط نفسه بوثوب عزمه ورباطة جأشه .

إنَّ فِى الصَّبْرِ لَفَضْــــلاً بَيِّنًا فَاحمِلِ النَّفْسَ عَلَيْهِ تَصْطَبِرْ (١)

وأنشدنى الكُرَيزىُّ : [الطويل]

صَبَرْتُ ، ومَنْ يَصْبِرْ يَجِدْ غِبَّ صَبْرِهِ أَلَذَّ وَأَحْلَى مِنْ جَنَى النَّحْلِ فِى الفَمِ

وَمَنْ لا يَطِبْ نَفْسًا ، وَيَسْتَبْقِ صَاحِبًا وَيَغْفِــرْ لأَهْلِ الوُدِّ يُصْرَمْ وَيَصْرِمِ (٢)

أنبأنا محمد بن زنجويه القشيرىّ ؛ حدثنا عبد الأعلى بن حماد النَّرْسىّ ، حدثنا حماد ابن سلمة عن ثابت البُنانىِّ ، عن مُعاذة : امرأة صِلَة بن أُشيم ، قالت (٣) : « لما أتاها نَعْى زوجها وابنها ، جاءها النساء ، فقالت : « إن كنتُنَّ جئتنَّ لتُهنِّينا بما أكرمنا الله به، وإلا فارجعن » .

قال ثابت : وكان صلة يأكل يومًا ، فأتاه رجل ، فقال : مات أخوك ، قال : هيهات، قد نُعى إلىَّ ، اجلسْ وكُلْ ، قال الرجل ، ما سبقنى إليك أحد ! فقال : قال الله : ﴿ إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ ﴾ [الزمر : ٣٠] .

حدثنا عمرو بن محمد الأنصارىّ (٤) ، حدثنا ابن عائشة ، قال (٥) : كتب بعض الحكماء إلى أخٍ له يعزيه عن ابن له يقال له محمد : [الكامل]

اصْبِــرْ لِكُلِّ مُصِيبَةٍ ، وتَجَلَّدِ وَاعْلَمْ بِأَنَّ المَرْءَ غَيْرُ مُخَلَّــــدِ

وَإِذَا ذَكَرتَ مُحَمَّدًا ومُصَــــابَهُ فَاذْكُرْ مُصَابَكَ بِالنَّبِىِّ مُحَمَّدِ (٦)

---

(١) ينبغى على العاقل أن يلزم الصبر ، فإن غايته رَوْحٌ وريحان وليعلم أن بدايته حنظلٌ وصاب وسلعٌ فليصبر على مُرِّ المبتدى ليظفر بحلاوة وحسن المنتهى .

والصبر منشودة محاسنه بينة فضائله غير أنه يحتاج لعزم وجلد ، ومن تعزم عزم ومن تصبر صبر .

(٢) لقد صبرت وركبت سفينة الصبر فنعمت بنعم الظفر وحسن العاقبة وجنيت كل مكرُمَة ألذ من كل لذة وأشهى من مذاق العسل .

أما من ركب النَّزَقَ والرعونة والجزع فلا طابت نفسه ولا اندفع بأسه ، ولا استبقَ محمدة ولا صاحبًا بل ينفر الإخوان ، ويخوض العصيان ، ويتأخر عن الركبان ويتصرم بكل سوءَة وخسران .

(٣) فى الأصل : قال . (٤) فى الأصل : الأنصارى ثنا الغلابى .

(٥) فى الأصل : محمد بن عبد الله قال .

(٦) اصبر على ما يظرفك من الهموم والغموم ، وتشمخ وتصلب واعلم إنما هى أيام ، ثم لا يبقى الحال ولا صاحبه ، فكل إلى هلاك وانفكاك .

وإذا ما عظمت عليك مصيبة ، وجلَّ عليك أن تصبر لها لجلالة هولها ، فاذكر مصيبتك بفقد خيرِ الورى حبيبِ الرحمن - محمد صلى الله عليه وسلم .

فلو دامت الدنيا لأحد لكانت له - صلى الله عليه وسلم - أشد دوامًا وأحق .

وأنشدنى محمد بن إسحاق الواسطىّ : [الطويل]

يُعَزَّى المُعزَّى ، ثُمَّ يَمضِى لِشَأْنِه ... ويَبْقَى المُعزَّى فى أَحَرَّ مِنَ الجَمْرِ

ويُرمَى المُعزَّى بَعْدَ ذَاكَ بِسَلْوَةٍ ... ويَثْوِى المُعزَّى عَنْهُ فِى وَحْشَةِ القَبْرِ (١)

وأنشدنى المنتصر بن بلال : [السريع]

مَنْ سَبَقَ السَّلْوَةَ بِالصَّبْرِ ... فَازَ بِفَضْلِ الحَمْدِ وَالأَجْرِ

يَا عَجَبِى (٢) مِنْ هَلِعٍ (٣) جَازِعٍ ... يُصْبِحُ بَيْنَ الذَّمِّ وَالوِزْرِ

مُصِيبَةُ الإِنْسَانِ فِى دِينِهِ ... أَعْظَمُ مِنْ جَائِحَةِ الدَّهْرِ (٤)

وأنشدنى عبد العزيز بن سليمان الأبرش : [البسيط]

تَجْرِى المَقَادِيرُ إِنْ عُسْرًا وَإِنْ يُسُرًا ... حَاذَرْتَ وَاقِعَهَا أَوْ لَمْ تَكُنْ حَذِرَا

وَالعُسْرُ عَنْ قَدَرٍ يَجْرِى إِلَى يُسُرٍ ... وَالصَّبْرُ أَفْضَلُ شَىْءٍ وَافَقَ الظَّفَرَا (٥)

سمعت إسحاق بن أحمد القطان البغدادىّ بتُسْتَر يقول : كان لنا جار ببغداد ، كنا نسميه طبيب القُرّاء ، كان يتفقّد الصالحين ويتعاهدهم ، فقال لى : دخلت يومًا على أحمد بن حنبل ، فإذا هو مغموم مكروب ، فقلت : مالك يا أبا عبد الله ؟ قال : خير، قلت : وما (٦) الخير ؟ قال : امتُحِنْتُ بتلك المحنة ، حتى ضُرِبتُ ، ثم عالجونى

---

(١) وليعلم العاقل أنه لا يستشعر النار ولهيبها إلا من أمسك بها ، فمن كان معزيًا فى حبيب وإن تباكى وتشاكى ، فهو ماضٍ لشأنه ، غير ملتهب صدره كمن فقد الحبيب وتلظى بنار فقده ، واحترق صدره شوقًا له وكمدًا عليه .

ثم كلٌ إلى فراق وتشعب فمن كان يتلهبُ ويتحرق فَسَيَسْلُوا مع الأيام ، ثم يبقى المفقود والمحبوب وحيدًا فريدًا ثاويًا فى ظلمة القبر لا أنيس معه ولا ونيس .

(٢) فى الأصل : عجبتنى . (٣) فى الأصل : هالع .

(٤) ينبغى على العاقل أن يصبر بكل طارقة ولا يجزع فمن صبر فقد ظفر ، وجمع فضل الثواب من ربه ، وعظم الثناء من خلقه ثم يصيب السلو وبرد الرضا واليقين من الله .

ومن جزع فقد ضاع وضيع وفقد الحمد من ربه والثواب ، وحرم الثناء من خلقه ورمى بالعاب .

ثم هو يخرق دينه بجزعه وهلعه ومصيبته فى دينه جليلة عظيمة تصغر عندها كل مصيبة ، فقد وفر خسره وزاد عسره ، وانتظمته البلايا ، وأقلته الرزايا والخطايا .. !!

(٥) إنما الأمور بقدر الله وقضائه ، فهى تجرى بحسب المقدور يسرًا وعسرًا ، وهى واقعة صوب من كتب له أو عليه حذر أو لم يحذر .

وإذا ما حلت معسرة فينبغى على العاقل أن يدافعها بالصبر والسلوى وليعلم أن اليسر مرتفقها وناسخها بحول الله وفضله (فإن مع العُسرِ يسراً ..) .

(٦) فى الأصل : مع .

وبَرأت، إلا أنه بقِيَ فى صلبي موضع يُوْجعُنى ، هو أشدُّ عليَّ من ذلك الضرب ، قال: قلت : اكشف لى عن صلبك ، قال : فكشف لى ، فلم أرَ فيه إلا أثر الضرب فقط ، فقلت : ليس لى بذى [1] معرفة ، ولكن سأستخبر عن هذا ، قال : فخرجت من عنده، حتى أتيت صاحب الحبْس ، وكان بينى وبينه فَضْلُ معرفة ، فقلت له : أدخلُ الحبس فى حاجة ؟ قال : ادخل ، فدخلت وجمعت فتيانهم ، وكان معى دُرَيهمات فرَّقْتها عليهم، وجعلت أحدثهم حتى أَنِسُوا بى ، ثم قلت : من منكم ضُربَ أكثر ، قال : فأخذوا يتفاخرون ، حتى اتفقوا على واحد منهم أنه أكثرهم ضربًا ، وأشدهم صبرًا ، قال : فقلت له : أسألك عن شئ ؟ فقال : هات ، فقلت : شيخ ضعيف ليس صناعته كصناعتكم ، ضُرب على الجوع للقتل سِياطًا يسيرة ، إلا أنه لم يمت ، وعالجوه وبرأ ، إلا أن موضعًا فى صلبه يُوْجعه وَجَعًا ليس له عليه صبر . قال : فضحك ، فقلت : مالك ؟ قال : الذى عالجه كان حائكًا ، قلت : أيش الخبر ؟ قال : تَرَكَ فى صلبه قطعة لحم ميتة لم يقلَعها ، قلت : فما الحيلة ؟ قال : يُبطُّ صُلْبه ، وتؤخذ تلك القطعة ، ويرمى بها ، وإن تركت بلغت إلى فؤاده فقتلته . قال : فخرجت من الحَبْس ، فدخلت على أحمد بن حنبل ، فوجدته على حالته ، فقصصت عليه القصة ، قال : ومن يَبُطُّه لى ؟ قلت : أنا ، قال : أوَ [2] تفعل ؟ قلت : نعم ، قال : فقام ، فدخل البيت ، ثم خرج وبيده مِخَدتان [3] ، وعلى كتفه فوطة ، فدفع إحداهما إلىَّ ، والأخرى لنفسه ، ثم قعد عليها ، وقال : استخر الله ، فكشفت الفُوطة عن صلبه ، وقلت : أين موضع الوجع ؟ فقال : ضَعْ إصبعك عليه ، فإنى أخبرك به ، فوضعت إصبَعى ، وقلت : هاهنا موضع الوجع ؟ قال : ههنا أحمد الله على العافية ، فقلت : ههنا ؟ قال : هاهنا أحمد الله على العافية ، فقلت : هاهنا ؟ قال : هاهنا أسأل الله العافية ، قال : فعلمت أنه موضع الوجع ، قال : فوضعت المِبضَع عليه ، فلما أحس بحرارة المبضَع [4] ، وضع يده على رأسه ، وجعل يقول : اللهم اغفر للمعتصم ، حتى بَطَطْتُه ، فأخذت القطعة الميتة ، ورميت بها ، وشددتُ العصابة عليه ، وهو لا يزيد على قوله : اللهم اغفر للمعتصم . قال : ثم هدأ وسكن [5] ، ثم قال : كأنى كنت مُعلَّقًا فأُصْدِرْت [6] ، قلت: يا أبا عبد الله ، إن الناس إذا امتُحنُوا مِحنة دَعَوا على مَنْ ظلمهم ، ورأيتك تدعو للمعتصم ؟ قال : إنى أفكرت فيما تقول ، وهو ابن عم رسول الله – صلى الله عليه وسلم – فكرهت أن آتىَ يوم القيامة وبينى وبين أحد من قرابته خصومة . هو مِنِّى فى حِلٍّ.

* * *

(١) فى الأصل : بذا . (٢) فى الأصل : و . (٣) فى الأصل : مخدتين .
(٤) فى الأصل : المبظع . (٥) فى الأصل : وسلّم . (٦) فى الأصل : فأحللت .

ذِكْرُ الحَثِّ عَلَى لُزُومِ العَفْوِ عَنِ الجَانى

حدثنا الفضل بن الحُباب الجُمَحِيّ بالبصرة ، حدثنا القَعنبى (١) ، حدثنا عبد العزيز بن محمد ، عن العلاء بن عبد الرحمن ، عن أبيه ، عن أبى هريرة ، قال : أتى رجل فقال يا رسول الله : إن لى قَرابةً ، أصِلُهُم ويقطعوننى ، ويسيئون إلىَّ وأحسنُ إليهم ، ويجهلون علىَّ وأحلُم عنهم . فقال رسول الله ﷺ : « لَئِنْ كَانَ كَمَا تَقُولُ ، فَكَأَنَّمَا تُسِفُّهُمُ المَلَّ وَلا يَزَالُ مِنَ اللهِ مَعَكَ ظَهِيرٌ ، مَا زِلْتَ عَلَى ذَلِكَ » (٢) .

قال أبو حاتم- رضى الله عنه - : الواجب على العاقل توطين النفس على لزوم العفو عن الناس كافة ، وترك الخروج بمجازاة الإساءة ، إذ لا سبب لتسكين الإساءة أحسنُ من الإحسان ، ولا سبب [لنماء الإساءة وتهييجها ، أشد من الاستعمال بمثلها](٣) .

ولقد أنشدنى منصور بن محمد الكُريزىُّ : [الطويل]

سَأُلْزِمُ نَفْسِى الصَّفْحَ عَنْ كُلِّ مُذْنِبٍ ... وَإِنْ كَثُرَتْ مِنْهُ إِلَىَّ الجَرَائِمُ
فَمَا النَّاسُ إِلا وَاحِدٌ (٤) مِنْ ثَلاثَةٍ : ... شَرِيفٌ ، وَمَشْرُوفٌ ، وَمِثْلٌ مُقَاوِمٌ (٥)
فَأَمَّا الَّذِى فَوْقِى ، فَأَعْرِفُ فَضْلَهُ ... وَأَتْبَعُ فِيهِ الحَقَّ ، وَالحَقُّ لازِمُ
وَأَمَّا الَّذِى دُونِى ، فَإِنْ قَالَ : صُنْتُ عَنْ ... إِجَابَتِهِ عِرْضِى ، وَإِنْ لامَ لائِمُ

---

(١) فى الأصل : العقبى . .

(٢) أخرجه مسلم : (١٩٨١/٤) ، كتاب « البر والصلة » ، باب : صلة الرحم وتحريم قطيعتها حديث (٢٥٥٨/٢٢) ، والبخارى فى « الأدب المفرد » ، (ص٢٤ ، ٢٥) ، باب : فضل صلة الرحم، حديث (٥٢) ، وأحمد : (٤٨٤/٢) ، وابن أبى الدنيا فى « مكارم الأخلاق » ، رقم (٢٦٠) ، والبغوى فى « شرح السنة » : ٤٣٩/٦ كلهم من طريق العلاء بن عبد الرحمن عن أبيه عن أبى هريرة به قال البغوى فى « شرح السنة » : ٤٤/٦ - بتحقيقنا .

قوله : تُسِفُّهُمُ المَلَّ . أى : تَسفّى فى وجوههم الملَّ من السَّفوف قال الأزهرىُّ : أصل المَلَّة : التربةُ المحماةُ تدفن فيها الخُبزةُ ، وقال القُتَبىُّ : الملُّ الجمر ، ويقال للرماد الحارِّ أيضًا : الملُّ ، فالملَّةُ موضع الخبزة يقول : إذا لم يشكروك ، فإن عطاءك إياهم حرام عليهم ، ونار فى بطونهم .

(٣) فى الأصل : أنمى الإساءة ، وتهيجه أشد من الاشتغال بمثله .

(٤) فى الأصل : واحداً . (٥) فى الأصل : ومثلى يقاوم .

وَأَمَّا الَّذِى مِثْلِى ، فَإِنْ زَلَّ أَوْ هَفَا تَفَضَّلْتُ ، إِنَّ الحِلْمَ لِلْفَضْلِ حَاكِمُ (١)

أنبأنا محمد بن عثمان العقبى ، حدثنا محمد بن عامر الأنطاكىّ (٢) ، حدثنا ابن (٣) تَوْبة ، حدثنا محمد بن مهاجر ، عن يونس بن ميسرة بن جليس (٤) ، قال : ثلاثة يحبهم الله : من كره سُوءًا يأتيه إلى أخيه وصاحبه ، فذلك فَمنْ أن يَسْتَحِى من الله ، ومن كان ذا رفعة من الناس ، فتواضع لله ، فذلك الذى عرف عظمة الله ، فيخاف (٥) مَقْته . ومن كان عفوُه قريبًا من إساءته ، فذلك الذى تَقُوم به الدنيا .

قال أبو حاتم - رضى الله عنه : من أراد الثواب الجزيل ، واسْتِرْهانَ الوُدِّ الأصيل ، وتوقعَ الذكر الجميل ، فليتحمل من ورود ثِقَلِ الرَّدَى ، ويتجرع مرارة مخالفة (٦) الهوى ، باستعمال السنة التى ذكرنا [ها] (٧) فى الصلة عند القطع ، والإعطاء عند المنع ، والحلم عند الجهل ، والعفو عند الظلم ، لأنه من أفضل أخلاق أهل الدين والدنيا .

ولقد أنبأنا محمد بن المهاجر ، حدثنا ابن أبى شيبة ، حدثنا إبراهيم بن محمد بن ميمون ، عن داود بن الزبرقان : قال : قال أيوب (٨) : لا ينبُلُ الرجل حتى يكونَ فيه خَصلتان : العفة عما فى أيدى الناس ، والتجاوز عنهم .

وأنشدنى محمد بن عبد الله بن زَنْجىٍّ البغدادىّ : [الخفيف]

---

(١) خمسة الأبيات الحسان هذه من روائع الكلم وبديع ما نظم ، وقد طاب نظمها وجلَّ وعظم معناها ، فيقول فى العفو عن المسىء :

سأوطن نفسي على لزوم العفو والصفح عن كل مذنب وجانٍ ، وإن تمادى وانبسط فى الإساءَة فسأدافعه بالعفو .

إذا طبقات الناس عندى ثلاث : من كان عليا ذكيا ، ومن كان خليعًا وضيعًا ، ومن كان من لداتى وأقرانى وجملة خلانى .

فمن كان فوقى رتبة وشرفًا ومكانة فأعترف بفضله وأغرف من أدبه وأحتذى حذوه ، وأحقه فى رتبته إذْ على قدر أهل العزم تأتى العزائم ، وتأتى على قدر الكرام المكارم .

أما الذي نذل واتضع فإنى مكافئه بالسلام والصون إذْ العاقل مَن إذا خاطبه الجاهلون قال : سلامًا ، وإن لامنى اللائمون . .

وأما قرنى ولدتى ، فإنى معامله بالحسنى ، فإن زل وابتدرنى بهفوة أو جفوة ، فإنى متفضل عليه بالعفو والغض عن زلاته إذْ الحلم خير لبسة يرتديها المرء .

(٢) في الأصل : الأنكاكى .
(٣) فى الأصل : أبو .
(٤) فى الأصل : حلبس .
(٥) فى الأصل : يخاف .
(٦) فى الأصل : مخالقه .
(٧) سقط فى الأصل .
(٨) فى الأصل : أيوب السختيانى .

وإذَا مُذْنبٌ أتاهُ بِهِ الحَـــــقُّ فَغَطّاهُ عفــــوُهُ فِى ستُــــورِهْ
رَاجِيــــا لِلثَّوَابِ فِى كُلِّ رُزْءٍ مِنْ خَفِىِّ الأُمورِ ، أوْ مَشْهُورِهْ
فَـــهْوَ فِى عَاجِلِ الحَيَاةِ كَرِيمٌ وَمِنَ الفَائزِينَ يومَ نُشُــــورِهْ
خَصْـــلَةٌ جَزْلَةٌ بِهَا خَصَّهُ اللهُ لِزَيْنِ الدُّنْيَا وَيَوْمِ كَــرُورِهْ (١)

أنبأنا محمد بن إسحاق خزيمة ، حدثنا عمر بن حفص الشيبانىّ ، حدثنا سفيان ، عن رجل (٢) ، قال : سمعت عمر بن عبد العزيز يقول : أحبُّ الأمور إلى الله ثلاثة : العفو فى القدرة ، والقصد فى الجِدَة ، والرِّفق فى العبادة ، وما رَفَق أحد بأحد فى الدنيا، إلا رفق الله به يوم القيامة .

أنبأنا عمرو بن محمد الأنصارىّ ، حدثنا الغلابىُّ ، حدثنا ابن عائشة ، قال : كتب الحجاج إلى عبد الملك : إنك أعزُّ ما تكون أحوجَ ما تكون إلى الله ، فإذَا تعززت بالله فاعفُ ، فإنك به تُعَزُّ ، وإليه ترجع .

قال أبو حاتم - رضى الله عنه : الواجب (٣) على العاقل لزوم الصفح عند ورود الإساءة عليه من العالَم بأسرهم ، رجاء عفو الله - جلَّ وعلا - (٤) عن جناياته التى ارتكبها فى سالف أيامه ؛ لأن صاحب الصفح إنما يتكلف الصفح بإيثاره (٥) الجزاء ، وصاحب العقاب وإن انتقم ، كان إلى الندم أقربَ ، فأما من له أخ يَوَدُّه ، فإنه يحتمل عنه الدهرَ كلَّهُ زلاته .

ولقد أخبرنى محمد بن المنذر ، حدثنا أحمد بن داود التمار ، قال : سمعت مَرْدُوَيْه الصائغ يقول : سمعت الفضيل بن عِياض يقول : احتمل لأخيك (٦) إلى سبعين زلَّة ، قيل له : وكيف ذلك يا أبا علىّ ؟! قال : لأن الأخ الذى آخيته فى الله ، ليس يزلُّ سبعين زلة .

---

(١) هذه الأبيات فى الحث على العفو عن الناس والأصحاب كذلك فيقول :
من كان ذا عفوٍ عن المذنبين غاضا لبصره عن الزلات يطوى ما نشر منها فى ثياب حلمه وعفوه ، ورجا ثواب ربه على ذلك واحتسب عند الله الصبر وعلى كل ملمة تحيق به دقت أم جلت ، فذلك هو الفائز الظافر فى الدنيا بالكرامة ، وفى الآخرة بالحسنى ورضا الله .
وهذه شنشنة العافين عن الناس المغتفرين ذنوبهم وهى من منح الله وفضائله فلا يصيبها إلا من كتب له الخيرُ فى الدنيا والنعيمُ فى الآخرة ، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم .

(٢) فى الأصل : رجل وهو عمرو بن عبيد .
(٣) فى الأصل : فالواجب .
(٤) فى الأصل : وعلا عنه .
(٥) فى الأصل : بإثابة .
(٦) فى الأصل : أخاك .

وأنشدني عليُّ بن محمد البساميّ : [الطويل]

إذَا لَمْ تُجَاوِزْ عَنْ أَخٍ لَكَ عَثْرَةً ... فَلَسْتَ غَدًا عَنْ عَثْرَتِي مُتَجَاوِزَا

وكَيْـــفَ يُرَجِّيكَ البَعِيدُ لِنَفْعِهِ ... إذَا كَانَ عَنْ مَوْلاكَ بِرُّكَ عَاجِزَا(١)

أنبأنا محمد بن صالح الطبريّ ، حدثنا الرَّماديُّ (٢) ، حدثنا الجُعفيُّ يحيى بن سليمان، حدثنا ابن أبجر ، حدثني أبي ، قال : أقبل الشَّعبيُّ يومًا ، فإذا هو برجلين من قومه ، من وراء جدار قصير ، قال : فاستمع عليهما ، فإذا هما يقعان فيه ، ويَشْتُمانه ، ويستنقصانه ، حتى أكثرا ؛ فلما أطالا ، أشرف عليهما الشعبيُّ ، فقال : [الطويل]

هَـــنِيئًا مَرِيئًا غَيْرَ دَاءٍ مُخَامِرٍ ... لِعَزَّةَ مِنْ أَعْرَاضِنَا مَا اسْتَحَلَّتِ

فقـــالا: والله، يا أبا عمرو ... لا نَقَعُ فيك بعـــد اليوم (٣)

وأنشدني بعض أهل العلم : [الكامل]

وَلَرُبَّمَا ابْتَسَمَ الوَقُورُ مِنَ الأَذَى ... وَضَمِيـــرُهُ مِنْ حَـــرِّهِ يَتَأَوَّهُ

وَلَرُبَّمَا خَـــزَنَ الْحَلِيمُ لِسَانَهُ ... حَـــذَرَ الجَوَابِ وَإِنَّهُ لَمُفَـوَّهُ (٤)

أنبأنا أبو عَوَانة يعقوب بن إبراهيم ، أنبأنا عبد الله بن الحسن المصِّيصيُّ ، أنبأنا يعقوب بن أبي عبَّاد ، قال : قال الفُضَيل بن عِياض : مَنْ طلب أخًا بلا عيب ، بقي بلا أخ .

---

(١) ينبغي على العاقل أنْ يتجاوز عن الزَّلاتِ ، ويصفَحَ عَنِ الهفَوَاتِ ، ومن تجاوز تُجوِّزَ عنه ، ومن أَبَى إلا الشَّطَطَ ، فإنَّه عند خطئه فليس ينجو من اللائمة ، والمذمة ، والمذلة إذ كما يدين المرءُ يُدَانُ ، وهل جزاءُ الإحسانِ إلا الإحسان .

وحينها فلا خير فيك ، ولا فائدة ، وأنت منبوذٌ ، موقوذٌ مِنَ النَّاسِ ، إذْ عجز بِرُّكَ عن سيِّدكَ بل عن خليلك ، ورفيقك ، فكيف يرجوك البعيد ... ؟! .

(٢) في الأصل : أحمد بن منصور الرماديّ .

(٣) هذا البيت المفردُ في التَّعْريض بمن يَنْقصون الإمام الشَّعْبيَّ مَع النكاية فيهما بالعفو عنهما فما قتل الأحرار كالعفو عنهم فيقول :

لا عليَّ بما قَالَ القائلون ، بل فليهنئوا وليمرئُوا ، فللمحبوب أنْ ينتقص منِّي كما شَاءَ ، فإني استحلُّ له ذلك ، وما هذا لأحَدٍ إلا لمن كان محبوبًا قد تَيَّمَ القَلْبَ كعزَّةَ ... !

(٤) ألا لا يغترُّ المرء بمن حوله ، ولا يُطْرِدُ الأخْذَ بالظَّاهِرِ من الحال فقد يتحرق المَرْءُ مِنَ الهُمُومِ، والغموم ، وإنَّه لباسم الثَّغر ضاحكه .

ولربَّما كان الحليم لسنًا عميقَ البيان ، طويلَ اللسان ، يَبُزُّ الأقرانَ ولكنه يَخْزنُ لِسَانَهُ تحلُّمًا وتسترًا.

قال أبو حاتم – رضى الله عنه : أغنى الناس عن الحقد ، مَنْ عظُم عن المجازاة ، وأجلُّ الناس مرتبة من صَدَّ الجهلَ بالحلم ، وما الفضل إلا لمن يُحسن إلى من أساء إليه، فأما مجازاة الإحسان إحسانًا ، فهو المساواة فى الأخلاق (١) ، فلربما (٢) استعملها البهائم فى الأوقات ، ولو لم يكن فى الصفح وترك الإساءة خصلة تُحمَد ، إلا راحةُ النفس وودَاع القلب ، لكان الواجب على العاقل ألا يكدر وقته بالدخول فى أخلاق البهائم بالمجازاة على الإساءة إساءة ، ومن جازى بالإساءة إساءة فهو المسىء ، وإن لم يكن بادئًا.

كما أنشدنى الكُريزىُّ : [المتقارب]

أَسَـأْتُ ، وَأَنْكَرْتُ أَنّى أَسَأْتُ ... فَـأَفْضِلْ ، وَلاَتَكُ عَيْنَ الْمُسِىْ

لَكَ الفَضْلُ بِالعَفْوِ عَمَّا عَفَوْتَ ... وَإِلا فَأَنْتَ القَرِينُ السَّـــوِىْ

وَعَفْـــوُكَ مُقْتَـــدِراً نِعْمَةٌ ... وَعَفْـــوُ الْمُندِدِ (٣) غَيْـرُ الْهَنِىْ

سمعت محمد بن عثمان العقبى ، قال : سمعت هلال بن العلاء الباهلىّ يقول : جعلت على نفسى منذ أكثر (٤) من عشرين سنة ، ألا أكافىءُ أحدًا بسوء ، وذهبتُ إلى هذه الأبيات : [البسيط]

لَمَّـا عَفَوْتُ وَلَمْ أَحْقِدْ عَلَى أَحَدِ ... أَرَحْتُ قَلْبِىَ (٥) مِنْ غَمِّ العَدَاوَاتِ

إِنِّى أُحَيِّى عَـــدُوِّى عِنْدَ رُؤْيَتِهِ ... لأَدْفَعَ الشَّـــرَّ عَنِّى بِالتَّحِيَّاتِ

وَأُظْهِرُ البِشْرَ لِلإِنْسَانِ أُبْغِضُـــهُ ... كَأَنَّمَا قَدْ حُشِىْ قَلْبِى مَحَبَّاتِ (٦)

---

(١) فى الأصل : بالأخلاق . (٢) فى الأصل : وربما . (٣) فى الأصل : المتردد .

(٤) فى الأصل : كنت . (٥) فى الأصل : نفسى .

(٦) هذه الأبياتُ في الاعتذار عن الإساءة ، والترغيب في العفو فيقول :

إنى اشتممت الرَّوْحَ ، والراحة ، وَدَفَعْتُ عن نفسى هَمَّها ، وفرجت ضغوث صدرى ، بعفوى عن الناس ، ومحو العداوة من قلبى .

حتى إنّي لأتّقى عدوىّ عند رؤيتى له بأن أحيِّه ، فيلوح له منى بذلك بوادر التسليم ، فأدفع بهذا شرَّه ، وضرَّه عنى .

وكذلك أُدافعُ شرور النَّاس عنى ، بإظهار البشر ، والهناءَة لهم حتَّى ، ولو كانوا ألدَّ أعدائى ، فكأنما هم أحبابى ، وخلانى ، قد أسبغوا علىَّ نعمهم ، وبذلوا لى فضلهم ، وما ذلك إلا لأردَّ عنى شرورهم . .

أنبأنا ابن قتيبة (١) حدثنا ابن أبى السرىّ ، قال : سمعت أبا عمرَ الصنعانىَّ يقول : حدثنا زيد بن أسلم ، قال : قال لقمان لابنه : كذب من قال : إن الشر يطفىء الشر ، فإن كان صادقًا ، فليوقد نارًا إلى جنب (٢) نار ، فلينظر هل تطفىء إحداهما الأخرى ؟ ألا فإن الخير يطفىء الشر ، كما يطفىء الماء النار .

حدثنى محمد بن أبى على الخلادىّ ، حدثنا محمد بن خلف البسَّامىّ ، حدثنا محمد ابن عبيد الله الدارىّ (٣) ، حدثنا محمد بن عمران الضبىّ ، قال : قال ابن السماك : لِنْ لمن يجفُو ، فقلَّ مَنْ يصفو .

وأنشدنى الأبرش : [المتقارب]

تَـــوخَّ مِنَ السُّبْلِ أَوْسَاطَهَـــا   وَعَـــدِّ عَنِ الجَائِرِ المُشْتَبِهْ (٤)
وَسَمْعَكَ صُنْ عَنْ سَمَاعِ القَبِيحِ   كَصَـوْنِ اللِّسَانِ عَنِ النُّطْـقِ بِهْ
فَإِنَّكَ عِنْدَ اسْتِمَـــاعِ القَبِيـــحِ   شَـــرِيكٌ لِقَائِلِه ، فَانْتَبِـــهْ
فَكَمْ أَزْعَجَ الحِرْصُ مِنْ طَالِـبٍ   فَــــوَافَى المَنِيَّةَ فِى مَطْلَبِهْ (٥)

أنبأنا عمر بن حفص البزار (٦) بِجُنْدَ يْسابور ، حدثنا جعفر بن محمد بن حبيب الذارع، حدثنا عبد الله بن رشيد ، حدثنا مُجَّاعة بن الزُّبير ، قال : قال لُقمان الحكيم لابنه : « أىْ بُنىَّ ، أىُّ شىء أقلّ ؟ وأى شىء أكثر ؟ وأى شىء أحلَى ؟ وأى شىء أبرد ؟ وأى شىء آنس ؟ وأى شىء أوحش ؟ وأى شىء أقرب ؟ وأى شىء أبعد ؟ قال: أما أى شىء أقل فاليقين ، وأما أى شىء أكثر فالشك ، وأما أى شىء أحلى فروح الله بين العباد يتحابون بها ، وأما أى شىء أبرد فعفو الله عن عباده ، وعفو الناس بعضهم عن

---

(١) محمد بن الحسن بن قتيبة العسقلانى ؛ من أئمة الحديث ذكره المؤلف كثيرًا فى هذا الكتاب وهو غير عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينورى .

(٢) فى الأصل : بنار إلى جانب .   (٣) فى الأصل : الرازى .

(٤) الجائر من الطرق : المائل عن القصد وعن الجادة .

(٥) ينبغى على العاقل أنْ يَتوسَّط الأمور فلا يشطط ، ويتجنب الأطراف فى كل شىء ليتجنب الشُّبَهَ والرِّيَبَ .

وكذلك فليصن سمعه عن سماع كل قبيح ، وليصن لسَانَهُ عن التَّفوُّه به .

وليتجنب كذلك أنْ يَسْمَعَ القبيح مِنْ كُلِّ أحدِ ، فإِنَّهُ بسماعه مشارك فى قوله وسامع الغيبة ليس بأقَلَّ من المغتاب .

وليحذر من الشَّره والحرص حتى لا يفوت مقصوده ، ويلاقى حتوفه فى حرصه .

(٦) فى الأصل : البزاز .

بعض ؛ وأى شيء آنَس : حبيبك إذا أغلق عليك وعليه باب واحد ؛ وأى شيء أوحش: جسد إذا مات ، فليس شيء أوحش منه ؛ وأى شيء أقرب : فالآخرة من الدنيا ، وأى شيء أبعد فالدنيا من الآخرة » .

قال أبو حاتم - رضى الله عنه - : العاقل يُحْسِن عند الجفوة ، ويُغْضِى عن المجازاة عليها بمثلها .

وقد قيل : إن من لم يغضب من الجفوة ، لم يشكر النعمة .

وهو عندى - والله أعلم - غضبٌ لا يُخرجه إلى المعاصى ، ولا إلى الانتقام من الجانى ، كأنه فى نفسه يعلم محل الجفوة منه ، كما يعقل ورود النعمة عليه ، وما أقبح قدرة اللئيم إذا قَدر ! ومن أساء سمعًا أساء إجابة ، ومن أتى المكروه إلى أحد فبنفسه بدأ؛ لأن الشرور تبدو صغاراً ، ثم تعود (١) كباراً .

ولقد أنبأنا محمد بن سعيد القزاز ، حدثنا محمد بن إدريس الرازىّ ، حدثنا عبد الرحمن بن يحيى و (٢) إسماعيل بن عُبيد الله المخزومىّ ، قالا : حدثنا عبد الأعلى ابن مُسْهِر ، عن سعيد بن عبد العزيز ، قال : سمعت إسماعيل بن عبيد الله يقول لبنيه: يا بَنىَّ ، أكرموا من أكرمكم ، وإن كان عبدًا حبشيا ، وأهينوا من أهانكم ، وإن كان رجلاً قرشيا .

قال أبو حاتم - رضى الله عنه - : هذا الذى قاله إسماعيل بن عبيد الله بن أبى المهاجر : إن استعمله العاقل فى الأحوال كلها مع الجاهل ، فلا ضَيْر ؛ فأما من ارتفع عن حَدِّ الجهال ، واتضع عن حد العقلاء ، فالإغضاء عن مثله فى الأوقات أحمد ، مخافةَ الازدياد منه ، ولأن يصبر المرء عَلَى حرارة الجفاء ومرارتها ، أولَى من الانتقام ، مما يستجلب عليه بما هو أحر وأمَرُّ أيضًا مما مضى ؛ لأن من الكلام ما هو أشد من الحجَر، وأنفذ من الإبَر ، وأمرُّ من الصَّبِر .

ولقد أحسن الذى يقول : [الطويل]

لَقَدْ أَسْمَعُ القَوْلَ الَّذِى كَادَ كُلَّمَا ... تُذَكِّرُنِيه النَّفْسُ قَلْبِى يُصَدَّعُ
فَأُبدِى لِمَنْ أَبْدَاهُ مِنِّى بَشَاشَةً ... كَأَنِّى مَسْرُورٌ بِمَا مِنْهُ أَسْمَعُ
وَمَا ذَاكَ عَنْ عَجْزٍ بِهِ ، غَيْرَ أَنَّنِى ... أَرَى أَنَّ تَرْكَ الشَّرِّ لِلشَّرِّ أَقْطَعُ(٣)

---

(١) فى الأصل : يعود . (٢) فى الأصل : بن .

(٣) هذه الأبيات الحسان فى العفو عن الجانى ، والتلطُّف معه لدفع المضرة وسوء العاقبة فَيَقُولُ : إنى لأسمع سيء المقال من عدوٍّ لدودٍ ، يكاد أن يتفطر منه قلبى ويَنخلع لعظم وقعه على نفسى.=

أنبأنا محمد بن صالح الطَّبَرىّ بالصَّيْمرة ، حدثنا أحمد بن مِقدام [1] العجلىّ ، حدثنا محمد بن عبد الرحمن الطُّفاوىّ ، عن هشام بن عُروة ، عن أبيه ، عن أبى عمرو [2] ، فى هذه الآية : ﴿ خُذِ الْعَفْوَ وأْمُرْ بِالعُرْفِ ﴾ [الأعراف : ١٩٩] قال : أمَرَ النبىُّ ﷺ بالعفو عن أخلاق الناس .

* * *

= فأحتمله وأطويه فى أدراج الصَّفح ، ثم أثنى بالبشر ، والطلاقة كأني حُبِرْتُ بما سمعت . وما ذلك منِّى عجزًا وخورًا ، وإنما ذلك لدفع الضرِّ وقطع الشر ودفع مغبة السوء . . .

(١) فى الأصل : المقدام . (٢) فى الأصل : ابن عمر .

ذِكْرُ صِفَةِ الكَرِيمِ وَاللَّئِيمِ

أنبأنا محمد بن الحسن بن الخليل بَنَسَا ، حدثنا أبو كُرَيب ، حدثنا عَبْدة بن سليمان ، عن عُبيد الله بن عمر ، عن سعيد المَقْبُرى ، عن أبى هريرة ، قال : قيل : يا رسول الله ، أى الناس أكرم ؟ قال : « أَكْرَمُهُمْ عِنْدَ اللهِ أَتْقَاهُمْ ، قَالُوا : لَيْسَ عَنْ هَذَا نَسْأَلُكَ ، قَالَ: فَعَنْ مَعَادِنِ العَرَبِ (١) تَسْأَلُونَنِى ؟ قَالُوا : نَعَمْ ، قَالَ : خِيَارُكُمْ فِى الجَاهِلِيَّةِ خِيَارُكُمْ فِى الإِسْلَامِ ، إِذَا فَقُهُوا » (٢) .

---

(١) معادن العرب : أصولها وأجناس قبائلها .

(٢) أخرجه البخارى : (٦/٤٨١) ، كتاب « أحاديث الأنبياء » ، باب : قول الله تعالى : ﴿ لقد كان فى يوسف وإخوته آيات للسائلين ﴾ حديث (٣٣٨٣) ، (٨/٢١٢) كتاب التفسير ، باب : ﴿ لقد كان فى يوسف وإخوته آيات للسائلين ﴾ ، حديث (٤٦٨٩) . ومسلم : (٤/١٨٤٦) ، كتاب : الفضائل » ، باب : من فضائل يوسف ، حديث (١٦٨/٢٣٧٨) ، والدارمى (١/٧٣) ، باب : الاقتداء بالعلماء وأبو يعلى (١١/٤٣٨) رقم (٦٥٦٢) ، والبغوى فى « شرح السنة » (٦/٥٠٧ - بتحقيقنا) كلهم من طريق عبيد الله عن سعيد بن أبى سعيد المقبرى ، عن أبي هريرة به .

وأخرجه أحمد (٢/٢٥٧) ، ومسلم (٤/١٩٥٨) ، كتاب « فضائل الصحابة » : باب خيار الناس ، والحميدى (٢/٤٥١) ، رقم (١٠٤٥) من طريق أبى الزناد ، عن الأعرج ، عن أبي هريرة مرفوعاً بلفظ : « تجدون الناس معادن فخيارهم فى الجاهلية خيارهم فى الإسلام إذا فقهوا .

وأخرجه مسلم (٤/١٩٥٨) ، كتاب « فضائل الصحابة » ، باب : خيار الناس حديث (١٩٩/٢٥٢٦) ، وأحمد (٢/ ٥٢٤ - ٥٢٥) ، وابن حبان رقم (٦٣٦) من طريق يونس عن الزهرى ، عن سعيد بن المسيب ، عن أبى هريرة مرفوعًا ، باللفظ السابق ، وأخرجه أبو يعلى (١٠/٤٥٧ - ٤٥٨) رقم (٦٠٧٠) ، وابن حبان رقم (٩٢) من طريق أيوب عن محمد بن سيرين ، عن أبي هريرة مرفوعًا : الناس معادن فى الخير والشر خيارهم فى الجاهلية خيارهم فى الإسلام إذا فقهوا .

وأخرجه الحميدى (٢/٤٥١) رقم (١٠٤٦) من طريق يزيد بن الأصم عن أبى هريرة به .

وللحديث شاهد من حديث معاوية بن أبى سفيان .

أخرجه أحمد (٤/١٠١) بلفظ : الناس تبع لقريش خيارهم فى الجاهلية خيارهم فى الإسلام إذا فقهوا .

قوله : (فخياركم فى الجاهلية خياركم فى الإسلام إذا فقهوا) يحتمل أن يريد بقوله : « خياركم» ، جمع خير ، ويحتمل أن يريد أفعل التفضيل تقول فى الواحد خير وأخير ثم القسمة رباعية ، فإن الأفضل من جمع بين الشرف فى الجاهلية والشرف فى الإسلام وكان شرفهم فى الجاهلية بالخصال المحمودة من جهة ملائمة الطبع ومنافرته خصوصًا بالانتساب إلى الآباء المتصفين بذلك ، ثم الشرف =

قال أبو حاتم - رضى الله عنه : أكرم الناس من اتَّقَى الله ، والكريمُ التقىُّ ، والتقوى: هى العزم على إتيان المأمورات ، والانزجار عن جميع المزجورات ، فمن صحَّ عزمه على هاتين الخَصْلتين ، فهو التقىُّ الذى يستحق اسم الكرم ، ومن تعرَّى عن استعمالهما ، أو أحدهما ، أو شُعْبة من شُعَبهما ، فقد نقص من كرمه مثله .

ولقد أنبأنا محمد بن المهاجر ، حدثنا عيسى بن محمد بن سهل الأزدىّ ، عن أبيه ، عن المدائنىّ ، قال : قال زيد بن ثابت : ثلاث خِصال لا تجتمع إلا فى كريم : حسن المحضَر ، واحتمال الزَّلَّة ، وقلة المَلالة .

وأنشدنى ابن زنجى البغدادىّ : [الوافر]

رَأَيْتُ الحَقَّ يَعْرِفُهُ الكَـريمُ ... لِصَـــاحِبِهِ وَيُنْكِرُهُ اللَّئِيمُ
إِذَا كَـانَ الفَتَى حَسَنًا كَرِيمًا ... فَكُـلُّ فِعَالِهِ حَسَنٌ كَرِيمُ
وَإِنْ أَلْفَيْتَهُ سَمِجًـــا لَئِيمًا ... فَكُلُّ فِعَالِهِ سَمِجٌ لَئِيمُ (١)

قال أبو حاتم - رضى الله عنه : الكريم لا يكون حقودًا ، ولا حسودًا ، ولا شامتًا ، ولا باغيًا ، ولا ساهيًا ، ولا لاهيًا ، ولا فاجرًا ، ولا فخورًا ، ولا كاذبًا ، ولا ملولاً ، ولا يقطع إلفه ، ولا يؤذى إخوانه ، ولا يُضيع الحِفاظ ، ولا يجفو فى الوداد ، يعطى من لا يرجو ، ويُؤَمِّن من لا يخاف ، ويعفو عن قدرة ، ويصل عن قطيعة .

أخبرنى محمد بن أبى الخلادىّ ، حدثنا محمد بن الحسن الذُّهلىّ ، عن علىّ بن

= فى الإسلام بالخصال المحمودة شرعًا ، ثم أرفعهم مرتبة من أضاف إلى ذلك النفقة فى الدين ، ومقابل ذلك من كان مشروفًا فى الجاهلية واستمر مشروفًا فى الإسلام ، فهذا أدنى المراتب ؛

والقسم الثالث من شرف فى الإسلام وفقه ولم يكن شريفًا فى الجاهلية ، ودونه من كان كذلك لكن لم يتفقه .

والقسم الرابع من كان شريفًا فى الجاهلية ثم صار مشروفًا فى الإسلام فهذا دون الذى قبله ، فإن تفقه فهو أعلى رتبة من الشريف الجاهل .

(١) إن من تربى على الكرم وحسن الأخلاق وطيبها فإنه عروف للحقوق يشكر أربابها ، ويقدر فضلهم وبذلهم ، بينما ذو اللؤم والنذالة فإنَّه عمى عن أهل الفضل ، ولا يرى لهم فى فضلهم يدًا ، بل إن تكرمه تمرد . وبحسب انتشاء المرء يكون سلوكه ، وفعاله ، إذْ كل إناء ينضح بما فيه ، فمن كان حسنًا كان فعاله بالحسن موسوم ، وبالفضل مرقوم ، وإلا ففعله ذميم ، وأصله لئيم .

وكذلك من ساءت سريرته فاح منه كريه الروائح ، وسوء الفعال ، وكذب المقال .

محمد المرحبىُّ (١) ، عن محمد بن إبراهيم العباسىّ ، عن عبد الله بن الحجاج مولى المهدىّ ؛ عن إبراهيم بن شَكْلَة (٢) قال : إن لكل شىء حياة وموتًا ، وإن مما يحيى الكرم مواصلةَ الكرماء ، وإن مما يميت اللؤم مجانبة اللئام .

وأنشدنى الكريزىُّ : [البسيط]

مَا بَالُ قَوْمٍ لِئَامٍ لَيْسَ عِنْدَهُـــمُ ... عَهْدٌ ، ولَيْسَ لَهُمْ دِينٌ إِذَا ائْتُمِنُـوا
إِنْ يَسْمَعُـــوا رِيبَةً طَارُوا بِهَا فَرَحًا ... مِنِّى ، وَمَا سَمِعُوا مِنْ صَالِحٍ دَفَنُوا
صُمٌ إِذَا سَمِعُـــوا خَيْرًا ذُكِرْتُ بِهِ ... وَإِنْ ذُكِرْتُ بِسُوءٍ عِنْدَهُمْ أَذِنُوا (٣) (٤)

قال أبو حاتم - رضى الله عنه : الكريم يَلين إذا استُعْطِف ، واللئيم يقسو إذا أُلطِف ، والكريم يُجلُّ الكرام ، ولا يُهين اللئام ، ولا يؤذى العاقل ، ولا يمازح الأحمق ، ولا يعاشر الفاجر ، مؤثرًا إخوانه على نفسه ، باذلاً لهم ما ملك ، إذا اطلع على رغبة من أخٍ لم يدع مكافأتها ، وإذا عرَف منه المودَّة ، لم ينظر فى مَلَق العداوة ، وإذا أعطاه من نفسه الإخاء ، لم يقطعه بشىء من الأشياء .

كما أنشدنى الخلادىُّ قال : أنشدنا أحمد بن أبى علىٍّ القاضى (٥) ، قال : أنشدنا محمد ابن مقيس (٦) الأزدىّ : [الطويل]

وَإِنَّ الَّذِى بَيْنِى وَبَيْنَ عَشِـــيرَتِى ... وَبَيْنَ بَنِى عَمِّى لَمُخْتَلِفٌ جِـــدًّا
إِذَا قَدَحُوا لِى نَارَ حَـرْبٍ بِزَنْدِهِمْ ... قَـدَحْتُ لَهُمْ فِى كُلِّ مَكْـرُمَةٍ زَنْدًا
وَإِنْ أَكَلُوا لَحْمِى وَفَرْتُ لُحُومَهُمْ ... وَإِنْ هَدَمُوا مَجْدِى بَنَيْتُ لَهُمْ مَجْدًا

---

(١) فى الأصل : المرهبى .

(٢) إبراهيم بن شكلة : هو إبراهيم بن المهدى ؛ الخليفة العباسى ، وشكلة : أمه أخوها هارون الرشيد وفيات الأعيان : (١/١٨) ، الأغانى : (١٠/٦٩) ، تاريخ بغداد : (٦/١٤٢)

(٣) فى الأصل : فرحوا .

(٤) إن من الأقوام قومًا ذوى لؤم وخباثٍ لا عهد لهم ولا ذمة ولا ديانة ولا أمانة .

وما ينتظر من أولئك إلا كل شماتة بامرىء ، وإلا كل عورة مستورة يشهرونها ، وما كان من صالح فعل وطيب قول ، فإنهم يدفنونه ويطوونه .

وإن يسمعوا عن أحدٍ خيرًا ، وحسنًا ، اشمأزت قلوبهم وأبصارهم وإن يسمعوا السُّوءَ ، فإنهم يعون ويبصرون ويبشرون .

(٥) فى الأصل : الفارضى . (٦) فى الأصل : يعيش .

وَلا أَحْمِلُ الحِقْدَ القَدِيمَ عَلَيْهِمُ ... وَلَيْسَ رَئِيسَ القَوْمِ مَنْ يَحْمِلُ الحِقْدَا
وَأُعْطِيهِمُ مَالِي إِذَا كُنْتُ ذَا غِنًى ... وَإِنْ قَلَّ مَالِي لَمْ أُكَلِّفْهُمْ رِفْدَا (١)

أنبأنا ابن حوصا (٢) ، حدثنا النحاسيُّ (٣) ، حدثنا ضمرة ، عن إبراهيم بن عُلَيّة (٤) ، قال : رأيت سالم بن عبد الله ومحمد (٥) بن عبد العزيز يتسايران بأرض الروم ، فأبال أحدهما دابته ، فأمسك عليه الآخَرُ حتى لحقه .

أنبأنا محمد بن المهاجر ، حدثنا أحمد بن [أبي] (٦) بكر بن خالد اليزيديّ ، عن قُطْبة (٧) بن العلاء بن المنهال ، قال : سمعت المبارك بن سعيد يقول : سمعت الأعمش يقول : قال الشعبيُّ : إن كرامِ الناس أسرعُهم مودة ، وأبطؤهم عداوة ، مثل الكُوب من الفضَّة : يبطئ الانكسار ، ويسرع الانجبار ، وإن لئام الناس أبطؤهم مودَّة ، وأسرعهم عداوة ، مثل الكُوب من الفَخَّار : يسرع الانكسار ، ويبطئ الانجبار (٨) .

قال أبو حاتم - رضى الله عنه : الكريم مَنْ أعطاه شكَره ، ومن منعه عذَره ، ومن قطعه وصلَه ، ومن وصله فضَّلَه ، ومن سأله أعطاه ، ومن لم يسأله ابتدأه ، وإذا استضعف أحدًا رحمه ، وإذا استعطف أحدًا رأى الموت أكرم له منه ، واللئيم بضدٍّ ما وصفنا من الخِصال كلها .

ولقد أنبأنا أحمد بن قُريش بن عبد العزيز ، حدثنا إبراهيم بن محمد الذُّهليّ ،

---

(١) لعمرى ما أعجب ما بيني ، وبين أقاربي من أحوال ، فإن ما بيني وبينهم كما بين الثرى والثريا .
فإن يحتالوا عليَّ ليوقعوا بي في المهالك ، فإني أحتال لهم لأكرمهم ، وأرفع شأنهم وأشهر مكارمهم .
وإن يهضموا محامدى ، وينهشوا عرضى ، فإني صائن لهم أعراضهم وساتر لعوراتهم ، وكذلك إنْ هدموا ما بَنَيْتُ وأضاعوا ما اقتنيتُ فإني حافظ لما بنوا . . أمين على ما اقتنوا .
وأتجمل لهم مع ذلك دون إضمار حقدٍ ، وقديم غلٍّ ، بل لقد عفوت عنهم وغفرت ذللهم ، وتلك من شيمة الأكابر الأعلون .
ومع ذلك فإني أجود عليهم عند وجداني وَسَعَتِي ، ولا أسائلهم العطاء والمِيرة عند ضيقتي وشدتي . . .

(٢) في الأصل : جوصا .　(٣) في الأصل : أبو عمير النحاسي .
(٤) في الأصل : أبي عبلة .　(٥) في الأصل : وعمر .　(٦) سقط في الأصل .
(٧) في الأصل : قحطبة .
(٨) أي انكساره وانجباره ، فأل : عوض عن المضاف إليه ، وهو العائد في الجملة .

حدثنا أحمد بن الخليل ، حدثنا يحيى بن أيوب ، عن أبى عيسى ، قال : كان إبراهيم ابن أدهم كريم النفس ، يخالط الناس بأخلاقهم ، ويأكل معهم ، قال : فربما اتخذ لهم الشِّواء والجوذبات (١) والخَبيص ، وربما خلا هو وأصحابَه الذين يأنس بهم فيتصارعون ، قال : وكان يعمل عمل رجلين ، وكان إذا صار إلى نفسه أكل عجينًا .

قال أبو حاتم [رضى الله عنه] (٢) : أجمع أهل التجارب للدهر ، وأهل الفضل فى الدين ، والراغبون فى الجميل : على أن أفضل ما اقتنى الرجل لنفسه فى الدنيا ، وأجلُّ ما يدخر لها فى العقبَى ، هو لزوم الكرم ، ومعاشرة الكرام ؛ لأن الكرم يحسن الذكر ، ويشرف القدر ، وهو طِباع ركَّبها الله فى بنى آدم ، فمن الناس من يكون أكرم من أبيه ، وربما كان الأب أكرم من ابنه ، وربما كان المملوك أكرم من مولاه ، وربما كان مولى أكرمُ من مملوكه .

ولقد أحسن الذى يقول : [الرمل]

رُبَّ مَمْلُـــــوكٍ إِذَا كَشَّفْتَهُ ... كَانَ مِنْ مَوْلاهُ أَوْلَى بِالْكَـــرَمْ
فَهْوَ مَمْــدُوحٌ عَلَى أَحْوَالِهِ (٣) ... وتَرَى مَوْلاهُ يُهْــــجَى ويُذَمّْ
وَتَـــرَاهُ كَيْفَ يَعْلُـــــو دَائبًا ... وتَـرَى مَوْلاهُ مِنْ تَحْتِ القَدَمْ
وَفَـــتًى تَلْـــــقَى أَبَاهُ دُونَهُ ... وَأَبًا تَلْقَــــــــاهُ أَعْلَى وأَتَمّْ
مِـــــنْ بَنِيهِ ، ثُمَّ لا يَعْتَلُّ إِنْ ... طُلِبَ المَعْرُوفُ مِنْهُ بِالصَّمَــمْ
وَكَذَاكَ النَّاسُ - فَـاعْلَمْ - رُبَّنَا ... قَدَّرَ الأَخْلاقَ فِيهِمْ وَقَسَمْ (٤)

---

(١) الجواذب ، بضم الجيم : طعام يتخذ من سكر وأرز ولحم (قاموس) .

(٢) سقط فى الأصل . (٣) فى الأصل : أفعاله .

(٤) هذه الأبيات الحسان فى ذكر أحوال الخليقة ، والتنبيه على غرابتها فيقول :

ربما تجدُ العبدَ الخادم فوق سيده فعالاً ، ومقالاً ، وحالاً فهو ربيبه غير أنه السيِّد الحق بحسن فعاله وطيب خصاله .

فهو المُقدَّح فى كل حالاته لما يذكَرُ فى حسناته ، وجميل صفاته ، أما سيِّده ، فهو أدنى للذمِّ والدَّنَاءَة منه إلى السِّيادة .

وترى الخادم هذا يعلو بخلقه وفضله ، ولا يزال يترقى بحسن ما استبقى وخلافه مولاه الأصل لا يزال يتضع وينحطُّ .

وكذلك قد ترى الفتى الحدث فى السنِّ يرقى المعالى ، ويصعد فى سماء المجد وترى أباه الذى =

وأنشدني الأبرش : [الوافر]

رَأَيْتُ اللِّينَ لا يَرْضَى بِضَيْـــــم ... لأَنَّ الضَّيْمَ يَسْخَطُهُ الكَرِيـــمُ
وَإِنَّ اللِّينَ أَكْـــرَمُ كُـــلِّ شَيْءٍ ... فَلَيْسَ يُحِبُّهُ خُلُـــقٌ لَئِيـــمُ
فَإِنْ نَزَلَ الأَذَى وَاللِّينُ قَلْبـــا ... فَإِنَّ اللِّينَ يَرْحَـــلُ لا يُقِيـــمُ
وَيَبْقَى [1] لِلأَذَى فِي القَلْبِ صَخْبٌ [2] ... مِنَ البَغْضَاءِ يَلْبَثُ [3] لا يَرِيمُ [4] [5]

حدثنا القطَّان بالرقَّة ، حدثنا أحمد بن الحَوَارِيِّ [6] . قال : سمعت أبي يقول : ما من أحد إلا وله توبة ، إلا سيئ الخلق ، فإنه لا يتوب من ذنب إلا دخل فى شرٍّ منه .

قال أبو حاتم - رضى الله عنه : الكريم محمود الأثر فى الدنيا ، مَرضِيٌّ العمل فى العقبَى ، يحبه القريب والقاصى ، ويألفه المتسخط والراضى ، يفارقه الأعداء واللئام ، ويصحبه العقلاء والكرام .

وما رأيت شيئًا أكثر عملاً فى نقص [7] كرم الكريم من الفقر ، سواء كان ذلك بالقلب أو بالموجود .

ولقد أنشدني المنتصر بن بلال الأنصاريّ : [الطويل]

= كفله وربَّاهُ فى وهدة السوء ، وقعر المساءة والخزى وكذلك ينقلبُ الحال ، فترى الأب فوق ابنه فعلاً وقولاً . . .

فهو كريم على كل حال سابق إلى حسن الفعال ، يتبدر المعروف لا يصدق عنه .

وهكذا قسى الناس ممن لم يذكر على ما ذكرت ، فكما قدرت أرزاقهم وتفاوتت قدرت كذلك أخلاقهم وتباينت .

(١) فى الأصل : ويلقى . (٢) فى الأصل : ضَبٌّ . (٣) فى الأصل : يثبت .

(٤) لا يريم من المكان : لا ينتقل منه ولا يبرح .

(٥) فليعلم أن اللين واللطف ينافى الظلم والجفاء ، فمن كان من ذوى اللين فإنه كريمٌ ، عطوف بسخطه الضَّيْم والأذى .

كذلك اللين لا يدخل شيئًا إلا زانه وما يعدمه شيء إلا شانه فهو من أكرم الأخلاق وأحسنها كما أنه ضد للؤم والخبث .

واللين واللؤم والأذى أجنادٌ ، تتعارك فإما اجتمعت فى قلب غادره اللين وانصرف تنزُّهًا وإعراضًا .

وإذا ما ذهب اللين بقى الأذى واللؤم فى القلب ثم يكسو هذا صاحبه ثياب البغضاء والمقت ، فلا يكاد يغادره .

(٦) فى الأصل : الجوارى . (٧) فى الأصل : نقض .

لَعَمْرُكَ ، إنَّ المَالَ قَدْ يَجْعَلُ الفَتَى نَسِيبًا ، وَإِنَّ الفَقْرَ بِالمَرْءِ (١) قَدْ يُزْرِى
وَلا رَفَعَ النَّفْـــسَ الدَّنِيَّةَ كَالغِنَى وَلا وَضَعَ النَّفْسَ الكَرِيمَةَ كَالفَقْرِ (٢)

حدثنا الحسن بن سفيان ، حدثنا أبو بكر بن أبى شيبة ، حدثنا حُميد بن عبد الرحمن، عن زكريا بن أبى زائدة ، عن علىّ بن الأقمر ، عن أبى جُحيفة ، قال : جالِسوا الكبراء ، وخالطوا الحكماء ، وسائلوا العلماء .

* * *

(١) فى الأصل : بالحر .

(٢) وليعلم العاقل أن الغنى هو لباس الزين والحلى ، وما أعظمه ، وأكمل صاحبه إن اجتمع عليه مع الكرم وحسن الفعال .

ما أجمل الدين والدنيا إذا اجتمعا لا بارك الله فى الدنيـــــا بلا دين

وأما الفقر فإنه لبسة مقت وسوء تزرى بصاحبها وتمقته .

وإن الغنى ليرفع صاحبه ، وإن كان لئيمًا دنيا ، وإن الفقر ليشين صاحبه وإن كان عفا كريمًا نقيًا وعليه ، فينبغى على العاقل أن يجد فى الغنى ليدفع عن نفسه النقائص والمفاقر . . . !!

ذِكْرُ الزَّجْرِ عَنْ قَبُولِ قَوْلِ الْوُشَاةِ

أنبأنا أبو يعلَى ، حدثنا عبد الله بن محمد بن أسماء ، حدثنا مهدىُّ بن ميمون ، حدثنا واصل الأحدب ، عن أبى وائل ، عن حذيفة أنه بلغه أن رجلاً يَنِمُّ الحديثَ ، فقال حذيفة : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « لا يَدْخُلُ الجَنَّةَ نَمَّامٌ » (١) .

قال أبو حاتم - رضى الله عنه : الواجب عَلَى الناس كافة مجانبة الإفكار فى السبب الذى يؤدِّى إلى البغضاء والمشاحنة بين الناس ، والسعى فيما يفرق جمعهم ، ويُبَدِّدُ شملهم . والعاقل لا يخوض فى الإفكار فيما ذكرنا ، ولا يقبل سعاية الواشى بحيلة من الحيل ، لعلمه بما يرتكب الواشى من الإثم فى العُقْبى ، بفعله ذلك .

ولقد أنبأنا محمد بن سعيد القزاز ، حدثنا عباس بن الوليد بن مَزْيد ، عن أبيه ، عن الأوزاعىِّ ، عن يحيى بن أبى كثير ، قال : قال سليمان بن داود لابنه : يا بُنَىَّ ، إياك والنميمة ، فإنها أحدُّ من السيف .

وأنشدنى الكريزىُّ : [البسيط]

مَنْ نَمَّ فِى النَّاسِ لَمْ تُؤْمَنْ عَقَارِبُهُ ... عَلَى الصَّدِيقِ ، وَلَمْ تُؤْمَنْ أَفَاعِيهِ (٢)

---

(١) أخرجه مسلم (١/١٠١) ، كتاب الإيمان ، باب بيان غلظ تحريم النميمة حديث (١٦٨/١٠٥)، وأحمد (٥/٣٩١ ، ٣٩٦ ، ٣٩٨ ، ٤٠٦) من طريق واصل الأحدب عن أبى وائل عن حذيفة بن اليمان أنه بلغه أن رجلاً كان ينم الحديث فقال حذيفة سمعت رسول الله ﷺ يقول : لا يدخل الجنة نمام .

وللحديث طريق آخر عن حذيفة ، وفيه قتَّاتٌ بدل نمام أخرجه البخارى (١٠/٤٨٧) ، كتاب الأدب، باب : ما يكره من النميمة ، حديث (٦٠٥٦) ، ومسلم (١/١٠١) ، كتاب الإيمان ، باب : بيان غلظ تحريم النميمة (١٦٩/١٠٥) .

وأبو داود (٢/٦٨٤) ، كتاب الأدب ، باب فى القتات حديث (٤٨٧١) ، والترمذى (٤/٣٢٩) ، كتاب « البر والصلة » ، باب : ما جاء فى النمام ، حديث (٢٠٢٦) ، وأحمد (٥/٣٨٢ ، ٣٨٩ ، ٣٩٢ ، ٤٠٢ ، ٤٠٤) ، والبيهقى (٨/١٦٦) ، كتاب : قتال أهل البغى ، باب ما على من رفع إلى السلطان ما فيه ضرر ، والبغوى فى « شرح السنة » (٦/٥٢٣ - بتحقيقنا) ، والطبرانى فى الصغير (١/٢٠٣) ، وفى الكبير (٣٠٠ / ١٨٦) رقم (٣٠٢٠) ، وأبو نعيم فى « الحلية » (٤/١٧٩) ، والخطيب فى « تاريخ بغداد » (١١/٢٣٧) من طريق همام بن الحارث عن حذيفة مرفوعًا بلفظ : « لا يدخل الجنة قتات » .

(٢) عقاربه وأفاعيه : دسائسه التى تقتل الموشى به - على التشبيه .

كَالسَّيْلِ بِاللَّيْلِ ، لا يَدْرِى بِهِ أَحَدٌ مِنْ أَيْنَ جَــاءَ ، وَلا مِنْ أَيْنَ يَأْتِيهِ ؟
فَالوَيْلُ لِلْعَهْدِ مِنْهُ ، كَيْفَ يَنْقُضُهُ ؟ وَالوَيْلُ لِلْوُدِّ مِنْهُ ، كَيْفَ يُفْنِيهِ ؟ (١)

أخبرنا أحمد بن إسحاق الناقد بواسط ، حدثنا أحمد بن عبد الجبار ، حدثنا أبو بكر ابن عياش ، عن أبى إسحاق ، عن عمرو بن ميمون ، قال : لما تعجَّل موسى بن عِمران إلى ربه ، رأى رجلاً تحت العرش ، فغبطه بمكانه ، فسأل ربَّه أن يخبره باسمه ، قال : لكنى أخبرك من عمله بثلاث خصال : كان لا يحسُد الناس على ما آتاهم الله من فضله، ولا يَعُقُّ والديه ، ولا يمشى بالنميمة .

أنبأنا محمد بن المهاجر ، حدثنا محمد بن يعقوبَ الربَعِىّ ، حدثنا محمد بن إدريس المعدَّل ، عن العُتْبِىِّ قال : سمعتُ أعرابية تُوصى ابنًا لها ، فقالت : عليك بحفظ السرِّ، وإياك والنميمة ، فإنها لا تترك مودة إلا أفسدتها ولا جماعةً إلا بددتْها ، ولا ضغينة إلا أوقدتها .

ثم لا بدَّ لمن عُرِف بها ، ونسب إلى مقارفتها ، من أن يُحتَرَس من مجالسته ، وألا يُوثَق بمودته ، وأن يُزْهد فى مواصلته ومعاشرته .

ولذلك يقول أخو ربيعة : [الطويل] :

تَمَشَّــــيْتَ فِينَا بِالنَّمِيمِ ، وَإِنَّمَا تُفَرِّقُ (٢) بَيْنَ الأَصْفِيَـــاءِ النَّمَائِمُ
وَمَا زِلْتَ مَنْسُـــوبًا إِلَى كُلِّ آفَةٍ وَمَا زَالَ مَنْسُوبًا إِلَيْكَ المَلائِـــمُ
لأَنَّكَ لَمْ تَنْدَمْ لِشَــــــرٍّ فَعَلْتَهُ وَمَا تَأْتِ مِنْ خَيْرٍ ، فَإِنَّكَ نَادِمُ (٣)

أنبأنا عمرو بن محمد ، حدثنا الغلابىُّ ، حدثنا محمد بن عُبيد الله الجُشَمِىّ ، حدثنا

---

(١) إن من شرار الناس أهل النميمة فكلهم أذى وسوء فكأنهم عقارب وأفاعى لا تنفك تسعى لتصيب مقتلاً .
فكأنه سيل هادر أدرع اللَّيل غدرًا ، فلا تدرى من أين يأتى ؟ ولا كيف يُتَّقَى ؟ .
فيا ويح وهلكة مَنْ صَاحَبَ لئيمًا نمامًا ، فإنه قطاع للعهود خائنٌ لها ، حرَّام للوداد جذام له .
(٢) فى الأصل : يغرق .
(٣) يأيها النمام قبحًا لك وعيًا ، فأنت نذير فرقة ومقطعة مودة ؛ إذ النميمة تكدر كل صَفْوٍ ، وتصدع كل إِلفٍ وتهدم كل رابطة .
ولا زلت ممقوتًا ممتهنًا تنسب إلى كل منقصة وخزى وتصفع بكل لائمة ومذمة .
فأنت بنية سوء ، ومشربك مشرب سوء ، فلا تأتى الخير إلا قليلاً ، وإما تأتيه عدوت متحسرًا عليلاً ، وتجسر على اقتحام الأذى ، وتهش بإتيانه إلماعًا بالرضا .

عليُّ بن محمد المدائنيّ ، قال : وَشَى واشٍ بعبد الله بن همام السَّلوليّ إلى زياد ، قال : فبعث زياد إلى ابن همَّام ، فجاء ، فأدخل الرجلُ بيتًا ، فقال له زياد : يابن همام ، بلغنى أنك هجوتنى ، فقال له : كلا ، أصلحك الله ! ما فعلتُ ، وما أنتَ لذلك أهل، قال : فإن هذا أخبرنى - وأخرج الرجل - فاطرق ابنُ همام هُنَيْهَةً (١) ، ثم أقبل على الرجل ، فقال : [الطويل]

وَأَنتَ امرُؤٌ إمَّا ائتَمَنْتُكَ خَـاليًا ... فَخُنْتَ ، وَإمَّا قُلْتَ قَوْلاً بِلا عِلْمِ
فَأَنْتَ مِنَ الأَمرِ الَّذى كَانَ بَيْنَنَا ... بِمَنْزِلَةٍ بَيْنَ الخِيَانَةِ وَالإِثْـمِ (٢)

قال : فأعجب زياد بجوابه ، وأدناه ، وأقصى الساعى ، ولم يقبل منه .

وأنشدنى ابن زنجيٍّ البغداديّ : [البسيط]

يَمْشُونَ فِى النَّاسِ يَبْغُونَ العُيُوبَ لِمَنْ ... لا عَيْبَ فِيهِ ، لِكَىْ يُسْتَشْرَفَ الْعَطَبُ
إِنْ يَعْلَمُوا الخَيْرَ يُخْفُوهُ ، وَإِنْ عَلِمُوا ... شَرًا أَذَاعُوا ، وَإِنْ لَمْ يَعْلَمُوا كَذَبُـوا (٣)

أخبرنى محمد بن أبى علىٍّ ، حدثنا ابن أبى شيبة أبو جعفر ، حدثنا الحسن بن صالح :

قال : سمعت حُجَيْنَ بن المثنىَّ يقول : سَعَى رجل بالليث بن سعد إلى والى مصر ، فبعث إليه فدعاه ، فلما دخل عليه قال له : يا أبا الحارث ؛ إن هذا أبلغنى عنك كذا وكذا ، فقال له الليث : سَلْه ، أصلح الله الأمير ! عما أبلغك ، أهو شىء ائتمناه عليه، فخاننا فيه ، فما ينبغى لك أن تقبل من خائن ، أو شىء كذب علينا فيه ، فما ينبغى لك أن تقبل من كاذب ؟ فقال له الوالى : صدقت يا أبا الحارث .

أخبرنا ابنُ جَوْصا ، حدثنا عبد الله بن هانئ بن عبد الرحمن عن ابن عُلَيَة (٤) ، عن

---

(١) فى الأصل : هنية .

(٢) أنت امرؤ سُوءٍ وبلاء ، حيثما ائْتُمِنتَ خُنْتَ ، وحيثما تكلمت كذبت وافتريت ، وحيثما قلت كنت جاهلاً بما يصدر وما يرد .

فأنت بين منزلة الإثم والخيانة ، وبئست المنزلتان .

(٣) هؤلاء قوم سوء ، إن سعوا فبالريبة وتلمس العيب بين الناس ؛ ابتغاء السوء والإفساد .

ولما يعلمون خيرًا فإنهم يصمون عنه ، وإن التمحوا شرا أذاعوه وأشاعوه ، وإذا ما لم يعلموا الحال كذبوا وخاضوا بسوء المقال . .

(٤) فى الأصل : بن أبى عبلة .

أبيه ، عن عمه إبراهيم بن أبى عَبْلة ، قال : كنت جالسًا مع أم الدرداء ، فأتاها آت ، فقال : يا أم الدرداء ، إن رجلاً نال منكِ عند عبد الملك بن مروان ، فقالت : إن نُؤْبَنْ[1] بما ليس فينا ، فطالما زُكِّينا بما ليس فينا .

قال أبو حاتم - رضى الله عنه : الواجب على العاقل لزوم الإغضاء عما يَنقل الوُشاة، وصرف جميعها إلى الإحسان ، وترك الخروج إلى ما لا يليق بأهل العقل ، مع ترك الإفكار فيما يُزرى بالعقل ، لأن[2] من وشَى بالشىء إلى إنسان بعينه ، يكون قصده إلى المخبَر ، أكثر من قصده إلى المخبَر به ، لمشافهته إياه بالشىء الذى يَشُقُّ عليه علمه وسماعه .

ولقد أحسن الذى يقول : [الرمل]

مَـــــنْ يُخَبِّـرْكَ بِشَتْمٍ عَنْ أَخٍ ... فَهُـــوَ الشَّاتِمُ ، لا مَنْ شَتَمَـكْ
ذَاكَ شَىْءٌ لَمْ يُوَاجِهْـــكَ بِهِ ... إِنَّمَا اللَّوْمُ عَلَى مَنْ أَعْلَمَــكْ
كَيْفَ لَمْ يَنْصُرْكَ ،إِنْ كَانَ أَخَا ... ذَا وَفَاءٍ عِنْدَ مَنْ قَدْ ظَلَمَـكْ ؟!
إِنَّمَـــا رَامَ بِإِبْـــلاغِ الَّذِى ... نَمَّ فِيهِ فَاعْلَمَنْ أَنْ يُرْغِمَـــكْ
فَأَهِــــنْهُ ؛ إِنَّهُ مِنْ لُؤْمِهِ ... إِنْ تُهِنْهُ بِهَــوَانٍ أَكْرَمَـــكْ
لَكِـــنِ الحُــــرُّ إِذَا أَجْلَلْتَهُ ... لَمْ يُصَغِّرْكَ ،وَلَكِنْ فَخَّمَـكْ [3]

أنبأنا محمد بن المهاجر ، حدثنا محمد بن عبد الله السويدىّ ، قال : سمعت العباس ابن ميمون يقول ، شيع المأمون الحسن بن سهل ذا الوزارتين ، فلما بلغا نهاية التشييع ، قال له المأمون : يا حسن ، ألك حاجة ؟ قال : نعم يا أمير المؤمنين ، تحفظ علىَّ من قلبك ما لا أستطيع إدراكه إلا بك ، ويكونُ بينى وبينك قول كُثَيِّر عزة : [الطويل]

---

(١) نؤبن : نعاب ونرمى . (٢) فى الأصل : لأنه .

(٣) ينبغى الإغضاء عما ينقله الوشاة النمامون ، ولتعلم أن كل من بلَّغ لك مسبة إنما هو سابك وشاتمك .

فصاحب الشتم قد اتَّقاك عند شتمه وذمه ، فكيف يبلغك هذا بكل قمة ما سببت به ، وفى ذلك لائمة عليه لا له . .

وإذا ما ادعى نصرتك والغضبة لك ، فكيف أهملك بنصرته عند من سبك واكتفى بإبلاغك ؟

وإنما ابتغى النميمة والإثارة والسوء بإبلاغه لك ما لا ينفعك بل قد يضرك .

فمثل هذا حقيق أن يدافع ويهان إذ إنه عدا الطور ولزم الجحود وفى إهانته إكرامك .

فلو كان حرا أصيلاً ذا مكرُمة ، وفضل لما أساء إليك بإيصال سبك وبالنمِّ على غيرك .

وكُونِى عَلَى الوَاشِينَ لَدَّاءَ شَغْبَةً كَمَا أَنَا لِلْوَاشِى أَلَدُّ شَغُوبُ (١)

أخبرنا محمد بن سعيد القزاز ، حدثنا محمد بن خُزيمة البصرىّ ، حدثنا حُذَيفة ، حدثنا عِكرمة بن عمار ، عن يحيى بن أبى كثير ، قال : الذى يعمله النمام فى ساعة ، لا يعمله الساحر فى شهر .

أخبرنا محمد بن عثمان العقبىّ ، حدثنا محمد بن الحسن الهلالىّ ، حدثنا أبو عَوانة البصرىُّ ، حدثنا داود بن شبيب ، حدثنا حماد بن سَلَمة ، قال : « باع رجل من رجل غلامًا له ، فقال : أبرأ إليك من النميمة ، فاشتراه على ذلك ، فجاء إلى مولاته ، فقال: إن زوجك ليس يحبك ، وهو يتسرَّى (٢) عليك ويتزوج ، أفتريدين أن يعطف (٣) عليك ؟ قالت : نعم ، قال : خذى موسى ، فاحلقى به شَعَيرات من باطن لحيته ، وبخِّريه بها ، وجاء إلى الرجل ، فقال : إن امرأتك تبغى ، وتصادق ، وهى قاتلتك ، فأتريد أن يبين (٤) لك ذلك ؟ قال : نعم ، قال : تناوم لها ، قال : فتناوم لها ، فجاءت بموسى لتحلِق الشعْر ، فأخذها فقتلها ، فأخذه أولياؤها فقتلوه .

قال أبو حاتم - رضى الله عنه : هذا وأمثاله من ثمرة النميمة ؛ لأنها تهتك الأستار ، وتُفْشِى الأسرار ، وتورث الضغائن ، وترفع المودة ، وتجدد العداوة ، وتبدد الجماعة ، وتَهِيج الحقد ، وتزيد الصدَّ (٥) ، فمن وُشِىَ إليه عن أخ ، كان الواجب عليه معاتبته على الهفوة إن كانت ، وقبول العذر إذا اعتذر ، وترك الإكثار من العتب ، مع توطين النفس على الشكر عند الحِفاظ ، وعلى الصبر عند الضَّياع ، وعلى المعاتبة عند الإساءة .

وأنشدنى منصور بن محمد الكريزىُّ : [الكامل]

كَـافِ الخَلِيلَ عَلَى المَوَدَّةِ مِثْلَهَا وَإِذَا أَسَـاءَ فَكَـافِهِ بِعِتَابِهِ (٦)

وإِذَا عَتَبْتَ عَلَى امْـرِئٍ آخَيْتَهُ فَتَـوَقَّ ظَاهِرَ عَيْبِهِ وَسِبَـابِهِ

وَأَلِنْ جَنَاحَكَ مَا اسْتَلانَ لِوُدِّهِ (٧) وَأَجِبْ أَخَاكَ إِذَا دَعَا بِجَوَابِهِ (٨)

---

(١) هذا البيت المفرد هو تحق من كُثَيِّر على عزة أن تعينه على الوشاة الكذبة المفسدين بين الأحباء، وأن تكون نارًا عليهم لا وقودًا لنارهم ، وكذلك هو غصة فى حلوقهم وعدو لدودٌ مخمدٌ لنار وشايتهم.

(٢) يتسرى أصله يتسرر ، أى يقتنى السرارى ، جمع سرية وهى الجارية .

(٣) فى الأصل : نعطف . (٤) فى الأصل : فتريد أن يتبين . (٥) فى الأصل : الضغينة .

(٦) كافه : أصلها كافئه ، أى جازه . (٧) فى الأصل : بودهم .

(٨) ينبغى على كريم الأصل فاضل الفعل أن يكافئ ويجازى خليله بالحسنى على حسن فعاله بطيب وصاله ، وإذا ما ابتدره بزلةٍ ، فليعاتبه بالحسنى . =

وأنشدنى على بن محمد البسَّامىّ : [الطويل]

أعـــاتبُ إخْوَانى ، وأُبْقِى عَلَيْهِمُ ... ولَسْتُ لَهُمْ بَعْدَ الْعِتَابِ بِقَاطِـــعِ
وأَغْفِـــــــرُ ذَنْبَ المَرْءِ إنْ زَلَّ زَلَّةً ... إذَا مَا أَتَاهَا كَارِهًا غَيْرَ طَائِـــعِ
وأَجْــــزَعُ مِنْ لَوْمِ الحَكِيمِ وعَذْلِهِ ... ومَا أنَا مِنْ جَهْلِ الجَهُولِ بِجَازِعِ (١)

أخبرنى محمد بن على (٢) الخلادىّ ، أخبرنى محمد بن يزيد (٣) النحوىّ ، عن العتبىِّ، عن أبيه ، قال : عتب ابن الزبير على معاوية فى شىء ، فدخل عليه ، فقال : يا أمير المؤمنين ، اسمع أبياتًا أعتبك فيها ، قال : هات ، فأنشده : [الطويل]

لَعَمْرُكَ مَا أَدْرِى ، وإنِّى لأَوْجَلُ (٤) ... عَلَى أَيِّنا تَعْـــــدُو (٥) المَنِيَّةُ أَوَّلُ
وإنِّى عَلَى أَشْيَاءَ مِنْـــــكَ تَرِيبُنِى ... كَثِيرًا لَذُو صَفْحٍ عَلَى ذَاكَ مُجْمِــلُ
إذَا أَنْتَ لَمْ تُنْصِفْ أَخَاكَ وَجَدْتَّــهُ ... عَلَى طَرَفِ الهِجْرَانِ لَوْ كَانَ يَعْقِلُ (٦)

فقال (٧) له معاوية : لقد شَعَرْتَ بعدى يا أبا بكر ، فدخل عليه مَعْن بن أوس المزنىّ بعد ذلك ، فقال له معاوية : هل أحدثت بعدنا شيئًا ؟ قال : نعم ، ثم أنشده [الطويل]:

= وليحذر فى عتابه أن يشنع بصاحبه أو يكشف عواره ، ويظهر سبابه .
ولكن ليلين جانبه ، ويستميله لوده ، وليجبه إذا دعاه فإنما تلك هى عقود المودة ومعاقد الصحبة .

(١) إنى لأنبه إخوانى عند زللهم بلطيف القول ، ولا أقطع أواصر محبتنا بهذا العتاب . .
ولما يأتى ذنبًا بجهل فإنى أغتفره ، وأتجاوز عنه ؛ إذْ كل إنسان جائز عليه النسيان ، فما سمى الإنسان إلا لنسيه .
وإنى لمفرط الحس رهيفه يلهبنى أن ألوم العطوف الحليم ، وأن أعذله ، بينما ذلك لا يتأتى لذى الجهل ، والفظاظة ممن جهل وسفه نفسه . . .

(٢) فى الأصل : أبى على .
(٣) فى الأصل : أبى يزيد .
(٤) أوجل : مضارع وجلت ، أو اسم تفضيل من الوجل ، وهو الخوف .
(٥) فى الأصل : تغدو .
(٦) يمين الله إنى لا أدرى أينا تخطفه المنية وتقطمه أولاً وذلك فى علم ربى لا يملكه إلا هو .
كما أنى صافح عما ابتدرتنى به من مريبات وزلات .
فهلا انتصفتنى وأحسنت كإحسانى إليك ؟ وإلا تفعله وجدتنى على طرف الهجران لك ، والنابذين لعهدك .
(٧) فى الأصل : قال .

* لَعَمْرُكَ مَا أَدْرِى وَإِنِّى لأَوْجَلُ *

فقال : علىٌّ بابن الزُّبَيْر ، فقال : أليس هذا لك فيما زعمت ؟ قال : أنا ألفت المعنى، وهو ألف القوافى ، وهو بعدُ ظِئْرِى ، ومهما قال من شىء فأنا قُلْته . فضحك معاوية ، وكان معن بن أوس مُسْتَرْضَعًا فى مُزَيْنة .

سمعت الحسين بن إسحاق (١) الأصفهانىّ يقول : كتب علىُّ بن حَجَرِ السَّعْدِىّ إلى بعض إخوانه : [الوافر]

أَحِـــنُّ إِلَى عِتَابِكَ غَيْرَ أَنِّى ... أُجِـــلُّكَ عَنْ عِتَابٍ فِي كِتَابِ
وَنَحْـــنُ إِذَا الْتَقَيْنَا قَبْلَ مَوْتٍ ... شَفَيْتُ غَلِيلَ صَدْرِى بْنْ عِتَابِى (٢)
وَإِنْ سَبَقَـتْ بِنَا أَيْدِى (٣) الْمَنَايَا ... فَكَمْ مِنْ عَاتِبٍ تَحْتَ التُّرَابِ (٤)

وأنشدنى عبد العزيز بن سليمان الأبرش : [الطويل]

صَحَائِفُ عِنْدِى لِلْعِتَابِ طَوَيْتُهَا ... سَتُنْشَرُ يَوْمًا ، وَالعِتَابُ يَطُولُ
كِتَـــابٌ لَعَمْرِى لابَنَانَ يَخُطُّهُ ... وَسَـــوْفَ يُؤَدِّيهِ إِلَيْكَ رَسُولُ
سَأَكْتُبُ إِنْ لَمْ يَجْمَعِ اللهُ بَيْنَنَا ... وَإِنْ نَجْتَمِعْ يَوْمًا فَسَوْفَ أَقُولُ (٥)

قال أبو حاتم - رضى الله عنه : الواجب على العاقل ألا يقصِّر عن (٦) معاتبة أخيه على

---

(١) فى الأصل : إسحاق بن إبراهيم . (٢) فى الأصل : عن عتاب .

(٣) فى الأصل : بنا ذاك .

(٤) إنى يا صاحبى وخليلى لناقدٌ عليك بعض الفعال غير أنى أُجِلُّك عن العتاب فى رسالة .

ولكن أدع هذا العتب إلى أن ألقاك شفاهة ، فإذا ما لقيتك شفيتَ علتى ، ونقعتَ غُلَّتى ، ونفثت مصرور عتابى .

وإن تخطفتنا المنايا وأذهبتنا بدرًا ، فقد أعاتبك تحت الثرى ، فكم من متعاتبَيْنِ قد ماتا ، ولم يتعاتبا ، فما نحن ببدعٍ فى هذا !

(٥) عندى لك يا صديقى ملامة قد طويتها إلى حين عتابك وحينها فسأنشرها إليك وأطيل العتاب عليك .

وهذه الصحائف التى فيها ملامتك إنما هى مسطورة بقلبى ، وسوف تقرؤها برويتك لى فمسيمى رسول إليك بالعتب حينها .

وإن لم نجتمع فلا صبر لى على طى العتاب ، فسأخطه إليك ، وإن نجتمع سأحادثك ، وأنفث مصرور عتابى إليك .

(٦) فى الأصل : فى .

زلّته ؛ لأن من لا يعاتب على الزلّة ، لم يكن بحافظ للخُلّة ، ومن أعْتبَ لم يذنب ، كما أن من اغتفر لم يعاقب ، وظاهر العتاب خير من مكتوم الحقد ، ورُبَّ عَتْب أنفعُ من صفح : ولذلك أنشدنى محمد بن إسحاق الواسطىّ : [الطويل]

إِذَا مَا امْرُؤ سَاءَتْكَ مِنْهُ خَلِيقَـــةٌ فَكَاتَمْتَهُ ، فَالوَهْنَ فِى ذَاكَ تَرْكَبُ
لَعَلَّـــكَ لَوْ عَاتَبْتَهُ ثُمَّ لُمْتَـــهُ لَسَرَّكَ ، حَتَّى لَمْ تَكُنْ تَتَعَتَّبُ (١)

وأنشدنى الكُريزىّ : [الطويل]

فَإِنْ تَكُــنِ الْعُتْبَى فَأَهْلاً وَمَرْحبًا وَحُـــقَّ لَهَا الْعُتْبَى لَدَيْنَا وَقَلَّتِ
وَإِنْ تَكُـنِ الأُخْرَى ، فَإِنَّ وَرَاءَنَا مَفَاوِزَ لَوْ سَارَتْ بِهَا العِيسُ كَلَّتِ (٢)

قال أبو حاتم - رضى الله عنه : لا يجب على العاقل أن يُناقش على تصحيح الإعتاب بالإكثار ، مخافةَ أن يعود المعاتَب إلى ما عُوتب عليه ؛ لأن من عاتب على كل ذنب أخاه ، فخليق أنِ يَمَلَّه ويَقْلاه ، وإنْ من سُوء الأدب كثرة العتاب ، كما أن من أعظم الجفاء ترك العِتاب ، والإكثار من المعاتبة يقطع الودَّ ، ويورث الصدَّ .

ولقد أنشدنى عبد الله بن أحمد النقيب البغدادىّ لابن المعتز : [الطويل]

مُعَـــــاتَبَةُ الإِلْفَيْنِ تَحْسُــنُ مَرَّةً فَإِنْ أَكْثَرَا إِدْمَانَهَا أَفْسَــدَا الحُبَّـــا
إِذَا شِئْــتَ أَنْ تُقْلَى فَزُرْ مُتَتَابِعًـــا إِنْ (٣) شِئْتَ أَنْ تَزْدَادَ حُبا ، فَزُرْ غِبًّا (٤)

وأنشدنى محمد بن أبى على الصيداوىّ : [الطويل]

---

(١) ينبغى على العاقل ألا يضمر أحشاءة على عتاب لصديقه فإن ذلك هم ، وفى العلاقة وهن. ولكن ينبغى أن تبوح له بعتبك عليه ، فقد يشفى هذا صدرك ويجلو ناحيته ودَّك . . .

(٢) إن المحبين ليبقون الوصال بالعتاب فإن العتاب يدفع القطيعة ويثبت الوداد ، فإن تكن العتبى فأهلاً بها .

وإلا يكن العتاب فإنه العضال والفراق والقطيعة والوحشة التى تكلُّ فيها العيسُ ، ويُزيِّفُ فيها النفيس .

(٣) فى الأصل : وإن .

(٤) ينبغى على المحبين ألا يكثروا العتاب لئلا تتغير القلوب ، وتفسد المحبوب ، وتكدر الصفو ، وتوغر الصدر .

وهكذا الأمور إذا أُدْمنتْ فسدت وإما كانت غبا زادت حبا ، كالزيارات من أدمنها قطعها ، ومن أقلها وصلها .

إِذَا كُنْتَ فِى كُلِّ الأُمُــورِ مُعَاتِبًــا ... خَلِيلَكَ لَمْ تَلْــقَ الَّذِى لَا تُعَاتِبُهْ [1]
فَعِشْ وَاحِدًا ، أَوْصِلْ أَخَاكَ ؛ فَإِنَّهُ ... مُقَارِفُ ذَنْبٍ مَــــرَّةً وَمُجَانِبُــهْ
إِذَا أَنْتَ لَمْ تَشْرَبْ مِرَارًا عَلَى القَــذَى ... ظَمِئْتَ، وَأَىُّ النَّاسِ تَصْفُو مَشَارِبُهْ؟! [2]

أخبرنا محمد بن المهاجر ، حدثنا محمد بن الحسن الذُّهْلى ، عن أبى السائب ، قال: قال على بن أبى طالب - رضى الله عنه : لا تُكْثِر العتاب ، فإن العتاب يورث الضغينة والبَغضة ، وكثرته من سوء الأدب .

قال أبو حاتم - رضى الله عنه : قد ذكرت ما يشاكل هذه الحكايات فى كتاب « مراعاة الإخوان » ، فأغنى ذلك عن تكْرارها فى هذا الكتاب .

* * *

(1) الأبيات لِبَشَّار بن برد رواها الصيداوى للمؤلف .

(2) ينبغى على العاقل ألا يرصد لخليله كل هفوة ، ويعقبه عليها عتابًا وجفوة ، وإلا كان ذلك تُكأه وذريعة إلى نفى الخلان ، وهجر الإخوان ، وعُدْم مَنْ يثبتُ حتى العتاب .

ومن دأب هذا ، ولم يرعوِ عن شططه ، فليعش وحيدًا فريدًا ، أو فليمتطِ مطية العقل ، وأن يسامح أخاه مرات ويعتبه مرة . . .

وهكذا من لم يأخذ الأمور على عِلاتها وحسب طبائعها انفرد واحدًا وظل متكهفًا . .

ذِكْرُ اسْتِحْبَابِ قَبُولِ الاعْتِذَارِ مِنَ الْمُعْتَذِرِ

أنبأنا عليُّ بن الحسن بن عبد الجبار بنصيبين ، حدثنا على بن حرب الطائىّ ، حدثنا وكيع ، عن الثورىّ ، عن ابن جريج ، عن العباس بن عبد الرحمن بن مينا (١) ، عن جوْدان ، قال : قال رسول الله ﷺ : « مَنِ اعْتَذَرَ إِلَى أَخِيهِ فَلَمْ يَقْبَلْ : كَانَ عَلَيْهِ مِثْلُ خَطِيئَةِ صَاحِبِ مَكْسٍ » (٢) .

---

(١) في الأصل : مينا الأشجعى .

(٢) أخرجه ابن ماجة (٢/ ١٢٢٥) كتاب الأدب ، باب : المعاذير ، حديث (٣٧١٨) ، والطبرانى فى « الكبير » (٢/ ٢٧٦) رقم (٢١٥٦) ، من طريق وكيع عن سفيان ، عن ابن جريج ، عن ابن ميناء ، عن جودان به ، وعند الطبرانى ، عن ابن جريج ، عن العباس بن عبد المطلب ، عن ابن ميناء ، عن جودان .

قال البوصيرى فى « الزوائد » (٣/ ١٧٥) : ليس لجودان عند ابن ماجة سوى هذا الحديث ، وليس له رواية فى شىء من الكتب الخمسة ورجال إسناده ثقات إلا أنه مرسل ، قال أبو حاتم : جودان هذا ليست له صحبة ، وهو مجهول .

وللحديث شاهد من حديث جابر .

أخرجه الطبرانى فى « الأوسط » كما فى « مجمع الزوائد » (٨/ ٨٤) ، بلفظ : من اعتذر إلى أخيه فلم يعذر أو لم يقبل عذره كان عليه مثل خطيئة صاحب مكس .

وقال الهيثمى : وفيه إبراهيم بن أعين ، وهو ضعيف . أ . هـ .

وحديث جودان عزاه للضياء المقدسى فى المختارة السيوطىُّ فى « الجامع الصغير » (٦/ ٧٣ - فيض) رقم (٨٤٧٥) .

كان عليه من الخطيئة مثل صاحب مكس ، لأن من صفاته تعالى قبول الاعتذار والعفو عن الزلات فمن أبى واستكبر عن ذلك فقد عرَّض نفسه لغضب الله ومقته ، قال الراغب : وجميع المعاذير لا تنفك عن ثلاثة أوجه : إما أن يقول لم أفعل أو فعلت لأجل كذا فيتبين ما يخرجه عن كونه ذنبًا ، أو يقول فعلت ولا أعود ، فمن أنكر وأنبأ عن كذب ما نسب إليه فقد برئت منه ساحته ، وإن فعل وجحد فقد يعد التغابى عنه كرمًا ، ومن أقرَّ فقد استوجب العفو بحسن ظنه بك ، قال الحكماء : تحاذر عن مذنب لم يسلك بالإقرار طريقًا حتى أخذ من رجائك رفيقًا ، وإن قال فعلت ولا أعود فهذا هو التوبة وحق الإنسان أن يقتدى بالله فى قبولها . قال الغزالى : مهما رأيت إنسانًا يسىء الظنَّ بالناس طالبًا للعيوب فاعلم أنه خبيث فى الباطن وأن ذلك خبث يترشح منه ، وإنما يرى غيره من حيث هو فإن المؤمن يطلب المعاذير والمنافق يطلب العيوب والمؤمن سليم الصدر فى حق الكافة ؛ وفيه إيذان بعظم جرم المكس فإنه من الجرائم العظام .

=

قال أبو حاتم - رضى الله عنه : أنا خائف أن يكون ابن جُرَيج - رحمه الله ، ورضوانه عليه - دلّس هذا الخبر ، فإن كان [1] سمعه من العباس بن عبد الرحمن ، فهو حديث حسن غريب .

فالواجب على العاقل إذا اعتذر إليه أخوه بجرم مضَى ، أو لتقصير سبق ، أن يقبل عُذره ، ويجعله كمن لم يذنب ، لأن من تُنُصِّل إليه فلم يقبل ، أخاف ألا يَرِدَ الحوضَ على المصطفى - صلى الله عليه وسلم - ومن فَرَّط منه تقصير فى سبب من الأسباب ، يجب عليه الاعتذار من تقصيره إلى أخيه .

ولقد أنشدنى محمد بن عبد الله بن زنجىٍّ البغدادىّ : [الوافر]

إِذَا اعْتَذَرَ الصَّـــدِيقُ إِلَيْكَ يَوْمًا ... مِنَ التَّقْصِيرِ عُذْرَ أَخٍ مُقِـــرِّ
فَصُنْهُ عَنْ جَفَائِكَ ، وَاعْفُ عَنْهُ ... فَإِنَّ الصَّفْحَ شِيمَةُ كُلِّ حُـرِّ [2]

وأنشدنى محمد بن إسحاق الواسطىّ : [السريع]

شَفِيـعُ مَنْ أَسْلَمَهُ جُــــرْمُهُ ... إِقْـــرَارُهُ بِالجُـــرْمِ وَالذَّنْبِ
وَتَـــوْبَةُ الْمُذْنِبِ مِـــنْ ذَنْبِهِ ... إِعْتَابُ مَنْ أَصْبَحَ ذَا عَتْبِ [3]

أنبأنا عمرو بن محمد ، حدثنا الغلابىُّ ، حدثنا ابن عائشة [4] ، قال : غضب

= قال الحافظ العراقى : اختلف فى صحبته وجهّله أبو حاتم ، وقال لا صحبة له ، وباقى رجاله ثقات.

قال : ورواه الطبرانى عن جابر بسند ضعيف أ . هـ ، وفى « الإصابة » عن ابن حبان : إن كان ابن جرير سمعه فهو حسن غريب ، وما ذكر من أنه جودان بالجيم هو ما جرى عليه ابن ماجة . قال ابن حجر : وهو الصواب وقول العسكرى يودان تصحيف .

(١) فى الأصل : فإن .

(٢) وينبغى على العاقل أن يقبل عذر الصديق ، فمن قصر واعتذر وانخلع من ذنبه صادقًا مقرا تائبًا .

فلتقبل توبته ، ولتغفر زلته ، وليُدْفَعْ عنه الجفاء والغلظة ، فإن هذه شيمة الأحرار مُقِيلُوا العثرات ، غَافِرُوا الزّلات .

(٣) من اقترف جرمًا ، وركب إثمًا ، ثم أقبل على نفسه ، وباء بخطيئته فذلك له شفيع وذريعة إلى قبول معذرته ، والصفح عن زلته .

وتوبة مَنْ هذه حاله هى إقالة عثرته وإزالة إعتابته .

[والهمزة فى إعتاب] للإزالة يقال أعتبه : أى : أزال عتبه . وغفر ذنبه .

(٤) هو محمد بن عبيد الله .

سليمان بن عبد الملك ، على خالد بن عبد الله ، فلما دخل عليه قال : يا أمير المؤمنين ، القدرة تُذهب الحفظة [١] ، وأنت تَجِلُّ عن العقوبة ، فإن تعف فأهل ذاك أنت ، وإن تعاقب فأهل ذاك [٢] أنا ، قال : فعفا عنه .

قال أبو حاتم - رضى الله عنه : لا يجبُ للمرء أن يعتذر بحيلة إلى من لا يحبُّ أن يجد له عُذرًا ، ولا يجب أن يكثر من الاعتذار إلى أخيه ؛ فإن الإكثار من الاعتذار هو السبب المؤدِّى إلى التهمة ، وإنى لأستحبُّ الإقلال من الاعتذار ، على الأحوال كلها ، لعلمى بأن المعاذير يعتريها الكذب ، وقلما رأيتُ أحدًا اعتذر إلا شابَ اعتذارَه بالكذب ، ومن اعترف بالزَّلة ، استحق الصفح عنها ؛ لأن ذُلَّ الاعتذار عن الزَّلة ، يوجب تسكين الغضب عنها ، فالمعتذر إذا كان مُحِقا يخضع فى قوله ، ويذَلَّ فى فعله ، كما أنشدنى المنتصر بن بلال : [الطويل]

أَيَا [٣] رَبِّ قَدْ أَحْسَنْتَ عَوْدًا وَبَدْأَةً ... إِلَىَّ ، فَلَمْ يَنْهَضْ بِإِحْسَانِكَ الشُّكْرُ

فَمَنْ كَانَ ذَا عُذْرٍ إِلَيْكَ وَحُجَّـةٍ ... فَعُذْرِىَ إِقْرَارِى بِأَنْ لَيْسَ لِى عُذْرُ [٤]

وأنشدنى الكُريزىُّ : [الطويل]

وَإِنِّى وَإِنْ أَظْهَرْتَ لِى مِنْكَ جَفْوَةً ... وَأَلْزَمْتَنِى ذَنْبًا وَإِنْ كُنْتُ مُجْرِمَا

لَرَاضٍ لِنَفْسِى مَا رَضِيتَ لَهَا بِهِ ... أَرَاكَ بِهَا مِنِّى أَبَرَّ وَأَرْحَمَا [٥]

أنبأنا محمد بن عثمان العقبى ، حدثنا الفَيض بن الجَهم [٦] التميمىّ ، حدثنا عبد الله ابن خُبيق قال : كان يقال : احتملْ من ذَلَّ [٧] عليك ، واقبل ممن اعتذر إليك .

أنبأنا بكر بن محمد بن عبد الوهاب القَزّاز بالبصرة ، حدثنا إسماعيل بن إبراهيم أبو بشر ، قال : سمعت أبى قال : حدثنا مبارك بن فَضالة ، عن حميد الطويل ، عن أبى

---

(١) فى الأصل : الحفيظة . (٢) فى الأصل : ذلك . (٣) فى الأصل : يا .

(٤) هذان البيتان فى الضراعة إلى الله والإنابة إليه ، وقد أحس ناظمها ، فيقول : يا رب العالمين قد أحسنت إلىَّ فى المبتدى والمنتهى ، وقد غمرتنى بفضلك ، وكرمك ، وما يوافى نعمك شكرى .

والعابدون إليك قد اعتذروا أو اعتدوا بالزاد لملاقاتك ، وأنا بين يديك لا حجة لى وعذرى إليك هو تقصيرى وجهلى وألا عذر لى .

(٥) يا صاحبى وحبيبى ، إننى على ما يبدو منك من إظهار الجفاء وإلزامى الذنب والخطأ ، وإن لم يكن لى خطأ اقترفته ، ولا إثمًا اجترحته .

راضٍ بالنزول على حكمك والتلبس بتهمك ، فعساك أن تكون بنفسى أرحم وأبر بها منى عليها .

(٦) فى الأصل : الخفير . (٧) فى الأصل : لمن .

قِلابة ، قال : إذا بلغك عن أخيك شيء تكرهه فالتمس له عذرًا ، فإن لم تجد له عذرًا فقل : لعل له عذرًا لا أعلمه .

قال [أبو حاتم رضى الله عنه] (١) : لا يجب للمرء أن يُعلِنَ عقوبة مَن لم يُعلِنْ ذنبه، ولا يخلو المعتذر فى اعتذاره من إحدى حالتين : إما أن يكون صادقًا فى اعتذاره ، أو كاذبًا ؛ فإن كان صادقًا فقد استحق الغفران ؛ لأن شرَّ الناس من لم يُقِل العثَرات (٢)، ولا يَستُر الزّلات ، وإن كان كاذبًا فالواجب على المرء إذا علم من المعتذر إثم الكذب وريبته ، وخضوع الاعتذار وذِلَّته ، ألا يعاقبه على الذنب السالف ، بل يشكر له الإحسان المحدَث ، الذى جاءه به فى اعتذاره ، وليس يَعيبُ على المعتذر أن ذَلَّ وخضع فى اعتذاره إلى أخيه .

وأنشدنى الأبرش : [الكامل]

هَبْنِى أَسَأْتُ ؛ كَمَا زَعَمْـ ... تَ فَأَيْنَ عَاطِفَـــةُ الأُخُــوَّةْ ؟
أَوْ إِنْ أَسَأْتَ ، كَمَا أَسَـأْ ... تُ، فَأَيْنَ فَضْلُكَ وَالْمُرُوَّةْ ؟(٣)

وأنشدنى علىّ بن محمد البسَّامىّ : [الطويل]

فَهَبْنِي مُسِيئًا كَـالَّذِى قُلْتَ ظَالِمًا ... فَعَفْوٌ جَمِيلٌ كَىْ يَكُونَ لَكَ الفَضْلُ
فَإِنْ لَمْ أَكُنْ لِلعَفْوِ مِنْكَ لِسُوءِ مَا ... أَتَيْتُ (٤) بِهِ أَهْلاً ،فَأَنْتَ لَهُ أَهْلُ(٥)

وأنشدنى ابن زَنجىٍّ البغدادىّ : [الكامل]

هَـــبْنِى أَسَأْتُ ، وَكَانَ جُـــرْ ... مِـى مِثْلَ جُرْمِ أَبِى لَهَـــــبْ !
فَأَنَا أَتُـــوبُ كَمَا أَسَـــــأْ ... تُ ، وَكَمْ أَسَأْتَ فَلَمْ تَتُبْ !(٦)

---

(١) سقط فى الأصل .

(٢) العثرة : السقطة ، والإقالة منها : الأخذ بيد الساقط حتى يقف والمراد : المسامحة عند الهفوة .

(٣) ينبغى عليك أن تقبل عذرى وحجتى إليك ، ولو أننى حقيق بالإساءة جدير بالعقاب فأين إخوتك لى ، وعطفك على ؟ .

وماذا لو اغتفرت ذلتى ووهبتها لفضلك ومروءتك ، فقد تسىء كما أساتُ ، إذ المرء رهن لأيامه تغير من حاله .

(٤) فى الأصل : جَنَيْتُ .

(٥) فلتفرض أنىّ أخطأت ، وأسأت إليك فكن أنت المعلى ذا الفضل والعفو .

فإن لم أكن أهلاً للعفو ، والصفح لقبح ما ارتكبت فاغتفرها ، وكن أنت أهل التقوى والمغفرة .

(٦) ربما أسأت واجترحت ما حقَّ لك به اللوم علىَّ بل هبنى أذنبت ذنب أبى لهب - لعنه الله -. فأنا أبادر بالتوبة ، وأقرّ بالعقوبة ، وأطلب العفو فأين عذرك وتوبتك حين خطئك . . ؟!

وأنشدني محمد بن أبي عليّ ، أنشدنا الرَّبَعِيُّ ، عن الأصمعيِّ : [الوافر]

أَتَيْتُكَ تَائِبًا مِنْ كُــــلِّ ذَنْبٍ   وَخَيْـــــرُ النَّاسِ مَنْ أَخْطَا فَتَابَا
أَلَيْـــسَ اللهُ يُسْتَغْفَى فَيَعْفُـــو   وَقَدْ مَلَكَ العُقُوبَةَ وَالثَّوَابَا(١) (٢)

وأنشدني محمد بن إسحاق الواسطيّ (٣) : [المتقارب]

عَصَيْتُ وَتُبْتُ ، كَمَا قَدْ عَصَى   وَتَابَ إِلَى رَبِّـــــــــــهِ آدَمُ
فَقُـــــلْ قَوْلَ يُوسُفَ لا تَثْرِبَا   لَكُمْ (٤) يَغْفِرُ الغَافِرُ الرَّاحِمُ (٥)

أنبأنا محمد بن المهاجر المعدل ، حدثنا محمد بن عبد الله الجزريّ ، عن حميد بن سنان الخالديِّ ، وكان نديمًا لأبي دُلَف (٦) ، قال : دخلت على أبي دُلَفَ يومًا ، وبين يديه كتاب وهو يضحك ، فقال لي : هذا كتاب عبد الله بن طاهر ، وفيه أبيات أُحِبُّ أن أنشدك إياها ، وذلك أني كنت استبطأته في بعض المؤامرات (٧) ، فكتبت إليه : [الطويل]

أَرَى وُدَّكُـــــمْ كَالوَرْدِ لَيْسَ بِدَائِمٍ   وَلا خَيْرَ فِيمَنْ لا يَدُومُ لَهُ عَهْــــدُ
وَوُدِّي لَكُمْ كَالآسِ حُسْنًا وَبَهْجَــةً   لَهُ نَضْرَةٌ تَبْقَى إِذَا فَنِيَ الوَرْدُ(٨) (٩)

---

(١) في الأصل : والعقابا .

(٢) وقد أتيت مقرًا بالذنب مستحقًا للعقوبة راضيًا بها ، ولكن أتوب وقد أصيب خيرًا بأن تبت إذْ خير الخطائين التوابون .

الا تقتدي بربك إذْ يغفر لمن استغفر ويتوب على من استتاب ، وهو يملك العفو والأخذ فكيف يا عبدُ ومالك من الأمر شيء . . . !!

(٣) في الأصل : الواسطي لمسرور .   (٤) في الأصل : لا تثر بن فقد .

(٥) يا صاحبي لقد أخطأتُ ، وأسرفتُ على نفسي ، واعترفتُ بذنبي اعترافَ آدم بخطيئته ، فأنا أتوب توبته ، وأنتحي طريقته . . .

فلتكن إذن برًا عفوًا تنتحي طريقة يوسف - عليه السلام - حين غفر لإخوته خطاياهم ، وصفح عن ذنوبهم ومساءاتهم ، وقال : ﴿ لا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ اليَوْمَ يَغْفِرُ اللهُ لَكُمْ. . . . ﴾ [يوسف] .

(٦) في الأصل : الدلُف .

(٧) المؤامرات : جمع مؤامرة وهي الاستشارة ، يقال : آمرته في أمري : شاورته .

(٨) الآس : شجرٌ عطِرُ الرائحة ، يسميه الناس الريحان .

(٩) إني أرى محبتك وَودادك كبرق خُلَّب أو كريح قُلَّب متقلبة متغيرة سريعة الذبول الأُفُول كالورد يَسُرُّ رِيحُه ، وعما قريب ذهابه ، ولا خير في وداد هذه حالته وتلك شاكلته . . .

بينما وِدادِي ثبوت رسوخ ، يفوح بعبير الأخوة فوح الآس إذْ تدوم رائحته ، وتثبت فإذا فني ورده بقيت نضرته .

فكتب إليَّ بهذه الأبيات : [الطويل]

شَبَّهتَ (١) وُدِّي الوَرْدَ ، فَهوَ مُشَاكِلي (٢) ... وَهَلْ زَهرٌ إلا وَسَيِّـــدُهَا الوَرْدُ ؟!

وَشَبَّهتَ مِنكَ الوُدَّ بالآسِ في البَقَـــا ... ولَمْ تُخلفِ التَّشْبيهَ فيكَ ولَمْ تَعْـدُ

فَـــــوُدُّكَ كَالآسِ المَـــــرِيرِ مَذَاقُـــهُ ... وَلَيْسَ لَهُ في الرِّيحِ قَبْلٌ ،ولا بَعْدُ (٣)

أخبرنا عبد الكبير بن عمر الخَطَّابي بالبصرة ، حدثنا أبو حاتم السِّجِسْتانيُّ ، عن الأصمعيّ ، قال : حدثنا عيسى بن عمر ، قال : كان لأبي الأسود الدُّؤَليّ صديق ، فرأى منه بعض ما يكره ، فقال أبو الأسود (٤) [المتقارب] :

رَأَيْتُ امْـــــرَأً كُنْتُ كمْ أَبْلُهُ ... أَتَاني ، فَقَالَ : اتَّخِذْني خَليـــلا

فَخَـــالَلْتُهُ ، ثُمَّ صَـــافَيْتُهُ ... فَلَمْ يَنْقُصِ الوُدُّ مِنْهُ فَتِيـــــلا

فَرَاجَعْتُـــــــهُ ، ثُمَّ عَاتَبْتُهُ ... عتَابًا رَفيقًا ، وَقَـــوْلاً جَمِيلا

فَأَلْفَيْتُهُ غَيْـــرَ مُسْتَعْتِـــــبٍ ... ولا ذَاكِـــــرِ اللهَ إلا قَلِيـــلا

أَلَسْتُ حَقِيقًـــا بِتَوْدِيعِـــــهِ ... وأُتْبِعُ ذَلِكَ هَجْرًا طَـويلا (٥)

---

(١) في الأصل : أَشْبَهْتَ .   (٢) في الأصل : مُشَاكِل .

(٣) هذه الأبيات الثَّلاثة في نقض سابقتها ، وذمُّ الآس والثناء على الورد ، وقد أجاد ناظمها وأحسن فيقول :

لقد شبهت ودادى لك بالورد وحقا إني لشبيه به ، وما الورد إلا سيِّد الزهور كما أنا سيد الوافين المُوادِّين .

وشبهت نفسك كالآس ، فما عدوت وما جرت بل صدقت وعدلت .

فنعم ودك كالآس ثبوتًا ، ولكنه مريرٌ مذاقه كليلة رائحته لا تقيم ، ولا تقعد ولا تنظر ولا تعدد .

(٤) في الأصل : أبو الأسود الدِّيلي .

(٥) لقد جربت أمرًا عجبًا ، وخطبًا جللاً ، وهو أني خاللت امرأ دون اختيار له ، إذْ طَلَبَ خُلَّتِي وَخَطَبَ مَودَّتِي .

فما بخلت عليه بالخلة ، ولم أشحَّ عليه بالوصال ، بل صافيته ، وواصلته ، وقد عهد إليَّ بذلك فما جافاني وما نقض عهدى .

ثم حدث أن عاتبته بلين ولطف ، وأَجْمَلْتُ له في العتاب وألنت له الخطاب .

ولكنه تصرَّم وتبرَّمَ وَمَا قَبِلَ عُتْبًا ، وما ذكر الله بل غفل عنه .

أليست هذه دعائم قَصْمٍ ، ولوائح إشارة في هجرة ، وفَضِّ عُلْقَتِهِ ، وطول هجرانه . . . بلى ثم بلى . . !

قال أبو حاتم – رضى الله عنه : الاعتذار يذهب الهموم ، ويُجْلِى الأحزان ، ويدفع الحقد ، ويُذهب الصدَّ ، والإقلال منه تُستغرَق فيه الجنايات العظيمة ، والذنوب الكبيرة ، والإكثار منه يؤدى إلى الاتهام وسوء الرأى ، فلو لم يكن فى اعتذار المرء إلى أخيه خَصْلة تُحمد ، إلا نفى العُجْب عن النفس فى الحال ، لكان الواجب على العاقل ألا يفارقه الاعتذار عند كل زلَّة .

ولقد أنشدنى الكريزىُّ : [البسيط]

فَـانظُرْ إلَىَّ بِطَرْفٍ غَيرِ ذى مَرَضٍ ... فَطَالَمَا صَحَّ لِى مِنْ طَرْفِكَ النَّظَـرُ
أَدْرِكْ بِفَضْلِكَ عَظْمًا كُنْتَ تَجْبُرُهُ ... وَاجْمَعْ بِرِفْقِكَ مَا قَدْ كَادَ يَنْتَشِرُ (١)

أنبأنا عمرو بن محمد بن الأنصارىّ ، حدثنا الغلابىُّ ، حدثنا مَهْدِىُّ بن سابق ، حدثنا عطاء (٢) بن مصعب ، قال : قدم عبد الرحمن بن عَنْبسة بن سعيد ، على معن ابن زائدة باليمن ، وكانت بينهما عداوة ، فلما رآه قال له : يا عبد الرحمن ، بأى وجه أتيتنى ؟ ولأى خير أمَّلتنى ؟ قال : أصلح الله الأمير ! اسمع مني حتى أنشدك بيتين قالهما نُصَيب فى عبد العزيز بن مروان ؛ قال : وما هما ؟ فأنشده : [الطويل]

وَلَوْ كَانَ فَوْقَ الأَرْضِ حَىٌ فَعَالُهُ ... كَفِعْلِكَ ؛ أَوْ لِلْفِعْلِ مِنْكَ مُقَارِبُ
لَـقُلْتُ لَهُ هَذَا ، وَلَكِنْ تَعَذَّرَتْ ... سِوَاكَ عَلَى الْمُسْتَعْتِبِينَ الْمَذَاهِبُ (٣) (٤)

فقال : أَقِمْ ، فإنى لا أُواخذك فيما مضى ، ولا أُعنِّفك فيما بقى .

حدثنا الخلادىُّ ، حدثنا محمد بن موسى السِّمرِىّ ، عن حماد بن إسحاق ، قال ابن السماك لمحمد بن سليمان ، أو حماد بن موسى لكاتبه (٥) ؛ ورآه كالمعرض عنه : مالى أراك كالمعرض عنى ؟ قال : بلغنى عنك شىء كرهته ، قال : إذَنْ لا أبالى ، قال : ولم ؟ لأنه إن كان ذنبًا غفرتَه ، وإن كان باطلاً لم تقبله . قال : فعاد (٦) إلى المؤانسة.

قال أبو حاتم – رضى الله عنه : قد ذكرت ما يشاكل هذه الحكايات فى كتاب « مراعاة العِشْرة » ، فأغنى ذلك عن تكرارها فى هذا الكتاب .

---

(١) يا خليلى وشقيق نفسى قد أسأتُ ، وحُقَّ لك العتاب علىَّ فاعفُ واغفر ، وانظر إلى بطرف الإشفاق ، فطالما عفوت وتجاوزت .

وأدرك بسعة فضلك عظام محبتنا التى وهت ، وتنصلت واجمع شتات ودنا ، ليجتمع أمرنا وتدوم محبتنا .

(٢) فى الأصل : عطاف . (٣) المستعتب : طالب العتبى ، وهى المراجعة والمسامحة .

(٤) هذان البيتان من نصيب الشاعر العذرى يقول :

إنى تيممت أهل الفضل والعفو ونقبت عنهم فعدمتهم عن بكرة أبيهم إلا إياك .

لذا تيممتك رَغَبًا وَرَهَبًا أن تقيل عثرتى ، وتغفر زَلَّتى ، فما يغتفرها ويصفح عنها غيرك .. أو سواك .

(٥) فى الأصل : كاتيه . (٦) فى الأصل : فقادله .

ذِكْرُ الْحَثِّ عَلَى لُزُومِ كِتْمَانِ السِّرِّ

أنبأنا محمد بن سليمان بن فارس الدَّلال ، حدثنا محمد بن إبراهيم بن سعيد العبديّ، حدثنا سهل بن عبد الرحمن ، عن محمد بن مُطَرِّف أبى غسَّان ، عن محمد بن المنكدر ، عن عروة ، عن أبى هريرة ، قال : قال رسول الله ﷺ : « **اسْتَعِينُوا عَلَى الْحَوَائِجِ بِالْكِتْمَانِ ؛ فَإِنَّ لِكُلِّ نِعْمَةٍ حَاسِدًا** » (١) .

---

(١) أخرجه السهمى فى « تاريخ جرجان » (ص ٢٢٣) من طريق الهيثم بن أيوب العطار حدثنا سهل بن عبد الرحمن عن محمد بن مطرف عن محمد بن المنكدر ، عن عروة ، عن أبى هريرة مرفوعًا، وللحديث شواهد من حديث معاذ بن جبل وابن عباس وعمر بن الخطاب ، وعلى بن أبى طالب

حديث معاذ بن جبل :

أخرجه العقيلى : (٢/ ١٠٩) ، والطبرانى فى « الكبير » (٢٠/ ٩٤) رقم (١٨٣) ، وفى « الصغير » (٢/ ١٤٩) ، وابن عدى فى « الكامل » (٣/ ١٢٤٠) ، وأبو نعيم فى « الحلية » (٥/ ٢١٥ ، ٦/ ٩٦) ، والبيهقى فى « شعب الإيمان » (٦٦٥٥) ، وابن الجوزى فى « الموضوعات » (٢/ ١٦٥ - بتحقيقنا) ، والقضاعى فى « مسند الشهاب (٧٠٧) ، كلهم من طريق سعيد بن سلام العطار ثنا ثور بن يزيد عن خالد بن معدان ، عن معاذ بن جبل مرفوعًا .

وقال ابن الجوزى : هذا حديث لا يصح المتهم به سعيد بن سلام ، قال العقيلى : لا يعرف إلا به ولا يتابع عليه ، وقال محمد بن عبد الله بن نمير وأحمد بن حنبل : هو كذاب ، وقال البخارى : يذكر بوضع الحديث ، وقال ابن حبان : يتفرد عن الأثبات بما لا أصل له ، وقال الدارقطنى : متروك.

وقد تعقبه السيوطى فى « اللآلئ » (٢/ ٨١) بما لا طائل تحته ، فقال : أخرجه من طريقه - أى من طريق سعيد - ابن عدى والطبرانى وأبو نعيم فى « الحلية » ، والبيهقى فى « شعب الإيمان » ، وقال أبو نعيم : غريب من حديث خالد تفرد به عنه ثور حدث به عمر بن يحيى البصرى ، عن شعبة ، عن ثور انتهى واقتصر العراقى فى « تخريج الإحياء » على تضعيفه أ . هـ .

أما قول العقيلى : ولا يتابع عليه فمتعقب .

فقد أخرجه ابن عدى فى « الكامل » (٢/ ٧٧٠ - ٧٧١) ، ومن طريقه ابن الجوزى فى «الموضوعات» (٢/ ١٦٥) من طريق الحسين بن علوان عن ثور بن يزيد عن خالد بن معدان عن معاذ بن جبل مرفوعًا .

وقال ابن الجوزى : المتهم به حسين بن علوان ، قال ابن عدى .

وابن حبان : كان يضع الحديث .

قال أبو حاتم - رضى الله عنه : هذا إسناد حسن ، وطريق غريب ، إن كان عُروة هذا هو ابن الزُّبير بن العوام ؛ وسعيد بن سلام ما أرى حفظ حديثه ؛ فلذلك تنكبت عن ذكره .

فالواجب على من سلك سبيل ذوى الحِجا ، لزوم ما انطوى عليه الضمير ، بتركه إبداء المكنون فيه ، لا إلى ثقة ولا إلى غيره ، فإن الدهر لا بد من أن يضرب ضَرَبَاته ، فيوقع ضد الوصل بينهما بحالة من الأحوال ، فيخرجه وجود ضد ما انطوى عليه قديمًا من وفائه ، إلى صحة الخروج بالكلية إلى جفائه ، بإبداء مكنوناته ، والكشف عن مخبآته .

ولقد أنبأنا محمد بن عثمان العقبىّ ، حدثنى محمد بن عبد الكريم العبدىّ ، حدثنا بكر بن يونس بن بكير ، حدثنى موسى بن علىٍّ ، عن أبيه ، عن عمرو بن العاص ، أنه قال : عجبت من الرجل يفرُّ من القَدَر وهو مواقعه ، ومن الرجل يرى القَذَاة فى عين أخيه ، ويدعُ الجِذْع فى عينه ، ومن الرجل يُخرج الضِّغن من موضع ، ويدَعُ الضغن فى نفسه ، وما ندمتُ عَلَى أمر قطُّ ، فلُمْتُ نفسى على تندمى عليه ، وما وضعت سرى عند أحد ، فلُمته على أن يُفشيَه ، كيف ألومه وقد ضقت به ؟

وأنشدنى على بن محمد البسَّامىّ : [المتقارب]

= وقال السيوطى فى « اللآلئ » (٢/ ٨١) : حسين يضع .

حديث ابن عباس :

أخرجه الخطيب فى « تاريخ بغداد » (٨/ ٥٦ - ٥٧) ، وابن الجوزى فى « الموضوعات » (٢/ ١٦٥) من طريق الحسين بن عبد الله الأبزارى حدثنا إبراهيم بن سعيد الجوهرى حدثنى المأمون حدثنى الرشيد عن المهدى أنه أسرَّ إليه شيء ، وقال : لا تطلعن عليه أحدًا فإن أمير المؤمنين يعنى المنصور ، حدثنى عن أبيه عن ابن عباس . قال : قال رسول الله ﷺ : استعينوا على نجاح الحوائج بكتمانها .

قال ابن الجوزى : أما حديث ابن عباس فإنه من عمل الأبزارى .

قال أحمد بن كامل : كان الأبزارى ماجنا « كذابًا » ، قال مهنى : سألت أحمد بن حنبل ويحيي ابن معين عن قولهم : استعينوا على طلب الحوائج بالكتمان ، فقالا : هو موضوع وليس له أصل .

حديث عمر بن الخطاب :

أخرجه الخرائطى فى « اعتلال القلوب » كما فى « اللآلئ » (٢/ ٨٢) عن عمر مرفوعًا .

وورد عنه أيضًا موقوفًا ، أخرجه الشيرازى فى « الألقاب » .

كما في « تنزيه الشريعة » (٢/ ١٣٤) .

حديث على بن أبى طالب :

أخرجه الخلعى فى « فوائده » كما فى « اللآلئ المصنوعة » (٢/ ٨٢) .

تُبيحُ بِسِـــرِّكَ ضِيقًـــا بِهِ وَتَبْغِي لِســـرِّكَ مَنْ يكتُــمُ
وكِتْمَانُكَ السِّرَّ مِمَّنْ تخَافُ وَمَـــنْ لا تَخَـــافُهُ أَحْـــزَمُ
إِذَا ذَاعَ سِـــرُّكَ مِنْ مُخْبَرٍ فَأَنْتَ، وَإِنْ لُمْتَهُ، أَلْوَمُ (١)

وأنشدني عبد العزيز بن سليمان : [الطويل]

إِذَا ضَاقَ صَدْرُ المَرْءِ عَنْ بَعْضِ سِرِّهِ فَأَلْقَاهُ فِي صَدْرِي، فَصَدْرِي أَضْيَقُ
وَإِنْ لامَنِي فِي أَنْ أُضَيِّعَ سِـــرَّهُ وَضَيَّعَهُ قَبْلِي ، فَذُو السِّرِّ أَخرقُ(٢) (٣)

أخبرنا محمد بن المهاجر المعدَّل ، حدثنا أحمد بن محمد الصيداويّ ، حدثنا حماد بن إسحاق ، عن المدائنيّ ، قال : كان يقال : أصبر الناس الذى لا يفشى سره إلى صديقه، مخافة أن يقع بينهما شىء فيفشيَه ، وأنشدني البغداديُّ : [الطويل]

صُـــنِ السِّرَّ بِالْكِتْمَانِ يُرْضِيكَ غِبُّهُ فَقَدْ يُظْهِـــرُ المَرْءُ الْمُضِيـــعُ فَيَنْدَمُ
وَلا تُلْجِئَنْ سِرا إِلَى غَيْرِ حِـــرْزِهِ فَيُظْهِرَ حِرزُ السُّوءِ مَا كُنْتَ تَكْتُمُ (٤)

وأنشدني محمد بن إسحاق الواسطيّ : [الطويل]

إِذَا المَرْءُ لَمْ يَحْفَظْ سَرِيرَةَ نَفْسِهِ وَكَـــانَ لِسِرِّ الأَخِ غَيْرَ كَتُـــومِ
فَبُعْدًا لَهُ مِنْ ذِي أَخٍ وَمَـــوَدَّةٍ وَلَيْسَ عَلَى وُدٍّ لَهُ بِمُقِيـــمِ (٥)

---

(١) يأيها البائح بِسره كيف ضاق ذرعك عن سر نفسك فابتغيت له من يكتمه ويحتويه .
وقد كان لك أدنى صوابًا وأحزم فعالاً أن تطوى سرَّك ممن تخافه وممن لا تخافه ، فذلك أدعَى لحفظه ، وأقرب لستره .
ومن لك ألا يذاع سرُّكَ بإخباره غيرك ، وكيف أنت إن أذيع وأشيع إذا كنت لائمًا لذائعه ، فأنت ملوم كذلك .
(٢) الأخرق : الأحمق فاسد الرأي والتدبير .
(٣) يا من استودعتنى سرك ، وضاقت به نفسك ألا ترى صدرى يضيق به ضياقتك به .. !!
بلى. بل إن صدرى به أضيق .
فإن تلمنى أن أضيع سرك وأبث خبرك ، فقد ضيعته أنت بنفسك
فحَمقْتَ وحُمقتَ إذ أفضيتَ به إليَّ .
(٤) ينبغى على العاقل أن يصاونَ أسراره ليحمد غب صَونِهَا ، وإن اظهر سرَّه فقد باء بإثمه ، واستجلب نَدَمَهُ بيده .
فلا تدفع بالسرِّ إلى حرز غير أمين ، أو مكان غير مكين وإلا نشر عنك سرك وختلك من خلف ظهرك .
(٥) إذا المستحفظ السّر تَدَنَّى وبَاءَ بِمَا استُحفِظَ من الأسرار ، فلم يراعِ حرمة مستودعه السرَّ . =

قال أبو حاتم = رضى الله عنه : من حَصَّنَ بالكتمان سره ، تمّ له تدبيره ، وكان له الظفر بما يريد ، والسلامة من العيب والضُرِّ ، وإن أخطأه التمكن والظفر ، فالحازم يجعل سِرَّه فى وعاء ، ويكتمه عن كل مستودَع ؛ فإن اضطرهُ الأمر وغلبه ، أودعه العاقلَ الناصحَ له ؛ لأن السر أمانة ، وإفشاؤه خيانة ، والقلب له وعاؤه ، فمن الأوعية ما يضيق بما يُودَع ، ومنها ما يتسع لما (١) استودِع .

وأنشدنى الكريزىُّ : [الكامل]

اجْعَـــلْ لِسِرِّكَ مِنْ فُؤَادِكَ مَنْزِلا ... لا يَسْتَطِيعُ لَهُ اللِّسَانُ دُخُـــولا
إنَّ اللِّسَانَ [إِذَا اسْتَطَاعَ] (٢) إِلَى الَّذِى ... كَتَـــمَ الْفُؤَادُ مِنَ الشُّئُونِ وُصُـولا
أَلْفَيْتَ سِـــرَّكَ فِى الصَّدِيقِ وَغَيْرِهِ ... مِنْ ذِى الْعَـدَاوَةِ فَاشِيًا مَبْذُولا (٣)

وأنشدنى المنتصر بن بلال الأنصارىّ : [الطويل]

سَأَكْتُمُهُ سِـــرِّى ، وَأَكْتُمُ سِرَّهُ ... وَلا غَرْوَ بِى أَنِّى عَلَيْهِ كَرِيـــمُ
حَلِيمٌ فَيُفْشِى ، أَوْ جَهُولٌ يُذِيعُهُ ... وَمَا النَّاسُ إلا جَاهِلٌ وَحَلِيمُ (٤)

أخبرني محمد بن سعيد القزاز ، حدثنا إبراهيم بن الجنيد ، حدثنى علىُّ بن عيسى عن محمد بن زياد بن الأعرابىّ ، قال : كان يقال : العاقل مَنْ حَذِرَ صديقه .

وأنشدنى بعض إخواننا : [الطويل]

لَعَمْـــرُكَ كِتْمَانُ الْفَتَى سِـرَّ مَا نَوَى ... أَعَفُّ وَأَدْنَى لِلرَّشَـــادِ وَأَكْـــرَمُ

= فتبا له ثم تب وتلك مودة مَاذِقْ ، وخيانة غير صادق وحق فيه الصَّرْمُ والبَتُّ ، والقطع لمودته ، فهو ليس لها بأهل .. ومثله يترك ، ولا تكثُر عليه التأسف .

(١) فى الأصل : بما . (٢) سقط فى الأصل .

(٣) ينبغى على العاقل أن يُودِعَ سِرَّهُ قعر قلبه ، وحافظته ولا يقارب منه لسانه بالا يداعب خاطره بالبوح به .

فإما داعب لسانه جنانه ، واستكنه النفس همسًا عن مكنونها وجنى جوانحها .

فليحذر على نفسه غبَّ عاقبته ، إذ سره سيذاع بين الصديق والعدو ، وسيجنى سَيِّئ أثره بحصد ما جنى لسانه . . .

(٤) إنى قد خبرت الأمور وبَلَوْتُ الدَّهرَ ، فألفيت الحنكةَ ، والفطنة فى كتم السِّرِّ وحده فى قعر الصدر ، ولا عزَّنى صديق ولا رفيق فما المرء إلا بنفسه وحزمه .

وكيف أغترر بالحليم العطوف فيفشه خطأ أو عمدًا أو بالجهول الضلول فيفشه جهلاً ، وهل الناس الأبوين الضيفن وبأحد الرجلين . . .

وَأَجْمَـــلُ فِى بَثِّ الحَدِيثِ مَقَالَـــةً ... وَأَحْسَنُ فِى الأَخْلَاقِ دَوْمًا (١) وَأَحْزَمُ (٢)

وأنشدنى الكريزىُّ [الطويل] :

إِذَا أَنْتَ لَمْ تَحْفَظْ لِنَفْسِكَ سِرَّهَا ... فَأَنْتَ إِذَا حَمَّلْتَهُ النَّاسَ أَضْيَـــعُ

وَيَضْحَكُ فِى وَجْهِى إِذَا مَا لَقِيتُهُ ... وَيَنْهَشُنِى بِالغَيْبِ سِرا وَيَلْسَعُ (٣)

قال أبو حاتم - رضى الله عنه : الإفراط فى الاسترسال بالأسرار عجز ، وما كتمه المرء من عدوه ، فلا يجب أن يظهره لصديقه ، وكفى لذوى الألباب عِبَرا ما جربوا ، ومن استودِع حديثًا فليستُر ، ولا يكن مِهتَاكًا ، ولا مِشْيَاعًا ، لأن السر إنما سُمِّى سراً ؛ لانه يُفْشَى .

فيجب على العاقل أن يكون صدره أوسع لسره من صدر غيره ، بِألا يفشيه .

ولقد أنبأنا محمد بن المهاجر المعدَّل ، حدثنا محمد بن إسماعيل بن يعقوب الأعلم ، قال : أنشدنى محمد بن سليمان بن سلام الجُمَحِىُّ ، لرجل من عبد شمس : [الوافر]

إِذَا مَا ضَـــاقَ صَدْرُكَ عَنْ حَـدِيثٍ ... فَأَفْشَـــاهُ الرِّجَالُ ، فَمَنْ تَلُومُ ؟!

إِذَا عَاتَبْتُ مَنْ أَفْـــشَى حَـدِيثِى ... وَسِـــرِّى عِنْدَهُ ، فَأَنَا الظَّلُـــومُ

وَإِنِّى يَوْمَ أَسْأَمُ حَمْلَ سِـــــرِّى ... وَقَدْ ضَمَّنْتُــــهُ صَدْرِي سَئُـــومُ

فَلَسْـــــتُ مُحَدِّثًا سِرِّى خَلِيلِى ... وَلا أُفْشِى ، إِذَا حَضَـــرَتْ هُمُومُ

وَأَطْـــوِى السِّرَّ دُونَ النَّاسِ ؛ إِنِّى ... لِمَا اسْتُودِعْتُ (٤) مِنْ سِرٍّ كَتُومُ (٥)

---

(١) فى الأصل : يوما .

(٢) فليعلم العاقل أنَّ كتمانه سره أدنى إلى الصواب ، وأبعد عن العاب ، وأقرب للرشاد . وذلك هو الحزمُ وعين الصواب ، وتلك هى نهجة الحزم وحسن الخلق من المرء حتى لا يحصد سوء فعله ، فيفتضح أمره ، وينكشف عُرُّه .

(٣) إذا المرء لم يصاون سره فى نفسه ، وبذله للناس تأمنًا ، فإنه مضيع سره فاضح أمره . وما يدريك أن يكيدك عدوك أو ينقلب صديقك فينهشكَ ويلهبكَ فى الغيب ، وإن هشَّ ، وبَشَّ فى الشهادة . . . !!

(٤) فى الأصل : استَوْدَعْتُ .

(٥) ينبغى على العاقل ألا يَضيق صدره عن سرِّ نفسه ، وإلا أفشته الرجال وضربت بسره الطبول . . .

ومن يلامُ حينها أم من يعاتب وقتها ؟! فإن تعتب من استودعته سرك فأفشاه ، فأنت ظلوم فى عتابك إذْ قد جانبت فى المبتدى صوابك . . =

وأنشدنى علىُّ بن حَيْدة الكاتب ، قال : أنشدنا عبد الرحمن بن بُندار ، لشيطان الطاق (١) [الرمل]

أَمِـــتِ السِّـــرَّ بِكِتْمَانٍ ، وَلا يُسْمِعَنْ (٢) مِنْكَ إِذَا اسْتُودِعْتَ سِرّْ
فَإِذَا ضِقْـــــتَ بِهِ ذَرْعًا ، فَـلا تَضَعَنْ سِرَّكَ إِلا عِنْدَ حُــرّْ (٣)

أخبرنى محمد بن سعيد القزاز ، حدثنا الرمادىُّ ، حدثنا مسدَّد ، قال : سمعت ابن داود يقول : سمعت الأعمش يقول : يضيق صدر أحدهم بسره ، حتى يحدِّث به ، ثم يقول : اكتمه علىَّ .

وأنشدنى إبراهيم بن على الظَّفَرىّ ، أنشدنى الحسين بن عبد الله : [البسيط]

لا يَكْتُمُ السِّرَّ إلا مَنْ لَهُ شَـــرَفٌ وَالسِّرُّ عِنْدَ كِرَامِ النَّاسِ مَكْتُـــومُ
السِّـــرُّ عِنْدِىَ فِى بَيْتٍ لَهُ غَلَقٌ ضَاعت مَفَاتِيحُهُ وَالْبَابُ مَخْتُومُ (٤)

أنبأنا الخلادىُّ ، حدثنا أحمد بن عبد الله بن شجاع البياضىّ ، قال : أنشدنا عبد الرحمن بن محمد : [الطويل]

وَإِنِّى لأَنْسَى السِّرَّ كَيْمَا أَصُونُهُ فَيَا مَنْ رَأَى شَيْئًا يُصَانُ بِأَنْ يُنْسَى!
مَخَـافَةَ أَنْ يَجْرِى بِبَالِىَ ذِكْـرُهُ فَيَخْلِسَهُ قَلْبِ[illegible] خَلْسَا (٥)

= وكيف تعتبه وقد سئمت أنت عن سرِّ نفسك بتضمينه صدرك ؟!
فارعوِ وفقِ ولا تحدث خليلاً بسرٍ ما دمتَ حياً ، لا بل لا تحدث نفسك بسرد [illegible] وخطبك .
ولتطوِ سرك وسرَّ من أسَرَّك دون الناس ، ولتكن كتومًا حافظًا لما استودعت من الأسرار .

(١) شيطان الطاق : الطاق : حصن بطبرستان من بلاد العجم ، سكن به محمد بن النعمان الملقب شيطان الطاق وإليه نسبت الطائفة الشيطانية من غلاة الشيعة (عن تاج العروس للزبيدى) ، والملل والنحل للشهرستانى .

(٢) فى الأصل : تُسمِعَن .

(٣) ينبغى على العاقل أن يلحد سره فى صدره ، وكذلك يميت فليمت سرُّ غيره إنْ استودعته .
فإذا ما ضاق المرء بسره ذرعًا ، وابتغى تفريجًا عن كربه بحفظه سرّه ، فليختر حفيظًا حراً يستودعه سره . .

(٤) إنما يكتم السرَّ من كان شريفًا عفيفًا ، ذا حياء وكرم وكذلك يفعل كرام الناس . .
وأنا حفوظ للسرِّ مودعٌ له فى خير مستودع ، وقد غلقت دونه الأبواب ، وقد ضلّت مِنّى المفاتيح ، فنسيتُ ، ويئست من وجدانها فهو فى غورٍ بعيد وعمق مديد .

(٥) إنى حفوظ للأسرار مودعها فى مجاهل حتى لأنساها وأذهل عنها من عدم تذكارها ونشرها . =

قال أبو حاتم - رضى الله عنه : الظفر بالحزم ، والحزم بإجالة الرأى ، والرأى بتحصين الأسرار ، ومن كتم سره كانت الخِيرَة فى يده ، ومن أنبأ الناس بأسراره ، هان عليهم وأذاعوها ، ومن لم يكتم السر استحق الندَم ، ومن استحق الندم صار ناقص العقل ، ومن دام على هذا رجع إلى الجهل .

فتحصين السر للعاقل ، أولى به من التلهُّفِ بالندم بعد خروجه منه .

ولقد أحسن الذى يقول : [الطويل]

خَشِيتُ لِسَانِي أَنْ يَكُونَ خَئُونَا ... فَأَوْدَعْتُهُ قَلْبِي ، فَكَانَ أَمِينَا
فَقُلْتُ؛ لِيَخْفَى دُونَ شَخْصِي وَنَاظِرِي: ... أَيَا حَرَكَاتِي ، كُنَّ فِيَّ سُكُونَا (١)
فَمَا أَبْصَرَتْ عَيْنِي لِعَيْنَيَ عَبْرَةً ... وَلا سَمِعَتْ أُذْنَايَ فِيَّ أَنِينَا
لَقَدْ أَحْسَنَتْ أَحْشَايَ تَرْبِيَةَ الْحِجَا ... فَهَا هُوَذَا كَهْلا وَكَانَ جَنِينَا

وأنشدنى عبد الله بن أحمد البغدادى لعبد الله بن المعتزِّ : [البسيط]

عَلَيَّ لِلسِّرِّ حق لا أُضَيِّعُهُ ... أَسِيرُ صَدْرِي ، وَإِنْ أَفْشَاهُ مُوَدِعُهُ
خَلَّى لَهُ مُخْدَعًا قَلْبِي ، فَغَيَّبَهُ ... حَتَّى نَسِيتُ بِأَنَّ الْقَلْبَ مخدَعُهُ
بَلْ أَقْذِفُ السِّرَّ فِي جَوْفِ الضَّمِيرِ فَمَا ... تَدْرِي خَوَاطِرُ فِكْرِي ، أَيْنَ مَوْضِعُهُ

أخبرنى عمرو بن محمد ، ثنا الكلابى ابن عائشة ، قال : سمعتُ أبى يحدِّث ، قال : قيل للأحنف بن قَيْس : ما أحلَمك ! قال : ما فعلتُهُ إلا تعليمًا مِنْ عمومتى ، ولقد قلتُ ذات يوْم لأحدِهمْ : أَىْ عَمّ ، ماذا لَقِيتَ مِنْ ضِرسِ البَارِحَة ؟ فقال : إيهًا ! الآن قد ذهَبَتْ عَيْنُ عمِّكَ منذ سنةٍ ، ما شَعَرَ بها أحدٌ .

* * *

= وأصنع ذلك خوفًا أن تخطر لى ببال فتجرى على قلبى فيتخطفها لسانى ويفوه بذكرها جنانى .

(١) إنى لحفيظ للغيب ضامن للسانى مقيد له أن ينشر سرًا قد وكلت عليه حفيظًا من قلبى حتى يكون بمأمن عن الخيانة .

وحتى إنى لأسكن حركاتى وأحفظ سكناتى كى لا يثار السر فيخرج .

ذِكْرُ الْمَشُورَةِ فِى أَوْقَاتِ الضَّرُورَاتِ

أخبرنا الحسن بن سفيان ، ثنا أبو بكر بن أبى شيبة ، ثنا الأسود بن عامر ، ثنا شَرِيكٌ ، عن الأعمش ، عن بى عمرو الشيبانىٍّ ، عن أبى مسعودٍ ، قال : قال النبىُّ ﷺ : « الْمُسْتَشَارُ مُؤْتَمَنٌ » (١) .

---

(١) أخرجه ابن ماجة : (٢/١٢٣٣) كتاب الأدب ، باب : المستشار مؤتمن حديث (٣٧٤٦) ، والدارمى : (٢/٢١٩) ، كتاب « السير » ، باب : المستشار ، وأحمد (٥/٢٧٤) ، وابن حبان : (١٩٩١ - موارد) ، والبيهقى (١٠/١١٢) ، كتاب « آداب القاضى » ، باب : من يشاور ، والطبرانى فى« الكبير » (١٧/ ٢٣٠) رقم (٢٣٨) كلهم من طريق أسود بن عامر حدثنا شريك ، عن أبى عمر الشيبانى عن أبى مسعود به مرفوعًا .

قال ابن أبى حاتم فى « العلل » (٢/٢٧٤) رقم (٢٣/١٩) سألت أبى عن حديث رواه الأسود بن عامر ... فذكر الحديث ، وقال : قال أبى : هذا خطأ إنما أراد الدال على الخير كفاعله ، قلت : الخطأ عن هو ؟ قال : من شريك أ . هـ .

ومع ذلك فقد صححه ابن حبان .

وقال البوصيرى فى « الزوائد » : (٣/١٨١) : هذا إسناد صحيح رجاله ثقات أ . هـ .

وفى الباب عن جماعة من الصحابة وهم أبو هريرة وجابر بن سمرة ، وسمرة بن جندب وأبو الهيثم بن التَّيِّهان وعمر بن الخطاب ، وابن عباس ، وابن الزبير وأم سلمة .

حديث أبى هريرة :

أخرجه أبو داود (٢/٧٥٥) ، كتاب الأدب ، باب : فى المشورة ، حديث (٥١٢٨) ، والترمذى (٥/١١٥) ، كتاب « الأدب » ، باب : إن المستشار مؤتمن ، حديث (٢٨٢٢) ، وابن ماجة (٢/١٢٣٣) ، كتاب « الأدب » ، باب المستشار مؤتمن حديث (٣٧٤٥) ، والبخارى فى « الأدب المفرد» ، حديث (٢٥٦) ، والطحاوى فى « مشكل الآثار » (١/ ١٩٥ - ١٩٦) ، والحاكم (٤/ ١٣١) ، والبيهقى (١٠/ ١١٢) ، كتاب « آداب القاضى » ، باب : من يشاور .

كلهم من طريق عبد الملك بن عمير ، عن أبي سلمة بن عبد الرحمن ، عن أبى هريرة مرفوعًا .

وقال الترمذى : حسن صحيح غريب .

وقال الحاكم : صحيح على شرط الشيخين ، ووافقه الذهبى .

حديث جابر بن سمرة :

أخرجه الطبرانى فى « الكبير » (٢/ ٢١٤) رقم (١٨٧٩) ، والخطيب فى « تاريخ بغداد » (٥/٩٧) كلاهما من طريق قيس بن الربيع ، عن عبد الملك بن عمير ، عن جابر بن سمرة ، قال : قال رسول الله ﷺ : المستشار مؤتمن » .

والحديث ذكره الهيثمى فى « المجمع » (٨/ ١٠٠) ، وقال : رواه الطبرانى فى « الكبير » ، و«الأوسط » ، وفيه من لم أعرفه .

حديث سمرة بن جندب :

أخرجه الطبرانى فى « الكبير » (٧/٢٦٦) رقم (٦٩١٤) ، وأبو نعيم فى « الحلية » (٦/ ١٩٠) =

= كلاهما من طريق عبد الرحمن بن عمرو بن جبلة ثنا سلام بن أبى مطيع عن قتادة عن الحسن عن سمرة ، قال : قال رسول الله ﷺ : المستشار مؤتمن .

قال أبو نعيم : غريب من حديث سلام ، لم نكتبه عاليًا إلا من هذا الوجه .

وذكره الهيثمى فى « المجمع » (٨/ ١٠٠) ، وقال : وفيه عبد الرحمن بن عمرو بن جبلة ، وهو متروك .

حديث أبى الهيثم بن التَّيِّهان :

أخرجه ابن الجوزى فى « العلل المتناهية » (٢/ ٧٤٧) رقم (١٢٤٧) من طريق محمد بن جامع العطار، حدثنا عبد الحكيم بن منصور نا عبد الملك بن عمير ، عن أبى سلمة ، عن أبي الهيثم بن التيهان مرفوعًا .

وقال ابن الجوزى : وهذا لا يثبت ولا يصح أما عبد الحكيم فقال : يحيى : كذاب ، وقال الرازى: لا يكتب حديثه ، وأما محمد بن جامع ، فقد ضعفوه .

وذكره الهيثمى فى « المجمع » (٨/ ١٠٠) ، وقال : رواه الطبرانى من طريق جده عبد الرحمن بن محمد بن زيد ، ولم أعرفهما ، وبقية رجاله ثقات .

حديث عمر بن الخطاب :

أخرجه الخطيب فى تاريخ بغداد (٩/ ٦٠ - ٦١) ومن طريقه ابن الجوزى فى « العلل المتناهية » (٢/ ٧٤٦) من طريق محمد بن سليمان قال : حدثنى حزام بن هشام ، قال : سمعت أبى يقول : سمعت عمر بن الخطاب ، يقول : سمعت رسول الله ﷺ يقول : المستشار مؤتمن .

قال ابن الجوزى : هذا حديث لا يثبت كان الحميدى يتكلم فى محمد بن سليمان وضعفه النسائى ، وقال ابن عدى : عامة ما يرويه لا يتابع لا فى إسناده ولا فى متنه .

حديث ابن عباس :

أخرجه القضاعى فى « مسند الشهاب » (١/ ٣٩) ، رقم (٥) .

وذكره الهيثمى فى « المجمع » (٨/ ٩٩) ، وقال : رواه الطبرانى فى « الأوسط » ، وفيه عمرو بن الحصين العقيلى ، وهو متروك .

حديث ابن الزبير :

أخرجه البزار (٢/ ٤٢٨ - ٤٢٩) رقم (٢٠٢٧) من طريق أبى عوانة ، عن عبد الملك بن عمير ، عن أبى سلمة ، عن عبد الله بن الزبير مرفوعًا .

وقال البزار : لا نعلم أحدًا تابع ابن إسحاق على هذه الرواية وقد اختلفوا على عبد الملك فرواه غير واحد عن أبى عوانة ، عن عبد الملك بن عمير عن أبى سلمة مرسلاً وروى عن عبد الملك بن عمير ، عن أبى هريرة ، ورواه الحكم بن منصور ، عن عبد الملك ، عن أبى سلمة عن أبى الهيثم بن التيهان ورواه شريك عن عبد الملك ، عن أبى سلمة ، عن أم سلمة .

وذكره الهيثمى فى « المجمع » (٨/ ٩٩) ، وقال : رواه الطبرانى ، ورجاله رجال الصحيح أ . هـ .

قلت : أما المرسل الذى أشار إليه البزار عن أبى سلمة ، فأخرجه أحمد فى « الزهد » (ص ٣٢).

حديث أم سلمة :

أخرجه الترمذى (٥/ ١١٦) ، كتاب « الأدب » ، باب : إن المستشار مؤتمن ، حديث (٢٨٢٣) ، وأبو يعلى (١٢/ ٣٣٣) ، رقم (٦٩٠٦) من طريق داود بن أبى عبد الله عن ابن جدعان ، عن جدته ، عن أم سلمة مرفوعًا به . =

قال أبو حاتم - رحمه الله - : لا بدَّ لصاحب السرِّ الكاتم له علَى ما وصفنا أنْ يَضيقَ صدره ، فيشتهى إذاعةَ ما به ، فإذا كان كذلك ، اختار إفشاءَهُ بالاستشارة مَعَ الدَّيِّنِ العاقلِ الودود ، ولا يستشير إلا مَنْ وَجدَ فيه الخصالَ الثّلاث الّتى ذكرنا ؛ فإنه إن لم يكن ديِّنًا ، خانه ، وإن لم يكنْ عاقلاً ، أخطأ موضع الإصابةِ ، وإن لم يكنْ وادا ، ربَّمَا لم ينصحْهُ .

ولقد أنشدنى ابن زنْجىٍّ : [البسيط]

سَائِلْ ذَوِى الْعِلْمِ عَمَّا أَنْتَ جَاهِلُهُ ... إِنَّ السُّؤَالَ شِفَاءُ الْعِيِّ وَالْهَــذَرِ

لا تَسْتَـشِيرَنَّ مَنْ تَخْشَى غَوَائِلَهُ ... وَالأَحْمَقَ الرَّأْىِ الغَابِى عَــنِ الخَبَرِ

= وقال الترمذى : هذا حديث غريب من حديث أم سلمة .

وفى الباب عن على بن أبى طالب أيضًا ، والنعمان بن بشير أخرجه الطبرانى فى « الأوسط » ، كما فى « المجمع » (٨/ ٩٩) ، وقال الهيثمى : رواه الطبرانى فى « الأوسط » عن شيخه أحمد بن زهير ، عن عبد الرحمن بن عتيبة البصرى ، ولم أعرفهما .

وحديث النعمان بن بشير :

ذكره الهيثمى فى « المجمع » (٨/ ١٠٠) ، وقال : رواه الطبرانى ، وفيه حفص بن سليمان الأسدى، وهو متروك .

وحديث : « المستشار مؤتمن » ذكره السيوطى فى « الجامع الصغير » (٦/ ٢٦٨ - فيض) رقم (٩٢٠٠ ، ٩٢٠١ ، ٩٢٠٢) ، وقد عدَّه متواترًا فى « الأزهار المتناثرة » رقم (٥٢) .

وقال المناوى فى « الفيض » (٦/ ٢٦٨) :

المستشار مؤتمن : أى أمين على ما استشير فيه فمن أفضى إلى أخيه بسره وأمنه على نفسه فقد جعله يحلها فيجب عليه أنه لا يشير عليه إلا بما يراه صوابًا فإنه كالإمامة للرجل الذى لا يأمن على إيداع ماله إلا ثقة والسر قد يكون فى إذاعته تلف النفس أولى بأن لا يجعل إلا عند موثوق به ، وفيه حث على ما يحصل به معظم الدين ، وهو النصح لله ورسوله ، وعامة المسلمين ، وبه يحصل التحابب والائتلاف وبضده يكون التباغض والاختلاف .

(تنبيه) : قال بعض الكاملين : يحتاج الناصح والمشير إلى علم كبير كثير فإنه يحتاج أولاً إلى علم الشريعة وهو العلم العام المتضمن لأحوال الناس وعلم الزمان وعلم المكان وعلم الترجيح إذا تقابلت هذه الأمور فيكون ما يصلح الزمان يفسد الحال أو المكان .

وهكذا فينظر فى الترجيح فيفعل بحسب الأرجح عنده ؛ مثاله أن يضيق الزمن عن فعل أمرين اقتضاهما الحال فيشير بأهمهما وإذا عرف من حال إنسان بالمخالفة وأنه إذا أرشده لشىء فعل ضده يشير عليه بما لا ينبغى ليفعل ما ينبغى وهذا يسمى علم السياسة فإنه يسوس بذلك النفوس الجموحة الشاردة عن طريق مصالحها فلذلك قالوا يحتاج المشير والناصح إلى علم وعقل وفكر صحيح ورؤية حسنة واعتدال مزاج وتؤدة وتأنٍّ فإن لم تجمع هذه الخصال فخطأه أسرع من إصابته فلا يشير ولا ينصح قالوا وما فى مكارم الأخلاق أدق ولا أخفى ولا أعظم من النصيحة .

وَاعلَمْ بِأنَّكَ إنْ شَاوَرْتَ بَعْضَهُمُ ... شَـــاوَرْتَهُ مُشْرِفًا مِنْهُ عَلَى خَطَرِ
إذَا أَشَــرْتَ بِأَمْرٍ أَوْ هَمَمْتَ بِهِ ... فَالرَّأْىُ طُولُ اتِّهَامِ النَّاسِ وَالْحَذَرِ
أَنْظُرْ بِعَيْنِكَ فِيمَا أَنْتَ شَاهِــدُهُ ... وَاجْعَلْ فُؤَادَكَ فِيمَا قَدْ غَابَ لِلنَّظَرِ

أخبرنا عبد الله بن قحطبة ، ثنا محمد بن عبد الملك الرقيقىُّ ، ثنا الهيثم بن عبيد الصيد ، حدثنى أبى عن الحسن ، قال : الناسُ ثلاثة : رجلٌ تام ، ورجلٌ نصفُ رجلٍ، ورجلٌ لا شَىْء ، فأما التامُّ ، فله تجربة ، ولا يَدَعُ المشاورة فى الأمر ، وأما النِّصْف ، فرجلٌ ليس له رأىٌ ، ولا يقطع أمرًا حتى يشاور ، وأما الذى ليس له بِشَىْء ، فرجل ليس له رأى ، ولا يُشَاوِرُ أحدًا .

وأنشدنى الأبرش : [المتقارب]

إذَا الأمْـــرُ أَشْكَـــلَ إِقْبَالُهُ ... وَلَمْ تَـــرَ فِيهِ سَبِيلاً فَسِيحَـــا
فَشَـــاوِرْ بِأَمْرِكَ فِى شِــــدَّةٍ ... أَخَاكَ الشَّفِيقَ الا... النَّصِيحَا
وَلا تُفْـــشِ سِـــرَّكَ إلا إلَيْهِ ... فَإنَّ لِكُـــلِّ نَصِـــيحٍ نَصِيحَا

أنبأنا إبراهيم بن إسحاق الأنماطىّ ، حدثنا محمد بن سليمان المَصِّيصىّ ، حدثنا ابن عيينة ، عن ابن شُبْرُمَة ، عن الحسن ، فى قوله [تعالى] [(١)] : ﴿ وَشَاوِرْهُمْ فِى الأَمْرِ﴾ [آل عمران : ١٥٩] قال : ما كان يحتاج إليهم ، ولكن أحبَّ أن يَسْتَنَّ به مَن بعده[(٢)].

قال أبو حاتم - رضى الله عنه : المستشار مؤتَمَن ، وليس بضامن ، والمستشير متحصِّن من السَّقط ، متخير للرأى .

والواجب على العاقل السالك سبيل ذوى الحجَا ، أن يعلم أن المشاورة تُفْشِى الأسرار، فلا يستشير إلا اللبيب الناصح الودود ، الفاضل فى دينه ، وإرشاد المُشِيرِ المستشيرَ قضاء حق النعمة فى الرأى ، والمشورة لا تخلو من البركة ، إذا كانت مع مثل من وصفنا نَعْتَه .

ولقد أنبأنا عمرو بن محمد ، حدثنا الغلابىُّ ، حدثنا ابن عائشة [(٣)] ، قال : قال الحسن : ما حزَبَ قومًا قَطُّ أمر ، فاجتمعوا فتشاوروا فيه ، إلا أرشدهم الله - جل وعلا- لأصْوَبِه .

---

(١) سقط فى الأصل . (٢) فى الأصل : يستنن به من بعده .
(٣) فى الأصل : محمد بن عبد الله بن عائشة .

وأنشدنى الكريزىُّ : [الطويل]

دبِّــــــرْ إِذَا مَا رُمْتَ أَمرًا بِفِكْـــرَةٍ ... لِتَعْلَــــمَ مَا تَأْتِى وَمَا تَتَجَنَّـــــبُ

وَشَـــــــاوِرْ نَقِيَّ الرَّأْيِ عِنْدَ الْتِبَاسِهِ ... لِكَىْ يَصِحَ الأَمْرُ الَّذِى هُوَ أَصْوَبُ(١)

وأنشدنى المنتصر بن بلال : [الطويل]

لا تَسْبِقَــــنَّ النَّاسَ بِالرَّأْيِ وَاتَّئِدْ ... فَإِنَّكَ إِنْ تَعْجَــلْ إِلَى القَــولْ تَزْلَلِ

وَلَكِنْ تَصَفَّحْ رَأْىَ مَنْ كَانَ حَاضِرًا ... وَقُلْ بَعْدَهُمْ رَسْلا ، وَبِالحَقِّ فَاعْمَلِ(٢)

أنبأنا محمد بن عثمان العقبىّ ، حدثنى يحيى بن يزيد بن محمد الأُبُلِّىّ ، حدثنى إسماعيل بن حبيب أبو حميد الأُبُلِّىّ ، عن عبد الله بن الديلمىِّ ، عن وهب بن منبه ؛ أنه قال : فى التوراة أربعة أحرف مكتوبة : من لم يشاور يندم ، ومن استغنى استأثر ، والفقر الموت الأحمر ، وكما تَدين تدان .

قال أبو حاتم - رضى الله عنه : لا أُنسَ آنَسُ مِنَ استشارة عاقل ودود ، ولا وحشةَ أوحش من مخالفته ، لأن المشاورة والمناظرة بابًا بركة ، ومفتاحًا رحمة ، ومن استُشيرَ فلْيُشر بالنصيحة ، ولْيجتهدْ بالرأى ، ولْيلزم الحقَّ ، وقصْدَ السبيل ، ولْيجعلِ المستشير كنفسه ، بترك الخيانة ، وبذل النصيحة ، ولْيكن كما أنشدنى على بن محمد البسَّامىّ : [الكامل]

وَمِنَ الرِّجَالِ إِذَا زَكَتْ (٣) أَحْلامُهُمْ ... مَنْ يُسْتَشَارُ ، إِذَا اسْتُشِيرَ ، فَيُطْرِقُ

حَتَّى يَجُـــولَ بِكُـــــلِّ وَادٍ قَلْبُهُ ... فَيَـــرَى وَيَعْرِفُ مَا يَقُولُ وَيَنْطِــقُ

إِنَّ الحَلِيمَ ، إِذَا تَفَكَّـــرَ لَمْ يَكَـدْ ... يَخْفَى عَلَيْهِ مِنَ الأُمُورِ الأَوْفَــقُ (٤)

---

(١) ينبغى على العاقل أن يدبر أموره ويقتدح زناد فكره ويقدر لرجله قبل الخطو موضعها .

وليشاور من كان لبيبًا أريبًا فيشاركه ذلك فى عقله ويتميز ما راقه من ثاقب فكره فبذلك يهتدى السبيل ويتقى الوبيل ويظفر بكل جميل .

(٢) ينبغى على المستشير ألا يعجل الناس بالرأى ولكن يتمهل ويأخذ الأمور على غير عجل لكى يأمن السقط والزلل .

وينبغى أن يفحص رأى الحضور وينقدها ثم ليختر لنفسه أفضلها وأصوبها ثم لينفذ عزمه ويمضى سعيه والله المستعان .

(٣) فى الأصل زلت .

(٤) ينبغى على العاقل أن يتخير من الناس أكابرهم وحكماءهم وعقلاءهم فمثل أولئك إن قالوا أصابوا ، وإن جهلوا أقروا حتى إن أحدهم ليستشار فلا يعجل بالقول دون امتهال . =

أنبأنا أبو يعلَى ، حدثنا غسان بن الربيع ، حدثنا يزيد بن ثابت ، عن إياس بن دَغْفَل ، عن الحسن ، أن رسول الله ﷺ قال : ما شاور قوم قطُّ إلا هُدوا لأرشدهم .

أخبرنى محمد بن المنذر ، حدثنا أحمد بن خالد السيرافىّ ، حدثنا شيبان ، حدثنا أبو الأشهب قال : قال الحسن : لا يندم من شاور مرشداً .

قال أبو حاتم - رضي الله عنه : الواجب على العاقل إذا استشير قومٌ هو فيهم ، أن يكون آخر من يُشير ؛ لأنه أمكن من الفكر ، وأبعد من الزلَل ، وأقرب من الحزم ، وأسلم من السَّقَط ، ومن استشار فلينفذ الحزم ، بأن لا يستشير عاجزًا ؛ كما أن الحازم لا يستعين كَسلان (١) ، وفى الاستشارة عين الهداية ، ومن شاور لم يعدَم رُشْدًا ، ومن ترك المشاور لم يعدم غَيا ، ولا يندم من شاور مرشِدًا ؛ ولقد أنشدنى الواسطىٌّ :

[الكامل]

أَلْهَــــمُّ مَا لَمْ تُمْضِهِ لِسَبِيلِهِ سَقَـــمُ القُلُوبِ وَآفَةُ الأَبْـدَانِ
وَمُعَـــوَّلُ الرَّجُلِ المُوَفَّقِ رَأْيُهُ عِنْدَ اعْتِرَاضِ طَوَارِقِ الأَحْــزَانِ
وَإِذَا الحَوَادِثُ سَـــدَّدَتْ أَسْبَابَهُ كَانَ التَّبَصُّرُ (٢) أَنْجَدَ الأَعْـوَانِ
وَإِذَا أَضَـــلَّ سَبِيلَهُ تَدْبِيـــرُهُ طَلَبَ الهُدَى بِتَشَاوُرِ الإِخْـوَانِ(٣)

أنبأنا محمد بن عثمان العقبىّ ، حدثنا مطروح بن شاكر ، حدثنا أصبغ ، عن ابن

= وإنما يطرق ساكتًا مترويًا ويجيل خواطره بكل وادٍ ويقلب الأمور ظهرًا لبطنٍ طلبًا للاستثبات والمعرفة الحقة فإن الظن لا يغنى عن الحق شيئًا .

وكذلك الحليم العقول إذا استجاش ذهنه ، وأعمل فكره استوى أمره وأصاب عين اللباب مما استراب .

(١) في الأصل : كلا من . (٢) فى الأصل : التصبر .

(٣) ينبغى على العاقل الفطن أن يكون رحبًا منشرح الصدر عميق الفكر ، وإذا ألمت به ملمة تهمه فليمض همها وليدافعه إذ الهموم سموم ، بحلبها الأحزان ، وإسقام الأبدان .

بل فلينهض حينئذ وعليه بحسن الرأي منه باقتداح زناد فهمه فهو خير دافع لطوارقه وخير دافع لمآزقه .

وليتبصر وليجنح إلى الرشد من فكره فهذا نعم العون لدفع الحوادث الملمة ولتعضيد أسباب خلاصه .

وإذا ما ارتُجَّ عليه الأمر ، فجهل كيف يقتطف ، ومن أين تؤكل الكتف ، فليقرع باب المشاورة فما خاب من استشار ، وفى الاستشارة عين الهداية .

وهب ، عن إبراهيم بن نشيط ، عن ابن أبى حسين ، قال : كان يقال : ما هلك امرؤ عن مشورة ، ولا سعد بتوحُّد (١) .

قال أبو حاتم – رضى الله عنه : إن من شِيَم العاقل عند النائبة تَنُوبه : أن يُشاور عاقلاً ناصحًا ذا رأى ، ثم يطيعه ، ولْيعترف للحقِّ عند المشورة ، ولا يتمادَى فى الباطل، بل يَقبل الحق ممن جاء به ، ولا يَحْقِر الرأى الجليل ، إذا أتاه به الرجل الحقير؛ لأن اللؤلؤة الخطيرة لا يَشينها قلة خطَر غائصها الذى استخرجها ، ثم ليستخر (٢) الله ، ولْيمض (٣) فيما أشار عليه .

ولقد أنشدنى البغدادىُّ : [الكامل]

أَطِعِ الحَلِيمَ إِذَا الحَلِيمُ عَصَـــاكَا ... إِنَّ الحَلِـيمَ إِذَا عَصَـــاكَ هَدَاكَـــا
وَإِذَا اسْتَشَارَكَ مَنْ تَوَدُّ ،فَقُلْ لَهُ : ... أَطِـــعِ الحَلِيمَ إِذَا الحَلِيمُ نَهَاكَـــا
وَلَـئِنْ أَبَيْتَ لَتَلْقَيَنَّ خِـــلافَهُ ... أَرِبًا (٤) يَحُوطُكَ،أَوْ يَكُونُ هَلاكَا(٥)
وَاعْلَمْ بِأَنَّكَ لَنْ تَسُودَ ، وَلَـنْ تَرَى ... سُبُلَ الرَّشَادِ؛ إِذَا أَطَعْتَ هَوَاكَا(٦)

أنبأنا أبو محمد عبد الرحمن بن عبد المؤمن بجرجان ، حدثنا محمد بن حميد البزاز(٧)، حدثنا ابن جرير ، عن ابن المقفع ، عن وزير كسرى ، قال : ثلاثة ليس لهم رأى ، فلا تستشيروهم : صاحبُ الخفِّ الضيق ، وحاقن البول ، وصاحب المرأة السَّوْء السَّليطة (٨) . وبالله التوفيق .

* * *

---

(١) فى الأصل : بتوجد . (٢) فى الأصل : يستخير . (٣) فى الأصل : يمضى .
(٤) فى الأصل : أدبًا . (٥) أربًا : تدبيرًا محكمًا ورأيًا حازمًا .
(٦) فليعلم العاقل أن نفسه عدو له ، وأن طاعتها منوطة بالردى ، والتنكب عنها هو سبيل الهدى.
فإذا ما استراب العاقل فى شىء ، وشاور حليمًا أريبًا فليعاص نفسه وليلزم رأى الحليم فمع لزومه مهداة ومرشدة .

وإذا ما استشارك امرؤ فقل له عليك بذوى الألباب من الناس فاسمع مقالهم وامض عزمك بنصحهم.

وإذا ما ركبت هواك وانثنيت عما ناصحك به فاعلم أن تدميرك فى تدبيرك .

لأن طاعة الهوى ردى ، وعصيانه هدى ، ورحم الله امرأً هامس نفسه ثم غالبها وتنكبها إذْ النفس أمارة بالسوء إلا ما رحم ربُّ العالمين . .

(٧) فى الأصل : الرازى . (٨) المرأة السوء : صاحبة الشر ، والسليطة الفاحشة القول .

ذِكْرُ الْحَثِّ عَلَى لُزُومِ النَّصِيحَةِ لِلْمُسْلِمِينَ كَافَّةً

أنبأنا الحسين بن محمد بن أبى معشر بحَرَّان ، حدثنا عبد الرحمن بن عمرو البَجَلى(١) ، حدثنا زُهير بن معاوية ، عن سُهيل بن أبى صالح ، عن عطاء بن يزيد الليثىّ ، عن تميم الدارىّ ، قال : قال رسول الله ﷺ : « الدِّينُ النَّصِيحَةُ ، قِيلَ: لِمَنْ يَا رَسُولَ اللهِ ؟ قَالَ : لِلهِ ، وَلِرَسُولِهِ ، وَلِأَئِمَّةِ الْمُسْلِمِينَ ، وَعَامَّتِهِمْ » (٢) .

---

(١) فى الأصل : البلخى .

(٢) أخرجه مسلم (١/ ٧٤) كتاب « الإيمان » ، باب : بيان أن الدين النصيحة حديث (٩٥/ ٥٥) ، وأبو داود (٥/ ٢٣٣ - ٢٣٤) ، كتاب الأدب : باب فى النصيحة حديث (٤٩٤٤) ، والنسائى (٧/ ١٥٦) ، كتاب البيعة ، باب : النصيحة للإمام ، وأحمد (٤/ ١٠٢) ، والحميدى (٢/ ٣٦٩) برقم (٨٣٧) ، وأبو عوانة (١/ ٣٦ - ٣٧) ، والبخارى فى « التاريخ الصغير » (٢/ ٣٤) ، وأبو عبيد فى «الأموال » (ص ١٠) برقم (١) ، وأبو يعلى (١٣/ ١٠٠) ، رقم (٧١٦٤) ، وابن حبان فى « روضة العقلاء » (ص ١٩٤) ، والطبرانى فى « الكبير » (٢/ ٥٢ ، ٥٤) ، والبيهقى فى « شعب الإيمان » (٦/ ٢٦) رقم(٧٤٠١) ، والبغوى فى « شرح السنة » (٦/ ٤٨٥ - بتحقيقنا) ، والقضاعى فى « مسند الشهاب » (رقم (١٧ ، ١٨) كلهم من طريق سهيل بن أبى صالح عن أبيه عن عطاء بن يزيد ، عن تميم الدارى أن النبى ﷺ قال : الدين النصيحة ، قالوا : لمن يا رسول الله ؟ قال : « لله ولكتابه ولنبيه ولأئمة المسلمين وعامتهم » .

وفى الباب عن أبى هريرة ، وابن عباس ، وابن عمر وثوبان .

حديث أبى هريرة :

أخرجه الترمذى (٤/ ٢٨٦) ، كتاب « البر والصلة » ، باب : ما جاء فى النصيحة حديث (١٩٢٦)، والنسائى (٧/ ١٥٧) كتاب « البيعة » ، باب : النصيحة للإمام ، وأحمد (٢/ ٢٩٧) ، والبخارى فى « التاريخ الصغير » (٢/ ٣٥) ، وأبو نعيم فى « الحلية » (٦/ ٢٤٢) ، (٧/ ١٤٢) ، عن أبى هريرة ، قال : قال رسول الله ﷺ : الدين النصيحة ثلاث مرار ، قالوا : لمن ؟ قال : لله ولكتابه ولأئمة المسلمين وعامتهم .

وقال الترمذى : حسن صحيح .

حديث ابن عباس :

أخرجه أحمد (١/ ٣٥١) ، والبزار (١/ ٤٩ - ٥٠ - كشف) رقم (٦١) ، وأبو يعلى (٤/ ٢٥٩) رقم (٢٣٧٢) من حديث ابن عباس .

أما أبو يعلى والبزار فأخرجاه من طريق زيد بن الحباب ثنا محمد بن مسلم الطائفى ثنا عمرو بن دينار ، عن ابن عباس ، قال : قال رسول الله ﷺ : الدين النصيحة ، قالوا : لمن يا رسول الله ؟ قال: لكتاب الله ولنبيه ولأئمة المسلمين .

=

. . . .

= أما أحمد فأخرجه من طريق زيد بن الحباب قال : أخبرنى عبد الرحمن بن ثوبان ، قال : سمعت عمرو بن دينار يقول : أخبرنى من سمع ابن عباس يقول : قال رسول الله ﷺ : الدين النصيحة ، قالوا : لمن قال : لله ولرسوله ولأئمة المؤمنين .

والحديث ذكره الهيثمى فى « مجمع الزوائد » (١/ ٩٢) ، وقال : رواه أحمد والبزار والطبرانى فى «الكبير » ، وقال : لأئمة المسلمين وعامتهم ، قال أحمد : عن عمرو بن دينار أخبرنى من سمع ابن عباس .

وقال الطبرانى : عن عمرو بن دينار ، عن ابن عباس فمقتضى رواية أحمد الانقطاع بين عمرو وابن عباس ومع ذلك فيه عبد الرحمن بن ثابت بن ثوبان ، وقد ضعفه أحمد ، وقال : أحاديثه مناكير ، ورواه أبو يعلى ورجاله رجال الصحيح ولفظ أبى يعلى : قالوا : لمن يا رسول الله ، قال : لكتاب الله ولنبيه ولأئمة المسلمين أ . هـ .

والحديث ذكره ابن أبي حاتم فى « العلل » (٢/ ١٧٦) ، رقم (٢٠١٩) ، وقال : سألت أبى عن حديث رواه أيوب الوزان ، عن زيد بن حباب ، عن ابن ثوبان ، عن عمرو بن دينار ، عن رجل ، عن ابن عباس ، قال : قال رسول الله ﷺ : الدين النصيحة ، قال أبى: هذا خطأ إنما هو ما رواه ابن عيينة ، عن عمرو بن دينار ، عن القعقاع بن حكيم ، عن أبى صالح ، قال : ثم لقيت سهيلاً فسألته فقال سهيل : سمعته من الذى سمعه منه أبى أخبرنيه عطاء بن يزيد كان صديقًا ، لأبى من أهل الشام عن تميم الدارى ، عن النبى ﷺ .

حديث ابن عمر :

أخرجه الدارمى (٢/ ٣١١) كتاب الرقاق : باب الدين النصيحة والبزار (١/ ٥٠ - كشف) رقم (٦٢) ، والطبرانى فى « مكارم الأخلاق » رقم (٦٦) ، والقضاعى فى « مسند الشهاب » رقم (١٩) من طريق هشام بن سعد ، عن زيد بن أسلم ، ونافع عن ابن عمر أن النبى ﷺ قال : الدين النصيحة .

قال البزار : وهذا لا نعلمه يروي عن ابن عمر إلا من هذا الوجه ولا نعلم أحدًا جمع بين زيد ونافع إلا جعفر بن عون عن هشام .

قلت : وهو كما قال .

فقد رواه جعفر بن عون ، عن هشام ، وجمع بين زيد ، ونافع كما عند الدارمى ، والبزار .

أما عند الطبرانى فى « المكارم » فرواه أبو همام الدلال عن هشام عن نافع - وحده دون ذكر زيد - عن ابن عمر به .

والحديث ذكره الهيثمى فى « مجمع الزوائد » (١/ ٩٢) .

وقال : رواه البزار ورجاله رجال الصحيح .

حديث ثوبان :

ذكره الهيثمى فى « مجمع الزوائد » (١/ ٩٢) عنه ، عن النبى ﷺ قال : . . . . . . رأس الدين النصيحة ، قالوا : لمن يا رسول الله ؟ قال : لله عَزَّ وجَلَّ ، ولأئمة المسلمين ، وللمسلمين عامة . . » .

وقال الهيثمى : رواه الطبرانى فى « الأوسط » ، وفيه أيوب بن سويد ، وهو ضعيف لا يحتج به .أ.هـ. =

قال أبو حاتم - رضى الله عنه : الواجب على المرء لزوم النصيحة للمسلمين كافة ، وترك الخيانة لهم ، بالإضمار والقول والفعل معًا ، إذ المصطفى - صلى الله عليه وسلم - كان يشترط على من بايعه من أصحابه ، النصحَ لكل مسلم ، مع إقَامِ الصلاة ، وإيتاء الزكاة .

وأخبرنى محمد بن أبى علىٍّ الخلادىّ ، حدثنا محمد بن الحسن [1] الذهلىّ ، عن أبى السائب ، قال : قال علىٌّ بن أبى طالب - رضى الله عنه : لا تعمل بالخديعة ، فإنها خُلق اللئام ، وامحَضْ أخاكَ النصيحة ، حسنة كانت أو قبيحة ، وزل معه حيث زال .

وأنشدنى الكريزىُّ : [البسيط]

قُـلْ لِلنَّصِيحِ الَّذِى أَهْدَى نَصِيحَتَهُ ... سِـرا إِلَيْنَا ، وَسَامَتْهُ التَّكَالِيفُ
أَلنُّصْـحُ لَيْسَ لَهُ حَد فَتَعْـرِفَهُ ... وَالنُّصْحُ مُسْتَـوْحَشٌ مِنْهُ وَمَأْلُوفُ
حَـتَّى إِذَا صَرَّحَـتْ عَنَّا عَوَاقِبُهُ ... كَانَتْ لَنَا عِظَـةٌ مِنْهُ وَتَعْنِيـفُ
لَـوْ كَانَ لِلنُّصْـحِ حَد يُسْتَبَانُ بِهِ ... مَا نَالَنَا حَسْـرَةٌ مِنْهُ وَتَلْهِيـفُ
لَكِـنْ لَهُ سُبُلٌ شَتَّى مُخَالِفَـةٌ ... بَعْضٌ لِبَعْضٍ ، فَمَجْهُولٌ وَمَعْرُوفُ
وَالنَّاسُ غَاوٍ ، وَذُو رُشْدٍ [2] ، وَمُخْتَلِطٌ ... وَالنُّصْحُ مُمْضًى،وَمَرْدُودٌ ،وَمَوْقُوفُ [3]

= وأيوب بن سويد .

قال البخارى فى « التاريخ الكبير » (١/١٣٣٣) : يتكلمون فيه . وقال أيضًا (٢/٢٧٠٨) : ليس بقوى . وقال النسائى فى « الضعفاء والمتروكين » (٢٩) : ليس بثقة . وقال الدارقطنى فى « سؤالات البرقانى » (٤٢٤) : يعتبر به . وقال ابن معين فى « سؤالات ابن الجنيد » (٦٠٠) : ليس بشىء .

(١) فى الأصل : الحسين .
(٢) فى الأصل : رَشَد .

(٣) هذه الأبيات فى طلب إمحاض النصيحة وتخليصها وإخلاصها من النصيح المؤمن على النصح فيقول معرضًا :

أيها الناصح الذين أهدانا قشور النصيحة ، وقد أسرَّ إلينا بها ، وبلغ الشقة والغاية .

أنت جهول ضلول لا عهد لك بالنصح ولا علم لك بحده ورسمه ، بل بضاعتك مُزْجَاة ، وكذلك النصيح منه المعهود الودود ، ومنه الغث المردود .

ولا يعلم هذا إلا بتكشف عواقبه واستبصار نتائجه ، فلو كان له حد ووزن ، أو رسم لاقتبسناه به .

وما شربنا مرَّ عاقبته ولما اكتسينا منه الحسرة واللهفة .

وكذلك فالنصح طرائق منه الهدى ، ومنه البوائق ، ومنه البكر والثيب ، وكلٌّ يدرك مقدوره . =

قال أبو حاتم - رضى الله عنه : خير الإخوان أشدُّهم مبالغةً فى النصيحة ، كما أنَّ خير الأعمال أجملها عاقبة ، وأحسنها إخلاصًا ، وضَرْب الناصِح ، خير من تحية الشانئ(١) .

ويجب أن يكون للعاقل نصيحة مبذولة للعامة ، مكتومًا من العام والخاصّ ما قَدَرَ عليه، وليس الناصح بأولى بالنصيحة من المنصوح له .

وأنبأنا عمرو بن محمد ، حدثنا الغلابىُّ ، حدثنا محمد بن عبد الرحمن بن القاسم التيمىّ ، حدثنى أبى ، قال : لما قدِم على الكوفة ، لقيه المُغيرة بن شُعبة ، فقال له : إنى أشير عليك برأى فاقبله ، قال : هات ، قال : أقرر معاويةَ على الشام ، يُسْمِحْ (٢) لك طاعته ، فإن أهل الشام قد ذاقوه فاستعذبوه ، ووَلِيهم عشرين سنة لم يَعيبوا عليه ، ولم يُعْتِبوه فى عِرض ولا مال . فقال : والله لو سألنى قرية ما وليته إياها ، قال : فقال المغيرة : أراه سَيَلِى أرَضِين وقُرِيَّات (٣) .

أنبأنا محمد بن المهاجر ، حدثنا ابن أبى شيبة ، حدثنا إسماعيل بن إبراهيم ، حدثنا ابن المبارك ، عن معمر ، عن يحيى بن المختار ، عن الحسن ، قال : إن المؤمن شُعبة من المؤمن ، وهو مرآة أخيه ، إن رأى منه ما لا يعجبه ، سدَّده وقوَّمه ؛ ونصحه فى السرِّ والعلانية .

وأنشدنى علىُّ بن محمد البسامىّ : [الطويل]

أَمِنْتُ عَلَى السِّرِّ امْـــرأً غَيْرَ حَازِمٍ ... وَلَكِنَّهُ فِى النُّصْـحِ غَيْرُ مُرِيـــبِ
فَذَاعَ بِهِ فِى النَّاسِ ، حَتَّى كَأَنَّمَا (٤) ... بِعَلْيَـاءَ نَارٌ (٥) أُوقِدَتْ بِثَقُـوبِ (٦)
فَمَا كُلُّ ذِى لُبٍّ بِمُؤْتِيكَ نُصْحَـهُ ... وَمَـا كُلُّ مُؤْتٍ (٧) نُصْحَهُ بِلَبِيـبِ
وَلَكِنْ إِذَا مَا اسْتَجْمَعَا عِنْدَ وَاحِـدٍ ... فَحُـــقَّ لَهُ مِنْ طَاعَةٍ بِنَصِيـبِ (٨)

= وهكذا الناس شتى منهم ذوو الرشد ، ومنهم الغوى الضلول ومنهم الخابط الجهول ، والنصح ماضٍ بين قبولٍ وردٍ ومضى ووقف .

(١) الشانئ : اسم فاعل من شنئه : إذا أبغضه وكرهه .

(٢) فى الأصل : تسمح . (٣) فى الأصل : قرايات . (٤) فى الأصل : كأنه .

(٥) فى الأصل : نارًا . (٦) فى الأصل : بثُقُوبْ . (٧) فى الأصل : ماز .

(٨) لقد بليت بعضلة ، ووقعت فى شكلة ، إذْ ضاق صدرى عن سر نفسى فحدثتنى أن أفرجه وأودعه صدرًا أمعى فبثثته صديقًا مؤتمنًا ، ولكنه غير حازم فى أموره .

فاحتلبت منه الحنظل والافتضاح ، إذْ أضحى كأنه نارٌ على علم .

سمعت محمد بن نصر بن نَوفل المَرْوَزِىّ يقول : سمعت أبا داودَ السِّنْجِىَّ يقول : سمعت ابن الأعرابىّ يقول : قال بعض الحكماء : اثنان ظالمان : رجل أُهديتْ له النصيحة ، فاتخذها ذنبًا ، ورجل وُسِّع له فى مكان ضيق ، فقعد متربعًا .

قال أبو حاتم - رضى الله عنه : النصيحة منوطة بالتُّهْمة ، وليست النصيحة إلا لمن قَبِلها، كما أن الدنيا ليست إلا لمن تركها ، ولا الآخرةُ إلا لمَن طلبها ، وليس على كل ذى نصح إلا الجَهد ، ولو لم يقبل من نصحائه ما يثقُل عليه ، لم يحمدْ [1] غبَّ رأيه ، ومشاورةُ الأصمِّ أحمدُ من الناصح المعرِض عنه ، ومن بذل نصيحتَه لمن لا يشكر ؛ كان كالباذر فى السباخ ، وأكثر ما يوجد ترك قبول النصيحة مِنَ [2] المعجَب برأيه ؛ وأنشدنى الأبرش : [البسيط]

إذَا نَصَحْتَ لِذِى عُجْبٍ لِتُرْشِدَهُ ... فَلَمْ يُطِعْكَ ، فَلا تَنْصَحْ لَهُ أَبَدَا
فَإنَّ ذَا العُجْبِ لا يُعْطِيكَ طَاعَتَهُ ... وَلَا يُجِيبُ إِلَى إِرْشَادِه أحَدَا
وَمَا عَلَيْكَ ، وَإنْ غَاوٍ غَوَى حِقبًا ... أَنْ لَمْ يَكُنْ لَكَ قُرْبَى ، أوْ يَكُنْ وَلَدَا[3]

قال أبو حاتم - رضى الله عنه : النصيحة تجب على الناس كافة ، على ما ذكرنا قبل، ولكنْ إبداؤها لا يجب أن يكون إلا سرا ؛ لأن من وعظ أخاه عَلانية فقد شانه ، ومن وعظه سرا فقد زانه ، فإبلاغ المجهود للمسلم فيما يزين أخاه ، أحرَى من القصد فيما يَشينه .

ولقد أنبأنا محمد بن عثمان العقبىُّ ، حدثنا الرَّمادىُّ ، حدثنا علىُّ بن المدينىِّ ، حدثنا

= وكذلك الناس شتى فما كل عقول بذول ، ولا كل ناصح لبيب .

وإذا ما اجتمع الحزم والعزم واللب والعقل فى امرئ فهو قمين أن يؤتمن خليق بأن يصاحب ويستسر ويستنصح .

(١) فى الأصل : يجد . (٢) فى الأصل : فى .

(٣) ينبغى على العاقل ألا يقلد الخنازير الجواهر ، وإنما يتخير بذله ونصحه فيودعه فى أهله ، فلا ينصح معجبًا برأيه ، إذ ليس للنصح بأهلٍ بل لن يطعك فى نصحك فمثل هذا فاعزله ولا تباذله . .

فمن كان معجبًا برأيه فإنه فى لجاجة من أمره ، إذ يتكبر على الناس فلا يسلم لطاعة أحد ، وينافره الناس فلا يجيبه لنصحه أحد .

ولعلك باخع نفسك ألا يتبع نصحك ، بل دعه ولا تكثر عليه التأسف وكيف تأسف لمن غوى وضل ما لم يكن من ذو قرابتك أو أحد بنيك ؟! .

فمن لم تبلغه المعالى نفسه ... فغير جديرٍ أن ينال المعاليا

سفيان ، قال : قلت لِمسعر : تحب أن يخبرك رجل بعيوبك ؟ قال : أمَّا أن يجيء إنسان فيوبِّخَني بها فلا ، وأما أن يجيء ناصحٌ فَنَعم .

أخبرنا محمد بن أبى علىٍّ الخلادىّ ، حدثنا محمد بن المغيرة النوفلىّ ، حدثنا محمد ابن علىٍّ الشقيقىّ ، حدثنا أبى ، عن ابن المبارك ، قال : كان الرجل إذا رأى من أخيه ما يكره ؛ أمره فى ستَر ، ونهاه فى ستَر ، فيؤجَرُ فى ستَره ، ويؤجر فى نَهيه ، فأما اليوم فإذا رأى أحدٌ من أحدٍ ما يكره ، استغضب أخاه ، وهتك سِتْره .

أخبرنا محمد بن سعيد القزاز ، حدثنا محمد [1] بن منصور ، حدثنى علىُّ بن المدينىّ، عن سفيان ، قال : جاء طلحة إلى عبد الجبار بن وائل وعنده قوم ، فسارَّه بشىء، ثم انصرف . فقال : أتدرون ما قال لى ؟ قال : رأيتكَ التفتَّ أمسِ وأنتَ تصلّى .

قال أبو حاتم - رضى الله عنه : النصيحة إذا كانت على نعت ما وصفنا ، تقيم الألفة، وتؤدّى حق الأخوة .

وعلامة الناصح إذا أراد زينة المنصوح له ، أن ينصحه سرًا ، وعلامة من أراد شَينة أن ينصحه علانية ، فليحذر العاقل نصحَه الأعداء فى السر والعلانية .

ولقد أنشدنى ابن زنجىٍّ البغدادىّ : [الطويل]

فكَـمْ مِنْ عَدُوٍّ مُعْلِنٍ لَكَ نُصْحَهُ ... علانِيَةً ، وَالغِشُّ تَحْتَ الأَضَالِعِ
وكَمْ مِنْ صَدِيقٍ مُرْشِدٍ قَدْ عَصَيْتَهُ ... فَكُنْتَ لَهُ فِى الرُّشْدِ غَيْرَ مُطَاوِعِ
وَمَا الأَمْرُ إِلا بِالعَوَاقِـبِ ؛ إِنَّهَا ... سَيَبْدُو عَلَيْهَا كُلُّ سِرٍّ وَذَائِـعِ [2]

وأنشدنى منصور بن محمد الكُرِيزىُّ : [البسيط]

وَصَـاحِبٍ غَيْرِ مَأْمُونٍ غَوَائِلُــهُ ... يُبْدِى لِىَ النُّصْحَ مِنْهُ ، وَهُوَ مُشْتَمِلُ

---

(١) فى الأصل : أحمد .

(٢) كم يلاقى المرء عجبًا من تقلب الأحوال وتبدلها ومن العجائب والغرائب أن العدو قد يرتدى لك ثياب النصح ومسوح الوعظ ، وقد انحنت أضالعه على الغش والكيد لك .

وكم من صديق مصادق غير مماذق قد أولانى بالنصح فما رفعت بنصحه رأسًا ، ولا سمعت له نصحًا ، وفي نصحه الهدى والرشاد .

وإنما الأمور بالعواقب والخواتيم فعليها تعقد النتائج وبها يستبين الغث من السمين .

عَلَى خِلافِ الَّذِى يُبْدِى وَيُظْهِرُهُ وَقَدْ أَحَطْتُ بِعِلْمِى أَنَّهُ دَغِلُ
عَفَوْتُ عَنْهُ انْتِظَارًا أَنْ يَثُوبَ لَهُ عَقْلٌ إِلَيْهِ مِنَ الزَّلَّاتِ يَنْتَقِلُ
دَهْرًا فَلَمَّا بَدَا لِى أَنَّ شِيمَتَهُ غِشٌ ، وَلَيْسَ لَهُ عَنْ ذَاكَ مُنْتَقَلُ
تَرَكْتُهُ تَرْكَ قَالٍ لا رُجُوعَ لَهُ إِلَى مَوَدَّتِهِ مَا حَنَّتِ الإِبِلُ (١)(٢)

* * *

(١) إذا فارقت الإبل أوطانها حنت إليها حنينًا شديدًا ، ومرضت حتى تعود إليها .
(٢) الا رُبَّ صاحبٍ خؤون غير مأمون جانبه ، يبوح بالنصح ويطوى لى خلافه . .
وقد طوى جوانحه على البغضة والكيد لى ، غير أنى علمت مطوى سره ، وحقيقة أمره .
ولكننى تجاهلت ذلك وتناسيته رجاء أن يرعوى عن غيه . .
ولقد أوليته منى عفوًا ، عساه أن يثوب لرشده ، ويفيء إلى عقله ، ويتنصل من زلاته وسوءاته . .
فلما بدا لى أنه متلبس بالسوء غير تارك له ، فعلمت أنه امرؤ سوء ، وشيمته الخداع والرذيلة ولا انتقال له عن غيه وسوئه .
حينئذ هجرته هجران من لا عود له أبدًا ، ماحنَّتِ الإبل ، وهى لا تزال على حنينها .

[وَصِيَّةُ الرَّبِيعِ بْنِ خَيْثَمٍ (١)] (٢)

أخبرنا عبد الله بن محمد القيراطيّ ، حدثنا محمد بن يزيد الملقب « يَحْمش » ، حدثنا يعلى بن عبيد ، حدثنا أبو حَيَّان عن أبيه قال : كتب الربيع بن خَيْثَم وصيته :

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

هذا ما أوصى به الربيع بن خَيْثم ، وأشهد عليه ، وكفى بالله شهيدًا ، وجازيًا لعباده الصالحين مثيبًا :

إنى رضيت بالله ربًا ، وبالإسلام دينًا ، وبمحمد صلَّى الله عليه وسلم نبيًا ، وأن تعبدَ الله ومن أطاعنى فى العابدين ، ونحمَدَه فى الحامدين ، وننصح لجماعة المسلمين . والله المستعان ، وعليه التكلان .

* * *

---

(١) الربيع بن خيثم الثورى ، أبو يزيد الكوفى : من كبار المحدثين والزهاد من التابعين يروى عن ابن مسعود وأبى أيوب وعمرو بن ميمون وعنه الشعبى وإبراهيم النخعى وأبو بردة ، قال له ابن مسعود: لو رآك ﷺ لأحبك . توفى سنة أربع وستين .

[ينظر « تهذيب التهذيب » : (٣/٢٤٢) ، و « التقريب » : (١/٢٤٤) ، والحلية : (٢/١٠٥)، و«نسيم الرياض » : (٢/١٠٧) ، و« طبقات ابن سعد » : (٦/ ١٠) .

(٢) سقط فى الأصل .

وَصِيَّةُ الخَطَّابِ بْنِ المُعَلَّى المَخْزُومِيِّ ابْنَهُ

أخبرنى محمد بن المنذر بن سعيد ، حدثنا أبو حاتم : محمد بن إدريس الحَنْظَلِىّ ، حدثنى عبد الرحمن بن أبى عطية الحِمِصِىّ ، عن الخطَّاب بن المُعَلَّى المخزومىّ القُرَشِىّ : أنه وعظ ابنه ، فقال :

يا بُنَىَّ ، عليك بتقوى الله وطاعته ، وتجنُّب محارِمِه ، باتباع سنتِه ومعالمه ، حتى تصحَّ عيوبك ، وتَقَرَّ عينُك ، فإنها لا تخفى على الله خافية ، وإنى قد وَسمت [(١)] لك وَسْمًا [(٢)] ، ووضعت لك رَسْمًا [(٣)] ، إن أنت حفظته ووعيته ، وعملت به ، ملأت أعينَ الملوك ، وانقاد لك به الصعلوك ، ولم تزل متربحًا مُشرقًا ، يُحتَاجُ إليك ، ويُرْغَبُ إلى ما فى يديك ، فأطعْ أباك ، واقتصر على وصية أبيك ، وفَرِّغ لذلك ذهنك ، واشْغَلْ به قلبَك ولُبَّك ، وإياك وهذَرَ الكلام ، وكثرةَ الضحك والمُزاح ، ومهازلةَ الإخوان ، فإن ذلك يُذهِب البَهاء ، ويُوقِع الشَّحْناء ، وعليك بالرزانة والتوقُّر ، من غير كِبْر يوصف منك ، ولا خُيَلاء عنك ، والقَ صديقك وعدوك بوجه الرضا ، وكُفَّ الأذى ، من غير زِلَّة لهم ، ولا هيبة منهم . وكن فى جميع أمورك فى أوسطها ؛ فإن خير الأمور أوساطُها ، فأقللِ الكلام ، وأفش السلام ، وامش متمكنًا قَصْدًا ، ولا تَخَطَّ برجلك ، ولا تسحب ذيلك ، ولا تَلْوِ عُنقك ، ولا رداءك ، ولا تنظر فى عِطفك ، ولا تُكثر الالتفات ، ولا تَقِف على الجماعات ، ولا تتخذ السوق مَجْلسًا ، ولا الحوانيت مُتَحدَّثًا ، ولا تكثر المِراء ، ولا تنازع السفهاء ، وإن تكلمت فاختصر ، وإن مزحت فاقتصر ، وإذا جلست فتربَع ، وتحفظْ من تشبيك أصابعك وتَفْقيعها ، والعَبَث بلحيتك وخاتَمك ، وذؤابة سيفك ، وتخليل أسنانك ، وإدخالك يدك فى أنفك ، وكثرة طرد الذُّباب عن وجهك ، وكثرة التثاؤب والتمطِّى [(٤)] ، وأشباهِ ذلك مما يستخفه الناس منك ، ويغتمزون به فيك .

وليكن مجلسك هاديًا ، وحديثك مَقْسُومًا ، وأصغ إلى الكلام الحسن ممن حَدَّثك ، بغير إظهار عَجَب منك ، ولا مسألة إعادة ، وغُضّ [(٥)] عن الفكاهات ، من المَضاحك

---

(١) فى الأصل : رسمت . (٢) فى الأصل : رسمًا (٣) فى الأصل : وشمًا

(٤) التمطط ، أى التمدد ، وهو مع التثاؤب من أمارات الكسل .

(٥) فى الأصل : وأغض .

والحكايات ، ولا تَحدَّث عن إعجابك بولدك ، ولا جاريتك ، ولا عن فَرَسِكَ ، ولا عن سيفك . وإياك وأحاديثَ [1] الرؤيا ، فإنك إن أظهرت عَجَبًا بشيء منها ، طمع فيها السفهاء ، فولدوا لك الأحلام ، واغتمزوا فى عقلك ، ولا تصنَّعْ تَصنُّعَ المرأة ، ولا تَبَذَّل تبذُّل العبد ، ولا تهلْب لحيتك ولا تُبطِّنها [2] ، وتوق كثرة الحَفِّ ، ونتف [3] الشيب ، وكثرة الكحل ، والإسراف فى الدُّهن ، وليكن كحلك غِبا ، ولا تُلِحَّ فى الحاجات ، ولا تخشع فى الطلبات ، ولا تُعْلِم أهلك وولدك - فضلاً عن غيرهم - عدَدَ مالك ، فإنهم إن رأوه قليلاً هُنْت عليهم ، وإن كان كثيرًا لم تبلغ به رضاهم ، وأخِفْهُمْ فى غير عُنْف ، ولِنْ لهم فى غير ضَعْف ، ولا تهازل أمَتك وعَبْدَك ، وإذا خاصمتَ فتوقَّر ، وتحفَّظْ من جهلك ، وتجنبْ عن عجلتك ، وتفكر فى حُجَّتك ، وأرِ الحاكم شيئًا من حلمك ، ولا تكثر الإشارة بيدك ، ولا تَحفَّز على ركبتيك ، وتوقَّ حمرة الوجه، وعرَق الجبين ، وإن سفه عليك فاحلم ؛ وإذا هو أغضبك فتحلَّم وأكرم عِرضك، وألق الفضول عنك ، وإن قرَّبك سلطان ، فكن منه على حدِّ السِّنان [4] ، وإن استرسل [5] إليك ، فلا تأمن [من] [6] انقلابه عليك ، وارفُق به رفقَك بالصبىِّ ، وكلمه بما يشتهى ، ولا يحملنك ما ترى من إلطافه [7] إياك ، وخاصتَّه بك : أن تدخل بينه وبين أحد من ولَده وأهله ، وحشمه ، وإن كان لذلك منك مستمعًا ، وللقول منك فيه مطيعًا ، فإن سقطة الداخل بين الملك وأهله سرعة لا تُنْهَض ، وزلَّة لا تُقال . وإذا وَعدت فحقِّق ، وإذا حدَّثت فاصدُق ، ولا تجهرْ بمنطقك كمنازع الأصمِّ ، ولا تخافت به كتخافت [8] الأخرس ، وتخير محاسنَ القول بالحديث المقبول ، وإذا حَدَّثت بسمَاع ، فانسبه إلى أهله ، وإياك والأحاديث العابرة المتشنعة ، التى تنكرها القلوب ، وتَقِفُّ [9] لها الجلود . وإياك ومضعَّف الكلام ، مثل : نعم ، نعم ، ولا ، لا ، وعجل ، عجل، وما أشبه ذلك ، وإذا توضأت من الطعام فأجدْ عَرْك كَفَّيك ، وليكن وضعك الحُرُض [10] من الأُشنان فى فيك ، كفعلك بالسواك ، ولا تنخَّع فى الطَّسْت ، وليكن طرحك الماء من فيك مترسِّلا [11] ، ولا تَمُجَّ فتَنْضَحَ على أقرب جلسائك ، ولا تَعَضَّ

---

(١) فى الأصل : حديث .
(٢) تبطين اللحية ألا يؤخذ مما تحت الذقن والحنك (القاموس).
(٣) فى الأصل : فى نتف .
(٤) أى على مثل حد الرمح ، من الخوف والحذر .
(٥) استرسل إليك : تبسط واطمأن وأنس .
(٦) سقط فى الأصل .
(٧) الإلطاف : المعاملة باللطف .
(٨) فى الأصل : كمخافتة .
(٩) قف الجلد : اقشعر .
(١٠) الحرض : غاسول يزيل الأوساخ ، مثل الصابون .
(١١) مترسلاً : قليلاً قليلاً لا جملة ، لئلا يطير رشاش الماء على من جاورك .

نصف اللقمة ، ثم تعيد ما بقى منها فى مُتصبَّغ ، فإن ذلك مكروه ، ولا تكثر الاستسقاء على مائدة الملك ، ولا تعبَث بالمُشاش [(١)] ولا تَعبْ شيئًا مما يُقَرَّب إليك على مائدة ، بقلّة خلٍّ أو تابلٍ أو عسل ؛ فإن السحابة ، [قد] [(٢)] صيَّرت لنفسها مَهابة [(٣)] ؛ ولا تَمَسك إمساك المَثبور [(٤)] ، ولا تُبذِّر تبذير السفيه المغرور ، واعرف فى مالك واجبَ الحقوق ، وحُرمةَ الصديق ، واستغنِ عن الناس يحتاجوا إليك . واعلم أن الجشَع يدعو إلى الطبَع [(٥)] ، والرغبةُ - كما قد قيل - تدقُّ الرقبة ، وربَّ أكلة تمنع أكَلات ، والتعفف مال جسيم ، وخلق كريم ، ومعرفة الرجل قدره ، تزيد عزه ، ومن تعدى القدْر ، هوى فى بعيد القَعْر [(٦)] . والصدق زين ، والكذب شين ؛ ولَصِدقٌ يُسرع عطبَ صاحبه ، أحسنُ عاقبة من كذب يسلم عليه قائلُه ، ومعاداة الحليم خير من مصادقة [الأحمق ، ولزوم الكريم على الهَوان ، خير من صحبة] [(٧)] اللئيم على الإحسان ، وقُرب مَلك جواد ، خير من مجاورة بحر طَرّاد ، وزوجة السوء الداء العُضال ، ونكاح العجوز تَذْهب بماء الوجه ، وطاعة النساء تُزْرى بالعقلاء .

تشبه بأهل العقل تكن منهم ، وتصنَّع للشرف تدركه .

واعلم أن كل امرئ حيث وضع نفسه ، وإنما يُنْسب الصانع إلى صناعته ، والمرء يعرف بقرينه ، وإياك وإخوانَ السوء ، فإنهم يخونون من رافقهم ، ويُحزنون من صادقهم ، وقربُهم أعدى من الجَرَب ، ورفضهم من استكمال الأدب ؛ واستخفار [(٨)] [(٩)] المستجير لؤم ، والعجلة شؤم ، وسوء التدبير وَهْن .

والإخوان اثنان : فمحافظ عليك عند البلاء ، وصديق لك فى الرخاء ؛ فاحفظ صديق البلاء ، وتجنب صديق العافية ، فإنهم أعدى الأعداء .

ومن اتبع الهوى ، مال به [إلى] الردَى ، ولا يعجبنك الجَهم [(١٠)] من الرجال ، ولا تحقره ضئيلاً كالخِلال [(١١)] ، فإنما المرء بأصغريه بقلبِه ولسانه ، ولا يُنتفع به بأكثر من أصغريه .

---

(١) المشاش أطراف العظام : أي لا تحاول استقصاء ما عليه من اللحم أو استخراج ما فى العظم من المخ .

(٢) سقط فى الأصل .

(٣) ارتفت السحابة وعلت عن أن تسمع كلام الناس فيها .

(٤) المثبور : المحبوس والممنوع .

(٥) الطبع : الشين والعيب .

(٦) من جاوز قدره اغترارًا وقع فى الهلكة .

(٧) سقط فى الأصل .

(٨) الغدر بذمة اللاجئ إليك ، والسين والتاء فيها للطلب فهى صحيحة .

(٩) فى الأصل : إخفار .

(١٠) الجهم : العبوس الكالح الوجه ، كبرًا على الناس .

(١١) الخلال : العود تخلل به الأسنان .

وتوقَّ الفساد ، وإن كنت فى بلاد الأعادى ، ولا تفرِش عرضك لمن دونك ، ولا تجعل مالك أكرم عليك من عِرضك ، ولا تكثر الكلام ، فتثقلَ على الأقوام ، وامنح البِشر جليسك ، والقبولَ مَن لاقاك .

وإياك وكثرة التَّزين والتزليق [١] ، فإن ظاهر ذلك ينسب إلى التأنيث ، وإياك والتصنع لمغازلة النساء ، وكن [متقربًا] [٢] ، متعززًا [٣] ، منتهزًا فى فرصتك ، رفيقًا فى حاجتك ، متثبتًا فى حملتك [٤] ، والبَس لكل دهر ثيابه ، ومع كل قوم شكْلَهم .

واحذر ما يُلزمك اللائمةَ فى آخرتك ، ولا تعجل فى أمر حتى تنظر فى عاقبته ، ولا تَرِدْ حتى تَرَى وجه المصدَر .

وعليك بالنُّورة [٥] فى كل شهر [مرة] [٦] ، وإياك وحِلاقَ الإبْط بالنُّورة ، ولْيكن السواك من طبيعتك ، وإذا استكْتَ [٧] فَعَرْضًا ، وعليك بالعمارة ، فإنها أنفع التجارة ، وعلاج الزرع ، خير من اقتناء الضَّرْع ، ومنازعتك اللئيم تطمعه [٨] فيك ، ومن أكرم عرضه أكرمه الناس ، وذمُّ الجاهل إياك ، أفضل من ثنائه عليك ، ومعرفة الحق من أخلاق الصدق ، والرفيق الصالح ابن عم ، ومن أَيسرَ أُكْبِرَ ، ومن افتقر احتُقِر ، قَصِّرْ فى المقالة ، مخافة الإجابة والسآمة ، [والساعى إليك] [٩] غالب عليك ، وطول السفر ملالة ، وكثرة المُنَى ضلالة ، وليس للغائب صديق ، ولا على الميت شفيق ، وأدبُ الشيخ عَناء ، وتأديب الغلام شَقاء ، والفاحش أمير ، والوَقاح [١٠] [١١] وزير ، والحليم مَطِية الأحمق ، والحمق داء لا شفاء له ، والحلم خير وَزِير ، والدِّين أزين الأمور ، والشماتة سفاهة ، والسكران شيطان ، وكلامه هَذَيان ، والشِّعْر من السِّحر [١٢] ، والتهددُ هُجْر ، والشحُّ شقاء ، والشجاعة بقاء [١٣] ، والهدية من الأخلاق السَّرِيَّة ، وهى تُورث المحبة ، ومن ابتدأ المعروف صار [١٤] دَينًا ، ومن المعروف ابتداء من غير مسألة ، وصاحب الرياء يرجع إلى السخاء ، وكرياء بخير ، خير من معالَنة بشرٍّ ، والعِرق

---

(١) التبريق : التزيين ، والتزليق : صبغ البدن بالأدهان ونحوها ، حتى يصير كالمزلقة ملاسة ونعومة ملمس .

(٢) سقط فى الأصل . (٣) فى الأصل : متقززًا . (٤) فى الأصل : جملتك .

(٥) النورة : مادة كالجير تزيل الشعر. (٦) سقط فى الأصل .

(٧) فى الأصل : استكته . (٨) فى الأصل : يطمعه . (٩) سقط فى الأصل .

(١٠) الوقاح بوزن سحاب : الذى لا يستحى ولا يخاف .

(١١) فى الأصل : الوجواج . (١٢) له تأثير خفى فى النفس مثل تأثير السحر .

(١٣) فى الأصل : لقاء . (١٤) فى الأصل : صار له .

نزّاع[1] [2]، والعادة طبيعة لازمة : إن خيرًا [3] فخير ، وإن شرا [4] فشر ، ومن حَلّ عَقدًا ، احتمل حِقدًا ، ومراجعة [5] السلطان ، خُرْق بالإنسان ؛ والفِرار عار ، والتقدم مخاطرة ، وأعجل المنفعة يَسار فى دَعَة ، وكثرة العلل ، من البُخل ، وشر الرجال ، الكثير الاعتلال يعنى : فى القول ، وحسن اللقاء يَذْهَبُ بالشَّحْناء ، ولين الكلام ، من أخلاق الكرام .

يا بُنىَّ ، إن زوجة الرجل سكَنه ، ولا عيش له مع خلافها ، فإذا هممت بنكاح امرأة، فسَلْ عن أهلها ، فإن العروق الطيبة ، تنبت الثمار الحلوة .

واعلم أن [6] النساء أشد اختلافًا من أصابع الكفّ ، فتوقَّ منهن كل ذات بَذَاء [7] ، مجبولةً على الأذى ، فمنهن المعجَبة بنفسها ، المُزْرية ببعلها [8] ، إن أكرمها رأته لفضلها عليه ، لا تشكر على جميل [9] ، ولا ترضى منه بقليل ، لسانها عليه سيف صقيل ، قد كشفت القِحَةُ ستر الحياء عن وجهها ، فلا تستحى من إعوارها ، ولا تستحى من جارها؛ كلْبة هرَّارةَ [10] ، مُهارِشة عقَّارة [11] ، فوجه زوجها مكلوم ، وعرضه مشتوم ، ولا تُرْعى عليه لدين ولا دنيا ، ولا تحفظه لصحبة ، ولا لكثرة بنين ، حجابه مهتوك ، وستره منشور ، وخيره مدفون ، يصبح كئيبًا ، ويمسى عاتبًا ، شَرابه مُر ، وطعامه غيظ، وولده ضَياع ، وبيته مستهلَك ، وثوبه وسِخ ، ورأسه شَعِث ، إن ضحك فواهن، وإن تكلم فمتكاره ، نهاره ليل ، وليله نهار ، تلدغُه مثل الحية العقَّارة ، وتلسبُه مثل العقرب الجرارة [12] .

ومنهن شَفْشَلِيق شَعْشَعٌ سَلْفَع [13] ، ذات سَمّ مُنْقَع [14] ، وإبراق [15] واختلاق[16]،

---

(١) من كان عرق من خير أو شر رجع به إلى أصله . (٢) فى الأصل : نازع .
(٣) فى الأصل : خير (٤) فى الأصل : شرٌ . (٥) فى الأصل : ومزابعة .
(٦) فى الأصل : بأن . (٧) ذات البذاء : السليطة اللسان .
(٨) المزرية ببعلها : العائبة لزوجها . (٩) فى الأصل : جعيل .
(١٠) هرارة : من الهرير ، وهو صوت يخرج من صدر الكلب دون نباح .
(١١) المهارشة : التى تهيج الشر ، والعقارة : التى تعقر غيرها . أى تجرحه كما يعقر الكلب الناس، أى يعضهم .
(١٢) فى الأصل : الجزازة .
(١٣) الشفشليق : كزنجبيل : العجوز المسترخية . . والشعشع كجعفر : الوطيل ، والسلفع كجعفر: الصخابة ، والبذيئة السيئة الخلق كالسلفعة .
(١٤) السم المنقع : السم المذاب المهيأ . (١٥) الإبراق : التهديد .
(١٦) فى الأصل : إتراف واختلاط .

تهبُّ مع الرياح ، وتطير مع كل ذى جناح ، إن قال : لا ، قالت : نعم ، وإن قال : نعم ، قالت : لا ، مولدة لمخازيه ، محتقرة لما فى يديه ، تضرب له الأمثال ، وتقصرٌ به دون الرجال ، وتنقله من حال إلى حال ، حتى قَلَى (١) بيته ، ومَلَّ ولَدَه ، وغَثَّ (٢) عيشُه ، وهانت عليه نفسُه ، وحتى أنكره إخوانه ، ورحمه جيرانه .

ومنهن الورْهاء (٣) الحمقاء : ذات الدَّل فى غير موضعها ، الماضغة للسانها ، الآخذة فى غير شأنها ، قد قَنِعت بحبه ، ورضِيت بكسبه ، تأكل كالحمار الراتع ؛ تنتشر الشمس ولما يُسمعْ لها صوت ، ولم يُكْنَس (٤) لها بيت ، طعامها بائت ، وإناؤها وضِر (٥) وعجينها حامض ، وماؤها فاتر ، ومَتاعها مزروع (٦) ، وماعونها ممنوع ، وخادمها مضروب ، وجارها محروب .

ومنهن العَطُوف الوَدود ، المباركَة الوَلود ، المأمونة على عيبها ، المحبوبة فى جيرانها ، المحمودة فى سِرها وإعلانها ، الكريمة التبعُّل (٧) ، الكثيرة التفضل ، الخافضة صوتًا ، النظيفة بيتًا ، خادمها مُسَمَّن ، وابنها مُزَيَّن ، وخيرها دائم ، وزوجها ناعم ، مرموقة (٨) مألوفة ، وبالعفاف والخيرات موصوفة .

جعلك الله يا بنى ممن يقتدى بالهُدَى ، ويأتمُّ بالتقَى ، ويجتنب السّخَط ، ويحب الرضا .

والله خليفتى عليك ، والمتولِّى لأمرك ، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم ، [وصلى الله على محمد نبىّ الهُدَى ، وعلى آله وسلَّم تسليمًا كثيراً] (٩) .

* * *

(١) قَلاه يَقْلِيه ويقلاه قِلَى : أبغضه وكرهه غاية الكراهية .
(٢) غث عيشه : صار غثا هزيلاً لا خير فيه .
(٣) الورهاء : الحمقاء .
(٤) فى الأصل : تكنس .
(٥) الوضر : الذى فيه وسخ الدسم واللبن ونحوه .
(٦) مزروع : مطروح (قاموس)
(٧) التبعل : رعاية البعل والتودد له .
(٨) فى الأصل : مومو قة .
(٩) سقط فى الأصل .

ذِكْرُ الزَّجْرِ عَنْ تَهَاجُرِ الْمُسْلِمِينَ كَافَّةً

حدثنا أبو يعلَى [الموصليُّ] (١) ، حدثنا وهب بن بقية الواسطىّ ، حدثنا خالد بن عبد الله ، عن عبد الرحمن بن إسحاق ، عن الزهرىّ ، عن أنس ، قال : قال رسول الله ﷺ : « **لا تَبَاغَضُوا ، وَلا تَنَافَسُوا ، وَلا تَحَاسَدُوا ، وَلا تَدَابَرُوا ، وَكُونُوا عِبَادَ الله إِخْوَانًا وَلا يَحِلُّ لِمُسْلِمٍ أَنْ يَهْجُرَ أَخَاهُ فَوْقَ ثَلاث** » (٢) .

قال أبو حاتم - رضى الله عنه : لا يَحِلُّ التباغُض ولا التنافس ولا التحاسد ولا التدابُر بين المسلمين ؛ والواجب عليهم أن يكونوا إخوانًا ؛ كما أمرهم الله ورسوله ؛ فإذا تألم واحد منهم تألم الآخر بألمه ؛ وإذا فرح فرح الآخر بفرحه ، بنفى الغِشّ والدَّغَل ، مع استسلام الأنفس لله - جل وعلا - مع الرضا بما يوجب القضاء فى الأحكام كلها ، ولا يجب الهِجران بين المسلمَيْنِ عند وجود زلَّة من أحدهما ، بل يجب عليهما صرفها إلى الإحسان ، والعطف عليه بالإشفاق ، وترك الهِجران .

ولقد حدثنى محمد بن المهاجر ، حدثنى موسى بن محمد (٣) الأخبارىّ ، عن النميرىّ ، حدثنى محمد بن يحيى الكَتانىّ ، قال : أنشدنى أبو غزية (٤) ، لمعاوية بن عبد الله بن جعفر : [الكامل]

لا يُزْهِدَنَّـــكَ فِى أَخٍ ... لَكَ أَنْ تَرَاهُ زَلَّ زَلَّـــهْ
وَالمَرْءُ يَطْرَحُـــهُ الَّذِيـ ... ـنَ يَلُونَهُ فِى شَرِّ أَلَّهْ (٥)
وَيَخُونُهُ مِنْ مَأْمَـــنٍ ... أَهْلُ البِطَانَةِ وَالدُّخْلَهْ (٦)
وَالمَوْتُ أَعْظَمُ حَادِثٍ ... مِمَّا يَمُرُّ عَلَى الْجِبِلَّهْ (٧)

---

(١) سقط فى الأصل . (٢) تقدم .

(٣) فى الأصل : محمد بن موسى . (٤) فى الأصل : عزبه .

(٥) الألَّة هنا : اسم المرة من قولك : أل يئل ألا وألِلا وأليلاً ، قال الكميت :

وأنت ما أنت فى غبراء مظلمة ... إذا دعت أَلليلها الكاعب الفضل

يريد حكاية أصوات النساء إذا صرخن . والألّ : الصياح والأنين (اللسان) .

(٦) الدُّخلَّة : بدال مثلثة وسكون الخاء : باطن الأمر ، وقد اضطر القائل فشدد اللام وأتبع الخاء لحركة الدال . .

(٧) ينبغى على الصاحب أن يستمسك بمودة أخيه ، ولا يجفوه لزلة أو لخطأة ركبها . =

أنشدنى محمد بن الحسن بن قتيبة ، قال أنشدنى حميد بن عياش : [الطويل] :

وَلا تَكُ فِى حُبِّ الأخِلاءِ مُفْرِطًا ... فَإِن أَنْتَ أَبْغَضْتَ البَغِيضَ فَأَجْمِلِ(١)

فَإِنَّكَ لا تَدْرِى مَتَى أَنْتَ مُبْغِضٌ ... حَبِيبَكَ ، أَوْ تَهْوَى بَغِيضَكَ فَاعْقِلِ(٢)

وأنشدنى عمرو بن محمد بن عبد الله النَّسوى لثعلب : [البسيط]

إِنِّى لأَصْبَرُ مِنْ عَوْدٍ بِهِ جُلَبٌ ... عِنْدَ المُلِمَّاتِ إِلا عِنْدَ هِجْرَانِ (٣)

وَمَا صُدُودُ ذَوَاتِ الدَّلِّ يُرْمِضُنِى ... لَكِنَّمَا المَوْتُ عِنْدِى صَدُّ إِخْوَانِى(٤)

إِذَا رَأَيْتُ ازْوِرَارًا مِنْ أَخِى ثِقَةٍ ... ضَاقَتْ عَلَىَّ بِرُحْبِ الأَرْضِ أَوْطَانِ

وأنشدنى الأبرش : [الكامل]

أَبْلُ الرِّجَالَ إِذَا أَرَدتَّ إِخَاءَهُمْ ... وَتَوَسَّمَنَّ أُمُورَهُمْ وَتَفَقَّدِ

فَإِذَا ظَفِرْتَ بِذِى اللَّبَابَةِ وَالتُّقَى ... فَبِهِ اليَدَيْنِ قَرِيرَ عَيْنٍ فَاشْدُدِ

فَمَتَى يَزِلَّ ، وَلا (٥) مَحَالَةَ ، زَلَّةً ... فَعَلَى أَخِيكَ بِفَضْلِ رَأْيِكَ فَارْدُدِ

= فإن المرء قد يلاقى من بطانته وخاصته هجرًا لو يطرح شر مطرح ويورده أسوأ موردِ .

وقد يخونه صحبه على وداده لهم ومأمنه من غدرهم ولقد صدق الشافعى إذ يقول :

احـذر عدوك مرة ... وصـديقك ألف مرة

فلربما انقلب الصديق ... فكان أعلم بالمضـرة

ثم إن الموت هو الحادث الجلل ومظهر العوار والزلل ، وهو جامع الأمين والخؤون ويعم الصديق والعدو .

(١) أجمل فى عدواتك : اعتدل فيها ولا تفرط وكذلك فى المحبة .

(٢) ينبغى على العاقل ألا يكون حبه كلفًا ولا بغضه تلفًا .

ولكن ليتوسط وليقتصد فى حبه الأخلاء وليتئد فى بغضه وكيده للأعداء .

فإنه على حرف لا يدرى أيعود إلى بغيضه فيبقى لذلك مدخلاً أو يهجر حبيبه ، وقد سلم نفسه له فيزل بذلك الدهر .

وكل فى علم الله إذْ بيده الأمر يقلب الليل والنهار ، والقلوب بين أصبعين من أصابعه .

(٣) يرمضنى : أى يحرقنى ، كما تحرق الرمضاء من يسير عليها ، والرمضاء : الرمال الحامية .

(٤) العود : الجمل المسن ، والجلب : جمع جلبة كغرفة ، وهى القشرة تعلو الجرح عند البرء ، فإذا سار الجمل وحمى جسمه ، لذعته الجروح .

(٥) فى الأصل : فلا .

وَإِذَا الخَنَا نَقَـضَ الْحُبَا فِى مَجْلِسٍ وَرَأَيْتَ أَهْلَ الطَّيْشِ قَامُوا ، فَاقْعُدِ[1]

قال أبو حاتم - رضى الله عنه : لا يجب للمرء أن يدخل فى جملة العوامِ والهَمَج ، بإحداث الود لإخوانه ، وتكديره لهم ، بالخروج بالسبب [2] الذى يؤدى إلى الهجران ، الذى نهى المصطفى - صلى الله عليه وسلم - عنه بينهم ، بل يقصِد قصد الإغضاء عن ورود الزَّلات ، ويتحرَّى ترك المناقشة على الهفوات ، ولا سيَّما إذا قيل فى أحدهم الشئ الذى يحتمل أن يكون حقا وباطلاً معًا ، فإن الناس ليس يخلو وصلهم من رشْق أسهم العذَّال فيه .

ولقد سمعتُ محمد بن عثمان العقبى يقول : سمعتُ عبد العزيز بن عبد الله يقول : قال محمد بن حميد : [الوافر]

وَمَنْ ذَا مِنْ عُيُوبِ النَّاسِ نَاجٍ بِحَقٍّ قِيلَ فِيهِ ، أَوْ قِرَافِ [3]

قَبِيحٌ بِى ، إِذَا خَالَلْتُ خِـلا وَلازَمَ خُـلَّتِى أَلا أُكَـــافِى

وَكُلُّ مَـــوَدَّةٍ لا خَيْرَ فِيهَـــا إِذَا لَمْ تَحْتَمِلْ حَقَّ الْمُصَـــافِى

فَأَمَّا فِى الْكَـلامِ ، فَكَمْ وَفِىٍّ وَلَكِنْ فِى الشَّـدَائِدِ لا يُوَافِـى

إِذَا أَحْبَبْتُ لَمْ أَنْقُضْ إِخَائِى وَلَمْ أَبْنِ الإِخَاءَ عَلَى اعْتِسَـــافِ

وَلَكِـنْ أَمْنَحُ الْكُـرَمَاءَ ، وُدا وَلا أَدْعُو اللِّئَامَ إِلَى الْعِطَـــافِ

مَتَى تَقْطَعْ صَدِيقَكَ بَعْدَ وَصْلٍ وَلا تَثْبُتْ ، فَعَهْدُكَ غَيْـرُ وَافِ

إِذَا مَا الْمَـــرْءُ أَدْبَرَ لَمْ تُطِقْـهُ وَصَارَ الْمُسْـتَقِيمُ إِلَى خِـلافِ

سمعت محمد بن المنذر يقول : سمعت محمد بن عبد الرحمن يقول : سمعت أبا عمار الحسن بن حريث يقول : قيل لرجل : ألك عيوب ؟ قال : لا ، قيل له : فلك مَنْ يلتمسها ؟ قال : نعم ، قال : فما أكثرَ عيوبك !

---

(١) الحبا : جمع حبوة كغرفة ، وكان العرب يحتبون فى مجالسهم ، يشد الرجل ظهره إلى ركبتيه بثوب أو نحوه ، فإذا نزل بهم أمر مهم حلُّوا له الحبا ، وهو كناية عن الاهتمام بالشىء ، يقال : هذا أمر تحل له الحبا ، أى أمر مهم .

(٢) فى الأصل : إلى .

(٣) قرفه بالشىء قرفًا : اتهمه به ، استعمل القراف فى موضع القرف وكلاهما مصدر .

قال أبو حاتم – رضى الله عنه : السبب المؤدّى إلى الهجران بين المسلمين ثلاثة أشياء:

إما وجود الزلة من أخيه – ولا محالة يزلُّ – فلا يُغْضِى عنها ، ولا يطلب لها ضدها، وإبلاغ واشٍ يقدَح فيه ، ومشىُ عاذل بثلْب له ، فيقبله ولا يطلب لتكذيبه سببًا، ولا لأخيه عذرًا ، وورود مَلل به يدخل على أحدهما ، فإن الملالة تورث القطع ، ولا يكون لملول صديق .

ولقد أخبرنى محمد بن أبى علىٍّ الخلادىّ ، حدثنا محمد بن إبراهيم اليعمرىّ ، حدثنى عبد الرحمن بن إبراهيم الأصبهانى [1] قال : أنشدنى بعض أهل الأدب : [الكامل]

إنَّ المَلُـــــــولَةَ وُدُّهُ ... مثلُ السَّـــرَابِ يُذَمُّ وِردُهْ [2]

أوْ كَالسَّـــحَابِ الزّائِـدِ الْـ ... برّاقِ لَمْ يَصْـــدُقْكَ رَعْـــدُهْ

أوْ كَالحُسَـــامِ هَــــزَزْتَهُ ... عِنْدَ الضّـــرَابِ ، فَكَلَّ حَـدُّهْ

لا تَقْبَلَـــــنَّ إخَــــاءَهُ ... فَوَعِيدُهُ كَـــذِبٌ وَوَعْــــدُهْ

بَيْنَـــا يَـــــوَدُّكَ رَأَى عَيْـ ... نَكَ إذْ [3] بَدَا لَكَ مِنْهُ صَدُّهْ [4]

وتَغَيَّــــرَتْ أخْــــلاقُهُ ... وازْوَرَّ ، حَـــتَّى مَالَ خَـدُّهْ

أنبأنا محمد بن يعقوب الخطيب بالأهواز ، حدثنا معمر بن سهل ، حدثنا إبراهيم بن بشار ، عن سفيان قال : كان لابن شُبْرُمَةَ أخ ، فجفاه ، فكتب إليه [الطويل] :

كِـــلانَا غَنِى عَنْ أخِيهِ حَيَاتَهُ ... وَنَحْنُ إذَا مُتْنَا أشَدُّ تَغَانِيَا [5]

قال أبو حاتم [رضى الله عنه] [6] : لا يحل لمسلم أن يهجر أخاه المسلم فوق ثلاثة أيام ؛ فمن فعل ذلك كان مرتكبًا لنهى النبىِّ ﷺ ، وخيرهما الذى يبدأ بالسلام ،

---

(١) فى الأصل : الأصفهانى .

(٢) رجل ملول ، وملولة ، والتاء فيه للمبالغة ، أى : كثير الملل لأصدقائه .

(٣) فى الأصل : إذا . (٤) فى الأصل : ضدُّه .

(٥) هذا البيت المفرد يقول : أيها الصديق المهجور اذهب غير مأسوفٍ عليك ، ولا محزون على فراقك .

فأنا فى غنية عنك ، وأنت كذلك فى اغتناء عنى ما دمنا أحياءً ، وإذا ما متنا فلنحن أشد تفانيًا وأشدّ تجافيًا .

(٦) سقط فى الأصل .

والسابق بالسلام يكون السابق إلى الجنة ، ومَنْ هجر أخاه سنة كان كسفك دمه ، ومن مات وهو مهاجر أخاه دخل النار ، إن لم يتفضل الله - جل وعلا - عليه بعفو منه ورحمة ، وغاية ما أبيح من الهجران بين المسلمين ثلاثة أيام .

ولقد أنشدنى عبيد الله بن محمد الأنماطىّ ، قال : أنشدنى محمد بن الحسن لصديق له : [السريع]

يَا سَـــيِّدِى عِنْدَكَ لِى مَظْلِمَهْ　　فَاسْتَفْتِ فيهَا ابْنَ أَبِى خَيْثَمَـــهْ

فَإِنَّـــهُ يَـــرْوِيهِ عَـــنْ شَيْخِهِ　　قَالَ: رَوَى الضَّحَّاكُ عَنْ عِكْرِمَهْ

عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ ،عَنِ المُصْطَفَى　　نَبِيِّـــنَا المَبْعُوثِ بِالمَرْحَمَـــهْ

أَنَّ صُـــدُودَ الْخِلِّ عَنْ خِلِّهِ　　فَـــوْقَ ثَلاثٍ رَبُّنَا حَرَّمَـــهْ (١)

وأنشدنى محمد بن شاه الأَبِيوَرْدِىّ بالموصل - رحمه الله : [البسيط]

مَا وَدَّنِى أَحَـــدٌ إلا بَذَلْـــتُ لَهُ　　صَفْـــوَ الْمَوَدَّةِ مِنِّى آخِرَ الأَبَـــدِ

وَلا جفَانِى ، وَإِنْ كُنْتُ الْمُحِبَّ لَهُ　　إلا دَعَـــوْتُ لَهُ الرَّحْمَنَ بِالرَّشَدِ

وَلا اؤْتُمِنْتُ عَلَى سِرٍّ فَبُحْتُ بِهِ (٢)　　وَلا مَدَدتُ إِلَى غَيْرِ الْجَمِيلِ يَدِى

وَلا أَخُـــونُ خَـــلِيلِى فِى حَلِيلَتِهِ　　حَتَّى أُغَيَّبَ فِى الأَكْفَانِ وَاللَّحَدِ (٣)

---

(١) هذه الأبيات فى نظم حديث النبى ﷺ ونهيه عن هجران الأخلاء ، فيقول : أيها الهاجرى لابد أن تتغاضى فيما صنعت وهذا حق لى عليك وسأدفع بمظلمتى إلى الفقيه النبيه الشيخ المسند ابن أبى خيثمة .

فإنه قد روى عن شيوخه ، الذين رووا عن الضحاك وعن عكرمة مولى ابن عباس .

عن ابن عباس ، عن النبى ﷺ قال : « لا يحل لامرئ أن يهجر أخاه فوق ثلاث .. يعرض هذا ويعرض هذا وخيرهما الذى يبدأ بالسلام ... » .

(٢) فى الأصل : له .

(٣) هذه الأبيات الحسان فى مكارم الأخلاق ومكرمة العفو والوفاء فيقول : ما يواصلنى أحدٌ إلا وواصلته خير وصال وأكرعته كئوس المودة والصفاء أبدًا .

وإن بدرت منه لى جفوة اغتفرتها له وصفحته عنها بل ودعوت الرحمن له بالرشاد والسداد فى أموره .

وما ائتمننى أحدٌ على سرٍ إلا وربطت عليه قلبى وحفظت عنه لسانى ، ولا يناله منى إلا الجميل الفضيل .

وأنا لعمرى الله عف حبى لا أخون صديقى فى حليلته أبد الدهر بل أغض عنها الطرف وأرعى حرمتها حتى ألحد فى قبرى ، وألاقى بالعفة ربى .

أنبأنا محمد بن المهاجر ، حدثنا أحمد بن عبد الله بن شجاع ، حدثنا محمد بن سماعة، قال : جئت يومًا إلى أبى علىّ (١) المصرى أسلِّم عليه ، قال : فبشر بى ، واحتملنى فى حِجَرة ، ثم قال : [الكامل]

حَسْـــبِى بِوَصْلِكَ فِى حَيَاتِى لَذَّةً   وَرَضِـــيتُ ذَلِكَ فِى المَعَادِ ثَوَابَا
لَــــوْ كُنْتَ رِزْقِى مَا أَرَدتُ زِيَادَةً   وَلَقُلْتُ أَحْسَنَ خَالِقِى (٢) وَأَطَابَا (٣)

* * *

(١) فى الأصل : على بن   (٢) فى الأصل : رازقى .

(٣) يكفينى متعة ولذة أن أصلك وأودك ، ولقد رضيت بذلك ذخرًا وثوابًا عند ربى سبحانه .
وإنك لفرط مودتى وحبى لك قد استغنيت بك عن غيرك ، فلو أنك كنت رزقى لقنعت واغتنيت بك ، وشكرت ربى على هذا إذ أحسن علىّ واختصنى . . عن خلقه بهذا . .

ذِكْرُ الحَثِّ عَلَى لُزُومِ الحِلْمِ عِنْدَ الأَذَى

أنبأنا محمد بن الحسن بن قتيبة ، حدثنا يزيد بن خالد بن مَوْهَب الرملىّ ، حدثنا ابن وهب ، عن عمرو بن الحارث ، عن درَّاج ، عن أبى الهيثم ، عن أبى سعيد ، قال : قال النبىُّ ﷺ : « لا حَلِيمَ إلا ذُو عَثْرَةٍ ، ولا حَكِيمَ إلا ذُو تَجْرِبَةٍ » (١) .

---

(١) أخرجه أحمد (٣/ ٨ ، ٦٩) ، والترمذى (٤/ ٣٣٢) ، كتاب « البر والصلة » ، باب : ما جاء فى التجارب ، حديث (٢٠٣٣) ، وابن حبان (٢٠٧٨ - موارد) ، والبخارى فى « الأدب المفرد » ، رقم (٥٦٥) ، وأبو الشيخ فى « الأمثال » (٤١) ، والحاكم (٤/ ٢٩٣) ، وأبو نعيم فى « حلية الأولياء» (٨/ ٣٢٤) ، وابن الجوزى فى « العلل المتناهية » (١/ ٥٤) ، والقضاعى فى « مسند الشهاب » (٢/ ٣٧) رقم (٨٣٤) ، كلهم من طريق عمرو بن الحارث ، عن دراج ، عن أبى الهيثم ، عن أبى سعيد الخدرى مرفوعًا .

وقال الترمذى : هذا حديث حسن غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه .

وقال الحاكم : صحيح الإسناد ولم يخرجاه ووافقه الذهبى .

وقال ابن الجوزى : قال أحمد : أحاديث دراج مناكير ، وقال : أبو حاتم الرازى : هو ضعيف .

والحديث ذكره السيوطى فى « الجامع الصغير » (٦/ ٤٢٤ - فيض) رقم (٩٨٧٦) ، ورمز لصحته .

وقال المناوى فى « الفيض » (٦/ ٤٢٤) : قال الحاكم صحيح وأقره الذهبى وليس كما قال ففى المنار ما حاصله أنه ضعيف لأنه لما نقل عن الترمذي أنه حسن غريب قال : ولم يبين المانع من صحته وذلك لأن فيه دراجًا ، وهو ضعيف وقال ابن الجوزى : تفرد به دراج وقد قال أحمد : أحاديثه مناكير وحكم القزوينى بوضعه لكن تعقبه العلائى بما حاصله أنه ضعيف لا موضوع . أ . هـ .

وقال المناوى أيضًا (٦/ ٤٢٤) :

(لا حليم) حلمًا كاملاً (إلا ذو عثرة) أى إلا من وقع فى زلة وحصل منه خطأ واستخجل من ذلك وأحب أن يستر من رآه على عيبه أو المراد لا يتصف الحليم بالحلم حتى يرى الأمور ويعثر فيها ويستبين مواقع الخطأ فيجتنبها ويدل له قوله (ولا حكيم إلا ذو تجربة) بالأمور فيعرف أن العفو كيف يكون محبوبًا فيعفو عن غيره إذا وقع فى زلة كما علم بالتجارب أنه لا يسلم من الوقوع فى مثلها ومن ثم كان داود قبل العثرة يقول : يا رب لا تغفر للخطائين فلما عثر صار يجلس بين الفقراء ويقول مسكين بين مساكين رب اغفر للخطائين كى تغفر لداود معهم والعثرة المرة من العثار وإحكام الشىء إصلاحه عن الخلل ، والحكيم : المتيقظ المتنبه أو المتقن للحكمة الحافظ لها ، وما ذكر من أن سياق الحديث هكذا هو ما وقع فى كثير من الروايات ورواه العسكرى عن أبى سعيد أيضًا بزيادة ثالث فقال: لا حليم إلا ذو أناة ولا عليم إلا ذو عثرة ولا حكيم إلا ذو تجربة .

قال أبو حاتم - رضى الله عنه : هذا الخبر فى الضرب الذى ذكرت فى كتاب فصول[(١)] السُّنَن ، بأن العرب تُضيف[(٢)] الاسم إلى الشىء ، للقُرب من التمام ، وتنفى الاسم عن الشىء ، للنقص عن الكمال ، فلما كان الغالب على المرء ألا يكون حليمًا حتى يكون ذا عثْرة ، نفى النبىُّ ﷺ اسم الحليم[(٣)] عمن لم يكن بذى[(٤)] عثرة ، لنقصه عن الكمال . فالحليم : عظيم الشأن ، رفيع المكان ، محمودُ الأمر ، مَرْضىُّ الفعل[(٥)] .

والحلم : اسم يقع على ذَمِّ النفس عن[(٦)] الخروج عند الورود عليها ضدَّ ما تحبُّ ، إلى ما نُهِى عنه . فالحلم[(٧)] يشتمل على المعرفة والصبر وَالأناة والتثبت ، ولم يُقرَن شىء إلى شىء أحسنَ من عفوٍ إلى مقدرة . والحلم أجمل ما يكون من المقتدر[(٨)] على الانتقام.

ولقد حدثنا أحمد بن الحسن بن عبد الجبار الصُّوفىّ ببغداد ، حدثنا يحيى بن مَعين ، قال : حدثنا الحسن بن واقع ، عن ضَمْرة ، قال : الحلم أرفع من العقل ؛ لأن الله تبارك وتعالى تسمَّى به .

وأنشدنى محمد بن عبد الله بن زنجىٍّ البغدادىٌّ : [الطويل]

كَــــمْ[(٩)] تَرَ أنَّ الحِلْمَ زَيْنٌ مُسوَّدٌ لِصَاحِبِــــهِ وَالجَهْلُ لِلْمَرْءِ شَائِــنُ
فَكُـــــنْ دَافِنًا لِلشَّرِّ بِالخَيْرِ تَسْتَرِحْ مِنَ الهَمِّ؛ إنَّ الخَيْرَ لِلشَّرِّ دَافِـنُ[(١٠)]

وأنشدنى محمد بن إسحاقَ بن حبيب الواسطىّ : [الطويل]

إِذَا شِئْـتَ يَوْمًا أَنْ تَسُودَ عَشِيرَةً فَبِالْحِلْمِ سُدْ ، لا بِالتَّسَــرُّعِ وَالشَّتْمِ
وَلَلْحِلْمُ خَيْرٌ - فَاعْلَمَنَّ - مَغَبَّةً مِنَ الجَهْلِ، إلا أَنْ تَسَمَّرَ مِنَ الظُّلْمِ[(١١)]

وأنشدنى على بن محمد البسَّامىّ : [مخلَّع البسيط]

---

(١) فى الأصل : فضول . (٢) فى الأصل : تظيف . (٣) فى الأصل : الحلم .
(٤) في الأصل : ذا . (٥) فى الأصل : العقل . (٦) فى الأصل : على .
(٧) فى الأصل : واسم فالحلم . (٨) فى الأصل : بالمقتدر . (٩) فى الأصل : ألم .

(١٠) ينبغى على العاقل أن يعلم أن الحلم من خير ما يزدان به المرء وأن الجهل شرٌ رفيق وبئس ثوب يرتديه العاقل .

فمن كان خيِّرا برًا أراح واستراح ودفع الهموم والغموم وكذلك فالخير نعم دافن للشر ، ومن عفا وأصلح فأجره على الله .

(١١) فليعلم العاقل أن السيادة إنما هى بالتأنى والترفق والحلم ، وذو السؤدد لا يعجل بسباب أو بذاءة وهكذا الحلم رافع لصاحبه مزين له فهو حسن عاقبة وخير منقلبًا ، ولا شراشة ولا فظاظة إلا مع الظلوم الغشوم المعتدى .

فَـارْضَ بِمَا حُمَّ مِنْ قَضَاءٍ   يُصِبْـــكَ مِنْ ذَلِكَ الخِيَـارُ
وَعِشْ حَمِيدًا ، رَخِيَّ بَالٍ   مَا زَانَكَ الحِلْمُ وَالوَقَارُ (١)

قال أبو حاتم - رضى الله عنه : إن من نفاسة اسم « الحلم » ، وارتفاع قدره ، أن الله جل وعلا تسمَّى به ، ثم لم يُسَمِّ بالحلم فى كتابه أحدًا إلا إبراهيم خليله ، وإسحاق ذبيحه ، حيث قال : ﴿ إنَّ إبراهيم لأوَّاهٌ حَلِيمٌ ﴾ [التوبة : ١١٤] . وقال : ﴿فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ ﴾ [الصافات : ١٠١].

ولو لم يكن فى الحلم خَصْلَة تحمد إلا ترك اكتساب المعاصى ، والدخول فى المواضع الدنسة ، لكان الواجب على العاقل ألا يفارق الحلم ، ما وجد إلى استعماله سبيلاً .

والحلم : سَجِيَّة ، أو تجربة ، أو هُمَا .

حدثنا أبو حمزة محمد بن عمر بن يوسف ، حدثنا عبد الله بن سعيد الكندىّ ، حدثنا أبو أسامة ، عن هشام بن عُروة ، عن أبيه ، قال : سمعت معاوية بن أبى سفيان يقول : لا حِلْمَ إلا بالتجربة (٢) .

وأنشدنى المنتصر بن بلال الأنصارىّ : [مجزوء الكامل]

صَـافِ الصَّــــدِيقَ بِوُدِّهِ   وَإِذَا دَنَا شِـــبْرًا فَــــزِدْهُ
وَاحْلُــــمْ إِذَا نَطَقَ السَّفِيـ   ـهُ ، فَمَنْ يُرِدْ جَهلاً يَجِدْهُ (٣)

أنبأنا محمد بن على الصَّيرفىّ بالبصرة ، حدثنا ابن أبى الشوارب ، حدثنا أبو عَوانة، عن عبد الملك بن عُمير ، عن رجاء بن حَيْوة ، عن أبى الدَّرْداء ، قال : إنما العلم بالتعلُّم ، وإنما الحلم بالتحلُّم ، ومن يتوخَّ الخيرَ يُعْطَهُ ، ومن يتوقَّ الشر يُوقَهُ .

---

(١) ينبغى على المؤمن أن يرضى بقضاء ربه ، ويصبر له صبرًا جميلاً فما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن .

وليعش حميدًا مجيدًا سالمًا آمنًا غانمًا بحلمه ووقاره ورضائه عن ربه وصدق الله إذ يقول :

﴿ والذين آمنوا وعملوا الصالحات ... وآمنوا بما نُزِّلَ عَلَى مُحَمَّدٍ وهو الحقُّ مِنْ رَبِّهِمْ كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِم وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ ﴾ .

(٢) فى الأصل : التجربة .

(٣) ينبغى عليك أيها العاقل أن تصافى خليلك وتدنيه منك وتبذل له الوداد ، وإن دنا منك فادنوا .

وإذا ما نبح عليك سفيه فتاركه ونابذه وإن جهلت عليه لقيت المغبة والغبن ولن تعدم جهلاً .

وأنشدنى الكريزىُّ : [الطويل]

إِذَا أَنَا كَافَيْتُ الجَهُولَ بِفِعْلِهِ فَهَلْ أَنَا إِلا مِثْلُهُ إِذْ أُحَاوِرُهْ ؟!
وَلَكِنْ إِذَا مَا طَاشَ بِالْجَهْلِ طَائِشٌ عَلَيَّ ، فَإِنِّى بِالتَّحَلُّمِ قَاهِرُهْ (١)

أنبأنا أحمد بن الحسن بن عبد الجبار ، حدثنا يحيى بن مَعين ، حدثنا عثمان بن صالح ، حدثنا ابن وهب ، عن عمرو بن الحارث ، أن رجلاً كتب إلى أخ له : اعلم أن الحلم لباسُ العلم فلا تَعْرَيَنَّ منه .

قال أبو حاتم - رضى الله عنه : العاقلُ يلزم الحلَم عن الناس كافةً ، فإن صَعُب ذلك عليه ، فليتحالَمْ ؛ لأنه يرتقى به إلى درجة الحلم .

وأول الحلم المعرفة ، ثم التثبت ، ثم العزم ، ثم التصبُّر ، ثم الرضا ، ثم الصمت والإغضاء ؛ وما الفضل إلا للمحسن إلى المسىء ، فأما من أحسن إلى المحسن ، وحَلُم عمن لم يؤذه ؛ فليس ذلك بحلم ، ولا إحسان .

ولقد أنبأنا محمد بن عثمان العقبىّ ، حدثنا إسحاق بن زكريا ، حدثنا عبد الصمد بن حسان ، حدثنا أبو عمر المازنىُّ ، عن وهب بن منبه : أنه قال لابنه : يا بُنَىَّ ، لا تُجادلَنَّ العلماء ، فتهونَ عليهم فيرفضوك (٢) ، ولا تماريَنَّ السفهاء ، فيجهلوا عليك ويشتموك ، فإنه يلحق بالعلماء من صَبَر ورأى رأيهم ، وينجو من السفهاء مَنْ صمَت وسكت عنهم ، ولا تحسبنَ أنك إذا ماريتَ الفقيه إلا زدته غيظًا دائبًا عليك ، ولا تحمينَّ(٣) من [قليل] (٤) تسمعه ، فيوقِعَك فى كثير تكرهه ، ولا تفضح نفسك ، لِتَشفِىَ غيظك ، فإن جَهِل عليك جاهل ، فلينفعنَّ إياك حلمُك ، وإنك إذا لم تحسن حتى يُحْسَن إليك فما أجرُك ؟ وما فضلك على غيرك ؟ فإذا أردت الأجر والفضيلة فأحسن إلى من أساء إليك ، واعفُ عمن ظلمك ، وانفع من لم ينفعك ، وانتظر ثواب ذلك من قِبَل الله ، فإنها الحسنة الكاملة التى لا يريد صاحبها عليها ثوابًا فى الدنيا .

وأنشدنى محمد بن حبيب الواسطىّ : [الطويل]

إِذَا المَرْءُ لَمْ يَصْرِفْ عِذَارًا مِنَ الأذَى حَيَاءً ، وَلَمْ يَغْفِرْ لأَخْرَقَ مُذْنِبِ

---

(١) إذا ما العاقل جارى السفيه فى سفهه وكافأه بفعله فهل هو إلا مثله . . . بل أدنى منه . ولكنه إن ترفع وتعالى عن طيشه فإنه يحرقه ويميته غيظًا بحلمه ورفعته وفضله .

(٢) فى الأصل : ويرفضوك . (٣) فى الأصل : فلا تحسبن . (٤) سقط فى الأصل .

فَلَـــنْ يَصْطَنِعْ إلا قَلِيلاً صَدِيقَــهُ   وَمَنْ يَدْفَعِ العَوْرَاءَ بِالحِلْمِ يَغْلِبِ (١)

وأنشدنى عبد العزيز بن سليمان الأبرش : [الكامل]

احْفَـــظْ لِسَانَكَ إنْ لَقِيتَ مُشَاتِمًا   لا تَجْـــرِيَنَّ مَعَ اللَّئِيمِ إذَا جَـــرَى

مَـــنْ يَشْتَرِي عِرْضَ اللَّئِيمِ بِعِرْضِهِ   يَحْوِى النَّدَامَةَ حِينَ يَقْبِضُ مَا اشْتَرَى (٢)

أنبأنا إبراهيم بن نصر العنبرىّ ، حدثنا على بن الأزهر الرازىّ ، حدثنا إبراهيم بن رُستَم ، قال : سمعت ابن المبارك يقول : دعانا عبد الله بن عَون إلى طعامه ، فكنا نأكل، فجاءت الخادم ومعها صَحْفَة ، فعثَرت فى ثوبها ، فسقطت الصحفة من يدها ، فقال لها ابن عَون مَتْرَس آزادى (٣) .

حدثنا عمرو بن محمد ، حدثنا الغلابىُّ ، حدثنا (٤) ابن عائشة ، قال : قال محمد ابن السعدىّ لابنه عروة ، لما ولَى اليمن : إذا غَضِبتَ فانظر إلى السماء فوقك ، وإلى الأرض تحتك ، ثم عَظِّم خالَقهما .

قال أبو حاتم - رضى الله عنه : الواجب على العاقل ، إذا غضب واحتدَّ ، أن يذكر كثرة حلم الله عنه ، مع تواتر انتهاكه محارمه ، وتعدِّيه حُرُماته ، ثم يحلم ، ولا يخرجه غضبه إلى الدخول فى أسباب المعاصى .

والناس على ضروب ثلاثة : رجل أعزُّ منك ، ورجل أنت أعزُّ منه ، ورجل ساواك فى العز ، فالتجاهل على (٥) من أنت أعز منه لُؤم ، وعلى من هو أعز منك جَنَف (٦) ، وعلى من هو مثلك هِرَاش كهراش الكلبين ، ونِقار (٧) كنقار الديكين ، ولا يفترقان إلا عن الخَدْش والعَقْر والهَجْرِ ، ولا يكاد يوجد التجاهل وتركُ التحالُم إلا من سفيهين ، ولقد أحسن الذى يقول : [البسيط]

مَا تَمَّ حِلْـــمٌ وَلا عِلْمٌ بِلا أَدَبِ   وَلا تَجَاهَلَ فِى قَوْمٍ حَلِيمَـــانِ

---

(١) إذا ما ركب العاقل الحمق والنزق ولم يكرع أكؤس الأذى ويسيغها بحيائه ، وحلمه .
فإنه فى حيص بيص من أمره إذْ لم يصطنع بذلك صديقًا ولا يكسب بهذا رفيقًا . . . بينما الحلم والصبر هما خير دافع للعوراء وجالب للمودة والإخاء .

(٢) ينبغى على العاقل أن يربط على قلبه ويضبط لسانه فلا يجاري بالسباب كل سفيه نذل .
ولئن جاريت لئيمًا فى السباب والتباب فقد استبدلت درًا بالحصى والثريا بالثرى إذْ بعته عرضك النقى بعرضه للدنى ، فلا ربحت تجارتك ، ولا أدركت سلامتك .

(٣) تفسيره بالعربية : لا تخافى أنت حرة .   (٤) فى الأصل : حدثنا محمد بن عبد الله .

(٥) فى الأصل : عن .   (٦) جنف : جور .   (٧) فى الأصل : ويقال .

وَمَا التَّجَاهُلُ إِلا ثَوْبُ ذِى دَنَسٍ ... وَلَيْسَ يَلْبَسُهُ إِلا سَفِيهَانِ (١)

وأنشدنى ابن زنجىٍّ البغدادىّ : [الوافر]

وَمَا شَىْءٌ أَسَرُّ إِلَى اللَّئِيمِ ... إِذَا شَتَمَ الْكِرَامَ (٢) مِنَ الْجَوَابِ
مُتَارَكَةُ اللَّئِيمِ بِلا جَوَابٍ ... أَشَدُّ عَلَيْهِ مِنْ مُرِّ الْعَذَابِ (٣)

وأنشدنى الكُريزىُّ : [الوافر]

تَحرَّزْ مَا استَطَعْتَ مِنَ السَّفِيهِ ... بِحُسْنِ الْحِلْمِ ؛ إِنَّ الْعِزَّ فِيهِ
فَقَدْ يَعْصِى السَّفِيهُ مُؤَدِّبِيهِ ... وَيُبْرِمُ بِاللَّجَاجَةِ مُنْصِفِيهِ (٤)
تَلِينُ لَهُ فَيَغْلُظُ جَانِبَاهُ ... كَعَيْرِ السَّوْءِ يَرْمَحُ عَالِفِيهِ (٥)

أنبأنا محمد بن سعيد القزاز ، حدثنا الحسن بن محمد الأزدىّ الكوفىّ ، حدثنا عمر ابن حفص بن غياث عن أبيه ، قال : كنت جالسًا عند جعفر بن محمد ، ورجل يشكو رجلاً عنده يقول : قال لى كذا ، وفعل بى كذا ، فقال له جعفر : من أكرمك فأكرمه ، ومن استخفَّ بك ، فأكرم نفسك عنه .

قال أبو حاتم - رضى الله عنه : ما ضُمَّ شىء إلى شىء ، هو أحسن من حلم إلى علم،

---

(١) ينبغى على العاقل أن يتسربل بالعلم ويتجمل بالحلم ويزدان بالأدب ولا يجهل مع أحد . إذْ التجاهل ثياب دنس لا يرتديه إلا السفيه النذل .. ولا يجهل على الجاهل إلا مثله .

(٢) فى الأصل : الكريم .

(٣) فليعلم العاقل أنَّ اللئيم إن نبح وتسافه بالشتم فإنه لا ينفِّسُ كربه ويزيل غيظه إلا جوابك فاحذر أن تجاريه أو تجاوبه .
بل إن تركه ليفحمه ويحرقه ويهيج غيظه ويؤجج قيظه ولا شىء أمر عليه من الصموت ولا شىء أسرُّ إليه من الجواب .
وقد قال الشافعى - رحمه الله :

إذا نطق السفيه فلا تجبه ... فخيرٌ من إجابته السكوت
فإن كلمته فرجت عنه ... وتاركته كمدًا يموت

(٤) يبرم : يضجر .

(٥) ينبغى على العاقل أن ينابذ السفيه ويتجرد منه ، وذلك بالحلم والعفو ، فإن العزَّ قرين بهما. وإن السفيه لا رابط ولا ضابط له ، فقد يعاصي من كان يؤدبه ويلج فى جدال من ناصفه وأكرمه . وهكذا دأبه إن تلين له يغلظ وإن تغلظ يلين كمثل الحمار يرفس من يعالقه ، وكالكلب تسمنه ليأكلك .

وما عُدم شيء في شيء ، هو أقبح من عدم الحلم في العالِم ، ولو كان للحلم أبوان لكان أحدهما العقل ، والآخر الصبر ، وربما يُدفع العاقل في الوقت بعد الوقت ، إلى من لا يُرضيه عنه الحلم ، ولا يُقنعه عنه الصفح ، فحينئذ يحتاج إلى سفيه ينتصر له ؛ لأن ترك الحلم في بعض الأوقات من الحلم .

ولقد حدثني محمد بن المنذر ، حدثنا يزيد بن عبد الصمد ، حدثنا عبد الرحمن بن إبراهيم ، حدثنا الوليد ، عن (١) سعيد بن عبد العزيز : أن رجلاً استطال على سليمان ابن موسى ، فسكت عنه سليمان ، وانتصر له أخوه ، قال : فقال مكحول : ذَلَّ مَنْ لا سفيهَ لَه .

حدثنا عمرو بن محمد الأنصاريُّ ، حدثنا الغلابيُّ ، حدثنا محمد بن عبد الرحمن بن القاسم ، عن أبيه قال : قال أبو حنيفة لشيطان الطَّاق : ما تقول في المُتْعة ؟ قال : حلال ، قال : فيَسُرُّك أن أمَّك تزوجت مُتْعة ؟ فسكت عنه ساعة ، ثم قال : يا أبا حنيفة ، ما تقول في النبيذ ؟ قال : حلال ، قال : وشربه وبيعه وشراؤه ؟ قال : نعم ، قال : فيسرك أن أمك نبَّاذة ؟ قال : فسكت عنه أبو حنيفة - رحمه الله .

وأنشدني علي بن محمد البساميّ : [الطويل]

إذَا كُنْتُ بَيْنَ الحِلْمِ وَالجَهْـلِ قَاعِـدًا   وَخُـيِّرْتُ : أَنَّى شِئْتُ ، فَالحِلْمُ أَفْضَلُ
وَلَكِنْ إِذَا أَنْصَفْتَ (٢) مَنْ لَيسَ مُنْصِفًـا   وَلَمْ يَرْضَ مِنْكَ الحِلْمَ، فَالْجَهْلُ أَفْضَلُ(٣)

وأنشدني محمد بن حبيب الواسطيّ [الطويل] :

إِذَا أَمِـنَ الجُهَّـالُ جَهْلَكَ مَرَّةً   فَعِرضُكَ لِلْجُهَّالِ غُنْمٌ مِنَ الغُنْـمِ
فَعُـمَّ عَلَيْهِ الجَهْلَ وَالحِلْمَ وَالْقَهُ   بِمَرْتَبَةٍ (٤) بَيْنَ العَدَاوَةِ (٥) وَالسِّلْمِ
فَيَـرْجُوكَ تَارَاتٍ ، وَيَخْشَاكَ تَارَةً   وَيَلْقَـاك فِيمَا بَيْنَ ذَلِكَ بِالحَـزْمِ(٦)

---

(١) في الأصل : بن .   (٢) في الأصل أنصفك .

(٣) إذا ما خيرت في وقعة وحالٍ بين أن تحلم وأن تجهل فَجَانِبْ الجهلَ والزَمْ الحلمَ فإنه نعم المقتنى.

وإذا ما استغضبت فلا تغضب إلا أن يشطّ مغضبك ويتمادى ، فحينها ينبغي أن يجازى ويؤخذ علي يديه وإياك أن تضع الندى موضع إصلات السيف بالعلا . .

(٤) في الأصل : لتجربة .   (٥) في الأصل : الحلاوة .

(٦) ينبغي على العاقل ألا يتمادى في إظهار الحلم فيرمى بالذلة ويغدو نهبًا وعرضه بين اللئام غنمًا.

=

حدثنا محمد بن عثمان العقبيّ (١) ، حدثنا يزيد بن عبد الصمد الدمشقيّ ، حدثنا أبو مُسْهِر ، حدثنا سعيد بن عبد العزيز ، عن مكحول ، قال : لا حلم لمن لا جاهل له .

وحدثنا عمرو بن محمد ، حدثنا الغلابيُّ ، حدثنا مهديُّ بن سابق ، قال : قال المأمون : يحسنُ بالملوك الحلم عن كل أحد (٢) ، إلا عن ثلاثة : قادحٍ فى مُلك ، أو مذيعٍ لسرٍّ ، أو متعرِّض لحُرمة .

قال أبو حاتم – رضى الله عنه : الحلم على ضربين :

أحدهما : ما يَرِدُ على الخلق من قضاء الله ، من المصائب التى امتحن الله بها عباده ، فيصبر العاقل تحت (٣) ورودها ، ويحلُم عن الخروج إلى ما لا يليق بأهل العقل (٤) .

والآخر : ما يَرِد على النفس بضد ما تشتهيه من المخلوقين . فمن (٥) تعوَّد الحلم ، فليس بمحتاج إلى التصبُّر ، لاستواء العدم والوجود عنده .

كما حدثنا أبو حمزة محمد بن يوسف بن عمر بنسا ، حدثنا يعقوب بن إبراهيم الدَّوْرَقِىّ ، حدثنا عبد الله بن صالح العِجْلِىُّ ، قال : سمعت ابن أبي عتبة يقول : قيل للأحنف بن قيس التميمىُّ : ممن تعلمت الحلم ؟ قال : من قيس بن عاصم التميمىُّ ، أتاه آتٍ وهو مُحتَبٍ ، فقال : ابن أخيك قتلَ ابنَك ! قال : عَصَى ربه ، وفَتَّ عَضُده ، وقطع رَحمه ، جَهِّزُوه . وما حَلَّ حَبْوته ، فمنه تعلمتُ الحلم .

حدثنا محمد بن شاذل الهاشمىّ ، حدثنا أحمد بن الخليل البغدادىّ ، حدثنا علىُّ بن الحسن بن شقيق ، أخبرنا عبد الله عن جعفر بن سليمان ، قال : كانت امرأة بالبصرة متعبدة تصيبها المصائب ، فيُذكر من صبرها ، حتى أصابتها مصيبة مُوجِعة ، فصبَرَت ، فذكرت ذلك لها ، فقالت : ما من مصيبة تصيبنى فأذكرَ معها النار ، إلا صارت فى عينى مثل التراب .

حدثنا بكر بن أحمد بن سعيد الطاحىّ بالبصرة ، حدثنا عمرو بن إسحاق بن خلادِ الجَهْضَمِىّ ، حدثنا خالد بن خِداش ، حدثنا ابن وهب ، عن بكر بن مُضَر ، قال :

= لا بل فليحفِ حلمه وأظهر له ما يتقيك وفى عينه يرقيك .
وبهذا ترتجى وتحذر ويرغب فى مودتك ويرهب من سطوتك ، وكذلك يكون الحزم .

(١) العقبى حدثنا إسحاق بن زكريا .

(٢) فى الأصل : الأعداء .

(٣) فى الأصل : عليها ويحتسب .

(٤) فى الأصل : به من الجهل .

(٥) فى الأصل : فيحتمل ذلك فإن مَنْ .

كان أبو الهيثم مات ولده ، وبقى له بُنَى صغير ، فمات ، فأتاه إخوانه يعزُّونه وهو فى ناحية المسجد ، فقال لهم : تَركَنى حُزنُ يوم القيامة لا آسَى على شىء فاتنى ، ولا أفرح بما أتانى .

حدثنا محمد بن إسحاقَ الثقفىّ ، حدثنا القاسم بن الحسن الزُّبَيدىّ ، حدثنا إسحاق ابنَ إبراهيم ، قال : مات ابن لشُرَيْح ، فلم يصيحوا عليه ، ولم يشعر به أحد ، فقيل له : يا أبا آمنة ، كيف هو ؟ قال : قد سكن عَلَزُه (١) . ورجاه أهله ، ولم يكن منذ اشتكى أسكنَ منه الليلة .

* * *

(١) العلز : الضجر : وشبه رعدة تأخذ المريض ، ومضاعفات المرض كالسعال ، والصداع ، تدخل على الحمى ، وهو أيضًا : القلق والكرب عند الموت .

ذِكْرُ الحَثِّ عَلَى لُزُومِ الرِّفْقِ فِى الأُمورِ ، وكَرَاهِيَةِ العَجَلَةِ فِيهَا

حدثنا محمد بن صالح الطَّبَرِىّ بالصَّيمرة (١) ، حدثنا عبد الجبار بن العلاء العطَّار ، حدثنا سفيان ، عن عمرو بن دينار ، عن ابن أبى مُلَيكة ، عن يَعْلَى بن مَملكة (٢) ، عن أم الدرداء ، عن أبى الدرداء ، قال : قال رسول الله ﷺ : « مَنْ أُعْطِى حَظَّهُ من الرِّفْق ، فَقَدْ أُعْطِى حَظَّهُ مِنَ الْخيْرِ ، وَمَنْ مُنِعَ حَظَّهُ مِنَ الرِّفْقِ ، فَقَدْ مُنِعَ حَظَّهُ مِنَ الْخيْرِ » (٣) .

قال أبو حاتم [رضى الله عنه] (٤) : الواجب على العاقل لزوم الرفق فى الأمور كلها، وترك العجلة والخِفّة فيها ، إذ الله [تعالى] (٥) يحب الرفقَ فى الأمور كلها ، ومن مُنِع الرفق مُنِع الخير ؛ كما (٦) أن من أُعْطِى الرفقَ أُعطِىَ الخير ، ولا يكاد المرء يتمكن من بُغيته فى سلوك قصده فى شىء من الأشياء ، على حسب الذى يحبُّ (٧) ، إلا بمقارنة الرفق ، ومفارقة العَجَلة .

---

(١) الصيمرة : ناحية بالبصرة بفم نهر معقل ، وبلد آخر على خمس مراحل من الدينور (التاج).

(٢) فى الأصل : مملك .

(٣) أخرجه أحمد (٦/ ٤٥١) ، والترمذي (٤/ ٣٢٣) ، كتاب « البر والصلة » ، باب : ما جاء فى الرفق ، حديث (٢٠١٣) ، والبخارى فى « الأدب المفرد » ، رقم (٤٦٠) ، والبيهقى فى « سننه » (١٠/ ١٩٣) ، كتاب « الشهادات » ، باب : بيان مكارم الأخلاق ومعاليها ، وفى « الأسماء والصفات» (ص ٣٥٢) كلهم من طريق ابن أبى مليكة عن يعلى بن مملك ، عن أم الدرداء ، عن أبي الدرداء مرفوعًا .

وقال الترمذى : هذا حديث حسن صحيح

وللحديث شاهد من حديث عائشة .

أخرجه أحمد (٦/ ١٥٩) من طريق عبد الرحمن بن القاسم ، عن القاسم ، عن عائشة .

وحديث أبى الدرداء ذكره السيوطى فى « الجامع الصغير » (٦/ ٧٥ - فيض) رقم (٨٤٨٢) ، ورمز له بالضعف .

وقال المناوى فى « فيض القدير » (٦/ ٧٥) :

(من أعطى حظه من الرفق) : أي نصيبه منه (فقد أعطى حظه من الخير ومن حرم حظه من الرفق فقد حرم حظه من الخير) كله إذ به تنال المطالب الأخروية والدنيوية وبفوته يفوتان ولهذا قال نسطور لما بعث صاحبيه ليدعوان الملك إلى دين عيسى وأمرهما بالرفق فخالفا وأغلظا عليه فحبسهما وآذاهما ، فقال لهما نسطور مثلكما كالمرأة التى لم تلد قط فولدت بعد ما كبرت فأحبت أن تعجل شبابه لتنتفع به فحملت على معدته ما لا يطيق فقتلته .

(٤) سقط فى الأصل .

(٥) سقط فى الأصل .

(٦) فى الأصل : فكما .

(٧) فى الأصل : يجب .

وأنشدني المنتصر بن بلال الأنصاريّ [البسيط] :

أَلرِّفْــــقُ مِمَّا سَيَلْقَى الْيُمْنَ صَاحِبُهُ   وَالْخُرْقُ مِنْهُ يَكُـــونُ الْعُنْفُ وَالزَّلَلُ

وَالْحَــــزْمُ أَنْ يَتَأَنَّى الْمَرْءُ (١) فُرْصَتَهُ   وَالْكَفُّ (٢) عَنْهَا إِذَا أَمْكَنَتْ فَشَلُ(٣)

وَالْبِرُّ للهِ خَيْرُ الأَمْــــرِ عَاقِبَـــةً   وَاللهُ لِلْبِرِّ عَـــونٌ مَالَهُ مَثَـــلُ

خَيْــــرُ الْبَرِيَّةِ قَوْلاً خَيْرُهُمْ عَمَـــلاً   لا يَصْلُحُ الْقَوْلُ حَتَّى يَصْلُحَ الْعَمَلُ(٤)

وأنشدني منصور بن محمد الكُرَيزيُّ [البسيط] :

أَلرِّفْــــقُ أَيْمَـــــنُ شَيْءٍ أَنْتَ تَتْبَعُهُ   وَالْخُرْقُ أَشْأَمُ شَيْءٍ يَقْدُمُ الرَّجُلا(٥)

وَذُو التَّثَبُّتِ مِنْ حَمْدٍ إِلَى ظَفَــــرٍ   مَنْ يَرْكَبِ الرِّفْقَ لا يَسْتَحْقِبِ الزَّلَلا(٦)(٧)

حدثنا محمد بن أبى عليٍّ الخلاديّ ، حدثنا محمد بن خلف البساميّ ، عن أحمد بن موسى الأزرق ، أن ابنه أنشده [الكامل] :

وَزِنِ الْكَلامَ إِذَا نَطَقْتَ ، فَإِنَّمَا   يُبْدِى الْعُقُولَ أَوِ الْعُيُوبَ الْمَنْطِقُ

لا أُلْفِيَنَّكَ ثَاوِيًا فِي غُـــــرْبَةٍ   إِنَّ الْغَرِيبَ بِكُلِّ سَهْمٍ يُرْشَـــقُ

---

(١) فى الأصل : تأتى . (٢) فى الأصل : فالكف .

(٣) يتأنى فرصته : ينتظرها ويترقبها فى أناة ، والفشل : العجز والجبن .

(٤) هذه الأبيات الحسان بلغت المنتهى جمالاً ونظامًا فيقول : كل من كان ذا رفق فإنه ميمون محظوظ ذو عاقبة حسنى ، أما النزق والجهل ففيهما الندامة والزلل والشره والخطل ، والحازم هو من يتئد ويتأنى وينتظر فرصته ، وإذا ما أتت فليلقفها ، أما إن تركها وهجرها فإن ذلك عين الفشل والعجز .

ومن كان برًا فإن الله شكور للأبرار مزيد لهم فى نعمهم ، ومن استعان بالله على البر أعانه وزاده وأزانه . .

وأفضل الناس من وافق مقاله فعاله إذْ لا خير فى معسول القول دون حسن الفعل ، وقدر كل امرئٍ ما كان يحسنه .

(٥) يقدم الرجل : يقوده ويتقدمه .

(٦) استحقب الشيء : جعله فى حقيبته ، كأنه يرجع به إلى أهله .

(٧) من خير ما يتبع المرء الرفق ففى عقباه السلامة والنجاة ، كما أن الحمق والنزق والطيش شؤم ومهلكة .

ومن كان رسوخًا متثبتًا فهو ظافرٌ محمودٌ من كل أحدٍ وكذلك كل من ركب التأنى والترفق . . فإنه سالم غانم بمنأى عن الزلل والخطل .

لَــوْ سَارَ أَلْفُ مُدَجَّجٍ فِى حَاجَةٍ   لَمْ يَقْضِهَـــا إِلا الَّذِى يَتَرَفَّقُ(١)

قال أبو حاتم - رضى الله عنه : العاقل يلزم الرفق فى الأوقات ، والاعتدال فى الحالات؛ لأن الزيادة على (٢) المقدار فى المبتغَى عيب ، كما أن النقصان فيما يجب من المَطْلب عجز، ومن لم يصلحه (٣) الرفق ، لم يصلحه العُنْف ، ولا دليل أمهر من رفق(٤)، كما لا ظَهرَ أوثقَ من العقل ؛ ومن الرفق يكون الاحتراز ، وفى الاحتراز تُرْجَى(٥) السلامة، وفى ترك الرفق يكون الخُرق ، وفى لزوم الخُرق تُخاف الهَلَكة .

ولقد أنشدنى الأبرش [الطويل] :

عَلَيْـــكَ بِوَجْهِ القَصْدِ فَاسْلُكْ سَبِيلَهُ   فَفِى (٦) الجَوْرِ إِهْلاكٌ ، وَفِى القَصْدِ مَسْلَكُ
إِذَا أَنْتَ لَمْ تَعْرِفْ لِنَفْسِـــكَ قَدْرَهَا   تُحَمِّلُهَا ، مَا لا تُطِيــــقُ فَتَهْلِكُ(٧)

قال أبو حاتم - رضى الله عنه : الرافق لا يكاد يُسبَق ، كما أن العَجِل لا يكاد يَلْحق، وكما أن من سكت لا يكاد يندم ، كذلك من نطق لا يكاد يسلَم ، والعَجِل يقول قبل أن يعلَم ، ويجيب قبل أن يُسئل (٨) ، ويحمَد قبل أن يُجرِّبَ ، ويذُمُّ بعد ما يحمَد، ويعزم قبل أن يفكر ، ويمضى قبل أن يعزم . والعجِل تصحبه الندامة ، وتعتزله السلامة؛ وكانت العرب تَكْنى العجلَة أمَّ الندامات .

ولقد أنشدنى بعض أهل العلم [البسيط] :

---

(١) ينبغى على العاقل أن يتثبت فى مقاله ، وينظر أين يخرجه مخارجه ومداخله ؛ فإنها يستبين الباطن من المنطق الظاهر ، وصدق من قال :

وإن لسان المرء ما لم تكن له   حصاة على عوراته لدليل

ولا تغترب أو تمتهن نفسك بكثرة الاغتراب فإنما الغريب غرض للحوادث ، وتعروه وتبليه .

وليلزم المرء الرفق فى كل أموره وأحواله فما تدرك الحاجات بالفظاظات ولو جروا لها الجيوش العرمرم فالرفق أولى وأسلم .

(٢) فى الأصل : فى   (٣) فى الأصل : وما أصلحه .   (٤) فى الأصل : الرفق .

(٥) فى الأصل : يرجى .   (٦) فى الأصل : وفى .

(٧) ينبغى عليك أيها العقول أن تلازم الرفق فى كل أحوالك بسلوك سبله ، وإما جورت فقد هلكت ، وإما اقتصدت فقد وفقت .

لا تكثرن ولا تقلل واقتصد   فالقصد والتوفيق مقترنان

وليرفق العاقل بنفسه فلا يكلفها فوق الطوق وإلا هلكت وبادت ، وإنما العاقل من يلاطفها ويرافقها.

(٨) فى الأصل : ويفهم .

أَلْعَجزُ ضر ، وَمَا بِالْحَزْمِ مِنْ ضَرَرٍ وَأَحزَمُ الحَزمِ سُوءُ الظَّنِّ بِالنَّاسِ
لا تَتْرُكِ الحَزْمَ فِى أَمرٍ تُحَاذِرُهُ فَإِنْ (١) أَمِنْتَ فَمَا بِالحَزْمِ مِنْ بَاسِ (٢)

أخبرنا عمرو بن محمد ، حدثنا الغلابىُّ ، حدثنا إبراهيم بن عمر بن حبيب ، قال : كان يقال : لا يوجد العجول محمودًا ، ولا الغضوب مسرورًا ، ولا الحرُّ حريصًا ، ولا الكريم حسودًا ، ولا الشره غنيًا ، ولا الملولُ ذا إخوان .

وأنشدنى محمد بن عبد الله البغدادىّ [الطويل] :

إِذَا مَا أَتَيْتَ الأَمْرَ مِنْ غَيْرِ بَابِهِ (٣) تَصَعَّبَ ، حَتَّى لا تَرَى فِيهِ مُرْتَقَى
وَإِنَّ الَّذِى يَصْطَادُهُ الفَخُّ إِنْ عَتَا عَلَى الفَخِّ ، كَانَ الفَخُّ أَعْتَى وَأَضْيَقَا (٤)(٥)

قال أبو حاتم - رضى الله عنه : العجلة تكون من الحِدَّة ، وصاحب العجلة إن أصاب فُرصته لم يكن محمودًا ، وإن أخطأها كان مذمومًا ، والعَجل لا يسير إلا مُناكبًا للقصد، منحرفًا عن الجادَّة ، يلتمس ما هو أنكد وأوعَر وأخفى مَسَارًا ، يحكم حكم الورْهاء (٦) ، ويناسب أخلاق النساء .

ولقد حدثنا عمرو بن محمد الأنصارىّ ، حدثنا الغلابىُّ ، حدثنا مهدىُّ بن سابق ، قال : قال خالد بن بَرْمك : من استطاع أن يمنع نفسه من أربعة أشياء ، فهو خليق ألا

---

(١) في الأصل : وإن .

(٢) إنما العجز مضرة ومزلة بينما الحزم هو عين النفع والاحتراز وأحزم الحزم ألا تثق بأحد وإلا أتيت من حيث لا تحتسب .

وينبغى ألا تغادر أبواب الحزم بسوء الظن والاستعداد مما تحذر فإن وقع كنت له أهلاً وعلى حذر وإلا فما ضرك شىء وفلسفة الحزم والرفق والتلطف هذه كنوز تجدها فى كتابى الإمامين العالمين الحازمين : أبى محمد على بن حزم : « الأخلاق والسير فى مداواة النفوس » ، وعند عالم الآفاق ومفخرة العراق أبى الفرج جمال الدين بن الجوزى فى كتابه « صيد الخاطر » .

(٣) فى الأصل : وجهه . (٤) فى الأصل : وأضيقا .

(٥) ينبغى الاستعداد لكل أمرٍ والاقتصاد فى طلابه والتبصر بأبوابه فمن جاء أمرًا من غير بابه فقد ضل وما اهتدى وتصعب عليه الأمر والتوى .

ومن حاول اقتحام الأفخاخ صادته وأسرته ومن تعتى وتعنت فى طلابه احتلب الهزيمة واجترع الخذلان وكان الفخ منه أعتى وأعنت .

(٦) الورهاء من النساء : الحمقاء الخرقاء فى العمل (اللسان) .

ينزل به كبير مكروه : العَجَلة ، واللجَاجة ، والعُجْب ، والتوانى ؛ فثمرة العجلة الندامة، وثمرة اللجاجة [(١)] الحَيْرة ، وثمرة العُجْب البِغْضة ، وثمرة التوانى الذل .

قال أبو حاتم - رضى الله عنه : العجلة موكَّل بها [(٢)] الندم ، وما عَجِل أحد إلا اكتسب ندامة ، واستفاد مذمة ؛ لأن الزلل مع العَجَل ، والإقدامَ على العمل بعد التأنى فيه أحزم من الإمساك عنه بعد الإقدام عليه ، ولا يكون العجول محمودًا أبدًا ، والعاقل يعلم أن العجز فى الأمور يقوم فى النقص مقام الإفراط فى السعى ، فيتجنبهما معًا ، ويجعل لنفسه مسلكًا بينهما .

ولقد حدثنا الحسن بن سفيان ، حدثنا أبو الدرداء [(٣)] عبد العزيز بن منيب ، حدثنى إبراهيم بن عاصم ، قال : سمعت صدقة يقول : سمعت الشَّمَرْدَل يقول : نَكَحَ العجزُ التوانى ، فولد الندامة .

قال أبو حاتم - رضى الله عنه : سبب النجاح ترك التوانى ، ودواعى الحِرمان الكسل لأن الكسل عدوٌّ المروءة ، وعذابٌ على المرء ، ومن التوانى والعجز أُنتجت الهَلَكة ، وكما [(٤)] أن الأناة بعد الفكرة أعظم الخطأ ، كذلك العَجَلة قبل الإمكان نفس الخطأ ، والرشيد من رَشُد عن العجلة ، والخائب من خاب عن الأناة ، والعَجِل مخطئٌ أبدًا ، كما أن المتثبت مصيب أبدًا .

وحدثنى محمد بن عثمان العقبىّ ، حدثنا محمد بن الحسن المصرىّ ، حدثنى نعيم بن حماد ، حدثنا ابن المبارك ، حدثنا معمر ، قال : كتب عمرو إلى معاوية يعاتبه فى التأنّى :

« أما بعد ، فإن التفهم فى الخير زيادة ورُشْد ، وإنه من لا ينفعه الرفق ، يضره الخُرق، ومن لا تنفعه [(٥)] التجارِب لا يدرك المعانى أو قال المعالِى ولا يبلغ الرجل مَبلغ الرأى ، حتى يغلب حلمُه جهلَه ، وصبره شهوته ، ولا يدرك ذلك إلا بقوة الحلم » .

وأنشدنى محمد بن حبيب الواسطى [الطويل] :

بُنَىَّ ، إِذَا مَا سَاقَكَ الضرُّ [(٦)] فَاتَّئِدْ ... فَلَلرِّفْقُ [(٧)] أَوْلَى بِالأَرِيبِ وَأَحْـرَزُ

---

(١) اللجاجة فى الأمر : التمادى عليه وألا ينصرف عنه .

(٢) فى الأصل : به . (٣) فى الأصل : داودا . (٤) فى الأصل : فكما .

(٥) فى الأصل : ينفعه . (٦) فى الأصل : ساوك الضيم .

(٧) فى الأصل : فالرفق .

فَلا تَحْمَيَنْ عِنْدَ الأُمُــــورِ تَعزُّزًا   فَقَدْ يُورِثُ الذُّلَّ الطَّوِيلَ التَّعَزُّزُ (١)

أخبرنى محمد بن المنذر ، حدثنا إسماعيل بن إسحاق ، حدثنا سليمان بن حرب ، حدثنا حماد (٢) ، عن أيوب ، قال : قال أكثم بن صَيْفِيٍّ : ما يسرنى أنى نزلت بدار مَعْجزة ، فأسمنتُ وألبنتُ (٣) . قيل له : لم ؟ قال : لأنى أخاف أن أتخذ العجز عادة.

وأنشدنى المنتصر بن بلال الأنصارى : [الكامل]

وَعَلَيْكَ فِى بَعْضِ الأُمُورِ صُعُــوبَةٌ   وَالرِّفْــقُ لِلْمُسْتَصْعَبِ المَيْدَانُ (٤)

وَبِحُسْنِ عَقْلِ المَرْءِ يَثْبُتُ (٥) حَالُهُ   وَعَلَى المَغَارِسِ تُثْمِرُ العِيــدَانُ (٦)

حدثنا عمرو بن محمد ، حدثنا الغلابىُّ ، حدثنا مهدىُّ بن سابق ، عن عبد الله بن عياش ، عن أبيه ، قال : شَهد أعرابى عند معاوية بشهادة ، فقال معاوية : كذبت ، فقال الأعرابىُّ : إِن الكاذبَ لَلْمُتَزَمِّلُ فى ثيابِك ، فقال معاوية : هذا جزاء مَنْ تَعَجَّلَ .

* * *

(١) يابنى تلطف وترفق أمورك كلها وإذا ما علاك الضرُّ فتصبر وانثنى له .

وإياك أن تهتاج بدعوى العزة فتجنى بالطيش والنزق ما يورثك الذلّ الطويل والهم الوبيل .

(٢) في الأصل : حماد بن زيد .

(٣) أسمنت : صار عندى سمن كثير ، وألبنت : كثير اللبن عندى .

(٤) فى الأصل : للمستصعبات مزانُ .   (٥) فى الأصل : تشتيت .

(٦) ليعلم المرء أنَّ الحياة هموم فما كل لين دائم بل لا بد من الشظف والألم وحينها فالرفق خير مرتفق وبه تدين الأمور وتلين .

وإنما العقل أساس فإن طاب طابت ثماره ، وهى الأموال والأحوال ، وصدق من قال :

ما طاب فرع لا يطيب أصله   احــــذر مؤخاة اللئيم فعله

وقال غيره :

وعلى الأساس قواعد البنيان .

ذِكْرُ الحَثِّ عَلَى تَعلُّمِ الأَدَبِ ، ولُزُومِ الفَصَاحَةِ

حدثنا الحسين بن إدريسَ الأنصاريّ ، أنبأنا أحمد بن أبي بكر ، عن مالك ، عن زيد ابن أسلم ، عن ابن عمر ، قال : قال رسول الله ﷺ : « إِنَّ مِنَ الْبَيَانِ لَسِحْرًا » [1] .

---

(1) أخرجه مالك (٢/٩٨٦) ، كتاب « الكلام » ، باب : ما يكره من الكلام (٧) ، والبخارى (١٠/٢٣٧) ، كتاب « الطب » ، باب : إن من البيان لسحرًا حديث (٥٧٦٧) ، وأبو داود (٢/ ٧٢٠)، كتاب « الأدب » ، باب : ما جاء في المتشدق في الكلام ، حديث (٥٠٠٧) ، والترمذى (٤/٣٢٩ - ٣٣٠) ، كتاب « البر والصلة » ، باب : ما جاء في إن من البيان سحرًا ، حديث (٢٠٢٨) ، وأحمد (٢/١٦ ، ٥٩ ، ٦٤) ، وأبو يعلى (١٠/١٢) رقم(٥٦٣٩) ، وأبو نعيم في «الحلية » (٣/٢٢٤) ، والبغوى في « شرح السنة » (٦/٤٠٧ - بتحقيقنا) ، والقضاعى في « مسند الشهاب » (٩٦٣) كلهم من طريق زيد بن أسلم عن ابن عمر مرفوعًا .

وقال الترمذى : حديث حسن صحيح .

وللحديث شاهد من حديث ابن عباس .

أخرجه أبو داود (٢/٧٢١) ، كتاب « الأدب » ، باب : ما جاء في الشعر حديث (٥٠١١) ، والترمذى (٥/١٢٦) كتاب « الأدب » ، باب : ما جاء إن من الشعر حكمة ، حديث (٢٨٤٥) ، وابن ماجة (٢/١٢٣٦) ، كتاب « الأدب » ، باب : الشعر ، حديث (٣٧٥٦) والبخارى في « الأدب المفرد » رقم (٨٧٢) ، وأحمد (١/٢٦٩ ، ٣٠٣ ، ٣٠٩ ، ٣١٣ ، ٣٢٧ ، ٣٣٢) ، وأبو يعلى (٤/ ٢٢٠) رقم (٢٣٣٢) ، والبيهقى (١٠/٢٤١) ، كتاب « الشهادات » ، باب شهادات الشراء ، كلهم من طريق سماك عن عكرمة عن ابن عباس مرفوعًا .

وقال الترمذى : حديث حسن صحيح .

وللحديث شاهد أيضًا من حديث ابن مسعود .

أخرجه أحمد (١/٣٩٧) ، وذكره الهيثمى في « المجمع » (٨/١١٩) ، وقال : رواه الطبرانى وأحد إسناديه حسن وشاهد آخر من حديث أبى بكرة .

أخرجه الطبرانى في « الأوسط » ، و« الكبير » - كما في « المجمع » (٨/ ١٢٠) ، وقال الهيثمى : رواه الطبرانى في الأوسط والكبير عن محمد بن موسى الأصطخرى عن الحسن بن كثير بن يحيى بن أبى كثير ولم أعرفهما وبقية رجاله ثقات .

وللحديث شاهد أيضًا من حديث أنس .

أخرجه الطبرانى في « الكبير » (١/ ٢٦٠) رقم (٧٥٦) من طريق العباس بن الفضل الأزرق ثنا حماد بن سلمة ، عن ثابت ، عن أنس مرفوعًا .

وقال الهيثمى في « المجمع » (٨/١٢٦) : وفيه العباس بن الفضل الأزرق ، وهو متروك . =

قال أبو حاتم - رضى الله عنه : قد شبّه النبىُّ ﷺ فى هذا الخبر البيان بالسحر ، إذ الساحر يستميل قلب [1] الناظر إليه بسحره وشَعوذته [2] ، والفصيح الذَّرِبُ اللسان ، يستميل قلوب الناس إليه بحسن فصاحته ، ونظم كلامه ، فالأنفس تكون إليه تائقة ، والأعين إليه رامقة .

ولقد حدثنا أبو خليفة ، حدثنا أبو محمد التوّزىّ النحوىّ ، حدثنا عبد الله بن صالح، حدثنا حِبان بن علىٍّ ، قال : سمعت ابن شُبْرُمة يقول : ما رأيت لباسًا على رجل أحسن من فصاحة ، ولا على امرأة من شَحْم ، وإن الرجل ليتكلم فيُعرِب ، فكأنَّ عليه الخَزَّ الأدكن وإن الرجل [3] ليتكلم فيلحَن ، فكأنَّ عليه أسْمالاً . إن أحببت أن يصغُر فى عينك الكبير ، ويكبُر فى عينك الصغير ، فتعلم النحو .

وأنشدنى الكُريزىُّ [البسيط] :

= وأخرجه الخطيب : فى « تاريخ بغداد » (٣٤٩/١٠) من حديث أبى هريرة .

قال المناوى فى « فيض القدير » (٥٢٤/٢) :

(إن من البيان لسحرًا) أى إنَّ منه لنوعًا يحل من العقول والقلوب فى التمويه محل السحر فإن الساحر بسحره يزين الباطل فى عين المسحور حتى يراه حقًا فكذا المتكلم بمهارته فى البيان وتفننه فى البلاغة وترصيف النظم يسلب عقل السامع ويشغله عن التفكر فيه والتدبر له حتى يخيل إليه الباطل حقًا والحق باطلاً وهذا معنى قول ابن قتيبة إن منه ما يقرب البعيد ويبعد القريب ويزين الباطل القبيح ويعظم الصغير فكأنه سحر وما ضارعه فهو مكروه كما أن السحر محرم ، وهذا قاله حين قدم وفد تميم وفيه الزبرقان وعمرو بن الأهتم فخطبا ببلاغة وفصاحة ثم فخر الزبرقان فقال : يا رسول الله أنا سيد بنى تميم والمطاع فيهم والمجاب لديهم أمنعهم من الظلم وآخذ لهم بحقوقهم وهذا يعلم ذلك فقال عمرو: إنه لشديد العارضة مانع لجانبه مطاع فى أذنيه ، فقال الزبرقان : والله لقد علم منى أكثر ما قال ما منعه أن يتكلم إلا الحسد فقال عمرو أنا أحسدك ؟! والله إنك للئيم الخال حديث المال ضيق العطن أحمق الولد والله يا رسول الله لقد صدقت فيما قلت أولاً وما كذبت فيما قلت لكنى رجل إذا رضيت قلت : أحسن ما علمت ، وإذا غضبت قلت أقبح ما وجدت ، ولقد صدقت فى الأولى ، والأخرى جميعًا فقال رسول الله - صلى الله عليه وعلى آله وسلم : إن .. إلخ ، قال الميدانى : هذا المثال فى استحسان النطق وإيراد الحجة البالغة ، قال التوربشتى وحقه أن يقال إن بعض البيان كالسحر لكنه جعل الخبر مبتدأ مبالغة فى جعل الأصل فرعًا والفرع أصلاً .

(١) فى الأصل : بقلب .

(٢) الشعوذة : خفة فى اليد كالسحر ، يرى الشىء بغير ما عليه أصله فى رأى العين . وليس من كلام أهل البادية (اللسان) .

(٣) فى الأصل : وإنه .

أَكْرِمْ بِذِى أَدَبٍ، أَكْرِمْ بِذِى حَسَبٍ فَإِنَّمَا العِزُّ فِى الأَحْسَابِ وَالأَدَبِ
وَالنَّاسُ صِنْفَانِ : ذُو عَقْلٍ ، وَذُو أَدَبٍ كَمَعْدِنِ الفِضَّةِ البَيْضَاءِ وَالذَّهَبِ
وَسَائِرُ النَّاسِ مِنْ بَيْنِ الوَرَى هَمَجٌ كَانُوا مَوَالِى،أَوْ كَانُوا مِنَ العَرَبِ[1]

وأنشدنى البسَّامىُّ [البسيط] :

لَيْسَ المُسَوَّدُ مَنْ بِالمَالِ سُؤْدُدُهُ بَلِ المُسَوَّدُ مَنْ قَدْ سَادَ بِالأَدَبِ
لأَنَّ مَنْ سَادَ بِالأَمْوَالِ ، سُؤْدُدُهُ مَا دَامَ فِى جَمْعِ ذَا الأَمْوَالِ وَالنَّشَبِ
إِنْ قَلَّ يَوْمًا لَهُ مَالٌ يَصِيرُ إِلَى هُونٍ مِنَ الأَمْرِ، فِى ذُلٍّ وَفِى تَعَبِ[2]

قال أبو حاتم – رضى الله عنه : الفصاحة أحسن لباس يلبسه الرجل ، وأحسن إزار يتزر[3] به العاقل ، والأدب صاحب فى الغربة ، ومؤنس فى القلَّة ورِفعةٌ فى المجالس ، وزين فى المحافل ، وزيادة فى العقل ، ودليل على المروءة . ومن استفاد الأدب فى حداثته ، انتفع به فى كبره ؛ لأن من غَرَس فَسيلاً يوشك أن يأكل رُطَبَهَا ، وما يستوى عند أولى النهى ، ولا يكون سيَّين [4] عند ذوى الحِجَا ، رجلان : أحدهما يلحَن ، والآخر لا يلحَن .

ولقد حدثنا الحسين بن محمد بن مصعب السِّنجِيّ ، حدثنا أبو داود [5] ، حدثنا عبد الله بن بكر بن حبيب ، حدثنا أبى ، عن سالم بن قتيبة ، قال : كنت عند بن هُبيرة ، فجرى الحديث ، حتى ذكروا العربيِة ، فقال : والله يا أمير المؤمنين ما استوى رجلان

---

(١) نعم المرء من كان ذا أدب يزينه بين الورى ، وذا حسب يخاف عليه الدنس فيلازم التصاون . . فإنما العز فى الأحساب والآداب لا فى غيرها .

والناس أصناف كانوا بنى علات أو أخياف ، فهم معادن كالفضة ، والذهب وصدق رسول الله ﷺ إذ قال : « الناس معادن أحاسنهم فى الجاهلية أحاسنهم فى الإسلام إذا فقهوا » .

وما عدى ذوى الأدب والفضل فهم همج رعاع يتبعون كل ناعق وزاعق .

(٢) إنما السيد هو من ازدان بالأدب وتحلى به ، أما من كان ذا مال وأعراض فإنه عبد ماله ، وماله سيده .

وسيادته فى ذلته لنفسه ومطامعه وسعيه الدؤوب لجمع المال وحوذه .

فإذا ما قلَّ ماله انقطعت آجاله وفصمت عن العزة حباله وصار إلى هوان وخسران .

(٣) يتزر : من الإزار ، وهو الثوب يدار حول النصف الأسفل من الجسم والأفصح فيه يأتزر بالهمز.

(٤) فى الأصل : سيان . (٥) فى الأصل : داود السنجى .

حَسَبُهما واحد ، ومروءَتهما واحدة ، أحدُهما يلحَن ، والآخر لا يلحَن ، إلا أنّ أفضلهما فى الدنيا والآخرة الذى لا يلحَن . قال : فقلت : أصلح الله الأمير ! هذا أفضل فى الدنيا ، بفضل فصاحته وعربيته ، أرأيت الآخرة ، وما بالُه فُضِّل فيها ؟ قال إنه يقرأ كتاب الله على ما أنزل الله – جلَّ وعلا –والذى يلحَن يحمله لحنه على أن يُدْخِل فى كتاب الله – جل وعلا – ما ليس فيه ، ويخرج منه ما هو فيه ، قال : قلت : صدق الأمير وبَرَّ !

وأنشدنى محمد بن عبد الله البغدادىّ [الرمل] :

أَيُّهَا الطَّالِبُ فَخْــــرًا بِالنَّسَبْ ... إِنَّمَــــا النَّاسُ لأُمٍّ وَلأَبْ
هَلْ تَرَاهُمْ خُلِقُــــوا مِنْ فِضَّةٍ ... أَوْ حَـدِيدٍ أَوْ نُحَاسٍ أَوْ ذَهَبْ ؟
أَوْ تَرَى فَضْلَهُمُ فِى خَلْقِهِــــمْ ... هَلْ سِوَى لَحْمٍ وَعَظْمٍ وَعَصَبْ ؟
إِنَّمَــا الفَخْــرُ بِحِلْمٍ رَاجِحٍ ... وَبِأَخْــــلاقٍ كِـرَامٍ وَأَدَبْ
ذَاكَ مَنْ فَاخَــــرَ فِى النَّاسِ بِهِ ... فَاقَ مَنْ فَاخَـرَ مِنْهُمْ وَغَلَبْ (١)

وأنشدنى محمد بن نصر بن نوفل قال : أنشدنى عبد العزيز بن أحمد بن بكار ، إمامُ مسجد مكة [البسيط] :

مَا حُلَّةٌ نُسِجَتْ بِالدُّرِّ وَالذَّهَبِ ... إِلا وَأَحْسَنُ مِنْهَا المَرْءُ بِالأَدَبِ (٢)

حدثنا محمد بن أبى على الخلادىّ ، حدثنا أحمد بن محمد المسروقىّ ، حدثنا محمد ابن الحسين البُرْجَلانى ، حدثنا أبو عمر العمرىُّ ، حدثنى عبد الله بن سَلَمة بن مِرداس، عن أبيه ، قال : قال لى رجل من حكماء الفرس : أقربُ القرابة المودة الدائمة ، وأفضل ما ورَّث الآباءُ الأبناءَ (٣) حسنُ الأدب .

---

(١) إنما الأحمق الحق هو من يتفاخر بنسب أو بأم أو أب ، كيف والناس لأم وأب .
وإنما لفرط حماقته ظن أن آباءه من ذهب وفضة وبنو الناس خلقوا من طين لازب .
أم علته الغشاوة فرأى فى خلقهم عجبًا فحق له الفخر بهم بل الناس سواء من لحم وعظم وعصب.
ولو وعى لدرى أن الفضل إنما هو لمن كان حليمًا خليقًا ذا أدب وكرم ففى هذا حق الفخر ، وجاز العلاء . .
وبمثل هذا يتفاخر الأقران ويزدان بالفخر الإنسان ومن كان فخورًا بهذا فحق له الفخر والغلب .

(٢) من كان ذا أدب وفضل فإنه فائق باذخ شامخ بهذا يفوق بتيجان أدبه ما رصعت به الحلل من الدر والياقوت . .

(٣) فى الأصل : لأبناء .

قال أبو حاتم - رضى الله عنه : أفضل ما وَرَّث أب ابنًا ، ثناءٌ حسن ، وأدَب نافع ، والخَرَس عندى خير من البيان بالكذب ، كما أن الحَصُور خير من العاهر.

فيجب على العاقل أن يُذكى قلبه بالأدب ، كما تُذكَّى النار بالحطب ؛ لأن من لا يذكى قلبَهُ ران [١] ، حتى يَسْوَدَّ . ومن تعلم الأدب فلا يتخذه للماراة عُدَّة ، ولا للمباراة ملجأ ، ولكن يقصدُ قصد الانتفاع بنفسه ، وليستعين به على ما يقربهُ إلى بارئه .

ولقد أنشدنى عبد العزيز بن سليمان الأبرش [الرمل] :

أَدَبُ المَرْءِ كَلَحْمٍ وَدَمٍ ... مَا حَوَاهُ رَجُلٌ إلا صَلَحْ
لَوْ وَزَنْتُم رَجُلاً ذَا أَدَبٍ ... بِأُلُوفٍ مِنْ ذَوِى الجَهْلِ رَجَحْ [٢]

أنبأنا أحمد بن بشر الكَرَجىّ [٣] ، حدثنا محمود بن الخطَّاب ، حدثنا رُستة عبد الرحمن بن عمر ، قال : سمعت عبد الرحمن بن مهدىّ يقول : ما ندمت على شىء كندامتى أنى لم أنظر فى العربية .

سمعت إسحاق بن إبراهيمَ بن إسماعيلَ القاضى يقول : سمعت ابن أخى الأصمعىِّ يقول : سمعت عمى يقول : تعلموا النحو ، فإن بنى إسرائيل كفروا بكلمة واحدة ، كانت مشدَّدة فخففوها ، قال الله : « يا عيسى إنى ولَّدْتك » فقرءُوا يا عيسى إنى وَلَدْتك، مخفف ، فكفروا .

حدثنا الحسن [٤] بن إسحاق الأصبهانىُّ [٥] ، حدثنا أبو أمية ، حدثنا عبد الله بن صالح [٦] ، حدثنا أبو زيد النحوىُّ ، قال : جاء رجل إلى الحسن ، فقال : ما تقول فى رجل ترك أبيه وأخيه ؟ فقال الحسن : ترك أباه وأخاه ، فقَال الرجل : فمَا لأباه ولأخاه؟ فقال : الحسن فمَا لأبيه ولأخيه ؟ فقال الرجل : كلما تابعتك خالفت !

قال أبو حاتم - رضى الله عنه : لا زينةَ أحسن من زينةَ الحسَب ، كما أن من أكمل الجمال استعمالَ الأدب ، ولا حَسَب لمن لا أدب له ، ومن كان من أهل الأدب ممن لا

---

(١) ران : اسود ، والفاعل ضمير راجع إلى القلب . ويقال ران على قلبه كذا : غلب وطبع وختم.

قال الحسن البصرى : هو الذنب على الذنب حتى يسود القلب ، ويقال : رين على قلبه : غطى ، وكل ما غطى شيئًا فقد ران عليه .

(٢) حاجة المرء إلى الأدب كحاجته إلى لَحْمٍ وَدَمٍ ، بل الأدب أفوق وأزين إذ ما يحويه امرؤ إلا علا وصلح ، وحينها فإنه يبز الناس ، ويرفع الرأس وغير به لا يقاس فضلاً أن يقاس به الأدناس ذوى الجهل والأرجاس .

(٣) فى الأصل : الكرخى .

(٤) فى الأصل : الحسين .

(٥) فى الأصل : الأصفهانى .

(٦) فى الأصل : صالح العجلى .

حسب له ، يبلغ به أدبُهُ مراتب أهل الأحساب ؛ لأن حسن الأدب خَلَفٌ من الحَسَب . وليست الفصاحة إلا إصابة المعنى والقصد ، ولا البلاغة إلا تصحيح الأقسام ، واختيار الكلام . ومِن أحمد الفصاحة الاقتدارُ عند البداهة ، والغزارة عند الإطالة ، وأحسن البلاغة وضوح الدلالة ، وحسن الإشارة .

ولقد سمعت محمد بن نصر بن نوفل المَرْوَزِىّ يقول : سمعت أبا داود السِّنجىَّ النحوى يقول : سمعت الأصمعىَّ يقول : ليست البلاغة بخفة اللسان ، ولا كثرة الهَذَيان، ولكن بإصابة المعنى ، والقصد إلى الحاجة ، وإنَّ أبلغ الكلام ما لم يكُن بالقَرَوِىِّ المجدَّع (١) ، ولا البدوىِّ المعرَّب .

وأنشدنى الكريزىُّ [الطويل] :

وَلَمْ أَرَ فَضْــلاً تَمَّ إلا بِشِــيمَةٍ ... وَلَمْ أَرَ عَقْلاً صَحَّ إلا عَلَى أَدَبْ

وَلَمْ أَرَ فِى الأَعْدَاءِ حِينَ اخْتَبَرْتُهُمْ ... عَدُوا لِعَقْلِ المَرْءِ أَعْدَى مِنَ الغَضَبْ (٢)

حدثنا عمر (٣) بن محمد ، حدثنا الغلابىُّ ، حدثنا محمد بن عبيد الله الجُشَمىّ ، قال: قال المدائنى : ذكر عند علىٍّ بن عبد الله بن عباس (٤) بلاغةُ رجل من أهله ، فقال : إنى لأكره أن يكون مقدار لسانه فاضلاً عن مقدار علمه ، كما أكره أن يكون مقدار علمه فاضلاً على مقدار عقله .

قال أبو حاتم - رضى الله عنه : الكلام مثلُ اللؤلؤ الأزهر ، والزبرجَد الأخضر ، والياقوت الأحمر ، إلا أن بعضه أفضل من بعض ، ومنه ما يكون مثل الخَزَف والحجر والتراب والمدَر ، وأحوج الناس إلى لزوم الأدب وتعلم الفصاحة أهل العلم ، لكثرة قراءتهم الأحاديث ، وخوضهم فى أنواع العلوم .

ولقد سمعت محمد بن نصر بن نوفل يقول : سمعت أبا داود السِّنجىَّ ، يقول حدثنى سهل بن هانئ عنه ، قال : سمعت الأصمعىَّ يقول : إن أخوف ما أخاف على طالب العلم ، إذا لم يعرف النحو ، أن يَدخل فيما قال النبىُّ ﷺ : « مَنْ كذب علىَّ متعمداً فليتبوأ مقعدة من النار » ؛ لأنه عليه الصلاة والسلام لم يكن لحانًا ، ولم يلحَن فى حديثه ، فمهما رَوَيت عنه ولَحَنت فيه ، كذبت عليه .

---

(١) المخدع أصله فى النبات : ما قطع من أعلاه ونواحيه وأكل ، شبه به كلام سكان البادية من العرب لأنهم لا يستوفون البيان والإيضاح فى كلا منهم بخلاف أهل البادية الفصحاء المعربين .

(٢) هذان البيتان فى التخلق بالأدب ونبذ النزق والغضب وقد مضيا .

(٣) فى الأصل : عمرو .   (٣) فى الأصل : العباس .

وأنشدنى ابن زنجىٍّ البغدادىُّ [الرجز] :

لَيْسَ الفتَى كُلُّ الفتَى ... إلا الْفَتَى فِى أَدَبِهْ
وبَعْضُ أخْلاقِ الْفَتَى ... أوْلَى بِهِ مِنْ نَسَبِهْ
حَتْفُ امْرِئٍ لِسَانُهُ ... فِى جِدِّهِ أَوْ لَعِبِهْ
بَيْنَ اللَّهَا مَقْتَلُهُ ... رُكِّبَ فِى مُرَكَّبِهْ (١)

سمعت أحمد بن الخطاب بن مِهران بتُسْتَر يقول : سمعت عثمان بن خُرْزَاذَ يقول : سمعت علىّ بن الجَعْد يقول : سمعت شعبةَ يقول : مَثَلُ الذى يطلبُ الحديث ولا يعرف النحو ، مَثَلُ الدابَّة عليها المِخلاة ليس فيها شىء .

* * *

(١) إنما يقاس المرء بأدبه وفضله فليس الفتى عين الفتى إلا حلية أدبه .

وحقيقة الناس متفقة فى الأنساب فكلنا لآدم وآدم من تراب ، وإنما الأدب فوق النسب وللمرء أحوج لأدبه منه إلى نسبه .

وينبغى على العاقل أن يحذر لسانه ويقيد لفظه . حين الهزل ووقت الجد وإلا استاء عاقبة ولقى حتفه بظلفه .

فاللسان مقتل وأىّ مقتل فمن صانه زانه ومن تغافله قاتله .

ذِكْرُ إِبَاحَةِ جَمْعِ المَالِ لِلْقَائِمِ بِحُقُوقِه

حدثنا أحمد بن محمد بن الحسين بن بنت الحسن بن عيسى بن ماسَرْجِسَ ، حدثنا جدّى ، حدثنا ابن المبارك ، أنبأنا موسى بن على بن رَبَاح ، عن أبيه ، عن أبى قيس مولى عمرو بن العاص ، عن عمرو بن العاص : أن رسول الله ﷺ قال : « يَا عَمْرُو نِعِمَّا الْمَالُ الصَّالِحُ ، لِلرَّجُلِ الصَّالِحِ » (١) .

قال أبو حاتم - رضى الله عنه : هذا الخبر يصرِّح عن النبىّ ﷺ بإباحة جمع المال من حيث يجب ، ويحلّ للقائم فيه بحقوقه ، لأنه فى تقرينه الصلاح بالمال والرجل معًا بيان واضح ، لأنه إنما أباح فى جمع المال الذى لا يكونِ بمحرَّم (٢) على جامعه ، ثم يكون الجامع له قائمًا بحقوق الله فيه ، ولقد ذكرت هذه المسألة بتمامها بالعلل والحكايات ، فى كتاب « الفضل بين الغنَى والفقر » ، بما أرجو الغُنية فيها ، لمن أراد الوقوف على معرفتها، فأغنى ذلك عن تكْرارها فى هذا الكتاب .

وأنشدنى منصور بن محمد الكريزىّ [الطويل] :

إِذَا كَانَ مَا جَمَّعْـــتَ لَيْسَ بِنَافِعٍ فَأَنْتَ وَأَقْصَى النَّاسِ فِيهِ سَـوَاءُ

عَــــلَى أَنَّ هَذَا خَارِجٌ مِنْ أَثَامِهِ وَأَنْتَ الَّذِى تُجْزَى بِهِ وَتُسَاءُ (٣)

---

(١) أخرجه أحمد (١٩٧/٤ ، ٢٠٢) ، والبخارى فى « الأدب المفرد » رقم (٢٩٩) ، وأبو داود الطيالسى (٤٤/٢ - منحة) رقم (٢٠٨٩) ، وأبو يعلى (٣٢١/١٣ - ٣٢٢) رقم (٧٣٣٦) ، وابن حبان (١٠٨٩ - موارد) ، والحاكم (٢/٢) ، والقضاعى فى « مسند الشهاب » (٢٥٩/٢) ، رقم (١٣١٥) كلهم من طريق موسى بن على ، عن أبيه ، عن عمرو بن العاص به ، وقال الحاكم : صحيح على شرط مسلم ووافقه الذهبى وصححه ابن حبان .

وذكره الهيثمى فى « المجمع » (٣٥٥/٩ - ٣٥٦) ، وقال : رواه أحمد ، ورواه الطبرانى فى الأوسط والكبير ورجال أحمد وأبى يعلى رجال الصحيح .

(٢) فى الأصل : محرمًا .

(٣) ينبغى للعاقل ألا يشقى لغيره ، ويذهب عمره فى أدنى منه كأن يتشاغل بجمع المال وحوزته ، ولا ينتفع بما جمع فهو والنائى عن ماله سواء .

غير أن النائى خالص من آثامه ، براء من معاتبه وسوءاته وجامع المال هو أول شقىٍّ بما جمع .. وعلى ماله يجازى ويساء .

أنبأنا محمد بن سليمان بن فارس ، حدثنا الحسن بن محمد بن الصباح ، حدثنا أبو عياد [(١)] ، حدثنا شعبة ، عن قتادة ، قال : سمعت مُطَرِّف بن عبد الله بن الشِّخِّير يحدث ، عن حكيم بن قيس بن عاصم ، عن أبيه ، أنَّه أوصى بنيه عند موته ، فقال : عليكم بالمال واصطناعه ، فإنه منبَهة للكريم ، ويُسْتغنى به عن اللئيم ، وإياكم ومسألةَ الناس ؛ فإنها آخر كسبِ الرجل .

قال أبو حاتم - رضى الله عنه : إنّ من أحسن ما ينتفع المرءُ به فى عمره وبعد الممات تَقْوَى الله ، والعملَ الصالح .

فالواجب على العاقل أن يعملَ فى شبابه فيما يقيم به أوَدَهُ ، كالشىء الذى لا يفارقه أبدًا ، وفيما يصلح به دينه ، كالشىء الذى لا يجده [(٢)] غدًا ، وليكن [(٣)] تعاهُدُهُ ماله ما يُصْلِحُ به مَعَاشه ، ويصون به نفسه ، وفى دينه ما يُقَدِّم به لآخرته ، ويُرضِى به خالقه ، والفاقة خير من الغنى بالحرام ، والغَنىُّ الذى لا مروءة له ، أهون من الكلب ، وإن هو طُوِّقَ وَخُلْخِل .

حدثنى محمد بن عثمان العقبىّ ، حدثنا عمران بن موسى بن أيوب ، حدثنى أبى ، حدثنى عيسى بن يونس ، عن محمد بن سُوقة ، عن محمد بن المنكدر ، قال : نِعْمَ العونُ عَلَى تقوى الله الغِنَى .

وأنشدنى على بن محمد البسَّامى [الطويل] :

أَرَى كُلَّ ذِي مَالٍ يَسُودُ بِمَالِهِ ... وَإِنْ كَانَ لا أَصْلٌ هُنَاكَ وَلا فَصْلُ
وَآخَرَ مَنْسُوبًا إِلَى الرَّأْيِ خَامِلاً ... وَأَنْوكَ مَجْهُولاً ، لَهُ الجَاهُ وَالنُّبْـلُ
فَلا ذَا بِفَضْلِ الرَّأْيِ أَدْرَكَ بُلْغَةً ... وَلَمْ أَرَ هَذَا ضَرَّهُ النُّوكُ وَالجَهْلُ [(٤)]

وأنشدنى [منصور بن محمد] [(٥)] الكريزىّ ، ليحيى بن أكْثَم [الطويل] :

---

(١) فى الأصل : عباد .   (٢) فى الأصل : يجد .   (٣) فى الأصل : ولكن .

(٤) هذه الأبيات فى الحث على الاغتناء لنيل الفضل وصون العرض فيقول :

كل من كان ذا مال فإنه مدرك به السيادة ، والوجاهة بين الناس وإن كان لا أصول له ولا فروع . .

ويقابل هذا اللبيبَّ الفطن الذى اغتنى بعلمه وفضله ولكنه افتقر بين الناس وخمل ذكره ونسى فضله خلافًا للأنوك الضلول قد علاه الجاه والفضل لماله .

فعجبًا من هذه الحال ثم عجبًا فلا من أدرك العلم والفضل أدرك المكانة ولا ضرَّ الفتى الملحَ أنه أنوك جهول ضلول . . . !!

(٥) سقط فى الأصل .

إذَا قَــــلَّ مَالُ المَرْءِ قَلَّ بَهَــــاؤُهُ وَضَـــــاقَتْ عَلَيْهِ أَرْضُهُ وَسَــــمَاؤُهُ

وأَصْبَـحَ لا يَدْرِى ، وَإِنْ كَانَ حَازِمًا أَقُدَّامُــــهُ خَيْــــرٌ لَهُ أَمْ (١) وَرَاؤُهُ؟

ولَمْ (٢) يَمْضِ فِى وَجْهٍ مِنَ الأَرْضِ وَاسِعٍ مِــنَ النَّاسِ إِلا ضَاقَ عَنْهُ فَضَــاؤُهُ

وأَصْبَــــــحَ مَرْدُودًا عَلَيْهِ مَقَــالُهُ وَكَانَ بِهِ قَدْ يَقْتَــدِى خُطَبَــــــاؤُهُ

وَإِنْ يَبْقَ لَمْ يَضْــــــرُرْ عَدُوا بَقَاؤُهُ وَإِنْ يَفْنَ لَمْ يُفْقَــــدْ لِخَيْرٍ فَنَاؤُهُ (٣)

حدثنى محمد بن المهاجر ثنا أبو أحمد بن حماد البربرى عن سليمان بن أبى شيخ ثنا الزبيرى ، قال : مر عمر بن الخطاب بمحمد بن مسلمة وهو يغرِسُ وديا .

فقال : ما تصنع يابن مَسلمة ؟ قال : ما تَرَى ، أستغنى عن الناس ، كما قال صاحبكم أُحيحَة بن الجُلاح [البسيط] :

استَغْنِ أَوْ مُتْ ،فَلا يَغْرُرْكَ ذُو نَسَبٍ مِــنِ ابْنِ عَمٍّ ، وَلا عَمٍّ ، وَلا خَـالِ

إِنِّى أَظَــلُّ عَلَى الزَّوْرَاءِ أَعْمُـــــرُهَا إِنَّ الحَبِيبَ إِلَى الإِخْوَانِ ، ذُو المَالِ (٤)

أنبأنا محمد بن المنذر ، حدثنا على بن عبد الرحمن ، عن عَبْدان ، قال : دخلت على عبد الله بن المبارك وهو يبكى ، فقلت له : مَالَكَ يا أبا عبد الرحمن ؟ قال : بضاعة لى ذهبتْ ، قال : قلت : أَوَ تبكى على المال ؟ قال : إنما هو قِوام دينى .

قال أبو حاتم - رضى الله عنه : إن من أسعد الناس من كان فى غناه عفيفًا ، وفى

---

(١) في الأصل : أو (٢) فى الأصل : ولا .

(٣) إنما المرء بماله وضيعه ، فمن لا مال له فلا مكانة له ، ولا عزة وصلابة له ، وإنما تضيق به الأجواء ويحيق به الشقاء .

وغدا فى ملالة ولجاجة حائرًا ولهًا ، غير دارٍ لمسالك الخير أهى إلى الأمام إلى الوراء .

ولعدم المال فإنه يسعى بين الناس حرجًا تضيق عنه مذاهبهم ، و تحر نجم عنه سعات الأرض .

وكذلك يرد الناس مقاله ، ويزدرون بحاله ، وقد كان قبلُ مسموعًا مرموقًا سبوقًا بكل قدوة واحتذاء فضلٍ منهم .

بل إنه لعدمه وهوانه على الناس لتستخف به الأعداء فلا تعتبر عداوته ، ولا تأبه لمضرته ، وإن ذهب بددًا لم يعدم الخير بذهابه إذ لا خير يطرق بابه .

(٤) ينبغى على العاقل أن يلاحظ سبل الغنى ويغترف منها ويعلّ ، وألا يتكل على صاحب مالٍ من عم أو ابن عم أو خال . . . فإما الاستغناء وإلا الذهاب والفناء .

ومن جمع المال وراد سبله ظل محبوبًا قريبًا من الخلان والإخوان ويأمن من غوائل الحدثان .

مسكنته قَنِعًا ، لأن من نزل به الفقر لم يجد بُدًّا من ترك الحياء ، والفقرُ يَسْلُبُ العقل والمروءة ، ويُذْهب العلم والأدب ، وكاد الفقر أن يكون كُفْرًا ، ومن عُرِف بالفقر صار مَعْدنًا للتُّهمة ، ومجمعًا للبلايا ، اللهم إلا أن يُرْزَق المرء قلبًا نقيًا قنعًا ، يرَى الثواب المدَّخَر من الضجر الشديد ، فحينئذ لا يبالى بالعالَم بأَسْرِهم ، والدنيا وما فيها ، والفقر داعية إلى المهَانة ، كما أن الغنى داعية إلى المهابة ، ولقد أحسن الذى يقول : [الطويل]

يُغَطِّى عُيُوبَ المَرْءِ كَثْرَةُ مَالِهِ ... وَصُدِّقَ فِيمَا قَالَ ، وَهُوَ كَذُوبُ
وَيُزْرِى بِعَقْلِ المَرْءِ قِلَّةُ مَالِهِ ... يُحَمِّقُهُ الأَقْوَامُ وَهْوَ لَبِيبُ (١)

أنبأنا بكر بن أحمد بن سعيد الطاحىّ ، حدثنا النمر بن قادم ، حدثنا حماد بن زيد ، عن أيوب ، قال : قال لى أبو قِلابة : يا أيوب ، الزم سُوقَك ؛ فإنك لا تزال كريمًا على إخوانك ما لم تحتج إليهم .

وأنشدنى العقبىّ قال : أنشدنى محمد بن خلف التيمىّ بالكوفة [الطويل] :

كَأَنَّ (٢) مُقِلًا حِينَ يَغْدُو (٣) لِحَاجَةٍ ... إِلَى كُلِّ مَنْ يَلْقَى مِنَ النَّاسِ مُذْنِبُ
وكَانَ بَنُو (٤) عَمِّى يَقُولُونَ: مَرْحَبًا ... فَلَمَّا رَأَوْنِى مُعْدِمًا مَاتَ « مَرْحَبُ » (٥)

وأنشدنى الكُريزىّ [الطويل] :

لَعَمْرُكَ ، إِنَّ المَالَ قَدْ يَجْعَلُ الفَتَى ... نَسِيبًا ، وَإِنَّ الفَقْرَ بِالمَرْءِ قَدْ يُزْرِى
وَلا رَفَعَ النَّفْسَ الدَّنِيئَةَ كَالغِنَى ... وَلا وَضَعَ النَّفْسَ الكَرِيمَةَ كَالْفَقْرِ (٦)

---

(١) إن مما يستر المعايب ، ويعمى عن القبائح ، ويدعو إلى صدق المقال - وإن كان كاذبًا - وحسن الحال ولو كان معوجًا - كثرة المال ووفرته .

وبما يدعو إلى المساءَة والتهمة والازدراء والانزواء الفقر وقلة المال .

(٢) فى الأصل : وإن . (٣) فى الأصل : يبدو . (٤) فى الأصل : بنى .

(٥) إن قليل المال غير ذى بال من كل أحد ، فإن سعى لم يظفر بسعايته ، وإن تصمت شك فى طويته ، وإن سلم من الإثم رمى بكل نقيصة وذنب وما ذلك إلا لأنه معدوم ذو فاقة .

وإن الأقارب والأصاحب ليرحبون ويجلون من كان ذا مال وإن عدم المال انقلب الحال وانتهى المرحبة والدمعزة والإفضال . . .

(٦) لعمرى إن المال ليكسو صاحبه أثوبة العزة والرفعة ويجعله بذوخًا شموخًا نسيبًا حسيبًا ، بينما الفقر يلبسه أثوبة الذلة والمهانة ويغمره بالخزى والندامة .

وكذلك الغنى يرفع دنى الحال ذا الضلال والوبال خير رفعة . . وأما الفقر فإنه يوضع العلى ويسفه الذكىّ .

حدثنا محمد بن يحيى العَمِّى ببغداد ، حدثنا الصَّلت بن مسعود ، حدثنا حماد بن زيد، حدثنا أيوب ، قال : قال لى أبو قِلابة : الزم السُّوق ؛ فإن الغنَى من العافية .

قال أبو حاتم - رضى الله عنه : ليس خَلَّة هى للغنَىِّ مدح ، إلا وهى للفقير عيب ؛ فإن كان الفقير حليمًا قيل : بليد ، وإن كان عاقلاً قيل : مكَّار [1] ، وإن كان بليغًا قيل: مِهْذار ، وإن كان ذكيًا قيل : حَديد ، وإن كان صموتًا قيل : عَيِى ، وإن كان متأنيًا قيل : جبَان [2] ، وإن كان حازمًا قيل : جرىء ، وإن كان جوادًا قيل : مُسْرِف، وإن كان مُقَدِّرًا قيل : ممسك .

وشر المال ما اكتُسب من حيث لا يَحِلّ ، وأنفق فيما لا يجْمُل ، ووجوده وعدمُه ليس بتجلُّد ، ولا بكثرة حِيَل ، ولكنه أقسام ومواهب من الخلاق العليم ، ولقد أنشدنى الأبرش [البسيط] :

يَشْـقَى رِجَالٌ ، وَيَشْقَى آخَرُونَ بِهِمْ ... وَيُسْـعِدُ اللهُ أَقْوَامًا بِأَقْـوَامِ
وَلَيْسَ رِزْقُ الفَتَى مِنْ حُسْنِ حِيلَتِه ... لَكِـنْ جُدُودٌ بِأَرْزَاقٍ وَأَقْسَـامِ
كَالصَّيْدِ يُحْرَمُهُ الرَّامِى المُجِيدُ ، وَقَدْ ... يَرْمِى فَيُرْزَقُهُ مَنْ لَيْسَ بِالرَّامِى [3][4]

حدثنى محمد بن سعيد القزاز ، حدثنا أحمد بن موسى العطار ، حدثنا أحمد بن نصر العدَنىّ ، حدثنا الْمَنْدنىّ ، قال : قال أبو قيس بن مَعدى كَرِب ، وكان له أحدَ عشَرَ ذكرًا : يا بنَىّ ، اطلبوا هذا المالَ أجمل الطلب ، واصرفوه فى أحسن مَذْهَب ، صلوا به الأرحام ، واصطنعوا به الأقوام ، واجعلوه جُنَّةً لأعراضكُمْ ، تَحْسُنْ فى الناس قَالَتُكم ، فإنَّ جمعَه كمالُ الأدب ، وبذله كمالُ المروءة ، حتى إنه لَيُسَوِّدُ غير السيِّد ، ويقوِّى غير الأيِّد ، وحتى إنه ليكونُ فى أنفُس الناس نبيهًا ، وفى أعينهم مَهيبًا . ومن جمع مالاً فلم يَصُن عِرضًا [5] ، ولم يُعْط سائلاً ، بحث الناسُ عن أصله ؛ فإن كان

---

(١) فى الأصل : مكارًا . (٢) فى الأصل : جبانًا . (٣) فى الأصل : بالرامى .

(٤) هكذا سنن الله فى عباده تنفذ قضاءَه ومراده ، وقضى الله أن يسعد أقوامًا بغيرهم فيساوونهم فى الفضل والعطاء والبذل وكذلك قضى أن تشقى زمرٌ بزمرٍ ، فيغترفون من نحوسهم ويلبسون من ثياب بؤسهم .

وتلك مقادير الله وأقضيته يصرفها فى الخلق بالحرمان والرزق فلا جالب لها بالحيلة ، ولا دافع لها بالمعجزة والمكسلة .

ومثال ذلك كالصيود قد يحرمها الرامى الحاذق ويدركها الأذعن الأرعن النازق إذْ كل شىء بقضاء وقدر ، وتجرى المقادير على غرز الإبر .

(٥) فى الأصل : عرضه .

مدخولاً هتكوه ، وإن كان صحيحًا نسبوه : إمّا إلى [عِرْضٍ] (١) دَنية ، وإما إلى لَوْصٍ لئيم ، حتى يُهَجِّنوه (٢) .

حدثنا مَطَهَّر بن يحيى بن ثابت بواسط ، حدثنا سنان (٣) القطّان ، حدثنا أبو معاوية ، عن الأعمش ، عن إبراهيم ، عن عَلْقمة ، قال : سمع رجل صوتًا فى غَمام : اذهبى إلى أرض فلان ، فاسقه . قال : فقال الرجل : لآتِيَنَّ فلانًا هذا ، فلأَنْظُرَنَّ ما يعمل فى أرضه ، فأتاه وقد مطر فيها ، وهو قائم يفتح الأواعى (٤) ، فسلم عليه ، وقال : يا عبدَ الله ، أخبرنى : ما تعمل فى أرضك هذه ؟ قال : أنظر إلى ما أخرج الله منها ، فأردّ فيها ثلثه (٥) ، وأتصدق بثلثه ، وآكل أنا وعيالى ثلثه . قال علقمة : فكان ابن مسعود يبْعثنى إلى أرض له بزازان ، أفعل فيها مثل ذلك .

قال أبو حاتم – رضى الله عنه : إن شرَّ المال مالٌ لا يُخرَج منه حقوقُه ، وإن شَرا منه ما أُخذ من غير حِلِّه ، ومُنِعَ من حَقِّه ، وأُنفق فى غير حلِّه ، واستثمار المال قِوام المعاش، ولا بد للمرء من إصلاح مالِه ؛ وما ارتفع أحد قطُّ عن (٦) إصلاح ماله : صالحًا كان أو طالحًا .

ولا يجب للعاقل أن يعتمد على مُجاورة نِعَم الله عنده ، فلا يقضِى منها حقوقَها ؛ لأن من أساءَ مجاورة نِعَم الله ، أساءت مجاورته ، وتحولت عنه (٧) إلى غيره .

ولقد أنشدنى ابن زنجىّ البغدادىّ [الطويل] :

فَـإنْ كُنْتَ فِى خَيْـــرٍ ، فَلا تَغْتَرِرْ بِهِ ... ولَكِـــنْ قُلِ اللَّهُمَّ سَلِّمْ وَتَمِّـــمِ
فَمَنْ لَمْ (٨) يَصُنْ عِرضًا (٩) إذَا مَا استَفَادَهُ ... وَيَشْكُرْ لأَهْلِ الخَيْرِ يُسْلَبْ وَيُذْمَمِ (١٠)

---

(١) سقط فى الأصل .
(٢) الدنية : الدنيئة ، وهى الساقطة التى لا عرض لها . واللوص مصدر لاصه بعينه إذا طالعه من خلل باب أو ستر فلمحه – كأنه يريد أن الناس إذا لم ينالوا من خير المرء ، طعنوا فى نسبه فإن كان نسبه صحيحًا لا ريبة فيه ، طعنوا فى عرض أمه ونسبوها إلى الغبث مع اللؤماء .
(٣) فى الأصل : أحمد بن سنان .
(٤) الأواعى : جمع أوعية ، وهى جمع وعاء ، وهو الظرف يوعى فيه الشيء ، أى يحفظ ولعل المراد بالأواعى : حياض الماء التى تروى الأرض ، أو الجوالقات ونحوها تجمع فيها ثمار الأرض .
(٥) أى أنفق على الأرض ثلث ريعها . (٦) فى الأصل : من . (٧) فى الأصل : منه .
(٨) فى الأصل : لا . (٩) فى الأصل : خيرًا .
(١٠) ينبغى على العاقل أن يحمد ربه ويلازم نعمه بالمراعاة والشكر فمن تظاهرت عليه النعم فليبادرها ليكاثرها بالشكر ولا يغترر بها إذ فى حمدها التمامة والسلامة . =

حدثنا عمرو بن محمد ، حدثنا الغلابىّ ، أنشدنى مَهدىّ بن سابق : [الوافر]

وَرُبَّ مُمَـــــــلَّكٍ مَالاً كَثِيراً ولَكِـــــنْ حَظُّهُ مِنْهُ قَلِيـــــلُ

[يَعِيـــــشُ بِفَضْلِهِ هَذَا وَهَذَا وَقَدْ سَالَتْ بِهِ فِيهِ سُيُولُ] (١)

لَهُ مِنْهُ الَّذِى يَحْيَـــا عَلَيْـــهِ بِعِيشَـتِهِ ، وَسَائِرُهُ فُضُولُ (٢)

حدثنا أحمد بن الحسين الحَرّازىّ (٣) بالموصل ، حدثنا أحمد بن سِنانٍ القَطّان ، حدثنا كثير بن هشام ، عن عيسى بن إبراهيم ، عن معاوية بن عبد الله عن كعب ، قال : أولُ من ضربَ الدينار والدرهم آدم - عليه السلام - وقال : لا تصلُح (٤) المعيشة إلا بهما.

قال أبو حاتم - رضى الله عنه : قد ذكرتُ ما شاكل كل هذه الحكايات فى كتاب «السخاء والبذل » ، فأغنى ذلك عن تكْرارها فى هذا الكتاب .

* * *

= ومن بادرها بكفران وجحدان فذلك قعيد حرمان وصنو خذلان وعما قريب سيسلبها ويحرمها ويندم ويخذل وصدق الله إذ يقول ﴿ لَئِنْ شَكَرْتُمْ لأَزِيدَنَّكُمْ ﴾ .

(١) فى الأصل : سقط فى الأصل .

(٢) رب من ظفر بالمال الكثير والخير الوفير ، وهو محروم معدوم النفع من هذا وذلك لشحه وشدادة يده .

فعيش الناس بفضل ماله ونفحاته ونفقاته ، ويصبون منه عظيم الحظوظ ، وسيول النعيم .

وهكذا يحترق فى جمع المال ويستنير غيره به ، وليس للمرء من ماله إلا ما أنفق وأبلى وأخلق وسواه لغيره . وعلى ربه تبعته وتلك بأحسن المنازل .

(٣) فى الأصل : الحرادى . (٤) فى الأصل : يصلح .

ذِكْرُ الحَثِّ عَلَى إِقَامَةِ المُرُوءَاتِ

حدثنا إسحاق بن إبراهيم بن إسماعيل القاضى ، وعبد الله بن محمود بن سليمان السَّعْدىّ قالا : حدثنا عبد الوارث بن عبيد[(1)] الله العَتَكىّ ، حدثنا مسلم بن خالد الزنجىّ؛ عن العلاء بن عبد الرحمن ، عن أبيه ، عن أبى هريرة ، قال : قال النبىّ ﷺ : « كَرَمُ الرَّجُلِ دِينُهُ ، وَمُرُوءَتُهُ عَقْلُهُ ، وَحَسَبُهُ خُلُقُهُ »[(2)] .

---

(1) فى الأصل : عبد .

(2) أخرجه أحمد (٢/ ٣٦٥) ، وابن حبان (١٩٢٨ - موارد) والدارقطنى (٣/ ٣٠٣) ، كتاب « النكاح » ، باب : المهر ، حديث (٢١٤) ، وابن عدى فى « الكامل » (٦/ ٢٣١٣) ، والحاكم (١/ ١٢٣) ، والبيهقى (٧/ ١٣٦) ، كتاب « النكاح » ، باب : اعتبار اليسار فى الكفاءة ، وابن أبى الدنيا رقم (١) ، والخرائطى (ص٤) ، والطبرانى رقم (٢٨) ثلاثتهم فى « مكارم الأخلاق » .

وابن الجوزى فى « العلل المتناهية » (٢/ ٦١٠ - ٦١١) رقم (١٠٠٣) ، والقضاعى فى « مسند الشهاب » (٢/ ١٤٣) رقم (١٩٠) .

كلهم من طريق مسلم بن خالد الزنجى عن العلاء بن عبد الرحمن عن أبيه ، عن أبى هريرة مرفوعًا .

وقال الحاكم : صحيح على شرط مسلم .

ورده الذهبى فقال : قلت : بل مسلم ضعيف وما خرج له .

وقال ابن الجوزى : قال على بن المدينى : مسلم بن خالد ليس بشىء .

وقال الرازى : لا يحتج به . أ هـ .

لكن صححه ابن حبان ، وأورده السيوطى فى « الجامع الصغير » (٤/ ٥٥٠ - فيض) رقم (٦٢٢٩) ، ورمز له بالصحة وتعقبه المناوى بكلام الحافظ الذهبى .

وللحديث شاهد أو طريق آخر عن أبى هريرة .

أخرجه الحاكم (١/ ١٢٣ - ١٢٤) من طريق الفضل بن موسى عن عبد الله بن سعيد المقبرى ، عن أبيه ، عن أبى هريرة مرفوعًا .

وسكت عنه الحاكم وتعقبه الذهبى ، فقال : عبد الله وَاهٍ .

وعبد الله بن سعيد بن أبى سعيد المقبرى ، قال الحافظ فى « التقريب » (١/ ٤١٩) : متروك .

وأخرجه مالك (٢/ ٤٦٣) كتاب « الجهاد » ، باب : ما تكون فيه الشهادة ، حديث (٣٥) ، والبيهقى (١٠/ ١٩٥) ، كتاب « الشهادات » ، باب : بيان مكارم الأخلاق ومعاليها ، عن عمر بن الخطاب موقوفًا ، ولفظه : كرم المؤمن تقواه ودينه حسبه ومروءته عقله .

وقال البيهقى : هذا الموقوف إسناده صحيح . =

قال أبو حاتم - رضى الله عنه : صَرَّح النبىّ ﷺ فى هذا الخبر ، بأن المروءة هى العقل، والعقل اسم يقع على العلم بسلوك الصواب ، واجتناب الخطأ .

فالواجب على العاقل أن يلزم إقامة المروءة بما قَدَر عليه من الخصال المحمودة ، وترك الخِلال المذمومة .

وقد نبغت نابغة اتكلوا على آبائهم ، واتكلوا عَلَى أجدادهم ، فى الذِّكْر والمروءات ، وتَعرَّوا عن القيام بِإقامتها بأنفسهم .

= وقال السخاوى فى « المقاصد الحسنة » (ص٣١٥) .

حديث : كرم المرء دينه ومروءته عقله وحسبه خلقه ، أبو يعلى والعسكرى ، والقضاعى من حديث مسلم بن خالد الزنجى عن العلاء بن عبد الرحمن ، عن أبيه ، عن أبى هريرة به مرفوعًا ، وأورده شيخنا فى زوائد تلخيصه لمسند الفردوس بلفظ : حسب المرء دينه ومروءته خلقه ، ولم يذكر صحابيه ولا عزاه ، وهو فى « الموطأ » عن عمر من قوله ، وكذا هو عند العسكرى من حديث حسان بن فائد عن عمر أنه قال : الكرم التقوى والحسب المال ، لست بخير من فارسى ولا نبطى إلا بتقوى ، وعنده أيضًا من حديث محمد بن سلام قال : بينما عمر بن الخطاب يمشى ورجل يخطر بين يديه ويقول : أنا ابن بطحاء مكة كديهًا فكداها ، فقال عمر : إن يكن لك دين فلك كرم وإن يكن لك عقل فلك مروءة وإن يكن لك مال فلك شرف ، وإلا فأنت والحمار سواء ، وقد ذكر الخرائطى فى أول باب من مكارمه .. أثر عمر .

قال المناوى فى « فيض القدير » (٤/ ٥٥٠) .

(كرم المرء دينه) أى به يشرف ويكرم ظاهرًا وباطنًا قولاً وفعلاً وفى رواية للعسكرى كرم الرجل تقواه والكرم كثرة الخير والمنفعة لا ما فى العرف من الاتفاق والبذل شرفًا وفخرًا (ومروءته عقله) لأن به يتميز عن الحيوان وبه يعقل نفسه عن كل خلق دنىء ويكفها عن شهواتها الرديئة وطباعها الدنيئة ويؤدى إلى كل ذى حق حقه من حق الحق والخلق فليس المراد بالمروءة ما فى عرفكم من جمال الحال والاتساع في المال بذلاً وإظهارًا فليس كل عاقل يكون له مال يتوسع فيه بذلاً وعطاء بل قال الحكماء المروءة نوعان أحدهما البذل والعطاء والآخر كف الهمة عن الأسباب الدنيئة وهو أتم وأعلا (وحسبه خلقه) بالضم أى ليس شرفه بشرف آبائه بل بشرف أخلاقه وليس كرمه بكثرة ماله بل بمحاسن أخلاقه .

وقال الأزهرى : أراد أن الحسب يحصل للرجل بكرم أخلاقه وإن لم يكن له نسب ، وإذا كان حسيب الآباء فهو أكرم له قال العلائى وحاصل المروءة راجعة إلى مكارم الأخلاق لكنها إذا كانت غريزة تسمى مروءة وقيل المروءة إنصاف من دونك والسمو إلى من فوقك والجزاء مما أوتى إليك من خير أو شر .

(تنبيه) قد أخذ أبو العتاهية معنى هذا الحديث فنظمه فقال :

كرم الفتى التقوى وقوته ... محض اليقين ودينه حسبه
والأرض طينته وكل نبىٍّ ... حَــوَّافيها واحد نسبه

ولقد أنشدنى منصور بن محمد فى ذَمِّ مَنْ هذا نعته [الكامل] :

إنَّ المُروءَةَ لَيْسَ يُدْرِكُهَا امْرُؤٌ ... وَرِثَ المُرُوءَةَ عَنْ أَبٍ ، فَأَضَاعَهَا

أَمَرَتْهُ نَفْسٌ بِالدَّنَاءَةِ وَالخَنَا ... وَنَهَتْهُ عَنْ طَلَبِ العُلا فَأَطَاعَهَا

فَإذَا أَصَابَ مِنَ الأُمُورِ عَظِيمَةً ... يَبْنِى الكَرِيمُ بِهَا المُرُوءَةَ بَاعَهَا (١)

وأنشدنى محمد بن إسحاق [الطويل] :

خَسَاسَةُ أَخْلاقِ الرِّجَالِ تَشِينُهُمْ ... وَقَلَّ غَنَاءً ، عَنْهُمُ النَّسَبُ المَحْضُ

يَصُولُونَ بِالآبَاءِ فِي كُلِّ مَشْهَدٍ ... وَقَدْ غَيَّبَتْ آبَاءَهُمْ عَنْهُمُ الأَرْضُ

طَوِيلٌ تَبَدِّيهِمْ بِمَجْدِ أَبِيهِمُ ... وَمَا لَهُمُ فِي المَجْدِ طُولٌ وَلا عَرْضُ (٢)

وأنشدنى الحسين بن أحمد (٣) البغدادى [الكامل] :

لَيْسَ الكَرِيمُ بِمَنْ يُدَنِّسُ عِرْضَهُ (٤) ... وَيَرَى مُرُوءَتَهُ تَكُونُ بِمَنْ مَضَى

حَتَّى يُشِيدَ بِنَاءَهُ بِبِنَائِهِ ... وَيَزِينَ صَالِحَ مَا أَتَوْهُ بِمَا أَتَى (٥)

---

(١) إن المروءة فى صنيع المرء نفسه لا فى حسبه ونسبه إذْ العقول من لم يك عالة فى عنق جدّ رميم العظم أو عبثًا فإن أتبعهم في مروءتهم وانتضى أخلاقهم حقّ له الفخر بهم .

أما من نابذ فضل آباه ، وضيع مروءتهم ، وقد أزّته نفسه على ضياعها أزّ ونبذ الكرامة والعزّ ، فذلك دنىء النفس ذليلها خنوع خضوع .

فمثل هذا فى صبب ووصب يعجز عن الجليل ، ويشرئب على غير النيل ، ويبيع الكرامة بالندامة والعوالى بالدنايا .

(٢) من كان خسيس الطبع نذل الأخلاق فإنه مشين ممتهن وإن التمس الفضل فى النسب فأبعد بذلك فضلاً وهيهات هيهات لما ادعى .

وتواهم لوفور نقصهم وبيان عارهم يلتمسون الفخر فى الآباء فى كل حين وأن وقد رموا وبلوا وغيبوا فى الأرض بددا .

وهكذا يتطاولون فى غير مجدهم ويرفلون فى وشى غيرهم ويتمدحون بأخلاق غيرهم ، فتشبعوا بما لم يعطوا وتبجحوا بما زوروا . . .

(٣) فى الأصل : محمد .   (٤) فى الأصل : تُدَنِّس عرضه .

(٥) إنما الكريم من لم يفخر بأصله ، ونسبه ، ويبتغى المروءَة فى سعى غيره مع تدنيسه لنفسه وسفاهة حلمه ودغل علمه .

إنما الكريم الحق من ابتنى مجده بفعاله ونحا نحو آبائه ، وبنى مجدًا كمجدهم واحتذى أمثالهم ، وتقفى خطاهم بفعاله ومقاله وحسن حاله .

قال أبو حاتم – رضى الله عنه : ما رأيت أحدًا أخسر صَفقة ، ولا أظهر حَسْرةً ، ولا أخيب قصدًا ، ولا أقلَّ رُشْدًا ، ولا أحمق شعارًا ، ولا أدنس دِثارًا [١] ، من المفتخر بالآباء الكرام ، وأخلاقهم الجِسام ، مع تَعَرِّيه عن سلوك أمثالهم ، وقصد أشباههم ، متوهمًا أنهم ارتفعوا بمن [٢] قبلهم ، وسادوا بمن تقدمهم ، وهيهات ! أنَّى يسود المرءُ على الحقيقة إلا بنفسه ؟ وأنَّى يَنْبُل فى الدارين إلا بكده ؟

ولقد أنشدنى [٣] البسَّامىّ [الطويل] :

وكَمْ قَائلٍ إنِّى ابنُ بَيْتٍ ، هُوَ ابْنُهُ ... وَقَدْ هُدِمَ البَيْتُ [٤] الَّذِى مَاتَ عَامِرُهْ
فَأَوْدَى عَمُودَاهُ ، وَرَثَّتْ حِبَالُهُ ... وَأُصْلِحَ أُولاهُ ، وَأُفْسِدَ آخِرُهْ [٥]

وأنشدنى الأبرش [الطويل] :

فَإِنْ قُلْتَ : لِى آبَاءُ صِدْقٍ ومَنْصِبٌ ... كَرِيمٌ وَإِخْوَانٌ مَضَتْ وَجُدُودُ
صَدَقْتَ ، ولَكِنْ أَنْتَ هَدَّمْتَ مَا بَنَوْا ... بِكَفِّكَ عَمْدًا ، وَالبِنَاءُ جَدِيدُ [٦]

وأنشدنى محمد بن عبد الله البغدادى [٧] [الكامل] :

إنْ لَمْ تَكُنْ بِفِعَالِ نَفْسِكَ سَامِيًا ... لَمْ يُغْنِ عَنْكَ سُمُوُّ مَنْ تَسْمُو بِهِ
لَيسَ القَدِيمُ عَلَى الحَدِيثِ بِرَاجِعٍ ... إنْ لَمْ تَجِدْهُ آخِذًا بِنَصِيبِهِ
ولَرُبَّمَا اقْتَرَبَ البَعِيدُ بِوُدِّهِ ... وَغَدَا القَرِيبُ مُبَاعِدًا لِقَرِيبِهِ [٨]

---

(١) الشعار : ما يكون على جسم الإنسان مباشرة من الملابس والدثار : ما يكون فوق الشعار .

(٢) فى الأصل : من . (٣) فى الأصل : أنشدنى على بن محمد .

(٤) فى الأصل : هَدَمَ البيت .

(٥) رب مفتخر بأصوله ، هائمًا بفضلهم ، مذيعًا لخبرهم ، وقد هدم مجدهم وأقض بنيانهم .
وقد مات عماد الفضل من أصوله ، ونقض هو غزلهم ، وأرثَّ حبال فضلهم ، فباءوا بالنعمى وظفروا بالحسنى وانصرم عنهم بالسُّوءى ، والخذلان والخسران فبينما صلحت الأصول أعقبهم بإفساد وذبول .

(٦) من كان فخورًا بأصوله ، مذيعًا لفضلهم وصدقهم وجميل خبرهم ، وعز مناصبهم وكرم فعالهم وأصالة جرثومتهم . .
فإنه صادق فى مقاله ولكنه كذوب فى حاله ومقاله ، إذ هدم ما بَنَوْا وأضاع ما اقْتَنَوْا ، وأذبل يانع فضلهم ولم يزل جديدًا مديدًا .

(٧) فى الأصل : بن زنجى .

(٨) ينبغى على المرء أن يسموا بفعاله ونفسه إذ لا غنية ولا فضل لمن يسمو بغيره . =

أنبأنا الحسين بن محمد بن مُصْعَب السِّنجىّ ، حدثنا أبو داود السِّنجىّ ، حدثنا عبد الرزاق ، عن معمر ، عن الحسن ، قال : لا دِينَ إلا بمُروءة .

قال أبو حاتم - رضى الله عنه : اختلف الناس فى كيفية المروءة [1] :

فمن قائل قال : المروءة ثلاث : إكرام الرجل إخوانَ أبيه ، وإصلاحُه مالَه ، وقعودُه على باب داره .

ومن قائل قال : المروءة إتيانُ الحقّ ، وتعاهد الضيف .

ومن قائل قال : المروءة تقوَى الله ، وإصلاح الضيعة ، والغَدَاء والعَشاء فى الأفنية .

ومن قائل قال : المروءة إنصاف الرجل مَنْ هو دونَه ، والسموّ إلى من هو فوقه ، والجزاءُ بما أُتِىَ [2] إليه .

ومن قائل قال : مروءة الرجل صدق لسانِه ، واحتمالُه عثَراتِ جيرانِهِ ، وبَذلُه المعروف لأهل زمانِه ، وكَفُّه الأذى عن أباعده وجيرانه .

ومن قائل قال : إن المروءة التباعد [3] من الخُلُق الدَّنِىِّ فقط .

ومن قائل قال : المروءة أن يعتزِل الرجل الرِّيبة ؛ فإِنه إذا كان مُرِيبًا كان ذليلاً ، وأن يُصلِح ماله ، فإِن من أفسد ماله ، لم يكن له مروءة ، والإِبقاء على نفسه فى مَطْعمه ومشْرَبِه .

ومن قائل قال : المروءة حسنُ العِشرة ، وحفظ الفَرْج واللسان ، وترك المرء ما يُعاب منه .

ومن قائل قال : المروءة سَخَاوة النفس ، وحسن الخلق .

ومن قائل قال : المروءة العِفة والحِرْفة ، أى [4] يَعِفُّ عما حرم الله ، ويَحترِفُ فيما أحل الله .

ومن قائل قال : المروءة كثرة المال والولَد .

ومن قائل قال : المروءة : إذا أُعطيتَ شكرتَ ، وإذا ابتليت صبرتَ ، وإذا قَدَرْتَ غَفَرت ، وإذا وعَدْت أنجزت .

= فإن القديم ليس بمغنٍ عن الحديث شيئًا ومن لم يسع فى الرقى بنفسه لم تغنه سعاية غيره . . وإنما القرب بالفعال ولو كان ذو الفعل بعيدًا والبعد بعدم الفعل .

(١) فى الأصل : فى المروءة ما هى .
(٢) فى الأصل : أوتى .
(٣) فى الأصل : بالتباعد .
(٤) فى الأصل : أن .

ومن قائل قال : المروءة حسن الحيلة فى المطالبة ، ودقة الطرق فى المكاتبة .

ومن قائل قال : المروءة اللطافة فى الأمور ، وجودة الفطنة .

ومن قائل قال : المروءة مجانبة الريبة ، فإنه لا ينبُل مُرِيب ، وإصلاح المال ، فإنه لا يَنبُل فقير ، وقيامه بحوائج أهل بيته ، فإنه لا ينبُل من احتاج أهل بيته إلى غيره .

ومن قائل قال : المروءة النظافة ، وطيب الرائحة .

ومن قائل قال : المروءة الفصاحة والسماحة .

ومن قائل قال : المروءة طلبُ السلامة ، واستعطاف الناس .

ومن قائل قال : المروءة مراعاة العهود ، والوفاء بالعقود .

ومن قائل قال : المروءة التذلُّل للأحباب بالتملق ، ومداراة الأعداء بالرفق .

ومن قائل قال : المروءة ملاحة الحركة ، ورقة الطبع .

ومن قائل قال : المروءة هى المفاكهة ، والمباسمة [١] .

حدثنا الحسن بن سفيان ، حدثنا سويد بن سعيد ، حدثنا مسلم بن عبيد أبو فِرَاس[٢] ، قال : قال رَبِيعة : المروءة مروءتان : فللسفر مروءة ، وللحضر مروءة .

فأما مروءة السفر فبذل الزاد ، وقلة الخلاف على الأصحاب ، وكثرة المِزاح فى غير مَسَاخَط الله .

وأما مروءة الحضر فالإدمان إلى المساجد ، وكثرة الإخوان فى الله ، وقراءة القرآن .

قال أبو حاتم - رضى الله عنه : اختلفت [٣] ألفاظهم فى كيفية المروءة ، ومعانى ما قالوا قريبة بعضها من بعض .

والمروءة عندى خصلتان : اجتناب ما يكره الله والمسلمون من الفِعَال ، واستعمال ما يحب الله والمسلمون من الخِصال .

وهاتان الخصلتان تأتيان على ما ذكرنا قبلُ من اختلافهم ، واستعمالهما هو العقل نفسه ، كما قال المصطفى - صلى الله عليه وسلم : « إن مروءة المرء عقلُه » .

ومن أحسن ما يستعين به المرء عَلَى إقامة مروءَته ، المالُ الصالح .

ولقد أنشدنى منصور بن محمد الكريزىّ [الكامل] :

---

(١) فى الأصل : والمناسمة .　(٢) فى الأصل : قراس .　(٣) فى الأصل : اختلفنا .

احْتَـــــلْ لِنَفْسِكَ أَيُّهَـا الْمُحْتَالُ فَمِـــنَ الْمُرُوءَةِ أَنْ يُرَى لَكَ مَالُ
كَمْ نَاطِقٍ وَسْطَ الرِّجَالِ ، وَإِنَّمَا عَنْهُـــمْ هُنَاكَ تَكَلَّمَ الأَمْوَالُ (١)

قال أبو حاتم - رضى الله عنه : الواجب على العاقل أن يقيم مُروءته بما قدر عليه ، ولا سبيل إلى إقامة مروءته إلا باليسار من المال ، فمن رُزِق ذلك ، فَضَنَّ بإنفاقه فى إقامة مروءته ، فهو الذى خَسِر الدنيا والآخرة ، ولا آمَنُ أن تفَجأه المنية ، فتسلُبَه عما ملك كَرِيهًا ، وتودِعَه قبره وحيدًا . ثم يرِث المال بعدُ من يأكله ولا يحمده ، وينفقه ولا يشكره، فأىُّ ندامة تشبه هذه ؟ وأى حَسْرة تزيد عليها؟

ولقد أنشدنى محمد بن عبد الله البغدادىّ [البسيط] :

يَا جَامِـعَ المَالِ فِى الدُّنْيَا لِوَارِثِه هَلْ أَنْتَ بِالْمَالِ قَبْلَ المَوْتِ مُنْتَفِعُ ؟
قَدِّمْ لِنَفْسِكَ قَبْلَ المَوْتِ فِى مَهَلٍ فَإِنَّ حَظَّكَ بَعْدَ المَوْتِ مُنْقَطِعُ(٢)

أنبأنا المفضل بن محمد الجَندىّ بمكة ، حدثنا إسحاق بن إبراهيم الطبرىّ ، حدثنا أزهر ، عن أبى عون ، عن ابن سيرين ، قال : ثلاث ليست من المروءة : الأكل فى الأسواق ، والادّهان عند العطّار ، والنظر فى مرآة الحَجَّام .

حدثنا محمد بن إسحاق الثقفى ، حدثنا سعيد بن يعقوب الطالقَانىّ ، حدثنا هُشَيْم ، عن المُغيرة ، عن الشَّعْبىّ ، قال : ليس من المروءة النظر فى مرآة الحجَّام.

حدثنا محمد بن يحيى بن الحسن العَمِّىّ ببغداد ، حدثنا الصلْتُ بن مسعود ، حدثنا حماد بن زيد ، حدثنا أيوب ، قال : سمعت أبا قِلابة يقول : ليس من المروءة أن يَرْبَح الرجلُ على صديقه .

وأنشدنى البسَّامىّ [الكامل] :

اعْلَمْ بِأَنَّكَ ، لا أَبَالَكَ ، فِى الَّذِى أَصْبَحْـــتَ تَجْمَعُهُ لِغَيْرِكَ خَـازِنُ

---

(١) ينبغى على العاقل أن يحتال ويجهد فى جمع المال لئلا يذل ويضرع ويبذل نفسه ودينه وعرضه إن حاقت به ضائقة ، وعلى ذلك فجمع المال هو عين المروءة .

وإذا كان الرجل متكلمًا متفوهًا لَسِنًا فإنما حقيقة نطقه بماله فهو يسمع من به صمم .

(٢) وينبغى لجامع المال أن يقتصد فى جمعه ويعلم أنه يجمع لغيره وَمَالَهُ من ماله إلا ما أنفقه فى الخير . .

فليقدم العاقل لنفسه بين يدَىْ ربه فإن بعد الموت لا نسب ولا خُلَّة ولا صدقة وإنما الأعمال قبل انقضاء الآجال .

إِنَّ المَنِيَّــــةَ لا تُؤَامِـــــرُ مَنْ أَتَتْ فِى نَفْسِهِ يَوْمًا ، وَلا تَسْتَأْذِنُ (١) (٢)

أنبأنا عمرو بن محمد ، حدَّثنا الغلابىّ (٣) ، حدثنا ابن عائشة ، عن أبيه ، قال : كان يقال : مجالسة أهل الديانة تجلو عن القلب (٤) صدأ الذنوب ، ومجالسة ذوى المروءات تدل على مكارم الأخلاق ، ومجالسة العلماء تُذْكى القلوب .

حدثنى محمد بن أبى على الخلادىّ ، حدثنا أبو أحمد بن حماد البربرىّ ، عن سليمان بن أبى شيخ ، حدثنا محمد بن الحكَمَ ، عن عَوانة ، قال : قال معاوية بن أبى سفيان : آفة المروءة إخوانُ السُّوء .

قال أبو حاتم رضى الله عنه : والواجب على العاقل تفقُّد الأسباب المستحقَرة عند العوامّ من نفسه ، حتى لا يَثْلم مروءتَه ؛ فإن المحقَّرات من ضدِّ المروءات ، تؤذى (٥) الكاملَ فى الحال ، بالرجوع القهقَرى إلى مراتب العوامّ وأوباش الناس.

ولقد حدثنا جعفر بن محمد الهَمْدانىّ (٦) بصُور ، قال : سمعت طَلْحة بن إسحاق بن يعقوب قال : سمعت موسى بن إسحاق الأنصارىّ يقول : سمعت علىّ بن حكيم الأودىّ يقول : سمعت شَرِيكًا (٧) يقول : ذُلّ الدنيا خمسة : دخول الحمام سَحَرًا بلا كَرْنيب ، وعبُور المَعْبر بلا قِطْعة ، وحضور مجلس العلم بلا نُسْخَة ، وحاجة الشريف إلى الدنىِّ ، وحاجة الرجل إلى امرأته (٨) .

حدثنا أبو شُعبة (٩) الحسن بن محمد (١٠) الإِصْطَخْرِىّ ، حدثنا عبد الرحمن بن محمد بن منصور ، حدثنا محمد بن عبد العزيز الرملىّ ، حدثنا رشدين بن سعد ، حدثنا طلحة بن زيد عن عكْرِمة عن ابن عباس ، قال : مِن قلة مروءة الرجل ، نظره فى بيت الحائك ، وحمله الفُلُوس فى كمه .

* * *

---

(١) لا تؤامر : لا تشاور .

(٢) وليعلم المنهوم المهموم عبد الدنيا أنه يجمع ليخزن وغيره ينفق ويمتع وهو يعاقب ويحاسب وعلى جمعه يجازى .

وليعلم أن الموت طارق ، وأنه يغشى القاصى والدانى على غير رغبة منه ولا استئذان فليحذر بغتة الموت وغرة الغوث . . »

(٣) فى الأصل : كتب فى الحاشية : هو محمد بن عبيد الله .

(٤) فى الأصل : القلوب . (٥) فى الأصل : يؤدى . (٦) فى الأصل : الهمذانى .

(٧) فى الأصل : شريك . (٨) فى الأصل : المرأة . (٩) فى الأصل : سعيد .

(١٠) فى الأصل : أحمد .

بَابُ الْحَثِّ عَلَى لُزُومِ السَّخَاءِ ، وَتَرْكِ الْبُخْلِ

أنبأنا أحمد بن يحيى بن زُهير بتُسْتَر ، حدثنا الحسن بن عرفة بن يزيدَ العبدىّ ، حدثنا سعيد بن محمد الوراق ، حدثنا يحيى بن سعيد الأنصارىّ ، عن الأعرج ، عن أبى هريرة ، قال : قال رسول الله ﷺ : « السَّخِيُّ قَرِيبٌ مِنَ اللهِ ، قَرِيبٌ مِنَ النَّاسِ ، وَالْبَخِيلُ بَعِيدٌ مِنَ اللهِ ، بَعِيدٌ مِنَ النَّاسِ ، وَلَسَخِيٌّ جَاهِلٌ ، أَحَبُّ إِلَى اللهِ مِنْ بَخِيلٍ عَابِدٍ[1] »[2] .

---

(١) فى الأصل : عابد بخيل .

(٢) أخرجه الترمذى (٤/٣٠٢) ، كتاب « البر والصلة » ، باب : ما جاء فى السخاء ، حديث (١٩٦١) ، والعقيلى فى « الضعفاء » (٢/١١٧) ، والبيهقى فى « شعب الإيمان » (٧/٤٢٩) ، رقم (١٠٨٥٢) ، وابن الجوزى فى « الموضوعات » (٢/ ١٨٠ - بتحقيقنا) كلهم من طريق سعيد بن محمد الوراق عن يحيى بن سعيد عن الأعرج ، عن أبى هريرة مرفوعًا .

قال الترمذى : هذا حديث غريب لا نعرفه من حديث يحيى بن سعيد ، عن الأعرج ، عن أبى هريرة إلا من حديث سعيد بن محمد وقد خولف سعيد بن محمد فى رواية هذا الحديث ، عن يحيى ابن سعيد إنما يروى ، عن يحيى بن سعيد ، عن عائشة شىء مرسل أ . هـ .

وقال العقيلى : ليس لهذا الحديث أصل من حديث يحيى ولا غيره ، وقال ابن الجوزى : لا يصح المتهم به سعيد بن محمد الوراق ، قال : يحيى : ليس بشىء ، وقال النسائى : ليس بثقة .

وقال البيهقى : تفرد به سعيد بن محمد ، وهو ضعيف .

وقال السيوطى فى « اللآلئ المصنوعة » (٢/٩١) : قلت : أخرجه الترمذى وابن حبان فى « روضة العقلاء » ، والبيهقى فى « شعب الإيمان » ، والخطيب فى كتاب « البخلاء » من طرق عن سعيد الوراق به ، وقال ابن حبان : غريب ، وقال البيهقى : تفرد به سعيد بن محمد الوراق ، وهو ضعيف. الله أعلم أ هـ .

وللحديث شواهد من حديث عائشة وأنس ، وجابر حديث عائشة :

أخرجه الطبرانى فى « الأوسط » كما فى « اللآلئ » (٢/٩٢) ، والبيهقى فى « شعب الإيمان » (٧٠/٤٢٨ - ٤٢٩) رقم (١٠٨٥٠) ، وابن الجوزى فى « الموضوعات » (٢/١٨١ - بتحقيقنا) من طريق سعيد بن مسلمة حدثنا يحيى بن سعيد ، عن محمد بن إبراهيم التيمى ، عن عائشة مرفوعًا بلفظ : السخى قريب من الله قريب من الناس بعيد من النار والبخيل بعيد من الله بعيد من الناس ، قريب من النار والجاهل السخى أحب إلى الله من العاقل البخيل .

قال ابن الجوزى : سعيد بن مسلمة قال يحيى : ليس بشىء ، وقال ابن حبان : منكر الحديث جدًا فاحش الخطأ ، وقال ابن عدى : ليس لهذا الحديث أصل من حديث يحيى بن سعيد ولا غيره .

وقال الدارقطنى : لهذا الحديث طرق لا يثبت منها شىء بوجه أ . هـ .

وللحديث طريق آخر عن عائشة . =

= أخرجه الخطيب فى كتاب « البخلاء » ، كما فى « اللآلئ » (٢/ ٩٢) ، وابن الجوزى فى «الموضوعات » (٢/ ١٨١) من طريق خالد بن يحيي القاضى عن غريب بن عبد الواحد القرشى ، عن يحيى بن سعيد الأنصارى ، عن سعيد بن المسيب ، عن عائشة مرفوعًا .

وقال ابن الجوزى : خالد وغريب مجهولان .

وقال السيوطى : أقره صاحب الميزان على أن اسمه غريب والذى فى كتاب « البخلاء » للخطيب عنبسة بن عبد الواحد . أ هـ .

وأخرجه البيهقى فى « شعب الإيمان » (٧/ ٤٢٨) رقم (١٠٨٤٧) من طريق تليد بن سليمان وسعيد ابن مسلمة عن يحيى بن سعيد ، عن محمد بن إبراهيم ، عن علقمة بن وقاص ، عن عائشة مرفوعًا .

وقال البيهقى : تليد وسعيد ضعيفان .

وأقره صاحب « اللآلئ » (٢/ ٩٢) .

حديث أنس :

أخرجه ابن الجوزى فى « الموضوعات » (٢/ ١٨٠ - بتحقيقنا) من طريق محمد بن تميم حدثنا قبيصة بن محمد عن موسى بن عبيدة عن يزيد الرقاشى ، عن أنس مرفوعًا : لما خلق الله الإيمان قال: إلهى قونى فقواه بحسن الخلق ثم خلق الكفر فقال الكفر : إلهى قونى فقواه بالبخل ثم خلق الجنة ثم استوى على العرش ، ثم قال : ملائكتى ، فقالوا : ربنا لبيك وسعديك .

قال : السخى قريب من جنتى قريب من ملائكتى بعيد من النار ، والبخيل بعيد منى بعيد من ملائكتى قريب من النار » .

قال ابن الجوزى : المتهم به محمد بن تميم قال ابن حبان : كان يضع الحديث .

وقال السيوطى فى « اللآلئ » (٢/ ٩٢) : محمد بن تميم يضع .

حدثث جابر :

أخرجه البيهقى فى « شعب الإيمان » (٧/ ٤٢٨) رقم (١٠٨٤٨) من طريق سعيد بن مسلمة عن جعفر بن محمد ، عن أبيه ، عن جابر مرفوعًا .

وقد تقدم ضعف سعيد .

وللحديث شاهد أيضًا من حديث ابن عباس أخرجه تمام فى « فوائده » كما فى « اللآلئ » (٢/ ٩٣)، وفيه محمد بن زكريا الغلابى .

قال الدارقطنى : يضع الحديث تنزيه الشريعة (١/ ١٠٥) .

والحديث ذكره السيوطى فى « الجامع الصغير » (٤/ ١٣٨ - فيض) رقم (٤٨٠٤) من حديث أبى هريرة وجابر وعائشة ورمز له بالضعف ووافقه المناوى فى « شرحه » .

وقال المناوى فى « الفيض » (٤/ ١٣٨ - ١٣٩) .

(السخى قريب من الله) أى : من رحمته وثوابه فليس المراد قرب المسافة تعالى الله عنه ، إذ لا يحل الجهات ولا ينزل الأماكن ولا تكتنفه الأقطار (قريب من الناس) أى من محبتهم فالمراد قرب المودة (قريب من الجنة) لسعيه فيما يدنيه منها ، وسلوكه طريقها ، فالمراد هنا قرب المسافة وذلك =

. . . .

= جائز عليها لأنها مخلوقة وقربه منها برفع الحجاب بينه ، وبينها وبعده عنها كثرة الحجب فإذا قلت الحجب بينك وبين الشيء ، قلت : مسافته ، أنشد بعضهم :

يقـــولون لى دار الأحبة دنت　　　وأنت كئيب إن ذا لعجـــب

فعلـــت وما تغنى ديار قريبة　　　إذا لم يكن بين القلوب قريب

والجنة والنار محجوبتان عن الخلق بما حفتا به من المكاره والشهوات وطريق هتك هذه الحجب مبينة فى مثل الإحياء والقوت من كتب القوم (بعيد من النار والبخيل بعيد من الله) أي من رحمته (بعيد من الناس بعيد من الجنة قريب من النار)، وقال الغزالى : والبخل ثمرة الرغبة فى الدنيا والسخاء ثمرة الزهد والثناء على الثمرة ثناء على المثمر لا محالة والسخاء ينشأ من حقيقة التوحيد والتوكل والثقة بوعد الله وضمانه للزرق وهذه أغصان شجرة التوحيد التى أشار إليها الحديث والبخل ينشأ من الشرك وهو الوقوف مع الأسباب والشك فى الوعد قال الطيبى : التعريف فى السخى والبخيل للعهد الذهنى وهو ما عرف شرعًا أن السخى من هو والبخيل من هو وذلك أن من أدى الزكاة فقد امتثل أمر الله وعظَّمه وأظهر الشفقة على خلقه وواساهم بماله فهو قريب من الله وقريب من الناس فلا تكون منزلته إلا الجنة ومن لم يكن كذلك فبالعكس ولذلك كان جاهل سخى أحب إلى الله من عابد بخيل كما قال (ولجاهل سخى أحب إلى الله من عابد بخيل) فخولف ليفيد أن الجاهل غير العابد السخى أحب إلى الله من العابد العالم البخيل فيالها من حسنة غطت على عيبين عظيمين ويالها من سيئة حطت حسنتين خطيرتين على أن الجاهل السخى سريع الانقياد إلى ما يؤمر به من نحو تعلم وإلى ما ينهى عنه بخلاف العالم البخيل .

(تنبيه) قال الراغب من شرف السخاء والجود أن الله قرن اسمه بالإيمان وصف أهله بالفلاح والفلاح أجمع لسعادة الدارين وحق للجود أن يقترن بالإيمان ، فلا شيء أخص منه به ولا أشد مجانسه له فمن صفة المؤمن انشراح الصدر ، ﴿ فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام ومن يرد أن يضله يجعل صدره ضَيِّقًا حَرَجًا ﴾ ، وهما من صفة الجواد والبخيل ، لأن الجواد يوصف بسعة الصدر والبخيل بضيقه أ هـ . ومن أحسن ما قيل فيه :

تـــــراه إذا ما جئتـــه متهللاً　　　كأنك تعطيه الذى أنت سائله

وللمتنبى أيضًا :

تعـــــود بسط الكف حتى لوانه　　　أراد انقباضًا لم تطعه أناملـــــه

ولو لم يكن فى كفه غير روحه　　　لجاد بها فليتق الله سائلـــــــه

(تنبيه) قال ابن العربى : قوله ولجاهل سخى مشكل يباعد الحديث عن الصحة مباعدة كثيرة وعلى حاله فيحتمل أن معناه أن الجهل قسمان جهل بما لا بد من معرفته فى عمله واعتقاده وجهل بما يعود نفعه على الناس من العلم فأما المختص به فعابد بخيل خير منه وأما الخارج عنه فجاهل سخى خير منه لأن الجهل والعلم يعود إلى الاعتقاد ، والسخاء والبخل إلى العمل ، وعقوبة ذنب الاعتقاد أشد من ذنب العمل .

قال أبو حاتم - رضى الله عنه : إن كان حَفِظَ سعيد [١] بن محمد إسناد هذا الخبر ، فهو غريب غريب .

فالواجب على العاقل إذا أمكنه الله تعالى [٢] من حُطام هذه [الدنيا] [٣] الفانية ، وعلم زوالها عنه ، وانقلابها إلى غيره ، وأنه لا ينفعه فى الآخرة إلا ما قدّم من الأعمال الصالحة : أن يبلغ مجهودَه فى أداء الحقوق فى ماله ، والقيام بالواجب فى أسبابه ، مبتغيًا بذلك الثوابَ فى العُقْبَى ، والذكر الجميل فى الدنيا ، إذ [٤] السخاء محبة ومَحْمدة، كما أن البخل مَذَمَّة ومَبْغضة ، ولا خير فى المال إلا مع الجود ، كما لا خير فى المنطق إلا مع المَخْبَر .

ولقد أنشدنى المنتصرُ بن بلال الأنصاريّ [البسيط] :

الْجُودُ مكْرَمَةٌ ، وَالبُخْـــلُ مَنْقصـــة لا يَسْـــتَوِى البُخْلُ عِنْدَ اللهِ وَالجُـودُ !

وَالفَقْرُ فِيهِ شُخُـــوصٌ ، وَالْغِنَى دَعَةٌ وَالنَّاسُ فِى المَالِ مَرْزُوقٌ وَمَحْدُودُ [٥] [٦] [٧]

حدثنى محمد بن أبى علىّ الخلادىّ ، حدثنا محمد بن الحسن الذُّهلىّ ، حدثنا محمد ابن يوسف السَّدُوسىّ ، حدثنا أحمد بن خالد [٨] القُثَمىّ ، حدثنا سليمان مولى عبد الصمد بن علىّ أن المنصور أميرَ المؤمنين قال لابنه المهدىّ : اعلم أن رِضاء [٩] الناس غاية لا تُدْرَك ، فتحبب إليهم بالإحسان جُهْدَك ، وتودَّد إليهم بالإفضال ، واقصد بإفضالك موضع الحاجة منهم .

---

(١) سعيد بن محمد الثقفى . أبو الحسن الكوفى الوراق ، نزيل بغداد . يروى عن يحيى بن سعيد الأنصارى ، وفضيل بن غزوان . وعنه أحمد وابن المدينى ، قال ابن معين : ضعيف .

وقال الدارقطنى : متروك . « تهذيب التهذيب » (٤/ ٧٧) ، « التقريب » (١/ ٣٠٤) ، الخلاصة : (١/ ٣٨٩) ، « تاريخ بغداد » (٩/ ٧١) .

(٢) فى الأصل : شىء . (٣) سقط فى الأصل . (٤) فى الأصل : إذا .

(٥) شخوص : أي اضطرار إلى النقلة من بلد إلى بلد ، للقاء الكرام أو لطلب الرزق فى مناكب الأرض ، والمحدود : الذى ضيق عليه فى الرزق .

(٦) فى الأصل : محسود .

(٧) ينبغى على ذى المروءة أن يجود بما يجد فإن الجود مكرمة ومنعمة للمرء كما أن البخل مذمة ومسبة ومهانة وأن الكريم قريب من الله قريب من الناس .

فإن الفقر مذلة ، والغنى فيه التوانى والدعة والركود من الخيرات ، والناس بين محظوظ مرزق وبين فقير معدم محروم ، فلينظر العاقل فى أى حالة يتقلب فليعتصم بربه وليرضَ عن السوء نفسه .

(٨) فى الأصل : خلد . (٩) فى الأصل : رضى .

وأنشدني محمد بن إسحاق الواسطيّ [الطويل] :

أعاذلَتَيَّ اليَوْمَ ، ويْحكُمَا مَهْلا ... وكُفَّا الأذى عَنِّي ، ولا تُكْثِرَا العَذْلا

دعَاني تَجِدْ كَفِّي بِمَا مَلَكَتْ يَدي[1] ... سَأُصْبحُ يومًا أتركُ الجودَ والبُخْلا

إذَا وَضَعُوا فَوقَ الضَّريحِ جَنادلاً ... عَلَيَّ وَخلَّفْتُ المَطِيَّةَ والرَّحْلا

فَلا أنَا مُجْتَازٌ إذَا مَا نَزلْتُهُ ... ولا أنَا لاقٍ مَا ثَوَيْتُ بِهِ أهْلا[2]

أنبأنا إبراهيم بن إسحاق الأنماطيّ ، حدثنا لُوَيْن[3] ، حدثنا ابن أبي الزناد ، عن هشام بن عروة ، قال : كان أبي يقول : ما لِيمَ قومٌ قطُّ أقاموا على ماء عَذْب .

حدثنا عمرو بن محمد ، حدثنا الغلابيّ ، حدثنا بكر بن عامر[4] العتريّ[5] ، حدثنا هشام بن محمد ، عن أبيه ، عن عليّ بن أبي طالب - رضي الله عنه - قال : من آتاه الله منكم مالاً فليصِلْ به القرابة ، وليُحْسِن فيه الضيافة ، ولْيَفُكَّ فيه العاني[6] والأسير وابن السبيل والمساكين[7] ، والفقراء والمجاهدين ، ولْيَصْبِر فيه على النائبة ؛ فإن بهذه الخصال ينالُ كرم الدنيا ، وشرف الآخرة .

قال أبو حاتم - رضي الله عنه : أجود الجود من جاد بماله ، وصان نفسه عن مال غيره، ومن جاد ساد ، كما أن من بَخِلَ ذُل .

والجود حارس الأعراض ، كما أن العفْو زكاة العقل ، ومن أَتَمِّ الجود ، أن يتعرَّى عن المِنَّة ، لأن من لم يمْتَنَّ بمعروفه وَفَّره[8] ، والامتنان يهدم[9] الصنائع ، وإذا[10]

---

(١) في الأصل : بمالي فإنني .

(٢) يامن لامني في الكرم والجود ولحاني على البذل والعطاء ، كفّ عني ودعني لشأني ، واصدف عني العزل واللوم واتركني يا عاذلي أجود وأبذل فإني غير خالد ولا مالي مخلد ، فإني أنفق ليوم لا صدقة فيه ، ولا عطاء .

واذكروا أيها العاذلون يوم ألحد ثاويًا وحيدًا في قبري لا أنيس ولا شفيع لي تاركًا الطريف والتالد .

وحينها لا أهل لي ثمّ ، ولا أنا مخير فيما اكتنفني من الهول والشدة وإنما هو عملي وبذلي وإنفاقي، فهذه عدتي ، وتلك ذخيرتي .

(٣) لوين : لقب محمد بن سليمان الأسدي ، أبو جعفر العلاف الكوفي ، ثم المصيصي توفي سنة (٢٤٥) هـ (٢٤٦) ينظر تهذيب التهذيب : (١٩٨/٩) ، « التقريب » (١٦٦/٢) ، الخلاصة (٤٠٩/٢) ، « تاريخ بغداد » (٢٩٢/٥) .

(٤) في الأصل : غامد . (٥) في الأصل : العنزي . (٦) العاني : الأسير الموثق .

(٧) في الأصل : والمسكين . (٨) في الأصل : وقره (٩) في الأصل : الهرم .

(١٠) في الأصل : فإذا .

تعرَّت الصنيعة عن إزار له طرفان : أحدهما الامتنان ، والآخر طلب الجزاء ، كان من أعظم الجود ، وهو الجود على [1] الحقيقة [2] .

ولقد أنشدنى ابن زنجيّ [البسيط] :

يَا رُبَّ عَاذِلَةٍ فِى الجُودِ ، قُلْتُ لَهَا : قِلِّى [3] ، عَلَى اللهِ فِيمَا أُنْفِقُ الخَلَفَا
هَلْ مِنْ بَخِيلٍ رَأَيْتِ البُخْلَ أَخْلَدَهُ ؟ أَمْ هَلْ رَأَيْتِ جَوَادًا مَيِّتًا عَجَفَا ؟
لَمَّا رَأَتْنِى أُوتِى المَالَ طَالِبَهُ وَلا أُبَالِى تلادًا كَانَ أَمْ طُرُفَا [4] [5]
عَدَّتْ سَمَاحِىَ تَبْذِيرًا، وَلَسْتُ أَرَى مَا يُكْسِبُ الحَمْدَ تَبْذِيرًا وَلا سَرَفَا [6]

أنبأنا الحسين [7] بن سفيان ، حدثنا حبان بن موسى ، قال : قسم ابن المبارك يومًا بين إخوانه وأصحاب الحديث ألفَ درهم ، ثم أنشأ يقول [السريع] :

لا خَيْرَ فِى المَالِ لِكَنَّازِهِ إلا جَوَادَ الْكَفِّ وَهَّابِهِ
يَفْعَلُ أَحْيَانًا بِزُوَّارِهِ مَا تَفْعَلُ الْخَمْرُ بِشُرَّابِهِ [8]

حدثنى محمد بن عثمان العقبى ، حدثنا الحسن [9] بن محمد عن ابن السماك ، قال : يا عجبى لمن يشترى المماليك بالثمن ، ولا يشترى الأحرار بالمعروف .

---

(١) فى الأصل : فى .
(٢) يريد سترًا لجود وعدم إعلانه .
(٣) فى الأصل : فهلا .
(٤) فى الأصل : طَرَفا
(٥) تلادا : مالا موروثا ، وطرفا ، بضم الطاء : جمع طريف ، وهو المال المكتسب الحادث .
(٦) هذه الأبيات فى معنى سابقتها فيقول :
أيتها العاذلة المخذلة كفى عني لومك وارعوى عن غيك فإنما أنفق ويخلف الله على بالكثرة والبركة .
ثم انظرى وأبصرى هل رأيت الشحيح البحيح مخلدًا لإمساكه المال ومنعه النوال ؟ أم هل رأيت الجواد المعطاء قد هزل ونحل وتفصم بإنفاقه وسخائه .
كيف تعدين سماحتى تبذيرًا وعطائى افتقارًا ، قد أخطأ سهمك الثغره وضلّ فهمك إنما البذل مكسبة للحمد مرضاة للرب ولا تبذير فيما كان كذلك . .
(٧) فى الأصل : الحسن .
(٨) لا خير فيمن يكنز المال ويمنعه الناس ، وإنما الخير فى العطاء المفضال المنفقة كل مال . . فذاك لعمرى ظافرٌ ومحمد .
فإنه لفرط جودٍ يجود بكل موجوده ويذهل الضيف بموهوبه كأنه شرب بنت الكَرْم وما ذلك إلا الكَرَم .
(٩) فى الأصل : الحسين .

قال أبو حاتم - رضى الله عنه : إن من أحسن خصال المرء الجودَ من غير امتنان ، ولا طلب ثواب ، والحلمَ من غير ضعف ولا مَهانة .

وأصل الجود ترك الضَّنِّ بالحقوق عن أهلها ، كما أن أصل تربية الجسد ، ألا يحمل(١) عليه فى الأكل والشرب والباه ، فكما (٢) لا تنفع المروءة بغير تواضع ، ولا الحفظ (٣) بغير كِفاية ، كذلك لا ينفع العيش بغير مال ، ولا المال بغير جُود ، وكما أن القَرابة تبع للمودة ، كذلك المَحمدة تبع للإنفاق .

أنبأنا أحمد بن الحسن بن عبد الجبار ، حدثنا يحيى بن مَعين ، حدثنا المبارك ابن سعيد الثَّورىّ ، قال : كان يُقال : ثلاث هُنَّ أحسن شىء فيمن وُجِدَت فيه : تُؤَدة فى غير ذُلّ ، وجود لغير ثواب ، ونَصَبٌ لغير الدنيا .

حدثنا أبو يَعلَى الموصلى ، حدثنا محمد بن الصباح الدَّولابىّ ، حدثنا إسماعيل بن زكريا عن عاصم الأحول ، قال : قلت للحسن : ما [معنى] (٤) قوله صلى الله عليه وسلم: « اليَدُ الْعُلْيَا خَيْرٌ مِنَ الْيَدِ السُّفْلَى » ؟ قَالَ : يَدُ الْمُعْطِى خَيْرٌ مِنْ يَدِ الْمَانِعِ (٥) .

حدثنا أبو خليفة ، حدثنا ابن كثير ، أنبأنا سفيان ، عن الأعمش ، عن ذَكوان وعبد الله بن مُرَّة ، عن كعب ، قال : من أحب لله ، وأبغض لله ، وأعطى لله ، ومنع لله ، فقد استكمل الإيمان .

وأنشدنى الكُريزىّ ليحيى بن أكثم : [الطويل]

وَيُظْهِــــرُ عَيْبَ الْمَرْءِ فِى النَّاسِ بُخْلُهُ ... وَيَسْـــتُرُهُ عَنْهُمْ جَمِيعًا سَخَـــاؤُهُ
تَغَــــطَّ بِأَثْوَابِ السَّـــخَاءِ ، فَإِنَّنِى ... أَرَى كُلَّ عَيْبٍ وَالسَّخَاءُ (٦) غِطَاؤُهُ (٧)

[أخبرنا عمر بن محمد الهمذانى ، ثنا زيد بن أخزم ، ثنا مسلم بن قتيبة ، ثنا مبارك ابن فضالة أن الحسن قلع ضرسه الحجامُ ، فأعطاه درهم ، فقيل : إنه يرضى بنصف درهم ، فقال : أعطوه درهمًا ؛ فإن المسلم لا يقاسم المسلم الدرهم] (٨) .

---

(١) فى الأصل : تحمل . (٢) فى الأصل : وكما . (٣) فى الأصل : الخفض .
(٤) سقط فى الأصل . (٥) فى الأصل : اليد المانعة . (٦) فى الأصل : فالسخاء .
(٧) فليعلم العاقل أن ساتر العوراء وسبل النعماء هو الإنفاق والسخاء إذْ أستر عوراء الكريم عطاؤه، كما أن البخل مسبة ومذمة ومنقصة ومكشفة للعورات ، وجالب للمسبات .
فينبغى لمن شانه عيب أن يسكو نفسه حلل السخاء ففيها الستر والفضل .
(٨) سقط فى ط .

وأنشدنى أحمد بن محمد بن عبد الله اليمانى ، لبعض القرشيّين : [الطويل]

سَــأَبْذُلُ مَالِى كُلَّمَا جَــاءَ طَالِبٌ   وَأَجْعَلُــهُ وَقْفًا عَلَى العِرْضِ وَالقَرْضِ
فَإِمَّـــا كَرِيمًا صُنْتُ بِالجُودِ عِرْضَهُ   وَإِمَّا لئِيمًا صُنْتُ عَنْ لَؤْمِهِ عِرْضِى (١)

وأنشدنى كامل بن مكرّم أبو العلاء قال : أنشدنى هلال بن العلاء بن عمر الباهلىّ : [الوافر]

مَــلأَتْ يَدِى مِنَ الدُّنْيَا مِــرَارًا   فَمَا طَمِــعَ العَوَاذِلُ فِى اقْتِصَــادِى
وَمَـــا وَجَبَتْ عَلَىَّ زَكَـــاةُ مَالٍ   وَهَلْ تَجِبُ الزَّكَاةُ عَلَى الجَوَادِ ؟ (٢)

قال أبو حاتم - رضى الله عنه : البخل شجرة فى النار ، أغصانها فى الدنيا ، مَنْ تعلّق بغصن من أغصانها جرَّه إلى النار ، كما أن الجود شجرة فى الجنة ، أغصانها فى الدنيا، فمن (٣) تعلّق بغصن من أغصانها ، جره إلى الجنة ، والجنة دار الأسخياء .

والبخيل يقال له فى أول درجته : البخيل ، فإذا عتَا وطَغَى فى الإمساك ، يقال : الشَّحيح ، فإذا ذم الجود والأسخياء يقال له : لَئيم ، فإذا صار يحتج للبخلاء ويعذِرُهم فى فعالهم ، يقال له : المُلائم .

وما اتَّزر رجل بإزار أهتك لعرضه ، ولا أثْلَمَ لدينه ، من البخل .

ولقد أنشدنى محمد بن إسحاق الواسطىّ [المنسرح] :

لِكُـــلِّ هَمٍّ مِنَ الهُمُومِ سَــعَهْ   وَالبُخْلُ وَاللُّؤْمُ لا فَلاحَ مَعَهْ (٤)
قَدْ يَجْمَــــعُ المَالَ غَيْرُ آكِلِــهِ   وَيَأْكُلُ المَالَ غَيْرُ مَنْ جَمَعَــــهْ

---

(١) إنما أنا باذل للمال فى كل وجه خير بل سأوقفه على إقراض معسرٍ أو إتمام فريضة .
وما ضرنى أنى أبذل من حر مالى لكل مكاشحٍ ، وموالى فإما بذلت لكريم أصون بالبذل عرضه ، وإما أخذه لئيم أصون عنه نفسى وعرضى .

(٢) إنى لبذول معطاء ، فكلما أصبت من الدنيا نافلة مالٍ وكم أصبت فإنى منفق سح معطاء.. حتى إن العاذلين قد يئسوا فى اقتصادى وكفى .
وإنى لفرط البذل أكاد أعدم فما تجب الزكاة علىّ فى مالى وكيف تجب على من ماله كله زكاة بالبذل والعطاء والجود ؟! .

(٣) فى الأصل : من .

(٤) هذه الأبيات من قصيدة لأوس بن حجر . . ويروى البيت الأول منها :
لكل ضيق من الأمور سعة   والصبح والمسى لا فلاح معه

اقْـــبَلْ مِنَ الدَّهْرِ مَا أَتَاكَ بِهِ   مَنْ قَـــرَّ عَيْنًا بِعَيْشِهِ نَفَعَهْ[1]

سمعت الخَطَّابِىَّ بالبصرة يقول : سمعت أبا حاتم السِّجستانىَّ يقول : سأل كِسرى : أىُّ شىء أضرُّ على ابن آدم ؟ قالوا : الفقر ، قال : الشح أضرُّ منه ، إن الفقير إذا وَجَد اتسع ، وإن الشحيح لا يتسع إذا وَجَد .

أنبأنا إبراهيم بن محمد بن يعقوب ، حدثنا [2] ابن أبى القَعقاع ، قال : قال أبو الهُذَيل : كنت عند يحيى بن خالد البرمكىّ ، فدخل عليه رجل هندى ومعه مترجم له ، فقال المترجم : إن هذا رجل شاعر ، قد حاول مِدْحتَك ، فقال يحيى : لِينشد ، فقال الهندىّ :

* أرَه أصرَه ككَراكِى كَرِهِ مَنْدَرِه *

فقال يحيى للمترجم : ما يقول ؟ قال : يقول [البسيط] :

إِذَا المَكَــــارِمُ فِى آفَاقِنَا ذُكِرَتْ   فَإِنَّمَا بِكَ فِيهَا يُضْرَبُ المَثَلُ [3]

قال : فأمر له بألف دينار .

وأنشدنى عبد الرحمن بن محمد المُقاتلىّ [الطويل] :

إِذَا المَرْءُ لَمْ يَدْنَسْ مِنَ اللُّؤْمِ عِرْضُـهُ   فَكُـــلُّ رِدَاءٍ يَرْتَدِيهِ جَمِيــــــلُ

إِذَا قُلْتَ : لا ، فِى كُلِّ شَىْءٍ سُئِلْتَهُ   فَلَيْسَ إِلَى حُسْنِ الثَّنَاءِ سَبِيلُ[4][5]

---

(١) ينبغى على العاقل أن يحذر اللؤم وأهله والشّح وذويه فكل ضيقة لها سعة ، وكل همّ له فرج إلا من كان شحيحًا ضيقًا كسم الخياط فلا حيلة ولا بلغة فى صلاحه وتفريج مضائقه .

وكيف يبخل هذا الأحمق الجهول ، وقد يجمع المال من لن ينتفع به ، وقد يصيب نفعه من لم يسع له .

فالعاقل الحر من يرضى بقضاء ربه ، ويتقنع بما سيق إليه من رزقه ومن لزم القناعة ، عاش بخير مأمن وسعة . .

(٢) فى الأصل : حدثنى .

(٣) إذا تذكر المكارم ويتمثل بها وبأهليها فإنما أنت ربها وصاحبها وبك يضرب المثل فيها فضلاً ونبلاً . .

(٤) هذان البيتان من قصيدة السموءل المشهورة ، غير الشطر الثالث .

(٥) هذه الأبيات الحسان من لامية السموءل بن عادياء وفيها يتمدح بمن كان كريمًا جوادًا فيقول :

إذا المرء عفّ وترفع عن الدنس والدنايا ، فإنه طيب جميل على كل حالٍ يتقلب فى أثوبة الفضل والطهر .

=

وأنشدنى عمرو بن محمد الأنصارىّ ، أنشدنى [1] الغلابىّ ، أنشدنى [2] مهدىّ بن سابق [المنسرح] :

يَا مَانِعَ المَالِ ، كَمْ تَضِـــنُّ بِهِ   تَطْمَعُ بِاللهِ فِى الخُلُــودِ مَعَـه ؟
هَلْ حَمَلَ المَالَ مَيِّتٌ مَعَـــهُ ؟   أَمَا تَرَاهُ لِغَيْـــرِهِ جَمَعَـهْ ؟[3]

أنبأنا عمران بن موسى السّختيانىّ ، حدثنا سليمان بن معبد المَرْوَزىّ [4] ، حدثنا عثمان بن صالح ، حدثنا ابن وهب ، أخبرنى يحيى بن أيوب ، عن أبى علىّ الغافقىّ، سمع عامر بن عبد الله اليَحْصُبِىّ قال : كان ابن منبه يقول : أجود الناس فى الدنيا من جاد بحقوق الله ، وإن رآه الناس بخيلاً بما سوى ذلك ، وإن أبخل الناس فى الدنيا من بخل بحقوق الله ، وإن رآه الناس كريمًا جوادًا بما سوى ذلك .

وأنشدنى علىّ بن محمد البسّامىّ [الخفيف] :

رُبَّ مَالٍ سَيَنْعَـــمُ النَّاسُ فِيهِ   وَهْـــوَ عَنْ رَبِّهِ قَلِيلُ الغَنَــاءِ
كَانَ يَشْقَى بِهِ ، وَيَنْصَبُ فِيهِ   ثُـــمَّ أَضْحَى لِمَعْشَرٍ غُرَبَــاءِ
مَـــالَهُ عِنْدَهُمْ جَـــزَاءٌ إِذَا مَا   نَعِمُوا فِيهِ غَيْرُ سُـــوءِ الثَّنَاءِ
رُبَّ مَالٍ يَكُـــونُ ذَمًا وَغَمًـا   وَغَنِىٌّ يُعَدُّ فِى الفُقَـــرَاءِ [5]

= وينبغى على مبتغى الكرامة والفضل ألا يقول لا إن سئل ويولى سائله القلا وإلا فلا سبيل للفضل ولا ذريعة للمحمدة .

(١) فى الأصل : قال أنشدنى .   (٢) فى الأصل : قال أنشدنى .

(٣) يا أيها البخيل أنت لئيمٌ ، ذميمٌ كيف تضن بما أوتيت من مال وخير ، اتظن سفاهًا وعبثًا أنك ستخلد مع مالك . . ؟ !!

أم تظن أنك حامله إلى لحدك بعد موتك ، قد ضللت السبيل وأتيت الوبيل ، وإنما جمعك لغيرك به نفعه ، وعليك حسابه وويله . . . كم من غبى شقى قد راح واغتدى فى جمع ماله وما اهتدى .

(٤) فى الأصل : المروزى وهو السِّنجى .

(٥) فحار رواتاه البوار وما لم يغتن به شيئًا ولم يغن عنه فتيلاً .

ولقد كان جاهدًا باذلاً قائمًا له على قدم وساق لجمعه وحرزه ثم أضحى لغيره نهبًا مقسمًا بعد أن صار بائدًا معدمًا .

وماله عندهم عوض أو جزاء وإن تفضلوا عليه فلبسوء الثناء ، وإلباسه عار الشح ، واللؤم والحرص.

وهكذا المال قد يغدو صاحبه به عبدًا ذميمًا ضلولاً لئيمًا ، وبه يصير الغنى رهن لجمعه وحوزه وحرزه فيعد فقيرًا بين الأغنياء وغنيًا فى زمرة الفقراء . .

حدثنا أحمد بن الحسن بن أبى الصغير المدائنىّ ، حدثنا الربيع بن سليمان ، قال : سمعت الشافعىّ - رضى الله عنه - يقول : كان أبو حاتم ، يعنى الطائىّ ، سخيا ، وكان يضع الأشياء مواضعَها ، وكان حاتم مبذرًا ، فاجتمع يومًا عند أبيه أصحابه ، فشكا إليهم حاتمًا ، قال : والله ما أدرى ما أصنع ، لا يأخذ شيئاً إلا بَذّره ، فاجتمع رأيهم على أن لا يعطيَه شيئًا سنة ، قال : فأقام أبوه ، ولم يمكنه من شىء سَنَة ، مع ما هو فيه (١) من الضُرّ ، فلما مضت السنة ، أمر له بمائة ناقة حمراء ، قال : فلما وقفت عليه، قال حاتم : من أحب شيئًا فهو له ، حتى أخذوها كلَّها ، فدعاه أبوه ، فقال له : أى بُنَىّ ، ماذا تصنع ؟ قال : والله يا أبى لقد بلغ الجوع منى شيئًا لا يسألنى أحد شيئًا أبدًا إلا أعطيته إيّاه .

وأنشدنى عبد العزيز بن سليمان (٢) [السريع] :

تَجُـــــودُ بِالْمَـــالِ عَلَى وَارِثٍ وَلا تَــــرَى أَهْلاً لَهُ نَفْسَكَــــا
قَــــدَّمَ حُسْنَ الظَّنِّ بِاللهِ مَــــنْ جَادَ ، وَسُوءَ الظَّنِّ مَنْ أَمْسَكَا (٣)

أنبأنا عمرو بن محمد ، حدثنا الغلابىّ ، حدثنا ابن عائشة ، قال : كان عمر بن عبد العزيز كثيرًا ما (٤) يتمثل بهذا الشعر ويعجبه [البسيط] :

وَمَا (٥) تَزَوَّدَ مِمَّا كَانَ يَجْمَعُـهُ إلا حَنُوطا غَدَاةَ البَيْنِ مَعْ خِــرَقِ
وَغَيْــرَ نَفْحَةِ أَعْوَادٍ تُشَـبُّ لَهُ وَقَــلَّ ذَلِكَ مِنْ زَادٍ لِمُنْطَلِـقِ (٦)

---

(١) فى الأصل : وهو فى . (٢) فى الأصل : سليمان الأبرش .

(٣) كيف يا جامع ماله وباذل عمره عوضًا لجمعه أتركب الغبن وتدعى الفطانة ، أتبذر سوءًا وتجنيه حنظلاً . . ؟!

أتحفر لنفسك حتفك ؟! أترى جمعك لغيرك هو خير جمعك لنفسك لقد رمت شططًا وكسيت ذُلا وغبنًا .

ألا قدمت حسن الظن بالله فجدت بما أعطاك ونعمت به قبل مبلاك ؟ ولكنك أسأت الظن بتلهيك عمًا ينجيك وبإمساكك ما عند ربك يدنيك فقبحًا لما فعلت وشقى .

(٤) فى الأصل : مما (٥) فى الأصل : فما .

(٦) إنما المرء فَانٍ غير خالد وإنه ليخرجُ من الدنيا كما دخلها وإنما زاده منها فعالهُ وحاصلُ أحواله ، مع حنوط وخرق تشد عليه لتستر عواره ، وسوءاته .

وما أصاب من عبير الدنيا إلا شذاة من أعواد وسدرٍ وكافورٍ وما أدقَّ وأقلَّ ذلك من زاد ولكنه كما قال رب العالمين : ﴿ فإنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى ﴾ .

أنبأنا أبو يعلَى ، حدثنا يحيى بن أيوبَ المقابريّ ، حدثنا حماد بن زيد ، حدثنا أيوب ، عن نافع ، قال : مرض ابن عمر بالمدينة ، فاشتهى عنبًا فى غير زمانه ، قال : فطلبوه ، فلم يجدوه إلا عند رجل ، فاشترى منه سبع حبات بدرهم ، فجاءهم سائلٌ ، فأمر به له ، ولم يذقه .

قال أبو حاتم - رضى الله عنه : ما رأيت أحدًا من الشرق إلى الغرب ، ارتدى برداء الجود ، واتّزر بإزار ترك الأذى ، إلا رأسَ أشكَالَه ، وأضدادَه ، وخضع له الخاصّ والعامّ. فمن أراد الرفعة العالية فى العُقْبَى ، والمرتبة الجليلة فى الدنيا ، فليلزم الجود بما ملك (١) ، وتركَ الأذى إلى الخاصّ والعامّ (٢) ؛ ومن أراد أن يهتِك عرضَه ، ويثلِم دينه، ويَملَّه إخوانه ، ويستثقله جيرانه ، فليلزم البخل .

ولقد ذم البخلَ أهلُ العقل فى الجاهلية والإسلام ، إلى يومنا هذا ؛ فمنه ما أنشدنى محمد بن عبد الله البغداديّ (٣) : [البسيط]

كَأَنَّمَـــا نُقِرَتْ كَفَّاهُ مِنْ حَجَرٍ ... فَلَيْــسَ بَيْنَ يَدَيْهِ وَالنَّدَى عَمَلُ
يَــرَى التَّيَمُّمَ فِي بَحْرٍ وَفِي بَلَدٍ ... مَخَافَةَ أَنْ يُرَى فِي كَفِّهِ بَلَلُ (٤)

وأنشدنى عمرو بن محمد ، أنشدنى (٥) الغلابيّ ، أنشدنا (٦) مَهْدِيّ بن سابق : [الكامل]

لَوْ أَنَّ دَارَكَ أَنْبَتَتْ (٧) لَكَ ، وَاحْتَشَتْ ... إِبَـــرًا يَضِيـقُ بِهَا فِنَاءُ الْمَنْـــزِلِ
وَأَتَاكَ يُوسُفُ يَسْتَعِيــرُكَ إِبْـــرَةً ... لِيَخِيـــطَ قَدَّ قَمِيصِهِ لَمْ تَفْعَلِ (٨)

---

(١) فى الأصل : يملك . (٢) فى الأصل : عكسها .

(٣) فى الأصل : البغدادي وهو ابن زنجى .

(٤) هذا الرجل غاية فى الشح والضن كأنما خلق مشدود اليدين أو دونما يدٍ أو لعلَّها مسخت عن الندى فلا تأتيه ولا تواليه .

وهو لفرط بخله وشحه يودّ أن لو تيمم مع وجود البحر والنَّهَرِ خشية تبتلّ كفاه فتحن إلى العطاء . . قبحه الله من عدوٌ لنفسه عبيد لفلسه .

(٥) فى الأصل : قال أنشدنى . (٦) فى الأصل : قال : أنشدنى .

(٧) فى الأصل : أبنيت .

(٨) وهذا رجل آخر قد نبغ فى الشح وبلغ المنتهى حتى إنه ليظن بالقليل الضئيل والقطمير والنقير . حتى لو أنه أصاب إبرًا كثيرات وأتته كالربا وفيرات وضاق عنها المكان

ثم أتاه جاره « يوسف » يبتغى منه إبرة على وعد إعادتها وعدم إنقاصها وإبخاسها لتأبى وتنكب وشغب ولغب وتمعر وقطب وأبى أن يعطيه إياها شحا وضنا .

وأنشدنى أحمد بن محمد بن أيوب [المتقارب] :

وكَفَّاكَ لَمْ تُخلَقَا للنَّدَى ... ولَمْ يَكُ بُخْلُهُمَا بِدْعَهْ

فكَفٌّ عَنِ الخَيْرِ مَقْبُوضَةٌ ... كَمَا حُطَّ عَنْ مِائَةٍ سَبْعَهْ

وأُخْرَى ثَلاثَةُ آلافِهَا ... وتِسْعُ مِئِيهَا لَهَا شِرْعَهْ (١) (٢)

سمعت محمد بن نصر بن نوفل المَرْوَزِىّ يقول : سمعت محمد بن صالح الوركانىّ يقول : قيل للنضر بن شميل : أى بيت قالته العرب أسخَى ؟ قال : الذى يقول [الطويل] :

فَلَوْ لَمْ تَكُنْ فِى كَفِّهِ غَيْرُ رُوحِهِ ... لَجَادَ بِهَا ، فَلْيَتَّقِ اللهَ سَائِلُهْ (٣)

قال : وأى بيت قالته العرب أبخل ؟ فقال [السريع] :

لَوْ جُعِلَ الخَرْدَلُ فِى كَفِّهِ ... مَا سَقَطَتْ مِنْ كَفِّهِ خَرْدَلَهْ (٤)

قال : وأى بيت قالته العرب أهجى ؟ قال [البسيط] :

العَجْرَفِيُّونَ (٥) لا يُوفُونَ مَا وَعَدُوا ... والعَجْرَفِيَّاتُ (٦) يُنْجِزْنَ المَوَاعِيدَا (٧)

---

(١) فى ط : ثلاثة آلاف وتسع مائة إذا كتبت بالعدد كانت هكذا (٣٩٠٠) وهى إذا غض النظر عن الصفرين بعكس صورة مائة إذا حط منها سبعة (٩٣) ويظهر لى أن القدماء كانوا يمثلون العددين (٣ ، ٩) بأيديهم مقبوضة على نحو خاص ، ولذلك شبه يد البخيل بيد الحاسب الذى يمثل بيده العددين المذكورين (٣ ، ٩) .

(٢) يا هذا إن لك ليدًا لم تخلق للندى ولا عرفت البذل والعطا وليس هذا ببدعٍ فتلك شيمة لئيمة قد فطرت عليها .

(٣) هذا البيت الفذُّ مَعْقد الرباط ، وغاية الجلالة فى المعنى وحسن المبنى فيقول : ونعم القول : ثم نعم إنه لجواد معطاء سخّاء يجود بما وجد ولا يبخل على أحد حتى إن لو لم يملك بكفه غير روحه لبذلها كرمًا وسخاءً غير آسفٍ عليها ، فليترفق سائله ويتق الله فيه .

(٤) وهذا عبدٌ ضنين لئيم يضيق بمنخره عن نفسه أفلا يضيق على غيره.، حتى لو جعل فى يده أصغر بذره نبات كمثل الخردل لضنت بها كفاه وأبت البذل ولو بواحدة .

(٥) فى الأصل : العجرويون . (٦) فى الأصل : العجرويات .

(٧) وفى معنى هذا البيت مذاهب ، ومعنى كلمة عجرف : هى جفوة فى الكلام وخرق فى العمل، والإقدام فى هوج ، وعليه فيقول : إن أولئك القوم سفه ذوو نَزَقٍ وعتهٍ وطَيْشٍ ، وكيف يفى معتوهٌ بعهد ؟ ويثبت على وعدٍ ؟!

بينما نساؤهم ذوات ريبة ودعارة وخباثٍ يفين بكل موعدة تضرب لهن إذْ إنهن نشأن على الفحشاء مع تأنيث بُعُولهنَّ وسفاهتهم وعجزهم عن حضِّ نسائهم .

قال أبو حاتم – رضى الله عنه : الواجب على العاقل إذا لم يُعرف بالسماحة ألا يُعرف بالبخلِ ، كما لا يجب إذا لم يعرف بالشجاعة ، أن يعرفَ بالجبن ، ولا إذا لم يعرف بالشهامة ، أن يعرف بالمهانة ، ولا إذا لم يعرف بالأمانة ، أن يعرف بالخيانة ، إذ البخل بئسَ شعارُ المرءِ فى الدنيا والآخرة ، وشر ما يدّخر من الأعمال فى العُقْبَى .

حدثنا أحمد بن عمرو بن جابر بالرملة ، حدثنا أبو عتبة الحمصىّ أحمد بن الفرج ، حدثنا ضمَرة ، حدثنا إبراهيم بن أبى عَبلة ، قال : سمعت أم البنين أخت عمر بن عبد العزيز تقول [1] : أفّ للبخل ، والله لو كان طريقًا ما سلكته ، ولو كان ثوباً ما لبسته .

حدثنا عمرو بن محمد ، حدثنا الغلابىّ ، حدثنا العباس بن بكار الهُذَلِىّ ، قال : قال الحسن : من أيقن بالخَلَفِ ، جاد بالعطية .

* * *

(١) فى الأصل : يقول .

ذِكْرُ الزَّجْرِ عَنْ تَرْكِ قَبُولِ الهَدَايَا مِنَ الإِخْوَانِ

حدثنا محمد بن صالح الطبرىّ ، حدثنا عبد الله بن عمران الأصبهانىّ بالرَّىّ، حدثنا يحيى بن ضُرَيس ، [حدثنا مسلم بن إبراهيم] (١) ، حدثنا سفيان الثورىّ ، عن الأعمش ، عن أبى وائل ، عن عبد الله ، قال : قال رسول الله ﷺ : «أَجِيبُوا الدَّاعِىَ ، وَلا تَرُدُّوا الْهَدِيَّةَ ، وَلا تَضْرِبُوا الْمُسْلِمِينَ» (٢) .

قال أبو حاتم - رضى الله عنه : زجرَ النبىُّ ﷺ فى هذا الخبر ، عن ترك قبول الهدايا بين المسلمين .

---

(١) سقط فى الأصل .

(٢) أخرجه أحمد (١/ ٤٠٤) ، والبخارى فى « الأدب المفرد » (١٥٧) ، وأبو يعلى (٩/ ٢٨٤) رقم (٥٤١٢) ، وابن حبان (١٠٦٤ - موارد) ، وأبو نعيم فى « الحلية » (٧/ ١٢٨) ، والطبرانى فى «الكبير » (١٠/ ٢٤٢) رقم (١٠٤٤٤) كلهم من طريق الأعمش عن أبى وائل عن عبد الله بن مسعود مرفوعًا والحديث ذكره الهيثمى فى « مجمع الزوائد » (٤/ ٥٥) ، وقال : رواه أحمد والبزار والطبرانى فى « الكبير » ، ورجال أحمد رجال الصحيح .

وذكره فى موضع آخر (٤/ ١٤٩) ، وقال : رواه أحمد وأبو يعلى ورجال أحمد رجال الصحيح .

وذكره السيوطى فى « جامعه الصغير » (١/ ١٦٤ - فيض) رقم (١٩٤) ورمز لحسنه .

قال المناوى فى « الفيض » (١/ ١٦٤) :

(أجيبوا الداعى) الذى يدعوكم إلى وليمة وجوبا إن كانت لعرس وتوفرت الشروط كما مر وندبا إن كانت لغيره مما يندب أن يولم له وهذا بناء على جواز استعمال اللفظ فى الإيجاب والندب معًا ولا مانع منه عند الشافعى وحمله غيره على عموم المجاز ذكره الكرمانى قال ابن حجر ويحتمل أنه وإن كان عامًا فالمراد به خاص وأما ندب إجابة غير العرس فمن دليل آخر (ولا تردوا) ندبًا (الهدية) فإنها وصلة إلى التحابب ، نعم يحرم قبولها على القاضى كما فى خبر آخر أى ممن له حكومة ولو متوقعة ولم تعهد منه قبل ولايته وهو فى محل ولايته ويكره لكل أحد قبولها من الأراذل والأخلاط اللذين الباعث لهم عليها طلب الاستكثار كما أشار إليه المصطفى ﷺ فى عدة أخبار وهى لغة ما اتحف به وشرعًا تمليك ما يحمل أى يبعث غالبًا بلا عوض (ولا تضربوا المسلمين) فى غير حدٍّ وتأديب بل تلطفوا معهم بالقول والفعل وقد عاش المصطفى ﷺ ما عاش وما ضرب بيده خادمًا ولا عبدًا ولا أمة فالعفو أقرب للتقوى فضرب المسلم حرام بل كبيرة والتعبير بالمسلم غالبى فمن له ذمة أو عهد معتبر يحرم ضربه تعديًا (حم ، خد ، طب ، هب ، عن ابن مسعود) عبد الله ، قال الحافظ الهيثمى رجال أحمد رجال الصحيح انتهى فكان حق المؤلف الرمز لصحته ولا يقتصر على تحسينه .

فالواجب على المرء إذا أهديت إليه هدية ، أن يقبلها ولا يردَّها ، ثم يُثيبَ عليها إذا قدَر ، ويشكره عليها ، وإنى لأستحب للناس استعمال بعث الهدايا إلى الإخوان بينهم ، إذ الهدية تورث المحبة ، وتذهب الضغينة .

ولقد حدثنا محمد بن المهاجر ، حدثنا الدارمىّ ، حدثنا عبد الله بن صالح ، أنبأنا الليث ، قال : سَمِعت عبدَ الملك بن رفاعة الفهمىّ يقول : الهديةُ : هو السِّحْر الظاهر .

حدثنى إبراهيم بن أبى أمية الطَرسُوسى ، حدثنا حامد بن يحيى البلْخىّ ، حدثنا سفيان ، قال : لما قعد أبو حنيفة - رحمه الله - قال للناس مُساور الوراق [البسيط] :

كُنَّا مِنَ الدِّينِ قَبْلَ اليَوْمِ فِى سَعَةٍ ... حتَّى بُلِينَا بِأَصْحَابِ المَقَايِيسِ
قَوْمٌ إِذَا اجْتَمَعُوا صَاحُوا كَأَنَّهُمُ ... ثَعَالِبٌ ضَبَحَتْ بَيْنَ النَّوَاوِيسِ (١)

قال : فبلغ ذلك أبا حنيفة ، فبعث إليه بمال ، فقال مُساور حين قبض المال [الوافر]:

إِذَا مَا النَّاسُ يَوْمًا قَايَسُونَا ... بِآبِدَةٍ مِنَ الفُتْيَا طَرِيفَهْ (٢)
أَتَيْنَاهُمْ بِمِقْيَاسٍ صَحِيحٍ ... مُصِيبٍ مِنْ طِرَازِ أَبِى حَنِيفَهْ
إِذَا سَمِعَ الفَقِيهُ بِهَا (٣) وَعَاهَا ... وَأَثْبَتَهَا بِحِبْرٍ فِى صَحِيفَهْ (٤)

وأنشدنى الكريزىّ [الكامل] :

إِنَّ الْهَدِيَّةَ حُلْوَةٌ ... كَالسِّحْرِ تَخْتَلِبُ (٥) القُلُوبَا
تُدْنِى البَعِيدَ مِنَ الهَوَى ... حَتَّى تُصَيِّرَهُ (٦) قَرِيبَا
وَتُعِيدُ مُضْطَغَنَ (٧) الْعَدَا ... وَةِ بَعْدَ بِغْضَتِهِ حَبِيبَا
تَنْفِى السَّخِيمَةَ مِنْ ذَوِى الشَّحْنَا ... وَتَمْتَحِقُ الذُّنُوبَا (٨)

---

(١) لقد كنَّا فى رحبة وفسحة من دين الله إذ إنه ميسور لا عسر فيه ، حتى جاء أهل القياس فضيقوا واسعًا وأفسدوا المجامعَ .
فهم إن اجتمعوا تَذَاءَبُوا وتجادلوا وتضاربوا فى دين الله .
(٢) فى الأصل : ظريفة . (٣) فى الأصل : به .
(٤) إذا ما اجتمع الناس وضجوا من خلاف فى فتيا غامضة شاردة .
رددنا غيهم وأذهبنا جهلهم ، بصحيح المعقول من لآلئ واجتهادات واستنباطات الإمام أبى حنيفة .
وإذا ما سمعها الفقهاء ووعاها العلماء صبَوا لها واهتزوا طربًا وعجبًا من فضلها وعمقها وصحتها.
(٥) فى الأصل : تختلب . (٦) فى الأصل : يُصَيِّرُهُ . (٧) فى الأصل : مَضْطَغَنَ .
(٨) ينبغى على العاقل أن يهادى خلانه وأخدانه ، فالهدية تثبت الوداد وتذهب البعاد وإنها كالسحر تعلق قلب المرء بصاحبه كل تعليق . =

أنبأنا الحسين بن إسحاق الأصبهانىّ بالكرَج ، وإبراهيم بن محمد الدَّستَوائى بتُسْتَر ، قالا : حدثنا محمد بن عبيد بن عتبة الكِندىّ ، حدثنا بكار بن أسود العامرىّ ، حدثنا إسماعيل بن أبان ، قال : بلغ الحسن بن عمارة أن الأعمش يقع فيه ، فبعث إليه بكُسوة، فلما كان بعد ذلك مدحه الأعمش ، فقيل له : كيف تذمه ثم تمدحه ؟ قال : إن خيثمة حدثنى عن عبد الله قال : إن القلوب جُبِلت على حبّ من أحسن إليها ، وبغض من أساء إليها .

قال أبو حاتم - رضى الله عنه : قال لنا هذان الشيخان عن النبىّ ﷺ ، وأنا أهابه قال: والبَشر مجبولون على محبة الإحسان ، وكراهية الأذى ، واتخاذ المحسن إليهم حبيبًا ، واتخاذ المسىء إليهم عدوا .

فالعاقل يستعمل مع أهل زمانه لزوم بعث الهدايا بما قدَر عليه ، لاستجلاب محبتهم إياه ، ويفارق تركه مخافة بغضهم .

ولقد أنشدنى الأبرش [الوافر] :

هَـــدَايَا النَّاسِ بَعْضِهِمُ لِبَعْضٍ تُوَلِّدُ فِى قُلُوبِهِـمُ الْوِصَـــالا
وَتَزْرَعُ فِى الضَّـمِيرِ هَوًى وَوِدا وَتَكْسُـوكَ (١) المَهَابَةَ وَالجَلالا
مَصَايِدُ (٢) لِلقُلُوبِ بِغَيْرِ لَغْبٍ وَتَمْنَحُكَ المَحَبَّةَ وَالجَمَـالا (٣)

حدثنى محمد بن سعيد القزاز ، حدثنا عبد الله بن لقمان البَهْرانىّ النجرانىّ (٤) ، حدثنا موسى بن أيوب ، حدثنا خِداش (٥) بن المهاجر ، عن الحسن بن دينار ، عن ابن سيرين ، قال : كانوا يتهادون الدراهم فى الجُوالقات والأطباق .

قال أبو حاتم - رضى الله عنه : الواجب على العاقل أن يستعمل الأشياء على ما يوجب

= فتدنى البعيد الشغوب وتجعله أليفًا ودودًا قريبًا .

وتبدل الضغينة محبة وفضلاً وتغير السخائم وتغسل الأفئدة من العداوة المتقدة .

وإنها لترضّ ذا الغيظ والحقد فتألفه وتواده وتذهب ضغينة وشحناء قلبه إلى محبة ومودة ، كما أنها تغفر الذنوب وتصلح ذات البين وكفى به فضلاً . وكما قيل : « تهادَوْا تحابوا » .

(١) فى الأصل : ويكسوك . (٢) فى الأصل : تصايد .

(٣) إنما عقلاء الناس من يتوادون ويتآلفون فبهذا تنغرس أصول الوصال وتثبت حبائله فلا تفصم.

وإنها لتزرع عميق الود وجذور المحبة فى الأفئدة كما أنها تزين صاحبها بأثوبة الجلال والفخار .

فهى كأشركة تصيد القلوب وتعاطى المحبة وتنشر المودة والجمال .

(٤) فى الأصل : البحرانى . (٥) فى الأصل : حداش .

الوقت ، ويرضَى بنفاذ القضاء ، ولا يتمنى ضدَّ ما رُزق ، وإن كان عنده الشيء التافه ، لا يجب أن يمتنع من بذله ، لاستحقاره واستقلاله ؛ لأن أهون ما فيه لزوم البخل والمنع ، ومن حقَّر شيئًا منَعَه ، بل يكون عنده الكثرة والقلة فى الحالة سِيان ؛ لأن ما يورث الكثير من الخصال ، أورث الصغير بقدره من الفعال .

حدثنا عمرو بن محمد الأنصارىّ ، حدثنا الغلابىُّ ، حدثنا إبراهيم بن عمر بن حبيب ، عن الأصمعىِّ ، قال : دخلنا على كَهْمَس العابد ، فجاء بإحدى عشرة بُسرة حمراء ، فقال : هذا الجهدُ من أخيكم ، والله المستعان .

وأنشدنى بن زنجى [البسيط] :

إِنَّ الْمُنَى عَجَبٌ لله صَاحِبُهَا ... لَعَلَّ حَتْفَ امْرِىءٍ فِيمَا تَمَنَّاهُ

فَإِنْ تَرَى عِبرًا فِيهِنَّ مُعْتَبَرٌ ... يَجْرِى بِهَا [١] قَدَرٌ ، فَاللهُ أَجْرَاهُ

لا تَحْقِرَنَّ مِنَ الإِحْسَانِ مَحْقَرَةً ... أَحْسِنْ ، فَعَاقِبَةُ الإِحْسَانِ حُسْنَاهُ [٢]

حدثنا محمد بن أيوب بن مُشْكان ، [بطبرِيَةَ قصبة الأُرْدُنّ] [٣] ، حدثنا أبو عتبة ، حدثنا سلمة بن عبد الملك العرضىّ ، حدثنا المعافَى بن عمران ، قال : سمعت ميمون يقول : من رَضِىَ من خُلَّة الإخوان بلا شيء ، فليؤاخِ أهلَ القبور .

حدثنا أحمد بن محمد بن سعيد القيسىّ ، حدثنا محمد بن الوليد بن أبان العُقيلىّ ، حدثنا نعيم بن حماد ، قال : أنشدنى ابن المبارك [البسيط] :

مَا ذَاقَ طَعْمَ الْغِنَى مَنْ لا قُنُوعَ لَهُ ... وَلَنْ تَرَى قَانِعًا مَا عَاشَ مُفْتَقِرَا

وَالْعُرْفَ مَنْ يَأْتِهِ يَحْمَدْ عَوَاقِبَهُ ... مَا ضَاعَ عُرْفٌ ، وَلَوْ أَوْلَيْتَهُ حَجَرَا

---

(١) فى الأصل : لها .

(٢) العاقل من يترقب العواقب ، ويحذر خداع الأمانى ، فلعل بريق المنية فى التماعها وصلتها . وينبغى على المرء أن ينظر بعين عقله ، ويلحظ بفكره عبر الحوادث فيعتبر بها وليعلم أن ذلك إنما هو بقضاء الله وقدره .

وكذلك فلا ينبغى على العاقل الدين أن يحقر من المعروف شيئًا بل يعرف المعروف ويأتيه ويبذل الإحسان ويواليه فهل جزاء الإحسان إلا الإحسان ؟! .

(٣) سقط فى الأصل .

سمعت يوسف بن يونس الفَرْغانيّ يقول : بعث أبو السَّنَوَّر الشاعر ، إلى الأمير أبى الأشعث بطبق ورد يوم النيروز هدية ، وبعث إليه بهذه الأبيات [الطويل] :

بَعَثْنَـــا بِبِرٍّ تافه ، دُونَ قَدْرِكُـــمْ ... وَمَا تُبعَثُ الألْطَافُ لِلْقِلِّ وَالْكُـثْرِ
ولَكِـــــنَّ ظَرْفًا أنْ تَزِيدَ مَـــودَّةً ... فَهَلْ تُكْرِمَنَّا بِالقَبُولِ وَبِالعُـــذْرِ ؟
فَلَـوْ كَانَ بِرِّى حَسْبَ مَا أنْتَ أَهْلُهُ ... أتَاكَ إِذَنْ رُوحِى عَلَى طَبَقِ البِرِّ[1]

سمعت عمر بن محمد الهَمْدانيّ [2] يقول : سمعت وزير [3] بن محمد الغسانيّ يقول: قدم بعض الكتاب العَسْكَر ، فأهدى إليه إخوانه ، وكان فيهم مَنْ قعدت به الحال فوجَّه إليه بدُقَّة وأشنان ، وكتب إليه : « لو تمت الإرادة - جُعِلْت فداءك ! - ببلوغ النية فيه ، وملَّكَتْنى الجِدَة بَسْط القدرة ، لأتعبتُ السابقين إلى برك ، ولَبَرَزْت [4] أمام المجتهدين فى فضلك ، ولكن البضاعة قعدت بالهمة ، وقصَّرت عن مساماة أهل النعمة ، وكرهتُ أن تُطْوَى صحيفة البر ، وليس لى فيها ذكر ، فوجهت إليك بالمبتدأ به ، ليمنه وبركته ، وبالمختوم [به] [5] ، لطيبه ونفعه ، متقصرًا عن [6] اسم التقصير فيه ، فأما ما سوى ذلك فالمعبِّر عنى فيه قول الله - جل وعلا : ﴿ لَيْسَ عَلَى الضُّعَفَاءِ وَلا عَلَى الْمَرْضَى ، وَلا عَلَى الَّذِينَ لا يَجِدُونَ مَا يُنْفِقُونَ حَرَجٌ ﴾ [التوبة : ٩١] والسلام » .

حدثنا محمد بن يوسف الأرمى ، حدثنا إبراهيم بن عبد العزيز الموصلى ، حدثنا محمد بن على بن الفضل المدينى ، حدثنا عبد الله بن شعيب الزبيريّ ، حدثنا محمد بن إسحاق المسيِّبى ، عن القاسم بن المعتمر ، عن حميد بن معيوف ، عن أبيه ، قال : كنت ممن شهد الحكم بن حَنْطُب بمنبج ، وهو يريد أن يموت ، وقد كان لقى من الموت شدة ، فقلت ، أو قال رجل : اللهم هَوِّنْ عليه الموت ، فلقد كان ، ولقد كان ، فأثنى عليه ، فأفاق من غشيته : قال : مَنِ المتكلم ؟ قال المتكلم : أنا ، قال : إن ملك الموت يقول : إنى بكل رجل سَخِيّ رفيق ، قال : ثم كأن فتيلة أُطْفِئَت ، فمات [7] ، فبلغ ابنَ هَرْمَةَ الشاعر موتُه ، فأنشأ يقول [البسيط] :

---

(١) لقد بعثت إليك بهديتى وهى ضئيلة متدنية عن قدركم ولكن ذلك كان للود واللطف ، ورمزًا إلى محبتى ومودتى .

فاقِل عثرتى واغفر لضعف قدرتى أن بعثت إليكم بطبق الورد هذا ، ثم اقبله منى قبولاً حسنًا .

وما ذلك بلائقٍ بكم وبفضلكم وإنما هذا قدر الطاقة وقريب الإطاقة ، ولو بعثت إليكم بما أنت أهله لبعثت بروحى على طبق تصنعون بها ما تشاءون .

(٢) فى الأصل : الهمذانى . (٣) فى الأصل : وزيزة . (٤) فى الأصل : وبرزت .

(٥) سقط فى الأصل . (٦) فى الأصل : مقتصرًا على . (٧) فى الأصل : موتة .

سَأَلا عَنِ المَجْدِ وَالمَعْرُوفِ أَيْنَ هُمَا ؟ فَقُلْتُ : إِنَّهُمَا مَاتَا مَعَ الْحَكَــــم
مَاتَا مَـــعَ الرَّجُلِ المُوفِى بِذِمَّتِــــه يَوْمَ الحِفَــــاظِ إِذَا لَمْ يُوفَ بِالذِّمَــم
مَـــاذَا بِمَنْبِجَ لَوْ تُنْبَشْ مَقَابِرُهَـــا مِنَ التَّهَـــدُّمِ بِالمَعْرُوفِ وَالْكَرَمِ (١)

حدثنا محمد بن المهاجر ، حدثنا محمد بن موسى السمرىّ ، عن حماد بن إسحاق ابن إبراهيم ، عن أبيه ، قال : قيل للمغيرة بن شُعبة : ما بقى من لذتك ؟ قال : الإفضال عَلَى الإخوان ، قيل : فمن أحسنُ الناس عيشًا ؟ قال : من عاش بعيشهِ غيره ، قيل : فمن أسوأ الناس عيشًا ؟ قال : من لا يعيش بعيشه أحد .

* * *

(١) إنما الحكم ضوء للمجد والمعروف والبذل ولما أن توفى ماتا بموته والتحد بلحده . .إذْ لا يقدرهما أحد قدره .

لقد ذهبا وبادا مع الرجل الحفاظ المعطاء الذى لم يزل علَى شيمته وكرمه وفضله موفيًا بذمته قائمًا بالحقوق على أنه لم تُوَفَّ له ذمة ، ولم يقدر حق قدره .

لقد ضمت منبج جسدًا زكيًا وروحًا طاهرة ، ولو قدر أن نبش قبر الحكم بن حنطب لتفجَّرت منه بنوع المعروف والكرم والفضل .

ذِكْرُ اسْتِحْبَابِ التَّفْرِيجِ عَنِ النَّاسِ بِقَضَاءِ الحَوَائِجِ

حدثنا أبو عمرو محمد بن محمود النَّسائيّ ، حدثنا حميد بن زنجويه ، حدثنا محاضر ابن المورِّع ، عن الأعمش ، عن أبي صالح ، عن أبي هريرة ، قال : قال رسول الله ﷺ : « مَنْ نَفَّسَ عَنْ أَخِيهِ كُرْبَةً مِنْ كُرَبِ الدُّنْيَا ، نَفَّسَ اللهُ عَنْهُ بِهَا كُرْبَةً مِنْ كُرَبِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ ، وَمَنْ يَسَّرَ عَلَى مُعْسِرٍ ، يَسَّرَ اللهُ عَلَيْهِ فِي الدُّنْيَا [وَالآخِرَةِ] (١) ، [وَمَنْ سَتَرَ عَلَى مُسْلِمٍ ، سَتَرَ اللهُ عَلَيْهِ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ] (٢) ، وَاللهُ فِي عَوْنِ الْعَبْدِ ، مَا كَانَ الْعَبْدُ فِي عَوْنِ أَخِيهِ » (٣) .

قال أبو حاتم – رضى الله عنه : الواجب على المسلمين كافَّةً نصيحة المسلمين ، والقيام بالكشف عن همومهم وكُرَبهم ؛ لأن من نَفَّس كُربة من كرب الدنيا عن مسلم ، نفس الله عنه كربة من كرب يوم القيامة ، ومن تحرّى قضاء حاجته (٤) ولم يُقْضَ قضاؤها على يديه ، فكأنه (٥) لم يقصر فى قضائها ، وأيسر ما يكون فى قضاء الحوائج استحقاق الثناء(٦)

---

(١) سقط فى الأصل .

(٢) فى الأصل : جاءت قبل جملة : « ومن يسر على معسر . . . » .

(٣) أخرجه مسلم (٤/ ٢٠٧٤) ، كتاب « الذكر والدعاء » ، باب : فضل الاجتماع على تلاوة القرآن حديث (٣٨/ ٢٦٩٩) ، والترمذى (٤/ ٢٦) ، كتاب الحدود ، باب : ما جاء فى الستر على المسلم ، حديث (١٤٢٥) ، (٤/ ٢٨٧ – ٢٨٨) ، كتاب « البر والصلة » ، باب : ما جاء فى السترة على المسلم ، حديث (١٩٣٠) ، وأبو داود (٢/ ٧٠٤) ، كتاب « الأدب » ، باب : فى المعونة للمسلم، حديث (٤٩٤٦) ، وابن ماجة (١/ ٨٢) المقدمة ، باب : فضل العلماء والحث على طلب العلم ، حديث (٢٢٥) ، وأحمد (٢/ ٢٥٢) ، وأبو نعيم فى الحلية (٨/ ١١٩) ، والبغوى فى « شرح السنة » (١/ ٢٢١ – بتحقيقنا) كلهم من طريق الأعمش عن أبى صالح ، عن أبى هريرة مرفوعًا .

قال النووى فى « شرح مسلم (٩/ ٢٨) .

ومعنى (نفس الكربة) : أزالها .

وفيه : فضل قضاء حوائج المسلمين ، ونفعهم بما تيسر من علم أو مال أو معاونة أو إشارة بمصلحة أو نصيحة وغير ذلك ، وفضل الستر على المسلمين ، وقد سبق تفصيله ، وفضل إنظار المعسر ، وفضل المشى فى طلب العلم ، ويلزم من ذلك الاشتغال بالعلم الشرعى ، بشرط أن يقصد به وجه الله تعالى ، وإن كان هذا شرطًا فى كل عباده ، لكن عادة العلماء يقيدون هذه المسألة به ، لكونه قد يتساهل فيه بعض الناس ، ويغفل عنه بعض المبتدئين ونحوهم .

(٤) فى الأصل : قضى جاجة . (٥) فى الأصل : فإنه . (٦) فى الأصل : القناء .

والإخوان يُعْرَفون عند الحوائج ، كما أن الأهل يختبرون عند الفقر ؛ لأن كل الناس فى الرخاء أصدقاء ، وشر الإخوان الخاذل لأخيه عند الشدَّة (١) والحاجة ، كما أن شر البلاد بلدة ليس فيها خِصْب (٢) ولا أمن .

وأنشدنى الكُريزىّ : [الرمل]

خَـــيرُ أَيَّامِ الفَتَى يَوْمٌ نَفَعْ (٣) ... وَاصْطِنَاعُ العُرْفِ أَبْقَى مُصْطَنَـعْ

مَا يُنَالُ الخَيْرُ بِالشَّـــرِّ ، وَلا ... يَحْصُـــدُ الـــزَّارِعُ إِلا مَا زَرَعْ

لَيْـسَ كُلُّ الدَّهْرِ يَوْمًا وَاحِــدًا ... رُبَّمَا انحطَّ الفَتَى ، ثُمَّ ارتَفَعْ (٤)

حدثنا محمد بن سليمان بن فارس ، حدثنا أحمد بن سعيد الدارمىّ ، حدثنا بشر بن عمر ، حدثنا الربيع ، قال : كان الحسن يقول : قضاء (٥) حاجة أخ مسلم، أحب إلىّ من اعتكاف شهرين .

وأنشدنى علىّ بن محمد البسَّامىّ [السريع] :

سَابِقْ إِلَى الخَيْرِ وَبَادِرْ بِهِ ... فَإِنَّ مِنْ خَلْفِكَ مَا تَعْلَمُ

وَقَـــدِّمِ الخَيْرَ فَكُلُّ امْـرِئٍ ... عَلَى الَّذِى قَدَّمَهُ يَقْـدَمُ (٦)

---

(١) فى الأصل : الشديدة . (٢) فى الأصل : حصب . (٣) فى الأصل : يومُ نَفْع .

(٤) إنما أفضل أيام الفتى وأحسنها يوم يصطنع فيه معروف ويبذل فيه فضلاً وينشر فى ربوعه برا فذلك هو اليوم الخير الخير .

ومن زرع خيرًا جناه واعتبق بشذاه ، ومن زرع شرا ، فقد اجتنى خبيث مزروعه ، وأزكم بخبيث كيره .

وهل يحصد الزرع إلا من زرع وصدق الله إذ يقول : ﴿ والبلدُ الطيِّب يَخرُجُ نَبَاتُهُ بإذن ربِّهِ والذى خَبُثَ لا يَخرُجُ إلا نَكِدًا ﴾ .

والدهر لا يبقى على حدثانه شمّ الجبال الراسية وإنما هو يوم ويومًا كما قال أحدهم

أنزلنى الدهر على حكمه ... من شامخ عالٍ إلى خفض

وقال غيره :

وقع الشوائب شيب ... والدهـر بالناس قلب

إن دان يومًا لشخص ... ففى غدٍ يتقلـــب

(٥) فى الأصل : قضى .

(٦) ينبغى على العاقل أن يبادر إلى الخيرات وينتهى عن المنكرات وليخش عُقبى يومٍ لا مناص ولا خلاص منه .

وليقدم الخير فى عاجلته قبل تحسره عليه فى آخرته ، فكل من زرع حصد .

ومن يصنع العرف لا يعدم جوازيه ... لا يذهب العرف بين الله والنـاس

حدثنا [أحمد بن] (١) محمد بن سعيد القيسىّ ، حدثنا محمد بن موسى البصرىّ ، حدثنا الأصمعىّ ، حدثنا أبو معمر شبيب بن شيبة الخطيب ، قال : لما حضرَت (٢) بنَ سعيد بن العاص الوفاة ، قال لبنيه : يا بَنىّ ، أيُّكم يقبل وصيتى ؟ فقال ابنه الأكبر : أنا ، قال : إن فيها قضاءَ (٣) دينى ، قال : وما دينك يا أبت ؟ قال : ثمانون ألفَ دينار، قال : يا أبت فيم أخذتها ؟ قال : يا بنى ، فى كريم سَدَدْتُ به خلَّته ، ورجل جاءنى فى حاجة وقد (٤) رأيت السوء فى وجهه من الحياء ، فبدأت بحاجته قبل أن يسألها.

قال أبو حاتم رضى الله عنه : حقيقٌ علَى من علِم الثواب ، ألا يمنع ما ملك من جاه أو مال ، إذا وجد السبيل إليه ، قبل حلول المنية ، فيبقى عن الخيرات كلها ، ويتأسف علَى ما فاته من المعروف .

والعاقل يعلم أن من صحب النعمة فى دار الزوال ، لم يخلُ من فقدها ، وأن من تمام الصنائع وأهناها ، إذا كان ابتداءً من غير سؤال .

حدثنا عمرو بن محمد ، حدثنا الغلابىّ ، حدثنا محمد بن عبد الرحمن (٥) المهلَّبىّ ، قال : دخل أبو العتاهية على الرشيد ، فقال : سل يا أبا العتاهية ، فقال [الوافر] :

إِذَا كَانَ المَنَالُ بِبَـــذْلِ وَجْـــهِ ... فَلا قَرُبْتُ مِنْ ذَاكَ المَنَالِ (٦) (٧)

وأنشدنى عبد العزيز بن سليمان [الكامل] :

يَبْقَى الثَّنَاءُ وَتَنْفَـــدُ الأَمْـــوَالُ ... وَلِكُلِّ دَهْـــرٍ دَوْلَةٌ وَرِجَـــالُ

مَا نَالَ مَحْمَدَةَ الرِّجَالِ وَشُكْرَهُمْ ... إِلا الصَّبُـــورُ عَلَيْهِمُ المِفْضَالُ (٨)

حدثنى محمد بن عبدل (٩) بن المهدىّ الشعرانىّ ، حدثنا محمد بن يزيد الطَّرْسُوسِىّ ، حدثنا ابن عائشة ، قال : قال أبى : جاء رجل إلى يحيى بن طلحة بن عُبيد الله ،

---

(١) سقط فى الأصل . (٢) فى الأصل : حضر . (٣) فى الأصل : قضى .
(٤) فى الأصل : ومن . (٥) فى الأصل : العزيز . (٦) فى الأصل : النوال.
(٧) ينبغى على العاقل أن يترشد فى أموره وأن يتصاون عن بذل نفسه وعرضه ، وإذا دعاه المنال لإراقة ماء الوجه فتبًا للمنال وللمآل ، إذ لا خير فى نول يعقب ذلة ويورث كسرة ومهانة .
(٨) ينبغى على العاقل أن يكون جوادًا سخيًا باذلاً للمال فى كل حال إذ الثناء باق والفضل محفوظ والأموال ذاهبة بائدة وكل يوم يقلبه الله بما أراد وقدر .
ولن ينال المرء محمدة وفضلاً إلا بصبر وجلد وطول ترزن وعطاء .. فالفضل للمتكرم المفضال .
(٩) فى الأصل : عبدك .

فقال له : هب لى شيئًا ، قال : يا غلام أعطه ما معك ، فأعطاه عشرين ألفًا ، فأخذها ليحملها ، فثقلت عليه ، فقعد يبكى ، فقال : ما يبكيك ؟ لعلك استقللتها فأزيدَك ، قال : لا ، والله ما استقللتها ، ولكن بكيت على ما تأكل الأرض من كرمك ، فقال له يحيى : هذا الذى قلتَ لنا أكثر مما أعطيناك .

قال أبو حاتم - رضى الله عنه : لا يجب الإلحاف عند السؤال فى الحوائج ؛ لأن شدة الاجتهاد ربما كانت سببًا [1] للحرمان والمنع ، والطالب للفلاح كالضَّارب بالقِداح : سهم له ، وسهم عليه ، فإن أُعطِى وجب عليه الحمد ، وإن مُنِع لزمه الرضاءُ بالقضاء . ولا يجب أن يكون السؤال إلا فى ديار القوم ومنازلهم ، لا فى المحافل والمساجد والمَلأ [2] ؛ لأن [3] محمد بن محمود النَّسائىّ حدثنا ، قال : حدثنا على بن خَشْرم ، حدثنا جرير ابن عبد الحميد الضبىّ ، عن حُنَيف المؤذن ، قال : قال عمر بن الخطاب رضى الله عنه : لا تسألوا الناس فى مجالسهم ومساجدهم فتُفْحِشوهم ، ولكن سلوهم فى منازلهم ، فمن أعطى أعطى ، ومن مَنَع مَنَع .

قال أبو حاتم رضى الله عنه : الذى قاله عمر بن الخطاب - رضى الله عنه - ورضوانه إذا كان المسئول كريمًا ؛ فإنه إن [4] سئل الحاجة فى نادى قومه ولم يكن عنده قضاؤها ، تَشَوَّرَ [5] وخجل . وأما [6] إذا كان المسئول لئيمًا ، ودُفع المرء إلى مسألته فى الحاجة تقع له ، فإنه إن سأله فى مجلسه ومسجده ، كان ذلك عندى أقضى لحاجته ؛ لأن اللئيم لا يقضى الحاجة ديانة ولا مُروءة ، وإنما يقضيها إذا قضاها ، طلبًا للذكر [7] والمحمَدة فى الناس .

على أنى أستحبّ للعاقل أن لو دفعه الوقت إلى أكل القِدِّ ومَصِّ الحصَى ثم صبَر عليه، لكان أحرى به من أن يسأل لئيمًا حاجة ؛ لأن إعطاء اللئيم شَين ، ومنعه حَتْف .

ولقد أنشدنى محمد بن عبد الله البغدادىّ [الوافر] :

إِذَا أَعْطَى القَلِيلَ فَتًى شَرِيفٌ ... فَإِنَّ قَلِيلَ مَا يُعْطِيكَ [8] زَيْنُ
وَإِنْ تَكُـــنِ العَطِيَّةُ مِنْ دَنِيٍّ ... فَإِنَّ كَثِيرَ مَا يُعْطِيكَ شَيْنُ [9]

---

(1) فى الأصل : سببٌ .
(2) الملأ : الجماعة من القوم أو أشرافهم وأولو الرأى فيهم .
(3) فى الأصل : كان .
(4) فى الأصل : ربما .
(5) فى الأصل : فَتَشَوَّرَ .
(6) فى الأصل : فأما .
(7) فى الأصل : طلب الذكر .
(8) فى الأصل : أعطاك .
(9) ينبغى على العاقل أن يتقنع بالقليل ويستطيب النفس به فمن طعم ونال كسرة فقد طابت نفسه. وأمن سره وهنئ بِسربِهِ وليس مثله فى الناس أحدٌ .
إلا من تقنع بتقنعه وتغدى وطعم قبله .

أنبأنا أحمد بن محمد بن الفضل السِّجستانى بدمشق ، حدثنا على بن خَشْرَم قال : سمعت سعيد بن مسلم (١) بن قُتيبة بن مسلم الباهلىّ يقول : خرجت حاجا ، فمللت المحمَل ، فنزلت أساير القُطُرات ، فإذا أنا بأعرابى ، فقال لى : يا فتى لمن الجمال بما عليها ؟ قلت : لرجل من باهلة . قال : يا (٢) لله أن يعطَى الله باهليا كلَّ ما أرى ! قال: فأعجبنى ازدراؤه بهم ، ومعى صرَّة فيها مائة دينار ، فرميت بها إليه ، فقال : جزاك الله خيرًا ! وافقت منى حاجة . فقلت : يا أعرابىُّ ، أيسرك أن يكون الجمال بما عليها لك وأنت من باهلة ؟ قال : لا ، قلت : أفيسرك أن تكون من أهل الجنة وأنت باهلىّ ؟ قال : بشرط ألا يعلم أهل الجنة أنى من باهلة . فقلت : يا أعرابى، الجمال بما عليها لى وأنا من باهلة . قال : فرمى بالصُّرة إلىّ ، فقلت : سبحان الله ! ذكرتَ أنها وافقت منك حاجة، قال : ما يسرنى أن ألقى الله ولباهلىّ عندى يد .

فحدثت بها (٣) المأمون ، فجعل يتعجب ويقول : ويحك يا سعيد ! ما كان أصبرك عليه !

حدثنا محمد بن الرقام بتُستَرَ ، حدثنا أبو حاتم السِّجستانى ، حدثنا الأصمعىّ ، حدثنا هاشم بن القاسم قال : سألت سالم بن قتيبة حاجة ، فقضاها ، ثُمَّ سألته أخرى، فانتهرنى ، وقال : حاجتين فى حاجة ، أو قال : على الريق ؟ ثم دعا بالطعام، فلما تغدَّى قال : هات حاجتك ، أما سمعت قول الصبيان [الرجز] :

إِذَا تَغَدَّيْتُ وَطَابَتْ نَفْسِى   فَلَيْسَ فِى الحَىِّ غُلامٌ مِثْلِى

* إلا غُلامٌ قَدْ تَغَدَّى قَبْلِى *

أنبأنا عمرو بن محمد ، حدثنا الغلابىّ ، حدثنا مهدىّ بن سابق ، عن عطاء بن مصعَب ، قال : قال أبو عمرو المنذرىّ (٤) : أتيت مسلم بن قتيبة فى حاجة ، وكان له صديق من أهل الشام ، فكلمته أن يكلمه فى حاجتى ، فجعل يقول : اليومَ ، وغدًا ، فأطال علىّ ، فتراءيت له ، وقد كان يعرفنى ، فدعانى ، فقال : أبا عمرو ، إنك لها هنا ؟ قلت : نعم ، أطالبك بحاجة منذ كذا وكذا ، وسيلتى فيها فلان . فضحك ، وقال : قد كنتُ أراك قد أحكمت الآداب ، لا تستعن إلى من تطلب إليه حاجة بمن له

(١) فى الأصل : سالم .
(٢) فى الأصل : تا .
(٣) فى الأصل : به .
(٤) فى الأصل : المدينى .

عنده طُعمةٌ (١) ، فإنه لا يؤثرك على طُعمته ، ولا تستعن بكذاب ؛ فإنه يقرب لك البعيد، ويبعد لك القريب ، لا تستعن بأحمق ؛ فإن الأحمقَ يَجهد لك نفسه ، ولا يكون عنده شىء ، ولا يبلغ لك ما تريد . فانصرفت فقلت : يكفينى هذا . قال : لا ، ولكن تُقْضَى لك حاجتك ، فقضاها .

قال أبو حاتم - رضى الله عنه : لا يجب للعاقل أن يتوسَّل فى قضاء الحوائج بالعدوِّ، ولا بالأحمق ولا بالفاسق ، ولا بالكذاب ، ولا بمن له عند المسئول طُعْمة ، ولا يجب أن يجعل حاجتين فى حاجة ، ولا أن يجمع بين سؤالٍ وتَقَاضٍ ، ولا يظهر (٢) شره الحرص فى اقتضاء حاجته ، فإن الكريم يكفيه العلم بالحاجة ، دون المطالبة والاقتضاء .

ولقد أنشدنى منصور بن محمد الكُريزىّ [الكامل] :

وَإِذَا طَلَبْتَ إِلَى كَرِيمٍ حَاجَةً ... فَاصْبِرْ وَلاتَكُ لِلْمِطَالِ مَلُولا
لا تُظْهِرَنْ شَرَهَ الحَرِيصِ ، وَلا تَكُنْ ... عِنْدَ السُّؤَالِ إِذَا نَهَضْتَ ثَقِيلاً (٣)

وأنشدنى محمد بن إسحاق الواسطى العَزْرَمِىّ : [الكامل]

وَإِذَا طَلَبْتَ إِلَى كَرِيمٍ حَاجَةً ... فَحُضُورُهُ يَكْفِيكَ وَالتَّسْلِيمُ (٤)
فَإِذَا رَآكَ مُسَلِّمًا عَرَفَ الَّذِى ... حَمَّلْتَهُ فَكَأَنَّهُ مَلْزُومُ (٥)

قال أبو حاتم - رضى الله عنه : العاقل لا يستخِطّ ما أُعطِى ، وإن كان تافهًا ؛ لأن من لم يكن له شىء ، فكل شىء يستفيده ربح ، ولا يجب أن يسأل الحاجة كل إنسان ؛

---

(١) الطعمة بالضم : عمل أو شىء يرتزق منه .
(٢) فى الأصل : يظهره .
(٣) من كان مبتغيًا حاجة فليلاحظ الكريم وسائله ، وليصبر عليه ، ولا يستطيل مدته ولا يمل مطال حاجته .
وعليه ألا يكون شرهًا ذميمًا ، ولا بليدًا ثقيلاً وشرّ ذلك إن شره فى الحرص ، وثقل عند الواجب فبئس ذلك شرهًا وثقلاً .
(٤) الرواية المشهورة : فلقاؤه يكفيك . . . إلخ .
(٥) وينبغى على العاقل إن اضطر إلى بذل وجهه فليبذله للمتكرم المفضال فإذا رآه والاه وبالفضل مانه وأولاه وتكفى حضرته وتسليمه وفى النفس حاجات وفيه فطانة .
فإذا ما أبصرك سبر غورك وعرف مطلبك وكان وسمك ملزمًا له .
وفى ذلك يقول الشافعى :
وإذا قصـــدت لحاجة ... فاقصد لمقترف بفضلك
وقال غيره :
أأذكر حاجتى أم قد كفانى ... حيـــاؤك إن شيمتك الحياء ؟!

فربَّ مهروبٍ منه ، أنفع من مستغاثٍ إليه ، ولا يجب أن يكون السائل متشفعًا (١) لآخر، لأن من لم يقدر على أن يَسْبح ، فلا يجب أن يحمل على عنقه آخر . ومن سُئل فليبذُل ؛ لأن مال المرء نصفان : له ما قدم ، ولوارثه ما خلَف . وأقرب الأشياء فى الدنيا زوالا : المال والولاية . والتعاهد للصنيعة بالتحفظ عليها أحسن من ابتدائها ، ومن غرس غِراسًا فلا يَضنَنْ بالنفقة على تربيته ، فتذهب النفقة الأولى ضَيَاعًا .

حدثنى محمد بن أبى على الخلادىّ ، حدثنى محمد بن أبى يعقوب الربَعىّ ، حدثنا عبد الكريم بن محمد الموصلى ، حدثنا أبى ، قال : سمعت أبا تمامٍ حبيبَ بن أوس الطائىَّ ، يقول : وقفت على باب مالك بن طَوْق الرَّحَبىّ أشهرًا ، فلم أصل إليه ، ولم يعلم بمكانى ، فلما أردت الانصراف قلت للحاجب : أتأذَن لى إليه (٢) أم أنصرف ؟ قال: أما الإذن فلا سبيل إليه ، قلت : فإيصال رُقْعة ؟ قال : [لا] (٣) ، ولا يمكن هذا، ولكن هو خارج اليوم إلى بستانه ، فاكتب الرقعة ، وارم بها فى موضع أرانيه الحاجب ، فكتبتُ : [المتقارب]

لَعَمْرِى ، لَئِنْ حَجَبَتْنِى الْعَبِيدُ ... عَنْكَ ، فَلَمْ تُحْجَبِ الْقَافِيَهْ
سَـــأَرْمِى بِهَا مِنْ وَرَاءِ الْجِـدَا ... رِ شَنْعَاءَ تَأْتِيكَ بِالدَّاهِيَـــهْ
تُصِـمُّ السَّمِيعَ وَتُعْمِى الْبَصِيرَ ... وَمِنْ بَعْدِهَا تَسْأَلُ الْعَافِيَهْ (٤)

فكتبت بها ، ورميت بها فى المكان الذى أرانيه الحاجب ، فوقعت بين يديه ، فأخذها، فنظر فيها ، فقال : علىَّ بصاحب الرقعة ، فخرج الخادم ، فقال : (٥) من صاحب الرقعة ؟ قلت : أنا ، فأُدخلت عليه ، فقال لى : أنت صاحب الرقعة ؟ فقلت: نعم ، فاستنشدنى ، فأنشدته ، فلما بلغت « ومن بعدها تسألُ العافيهْ » قال : لا ، بل نسأل العافية مِن قبلها ، ثم قال : حاجتك ؟ فأنشأت أقول : [الكامل]

---

(١) فى الأصل : مشفعًا .	(٢) فى الأصل : عليه .	(٣) سقط فى الأصل .

(٤) هنا يقول أبو تمام لعمرى يا مالك بن طوق لئن احتجبت واختفيت عن العين فلن تحجب أنت عن القافية .

بل سأقذف بها من وراء الحجب والجدر فتصلك وأعظم بها داهية دهياء وظلامة عمياء .

ولعله يكنى بذلك عن الهجاء اللاذع الذى سيعده لمن احتجب عنه ، وهو مالك بن طوق .

وهذه القصيدة تصم السميع وتسمل ذا البصر فتعميه وتكشف ما طوى من صحاف الفضائح دون المدائح حتى تلتهب وتعتقب فتسأل الله العافية .

(٥) فى الأصل : الخدم فقالوا .

مَـاذَا أَقُولُ إِذَا انصَرَفْتُ ، وَقِيلَ لِى: مَــــاذَا أَصَبْتَ مِنَ الجَوَادِ المُفْضِلِ ؟
إِنْ قُلْتُ : أَغْنَانِى كَذَبْتُ ، وَإِنْ أَقُلْ: ضَنَّ الجَوَادُ بِمَالِهِ ، لَم يَجْمُــــلِ
فَاخْتَــــــرْ لِنَفْسِكَ مَا أَقُولُ ، فَإِنَّنِى لا بُدَّ أُخْبِرُهُمْ ، وَإِنْ لَمْ أُسْــأَلِ (١)(٢)

فقال : إذن والله لا أختار إلا أحسنها ، كم أقمت ببابى ؟ قلت : أربعة أشهر ، قال: يعطى بعدد أيامه ألوفًا ، فقبضت مائةً وعشرين ألفَ دِرهم .

سمعت محمد بن نصر بن نوفل بقُوقِل يقول : سمعت أبا داود السِّنجِىّ يقول : كان ببغداد رجل يقال له ابن الهفت ، فمر يومًا على سائل واقف على الجسر ، وهو يقول : اللهم ارزق المسلمين ، حتى يُعطونى ، فقال له : تسأل ربك الحِوالة ؟

* * *

(١) فى الأصل : تقدم هذا البيت على الذى قبله .

(٢) ماذا أقول لمن خلفى ممن ينتظرون عودتى ونجعتى ... ألا تراهم يكتنفونى بالسؤل والاستخبار ماذا فعلت وما أتيت .. وما أصبت وماربحت ..

وكيف أرد جوابًا أأكذب أن أغنانى من فضله وما اغتنيت أم يجمل أن أشهر بك فأبوح بأن ما سخيت ولا أعطيت .

فاختر يا ذا العينين الباصرتين علامَ أعول وكيف أتحول فلا بد من خبر مبثوث بين العِهْنِ المنفوش .

ذِكْرُ الحَثِّ عَلَى إِعْطَاءِ السُّؤَّالِ ، وَطَلَبِ المَعَالِى

حدثنا محمد بن صالح الطبرىّ بالصَّيْمرة ، حدثنا أبو كُرَيب محمد بن العلاء الهَمْدانىّ ، حدثنا مصعَب بن المقدام ، حدثنا سفيان ، عن محمد بن المنكدر ، عن جابر ، قال : « مَا سُئِلَ رَسُولُ الله - ﷺ - شيئًا قطُّ فقالَ : لا ، ولا ضَرَبَ بِيَدِه شيئًا قطُّ »(١) .

قال أبو حاتم - رضى الله عنه : إنى لأستحبُّ للمرء طلبَ المعالى من الأخلاق ، مع ترك ردّ السؤال ؛ لأن عدم المال خير من عدم محاسن الأخلاق ، والندامة مُوكَّلة بترك معالجة الفرصة ، وإن الحرَّ حقَّ الحُرِّ من أعتقَته الأخلاق الجميلة ، كما أن أسوأ العبيد من استعبدته الأخلاق الدَّنيّة ، ومن أفضل الزاد فى المعاد اعتقاد المحامد الباقية ، ومن لزم معالىَ الأخلاقِ ، أنتجَت سلوكها فِراخًا تطير بالسرور .

ولقد حدثنى محمد بن سعيد القزاز ، حدثنا هارون بن صَدَقة القاضى ، حدثنا المسيب ابن واضح قال : سمعت يوسف بن أسباط يقول : ما كان المال منذ كانت الدنيا أنفعَ منه فى هذا الزمان .

وأنشدنى محمد بن عَبد الله بن زنجىّ البغدادىّ : [الكامل]

بَـــادِرْ هَوَاكَ إِذَا هَمَمْتَ بِصَالِحٍ   خَوْفَ العَوَائِقِ أَنْ تَجِىءَ فَتَغْلِبُ
وَإِذَا هَمَمْـــتَ بِسَىءٍ فَتَعَـــدَّهُ   وَتَجَنَّبِ الأَمْرَ الَّذِى يُتَجَنَّبُ (٢)

---

(١) أخرجه البخارى (١٠/ ٤٥٥) ، كتاب « الأدب » ، باب : حسن الخلق والسخاء ، حديث (٦٠٣٤) ، ومسلم (٤/ ١٨٠٥) ، كتاب « الفضائل » ، باب : ما سئل رسول الله ﷺ شيئًا قط ، فقال : لا حديث (٥٦/ ٢٣١١) ، والترمذى فى « الشمائل » (٣٥٣) ، وأحمد (٣/ ٣٠٧) ، وابن أبى شيبة (١١/ ٥١٥) ، والحميدى (١٨٢٨) ، والطيالسى (٢/ ١٢١ - منحة) رقم (٢٤٣٧) ، والدارمى (١/ ٣٤) ، باب : فى سخاء النبى ﷺ وأبو يعلى (٤/ ٦) رقم (٢٠٠١) ، وأبو الشيخ فى « أخلاق النبى ﷺ » (ص ٥٩) ، وابن حبان (٨/ ٩٨ - ٩٩) رقم (٦٣٤٢) ، (٦٣٤٣) ، والبغوى فى « شرح السنة » (٧/ ٤١ - بتحقيقنا) كلهم من طريق سفيان عن محمد بن المنكدر عن جابر به .
قال الحافظ فى « الفتح » (١٠/ ٤٧٢ - ٤٧٣) .

(٢) ينبغى على العاقل أن يبادر بالفضل حين فورته ويبذله حين ثورته فما أبغض العجلة إلا عن برٍّ توليه وسائل تعطيه وإلا شغلتك الشواغل ولَهتّك عن الفضائل . .

وإذا ما همست إليك نفسك بسوء فنابذها وتاركها وعدٍّ عن سوئها ، واحذر ما يحذر منها فتلك شيمة ذوى الفضل .

قال أبو حاتم - رضى الله عنه : ما ضاع مال ورّث صاحبه مجدًا ، ولولا المتفضلون مات المتجملون ، وليس يستحق المرء اسم الكرم بالكفّ عن الأذَى ، إلا أن يقرُنَهُ بالإحسان إليهم ، فمن كثَّرَ فى الخير رغبتَه ، وكان اصطناع المعروف همته ، قصده الراجون ، وتأمله [١] المتأملون ، ومن كان عيشه وحدَه ، ولم يعش بعيشه غيره ، فهو - وإن طال عمره - قليل العمر . والبائس من طال عمره فى غير الخير ، ومن لم يتأسَّ بغيره فى الخير كان عاجزاً ، كما أن من استحسن من نفسه ما يستقبحه من غيره كان كالغاشِّ لمن تجب عليه نصيحته ، ومن لم يكن [٢] له هِمة إلا بطنه وفَرْجه ، عُدَّ من البهائم ، والهمة تبلّغ الرتبة العالية ؛ لأن الناس بهممهم .

ولقد حدثنا عمرو بن محمد الأنصارىّ ، حدثنا الغلابىّ ، حدثنا [٣] ابن عائشة ، قال: قال عُبيد الله بن زياد بن ظَبْيان : كان لى خال من كَلْب ، فكان يقول لى : يا عبيدَ الله ، هُمَّ ، فإن الهمة نصف المروءة .

وأنشدنى محمد بن إسحاق الواسطىّ [الرمل] :

قَــدْ بَلَوْنَا النَّاسَ فِى أَخْلَاقِهِمْ ... فَـــرَأَيْنَاهُمْ لِذِى المَالِ تَبَــعْ
وَحَبِيــبُ النَّاسِ مَنْ أَطْمَعَهُمْ ... إِنَّمَا النَّاسُ جَمِيعًا بِالطَّمَعْ [٤]

حدثنا عمر بن حفص البزاز بجند يسابور [٥] ، حدثنا إسحاق بن الضيف ، حدثنا الحسن بن واقع الرملىّ ، حدثنا ضَمْرة بن ربيعة ، قال : سمعت كُدَيْرًا أبا سليمان الضبىّ يقول : كان لقصْر إبراهيم [الخليل صلى الله عليه وسلم] [٦] ثمانيةُ أبواب ، من حيث جاء السائل أُعطِى .

حدثنا محمد بن أحمد الرقام بتُسْتَر ، حدثنا إسحاق بن الضيف ، حدثنا أبو مُسْهِر ، حدثنا سعيد بن عبد العزيز : أن الحسن بن على بن أبى طالب - رحمة الله عليه - سمع رجلاً إلى جنبه يسأل الله أن يرزقه عشرة آلاف درهم ، فانصرف ، فبعث بها إليه .

وأنشدنى الكريزىّ [البسيط] :

---

(١) فى الأصل : ويأمله . (٢) فى الأصل : تكن .
(٣) فى الأصل : حدثنا محمد بن عبيد الله .
(٤) لقد استخبرنا الناس واستبعنا خبرهم . . فعهدناهم تبع للمال وذويه عبيد جمعه وحَرْزِهِ .
وكذلك ابتصرنا وخبرنا أنهم أوّداء وأحباء لمن أطمعهم ولوح إليهم بالبذل والعطاء .
(٥) فى الأصل : بجندى نيسابور . (٦) سقط فى الأصل .

لا تَحْقِـرَنَّ صَنِيعَ الخَيْــرِ تَفْعَلُـــهُ   وَلا صَغِيــرَ فِعَالِ الشَّرِّ مِنْ صِغَـرِهْ
فَلَوْ رَأَيتَ الَّذِى استَصْغَرْتَ مِنْ حَسَــنٍ   عِنْدَ الثَّوَابِ (١) أَطَلْتَ العُجْبَ مِنْ كِبَرِهْ (٢)

سمعت أحمد بن محمد بن عبد الله اليمانى (٣) يقول : سمعت صالح بن آدم يقول : أنشد إنسان عند عبد الله بن جعفر هذين البيتين [الكامل] :

إِنَّ الصَّنِيعَـــةَ لا تَكُونُ صَنِيعَــــةً   حَتَّى يُصَابَ بِهَا طَرِيقُ المَصْنَــــعِ
فَإِذَا صَنَعْتَ صَنِيعَةً فَاعْمِـــــدْ بِهَا   للهِ ، أَوْ لِذَوِى القَرَابَةِ ، أَوْ دَعِ (٤)

فقال عبد الله بن جعفر : إن هذين البيتين ليُبَخِّلان الناس ؛ ينبغى لمن عمل بهذا أن يدعوَ لمن طلب حاجة بالبينة ، بل تُبثُّ الصنائع ، ويُرْمَى بها مواضعَ القَطر حيث حلَّت، وفى مثله يقول العتابىّ : [الطويل]

لَهُ فِى ذَوِى المَعْرُوفِ نُعْمَى ،كَأَنَّهُ(٥)   مَــوَاقِعُ مَاءِ القَطْرِ فِى البَلَدِ القَفْــرِ
إِذَا مَا أَتَاهُ السَّائِلُــــونَ لِحَاجَــــةٍ   عَلَتْهُ (٦) مَصَابِيحُ الطَّلَاقَةِ وَالْبِشْرِ (٧)

حدثنا أحمد [بن محمد] (٨) بن سعيد القيسىّ ، حدثنا أحمد بن مسروق ، حدثنى

---

(١) فى الأصل : النوائب .

(٢) ينبغى على العاقل ألا يحاقر صغيراً من الخير أن يكسبه ، ولا أن يستهين بضئيل من الشر أن يفعله .

فإنما الصغير أساس الكبير وهل السيل إلا من قطرة أو الجبل إلا من حبيبات وصخرة ؟! وعندما يبصر ديوان الصغائر فإنه يعجب ويضج لعظمها وكبرها . .

(٣) فى الأصل : اليمامى .

(٤) إنما البر والمعروف صنائع ولا تعرف الصنائع إلا باتباع طرائق مصنعها ، فالأحمق من يعلق الجواهر فى أعناق الخنازير .

وليعمد الصانع إلى بذل صنائعه لوجه ربه وليبادر بها ذويه وهكذا تورد الصنائع وإلا فليهاجرها وليتاركها إذ الحمد معدوم ولا المال باقيًا .

(٥) فى الأصل : كأنها .   (٦) فى الأصل : عليه .

(٧) وخير من معنى البيتين السابقين هذان البيتان فيقول :

هذا الفاضل عطاؤه جذلاً ، ولا يمنع رِفْده أحدًا وإنما هو سحّ هطال كالقطر يعم القفور وذوى الحاجات لا أن يحبسها عن فئام دون فئام .

وإذا ما قصده وَصَمَدَهُ السائلون يبتغون الحاجة فإنه يتهلل مُسْتَبْشِراً طلقًا سموحًا كما قال أحدُهم :

أحادث ضيفى قبل إنزال رحله   ويخصب عندى والمكان جديب

(٨) سقط فى الأصل .

ابن أبى سعيد عن شيخ له ، قال : رأيت ابن المبارك يَعَضُّ يد خادم له ، فقلت له : تعضُّ يدَ خادمك ؟ قال : كم آمره أن لا يعُدَّ الدراهم على السُّؤَّال ، أقولُ له : احْثُ لهم حَثْواً .

حدثنا عمرو بن محمد ، حدثنا الغلابىّ ، حدثنا محمد بن عبد الرحمن بن القاسم ، عن أبيه ، قال : قال إبراهيم بن أبى البلاد ، حدثنى أخى ، قال : رأيت الحجاج بمِنًى فى عمله على العراق ، وقام إليه رجال من أهل الحجاز يسألونه ، فقال : توهمتم بنا أنَّا بغير بلادنا ومالَكم منزل ، مَن هاهنا من أهل العراق ؟ فقام إليه تجار أهل العراق ، فقال: هل من سَلَف ؟ فقالوا : نعم ، فحملوا إليه ألف ألف درهم ، فَقَسَمها ، فلما قدم العراق ردّها ، وأكثر ظنى أنها ومثلَها معها .

قال أبو حاتم - رضى الله عنه : الواجب على العاقل أن يبدأ بالصنائع والإحسان الأفرض فالأفرضَ ، يبدأ بأهل بيته ، ثم بإخوانه وجيرانه ، ثم الأقرب فالأقرب ، ويتحرَّى فى المعروف والإحسان فى أهل الدين والعلم منهم ، ويتجنب ضدَّ ما قلنا ؛ لأن مثَلَ من لم يفعل ما أوْمَأنا إليه ، كما أنشدنى الحسين بن أحمد البغدادىّ : [الطويل]

تَصُولُ عَلَى الأدْنَى ، وتَجتَنبُ العدَا ... وَمَا هكَــــذَا تُبْنَى المَكَــارِمُ يَا يَحْيَى
فَكُنْتَ كَفَحْلِ السُّــوءِ يَنْزُو (١) بِأمِّهِ ... ويَتْرُكُ بَاقِى الخَيْلِ سَائِمَةً (٢) تَرْعَى (٣)

وأنشدنى البسامىّ : [الويل]

وَكُنْتَ كَمُهْرِيقِ الَّذِى فِى سِقَائِــهِ ... لِرَقْــــرَاقِ مَاءٍ فَوْقَ رَابِيَةٍ صَلْـــــدِ
كَمُرْضِعَةٍ أوْلادَ أُخْرَى ، وَضَيَّعَتْ ... بَنِى بَطْنِهَا ، هَذَا الضَّلالُ مِنَ (٤) القَصْدِ (٥)

---

(١) فى الأصل : يبدأ . (٢) فى الأصل : سالمة .

(٣) إن من شرار الناس وأدناهم من يصول ويجول على الأدنى الضعيف فينابذه ويسن له اللُّسْن الحداد ، والحسم الشداد ثم هو يعجز ويدنو عن مجابهة العدو ، ما هكذا تكون المكارم أو الشجاعة يا «يحيى» .

وإنما حال من هذه حاله كحال فحل سوء اعتلى أمه وأعجم عن باقى الخيل أن يهادرها فضلاً أن يباشرها .

(٤) فى الأصل : مع .

(٥) ومن ابتدأ بغير أهله وعشيرته ومثاله كمن أهرق ماءه ومحفوظه منه اغتراراً بسراب رقراق فوق أرض عالية صلدة فلا انتفع بمائه فصانه ولا أدرك ما أمل وصاله .

وكان كمن حنث والبنت لغير أولادها ثم منعتهم فلم يصيبوا منها - وهى أمهم - لقمةً مُرَّةً ولا حلوة وذلك هو الضلال البعيد .

قال أبو حاتم – رضى الله عنه : العاقل يبتدىء بالصنائع قبل أن يُسْأل ؛ لأن الابتداء بالصنيعة أحسن من المكافأة عليها ، والإمساك عن التعرض خير من البذل ، والصنائع إنما تحسن بإتمامها ، والتحافظ عليها بعدها ؛ لأن بصلاح الخواتم تزكوا الأوائل ، والعطيةُ بعد المنع أجمل من المنع بعد العطية ، والناس فى الصنائع على ضربين : شاكرٍ وكافرٍ ، ولقد أنشدنى بعض إخواننا [الطويل] :

وَمَا النَّاسُ فِى حُسْنِ الصَّنِيعَةِ عِنْدَهُمْ ... وَفِى كُفْرِهِمْ إِلا كَبَعْضِ المَــزَارِعِ

فَمَــزْرَعَةٌ طَابَتْ وَأَضْعَفَ رَيْعُهَا (١) ... وَمَــزْرَعَةٌ أَكْدَتْ عَلَى كُلِّ زَارِعِ (٢)

وأنشدنى محمد بن عبد الله البغدادىّ : [الطويل]

وَمَــنْ يَضَعِ المَعْــرُوفَ فِى غَيْرِ أَهْلِهِ ... يَكُنْ ضَائِعًا فِى غَيْرِ حَمْدٍ وَلا أَجْــرِ

وَحَسْبُ امْرِئٍ مِنْ كُفْرِ نُعْمَى جُحودُهَا ... إِذَا وَقَعَتْ عِنْدَ امْرِئٍ غَيْـرِ ذِى شُكْرِ (٣)

وأنشدنى محمد بن إسحاق الواسطى [الطويل] :

لَعَمْرُكَ مَا المَعْرُوفُ فِى غَيْرِ أَهْلِهِ ... وَفِى أَهْلِهِ إِلا كَبَعْضِ الوَدَائِــعِ

فَمُسْتَــوْدَعٌ ضَاعَ الَّذِى كَانَ عِنْـدَهُ ... وَمُسْتَوْدَعٌ مَا عِنْدَهُ غَيْرُ ضَائِــعِ

قال أبو حاتم – رضى الله عنه : الهَمَج من الناس إذا أُحْسِن إليه ، يرى ذلك استحقاقًا منه [له] (٤) ، ثم يرى الفضل لنفسه على المحسن إليه ، فلا يحمَد عند الخير، ولا يشكر عند البر ، ويتعجب ممن يشكر ، ويذُمّ مَن يَحمد ، وإذا امتُحِن العاقل بمثل مَنْ (٥) هذا نعتُه ، استعمل معه ما أنشدنى الكريزى [الرمل] :

إِنَّ ذَا اللُّــؤْمِ إِذَا أَكْرَمْتَهُ ... حَسِبَ الإِكْرَامَ حَقا لَزِمَكْ

---

(١) فى الأصل : فاضعف زَرْعها .

(٢) إنما الناس فى شكر الصنيعة وكفرها صنوفٌ وأزواج كمزارع تنضح بالبذر وتمنح الرى .

فمن بين مزرعة تطيب وتخرج ثمارها فكأنها شكرت زارعها ، وبين مزرعة استمنعت وامتنعت عن الإنبات وشكران صانعها .

(٣) ينبغى على العاقل أن يبتدر بفضله ومعروفه أهلَه وذويه ومن غرس الفضل فى غير ذويه ضاع معروفهُ ، واستدبره الحمد وتنكبه الأجر .

ومن لم يشكر رب نعمته ويوليه بالحمد والثناء فحسبه بذلك جحود وكفران .

(٤) سقط فى الأصل .

(٥) فى الأصل : بمن .

فَأَهِنْـــهُ بِهَـــوانٍ ، إنَّهُ إنْ تُهِنْهُ بِهَوانٍ أَكْرَمَـــكْ

وأنشدني الأبرش : [الوافر]

إذَا أَوْلَيْتَ مَعْـــرُوفًا لَئِيمًا يَعُـــدُّكَ قَدْ قَتَلْتَ لَهُ قَتِيـــلا
فَكُـــنْ مِنْ ذَاكَ مُعْتَـــذِرًا إلَيْهِ وَقُـــلْ : إنِّى أَتَيْتُكَ مُسْتَقِيلا
فَإنْ تَغْفِرْ ، فَمُجْتَرَمِى [1] عَـظِيمٌ وَإنْ عَاقَبْتَ لَمْ تَظْلِمْ فَتِيـــلا
وَلَسْـــتُ بِعَائِدٍ أَبَدًا لِهَـــذَا وَقَدْ حَمَّلْتَنِى حِمْـــلاً ثَقِيـــلا

قال أبو حاتم - رضى الله عنه : أهنأ الصنائع ، وأحسنُها فى الحقائق ، وأوقعُها بالقلوب ، وأكثرُها استدامةً للنعم ، واستدفاعًا للنقم ، ما كانت خالية عن المِنَن فى البَداءة والنهاية ، فإذا كانت البدايةُ خالية عن السؤال ، والنهاية متعرية عن الامتنان ، فهو الغايةُ فى الصنيعة ، والنهايةُ فى الإحسان .

ولقد أنشدنى محمد بن عبد الله البغدادىّ [2] [الرجز] :

أَحْسَنُ مِنْ كُلِّ حَسَنْ [3] فِى كُلِّ وَقْتٍ وَزَمَنْ [4]
صَنِيعَـــةٌ مَـــرْبُوبَةٌ خَالِيَـــةٌ مِنَ المِنَـــنْ

حدثنا محمد بن غَدّار [5] بن محمد الحارثى بالبصرة ، حدثنا سهل بن زادويه [6] ، حدثنا محمد بن أبى الدَّواهى ، عن أبيه ، قال : قال علىّ بن أبى طالب - رضى الله عنه - [السريع] :

مَا أَحْسَـــنَ الدُّنْيَا وَإقْبَالَهَـــا إذَا أَطَـــاعَ اللهَ مَنْ نَالَهَـــا
مَنْ لَمْ يُوَاسِ النَّاسَ مِنْ فَضْلِهَا عَـــرَّضَ لِلإدْبَارِ إقْبَالَهَـــا
فَاحْذَرْ زَوَالَ الفَضْلِ يَا جَائِرًا [7] وَاعْـطِ مِنَ الدُّنْيَا لِمَنْ سَالَهَا [8]
فَإنَّ ذَا العَرْشِ سَـــرِيعُ الجَزَا يُخْلِـــفُ بِالحَبَّةِ [9] أَمْثَالَهَـــا

حدثنا محمد بن المهاجر ، حدثنا محمدُ بن أحمد بن النضر المَعْنِىّ ، حدثنى سعيد ، حدثنى أبوك، يعنى أباه [10] أحمد بن النضر ، قال : كان بالكوفة قوم من

---

(١) فى الأصل : فمجترم .
(٢) فى الأصل : ابن زنجى .
(٣) فى الأصل : حُسْنٍ .
(٤) فى الأصل : وزينٍ .
(٥) فى الأصل : عذار .
(٦) فى الأصل : زاذويه .
(٧) فى الأصل : جابر .
(٨) سألها .
(٩) فى الأصل : بالجنة .
(١٠) في الأصل أبا .

العرب ، فأصابت رجلاً منهم حاجةٌ ، فكان عيالُه يغزلون ويبيعون ، وكان يَشْرَكُهم ، فقالوا : لا تعود علينا بشيء ، وما نكسب تَشْرَكنا فيه ، فأنِفَ من قولهم ، فخرج يَؤُمُّ بغدادَ ، ولم يدخلْها قبل ذلك ، وليس له حميمٌ ولا قريبٌ بها ، فدخلها ومَرَّ على وجهه ، فمر على باب يعقوب بن داود كاتب المهدى ، فرأى قومًا جلوسًا عليهم بِزَّةٌ فقال : ما أخلق هؤلاء دُعوا إلى وليمة ، لو دخلت معهم لعلّى أصيب شَبْعة ، فاندسَّ معهم ، فخرج الإذن ، فقال : ادخلوا ، فدخلوا إلى دارٍ قَوراءَ كبيرة ، وإذا بَهوٌ (١) فى صدر الدار ، فجلسوا فى البهو يَمْنَة ويَسْرة ، وأخلَوْا الصدر ، فجاء يعقوب ، فسلم عليهم وقعد ، ثم قال : يا غلام ، هات ، فجاء بصَوان (٢) عليها مناديل مغطًّى بها ، وإذا فيها أكياس ، فقال : أعطهم ، فوضعوا فى حِجْر كل رجل منهم كيسًا ، ووضعوا فى حجرى كيسًا ، حتى فَرَغ منهم ، ثم قال : أعد عليهم ، [فوضع فى حجر كل رجل منهم كيسًا] (٣) ، فوضعوا فى حجرى كيسًا ، حتى والى بين خمسة أكياس ، ثم قال : قوموا مبارك [لكم] (٤) ، وقد تَعَيَّنه (٥) الخدم ، وليس له عندهم اسم ولم يعرفوه ؛ فلما بلغ الدهليز ربطوه ، فصاح وصاحوا (٦) ، فسمع يعقوب الصوت ، فقال : ما هذا ؟ قالوا : رجل دخل مع هؤلاء القوم لا نعرفه ، فقال : علىَّ به ، فقال له : يا عبد الله ، ما أدخلك هذه الدار ؟ فقصَّ عليهم القصة (٧) ، والسبب الذى دخل له ، فقال له : من أين أنت ؟ قال : من أهل الكوفة ، قال : من يعرفك بالكوفة ؟ قال : يعرفنى فلانٌ وفلان ، فسمى له قومًا يعرفهم ، فقال : خَلُّوا عن الرجل ، إنا كاتبون إلى هؤلاء القوم : فإن كان الأمر علَى ما ذكرت ، فتعالَ كل (٨) سنة [فى] (٩) هذا الوقت، ولك عندنا مثلُ هذا ، وكتب إلى القوم فسألهم ، فكتبوا بمعرفته ، فكان يجىء أيام حياته ، فيأخذ خمسة آلاف وينصرف وحسبنا الله ونعم الوكيل .

* * *

(١) فى الأصل : بهوًا .

(٢) الصوانى من الكلمات غير المعجمية وهى جمع صينية وهى الخِوَان من فضة ونحوِها تحمل عليه أطباق الفاكهة ونَحْوُها .

(٣) سقط فى الأصل . (٤) سقط فى الأصل . (٥) أى عرفوا عينه وشخصه .

(٦) فى الأصل : وصيحوا . (٧) فى الأصل : عليك قصته . (٨) فى الأصل : فى كل .

(٩) سقط فى الأصل .

ذِكْرُ الحَثِّ عَلَى الضِّيَافَةِ ، وَإِطْعَامِ الطَّعَامِ

حدثنا حامد بن محمد بن شعيب البلخيّ ببغداد ، حدثنا منصور بن أبى مُزاحم ، حدثنا أبو الأحوص ، عن أبي حُصَين ، عن أبى صالح ، عن أبى هريرة ، قال : قال رسول الله ﷺ : « مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ فَلْيُكْرِمْ ضَيْفَهُ ، وَمَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ فَلا يُؤْذِ جَارَهُ » (١) .

قال أبو حاتم - رضى الله عنه : إنى لأستحبّ للعاقل المداومةَ على إطعام الطعام، والمواظبة على قِرَى الضيف ؛ لأن إطعام الطعام من أشرف أركان الندى ، ومن أعظم مراتب ذوى الحِجَا ، ومن أحسن خصال أولى النُّهَى . ومن عُرف بإطعام الطعام شَرُف عند الشاهد والغائب ، وقصده الراضى والعاتب ، وقِرَى الضيف يرفع المرء وإن رَقّ نسبه، إلى منتهى بغيته ، ونهاية محبته ، ويشرفه برفيع الذكر ، وكمال الذخر (٢) .

حدثنا محمد بن زنجويه القشيرىّ ، حدثنا أبو مصعب ، حدثنا الدَّرَاوَرْدِىّ ، عن يحيى ابن سعيد ، أنه سمع سعيد بن المسيب يقول : كان إبراهيم الخليل - صلى الله عليه وسلم - أولَ من أضاف الضيف .

---

(١) أخرجه البخارى (١٠/٥٤٨) ، كتاب « الأدب » ، باب : إكرام الضيف وخدمته ، حديث (٦١٣٦) ، ومسلم (١/٦٨) ، كتاب «الإيمان» ، باب : الحث على إكرام الضيف ، وابن ماجة (٢/١٣١٣) ، كتاب « الفتن » ، باب : كف اللسان فى الفتنة ، حديث (٣٩٧١) من طريق أبى حصين عن أبى صالح عن أبى هريرة مرفوعًا .

وأخرجه البخارى (١١/ ٣١٤) ، كتاب « الرقاق » ، باب : حفظ اللسان » ، حديث (٦٤٧٥) ، ومسلم (١/٦٨) ، كتاب « الإيمان » ، باب : الحث على إكرام الجار ، حديث (٤٧) ، وأبو داود (٢/ ٧٦٠ - ٧٦١) ، كتاب « الأدب » ، باب : فى حق الجوار ، حديث (٥١٥٤) ، والترمذى (٤/٥٦٩) ، كتاب « صفة القيامة » ، باب : إكرام الضيف ، حديث (٢٥٠٠) ، وأحمد (٢/ ٢٦٧) والبغوى فى « شرح السنة » (٧/ ٣٣٦ - بتحقيقنا) كلهم من طريق الزهرى ، عن أبى سلمة بن عبد الرحمن ، عن أبى هريرة مرفوعًا .

وأخرجه البخارى (٩/ ١٦١) ، كتاب « النكاح » ، باب : الوصاة بالنساء ، حديث (٥١٨٥) ، ومسلم (٢/ ١٠٩١) ، كتاب الرَّضاع ، باب : الوصية بالنساء ، حديث(٦٠/ ١٤٦٨) ، والبيهقى (٧/ ٢٩٥) ، كتاب « القسم والنشوز » ، باب : حق المرأة على الرجل ، وأبو يعلى (١١/ ٨٥ - ٨٦) رقم (٦٢١٨) ، من طريق أبى حازم ، عن أبى هريرة .

(٢) فى الأصل : الزجر .

حدثنا الأنصاريُّ ، حدثنا الغلابيُّ ، حدثنا إبراهيم بن عمر بن حبيب ، حدثنا الأصمعيّ ، أخبرنى نافع بن أبى نعيم ، قال : قال رجل ممن قد أدرك الجاهلية : قدمت المدينة ، فإذا مُناد (١) ينادى : من أراد الشحم واللحم فليأت دار دُلَيم ، وهو جد سعد بن عُبادة بن دُلَيم سيدِ الخزرج ، ثم ضرب الزمان مِنْ ضربه (٢) ، فقدمتُ المدينة ، فإذا مناد ينادى . من أراد الشحم واللحم فليأت دار عُبادة ، ثم ضرب الزمان مِنْ ضربه فقدمتها ، فإذا منادٍ ينادى : من أراد الشحم واللحم فليأت دار سعد .

قال أبو حاتم - رضى الله عنه : كل من ساد فى الجاهلية والإسلام حتى عُرف بالسؤدُد، وانقاد له قومه ، ورحل إليه القريب والقاصى ، لم يكن كمال سُودُده إلا بإطعام الطعام، وإكرام الضيف .

والعرب لم تكن تَعدُّ الجود إلا قِرَى الضيف ، وإطعام الطعام ، ولا تَعُدُّ (٣) السخىَّ من لم يكن فيه ذلك ، حتى إن أحدهم ربما سار فى طلب الضيف الميلَ والميلين .

ولقد حدثنى محمد بن المنذر ، حدثنا على بن الحسن الفلَسْطينىّ ، حدثنا أبو بكر السنىّ ، حدثنا محمد بن سليمان القرشىّ ؛ قال : بينما (٤) أنا أسير فى طريق اليمن ، إذا أنا بغلام واقف على الطريق فى أذنيه قُرْطان ، وفى كل قُرطة جوهرة ، يضىء وجهه من ضوء تلك الجوهرة ، وهو يمجد ربه بأبيات من شعر ، فسمعته يقول : [الوافر]

مَلِيكٌ فِى السَّمَاءِ بِهِ افْتِخَارِى عَزِيزُ القَدْرِ لَيْسَ بِهِ خَفَاءُ (٥)

فدنوت إليه (٦) ، فسلمت عليه ، فقال : ما أنا برادّ عليك سلامك ، حتى تؤدىَ من حقى الذى يجب لى عليك ، قلت : وما حقك ؟ قال : أنا غلام على مذهب إبراهيم الخليل - صلوات الله عليه - لا أتغدّى ولا أتعشّى كل يوم حتى أسيرَ الميل والميلين فى طلب الضيف ، فأجبته إلى ذلك ، قال : فرحّب بى ، وسرت معه حتى قربنا من خيمة شَعَر ، فلما قربنا من الخيمة صاح : يا أختاه ، فأجابته جارية من الخيمة يا لَبَّيْكَاه ، قال: قومى إلى ضيفنا هذا ، قال : فقالت الجارية : اصبِر حتى نبدأ بشكر المولى الذى

---

(١) في الأصل : منادى . (٢) فى الأصل : تكررت هذه العبارة .

(٣) فى الأصل : يعد . (٤) فى الأصل : بينا .

(٥) هذا البيت فى الثناء على رب العزة سبحانه فيقول : إنما ربى الله الذي هو فى السماء عرشه به أصول وأجول وأدفع الرأس وأفتخر بحفظه وفضله ، وهو الغنى عنى ، القريب منى سبحانه له فى كل شىء آية ظاهرة باهرة تدل عليه فلا خفاء به جلا وعلا .

(٦) فى الأصل : منه .

سبب لنا هذا الضيف ، قال : فقامت وصلَّت ركعتين شكرًا لله ، قال : فأدخلنى الخيمة، وأجلسنى ، فأخذ الغلام الشَّفْرة ، أخذ عَناقًا له ليذبحها ، فلما جلست فى الخيمة ، نظرت إلى جارية أحسنِ الناس وجهًا ، فكنت أسارقها النظر ، ففطَنَتْ لبعض لَحَظاتى ، فقالت لى مَه : أما علمت أنه قد نقل إلينا عن صاحب يَثْرِب ، تعنى (١) النبىّ ﷺ ، أنَّه قال : « زنَا العينين النظَر » أما إنى ما أردت بهذا أن أوبخَك ، ولكنى أردت أن أؤدِّبك ، لكيلا تعود إلى مثلها ، فلما كان وقت النوم بتُّ أنا والغلام خارج [الخيمة] (٢) ، وباتت الجارية فى الخَيمة ، قال : فكنت أسمع دَوِيًّ القرآن الليلَ كله ، أحسنَ صوت يكون وأرقَّه ، فلما أن أصبحت قلتُ للغلام ، صوتَ مَن كان ذلك (٣) ؟ قال : فقال : تلك أختى تُحيى الليل كله إلى الصباح ، قال : فقلت : يا غلام ، أنت أحقّ بهذا العمل من أختك ، أنت رجل وهى امرأة ، قال : فتبسّم ، ثم قال : وَيْحَك يا فتى ! أما علمت أنه موفّق ومخذول .

وأنشدنى محمد بن إسحاق بن حبيب الواسطىّ [الطويل] :

إِذَا مَا أَتَاكَ الضَّيْفُ فَابْدَأْ بِحَقِّــهِ قُبَيْلَ العِيَالِ ، إِنَّ ذَلِكَ أَصْـوَبُ
وَعَظِّمْ حُقُوقَ الضَّيْفِ وَاعْلَمْ بِأَنَّهُ عَلَيْـكَ بِمَا تُولِيهِ مُثْنٍ وَذَاهِبُ (٤)

أنبأنا أحمد بن قريش بن عبد العزيز ، حدثنا إبراهيم بن محمد الذُّهلىّ ، عن الحسن ابن عيسى بن ماسَرجِس ، قال : صحبت ابن المبارك من خُراسان إلى بغداد ، فما رأيته أكلَ وحده .

حدثنى محمد بن عثمان العقبى ، حدثنا أبو أمية ، حدثنا عصام بن عمرو أبو حميد الطائىّ ، حدثنا عمر (٥) بن هانئ قال : كان رافع بن عُمَيْرَة (٦) بن عمرو السِّنْبِسىّ (فَخِذٌ من طَيِئ – يُغَدِّى أهل ثلاثة مساجد ، ويعشِّيهم ، [يومًا] (٧) بثرائد ، ويومًا بِوَطْبَة ، يعنى الحَيْس ، وماله قميصٌ إلا قميص هو لجمعته ، وهو للبيت .

---

(١) فى الأصل : يعنى . (٢) سقط في الأصل . (٣) في الأصل : ذاك .

(٤) ينبغى على المؤمن أن يبادر ضيفه بالتحية والكرم والحفاوة حتى قبل العيال والآل ، فإن ذلك هو الصواب والصلاح وعين المكارم . . .

ولتعظم حقه عليك ، ولتعلم بأنك مصيبٌ منه الثناء والامتداح والمكافأة على المعروف بعد توليه وذَهابه عنك .

(٥) فى الأصل : عمرو . (٦) فى الأصل : عمير . (٧) سقط فى الأصل .

قال أبو حاتم - رضى الله عنه : يجب على العاقل ابتغاء الأضياف ، وبذل الكِسَر ؛ لأن نعمة الله إذا لم تُصَنْ بالقيام فى حقوقها ، ترجع من حيث بدأت، ثم لا ينفع من زالت عنه التلهُّف عليها ، ولا الإفكار فى الظفر بها ، وإذا أُدِّىَ حقُّ الله فيها ، استجلب النماء والزيادة ، واستذْخر الأجر فى القيامة ، واستنقص إطعام الطعام .

وعنصر قِرَى الضيف هو ترك استحقار القليل ، وتقديم ما حضر للأضياف ؛ لأن من حقَّر مَنَع ، مع إكرام الضيف بما يَقدَر عليه ، وترك الادِّخار عنه .

ولقد حدثنى كامل بن مُكرم ، حدثنا محمد بن يعقوب الفَرَجىّ (١) ، حدثنا الوليد بن شجاع ، حدثنا عقبة بن علقمة ، ومبشر بن إسماعيل : أنهما سألا الأوزاعىّ : ما إكرام الضيف ؟ قال : طَلاقَة الوجه ، وطيب الكلام .

وأنشدنى الكُريزىّ فى قوم لم يكونوا يضيفون [الوافر] :

أَقَامُـــوا الدَّيْدَبَانَ عَلَى يَفَاعٍ ... وَقَالُـوا : لا تَنَمْ لِلدَّيْدَبَانِ (٢)
إِذَا أَبْصَرْتَ شَخْصًـا مِنْ بَعِيدٍ ... فَصَفِّـــقْ بِالْبَنَانِ عَلَى الْبَنَانِ
تَرَاهُمْ خَشْيَةَ الأَضْيَافِ خُرْسًا ... يُصَلُّـــونَ الصَّلاةَ بِلا أَذَانِ (٣)

قال أبو حاتم - رضى الله عنه : أبخل البخلاء من بخل بإطعام الطعام ، كما أن من أجود الجود بذلَه ، ومن ضَنَّ بما لا بدَّ للجثة منه ، ولا تربُو النفس إلا عليه ، كان بغيره أبخل ، وعليه أشحّ .

ومن إكرام الضيف طيبُ الكلام ، وطَلاقةُ الوجه ، والخدمةُ بالنفس ، فإنه لا يذِلُّ من خدم أضيافَه ، كما لا يعِزُّ من استخدمهم ، أو طلب لقِرائه أجرًا .

---

(١) فى الأصل : الغرجى أبو يعقوب . (٢) فى الأصل : للزَيذَبان .

(٣) هؤلاء أقوام لئام أهل سوء وشح وخباث ، حتى إنهم لينصبون المنصة لديدبانهم ويوعزون إليه أن انتصب قائمًا وانفِ النوم والدعة وأحدَّ البصر وأشخصه .

فإذا ما أبصرت سودًا أو بياضًا أو بريق بشرٍ . فضج وأقرعنا بالتصفيق لا بكل يديك بل ببنانك وذلك لفرط لؤمهم ووفور شحهم ، وشدة إمساكهم .

وهم لشدة شحهم يتخافتون الحديث بينهم فلا تسمع منهم إلا همسًا لا بل يغدون خرسًا صومًا عن الكلام خشية تحسس الأضياف لهم والإصابة زادهم . وقد أجمعوا أمرهم على الصلاة بلا إشهار ، ولا آذان حتى لا يفتضحوا ويعرفوا فيتيممهم الأضياف بغية الإكرام .

وصدق طرفة .

ولست بحلال التِّلاعِ مخافة ... ولكن متى يسترفد القوم أرفد

وأنشدني كامل بن مكرم ، أنشدني محمد بن سُهَيل (١) [الطويل] :

وَإِنِّي لَطَلْقُ الوَجْهِ لِلْمُبْتَغِي الْقِـرَى ... وَإِنَّ فِنَائِي لِلْقِـرَى لَرَحِيـبُ

أُضَاحِـكُ ضَيْفِي عِنْدَ إِنْزَالِ رَحْلِه ... فَيُخْصِبُ عِنْدِي ، وَالمَحَلُّ جَدِيبُ

وَمَا الْخِصْبُ لِلأَضْيَافِ أَنْ يَكْثُرَ الْقِرَى ... وَلَكِنَّـمَا وَجْهُ الْكَرِيمِ خَصِيبُ (٢)

وأنشدني الأبرش [البسيط] :

لا تَبْخَلَنَّ بِدُنْيَا ، وَهِيَ مُقْبِلَـةٌ ... فَلَيْسَ يَنْقُصُهَا التَّبْذِيرُ وَالسَّرَفُ (٣)

وَإِنْ تَوَلَّتْ فَأَحْرَى أَنْ تَجُودَ بِهَا ... فَالْحَمْدُ مِنْهَا إِذَا مَا أَدْبَرَتْ خَلَفُ (٤)

[أنبأنا عمر بن محمد الهمذاني ثنا زيد أخرم ثنا سليمان بن حرب ثنا حماد بن زيد، قال : كان أيوب إذا قدم من مكة أمَرَ بخبز فُخبز ، وأمر بلحمٍ فطُبِخ ، فكل مَن دخل وضع بين يديه ، فدخلنا عليه فقال : كل وافدٍ أكلتُ اليوم كذا وكذا] (٥) .

أنبأنا الأنصاريُّ ، حدثنا الغلابيُّ ، حدثنا العقبيُّ (٦) ، عن أبي مِخنَف : لوط بن يحيى، حدثني هشام بن هروة ، عن أبيه : أن قيس بن سعد بن عبادة خرج من مصر ، فمر بأهل بيت من القيْنِ ، فنزل بهم ، فنحر لهم صاحب المنزل جَزورًا ، وأتاهم به ، فقال دُونكُم ، فلما كان من الغدِ نحر لهم آخر ، ثم حبستهم السماء اليوم الثالث ، فنحر لهم مثله ، فلما أراد قيس أن يرتحل وضع عشرين ثوبًا من ثياب مصر ، وأربعة

---

(١) في الأصل : سهل المصيعي .

(٢) وإني لأهَشُّ وأَبشُّ لضيفي إكرامًا وإجلالاً له ، فلا أضيق عنه ولا يضيق عنه منزلي قِرىً وكرمًا بوجهي سرورًا .

بل أقوم له بالضيافة على حقِّها ، إذْ أحادثه وأؤانسه عند حلوله وقبل نزوله عن رحله ، فيفرخ رَوْعه ويذهب فزعه ، ويخصب ويلقح من الفَصِل مع إمحال المكان وجدبه .

وليعلم العاقل أن الخصب لضيف لا بإكثار المطعم والمشارب ، وإنما الخَصْب والكرم ، بالهناءَة والتبشار وحسن اللقية .

(٣) في الأصل : والشرف .

(٤) ينبغي على من أصاب من الدنيا خيرًا وَسَعة ألا يبخل بما أوتي ، بل فليحسن كما أحسن الله إليه وليبذل من فضله وليعد به على من لا زاد ولا فضل عنده . . . ولا يحسبن بأن إنفاقه منقصة ومفقرة ومذهب للدنيا عنه .

وإن انزوت الدنيا عنه فأجدر به أن يجود بها ويبذل بقيتها وليحصد بعدها الحمد منها خلفًا عنها .

(٥) سقط في ط . (٦) في الأصل : العتبي .

آلاف درهم عند امرأة الرجل ، وخرج قيس ، فما سار إلا قليلاً حتى أتاه صاحب البيت، على فرس كريم ، ورُمح طويل ، وقدامَه الثياب والدراهم ، فقال : يا هؤلاء ، خذوا بضاعتكم عنى ، قال قيس : انصرف أيُّها الرجل ، فإنا لم نكن لنأخذَها (١) ، فقال الرجل : لتأخُذنَّها (٢) أو لا ينفذُ منكم رجل ، أو تذهبُ نفسى ، فعجب قيس منه، وقال : لِمَ ؟ لله أبوك ! ألم تكرمنا ، وتحسن إلينا ؟ فكافأناك ، ما فى هذا (٣) من بأس . فقال الرجل : إنا لا نأخذ لِقِرى ابن السبيل وقرى الضيف ثمنًا ، لا والله لا أفعل أبدًا ، فقال لهم قيس : أما إذا أبى فخذوها منه ، فأخذوها ، ثم قال قيس : ما فضَلنى رجل غيرُ هذا .

حدثنا أحمد بن عمرو الزَّنبقىّ (٤) بالبصرة ، حدثنا الحسن بن مُدْرِك السَّدُوسىّ ، حدثنا عبد العزيز بن عبد الله القرشىّ ، حدثنا سعيد ، عن قتادة ، عن سعيد بن المسيَّب، قال : لأن أشبِعَ كَبِدًا جائعة ، أحبُّ إلىَّ من حِجة بعد حِجة .

حدثنا محمد بن سعيد القزاز ، حدثنى عيسى بن أبي موسى الأنصارىّ ، حدثنا أبى، حدثنا أحمد بن بشير ، عن هشام بن عروة ، عن أبيه ، قال : كان من دعاء قيس بن سعد بن عُبادة : اللهم ارزقنى مالاً وفَعالاً ، فإنه لا يَصْلُحُ الفِعال إلا بالمال .

* * *

(١) فى الأصل : لنأخذه .

(٢) فى الأصل : لتأخذنه .

(٣) فى الأصل : فما بهذا .

(٤) فى الأصل : الزنبقى .

ذِكْرُ الْحَثِّ عَلَى الْمُجَازَاةِ عَلَى الصَّنَائِعِ

حدثنا الفضل بن الحُباب الجَمحيّ ، حدثنا عبد الرحمن بن بكر بن الربيع بن مسلم ، قال : سمعت الربيع بن مسلم يقول : سمعت محمد بن زياد يقول : سمعت أبا هريرة يقول : قال رسول الله ﷺ : « مَنْ لا يَشْكُرِ النَّاسَ لا يَشْكُرِ اللهَ » (١) .

---

(١) أخرجه الترمذى (٤/٢٩٨ - ٢٩٩) ، كتاب « البر والصلة » ، باب : ما جاء فى الشكر لمن أحسن إليك ، حديث (١٩٥٤) ، وأبو داود (٢/٦٧١) ، كتاب « الأدب » ، باب : فى شكر المعروف ، حديث (٤٨١١) ، وأحمد (٢/٢٥٨ - ٢٩٥ ، ٣٠٢ ، ٣٠٣ ، ٣٨٨ ، ٤٨٢) كلهم من طريق الربيع بن مسلم ، عن محمد بن زياد ، عن أبى هريرة مرفوعًا .

وقال الترمذى : حديث حسن صحيح .

وللحديث شاهدٌ من حديث أبى سعيد الخدُرىّ .

أخرجه الترمذي (٤/٢٩٩) ، كتاب « البر والصلة » ، باب : ما جاء فى الشكر لمن أحسن إليك ، حديث (١٩٥٥) ، وأحمد (٣/٣٢) كلاهما من طريق عطية العُوفى ، عن أبى سعيد .

وقال الترمذى : هذا حديث حسن صحيح .

وشاهد من حديث النعمان بن بشير .

أخرجه أحمد (٤/٢٧٨) عن النعمان مرفوعًا : من لم يشكر القليل لم يشكر الكثير ومن لم يشكر الناس لم يشكر الله .

وأخرجه الخطيب (٩/٤٨٨) ، عن ابن عباس .

وأخرجه أحمد (٥/٢١١) ، عن الأشعث بن قيس ، وذكره السيوطى في « الجامع الصغير » (٦/ ٢٤٠ - فيض) رقم (٩٠٩٦) ، ورمز له بالحسن من حديث أبي هريرة .

وقال المناوى فى « فيض القدير » (٦/ ٢٤٠) .

(من لا يشكر الناس لا يشكر الله) قال ابن العربى روى برفع الجلالة والناس ومعناه من لا يشكره الناس لا يشكره الله وبنصبهما أى من لا يشكر الناس بالثناء بما أولوه لا يشكر الله فإنه أمر بذلك عبيده أو من لا يشكر الناس كمن لا يشكر الله ومن شكرهم كمن شكره ، وبرفع الناس ونصب الجلالة وبرفع الجلالة ونصب الناس ومعناه لا يكون من الله شاكرًا إلا من كان شاكرًا للناس وشكر الله ثناؤه على المحسن وإجراؤه النعم عليه بغير زوال ، قال ابن عطاء الله : إن كانت عين القلب تنظر إلى أنَّ الله تعالى واحد ، فالشريعة تقتضى أنه لا بدَّ من شكر خليقته ، والناس فى ذلك على أقسام غافل منهمك فى غفلته قويت دائرة حسه وانطمست حفرة قدسه فنظر الإحسان من المخلوقين ولم يشهده من رب العالمين إمَّا اعتقادًا فشركه جلى وإما استنادًا فشركه خفى وصاحب حقيقة غائب عن الخلق بشهود الملك الحق وفنى عن الأسباب بشهود مسببها فهذا عبد مواجه بالحقيقة ظاهر عليه سناها سالك للطريقة قد استوى على مداها غير أنه غريق الأنوار مطموس الآثار قد غلب سكره على صحوه ، وجمعه على=

قال أبو حاتم – رضى الله عنه : الواجب على من أُسدِى إليه معروف (١) ، أن يشكره بأفضل منه أو مثله ، لأن الإفضال على المعروف فى الشكر لا يقوم مقام ابتدائه وإن قَلَّ ، فمن لم يجد فلْيُثْنِ عليه ؛ فإن الثناء عند العدم يقوم مقام الشكر للمعروف ، وما استغنى أحد عن شكر أحد .

ولقد أنشدنى محمد بن زنجىّ البغدادىّ [الطويل] :

فَلَوْ كَانَ يَسْتَغْنِى عَنِ الشُّكْرِ مَاجِد ... لِعِـــزَّةِ مُلْك ، أَوْ عُلُوِّ مَكَــانِ
لَمَا أَمَرَ اللهُ الْعِبَادَ بِشُكْــــرِهِ ... فَقَالَ : اشْكُرُونِى أَيُّهَا الثَّقَلانِ(٢)

وأنشدنى الكريزىّ [الطويل] :

إِذَا الْمَرْءُ لَمْ يَشْكُــرْ قَلِيلاً أَصَابَهُ ... فَلَيْسَ لَهُ عِنْدَ الْكَثِيرِ شُكُـــورُ
وَمَــنْ يَشْكُرِ الْمَخْلُوقَ يَشْكُرْ لِرَبِّهِ ... وَمَنْ يَكْفُرِ الْمَخْلُوقَ فَهُوَ كَفُورُ (٣)

وأنشدنى محمد بن إسحاق الواسطىّ [البسيط] :

حَافِظْ عَلَى الشُّكْرِ كَىْ تَسْتَجزِلَ الْقِسَمَا ... مَــنْ ضَيَّعَ الشُّكْرَ لَمْ يَسْتَكْمِلِ النِّعَمَا
الشُّكْـــرُ للهِ كَنْزٌ لانَفَـــادَ لَهُ ... مَنْ يَلْزَمِ الشُّكْرَ لَمْ يَكْسِبْ بِهِ نَدَمَا(٤)

= فرقه وفناؤه على بقائه وغيبته على حضوره وأكمل منه عبد شرب فازداد صحواً أو غاب فازداد حضوراً فلا جمعه يحجبه عن فرقه ولا فرقه يحجبه عن جمعه ولا فناؤه يصرفه عن بقائه ولا بقاؤه يصده عن فنائه يعطى كل ذى قسط قسطه ويوفى كل ذى حق حقه فالأكمل مقام البقاء المقتضى لإثبات الآثار وقد قال الله تعالى : ﴿ أَنِ اشْكُرْ لِى وَلِوَالِدَيْكَ ﴾ ، وهو المشار إليه فى هذا الخبر وما ضاهاه من الأخبار .

(١) فى الأصل : معروفًا .

(٢) ينبغى على ذى الحياء أن يشكر من يوليه يداً ويغمره فضلاً وليعلم أن كل ذى نعمة يجب له الشكر لوفور فضله وعلوِّ مكانته لما أوجب الله على عباده الشكر إذ الله أكبر من كل شىء ، وقد قال بشكره وحمده فى كثير من آيات كتابه .

فقال : ﴿ لَئِنْ شَكَرْتُمْ لأَزِيدَنَّكُمْ . . . ﴾ .

(٣) فينبغى على المرء أن يشكر ذا النعمة ولو أصابه منها قليلٌ فمن يشكر القليل فإنه شكَّارٌ للكثير. وكذلك من يشكر المخلوق ذا الفاقة والضعف فهو شاكرٌ لربه ، ومن يكفره فكأنه كفر ربه .

إذ من لم يشكرِ الناس لم يشكرِ الله .

(٤) من حافظ على النعم وراعاها بورك له فيها وزاد فضل الله عليه وجزلت له ووفرت . . ومن يضيع النعم بحمدها والغفلة عن شكرها فإنه يطلب ذهابها ونُقصانَها . . =

حدثنا عمرو بن محمد ، حدثنا الغلابيّ ، حدثنا العقبيّ (١) ، قال : مر سعيد بن العاص بدار رجل بالمدينة ، فاستسقى فسقَوه ، ثم مر بعد ذلك بالدار ومناد ينادى عليها فيمن يزيد ، فقال لمولاه : [سَلع] (٢) لم تباع (٣) هذه ؟ فرجع إليه فقال : على صاحبها دين ، قال : فارجع إلى الدار ، فرجع ، فوجد صاحبها جالسًا وغريمُه معه ، فقال : لم تبيع (٤) دارك ؟ قال : لهذا علىّ أربعة آلاف [دينار] (٥) ، فنزل وتحدث معهما ، وبعث غلامه ، فأتاه (٦) ببَدْرة ، فدفع إلى الغريم أربعة آلاف ، ودفع الباقىَ إلى صاحب الدار ، وركب ومضى .

وأنشدنى المنتصر بن بلال [الطويل] :

وَمَنْ يُسْدِ مَعْرُوفًا إِلَيْكَ ، فَكُنْ لَهُ ... شكُـــوراً يكُنْ مَعْرُوفُهُ غَيْرَ ضَائِعِ
وَلا تَبْخَلَنْ بِالشُّكْرِ ، وَالقَرْضَ فَاجـْزِهِ ... تكُـنْ خَيْرَ مَصْنُوعٍ إِلَيْهِ وَصَـانِعِ (٧)

وأنشدنى بعض أهل العلم [الطويل] :

فَكُـــنْ شَاكِرًا لِلْمُنْعِمِينَ بِفَضْلِهِمْ ... وَأَفْضِلْ عَلَيْهِمْ إِذْ قَدَرْتَ وَأَنْعِـــمِ
وَمَـــنْ كَانَ ذَا شُكْرٍ فَأَهْلُ زِيَادَةٍ ... وَأَهْلٌ لِبَذْلِ العُرْفِ مَنْ كَانَ يُنْعِمِ (٨)

وأنشدنى الكُريزىّ [الوافر] :

أَحَقُّ النَّاسِ مِنْكَ بِحُسْنِ عَوْنٍ ... لِمَـــنْ سَلَفَتْ لَكُمْ نِعَمٌ عَلَيْهِ

= وهكذا شكر الله كنزٌ وافرٌ جالبٌ للنعم وحافظ لها ، ومن راعى نعم ربه وشكر عليها لم يندم ولم يستحسر .. وصدق من يقول :

إذا كنت فى نعمة فارعها ... فإن المعاصى تزيل النعم
وداومْ عليها بشكْرِ الإلـ ... ـه إنَّ الإلهَ سريعُ النِّقَـم

(١) فى الأصل : العتبى . (٢) سقط فى الأصل . (٣) فى الأصل : تبع .
(٤) فى الأصل : تبع . (٥) سقط فى الأصل . (٦) فى الأصل : فأتى .
(٧) من نفحك بمعروف وتيممك بفضلٍ فقد استوجب عليك شكره وبشكره فقد عرفت معروفه وراعيته فما أضعته وما حمدته .
واحذر البخل بالشكر ، والهضم للمنعم بل اعرف فضل صاحبها وأجزه حسنًا ، وقارضه بما قارضك تكن خير من حفظ يدًا مدت إليه ، ونعم مَن مدَّ يدًا إلى غيره . . . .
(٨) كن دهرك شاكرًا بذى نعمة عليك ، ذاكرًا لفضلهم وإحسانهم ولتعد عليهم بالفضل ولتقارضهم بالمثل بل أجزل وأفضل .
ومن كان شكارًا عروفًا للنعم شاكرًا لأصحابها ، فإنه أهلٌ لأن تزاوله ، وأن يبارك له فيها ، وكما أن باذل الفضل أهلٌ لأن يبذل له الفضل .

وَأَشْكَــــرُهُمْ أَحَقُّهُمْ جَمِيعًا　　بِحُــسْنِ صَنِيعَةٍ مِنكُمْ إِلَيْهِ [(١)]

قال أبو حاتم - رضى الله عنه : الحرُّ لا يكفر النعمة ، ولا يتسخط المصيبة ، بل عند النعم يشكر ، وعند المصائب يصبر ، ومن لم يكن لقليل المعروف عنده وقْع ، أوشك ألا يشكر الكثير منه ، والنعم لا تستجلب [(٢)] زيادتها ، ولا تدفع [(٣)] الآفات عنها ، إلا بالشكر لله - جل وعلا - ولمن أسداها إليه .

ولقد حدثنى أحمد بن محمد القيسىّ ، حدثنى محمد بن المنذر ، حدثنا إسحاق بن إبراهيم القُرشىّ ، قال : سمعت أبا عبيدة مَعْمَر بن المثَنَّى يقول : ماتت لعُبيد [(٤)] بن معمر بنت [(٥)] ، فقعد فى المأتم فى مسجده ، فى سكه سبانوش ، فجاء عبيد الله بن أبى بكْرَة معزيًا ، فإذا الأشراف قد أخذوا مواضعهم ، فنظر إليه رجل قد كان سبق إلى مجلسه مع الأشراف ، قد عرفه ، فقام قائمًا ، وجعل يقول [له] [(٦)] : ههنا ، إلى أن أخذ بيده ، فأقعده فى مجلسه ، ثم ذهب فقعد فى أُخْريات الناس ، فأمر عُبيد الله غلامًا كان معه ، أن يتعاهده إلى قيامه ، فلما قام دعى الرجل [(٧)] ، فقال : أتعرفنى ؟ قال : نعم ، قال : من أنا ؟ قال : أنت عُبيد الله بن أبى بكرة صاحب رسول الله ﷺ قال : فما حملك على تركك مجلسك لى ؟ قال : إجلالاً لولد أصحاب رسول الله ﷺ ، وما أوجب الله على أمثالى خصوصًا من التبجيل لك ، فقال له عُبيد الله : هل لك فى أن تصحبنا إلى ضيعة نريد أن نصير إليها ؟ قال : نعم ، قال : فصخبه الرجل إلى تلك الضيعة على [(٨)] نهر مكحول ، ضيعة فيها ثلاث مِائة جَريب نخل ، وعلى وجه الضيعة قَصْر بُنِى بآجرّ وجصّ وخشب ساج ، فلما دخل الضيعة أخذ عُبيد الله بيد الرجل ، وجعل يدور به فى تلك النخيل ، فقال للرجل : كيف ترى هذه الضيعة ؟ قال : تالله ما رأيت نخيلاً أحسن منها ، ولا أكثر ثمرة ، ولا أسْرَى ضيعة منها ، قال : فقد جعلناها لك بما فيها من الخدم والآلة ، نبعث إليك بصكِّها ، قال : فاستطار الرجل فرحًا وبكى، وقال : نعشتنى ونعشت عيالى ، فقال عُبيد الله : وكم لك من العيال ؟ قال : ثلاثة

(١) من كان عروفًا للنعم شكورًا لأصحابها ، فإنه حقيقٌ بالفضل جدير بحسن العون ما شكر النعمة وأقر بالفضل .

ومن كان أشكر للنعمة ، فإنه أضن بها ، وأجدر أن توليه منك بالأيادى .

(٢) فى الأصل : يستجلب .　(٣) فى الأصل : يدفع .　(٤) فى الأصل : لعبيد الله .

(٥) فى الأصل : ابنة .　(٦) سقط فى الأصل .　(٧) فى الأصل : بالرجل .

(٨) فى الأصل : فى .

عشر نفسًا ، قال : فإنى قد جعلت اسم عيالك فى اسم عيالى ، أُنفق عليهم ما عشت ، فقال له عُبيد الله : من يكن له مثل هذه الضيعة يحتاج أن يكون منزله فى سرَّة البصرة ، إذا صرنا إلى منزلنا فاغدُ علينا ، نأمرْ لك بشراء دار تشبه هذه الضيعة ، ورأس مال وخدم تصلُح لدارك ، تعيش [1] بها إن شاء الله ، قال : فغدا الرجل عليه ، فأمر له بشراء دار بخمسة آلاف دينار ، وأعطاه عشرة آلاف دينار ، ودفع إليه صكَّ الضيعة ، وأمر له بدابَّة ، وبغل ، وسائس ، وكسوة ، وصرفه .

وأنشدنى الأبرش : [البسيط]

الشُّكْــــرُ يَفْتَحُ أَبْوَابًا مُغَلَّقَــةً ... للهِ فِيهَا عَلَى مَنْ رَامَــهُ نِعَــمُ
فَبَــادِرِ الشُّكْرَ ، وَاسْتَغْلِقْ وَثَائِقَهُ ... وَاسْتَدْفِعِ اللهَ مَا تَجْرِى [2] بِهِ النِّقَمُ [3]

حدثنا أحمد بن الحسن المدائنىّ بمصر ، قال : سمعت الربيع بن سليمان يقول : أخذ رجل بركاب الشافعىّ ، فقال : يا ربيع ، أعطه أربعة دنانير ، قال : فأعطيته إياها [4] .

وأنشدنى محمد بن إسحاق بن حبيب [5] : [الطويل]

وَمَــــنْ يَشْكُرِ العُرْفَ الصَّغِيرَ فَإِنَّهُ ... سَيَنْمِى ، وَيَجْتَرُّ المَزِيدَ أَصَاغِــرُهْ
وَمَــــنْ يَشْكُرِ المَعْرُوفَ يَحْمَدْ إِلَهَهُ ... وَيُضْعَفُ أَضْعَافًا عَلَى الْحَمْدِ شَاكِرُهْ [6]

وأنشدنى ابن زنجىّ البغدادىّ : [مجزوء الكامل]

وَإِذَا اصْطَنَعْتَ إِلَى أَخِيكَ صَنِيعَةً ، فَانْشُرْ صَنِيعَهْ

وَالشُّكْــرُ مِنْ كَــرَمِ الفَتَى ... وَالْكُفْــرُ مِنْ لُؤْمِ الطَّبِيعَهْ
وَالصَّبْــرُ أَكْرَمُ صَاحِبٍ ... فَاصْحَبْهُ إِنْ نَزَلَتْ فَجِيعَهْ [7]

---

(١) فى الأصل : تعش . (٢) فى الأصل : يجرى .

(٣) إنما الشكر مِفتاح للخيرات به تستفتح أبواب الرزق ، وقد قضى الله بهذا فقال : ﴿ لئن شكرتم لأزيدنكم ﴾ .

لذا فالمؤمن الذين من يبادر النعم عند تظاهرها بالشكر ويدفع النقم عنه بحمد ربه والاستعانة به ومن اتقى الله كفاه ومن توكل عليه أغناه ومن شكره زاده . . .

(٤) فى الأصل : فأعطيتها إياه . (٥) حبيب الواسطى .

(٦) ومن يشكر قليل المعروف فإنه ينميه له ويزيده عنده وسوف يحتلب الكثير الوفير صغاره وذووه. ومن شكر معروف الناس فكأنما شكر الله ربه وأقر بفضله واستزاده من عطائه ، وكذلك رب العالمين شكرور .

(٧) ينبغى على العاقل ألا يتبع معروفه المنَّ والأذى فيعدم الحمد والأجر وإنما يولى إخوانه الفضل وينسى ذلك ويجهله ويحتسبه عند الله فلا يضل الله ولا ينسى ، وما كان له فهو خير وأبقى . =

حدثنا أحمد بن قُريش بن بشر بن عبد العزيز ، حدثنا إبراهيم بن محمد الذُّهليّ ، حدثنا أحمد بن خليل (١) ، حدثنا يحيى بن أيوب ، عن أبى عيسى ، قال : كان إبراهيم بن أدَهم إذا صنع إليه أحد معروفًا ، حَرَص على أن يكافئه ، أو يتفضَّل عليه ، قال أبو عيسى : فلقينى يومًا وأنا على حمار ، وأنا أريد بيت المقدس ، جائيًا من الرَّمْلَة ، قال : وقد اشترى بأربعة دوانيق (٢) تُفاحًا ، وسفَرْجَلا وَخَوْخًا (٣) وفاكهة ، فقال : يا أبا عيسى ، أحِبُّ أن تحمل هذا ، قال : وإذا عجوز يهودية فى كوخ لها ، فقال : أحب أن توصل هذا إليها ، فإنى مررت وأنا مُمْسٍ فبيتتنى عندها ، فأحب أن أكافئها على ذلك .

وأنشدنى الكريزىّ [الوافر] :

يَدُ المَعْرُوفِ غُنْمٌ حَيْثُ تُسْدَى ... تَحمَّلَهَا شكُورٌ أَوْ كَفُــــورُ
كَـفَى شُكْرُ الشَّكُورِ لَهَا جَزَاءً ... وَعِنْـدَ اللهِ مَا كَفَرَ الْكَفُورُ (٤)

وأنشدنى بعض أهل الأدب : [الطويل]

رَهَنْتُ يَدِى لِلْعَجْزِ (٥) عَنْ شُكْرِ بِرِّهِ ... وَمَــــا فَوْقَ شُكْرِى لِلشَّكُورِ مَزِيدُ
وَلَوْ كَانَ شَىْءٌ يُسْتَطَـــــاعُ اسْتَطَعْتُهُ ... وَلَكِـــــنَّ مَا لا يُسْتَطَاعُ شَدِيدُ (٦)

= ومن أصابه من أخيه نعمة فليشكرها وليقر بفضل صاحبها عليه إذْ الشكر شيمة للكرام ، وما كفر النعم إلا ذو التهم واللؤم من سفالة الناس .

وإذا ما طرقت المرء فجيعةٌ وطوقته مصيبة ولفحته غاشية فليدرع الصبر والجلد فهو نعم الصاحب والمقتنى حين المصائب والفجائع .

(١) فى الأصل : الخليل . (٢) فى الأصل : دوانق .

(٣) فى الأصل : تفاح ، وسفرجل وخوخ .

(٤) إنما الفاضل يبذل معروفه فى كل مكان وإن يده بالمعروف لبيضاء علياء سواء أصابت من يحفظها ويشكرها أو من يجحدها ويكفر فضلها .

وحسب صاحب أن يشكره من أسدى إليه الفضل ويقر بنعمته ومنحته ومن كفره فعليه أن يحزن لكفره فعند الله مغانم كثيرة هى خير وأبقى ولا يذهب المعروف بين الله والناس .

(٥) فى الأصل : بالعجز .

(٦) إنى عاجز عن شكر صاحب نعمتى ولشدة عجزى ، فقد رهنت يدى وبعتها لا أستطيع مكافأته عن حسن بره وجزيل فضله وما أملك فوق الشكر واللهج بالفضل زيادة أجازيه بها .

ولو لِىَّ من الأمر شىء أو أستطيع فوق الشكر صنيعًا لما توانيت وما باليت ولكن ذلك عسير عسير شديد جهيد . .

قال أبو حاتم - رضى الله عنه : الواجب على المرء أن يشكر النعمة ، ويحمد المعروف على حسب وسعه وطاقته ، إن قَدَر فبالضِّعف ، وإلا فبالمِثل ، وإلا فبالمعرفة بوقوع النعمة عنده ، مع بذل الجزاء له بالشكر ، وقوله : جزاك الله خيرًا ، فمن قال لك ذلك عند العَدَم ، فكأنه أبلغَ فى الثناء .

ومن الناس من يكفر النعم ، وكُفران النعم يكون من أحد رجلين : إما رجل لا معرفة له بأسباب النعم والمجازاة عليها ، لما لم يُركَّبْ فيه من التفقد لمراعاة العِشرة ، فإذا كان كذلك وجب الإغضاء عنه ، وتركُ المناقشة على فعله . والرجل الآخر : أن يكون ذا عقل لم يشكر النعمة ، استخفافًا بالمنعِم ، واستحقارًا للنعمة ، وتهاونًا فى نفسه لهما أو لأحدهما ، فإذا كان كذلك يجب على العاقل ترك العود إلى [فعل] [1] مثله ، والخروج باللائمة على نفسه ، إذا كان له خبرة به .

ولقد أنشدنى علىُّ بن محمد : [الطويل]

عَــــلامَةُ شُكْرِ المَرْءِ إعْلانُ حَمْدِهِ ... فَمَنْ كَتَمَ المَعْرُوفَ مِنْهُمْ فَمَا شَكَرْ
إذَا مَا صَدِيقِى نَالَ [2] خيْرًا ، فَخَانَنِى ... فَمَا الذَّنْبُ عِنْدِى لِلَّذِى خَانَ أَوْ فَجَرْ
ولَكِــنْ إذَا أَكْرَمْتُـــــهُ بَعْدَ كُفْرِهِ ... فَإِنِّى مَلُــومٌ حَيْثُ أُكْرِمُ مَنْ كَفَرْ [3]

وأنشدنى محمد بن إسحاق بن حبيب [الطويل] :

إذَا أَنَا أَعْطَيْتُ القَلِيلَ شكَــــرتُمُ ... وإنْ أَنَا أَعْطَيْتُ الكَثِيرَ فَلا شُكْــرُ
ومَــا لُمتُ نَفْسِى فِى قَضَاءِ حقُــوقِكُمْ ... وقَدْ كَانَ لِى فِيمَا اعتَذَرْتُ بِهِ عُــذْرُ [4]

---

(1) سقط فى الأصل . (2) فى الأصل : قال .

(3) من كان يشكر النعم فإن علامة شكره هى الحمد واللَّهَج بالثناء على صاحب النعمة ، أما من أهمل الثناء وخنس عن حمد النعمة وكفر المعروف .

وإذا ما صنع هذا وكفر النعمة فما ذنب من أَوْلاه الفضل وهل الإكرام والتفضل ذنب به يعاقب وعليه يؤاخذ ؟!

لا على ذى لوم ولا عتب ولكنه يلام ويدان إن صوب بنعمته شطر كفورها ومنكرها ثانية ، إذْ إن إكرام اللئيم من الخور والعته كمن سمن كلبًا ليأكله ، والعاقل لا يعلق الجواهر فى أعناق الخنازير .

(4) إنى أسيف لما بدر منى إليكم فيالهف نفسى إذْ امتهنتها عندكم إذا بذلت إليكم القطمير والحقير تأبهون وتشكرون وإن بالغت إكرامكم وعطائكم كفرتم النعم وتمردتم وتأنفتم . . ؟!!

لقد امتهنت نفسى وأضعت بينكم فلسى ، وما اجتنيت إلا الحسرة والهَفَّة والندم وقد كانت لى سَعَةٌ ومعذرة فى منعكم الفضل ومجانبتكم العطاء .

قال أبو حاتم - رضى الله عنه : إنى لأستحبّ للمرء أن يلزم الشكر للصنائع ، والسعى[1] فيها من غير قضائها ، إذا كان المنعم من ذوى القَدْر فيه ، والاهتمام[2] بالصنائع ، لأن الاهتمام ربما فاق المعروف ، وزاد على فعل الإحسان ، إذ المعروف يعمله المرء لنفسه ، والإحسان يصطنعه إلى الناس ، وهو غير مهتمّ[3] به ، ولا مشفق عليه ، وربما فعله الإنسان وهو متكاره ، والاهتمام لا يكون إلا من فَرْط عِناية ، وفضل وُدّ ، فالعاقل يشكر الاهتمامَ أكثر من شكره للمعروف .

أنشدنى عبد العزيز بن سليمان [البسيط] :

لأَشْكُـــــرَنَّكَ مَعْرُوفًا هَمَمْتَ بِهِ ... إِنَّ اهْتِمَامَكَ بِالْمَعْرُوفِ مَعْــــرُوفُ
وَلا أَلُومُـــــكَ إِنْ لَمْ يُمْضِهِ قَدَرٌ ... فَالشَّيْءُ بِالقَدَرِ المَجْلُوبِ مَصْـرُوفُ[4]

وأنشدنى ابن زنجىّ البغدادىّ : [الرمل]

بَطِــــرَ النِّعْمَةَ مَنْ ضَيَّعَهَـــــا ... وَمُضِيعُ الشُّكْـــرِ مُسْتَدْعِي الْغِيَرْ
فَاجْعَلِ الشُّكْـــــرَ عَلَيْهَا حَارِسًا ... رُبَّمَا ابْتَزَّ الْفَتَى النُّعْمَى[5] الْبَطَرْ[6]

حدثنى عمرو بن محمد ، حدثنا محمد بن زكريا ، حدثنا محمد بن عبيد الله الجُشَمِىّ ، حدثنا على بن محمد ، قال : مَرَّ عمر بن هُبيرة ، لما انصرف فى طريقه ، فسمع امرأة من قيس تقول : لا والذى يُنجِى عُمر بن هبيرة ، فقال : يا غلام ، أعطها ما معك ، وأعلمْها أنى قد نجوت وبالله التوفيق .

* * *

---

(١) فى الأصل : وللسعى . (٢) فى الأصل : وللاهتمام . (٣) فى الأصل : متهم .

(٤) يا من فكرت فى المعروف وهممت إلى بذله إن لك منى الشكر والحمد ، فإن اهتمامك بانقاذ معروف فضل ومعروف أيضًا .

ولست قعيد لوم إن لم ينلنى معروفك بتغير الصروف وتحول الظروف فإنما الأمر بقضاء الله وقدره .

(٥) فى الأصل : النعم .

(٦) من كفر نعمةً واستهان بها فإنه مضيعُها ومبيدُها ، لأن كل متهاون فى الشكر فهو داعٍ للغِيَر والتبديد والذهاب لها .

والعاقل من يطوق النعم بالشكر فهو نعم ، وكل من بطر النعمة وتناسى شكرها وفخر بها من غير حقها فإنه مسلوبها ومحرومها وصدق العاقل : « إن المعاصى تزيل النعم ، وتبدل القسم ، وإن العبد ليحرم النعمة بالذنب يفعله . . . » .

وقول غيره :

إذا كنت فى نعمة فارعها ... فإن المعاصى تزيل النعم
وداوم عليها بشكر الإلـه ... فإن الإله سريع النقـم

ذِكْرُ الْحَثِّ عَلَى سِيَاسَةِ الرِّيَاسَةِ ، وَرِعَايَةِ الرَّعِيَّةِ

حدثنا عبد الله بن قَحْطَبَة ، حدثنا العباس بن عبد العظيم العنبريّ ، حدثنا مُؤَمّل بن إسماعيل ، حدثنا سفيان ، حدثنا عبد الله بن دينار ، قال : سمعت ابن عمر يقول : قال رسول الله ﷺ : « كُلُّكُمْ رَاعٍ ، وَكُلُّكُمْ مَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِه ، فَالأَمِيرُ رَاعٍ عَلَى رَعِيَّته ، وَمَسْئُولٌ عَنهُمْ ، وَالرَّجُلُ رَاعٍ عَلَي أَهْلِ بَيْته ، وَهُوَ مَسْئُولٌ عَنْهُمْ ، وَالمَرْأَةُ رَاعِيَةٌ عَلَى بَيْتِ زَوْجِهَا ، وَهِيَ مَسْئُولَةٌ عَنْهُ ، وَالْعَبْدُ رَاعٍ عَلَى مَالِ سَيِّدِه ، و[هُوَ] (١) مَسْئُولٌ عَنْهُ » (٢) .

---

(١) سقط فى الأصل .

(٢) أخرجه البخارى (٥/ ٨٤) ، كتاب « الاستقراض » ، باب : العبد راع فى مال سيده ، حديث (٢٤٠٩) ، (٥/ ٢١١) ، كتاب « العتق » ، باب : كراهية التطاول على الرقيق حديث (٢٥٥٤) ، (٥/ ٢١٥) ، كتاب العتق ، باب : العبد راع فى مال سيده ، حديث (٢٥٥٨) ، (٥/ ٤٤٤) ، كتاب الوصايا ، باب : تأويل قوله تعالى : ﴿ من بعد وصية يوصى بها أو دين ﴾ ، حديث (٢٧٥١) ، (٩/ ١٦٣) ، كتاب « النكاح » ، باب : ﴿ قُوا أنفسكم وأهليكم نارًا ﴾ ، حديث (٥١٨٨) ، (٩/ ٢١٠) ، كتاب « النكاح » ، باب : المرأة راعية فى بيت زوجها ، حديث (٥٢٠٠) ، (١٣/ ١١٩) ، كتاب « الأحكام » ، باب : قول الله تعالى : ﴿ أطيعوا الله ... ﴾ ، حديث (٧١٣٨)، ومسلم (٣/ ١٤٥٩) ، كتاب الإمارة » ، باب : فضيلة الإمام ، حديث (٢٠/ ١٨٢٩) ، وأبو داود (٢/ ١٤٥) ، كتاب « الخراج » ، باب : ما يلزم الإمام من حق الرعية ، حديث (٢٩٢٨) ، والترمذى (١٧٠٥) ، وأحمد (٢/ ٥ ، ٥٤ - ٥٥ ، ١١١ ، ١٢١) ، وابن الجارود فى « المنتقى » ، رقم (١٠٩٤) ، وأبو عبيد فى كتاب « الأموال » (ص١٠ ، ١١) رقم (٣ ، ٤) ، وعبد الرزاق (١١/ ٣١٩)، رقم (٢٠٦٥٠) ، وأبو يعلى (١٠/ ١٩٩) رقم (٥٨٣١) ، وابن حبان (٤٤٧٢ ، ٤٤٧٣، ٤٤٧٤) ، والبيهقى (٧١ ، ٢٩١) ، والبغوى فى « شرح السنة » (٥/ ٣١١ - بتحقيقنا) ، والقضاعى فى « مسند الشهاب » ، رقم (٢٠٩) كلهم من حديث ابن عمر .

وللحديث شواهد من حديث أنس وعائشة وأبى لبابة بن عبد المنذر ، حديث أنس ، قال : قال رسول الله ﷺ : كلكم راع وكل مسئول عن رعيته ، فالأمير راع على الناس ومسئول عن رعيته والرجل راعٍ على أهل بيته ومسئول عن رعيته ، والمرأة راعية لزوجها ومسئولة عن بيتها وولدها والمملوك راعٍ على مَوْلاه ومسئول عن ماله ، وكلكم راعٍ وكلكم مسئول عن رعيته . .

ذكره الهيثمى فى « مجمع الزوائد » (٥/ ٢١٠) ، وقال : رواه الطبرانى فى « الصغير » ، و«الأوسط » ، وأحد إسنادَى الأوسط رجاله رجال الصحيح .

حديث عائشة :

ذكره الهيثمى فى « مجمع الزوائد » (٥/ ٢١٠) ، وقال : رواه الطبرانى فى « الأوسط » ، وفيه أرطاة بن الأشعث ، وهو ضعيف جدًا . =

قال أبو حاتم - رضى الله عنه : صَرَّحتِ السنة عن المصطفى - صلى الله عليه وسلم- بأن كل راع مسئول عن رعيته ، فالواجب على كل من كان راعيًا لزوم التعاهد لرعيته . فرعاة الناس العلماء ، وراعى الملوك العقل ، وراعى الصالحين تقواهم ، وراعى المتعلم معلمه ، وراعى الولد والده ؛ كما أن حارس المرأة زوجها ، وحارسَ العبد مولاهُ ، وكلٌّ راع من الناس مسئول عن رعيته .

وأكثر ما يجب تعاهد الرعية للملوك ؛ إذ هم رُعَاةٌ لها ، وهم أرفع الرعاة ، لكثرة نَفاذ أمورهم ، وعقدِ الأشياء وحلِّها من ناحيتهم ، فإذا لم يراعوا أوقاتَهم ، ولم يحتاطوا لرعيتهم ، هَلَكوا وأهلكوا ، وربما كان هلاك عالَم ، فى فساد مَلِك واحد . ولا يدوم مُلْكُ مَلِك إلا بأعوان تطيعه ، ولا يطيعه الأعوانَ إلا بوزير ، ولا يتم ذلك إلا أن يكون الوزير ودودًا نَصوحًا ، ولا يوجد ذلك من الوزير إلا بالعفاف والرأى ، ولا يتم قِوام هؤلاء إلا بالمال ، ولا يوجد المال إلا بصلاح الرعية ، ولا تصلح الرعية إلا بإقامة العدل، فكأن ثبات الملك لا يكون إلا بلزوم العدل ، وزواله لا يكون إلا بمفارقته .

فالواجب على الملك أن يتفقد أمور عماله ، حتى لا يخفَى عليه إحسان محسن ، ولا إساءة مسىء ، لأنه إذا خفى عليه أعمال عماله ، لم يكن قائمًا بالعدل .

[وكل رياسة لم تكن مشوبة بتقوى الله تكون خَساسة لا رياسة ، والاحتواء على الرياسة من غير تقوى كالقاعد على الكُنَاسة .

كما قال بعضهم :

رِياسَـاتُ الرِّجالِ بِغَيْرِ دينٍ ... وَلا تَقْوَى الإلَهِ هِىَ الْخَسَاسَـه

وَكُلُّ رياسَةٍ من غيرِ تَقْوَى ... أَذَلُّ مِنَ الجلوسِ عَلَى الكُنَاسَه

= وللحديث طريق آخر .

أخرجه الخطيب فى « تاريخ بغداد » (٥/ ٢٧٦) من طريق النضر بن شميل عن هشام بن عروة ، عن أبيه ، عن عائشة ، عن النبى ﷺ قال : « كلكم راعٍ وكلكم مسئول عن رعيته » .

حديث أبى لبابة بن عبد المنذر .

نهى رسول الله ﷺ عن قتل الحيات التى فى البيوت وقال : كلكم راع ومسئول عن رعيته والرجل راع على أهله ومسئول عنهم وامرأة الرجل راعية على بيت زوجها وهى مسئولة عنهم وعبد الرجل راع على مال سيده وهو مسئول عنه ألا كلكم راع وكلكم مسئول .

قال الهيثمى فى « المجمع » (٥/ ٢١٠) : لأبى لبابة فى الصحيح النهى عن قتل الحيات فقط رواه الطبرانى فى « الأوسط » ، و« الكبير » ورجال الكبير رجال الصحيح .

وأشــــرف مَنْزِلٍ وأعزُّ عِـــــزٌّ   وخيرُ رِيَاسَةٍ تَرْكُ الرياسَه] (١)

ولقد أنشدنى على بن محمد البسّامىّ [الطويل] :

إذَا سُسْتَ قَوْمًا فَاجْعَلَ العَدْلَ بَيْنَهُم   وبَيْنَكَ ، تأمَنْ كُلَّ مَا تَتَخَـــوَّفُ

وَإنْ خِفْتَ مِنْ أهْوَاءِ قَـــوْمٍ تَشَتُّتًا   فَبِالْجُودِ فَاجْمَــعْ بَيْنَهُمْ يَتَألَّفُــوا (٢)

حدثنا عمرو بن محمد ، حدثنا الغلابىُّ ، حدثنا إبراهيم بن عمر بن حبيب القاضى، حدثنا الأصمعىُّ ، قال : قال مَلك بخارستان لنصر بن سَيار : ينبغى للأمير أن يكون له ستة أشياء : وزير يثق به ، ويُفضى إليه بسره ؛ وحِصان يلجأ إليه ، إذا فَزِع أنجاه ، [يعنى فَرَسًا] (٣) ، وسيف إذا نازل به الأقران لم يَخَف أن يخونَه ، وذخيرة خفيفة المحمِل إذا نابته نائبة أخذها ، وامرأة إذا دخل إليها أذهبت هَمَّه ،وطباخ إذا لم يَشْتَهِ الطعام ، صنع له شيئًا يشتهيه .

قال أبو حاتم - رضى الله عنه : لا يجب للسلطان أن يُفرِط البشاشة والهشاشةَ للناس، ولا أن يُقِلَّ منهما (٤) ؛ فإن الإكثار منهما يؤدى إلى الخفة والسُّخْف ، والإقلال منهما يؤدى إلى العُجْب والكِبر . ولا ينبغى له أن يغضَب ، لأن قدرته من وراء حاجته، ولا له أن يكذب ؛ لأنه لا يقدر أحد على استكراهه ، ولا له أن يبخل ؛ لأنه لا عُذر له فى منع الأموال والجاه معًا ، ولا له أن يحقِدَ ؛ لأنه يجب أن يترفع عن المجازاة ، وأفضل السلطان ما لم يخالطْهُ البَطَر ، وأعجزهم آخَذُهم الهُوينَا ، وأقلهم نظرًا فى العواقب ، وخَيرِ السلطان من أشبه النسر حولَه الجِيَف ، لا من أشبه الجيف حولها النسور.

ويجب عليه استبقاء الرياسة ، وما فيه من نعم الله عليه ، بلزوم تقوى الله ، وتفقُّد أمور الرعية ، وإنصاف بعضهم بعضًا ؛ لأنه ما من قوىّ فى الدنيا إلا وفوقه أقوى منه ، فمتى ما عرف السلطان فضلَ قُوَّته على الضعفاء ، فغره ذلك من قوة الأقوياء ، كانت قوته حَيْنًا عليه ، وهلاكًا له ، والضعيفُ المحترِسُ أقرب إلى السلامة من القوى المغترّ ، لأن صَرعةَ الاسترسال لا تكاد تُستقال . ولا يجب أن يعجِّل فى سلطانه بعقاب من يخاف أن يندم عليه ، ولا يثقَنَّ بمن عاقبه من غير جُرم .

---

(١) سقط فى ط .

(٢) ينبغى على من رأس قومًا أن يسوسهم ، ويعمهم بالفضل وبذلك يتثبت ملكه وتدوم دولته وينتفى عنه كل ما يتخوف ويحذر . . .

وإن خاف الشتات وتفرق الأهواء ، فلينفح الأقوام بجوده وسخائه ويوليهم جزيل عطائه فبذلك يأتلفوا ويتفقوا ويندفع الشتات ويحل الثبات .

(٣) سقط فى الأصل .   (٤) فى الأصل : منها .

وما أشبَّهُ السلطان إلا بالنار ، إن قصرت بطلَ نفعها ، وإن جاوزت عظم ضرُّها ، فخير السلطان من أشبه الغيثَ فى أحيانه فى نفع [١] من يليه ، لا من أشبه النار فى أكلها ما يليها .

والسلطان إذا كان عادلاً خير من المطر إذا كان وابلاً ، وسلطان غَشُوم خير من فتنة تدوم ، والناس إلى عدل سلطانهم أحوجُ منهم إلى خِصْبِ ديارهم .

ولقد حدثنا عمرو بن محمد ، حدثنا الغلابىُّ ، حدثنا مُرَجَّى بن المؤَمَّل بن المثَنَّى المُرِّى [٢] ، عن أبيه ، قال : قال الأحنف بن قيس : الوالى من الرعية مكانَ الرُّوح من الجسد ، الذى لا حياة له إلا به ، وموضعَ الرأس من أركان الجسد ، الذى لا بقاء له إلا معه .

وأنشدنى ابن زنجىّ البغدادىّ للأفوه الأودىّ [البسيط] :

لا يَصْلُحُ النَّاسُ فَوْضَى [٣] لا سَرَاةَ لَهُمْ ... وَلا سَرَاةَ إِذَا جُهَّالُهُمْ سَادُوا
وَالبَيْتُ لا يُبْتَنَى إِلا بِأَعْمِدَةٍ ... وَلا عِمَادَ إِذَا لَمْ تُرْسَ أَوْتَادُوا
فَإِنْ تَجَمَّعَ أَوْتَادٌ وَأَعْمِدَةٌ ... وَسَاكِنٌ أَدْرَكُوا الأَمْرَ الَّذى كَادُوا
تُهْدَى الأُمُورُ بِأَهْلِ الرَّأْيِ مَا صَلَحَتْ ... فَإِنْ تَوَلَّتْ فَبِالأَشْرَارِ تَنْقَادُ [٤] [٥]

قال أبو حاتم - رضى الله عنه : الواجب على السلطان قبل كل شىء أن يبدأ بتقوى اللهِ، وإصلاح سريرته بينه وبين خالقه ، ثم يفكر فيما قلده الله من أمر إخوانه ، ورفعه عليهم ؛ ليعلم أنه مسئول عنهم فى [٦] دِقِّ الأمور وجِلها ، ومحاسبٌ على قليلها وكثيرها ،

---

(١) فى الأصل : أنفاع . (٢) فى الأصل : المزنى .

(٣) فى الأصل : كتب فوقها : « متفرقة » . (٤) فى الأصل : تنقادوا .

(٥) هذه الأبيات الحسان فاقت عقود الجُمَان وبزّت اللؤلؤ والمرجان نظمًا ومعنى ظاهرًا وباطنًا فيقول: قد مضيت السنة أبرم الأمر أنه لا انصلاح للناس إلا بِسُراتهم وإذا انعدم السراه وراحوا كثر الجهال والسفهاء وسادوا ، وأَمرُ الناس كالبيت لا يقوم إلا بعمدٍ ولا تقام الأعمدة إلا بإرساء الأوتاد ورسوخها.

فكذلك سراه الناس هم أعمدة الصلاح للناس وعدلهم وخُلُقهم هى الأوتاد . .

فإن تجتمع أصول البنيان وفروعه شمخ وعظم وثبت إذ على الأساس قواعد البنيان .

وهكذا تُستَقَادُ الأمور وتجتمع بالأكابر ذوى الرأى من الناس فإن جلَّوا جلت وإن ذهبوا نقضت وبادت باستعادة الأشرار الأغرار لها .

(٦) فى الأصل : عن

ثم يتخذ وزيرًا صالحًا عاقلاً عفيفًا نَصوحًا ، وعُمَالاً صالحين بَرَرَة راشدين ، وأعوانًا مستورين ، وخدمًا معلومين ، ثم يقلِّد عماله ما لا غنى له عنهم ، ويشترط عليهم تقوى الله وطاعتَه ، وأخذ المالِ من حله ، وتفريقه فى أهله ، ثم يتفقد أمرَ بيت المال بأن لا يدخله حَبة فما فوقها ، من قَهْرٍ أو جَور ، أو سلْب أو نهْب أو رِشْوة ، فإنه مسئول عن كل ذَرَّة منه ، ومحاسَب على كل حَبة فيه ، ثم لا يخرجه إلا فى المواضع التى [1] أمر الله - جل وعلا - فى سورة الأنفال .

ثم يتفقدَ أمور الحرمين ، وطريق الحاجّ ، ومجاورى بيت الله ، وقبر رسوله ﷺ ، ثم يتفقد ثغور المسلمين ، ولا يولِّى [2] على الثغور من عماله ، إلا من يعلم أن القتل فى سبيل الله يكون آثَر عنده من البقاء فى الدنيا ، ليُعزَّ فِى الناس ، ولا يعطِّلَ الثغر .

ثم يتفقدَ ثغور المسلمين ومَراقبهم ، والأبرجة التى بين المسلمين وبين عدوهم ، بأن يُعمِّرها ، ويقيم فيها أعينًا من المسلمين ، لتجسس أخبار العدو ، ويُجرى عليهم من بيت مالهم .

ثم يتفقدَ أولادَ المهاجرين والأنصار بعطاياهم ، ويعرفَ فضيلتهم ، وسابقة آبائهم ، وأنه إنما نال ما نال بهم .

ثم يتفقد أمور الحكام : بأن لا يولِّىَ أحدًا على قضاء المسلمين إلا من يعلم منه العفاف والعلم ، وترك الميل إلى الهوى ، والحكمِ [3] بغير ما يوجبه العلم .

ثم يتفقدَ أهل العلم ، والقراء والمؤذِّنين ، والصالحين ، وضعفاء [4] المسلمين ، ولْيكُنْ لمن هو أصغر سِنا منه أبًا ، ولمن هو أكبر منه ابنًا ، ولأترَابه أخًا ، فيكون [5] فى تفقد أمورهم ، ولصلاح [6] أسبابهم ، أكثر من تفقدهم بأنفسهم .

ثم يختارَ من الرعية أقوامًا أمناء ، يبعثَ بهم فى كل سنة إلى المدن ، ليشرفوا على العمال والحكام ، ويتفقدوا أسبابهم وسيرَهم ، ويخبروه بها ، فيعزلَ من استحق منهم العزل ، ويُقِرَّ من اتبع الحق .

ثم يجعلَ لنفسه موضعًا لا يُمنع منه لطرح القِصَص ، ويَبْرزَ للرعية فى كل يوم مرة ، أو فى كل ثلاثة أيام ، أو فى كل أسبوع ، ليرفعوا إليه حوائجهم ، ولْيَجتنبِ الحِدّة ؛ وليلزمِ الحِلْم الدائم ، فيما يرد عليه من أشيائهم .

---

(١) فى الأصل : الذى .　(٢) فى الأصل : يُوَلِ .　(٣) فى الأصل : والحلم .
(٤) فى الأصل : وضعفى .　(٥) فى الأصل : ويكون .　(٦) فى الأصل : وإصلاح .

ولقد حدثنا عبد الله بن قَحْطبة ، حدثنا محمد بن زُنْبور ، حدثنا أبو بكر بن عياش، أن أهل الجاهلية لم يكونوا يسوِّدون عليهم أحدًا لشجاعة ولا لسخاء [1] ، إنما كانوا يسودون من إذا شُتِم حَلُمَ ، وإذا سئل حاجة قضاها ، أو قام [2] معهم فيها .

وأنشدنى الأبرش [الطويل] :

وَقَـــدْ يُبْغِضُ الحَيَّاتِ أَوْلَادُ آدَمٍ   وَأَبْغَضُ مَا فِيهَا إِلَيْهِمْ رُءُوسُـــهَا
وَمَـــا ابْتُلِيَتْ يَوْمًا بِشَـــرٍّ قَبِيلَـةٍ   أَضَرَّ عَلَيْهَا مِنْ سَفِيهٍ يَسُوسُهَا [3]

قال أبو حاتم - رضى الله عنه : لا يستحق أحد اسم الرياسة ، حتى يكون فيه ثلاثة أشياء : العقل ، والعلم ، والمنطق .

ثم يتعرَّى عن ستة أشياء : عن الحدَّة ، والعجَلة ، والحسَد ، والهوَى ، والكذِب ، وترك المشاورة .

ثم يلزم فى رياسته ، على دائم الأوقات ، ثلاثة أشياء : الرفقَ فى الأمور ، والصبرَ على الأشياء ، وطول الصمت .

فمن تعرّى عن هذه الأشياء - وهو ذو سلطان - عَمِي عليه قلبه ؛ وتشتّتت عليه أموره ومن لم يكن فيه خَصْلة من هذه الخصال ، نَقَصَ من ضوء بصر قلبه مثلُها ، ودخل الخَلَلُ فى أموره نحوها .

وإنما مثل الرئيس والرعية : كمثل جماعة عميان ليس لهم إلا قائد واحد ؛ فإن لم يكن ذلك القائد أحدَّ الناس بصرًا ، وألطفَهم نظرًا ، كان خليقًا أن يُوقعهم وإياه فى وَهْدة تَنْدَقُّ [فيها] [4] أعناقُهم وعنقُه معهم .

والواجب على السلطان ألا يغفُل عن [5] الأشياء الأربعة ، التى صلاحه فى دينه ودنياه فيها ، وهى ما حدثنا [به] [6] عمرو بن محمد ، حدثنا الغلابىُّ ، حدثنا محمد بن

---

(1) فى الأصل : سخاء .   (2) فى الأصل : نام .

(3) يومئ هذا البيت إلى حسن السياسة ، وإلى أن شرار الناس هم شرار الساسة ، فإن فسدت الأعوان والحاشية فإنهم مبغوضون ممقوتون ، وما أشد بغضًا إلى الناس من رؤسائهم المفسدين ، كالأفعى كلها هلاك وأهلك ما فيها رأسها .

وإن القبيلة والعشيرة لتغشاها النوائب ، وتحفها المصائب غير أن قاصمة الظهر ولباب المر وأصل الضرّ أن يقودها سفيه وتسند إمرتها إليه . . .

(4) سقط فى الأصل.   (5) فى الأصل : من .   (6) سقط فى الأصل .

عبيد الله الجُشَمِىّ ، حدثنا المدائنىّ ، قال : خرج الزهرىُّ يومًا من عند هشام بن عبد الملك ، فقال : ما رأيت كاليوم ، ولا سمعت به ، كأربع كلمات تكلم بهنَّ رجل آنفًا عند هشام بن عبد الملك ، فقيل له : وما هنَّ ؟ قال : قال له رجل : يا أمير المؤمنين ، احفظ عنى أربعَ كلمات ، فيهنَّ (١) صلاحُ مُلْكك ، واستقامةَ رعيتك . قال : هاتهن ، قال : لا تَعِدَنّ عدَةً مَن لا يثِق من نفسه بإنجازها ، ولا يغرنَّك المرتقَى وإن كان سهلاً ، إذا كان المنحَدَرُ وَعْرًا ، واعلم أن للأعمال جزاءً ، فاتَّقِ العواقبَ ، وأن للأمور بَغَتاتٍ ؛ فكن على حذر .

وأنشدنى المنتصر بن بلال [الهزج] :

بَـــــلاءُ النَّاسِ مُذْ كَانُوا   إِلَى أَنْ تَأْتِىَ السَّاعَـــــهْ
بِحُـــبِّ الأَمْـــرِ وَالنَّهْىِ   وَحُبُّ السَّمْعِ وَالطَّاعَهْ (٢)

قال أبو حاتم - رضى الله عنه : لا يجب للعاقل طلب الإمارة ؛ لأن من أوتيها عن مسألة وُكِلَ إليها ، ومن أعطيها عن غير مسألة أعينَ عليها ، ومن اشتهر بالرياسة فليحترز ؛ لأن الريح الشديدة لا تحطِم الكلأ ، وهى تحطِم دَوْح الشجَرِ ، ومُشيَّد البنيان.

وليلزم المشورة ، فإن فى المشورة صلاحَ الرعية ، ومادَةَ الرأى . وليصطنع إلى الناس كافَّة ، فى الوقت الذى يقدر على الصنائع والمعروف ، قبل أن يجيئه الوقت الذى يفقد فيه القدرة عليها . وليعتبر بمن كان قبله من الملوك والأمراء ، والسادة والوزراء ، لأن من ظفر بأمر جسيم فأضاعه ، فاته ، ومن أمكنته الفُرصة ، فأخّر العمل فيها ، لا تكاد تعود (٣) إليه .

والسلطنة إنما هى قول الحق ، والعمل بالعدل ، لا التفاخر فى الدنيا ، واستعمال البذل .

ولقد حدثنا محمد بن سعيد القزاز ، حدثنا خطاب بن عبد الرحمن الجَنَدِى ، حدثنا عبد الله بن سليمان ، قال : قال أبو عَمرة (٤) بن العلاء : كان أهل الجاهلية لا يسوِّدون

---

(١) فى الأصل : فيه .

(٢) إن أصل البلاء وجرثومته ، التى قبل اليوم وهذا الأمس وحتى يوم القيامة معقدها ومنبتها من الاستكبار والاستبداد وحب الأمر فى الناس والنهى فيهم وأن يسمع ويطاع ويستعبد الناس لذلك ، فهم رهن الإشارة ، وأسرى العبادة .

(٣) فى الأصل : يكاد يعود .   (٤) فى الأصل : عمرو .

إلا من تكاملت فيه ستٌّ خصال ، وتمامهن فى الإسلام السابعة : السخاء ، والنجدة ، والصبر ، والحلم ، والبيان ، والتواضع ، وتمامُهن فى الإسلام الحياء .

وأنشدنى الكريزىّ [الوافر] :

إِذَا نِلْتَ الإِمَـــارَةَ فَاسْـــمُ فِيهَا ... إِلَى العَلْيَاءِ بِالعَمَـــلِ الوَثِيـــقِ
بِمَحْـــضِ خَلِيقَةٍ لا عَيْبَ فِيهَـــا ... وَلَيْـــسَ المَحْضُ كَاللَّبَنِ المَذِيقِ
وَلا تَكُ عِنْدَهَا حُلْوًا فَتُحْسَى (١) ... وَلا مُرًا فَتَنْـــشَبَ فِى الحُلُوقِ
وَكُـــلُّ إِمَارَةٍ إِلا قَلِيـــلاً ... مُغَيِّرَةُ الصَّدِيقِ عَلَى (٢) الصَّدِيقِ (٣)

قال أبو حاتم - رضى الله عنه : من صحب السلطان ، فلا يجب أن يكتمه نصيحته ؛ لأن من كتم السلطان نصيحتَه ، والأطباء مرضه ، والإخوان بثَّه (٤) ، فقد خان نفسه . ومن يصحب السلطان لا ينجو من الآثام ، كما أن راكب العجل لا يأمن العثار ، ولا يجب أن يأمن غضبَ السلطان إن صدقه ، ولا عقوبته إن كذبَه ، ولا يجترىءُ عليه ، وإن أدناه ؛ لأن الحازم العاقل لا يشرب السُّم اتكالاً على ما عنده من التِّرْياق والأدوية .

وإنى لأستحبُّ لمن امتحن بصحبة السلطان ، أن يعلِّمه لزوم تقوى الله ، والعمل الصالح ، كأنه يتعلم منه ، ويؤدِّبه كأنه يتأدب به ، ويتقى سَخَطَاتِه ، والسَّخَط إذا كان عن علة ، كان الرضا عنه (٥) موجودًا ، وإذا كان من غير علة ، ينقطع حينئذ الرجاء . ولا يجب للرعية أن يعلم كلٌّ ما تأتى الملوك من أمورها ، لأن فى معرفتهم إياها بعضَ الفتنة ، وهيهات ! من ذا صحب السلطان فلم يفتتن ، ومن اتبع الهوي فلم يعطَب ؟ إن

---

(١) فى الأصل : فتخس .

(٢) فى الأصل : عن .

(٣) ينبغى على من أصابه فضل الله ، وامتلك زمام الأمور ، واستقادت له أزمتها وعقورها أن يرقى، ويعلو بحسن فعاله وصدق مقاله .

وبمحض حسن الخلق وتجنب ما يعاب ويسترذل ، وألا يشرب هذا بكدر سوء الخلق فشتان بين الصفو والرنق وشتان بين خالص اللبن وبين مذيقه .

وليضبط أموره وليحترز من كل ممكن فلا يكن ماء فيعصر ويحتس ولا حنظلاً فيلفظ ويمج ويلفظ .

وإنما القصد وأن يلبس لكل حاله لبوسها إما نعيمها وإما بؤسها . .

وليجهد فى حفظ الود والوفاء ، إذْ الإمارات والرياسات كفير القلوب وتستبدل المحبوب وقلما يثبت على العهد والوصال صادق قد ترأس . . . !!

(٤) بثه : همه وحزنه ، وهذا الكلام مستمد من كليلة ودمنة ، بتصرف .

(٥) فى الأصل : عن.

الشجرة الحسنة ربما كان سببُ هلاكها طيبَ ثمرتها ، وربما كان ذَنَبُ الطاووس الذى فيه جماله سببَ حَتْفه ، لأنه يُثْقِله ، حتى يمنَعه من الهرب . ومن صحب السلطان ، لم يأمن التغيُّر (١) على نفسه ، لأن الأنهار إنما (٢) تكون عَذْبة ، ما لم تنصَبَّ فى البحور ، فإذا وقعت فى البحور مَلُحت ، على أن قعود العلماء عن أبواب الملوك ، زيادة فى نور علمهم ، وكثرةَ غِشيانهم إياهم ، غِشاوة على قلوبهم . ومن صحب الملوك ، لم يأمن تغيرهم ، ومن زايلهم لم يأمن من تَفقُّدهم ، وإن (٣) قَطَع الأمور دونهم ، لم يأمن فيها مخالفتهم ، وإن عزم على شىء لم يجد بدا من مُؤامرتهم ، وأسمج شىء بالملوك الحدَّة.

ولقد حدثنا أحمد بن الحسن بن عبد الجبار الصوفىّ ، حدثنا يحيى بن مَعِين ، حدثنا المبارك بن سعيد الثَّورىّ ، قال : كان يقال : خمس خِصال هنَّ أقبح شىء فى من كنَّ فيه : الحِدَّةُ فى السلطان ، والكبر فى ذى الحسَبِ ، والبخلُ فى الغنىّ ، والحِرص فى العالِم ، والفُتُوَّة فى الشيخ .

قال أبو حاتم - رضى الله عنه : رؤساء القوم أعظمهم همومًا ، وأدومهم غُمومًا ، وأشغلهم قلوبًا ، وأشهرهم عيوبًا (٤) ، وأكثرهم عدوا ، وأشدهم أحزانًا ، وأنكاهم أشجانًا ، وأكثرهم فى القيامة حسابًا ، وأشدهم إن لم يَعْفُ الله عنهم عذابًا .

ومن أحسن ما يستعين به السلطان على أسبابه ، اتخاذ وزير عَفيف ناصح ، على ما تقدم ذكرنا له ، فإن الوزير إذا غفل الأميرُ ذكَّرَهُ ، وإذا ذَكَر أعانه ، وإن سوَّلت له نفسه سيئة صدَّه ، وإن أراد طاعة نَشَّطه ، فهو المحبِّب له إلى الناس ، والمستجلب دعاءهم له.

ولقد أنشدنى على بن محمد البسامىّ [الوافر]

إِذَا نَــــسِيَ الأميرُ قَضَاءَ حَقٍّ ... فَإِنَّ الذَّنْــبَ فِيهِ لِلْوَزِيــــرِ
لأَنَّ عَلَى الوَزِيــرِ ، إِذَا تَوَلَّى ... أُمُورَ النَّاسِ ، تَذْكِيرَ الأَمِيرِ (٥)

---

(١) فى الأصل : التغيير . (٢) فى الأصل : ربما .
(٣) فى الأصل : فإن . (٤) فى الأصل : عيونًا .
(٥) ينبغى على الأمير أن يحسن اختيار وزيره وحاشيته وبطانته فكل امرئ يختار أنيسه من جنسه وطباعه وليعهد بالأمور إلى صالح الوزراء ، فإما نسي قضاء حق أو رفع ظلم فإن الوِزر فى عنق الوزير.

لأن الوزير دون الأمير شواغل ، وما سُمّى وزيراً إلا لأنه أزْرٌ وتسديد الأمير وَعَضُد له ، وعليه تذكير الأمير بالكبير والصغير . .

قال أبو حاتم - رضى الله عنه : الواجب على كل من يغشَى السلطان ، وامتُحِن بصحبته، ألا يَعُدَّ شتمه شتمًا ، ولا إغلاظه إغلاظًا ، ولا التقصير فى حقِّه ذنبًا ؛ لأن ريح العزة بسطت له لسانه ويدَه بالغلظة ، فإن أنزله الوالى منزلة رفيعة من نفسه ، فلا يثقنَّ بها ، وليجانب معه الكلام الملق ، والإكثارَ من الدعاء فى كل وقت ، وكثرة الانبساط ، فربَّ كلمة أثارت الوَحْشة ؛ بل يجتهد فى توقيره ، وتعظيمه عند الناس ، فإن غضب فليَحْتَلْ فى تسكين غضبه باللين والمداراة ، ولا يكون سببًا لتهييجه (١) .

ولقد حدثنا عمرو بن محمد ، حدثنا الغلابىُّ ، حدثنا (٢) ابن عائشة ، عن أبيه ، قال: بعث أبو جعفر إلى جعفر بن محمد ، قال : إنى أستشيرك فى أمر ، إنى قد تأملت أهلَ المدينة (٣) مرة بعد أخرى ، فلا أراهم يرجعون ولا يُعْتبون ، وقد رأيت أن أبعث فأُحرِّق نخلها ، وأُغَوِّر (٤) عيونها ، فما ترى ؟ فسكت جعفر ، فقال : مالك لا تكلم ؟ قال : إن أذنْت لى تكلمت . قال : قل ، قال : يا أمير المؤمنين ، إن سليمان أعطِي فشكر ، وإن أيوب ابتُلى فصبر ، وإن يوسف قَدَر فغفر . وقد جعلك الله من النسل الذين يَعفون ويصفحون . قال : فَطَفِئ غضبه وسكن .

حدثنا محمد بن أبى على الخلادىّ ، حدثنا محمد بن إبراهيم بن سعيد ، عن محمد ابن حميد بن فَروة ، عن أبيه ، قال : لما استقرت للمأمون الخلافةُ ، دعا إبراهيم بن المهدىّ ، المعروف بابن شَكْلَة ، فوقف بين يديه ، فقال : أنت المتوثِّبُ علينا تدَّعى الخلافة ؟ فقال إبراهيم : يا أمير المؤمنين ، أنت ولى الثأر ، مُحكَّم فى القِصاص ، والعفو أقرب للتقوى ، وقد جعلك الله فوق كل [ذى] (٥) ذنب ، كما جعل كل ذى ذنب دونك ، فإن أخذت أخذت بحق ، وإن عفوت عفوت بفضل ، ولقد حضرت أبى، وهو جدُّك ، أُتِى برجل كان جُرمه أعظم من جُرمى ، فأمر الخليفة بقتله ، وعنده المبارك ابن فَضالة ، فقال المبارك بن فضالة : إن رأى أمير المؤمنين أن يستأنىَ فى أمر هذا الرجل، حتى أحدثه بحديث سمعته من الحسن ، يحدث [به] (٦) عن رسول الله ﷺ ؟ قال إيهِ يا مبارك ، قال : حدثنى الحسن ، أن رسول الله ﷺ قال : إذا كان يوم القيامة نادى منادٍ من بُطْنان العرش : ألا لِيَقُم العافونَ من الخلفاء ، فلا يقوم إلا من عفا ، فقال

---

(١) فى الأصل : سبب تهيجه . (٢) فى الأصل : حدثنا عبيد الله بن محمد .

(٣) يقال : تأنيت الرجل ، أي انتظرته ، وتأخرت فى أمره ولم أعجل.

(٤) فى الأصل : وأُعَوِّرَ . (٥) سقط فى الأصل . (٦) سقط فى الأصل .

الخليفة له : يا مبارك ، قد قبلت الحديث ، وعفوت عنه ، أُخرج أيها الرجل ، فلا سبيل لأحد عليك . فقال المأمون : يا عمِّ ، هاهنا ، يا عم ، هاهنا .

قال أبو حاتم - رضى الله عنه : الواجب على مَنْ قُلِّدَ أمور المسلمين الرجوع إلي الله - جل وعلا - فى كل لحظة وطَرْفة ؛ لئلا يطغيه ما هو فيه من تسلطه ، بل يذكر عظمة الله وقدرته وسلطانه ، وأنه هو المنتقم ممن [1] ظلم ، والمجازى لمن أحسن ، فليلزم فى إمرته السلوك الذى يؤديه إلى اكتساب الخير فى الدارين ، وليعتبر بمن كان قبله من أشكاله ، فإنه لا محالة مسئول عن شكر ما هو فيه ، كما هو لا محالة مسئول عن حسابه، إذ [2] المصطفى - صلى الله عليه وسلم - قال : يقول الله تبارك وتعالى يوم القيامة : ألم أحملْك على الخير [3] ، ورزقتك النساء ، وجعلتك ترأس وتربع ؟ فيقول: بلى ، فيقول : فأين شكر ذلك ؟

وأنشدنى ابن زنجىّ البغدادىّ [الطويل] :

يُدبِّـــــرُ أَسْبَابَ الرِّجَالِ مُؤَمَّـــرٌ ... إِذَا صَلَحَتْ فِى الصَّدْرِ أَشْفَى وَأَبْيَـنُ
مِـــــنَ العَقْلِ أَنْ تَحْتَاطَ فِيمَا وَلِيتَهُ ... وَتَحْسِمَ مَا تَخْشَاهُ وَالأَمْرُ مُمْكِـنُ [4]

* * *

(١) فى الأصل : على قن . (٢) فى الأصل : إذا . (٣) فى الأصل : الخيل .

(٤) إنما يقوم بمصالح الناس الأمراء يحمى بيضتهم ويذب عن أعراضهم ويدبر أسبابهم ، وإن صَلَحَتْ الصدورُ استقامت كل الأمور . .

وينبغى على العاقل أن يتحرز من كل ممكن ، وليحوط نفسه بالحذر فيما وليه ، وليحسم الأمور فى مواقيتها فمن حسم الداء لم يستفحل ، ومن داوى جرحه لم يتسع . . .

ذِكْرُ الدُّنْيَا وَتَقَلُّبِهَا بِأَهْلِهَا

حدثنا محمد بن عبد الله بن عبد السلام ، حدثنا عبد الله بن هانىء بن عبد الرحمن ابن أبى عَبْلة ، حدثنا أبى ، عن عمه إبراهيم بن أبى عَبْلة ، عن أم الدرداء ، عن أبى الدرداء ، قال : قال رسول الله ﷺ : « مَنْ أَصْبَحَ مُعَافًى فِى بَدَنِه ، آمِنًا فِى سِرْبِه ، عِنْدَهُ قُوتُ يَوْمِه ، فَكَأَنَّمَا حِيزَتْ لَهُ الدُّنْيَا ، يَابْنَ جُعْشُم ، يَكْفِيكَ مِنْهَا مَا سَدَّ جَوْعَتَكَ ، وَوَارَى عَوْرَتَكَ ، فَإِنْ يَكُنْ ثَوْبًا تَلْبَسُهُ فَذَاكَ ، وَإِن كَانَتْ دَابَّةٌ تَرْكَبُهَا فَبَخْ : فِلَقُ الْخُبْزِ ، وَمَاءُ الْجَرِّ ، وَمَا فَوْقَ الإِزَارِ حِسَابٌ عَلَيْكَ » (١) .

---

(١) أخرجه ابن حبان (٢٥٠٣ - موارد) وأبو نعيم فى « الحلية » (٥/ ٢٩٤) ، والقضاعى فى «مسند الشهاب » (١/ ٣١٩ - ٣٢٠) رقم (٥٣٩) ، كلهم من طريق عبد الله بن هانئ بن عبد الرحمن ابن أبى عبلة عن أبيه ، حدثنا إبراهيم بن أبى عبلة عن أم الدرداء عن أبى الدرداء مرفوعًا ، والحديث ذكره الهيثمى فى « المجمع » (١٠/ ٢٩٢) ، وقال : رواه الطبرانى ورجاله وثقوا على ضعف فى بعضهم أ . هـ .

وللحديث شاهد من حديث عبيد الله بن محيصن .

أخرجه الترمذى (٤/ ٤٩٦) ، كتاب « الزهد » ، باب : (٣٤) ، حديث (٢٣٤٦) ، وابن ماجة (٢/ ١٣٨٧) ، كتاب « الزهد » ، باب : القناعة ، حديث (٤١٤١) ، والبخارى فى « الأدب المفرد » ، رقم (٣٠٠) ، والحميدى فى « مسنده » (١/ ٢٠٩) رقم (٤٣٩) ، والعقيلى فى « الضعفاء » (٢/ ١٤٦)، والخطيب فى « تاريخ بغداد » (٣/ ٣٦٤) ، والبيهقى فى « الزهد الكبير » (ص٨٨) رقم (١٠٥) ، والقضاعى فى « مسند الشهاب » (٥٤٠) كلهم من طريق سلمة بن عبيد الله بن محصن الأنصارى ، عن أبيه مرفوعًا .

قال العقيلى : سلمة بن عبيد الله مجهول فى النقل ولا يتابع على حديثه ولا يعرف إلا به قال أحمد: لا أعرفه ، وقد رَوَوْا مثل هذا الكلام ، عن أبى الدرداء ، عن النبى ﷺ بإسناد يشبه هذا فى اللين . أ هـ .

ووافقه على جهالة سلمة الحافظ فى « التقريب » (١/ ٣١٧) ، فقال : مجهول .

ومع هذا فقد حسنه الترمذى ، ولعله حسنه لغيره وذكره السيوطى فى « الجامع الصغير » (٦/ ٦٨ - فيض) رقم (٨٤٥٥) ، من رواية عبد الله بن محيصن ورمز له بالحسن قال المناوى فى « فيض القدير » (٦/ ٦٨) .

(من أصبح منكم آمنًا فى سِرْبه) بكسر السين على الأشهر أى فى نفسه ، وروى بفتحها أى فى مسلكه وقيل بفتحتين أى فى بيته (معافى فى جسده) أى صحيحًا بدنه (عنده قوت يومه) أي غداؤه وعشاؤه الذى يحتاجه فى يومه ذلك يعنى من جمع الله له بين عافية بدنه وأمن قلبه حيث توجه وكفاف عيشه بقوت يومه وسلامة أهله فقد جمع الله له جميع النعم التى من ملك الدنيا لم يحصل على =

قال أبو حاتم - رضى الله عنه : الواجب على العاقل أن لا يغتر بالدنيا وزهرتها ، وحسنها وبهجتها ، فيشتغل بها عن الآخرة الباقية ، والنعم الدائمة ، بل يُنْزلها حيث أنزلها الله ؛ لأن عاقبتها لا محالة ، تصير إلى فناء : يَخرُب عُمرانها ، ويموت سكانها، وتذهب [(١)] بَهجتها ، وتبيد خُضْرَتها ، فلا يبقى رئيس متكبر مؤمَّر ، ولا فقير مسكين محتقر ، إلا ويُجرى عليهم كأس المنايا ، ثم يصيرون إلى التراب ، فيبلَون حتى يرجعوا إلى ما كانوا عليه فى البداية إلى الفناء ، ثم يرث الأرض ومن عليها علام الغيوب .

فالعاقل لا يَرْكَن إلى دار هذا نعتها ، ولا يطمئنُّ إلى دنيا هذه صفتها ، وقد ادُّخر له ما لا عينٌ رأت ، ولا أُذُنٌ سمعت ، ولا خطرَ على قلب بَشر ، فيضِنَّ بترك هذا القليل، ويرضى بفوت ذلك الكثير .

حدثنا محمد بن المسيب بن إسحاق ، حدثنا يعقوب بن إبراهيم الدَّوْرَقىّ ، قال : سمعت بشر بن الحارث يقول [السريع] :

لا تَأسَ فِى [(٢)] الدُنْيَا عَلَى فَائِتٍ … وَعِنْـــدَكَ الإِسْــلامُ وَالْعَافِيَهْ
إِنْ فَاتَ أَمْــــرٌ كُنْتَ تَسْعَى لَهُ … فَفِيهِمَــا مِنْ فَائِتٍ [(٣)] كَافِيَهْ [(٤)]

وأنشدنى الكريزىّ ، قال أنشدنى شعيب بن أحمد ، لسليمان بن يزيد العدوىّ : [الطويل]

أَلَــمْ تَرَ أَنَّ المَرْءَ يُودِى [(٥)] شَبَابُــهُ … وَأَنَّ المَنَايَا لِلرِّجَـــالِ تُشَعِّـــبُ

= غيرها فينبغى أن لا يستقبل يومه ذلك إلا بشكرها بأن يعرفها فى طاعة المنعم لا فى معصية ولا يفتر عن ذكره (فكأنما حيزت) بكسر المهملة (له الدنيا) أى ضمت وجمعت (بحذافيرها) أى بجوانبها أي فكأنما أعطى الدنيا بأسرها ومن ثم قال نفطويه :

إذا ما كســـاك الدهر ثوب مصحـــة … ولم يخل من قوت يحـــلى ويعذب
فلا تغبطـــــن المترفــــين فإنه … على حسب ما يعطيهم الدهر يســـلب
إذا القوت يأتى لك والصحة والأمــن … وأصبحت أخا حزن فلا فارقك الحزن

وقال : وفيه حجة لمن فضل الفقر على الغنى .

(١) فى الأصل : ويذهب . (٢) فى الأصل : مِنَ (٣) فى الأصل : وارث .

(٤) ينبغى على العاقل ألا يحزن ما فوات الحظوظ من الدنيا ، ما دام معافىً فى دينه صحيح فى بدنه .

وليعلم أن نعمة الإسلام والعافية لا يقاس بهما نعمةٌ وفيهما الخلف الخير عن كل حظ فانٍ ، وحبر فائت .

(٥) فى الأصل : يَودَا .

فَمِـــنْ ذَائِقٍ كَأْسًا مِنَ الْمَوْتِ مُـرَّةً | وَآخَـــرَ أُخْرَى مِثْلَهَا يَتَرَقَّـــبُ
لَهَـــا مِنْهُمْ زَادٌ حَثِيثٌ وَسَائِـــقٌ | وَكُلٌ بِكَأْسِ الْمَوْتِ يَوْمًا سَيَشْرَبُ (١)
وَمَا وَارِثٌ إِلا سَيُـــــورَثُ مَالُهُ | وَلا سَالِبٌ إِلا وَشِيكًا سَيُسْلَـــبُ
وَلا آلِفٌ إِلا سَيَتْبَـــعُ إِلْفَـــهُ | وَلا نِعْمَــةٌ إِلا تَبِيدُ وَتَذْهَــبُ (٢)
وَمَا مِنْ مُعَـــافًى وَالْمَصَائِبُ جَمَّةٌ | يُعَاوِرُهَا (٣) الْعَصْرَانِ إِلا سَيُعْطَبُ
أَرَى النَّاسَ أَضْيَافًا أَقَامُـوا بِغُرْبَةٍ | تُقَلِّبُهُـــمْ أَيَّامُهَا وَتَقَلَّـــــبُ
بِـــدَارِ غُرُورٍ حُلْوَةٍ (٤) يَعْمُرُونَهَا | وَقَدْ عَايَنُوا فِيهَا زَوَالاً وَجَرَّبُـــوا
يَذُمُّونَ دُنْيَا لا يُرِيحُـــــونَ دَرَّهَا | فَلَـــمْ أَرَ كَالدُّنْيَا تُذَمُّ وَتُحْلَـــبُ
تَسُـــرُّهُمُ طَوْرًا ، وَطَوْرًا تُذِيقُهُمْ | مَضِيضَ مَكَاوٍ حَرُّهَا يَتَلَهَّبُ (٥)

---

(١) فى الأصل : تقدم هذا البيت على الذى قبله .

(٢) فى الأصل : فتذهب . (٣) فى الأصل : يعاودها . (٤) فى الأصل : حلوةٌ

(٥) هذه الأبيات الحسان فى ذكر الموت وذم الدنيا وذكر تقلب الأيام وتبدلها فيقول : ينبغى على العاقل أن يبصر حقائق الأشياء ، ويفيد منها عبرة ويلتمس منها عظة . . . وليذكر أن الشباب مودع ومرتحل ، وسيذهب عن المرء لا محالة ، ثم تحول له المنايا شراكها .

والناس رهن للمنايا وأشركتها منهم بين كارع لأكؤسها المرة ، وبين مترقب حذر راهب من ذى الكاس .

وكذلك المنية تتزود من الناس بجدة وتسعى حثيثًا لجمع زادها وخلب أسرارها وكل الناس لها رهن وشارب ومأسورٌ .

وكل من كان وارثًا لغيره فهو ذاهب وموروث ، وكل من ابتز مالاً وسلبه فهو مبتزه ومسلوبه .

وكل آلف إلفًا واستحسر عليه وجزع من فراقه فإنه متبعه ومفترق به ووارد موارده ، وكل ذى نعمة فإنه تاركها بذهابها عنه أو ذهابه عنه .

وكل دافع للبلايا وناجٍ من مصيبها ونصبها لا بدَّ وأن يصرع بها ويدين للداهية الدهياء التى حافت بكل الأحياء وهى الموت .

وإنما الدنيا ظل زائل وسفرٌ بها الناس غرباء مهما طال ثواؤهم ، وهم رهن لصروف الأيام وعرض لحوادث الزمان .

وإنما الدنيا حلوة خضرة غرورة تلهى بحسنها وتشغل عن سمها وقد أدمنها الناس ، واستقاموا إليها مع يقينهم بالزوال عنها ، وأنهم إلى فراق منها .

وهم يذمونها ويدأبون سبابها ولا يتكفكفون عن استحلاب ألبانها واستجداء عطاءها ، فوا عجبًا من دارٍ تذم وتطلب .

وهذه الدنيا الدنية قد رأبت الصدع ببريقها وحلو مذاقها وقد أتت على ما بنت فأشابت ما أضفته =

حدثنا عمرو بن محمد ، حدثنا الغلابيُّ ، حدثنا محمد بن عبيد الله (١) قال : عاد رجل مريضًا ، فسمع قائلاً يقول من ناحية البيت [الرمل] :

نَـــادِ رَبَّ الدَّارِ ذَا المَـــالِ الَّذِى ... جَمَعَ الدُّنْيَا بِحِرْصٍ : مَا فَعَلْ ؟(٢)

فأجابه مجيب [الرمل] :

كَـــانَ فِى دَارٍ سِـــوَاهَا دَارُهُ ... عَلَّلَتْـــهُ بِالْمُنَى ، ثُمَّ انْتَقَـــلْ
لَـــمْ يُمَتَّعْ بِالَّذِى كَانَ حَـوَى ... مِنْ حُطَامِ المَالِ ، إِذْ حَلَّ الأَجَلْ
إِنَّمَـــا الدُّنْيَا كَظِلٍّ زَائِـــلٍ ... طَلَعَتْ شَمْسٌ عَلَيْهِ فَاضْمَحَـلْ (٣)

قال أبو حاتم - رضى الله عنه : رأيت على حَجَر بطَبَرستان مكتوب :

الْعَـيْشُ لَوْنَانِ : فَحُلْوٌ وَمُـرٌّ ... وَالدَّهْرُ نِصفَانِ : فَرِيفٌ وَضُرُّ
وَالنُّطْـقُ جُزْآنِ : فَبَعْرٌ وَدُرٌّ ... وَالنَّاسُ إِثْنَـــانِ : فَنَذْلٌ وَحُـرُّ
يَوْمُـكَ يَوْمَانِ : فَخَيْرٌ وَشَرٌّ ... نَهَـــارٌ يَزُولُ ، وَلَيْلٌ يَكُـــرُّ
كَـذَاكَ الزَّمَانُ عَلَى مَنْ مَضَى ... وَكُلُّ السِّنِينَ عَلَى ذَا تَمُـــرُّ (٤)

= وهدمت ما بنته وهكذا لا تنفك عن هدم ولا عن بناء ومن استروحها طورًا أحرقته أطوارًا وصدق الله إذْ يقول : « وما الحياةُ الدنيا إلا متاعُ الغرورِ » .

(١) فى الأصل : عبد الله الجشمى .

(٢) ألا إن الدنيا فانية ، وكل مجموع منها إلى زوال وكذلك من جمع ، ومن ارتاب فى ذلك فلينظر وليخاطب أرباب المال أين ما لهم بل أين هم .. ؟! كل إلى فناء وبلاء .

(٣) ولقد اغترَّ ربّ المال بماله وعضد غروره المنى وإلا ما مال ثم لم تغن هذه جميعًا عنه شيئًا إذ عنها قد انتقل ومن بينها قد ارتحل ..

وكان جمعه إلى تباب وخراب ، فلم يحتلب درّ ماله ، ولم يلتذ به ، وإنما ناله وصب جمعه وشقاء حوذه ..

وهكذا الدنيا إلى زوالٍ كظلٍ لا يفئ حتى تنسخه أشموس الأجل فيتلاشى ويبيد ..!!!

(٤) معاش الناس رهن بشيئين : حلاوة يذقونها فينعمون ويتلذذون وبؤسٌ يغشاهم فيصدعون وييأسون والدهر فى حروفه إما يأتى بالرَّوْح والريحان وإما بالشقاء والخذلان .

ومنطق الخلق بين كلام كأنه الدر حلاوة ونظمًا فيبادره اللقط إذْ يلفظ ، وبين بعر وحصى يقال ويلغى فلا يحفظ ، وكذلك بنو آدم قد تقاسمتهم النذالة والحرية فمن بين سفيه نذل ، وأصيل حر .

وأيام الناس تأتى بالخيرات وتأتى بالمساءات ، وإن الموكل بالشمس ليجرها لا يفتأ عن ذلك فالليل آت والنهار خليفه لا يهمدان ولا يتصارعان وإنما هى خلْفة .

وهكذا سنة الله فى الكون وعلى هذا تمضى السنون وتذهب الأعوام .

وأنشدني الأبرش : [الرمل]

إِنَّمَــــا الدُّنْيَا نَهَـارُ ضَـــوْءُهَا ضَوْءٌ مُعَارُ
بَيْنَـــمَا غُصْنُكَ غَضٌ نَاعِمٌ فِيهِ اخْضِـــرَارُ
إِذْ رَمَــاهُ زَمَنَـــاهُ فَإِذَا فِيهِ اصْفِـــرَارُ
وَكَـــذَاكَ اللَّيْلُ يَأْتِي ثُمَّ يَمْحُوهُ النَّهَارُ (١)

وأنشدني ابن زنجيّ البغداديّ [السريع] :

يَا لائِــمَ الدَّهْرِ إِذَا مَا نَبَا لا تَلُمِ الدَّهْرَ عَلَى غَــدْرِهِ
الدَّهْــرُ مَأْمُــورٌ لَهُ آمِرٌ يَنْصَــرِفُ الدَّهْرُ إِلَى أَمْرِهِ
كَــمْ كَافِرٍ بِاللهِ أَمْــوَالُهُ تَزْدَادُ أَضْعَافًا عَلَى كُفْــرِهِ
وَمُؤْمِــنٍ لَيْسَ لَهُ دِرْهَــمٌ يَزْدَادُ إِيمَانًا عَلَى فَقْــرِهِ
لا خَيْرَ فِيمَنْ لَمْ يَكُنْ عَاقِلاً يَبْسُطُ رِجْلَيْهِ عَلَى قَدْرِهِ (٢)

---

(١) هذه الدنيا فانية ذاهبة كبرقٍ خُلّب أو كريح قُلّب ، وهي وإن كانت منيرة مشرقة ، فهى زائفة الضوء ، وضوءُها سراب معار .

وبينما المرء فيها سعيدًا رشيدًا رخى البال ناعم السربال كأنه غصن مورق مخضر .

إذا به مصمى من الدهر ، ومرمى بفجائعه ، فتذهب نضارته ، وتذبل زهرته وتعلوه صفرة .. كما قال الله تعالى : ﴿ ثُمَّ يَهيجُ فتراه مُصْفَرا ثُمَّ يكون حُطامًا وفى الآخرة عذابٌ شديدٌ ﴾ .

وإذا ما غشت البلايا وحلت الرزايا وكثر الظلم نسخها ضوء النهار ، بالفجار فجره وبوهج ضحاه وبأصيل شمسه .

(٢) ينبغى على العاقل أن يوقن أن الأمور تجرى بمقادير الله فلا يلوم دهره إذا أعضله ونأى عنه ، فلا يسارع بسبه ويبادر بعزله ..

إذ الدهر عبدٌ لله كما أنت عبد له ، وهو مأمور من ربه بإنفاذ قضائه وقدره .

ولا يعجب المرء من تصرف الدهور ، وغرابة ظاهرها فكم من كافر جاحد بربه غير أنه فى بسطة وسعه وماله يزداد أضعافًا مضاعفة ، وفليعلم العاقل أن هذا استدراج وزهر الحياة الدنيا وما عند الله خيرٌ وأبقى .

وكم من مؤمن قانت عابدٍ لربه ، كلما زاد من ربه قربًا كلما زاد فقرًا فلا عليه إنما هذا اختبار من ربه لعبده .

وينبغى على العاقل أن يقتصد فى أموره ويطمح بقدر ما يملك ويمد قدميه بحسب طاقته وسعة عطاءَته .

وأنشدني الكُريزيّ : [الرجز]

مَا الدَّهْـــــرُ إلا لَيْلَةٌ ويَوْمُ   وَالعَيْـــشُ إلا يَقْظَةٌ ونَـــوْمُ

يَعِيـــشُ قَوْمٌ ، ويَمُوتُ قَوْمُ   وَالدَّهْـرُ قَاضٍ مَا عَلَيْهِ لَوْمُ (١)

أنبأنا عبد الله بن محمد بن سلم ، حدثنا أحمد بن أبى الحَوَارِيّ ، حدثنا إسحاق الموصليّ ، قال : قال أبو حازم : بضاعة الآخرة كاسدة ، فاستكثر منها فى أوان كسادها؛ فإنه لو جاء أوان نَفَاقها ، لم تصل منها لا إلى قليل ولا إلى كثير .

قال أبو حاتم - رضى الله عنه : الدنيا بحر طَفَّاح ، والناس فى أمواجها يعومون ، وفى أمثال تضربها الأيام للأنام - وما أكثر أشباهَها منها - لأن كل ما يصير إلى فناء منها يشببها ، فمن أوتىَ من الدنيا أشياء ثلاثة ، فقد أوتى الدنيا بحذافيرها : الأمنُ ، والقوتُ ، والصحة ، لا يغتر بشىء منها إلا كلُّ خَدّاع ، ولا يركَنُ إليها إلا كل منّاع .

فالعاقل يعلم أن ما لم يبق لغيره ، عليه غير باق ، وأن ما سُلِب عن غيره ، لا يُترك عليه ، فالقصد إلى ما يعود بالنفع فى الآخرة للعاقل من الدنيا ، أحرى من السلوك فى قصد الضَّنِّ بها ، والجمع لها ، من غير تقديم ما قَدَم عليه فى الآخرة من الأعمال الصالحة ، وترك الاغترار بها .

والاعتبار بتقلبها بأهلها ، ولا شىء أعظم خَطَرًا من الحياة ، ولا غَبْن أعظم من إفنائها لغير حياة الأبد . ومن اشتهى أن يكون حُرا ، فلْيجتنبِ الشهوات وإن كانت لذيذة (٢) ، ولْيعلم أن كل لذيذ ليس (٣) بنافع ، ولكن كل نافع هو اللذيذ (٤) ، وكل الشهوات مملولة إلا الأرباح ، فإنها لا تُمَلّ ، وأعظم الأرباح الجنة ، والاستغناء بالله عن الناس .

ولقد أنشدنى علىّ بن محمد البساميّ [الطويل] :

فَأَعْظِـــمْ (٥) بِصَبْرٍ لِلزَّمَانِ ؛ فَإِنَّهُ   عَــلَى حَالَةِ المَكْرُوهِ لَيْسَ بِدَائِـــمِ

---

(١) من عجيب الأمور وغرائبها أن عمر المرء حين ذهابه وقرب رحيله لا يكاد يعد بل هو كيوم وليلة ويعرف هذا كل مِنّا حيث ما مضى من عمره كأنه يومه وأمسه فحسب وما معيشته عند احتسابها إلا يقظة يفىء فيها لبطنه ومتعه ونومٌ يقصده لإراحة بدنه .

وكذلك الناس بين ميت يرحل ويبلى ثم ينسى ومولود يطرق باب الدنيا وكذلك الأيام والدهور وكلٌ بقدر الله وحسب علمه .

(٢) فى الأصل : لذيذ .

(٣) فى الأصل : فليس .

(٤) فى الأصل : لذيذ .

(٥) فى الأصل : أعظم .

تَـــدُورُ لَنَا أَفلاكُـــــهُ بِعَجَائِبٍ إذَا مَا انْقَضَتْ كَانَتْ كَأَحلامِ نَائِمِ
سُرُورٌ وَهَم وَانْتِعاشٌ وَسَقْطَةٌ (١) إِلَى أَجَـلٍ دَانٍ لِذَلِكَ هَـــــادِمِ
وَبِاللهِ دُونَ النَّاسِ ،فَاسْتَغْنِ وَاسْتَعِنْ إذَا نَزَلَتْ إِحْدَى الأُمُورِ العَظَائِمِ (٢)

وأنشدنى محمد بن إسحاقَ الواسطىّ [البسيط] :

وَالنَّاسُ فِى هَـذِهِ الدُّنْيَا عَلَى رُتَبٍ هَـــذَا يُحَطُّ ، وَذَا يَعْلُو فَيرْتَفِـــعُ
فَأَخْلِصِ الشُّكْرَ فِيمَا قَدْ حُبِيتَ (٣) بِهِ وَآثِرِ الصَّبْرَ ،كُل سَوْفَ يَنْقَطِعُ (٤)

وأنشدنى المنتصر بن بلال [المتقارب] :

فَيَـــــومٌ عَلَيْنَا وَيَـــــوْمٌ لَنَا وَيَوْمًا (٥) نُسَاءُ ، وَيَوْمًا نُسَـــرُّ
كَـــــذَاكَ التَّقَارُضُ بَيْنَ الأَنَامِ فَخَيْرٌ (٦) بِخَيْرٍ ،وَشَر بِشَرٍّ (٧)

أنبأنا محمد بن عبد الله بن الجُنيد ، حدثنا عبد الوارث بن عبد (٨) الله ، عن عبد

---

(١) فى الأصل : وسقطة .

(٢) ينبغى على العاقل أن يعد الصبر لقوارع الزمن وصروفه ، لأنه متقلب متغلب لا يثبت على حال . .

وإنه ليوافى الناس بالعجائب والغرائب بما يذهل اللبيب ويصمت الخطيب وكذلك تنقضى وتمضى كأنها لم تكن إلا حلم نائم . . . أو هواجس واهم . .

فمن بين سرور وغبطة وحبرة وفرحة إلى تردى وتهدم وفناء من هادم اللذات ومفرق الجماعات . .

والعاقل من يدين لربه وعليه فليتوكل وليستعن إذا ما حلت به غاشيةٌ أو طرقته داهية .

فاشدد يديك بحبل الله معتصمًا فإنه الركن إن خانتك أركـــــان

(٣) فى الأصل : حُيِيت.

(٤) إنما الدنيا طرائق ومسالك وكل له مسلك فهذا فى مسالك العلو وذلك فى طرائق الدنوِّ وهذا إلى صَعَدٍ وذلك إلى صبب .

والعاقل من يحمد ربه على ما أوتى وليتسربل بالشكر وإذا ما منع فليصبر وليتجلد وليقنع بما رزق فكل إلى انقطاع وعقبى الجميع الزوال .

(٥) فى الأصل : ويومٌ (٦) فى الأصل : خير .

(٧) فليعلم العاقل أن الأيام تارة تنعم وتنعش فهى لنا وبنا وتارات تسىء وتشين وتهين ، وهكذا يومًا نساء ويومًا نسر . . وصدق الله إذ يقول : ﴿ وَتِلْكَ الأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ ﴾

وكذلك فى تعامل الناس فإنهم يتقارضون ويكيلون مما يكال لهم به فيردون الشر بالشر ويخرون عن الخير خيرًا .

(٨) فى الأصل : عبيد .

الله، عن مِسْعر ، عن مَعْن بن (١) عَوْن ، قال : كم من مستقبِل يومًا لا يستكمله ، ومنتظرٍ غدًا لا يُدرِكه ، لو تنظرون (٢) إلى الأجل ومسيره ، لأبغضتم الأملَ وغرورَه .

قال أبو حاتم - رضى الله عنه : السبب المؤدِّى للعاقل إلى إنزاله الدنيا منزلتها ، ترك الركون إليها مع تقديم ما قُدِرَ منها للعيش الدائم ، والنعيم المقيم هو تركُ طول الأمل ، ومراقبة ورود الموت عليه فى كل لحظة وطَرْفة ؛ لأن طول الآمال قَطعتْ أعناق الرجال . كالسَّراب : أخلف من رجاه ، وخاب من رآه .

فالعاقل يلزم تركها ، مع الاعتبار الدائم بمن مضى من الأمم السالفة ، والقرون الماضية، كيف عفَتْ آثارهم ، واضمحلَّت أنباؤهم ، فما بقى منهم إلا الذكر ، ولا من ديارم إلا الرسم ، فسبحان من هو قادر على بعثهم ، وجمعهم للجزاء والعقاب .

ولقد أنشدنا عمرو بن محمد ، قال : أنشدنا الغلابىّ ، [قال] (٣) : أنشدنا مهدىّ ابن سابق [البسيط] :

كُنَّا عَلَى ظَهْرِهَا ، وَالعَيْشُ ذُو مَهَلٍ ... وَالدَّهْرُ يَجْمَعُنَا ، وَالدَّارُ وَالْوَطَـنُ
فَفَـــرَّقَ الدَّهْرُ ذُو التَّصْرِيفِ أُلْفَتَنَا ... فَاليَوْمَ يَجْمَعُنَا فِى بَطْنِهَا الكَفَـــنُ
كَـذَلِكَ الدَّهْرُ لا يُبْقِى عَلَى أَحَـدٍ ... تَأْتِى بِأَقْـدَارِهِ الأَيَّامُ وَالزَّمَـنُ (٤)

وأنشدنى محمد بن عبد الله البغدادىّ [السريع] :

حَتَّى مَتَى تَبْقَى حَلِيفَ الأَسَى ... مُسْتَشْعِـــرًا لِلدَّهْرِ أَحْـزَانَا
فَـلا يَرُدُّ الحُزْنُ شَيْئًا ، وَلا ... يُعْتِبُ هَذَا الدَّهْـــرُ إِنْسَـانَا
قَـدْ يُقْبِلُ الدَّهْرُ بِسَـــرَّائِهِ ... طَـــورًا ، وَقَدْ يُدْبِرُ أَحيَـانَا
فَاصْبِرْ عَلَى مَا جَرَّ مِـنْ حَادِثٍ ... مَا زَالَ غَـــدَّارًا وَخَـــوَّانَا
وَأَحْسِـنِ الظَّنَّ بِمَنْ لَمْ يَزَلْ ... عَلَيْكَ مِفضَـــالاً وَمَنَّـانَا (٥)

---

(١) فى الأصل : عن . (٢) فى الأصل : ينظرون . (٣) سقط فى الأصل .

(٤) لقد كنا فى مراحٍ وأفراحٍ وعيشنا غض وألفتنا دائمة والدهر لنا وبنا وتجمع الأوطان والديار شتاتنا . .

حتى استفاق الدهر فأحطنا وأنزلنا على حكمه من شامخ عالٍ إلى حضض فنقضت ألفتنا ، واجتمع شتاتنا ولكنه مجمع الموتى فى باطن الأرض ولحودها .

وهكذا حال الدهر لا يستبقى حالاً ولا يسالم نوالاً تعصف أيامه بعكس لياليه وتنقض لياليه صنيع أيامه .

(٥) ينبغى على العاقل أن يكفكف مدامعه ويخفض من روعه ويقلّ من أساه وحزنه . =

وأنشدنى عمرو بن محمد ، قال : أنشدنى الغلابىُّ ، لابن أبى عُيينة المهلبىّ : [البسيط]

مَا رَاحَ يَوْمٌ عَلَى حَىٍّ وَلا ابتَكَـــرَا إلا رَأى عِبرَةً (١) فِيهِ إنِ اعتَبَـــرَا
وَلا أَتَتْ سَاعَةٌ فِى الدَّهرِ فَانصَرَفَتْ حَتَّى تُؤَثِرَ فِى قَـــوْمٍ لَهَا غِيَـرَا (٢)
إنَّ اللَّيَالِىَ وَالأَيَّـــامَ أَنفُسَـــــهَا عَنْ غَيْبِ (٣) أَنفُسِهَا لَمْ تَكتُمِ الخَبَرَا (٤)

أنبأنا على بن سعيد العسكرىّ ، حدثنا إبراهيم بن الجنيد ، حدثنا الحسن بن سعيد الجُرجانىّ ، قال : سمعت أبا مريمَ الصَّلْتَ بن كثلم (٥) يقول : كانت امرأة من بنى إسرائيل متعبدة ، وكانت تُفطِر كل سبت ، فبينا هى [ذات] (٦) يوم قد وضعت إفطارها بين يديها ، جعلت تقول : مُحب يُحبُّ حبيبه ، يتشاغل بالأكل عن خدمة مُحبه ، فيُوشك أن يَقْدَم عليه رسول حبيبه وهو متشاغل بأكله عن خدمته ، فلا تَقَرُّ (٧) عينه فى لقائه ، فمكثتْ كذلك مدة لا تُفْطِر ، قال : ثم وضعت إفطارها بين يديها ، وجعلت تقول مثل ما كانت تقول ، [و] (٨) إذا شابٌّ من ناحية البيت جميل الوجه ، طيب الريح ، فقال : سلام عليك ورحمة الله يا حبيبةَ الله ، أو يا وليةَ ، قالت : وعليك السلام ، من أنت ؟ قال : أنا مَلَك الموت ، قالت : يا مَلَك الموت ، أتأذن لى أن أسجد سجدة أناجي فيها ربى ، فإذا رأيتنى قد فعلت ذلك قبضت رُوحى ؟ قال : لكَ ذلكَ ، قال : فنحَّت إفطارها ، ثم وثبت [فسجدَت] (٩) فقُبض رُوحها فى اجتهادها ، رضى الله عنها . وبالله التوفيق .

* * *

= فإن الدهر ليس بمعتب من يجزع ، ولا رادّ لما ذهب .

فالدهر ذو غِيَرٍ وصروف فقد يقبل بوجهه وضاح وأيام ملاح ، وقد يشيح ويتبدل ويتولى ويدبر .

فليصبر العاقل عليه وليحذر من تغايره ، فالدهر ما زال خاتنًا غادرًا .

وليحسن المرء الظن بربه وعليه فليتوكل ، فإنه ذو الفضل والمنة على عباده سبحانه .

(١) فى الأصل : غيره . (٢) فى الأصل : أثرًا . (٣) فى الأصل : عيب

(٤) ينبغى على العاقل أن يعتبر ويتدبر من صروف الأيام وحوادث الأزمان فكل يوم فيه عبرة وعظة ولكن ذلك لمن اعتبر .

ولا يطوف الناس مراحٌ فى ساحة وإلا تخلف بعدها ساعاتٌ من الهموم والغموم .

وكذلك الليالى والأيام لا تعرف نفسها ما يعتورها من شقاء أو نعماء إنما ذلك لقضاء الله قدره وسابق حكمته .

(٥) فى الأصل : حكيم . (٦) سقط من الأصل . (٧) فى الأصل : يقر

(٨) سقط فى الأصل . (٩) سقط فى الأصل .

ذِكْرُ الحَثِّ عَلَى لُزُومِ ذِكْرِ المَوْتِ ، وَتَقْدِيمِ الطَّاعَاتِ

حدثنا عبد الله بن محمد [1] بن سليمان السّعدىّ ، حدثنا يحيى بن أكثم ، ومحمود ابنُ غَيلان ، قالا : حدثنا الفضل بن موسى ، عن محمد بن عمرو ، عن أبى سَلَمة ، عن أبى هريرة ، قال : قال رسول الله ﷺ : « أَكْثِرُوا ذِكْرَ هَاذِمِ [2] اللَّذَّاتِ : المَوْتَ »[3] .

---

(١) فى الأصل : محمود . (٢) فى الأصل : هادم .

(٣) أخرجه الترمذى (٤٧٩/٤) كتاب الزهد ، باب : ما جاء فى ذكر الموت ، حديث (٢٣٠٧) ، والنسائى : (٤/٤) ، كتاب « الجنائز » ، باب : كثرة ذكر الموت ، وابن ماجة (١٤٢٢/٢) كتاب الزهد ، باب : ذكر الموت والاستعداد له ، حديث (٤٢٥٨) ، وأحمد (٢٩٢/٢ - ٢٩٣) ، وابن أبى شيبة (٢٢٦/١٣) رقم (١٦١٧٤) ، والحاكم (٣٢١/٤) ، وابن حبان (٢٥٥٩ - موارد) ، ونعيم بن حماد فى « زوائد الزهد » ، رقم (١٤٦) ، والخطيب (٤٧٠/٩) ، والقضاعى فى « مسند الشهاب » (٣٩١/١) رقم (٦٦٩) كلهم من طريق محمد بن عمرو ، عن أبى سلمة ، عن أبى هريرة مرفوعًا .

وقال الترمذى : حديث حسن غريب .

وقال الحاكم : صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه . ووافقه الذهبى .

وللحديث شاهد من حديث أنس بن مالك .

أخرجه البزار (٢٤٠/٤) رقم (٣٦٢٣) ، والطبرانى فى « الأوسط » ، وأبو نعيم (٢٥٢/٩)، والخطيب فى « تاريخه » (٧٢/١٢ - ٧٣) كلهم من طريق حماد بن سلمة عن ثابت ، عن أنس به .

وذكره الهيثمى فى « مجمع الزوائد » (٣١١/١٠) ، وقال : رواه البزار والطبرانى باختصار عنه وإسنادهما حسن أ . هـ .

وأخرجه القضاعى فى « مسند الشهاب » (٦٧١) من حديث ابن عمر .

وأخرجه أبو نعيم فى « الحلية » (٣٥٥/٦) من طريق جعفر بن محمد بن الحسين الزهرى ، ثنا عبد الملك بن يزيد ، ثنا مالك بن أنس ، عن يحيى بن سعيد ، عن عمر مرفوعًا .

وقال أبو نعيم : غريب من حديث مالك تفرد به جعفر ، عن عبد الملك . أ . هـ .

قال المناوى فى « فيض القدير » (٨٦/٢) : (أكثروا ذكر هاذم) بذال معجمة قاطع وبمهملة مزيل وليس مرادًا هنا كذا فى روض السهيلى قال ابن حجر ، وفى ذا النفى نظر (اللذات) الموت (فإنه لم يذكره أحد فى ضيق من العيش إلا وسعه عليه ولا ذكره فى سعة إلا ضيقها عليه) قال العسكرى : لو فكر البلغاء فى قول المصطفى ﷺ ذلك لعلموا أنه أتى بهذا القليل على كل ما قيل فى ذكر الموت =

قال أبو حاتم - رضى الله عنه : الواجب على العاقل أن يضم إلى رعاية ما ذكرنا من شُعَب العقل فى كتابنا هذا ، لزومَ ذكر الموت على الأوقات كلها ، وترك الاغترار بالدنيا فى الأسباب كلها ، إذ الموت رَحَى دوَّارة بين الخلق ، وكأس يُدَارُ بها عليهم ، لا بد لكل ذى رُوح أن يشربها ، ويذوق طعمها (١) . وهو هاذم اللذات ، ومنغِّص الشهوات ، ومكدر الأوقات ، ومزيل العاهات .

ولقد أنشدنى عبد العزيز بن سليمان : [الطويل]

أَيَا هَاذِمَ اللَّذَّاتِ ، مَا مِنْكَ مَهْرَبٌ ... تُحَــــاذِرُ نَفْسِى مِنْكَ مَا سَيُصِيبُهَا

رَأَيْتُ المَنَايَا قُسِّـــــمَتْ بَيْنَ أَنْفُسٍ ... وَنَفْسِى سَيَأْتِى بَعْدَهُنَّ نَصِيبُهَا (٢)

وأنشدنى الكريزىّ [الخفيف] :

إِنَّ مَنْ عَاشَ آمِنًا فِى سُــرُورٍ ... قَاعِدًا مِنْ سُرُورِهِ فِى غُـــرُورِ

مَـــا لِمَنْ يَذْكُرُ المَقَابِرَ وَالمَــوْ ... تَ إِذَا كَانَ عَاقِلاً مِنْ سُرُورِ (٣)

= ووصف به نظمًا ونثرًا ولهذا كان عيسى - عليه السلام - إذا ذكر عنده الموت يقطر جلده دمًا قيل : ولا يدخل ذكر الموت بيتًا إلا رضي أهله بما قسم لهم وقال أبو نواس :

ألا يا ابن الذين فنوا وماتوا ... أما والله ما ماتوا لتبــــقى

وقال أبو حمزة الخراسانى من أكثر ذكر الموت حبب إليه كل باقٍ وبغض إليه كل فان ، وقال القرطبى : ذكر الموت يورث استشعار الانزعاج عن هذه الدار الفانية والتوجه فى كل لحظة إلى الآخرة الباقية ثم إن الإنسان لا ينفك عن حالين ضيق وسعة ونعمة ومحنة فإن كان فى حال ضيق ومحنة فذكر الموت يسهل عليه ما هو فيه من الاغترار بها والركون إليها ، وقال الغزالى : الموت خطر هائل وخطب عظيم وغفلة الناس عنه لقلة فكرهم فيه وذكرهم له ومن يذكره ليس يذكره بقلب فارغ بل مشغول بالشهوات فلا ينجع ذكره فيه فالطريق أن يفرغ قلبه عن كل شيء إلا ذكر الموت الذى هو بين يديه كمن يريد السفر فإذا باشر ذكر الموت قلبه أثر فيه فيقل حركته وفرحه بالدنيا وينكسر قلبه وأنفع طريق فيه أن يذكر أشكاله فيتذكر موتهم ومصرعهم تحت التراب ويتذكر صورهم فى أحوالهم ومناصبهم التى كانوا عليها فى الدنيا ويتأمل كيف محى التراب حسن صورهم وتبددت أجزاؤهم فى قبورهم ويتموا أولادهم وضيعوا أموالهم وخلت مجالسهم وانقطعت آثارهم .

(١) فى الأصل : وذائق طعمه .

(٢) أيها الموت أنت هدام لكل بناء مقوض لكل نماء وما للخلق عنك مهرب ولا منتأى يحذرون ما يصيبهم منك فيه . .

وإنى أبصرت المنايا فرأيتها موزعة بقسم بين الخلائق وإنى آخذ نصيبى منها ، وإن طال الأمد .

(٣) إن الفَرِح البَطِرَ بغير الحق لفى غرور وعماية وغواية . .

إذ كيف يسر ويقرٍّ والموت تدمى أظافره من جراء خلبه أرواح الخلق ، وكيف يفرح ويسر من يذكر هذا ويلحظ زوار المقابر من بين صغير وكابرٍ ، ولو عقل لارعوى وتصدف عن الأفراح والتوشى .

حدثنا عمرو بن محمد حدثنا الغلابيُّ ، حدثنا مهديّ بن سابق ، قال : قرئ على قصرٍ هذه الأبياتُ [البسيط] :

هَـــذِى مَنَازِلُ أَقْوَامٍ عَهِدْتُهُـــمُ ... فِـى ظِلِّ عَيْشٍ عَجِيبٍ ، مَالَهُ خَطَرُ
صَاحَتْ بِهِمْ حَادِثَاتُ الدَّهْرِ ، فَانْقَلَبُوا ... إِلَى الْقُبُورِ ، فَلا عَيْنٌ وَلا أَثَـرُ (١)

حدثنا محمد بن إبراهيم الخالديّ ، حدثنا عبد الله بن محمد ، حدثنى إبراهيم بن عبد الملك ، حدثنى على بن سَلَمة الحلبيّ ، قال : سمعت أبى يقول : كان معاوية يقول : أنا والله من زرْعٍ قد استُحْصِدَ . ونُعى له عبد الله بن عامر بن كُرَيْز ، والوليدُ بن عُقْبة ، وكان أحدهما أكبرَ منه ، والآخر دونه ، فقال : [الطويل]

إِذَا سَارَ مَنْ خَلْفَ امْرِئٍ وَأَمَامَهُ ... وَأُفْرِدَ مِنْ إِخْوَانِهِ ، فَهْوَ سَائِـرُ

حدثنا أحمد بن محمد بن مُصْعَب الشافعيّ ، حدثنا عبد الله بن محمد ، قال : سمعت عُبيد الله بن مسلم (٢) بن زياد الهَمْدانيّ (٣) قال : سمعت عمر بن ذَرٍّ يقول :

ورث فتًى من الحى دارًا عن آبائه وأجداده ، فهدمها ، ثم ابتناها وشيدها ، فأُتِىَ فى منامه ، فقيل له : [الكامل]

إِنْ كُنْتَ تَطْمَعُ فِى الْحَيَاةِ فَقَدْ تَرَى ... أَرْبَابَ دَارِكَ سَاكِنَ الأَمْـوَاتُ (٤)
أَنَّى تُحِسُّ مِنَ الأَكَارِمِ ذِكْرَهُمْ ؟ ... خَلَتِ الدِّيَارُ وَبَادَتِ الأَصْوَاتُ (٥)

قال : فأصبح الفتى متَغَظًا ، [قد] (٦) أمسك عن كثير مما كان يصنع ، وأقبل على نفسه .

---

(١) إنى لأعرف هذه الدور والقصور ، إنها لقوم ذوى سعة وطمأنينة ، ورحبة أمن وأمان . .
بينما هم كذلك إذ صاح بهم الدهر بعد طول صمات وألحقهم بزمر الهلكى من الرمم وذوى الرفات . .
فلا تكاد تسمع لهم همسًا ، ولا ترى لهم أثرًا ولا عينًا . .

(٢) فى الأصل : سلم . (٣) فى الأصل : الهمذانى .

(٤) فى الأصل : ساكنى الأموات .

(٥) أيها الغافل الغرّ هلا اعتبرت وارعويت ، أتطمع فى الحياة وقد طمع فيها ذووك وبادوا وتركوك . .
هل تحس لهم أثرًا ، أو تسمع عند المكارم لهم خبرًا ؟! . .هيهات ، قد صفرت منهم الديار ، وطمست بعدهم الآثار .

(٦) سقط فى الأصل .

حدثنا عمر بن حفص البزّاز ، حدثنا إسحاق بن الضيف ، حدثنا جعفر بن عون ، قال : سمعت مِسْعرًا يقول : [الكامل]

وَمُشَيَّـــــدٍ دارًا لِيَسْكُـــنَ دَارَهُ سَكَنَ القُبُورَ وَدَارَهُ لَمْ يَسْكُنِ (١)

وأنشدنى ابن زنجىّ البغدادىّ - رحمه الله : [السريع]

لَوْ أَنَّنِى أُعْطِيتُ سُؤْلِى لَمَا سَـــأَلْتُ إِلا العَفْوَ وَالْعَافِيَهْ
فَكَمْ فَتًى قَدْ بَاتَ فِى نِعْمَةٍ فَسُلَّ مِنْهَا اللَّيْلَةَ الثَّانِيَهْ؟ (٢)

حدثنا حمزة بن داود بن سليمان ، بالأُبُلَّة ، حدثنى ذهل بن أبى شُراعة القيسىّ ، قال : حدثتنى سُكَيْنة - وكان علامة - قالت : قال لى أبو العتاهية : دخلت على هارون أمير المؤمنين ، فلما بَصرَنى قال : أبو العتاهية ؟ قلت : أبو العتاهية ، قال : الذى يقول الشعر ؟ قلت الذي يقول الشعر ، قال : عِظنى بأبيات شعر ، وأوجز ، فأنشدته [البسيط] :

لا تَأْمَنِ المَوْتَ فِى طَرْفٍ وَفِى نَفَسٍ وَلَوْ تَمَنَّعْـتَ بِالحُجَّابِ وَالحَـرَسِ
وَاعْلَـمْ بِأَنَّ سِهَامَ المَوْتِ قَاصِدَةٌ (٣) لِكُـــلِّ مُـــدَّرِعٍ مِنَّا وَمُتَّـــرِسِ
تَرْجُو النَّجَاةَ ،وَلَمْ تَسْلُكْ مَسَالِكَهَا إِنَّ السَّفِينَةَ لا تَجْرِى عَلَى اليَبَسِ (٤)

قال : فخر مغشيًا عليه ، أو كما قال .

---

(١) رب من جدّ وجهد واحتال ليبنى الدور ، ويشيد القصور قد وافته منيته ، وأسكنته ظلم اللحود، وأنحته عن سكن الطارف والتليد .

(٢) إنى قنوع بما أوتيت رضى بما أوليت ، ولو أن لى مسألةً مجابةً ، لما ابتغيت إلا سؤال العفو والعافية ، فإن ذلك هو خير مسئول ، وأفضل مبتغى . .

فكم من سائل للنعم قد أورثته بعدها النقم فما عوفى ولا سلم بل حرمها واستحسر أضعاف التذاذه بنعيمها .

(٣) فى الأصل : قاصدة .

(٤) ينبغى على العاقل أن يحترز لكل ممكن ، فكيف ولو كان المحذور لازم الوقوع كالموت ؟! . . إذن فليزد حذره وليكثر من التزود للقياه ، وليعلم أنه واقع وإن كان حاذره فى بروج مشيدة أو متمنعًا متحصنًا بمدحجى الحراس والحجاب . .

وليعلم أن سهام الموت مصيبة لا تخطئ مقتلاً ولو ادرع واحتمى المرء منها وتترس بكل لأمة وآلة . .

ومن كان حاذرًا حقا فميسم حذره أن يسلك مسالك النجاة ويأخذ بأسبابها وينهل من زاده كالسفينة لا بد وأن تسير على ماء لتنجو وإلا ضلت وزلت واستوقفت على اليبس . . .

حدثنا عمرو بن محمد ، حدثنا الغلابيّ ، حدثنا أبو جعفر البغداديّ (1) ، قال : قرأت على باب قصر بالسند [مجزوء الخفيف] :

نَــــزَلَ المَوْتُ مَنْـــــزِلا   سَلَبَ القَوْمَ وارْتَحَلْ (2)

فقلت : ما هذا ؟ فقالوا : مات أهل القصر كلهمْ ، فأصبحوا وهذا الكتاب على الباب، لا يُدْرَى من كتبه ، وأنشدنى البساميّ [الخفيف] :

قَـــدْ يَصِحُّ المَرِيضُ بَعْدَ إِيَاسٍ   كَـــانَ مِنْهُ ، وَيَهْلِكُ العُـــوَّادُ

وَيُصَــــادُ القَطَا فَيَنْجُو سَلِيمًا   بَعْدَ هُلْكٍ ، وَيَهْلِكُ الصَّيَّادُ (3)

قال أبو حاتم - رضى الله عنه : العاقل لا ينسَى ذكر شيء هو مترقّب له ، ومنتظرٌ وقوعه من قَدَم إلى قدم ، ومن لحظة إلى شَزْرة ، فكم من مكرَّم فى أهله ، معظَّم فى قومه ، مبجَّل فى جيرته ، لا يخاف الضيق فى المعيشة ، ولا الضنك فى المصيبة ، إذ ورد عليه مُذَلِّل الملوك ، وقاهر الجبابرة ، وقاصم الطُّغاة ، فألقاه صريعًا بين الأحبة (4) وجيرانه ، مفارقًا لأهل (5) بيته وإخوانه ، لا يملكون له نفعًا ، ولا يستطيعون عنه دفعًا . فكم من أمة أبادها (6) الموت ، وبَلْدة [قد] (7) عطّلها ، وذات بعل قد أرملها ، وذى أب أيتمه ، وذى إخوة أفرده .

فالعاقل لا يغتر بحالة نهايتها تؤدِّى إلى ما قلنا ، ولا يركَن إلى عيش مَغَبَّته ما ذكرنا، ولا ينسى حالة لا محالة هو مُوَاقِعُها ، ويومًا لا شك يأتيه ، إذ الموت طالبٌ حَثِيثٌ ، لا يُعجزه المقيم ، ولا ينفلت منه الهارب .

---

(1) فى الأصل : الهراوى .

(2) إن الموت ليعم الخلائق ، ولا يبقى على أحدٍ ، وإذا ما حل بمنزل استحل القوم سلبًا ونهبًا وما يبقى لهم عينًا ولا أثرًا . . . ثم يرتحل من حيث جاء .

(3) إلا إن الموت يسعى بقضاء ربه وقدره وكل إنسان مؤجل بأجل ورهن ميقات لا يجوزه ولا يعدوه . . ومن عجائب الأمور أن المريض قد يشارف الموت ويشرف على الهلاك غير أنه ينجو ويسلم وَيَهْلِكَ عواده وزواره فسبحان من أمات بلا علة ، وأطال أجل صاحبها . وسبحان من أهلك العواد ، وأطال بقاء المعاد .

وقد ينجو فرخ الصيد كالقطا ، ويهلِك من ابتغى هلاكه وصيده فيبقى الْمُبْتَغَى رهين الردى ويذهب ويردى من ابتغى له الردى . . .

(4) فى الأصل : أحبته .

(5) فى الأصل : أهل .

(6) فى الأصل : قد أبادها .

(7) سقط فى الأصل .

ولقد حدَّثنا محمد بن إبراهيم الخالدىّ ، حدثنا عبد الله بن محمد ، حدثنى سَلَمة بن شبيب ، حدثنا سهل بن عاصم قال : سمعت الوضّاح بن حسّان يقول : سمعت ابن السماك يحدث ، قال : بينما صياد فى الدهر الأول يصطاد السمك ، إذ رمى بشبكة فى البحر ، فخرج فيها جُمجمة إنسان ، فجعل الصياد ينظر إليها ويبكى ، ويقول : عزيز، فلم تُترَك لعزك ، غنىّ ، فلم تترَك لغناك ، فقير ، فلم تترك لفقرك ، جواد ، فلم تترك لجودك ، شديد ، فلم تترك لشدتك ، عالم ، فلم تترك لعلمك ؟ يردد هذا الكلام ويبكى .

وأنشدنى الكريزىّ [البسيط] :

أمْـــوَالُنَا لِذَوِى المِيرَاثِ نَجْمَعُهَـــا ... وَدُورُنَا لِخَرَابِ الدَّهْـــرِ نَبْنِيهَـــا
وَالنَّفْسُ تَكْلَفُ بِالدُّنْيَا ، وَقَدْ عَلِمَتْ ... أَنَّ السَّلامَـــةَ فِيهَا تَرْكُ مَا فِيهَـــا
فَـــلا الإِقَامَةُ تُنْجِى النَّفْسَ مِنْ تَلَفٍ ... وَلَا الفِـــرَارُ مِنَ الأَحدَاثِ يُنْجِيهَـــا
وَكُـــلُّ نَفْسٍ لَهَا زَوْرٌ يُصَبِّحُهَـــا ... مِـــنَ المَنِيَّةِ يَوْمًا أَوْ يُمَسِّيهَـــا (١)

حدثنا عمر بن محمد ، حدثنا الغلابىّ ، قال : سمعت (٢) ابن واقد المدينىّ (٣) ، [قال] (٤) : حدثنا عبد المنعم الرياحىّ ، قال : فُقد مالكُ بن دينار يومًا ، فقالوا : أين كنتَ يا أبا يحيى ؟ قال : خرجت إلى الأُبُلّة ، قالوا : ما أحسنُ ما رأيت ؟ قال : ما رأيت شيئًا أُعجبتُ به ، إلا أنى رأيت امرأةً تصلى ، فقالوا له : يا أبا يحيى ، فما أعجبُ شىء رأيت ؟ قال : رأيت بالبحرين قصرًا مُشيَّدًا ، وإذا على بابه مكتوب [الوافر]:

طَلَبْتُ العَيْشَ أَسْعَدَ نَاعِمِيهِ ... وَعِشْتُ مِنَ المَعَايِشِ وَالنَّعِيمِ

---

(١) إنما نجمع الأموال لورائنا لا لأنفسنا ، ونبنى الدور ونشيد القصور للدهر يخربها ، ويُبيدُ ساكنيها . . .

والنفس شرهة طمعة ذات كلفة بالدنيا ، مع علمها وإخبارها بأن سلامتها ونجاتها بنبذها وهجران متاعها .

وكل ما هو مقدور فهو واقع ماله من دافع فلا الإقامة تنجى المرء من هذا ، ولا الهرب والفرار من الحدثان ينجيها . .

وكل نفس لها طارق من المنية بصباحٍ أو مساء لا يعدوها بل يقتحمها ويستلبها ويذهب بها إلى ثمٍّ.

(٢) فى الأصل : ثنا شعيب . (٣) فى الأصل : المرى . (٤) سقط فى الأصل .

فَلَـــمْ أَلْبَثْ وَرَبُّ النَّاسِ طَـوْرًا سُلِبْتُ (١) مِنَ الأَقَارِبِ وَالحَمِيمِ (٢)

وأنشدنى الأبرش [البسيط] :

وَلِلنُّفُــوسِ وَإِنْ كَانَتْ عَلَى وَجَـلٍ مِنَ المَنِيَّــةِ آمَــالٌ تُقَوِّيهَـــا
وَالمَرْءُ يَبْسُطُهَـــا ، وَالدَّهْــرُ يَقْبِضُهَـا وَالنَّفْسُ تَنْشُرُهَا (٣)، وَالمَوْتُ يَطْوِيهَا (٤)

أنبأنا حمزة بن داود بن سليمان بالأُبُلَّة ، حدثنا الهِدادىّ ، حدثنا جليس الكلْبىّ ، عن سعيد بن أبى عَروبة ، عن قتادة ، قال : لَقِينى عِمران بن حِطَّان ، فقال لى : يا أعمى ، إنى عالم بخلافك ، ولكنك رجل تحفظ ، فاحفظ عنى هذه الأبيات : [الكامل]

حَتَّى مَتَى تُسْقَى (٥) النُّفُوسُ بِكَأْسِهَا رَيْبَ المُنُــونِ ، وَأَنتَ لاهٍ تَرْتَـعُ ؟
أَفَقَــدْ رَضِيتَ بِأَنْ تُعَلَّــلَ بِالمُنَى وَإِلَى المَنِيَّةِ كُــلَّ يَــوْمٍ تُدْفَــعُ ؟
أَحْــلامُ نَوْمٍ ، أَوْ كَظِلٍّ زَائِلٍ إِنَّ اللَّبِيبَ بِمِثْلِهَـــا لا يُخْــدَعُ
فَتَــــزَوَّدَنَّ لِيَوْمِ فَقْرِكَ دَائِبًا وَاجْمَعْ لِنَفْسِكَ لا لِغَيْرِكَ تَجْمَعُ (٦)

حدثنا محمد بن نصر بن نوفل المَرْوَزىّ ، قال : سمعت أبا داود السِّنْجىّ يقول :

---

(١) فى الأصل : أن سُلِبَتْ .

(٢) لقد طلبت من المعاش أفضله وعشت فيه أنعمه ورغدت ونعمت ، ونلت ما ابتغيت . ولكن ذلك لم يدم ولم يستقر إنما تنكبتنى الحياة وارتفقتنى المنية واستلبت من النعم والأقارب والرفقة . .

(٣) فى الأصل : ينشرها .

(٤) إنما النفس طامعة مشرئبة تطل على آمالها وتهوى إحقاقها وإن كانت ، متيقنة من حلول المنايا ووجلة من تخطفها ونشوبها . .
وهذه الآمال لا تشيب ولا تفتر فتارة يتمادى فيها المرء ويطيلها ، وتارة يقوضها الدهر ويقلصها ، ثم تبعثها مكامن النفس ، ثم يعم الموت ويغشى فيطويها طى السجل للكتب فلا تنشر بعد .

(٥) فى الأصل : يسقى .

(٦) ينبغى على ذى اللب أن يفيق ويرعوى ، ويعتبر ويفيد مما حوله ، فليأخذ حذره وليعد الزاد على ما هو مقبلٌ عليه نفوس من كئوس المنية تجرع ، وأجسادٌ تدثر ولا ترجع إنَّ هذا لإحدى الكبر ، ولعبرة من يعتبر .
أم إن اللهو والأمانى والغرور والدنيا قد أسكر وأذهل وأنسى المنية وعواقبها . . . !!
إنما الدنيا بآمالها وحطامها ، كحلم لنائم ، أو كظلٍ زائل ، ولا يغرر بهذا لبيبٌ عقول . . .
إنما العاقل من يتزود لرحيله ويدأب فى الجمع لنفسه لا لغيره ، وقد صدق الله إذْ يقول : ﴿ قوا أنفُسكم وأهْلِيكم . . ﴾ .

خرج أبو مُعاذ النحويّ يومًا على أصحابه ، فقال : إنه قد نُعيت إلىّ نفسى البارحة ، أتانى آت فقال [الكامل] :

يَأَيُّهَا الإِنْسَـــانُ ، إِنَّكَ مَيِّـــتٌ   عَمَّا قَلِيلٍ ، قُمْ لِنَفْسِـــكَ وَاقْعُـــدِ
فَكَـــأَنَّ مَا قَدْ كَانَ لَمْ يَكُ إِذْ مَضَى   وَكَأَنَّ مَا (١) هُوَ كَائِنٌ فَكَأَنْ قَدِ (٢)

حدثنا الحسن بن سفيان ، حدثنا حرملة بن يحيى ، قال : سمعت الشافعىّ كثيرًا ما يُنْشد :

تَمَنَّى رِجَالٌ أَنْ أَمُوتَ ، وَإِنْ أَمُـــتْ   فَتِلْكَ سَبِيـــلٌ لَسْتُ فِيهَا بِأَوْحَـــدِ
فَقُلْ لِلَّذِى يَبْقَى خِلافَ الَّذِى مَضَى :   تَهَيَّـــأْ لأُخْرَى مِثْلِهَا فَكَأَنْ قَدِ (٣)

حدثنا أحمد بن محمد الشافعىّ ، حدثنا عبد الله بن محمد ، حدثنى إسماعيل بن عبد الله العِجلىّ قال : أنشدنا رجل ونحن فى المقابر [الهزج] :

أَلا يَا عَسْكَـــرَ الأَحْيَا   ءِ هَـــذَا عَسْكَـــرُ الْمَوْتَى
أَجَـــابُوا الدَّعْوَةَ الصُّغْرَى   وَهُمْ مُنْتَظِرُو (٤) الْكُبْرَى
يَحُثُّـــونَ عَلَى الـــزَّادِ   وَمَا زَادٌ سِـــوَى التَّقْـــوَى
يَقُـــولُونَ لَكُمْ : جِدُّوا   فَهَـــذَا آخِـــرُ الدُّنْيَا (٥)

---

(١) فى الأصل : وكأنما .

(٢) أيها الغافل الساهى اللاغى ألا أفق ، وهبّ من نومك فإن المنية جائية ، فقم قيامًا على أمشاط رجليك ثم افزع قد يدرك الأمن من فزعا ، ولا تفتأ قاعدًا قائمًا حذرًا مترقبًا مستعدًا لطارقك الذى لا يبرح إلا بِروحك . .

وحين تَجئ المنية فلا تُدفع ، ولا تُرجع ، وحينها تتعضم الآمال ، وتنقض الآجال ، ويضيع حينها كل ما كان ، ويستوي ما لم يكن بما قد كان ، وذلك لجلال وقعها وعظم خطرها إذْ هى الداهية الدهياء . .

(٣) لقد تمنى حسادى والحقدة موتى ، ولعمرِى فما أحزن من ذلك ولا أهتم له ، إنما هذه طرق كلٌ سالكها أحبابى وحسادى سابقِىّ ولاحقى . .

وليعلم كل من بقى أنه نازل حيث نزل سابقه ، فليهنئ لنفسه من أمره رشدًا ، فكأن قد حلت المنون وكلنا لطريقها سالكون . .

(٤) فتنظروا .

(٥) يأيها الأحياء أفيقوا وانتبهوا ، فقد التحد الأحياء قبلكم ودرجوا إلى أضيق الأرض ، وتلك معسكراتهم تشهد بهمودهم وخمودهم بعد هياجهم وهم قد أجابوا الدعوة الصغرى وهى دعوة الموت وثمّ غيرها ينظرونها وهى دعوة البعث يوم الجمع الأكبر حيث الخلائق طرا ، والأناس جميعًا . =

قال أبو حاتم - رضى الله عنه : إن الله جل وعلا خلق آدم وذُرِّيته من الأرض ، فأمشاهم على ظهرها ، فأكلوا من ثمارها ، وشربوا من أنهارها ، ثم لا محالة تنزل المنية بهم ، وتغنيهم [1] عن السعى والحركات ، مع تعطُّل [2] الجُثَث والآلات ، ثم تعيدهم إلى الأرض التى منها خلَقهم ، حتى تأكل لحومهم كما أكلوا أثمارَها ، وتشرب دماءهم كما شربوا من أنهارها ، وتقطع أوصالهم كما مَشَوا على ظهرها [3] ، والقبر أول منزل من منازل الآخرة ، وآخر منزل من منازل الدنيا ، فطُوبَى لمن مهد فى دنياه لقبره ، وقدم فيها لآخرته ، فكم عفَّرت الأرض من عزيز [4] ، وأفقدت العَيْن من أنيس .

حدثنى محمد بن إبراهيم الخالدىّ ، حدثنا عبد الله بن محمد ، حدثنى محمد بن عباس ، حدثنا إبراهيم بنِ يزيد ، قال : رأيت أعرابيا وقف على مَقْبرَةٍ وهو يقول [الطويل] :

لِكُــــلِّ أُنَاسٍ مَقْبَرٌ بِفِنَائِهِــــمْ فَهُـــمْ يَنْقُصُونَ ، وَالْقُبُورُ تَزِيدُ
وَمَا إِنْ تَرَى دَارًا لِحَىٍّ قَدَ اقْفَرَتْ وَقَبْــرًا لِمَيْتٍ بِالْفِنَـاءِ جَدِيــدُ
فَهُمْ جِيرَةُ الأَحْيَاءِ ، أَمَّا مَحَلُّهُـمْ فَدَانٍ ، وَأَمَّا الْمُلْتَقَى فَبَعِيــدُ [5]

[أنشدنى أبو غسَّان سلمةُ بنُ مضر لابن الزخامى : [الطويل]

إِذَا مَا أَتَتْ لِلْمَــــرْءِ سَبْعُــونَ وارتَفَعت عَلَيْه مَعَ السَّبعِينَ عَشْرٌ كَوَامِلُ
وَمَا صَاحِبُ السَّبْعِينَ وَالعَشْرِ بَعْدَهَا بِأَخْــوَف مِمَّنْ حَنَّكَتْــهُ القَوَابِــلُ

= وهم قد أفضوا إلى حساب بلا عمل لذا فكأنهم يهتفون بكم أن تزودوا واستعدوا ، ولتعلموا أنه لا زاد سوى تقوى الإله « فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى » . .

ويهتفون بكم أن شمروا عن سواعد الجد ، وانتبهوا فقد ذهبت الدنيا وأنتم فى آخرها وعما قريب لها تاركون . .

(١) فى الأصل : يفنيهم . (٢) في الأصل : تعطيل .

(٣) فى الأصل : ظهورها . (٤) فى الأصل : غريس .

(٥) إنما الموت للناس بالمرصاد فكل الناس وارد حياضه ومقيمٌ بفنائه ، والناس رهن للمقابر فبهم تتزايد وهم ينقصون . .

ولطالما يبصر العاقل فيرى خراب بيوت كانت ذات جِدَةٍ واستبدل صاحبها عنها قبرًا جديدًا يسكنه دون بيته الذى هجر وأقفر . .

فأصحاب القبور قد جاورونا على الأرض هم بالقبور ونحن بالقصور والدور ، فهم لنا جيران ومحلهم لنا دانٍ وعمَّا قريبٍ له واردون .

وَيَكُـــــنَّ آمَالاً يُؤَمِّلُهَـــا الفَتَى وَفِيهِنَّ لِلرَّاجِينَ حَـــقٌّ وبَاطِلُ] (١)

وأنشدنى أحمد بن عبد الله الكَرَجى لعمر بن شَبَّة فى نفسه : [الرمل]

يَا ابْنَ سَبْعِـينَ وَعَشْرٍ وَثَمَـــانٍ كَامِـــلاتِ
غَرَضًا لِلْمَوْتِ مَشْغُـو لا بِخُـذْ مِنِّى وَهَاتِ
وَيْكَ لَوْ تَعْلَمُ مَا تُلْقَى بِهِ بَعْدَ المَمَاتِ
مِنْ صِغَارٍ مُوبِقَـــاتٍ وَكِبَـــارٍ مُهْلِكَـــاتِ
يَابنَ مَنْ قَدْ مَاتَ مِنْ آ بَائِهِ وَالأُمَّهَـــــاتِ
هَلْ تَرَى مِنْ خَالِدٍ مِنْ ذِى طُغَـــاةٍ وَعُتَـاةٍ ؟
إِنَّ مَنْ يَبْتَـــاعُ بِالدِّيـ نَ خَسِيـسَاتِ الحَيَاتِ
لَغَبِـــىُّ الرَّأْيِ مَخْفُو فُ بِطُولِ الحَسَرَاتِ(٢)

حدثنا عمرو بن محمد ، حدثنا الغلابى ، حدثنا شعيب بن واقد المرى عن عبد المنعم الرياحىّ قال : سمعت صالحًا (٣) المرىّ يقول : دخلت المقابر يومًا فى شدة الحرّ ، فنظرت إلى القبور خامدة كأنهم قوم صُموت ، فقلت : يا سبحان الله ! من يجمع بين أرواحكم وأجسامكم بعد افتراقها ، ثم يحييكم وينشركم من طول البلى ؟ قال : فنادانى مناد من بين تلك الحفر : يا صالح ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ تَقُومَ السَّمَاءُ وَالأَرْضُ بِأَمْرِهِ ، ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِنَ الأَرْضِ إِذَا أَنْتُم تَخْرُجُونَ ﴾ قال : فسقطت والله مغشيا علىَّ .

* * *

(١) سقط فى ط .

(٢) يا من جاوز الثمانين وزدت عليها ثمانى سنين ، أفق فقد تم ميقاتك وكمل هلاكك ، ووفيت حظك من الدنيا . .

أنت الآن قصيد للموت ، رهين لساهمه ، فكيف بمثلك يتشاغل بالدنيا وما يزال يأبه ، لخذ ، وهات، . . .

ويحك ويلك أما تعلم أنك ميت ، أما توقن أنك محاسب مؤاخذ رهن لما ملكت يمينك .

أما تعلم أنك مجزىٌ عن الصغير والكبير ، والحقير النقير . .

أيها الباقى بعد آبائه وأمهاته أيها الفانى بعدهم واللاحق بهم . . !

أتظن أنك خالدٌ ، ومتروك سرمدًا . . وهل خلد قبلك الطغاه العتاة من الطاغين والولاة .

لقد رمت شططا ، وركبت جهلاً ، ولقد تنكبت الطريق وعدمته إذْ تستبدل الدر بالحصى والخسيس بالنفيس .

ومن ينتهج هذا فإنه مغبون ، غفل غر ، قرين للحسرة ، والندم ، رهين للذلة والألم .

(٣) فى الأصل : صالح .

[خاتمة]

قال أبو حاتم - رحمه الله ورضى عنه : قد ذكرنا اليسير من الكثير من الآثار ، والقليل من الجسيم من الأخبار ، فى كتابنا هذا ، بما نرجو أن القاصد إلى سلوك سبيل ذوى الحِجا ، والسالك مَقصدَ سبيل أولى النُّهَى ، يكون له فيه غُنْية ، إن تدبرها واستعملَها ، وإن كنا تنكَّبنا طُرُق المسانيد ، وتخريج الحكايات ، وأناشيد [1] الأشعار، إلا ما لم نجد بُدا من إخراجها ، كالإِيماء إلى الشىء ، والإِشارة إلى القَصد .

جعلنا الله ممن دعته تباشير التوفيق ، إلى القيام بحقائق التحقيق للتمكن من رحمته ، وطلب الوصول إلى محل أهل ولايته إنه منتهى الغاية عند رجاء المؤمنين ، والمانُّ على أوليائه بمنازل المقربين .

وصلى الله على محمدٍ خاتمِ النبيِّين ، وآله ، وسلم تسليمًا كثيرًا مباركًا ، والحمد لله رب العالمين .

* * *

(١) فى الأصل : ونشدات .

فهرست كتاب
روضة العقلاء

الصفحة

سند الكتاب إلى مُؤلِّفه ٧

خُطْبة المؤلف ٨

ذكر الحث على لزوم العقل ، وصفة العاقل اللبيب ١٠

ذكر إصلاح السرائر ، بلزوم تقوى الله ٢٧

ذكر الحث على طلب العلم ، والمداومة على طلبه ٤١

ذكر الحث على لزوم الصمت ، وحفظ اللسان ٦٠

ذكر الحث على لزوم الصدق ، ومجانبة الكذب ٧٦

ذكر الحث على لزوم الحياء ، وترك القِحَة ٨٥

ذكر الحث على لزوم التواضع ، ومجانبة الكِبْر ٩١

ذكر استحباب التَّحبُّبِ إلى الناس ، من غير مقارنة المأثم ٩٩

ذكر استحباب لزوم المداراة ، وترك المُدَاهَنَة مع الناس ١١٠

ذكرُ استحباب إفشاء السلام ، وإظهار البشر والتبَسُّم ١١٩

ذكر ما أُبيح من المِزاح للمرء ، وما كره له منه ١٢٥

ذكر استحباب الاعتزال من الناس عاماً ١٣٢

ذكر استحباب المؤاخاة للمرء مع الخاصِّ ١٣٩

ذكر كراهية المعاداة للناس ١٥٢

ذكر الحث على صحبة الأخيار ، والزجر عن عِشْرةِ الأشرار ١٦١

ذكر كراهية التلون فى الوداد بين المتآخيْن ١٦٨

ذكر ائتلاف الناس واختلفهم ١٧٨

ذكر الحث على زيارة الإخوان وإكرامهم ١٩٢

ذكر صفة الأحمق والجاهل معاً ١٩٧

ذكر الزجر عن التجسس ، وظن السوء ٢٠٧

ذكر الحث على مجانبة الحرص للعاقل ٢١٨

ذكر الزجر عن التحاسد والبغضاء ٢٢٦
ذكر الحث على مجانبة الغضب ، وكراهية العجَلة ٢٣٣
ذكر الزجر عن الطمع إلى الناس ٢٤٠
ذكر الحث على مجانبة المسْألة وكراهيتها ٢٤٨
ذكر الحث على لزوم القناعة ٢٥٤
ذكر الحث على لزوم التَّوكل على مَنْ ضَمِن الأرزاق ٢٦٢
ذكر الحث على لزوم الرضا بالشدائد والصبر عليها ٢٦٨
ذكر الحث على لزوم العفو عن الجانى ٢٧٩
ذكر صفة الكريم واللئيم ٢٨٧
ذكر الزجر عن قَبُول قوْل الوُشَاةِ ٢٩٤
ذكر استحباب قبول الاعتزار من المُعْتذِر ٣٠٣
ذكر الحث على لزوم كتمان السرِّ ٣١٠
ذكر المشورة فى أوقات الضرورات ٧١٣
ذكر الحث على لزوم النصيحة للمسلمين كافَّةً ٣٢٤
وصية الربيع بن خيْثم ٣٣١
وصية الخَطَّاب بن المعلَّى المخزومىُّ ابنَه ٣٣٢
ذكر الزجر عن تهاجُر المسلمين كافةً ٣٣٨
ذكر الحث على لزوم الحلْم عند الأذى ٣٤٤
ذكر الحث على لزوم الرِّفْق فى الأمور ، وكراهية العجلة فيها ٣٥٣
ذكر الحث على تعلّم الأدب ، ولزوم الفصاحة ٣٥٩
ذكر إباحة جمع المال للقائم بحقوقه ٣٦٦
ذكر الحث على إقامة المرُوءَات ٣٧٣
باب الحثِّ على لزوم السخاء ، وترك البخْلِ ٣٨١
ذكر الزَّجْر عن ترك قبول الهدايا من الإخوان ٣٩٥
ذكر استحباب التفريج عن الناس بقضاء الحوائج ٤٠١
ذكر الحثِّ على إعطاء السؤال ، وطلب المَعَالِى ٤٠٩
ذكر الحث على الضيافة ، وإطعام الطعام ٤١٦

ذكر الحث على المجازاة على الصَّنائع ٤٢٢
ذكر الحث على سياسةِ الرِّيَاسَةِ ، ورِعَايَةِ الرَّعيَّة ٤٣٠
ذكر الدنيا وتَقَلُّبها بأهلها ٤٤١
ذكر الحث على لزوم ذكر الموْت ، وتقديم الطاعات ٤٥٠
خَاتِمَةٌ ٤٦٠

* * *